

جنة الصداقة

تأليف

الدكتور رياض شمس

تقديم

الدكتور إسماعيل سراج الدين

٢٠١٦



ISBN:978-977-452-340-9



جَنَّةُ الصَّدَاقة

تأليف

الدكتور رياض شمس

تقديم

الدكتور إسماعيل سراج الدين

٢٠١٦



الإشراف العام
إسماعيل سراج الدين

المشرف التنفيذي
نهى عمر

المراجعة اللغوية
أحمد محمد شعبان
سماح رضوان

التصميم الجرافيكي
صفاء الديب
أمينة حسين

جَنَّةُ الصَّدَاقة

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء - النشر (فان)

شمس، رياض، 1900-1977.

جنة الصداقة / تأليف رياض شمس. — الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية ، 2015.

ص. سم.

تدمك 978-977-452-340-9

1. الصداقة. 2. العلاقات الإنسانية. أ. العنوان.

ديوي – 177.62 2015785733

ISBN: 978-977-452-340-9

رقم الإيداع: 2015/25871

الفهرس

الكتاب الأوّل
تعريف الصداقة وتاريخها وعمومياتها

الباب الأوّل—التعريف بالصداقة

الباب الثاني—الصداقة عبر العصور

الباب الثالث—أهمية الصداقة، ومزاياها

الباب الرابع—القول باستحالة الصداقة؛ وذم الصداقة والأصدقاء

الكتاب الثاني
مؤهلات الصداقة ومعوقاتها وأسباب قيامها

الباب الأول—مؤهلات الصداقة، ومعوقاتها

الباب الثاني—دوافع عقد الصداقة وأسباب قيامها

الباب الثالث—أركان الصداقة وشروطها

الكتاب الثالث
انعقاد الصداقة

الباب الأول—اختيار الأصدقاء؛ وعددهم

الباب الثاني—أنواع الصداقة

الكتاب الرابع
عوامل استتباب الصداقة

الباب الأوّل—معاملة الصديق

الباب الثاني—التزامات الصداقة في حياة الصديق

الكتاب الخامس

انقضاء الصداقة

الباب الأوَّل—انقضاء الصداقة في حياة الصديقين

الباب الثاني—انقضاء الصداقة بموت الصديق

تقديم

عندما طالعت الكتاب الذي وضعه الدكتور رياض شمس عن الصداقة تذكرت المقولة المبدعة التي ذكرتها هيلين كيلر «أن تسير مع صديق لك في الظلام، خير من السير بمفردك في النور». الحديث عن الصداقة شيء مبهج، لأنه يضفي على الحياة نشوة وسعادة، ويجعل النفس دائمًا في حوار متعدد مع آخرين «ديالوج» بدلاً من الانكفاء على الذات، والانخراط في حوار حصري مع النفس «مونولوج».

مَن منا ليس له صديق؟ الصداقة «جنة» حسب تعبير كاتبنا. المتصوفة والرهبان والنسَّاك والمتعبدون والمتأملون وأصفياء النفس والقلب والعقل تطلعوا إلى الصداقة مع الخالق، يسرون إليه بما في نفوسهم، ويضيء قلوبهم وأفهامهم من قبس الهدى الرباني، وهناك أشكال من الصداقة البشرية المتنوعة: صداقة الشخص مع رفيق له في الحياة، سواء كانت زوجة أو أولادًا أو أقرانًا أو شيخًا أو معلمًا، إنه تلاقي الأرواح والأفكار، والفهم المتبادل، المشاركة الوجدانية، المساندة، التعاضد، الشعور بما يخالج نفسك قبل أن تنطق به شفتاك. الشخص المحب يطلع على أفكار من يحبه قبل أن ينطق بها. تكفي نظرة إلى عينيه، ملامح وجهه، حركة يديه، تواتر أنفاسه.

عالم الصداقة البديع نسبح في دروبه مع الدكتور رياض شمس الذي يقدم نموذجًا مصريًا خالصًا لشخص منفتح على الأديان والثقافات، يلتمس منها المعرفة، والعمق، والحكمة، والاستنارة بغية الارتقاء بالنفس والمجتمع.

يتحدث عن أصدقائه بحب واحترام دون أن يذكر أسماءهم، يحتفظ بها لذاته، ويخبئها في نفسه، علَّه يرسل رسائل مستنبطة، هم وحدهم يلتقطونها فهي علاقة عميقة تخفى على الرائي في فترات الحياة العادية. هنا أتذكر أبياتًا من شعر نزار قباني:

من أنتِ.. من رماك في طريقي؟

من حرّك المياه في جذوري؟

وكان قلبي قبل أن تلوحي

مقبرةً ميّتة الزهور

نعم الصداقة «جنة» بتعبير الدكتور رياض شمس، تزدهر وتشرق، تلتقي الأرواح في رحابها الفسيحة ، وينتشر بين جنباتها شذى العطر الجميل. وفي بحثه عن الصداقة الحقيقية تناول كاتبنا معانيها، تراثها الديني والفلسفي، دوافعها ومعوقاتها، أشكالها وتحدياتها، وكذلك العوامل التي تضمن بقاءها ونموها.. واختار لذلك مقولة السيد المسيح الخالدة «كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم». وفي معرض بحثه استعان بآيات من القرآن الكريم للتدليل على أفكاره العميقة في الصداقة، وهو بذلك يثبت أن المثقف المصري الأصيل، قد يكون مسيحي الديانة مثل كاتبنا، لكنه مطلع، ومنفتح على الثقافة العربية والإسلامية والعالمية، وهو دائمًا ما نرجوه في وطن رسمت تعددية العقيدة والفكر فصول مسيرته الإنسانية.

إننا بصدد مفكر مصري رصين، له باع طويل في العمل العام، مما أثر في تكوينه، وفي موسوعية ثقافته. إضافة إلى أسلوبه ولغته الراقية وعرضه لآرائه في سلاسة ووضوح.

ولد الدكتور رياض شمس (١٩٠٠-١٩٧٧م) في مطلع القرن العشرين وشهد أحداثه الكبرى عالميًّا وإقليميًّا ومحليًّا، مما أثر في تكوينه. درس القانون، وحصل على الدكتوراه في موضوع مهم «الحرية الشخصية في التشريع الجنائي المصري» عام ١٩٣٤م، وهو ما يكشف عن مسألة أساسية؛ كيف أن مساجلات ذلك الحين في مصر أثرت في اتجاهاته، أولى عناية خاصة بالدراسات القانونية في مجال الحريات الإعلامية، وكان أول من طالب بإلغاء الحبس الاحتياطي في جرائم النشر، وهو ما أخذ به قانون الصحافة الذي صدر عام ١٩٧٠م، وانشغل بالكتابة في الصحف إلى جانب عمله في مهنة المحاماة. ولم يشغله عمله المهني عن النشاط في المجال العام، كان عضوًا في الهيئة الوفدية، وانتخب عضوًا في مجلس النواب عام ١٩٥٠م عن دائرة «الموسكي» في قلب القاهرة، وألقى في حفل انتخابه الأستاذ وديع فلسطين المثقف المرموق كلمة بديعة قال فيها «تزهو بك الصحافة مشرعًا بعد أن زهت بك موجهًا للرأي العام ومحاميًا عن الحريات وذائدًا عن حقوق مضيعة ومربيًا جليلاً».

وإذ تفخر مكتبة الإسكندرية بأن تقدم للقارئ كتابًا مهمًّا عن الصداقة يحوي الثقافة، والعلم، والخبرة، والنظرة الإنسانية العميقة، ونكرم كاتبًا مصريًّا من رموز مصر الشرفاء، تعددت اهتماماته في الحياة، وتنوعت خبراته، وتعمقت بصمته في مجالات عديدة من شئون مصر والمصريين.

د. إسماعيل سراج الدين

دعـــاء

توكلتُ عليك يا أعلى رفيق، وأوفى صديق، مستفتحًا بذكرك، جلّ شأنك؛ مسبحًا بحمدك، مستمدًّا العون من لدنك؛ فتقبل يا ذا الجلال، ويا مصدر المحبة والكمال، وعنوان الفضيلة والجمال؛ واشدد بقوتك أزري؛ وكلِّلْ بالتوفيق جهدي.

الإهداء

إلى أمّي وأبي: أول صديقين، وألصق حبيبين، من مارست الصداقة المثلى في رحاب قلبيهما الحانيين، وعقليهما الرائدين، ونفسيهما الراضيتين.

إلى قرينتي: التي كانت صداقتها قوة في أقسى ساعات الحياة، وضياءً يجلو ظلماتها؛ والتي حققت بإيمانها ونصيحتها، وصبرها وشجاعتها؛ المثلَ الحقَّ، للصديق الصَّدْق.

إلى ابنتيَّ اللتين أعتزُّ بصداقتهما الحلوة: أمحّص معهما أفكاري، وأبادلهما المحبة الصافية، والمشورة الخالصة، والمشاركة الحقّة، والثقة المطلقة، والاطمئنان إلى المستقبل، والابتهاج بالحاضر، والأنس بالماضي.

إلى الصديق الراحل، الذي وقف إلى جوارنا أمام القضاء، وهو إمام المحاماة وحجتها، وابن بجدتها؛ فعصف بالحكم المطعون وذرّاه في الهواء هباء، وإن لم يسع محكمة النقض إلا تأييد الإدانة لغير أسباب محكمة الجنايات؛ إذ كانت تبرئة خصيم الملك، تفوق طاقة البعض.

إلى الصديق الذي كانت مودته واهتمامه سببًا في اتخاذ المحاماة صناعة، وكنا قد آثرنا الذَّوْدَ عن حِيَاضِ الوطن كله، على الدفاع عن حقوق واحد من أهله. وليزيدن من فضله

أن المحاماة التي مارسناها، أتاحت لنا الدفاع عن الدستور والحريات، في وجه الملوك والحكومات.

إلى صديقنا الذي طالما أنصتنا إليه خطيبًا منقطع القرين، يَقْرَعُ الأسماعَ بروائع لفظه داعيًا إلى الفضيلة، مترنمًا بالمثل الأعلى؛ والذي كانت صحفه منبرًا لقلمنا، وميدانًا لجهادنا في سبيل الاشتراكية والحرية.

إلى صديقنا الذي كان يتخذ من مكتبنا ندوة نتدارس فيها مشاكل الوطن، ونتبادل إعداد البحوث القومية وإلقاءها، وتمحيصها. إلى الكاتب القويّ الحجة، والسياسيّ المحنّك، والمفكر المبدع، والوطني المتفاني، الذي ما عرف في حياته غير الجهاد في صبر، مع الاستزادة من العلم؛ فأكرمه الله باختياره إلى جواره واقفًا يدوّي صوته في أسماع مئات من ساسة العالمين مجتمعين من حوله، يصفّقون لقوله، ويستزيدون من فضله: ساكتين وهو قائل، جالسين وهو قائم، ينثر درره على الدنيا من فوق أعلى منابرها.

إلى صديقنا الجليل، الذي ائتمننا على أدق أسراره، وكان يطالع مقالنا اليومي على المجتمعين في داره، من مريديه وزواره؛ والذي عهد إلينا قرب النهاية بالمشورة والتدبير، ولكن بعد فوات الفرصة ودنو المصير.

إلى الذين لم يسعدهم الحظ أو تسعفهم المقادير، بأن يردوا نبع الصداقة النمير، لعلهم يرتوون يومًا من منهلها العذب.

إلى من أتاحت لهم الظروف أن يظفروا بلمحات من الصداقة الحقّة، عسى أولئك ألا تفتر عزيمتهم عن المحافظة على جدتها، والاستزادة من منعتها، والتوغل في مراقيها حتى يبلغوا ذروتها، ويقتعدوا قمتها.

إلى صديقي الصفي الحازم، وخليلي اللصيق الملازم، إلى القبس النوراني الثاوي في صميم كياني: أناجيه في المكان الموحش فيؤنس وحدتي؛ ويلازمني في مواجهة الخطر الداهم لا يريم عن نصرتي ونجدتي، إلى ذلك الفيض من نور الله الذي ما برح لي هاديًا ومشيرًا وسراجًا منيرًا، وما انفك يسلس قيادي إذا ركبت رأسي، أو تناسيت رمسي، والذي طالما حبّب إليّ الصفح عن لؤم الغادر، والتغاضي عن كيد الخبّ الماكر، وبدّد ظلمات الزمان من حولي، وأنار طريقي فلا تعثر بحجر رجلي.

مقـــدمـة

نحن ونعمة الصداقة

أضفى الله علينا نعمة الصداقة سابغة؛ فوفّقنا إلى أصدقاء من أفخر طراز، اجتمعت لهم أسمى الفضائل: إيمان مكين، وخلق رصين، ووطنية صحيحة، وذكاء متوقّد، وإخلاص فائق، وإيثار على النفس. مع طول الباع، وسعة الاطلاع، والرسوخ في العلم، وصدق الحكم. إلى ما يتّسم به الأعلون من شخصية سوية ساحرة، ومزاج مرح سعيد.

فضل أصدقائنا علينا

وقد سخا علينا أصدقاؤنا بفيض من مودتهم، وفائق عنايتهم، أضاء أمامنا دُجْنة الدنيا إذا احتجب نهارها، وجَنّ ليلها؛ وزاد أنوار الحياة تألقًا حولنا حين تطلع شمس صحوها، ويهفو نسيم صفوها.

مكانة الصداقة لدينا

لذلك أعلينا قدر الصداقة على جميع النعم، وأغلينا قيمتها فوق سائر القيم، وأحللناها من تفكيرنا المقام الأسمى، فصار لموضوعها عندنا اعتبار يجعله، في رأينا، أهم الموضوعات وأنفعها، وأوثقها صلة بفهم المثل العليا، والمران على التزامها في حياتنا الخاصة.

مقام الصداقة في خلفيات البشر

وقد احتفل البشر بالصداقة منذ انبلج فجر الضمير، وقبل شروق شمس الأديان، وعرف قدرها فلاسفة المصريين الأقدمين واليونان والرومان، فبوّؤوها مقامًا عظيمًا في خلقياتهم، حتى لقد أفرد لها «أرسطو» كتابين من مؤلفه في الأخلاق؛ لأن الصداقة لا تقوم إلا بين فاضلين، فهي فضيلة أو مرتبطة بالفضيلة، مستندة إليها.

والأخلاقيون المحدثون يعتبرون الصداقة من أهم العلاقات بين الآدميين التي تنمو عن طريقها الشخصية، والحياة الخلقية.

ولعلّ معنى من المعاني، أو قيمة من القيم، لم تظفر بمثل ما اختُصَّت به الصداقة من عناية بوصفها، وترنّم بمزاياها، وتطلع إلى الظفر بالخل الوفيّ، والصديق الصَّدْق؛ فهي مقدّمَة على الجمال، والمال، والجاه، والسلطان، والعلم، وسائر ما يستهوي الناس ويجذبهم.

الصداقة مدرسة الأخلاق

ممارسة الصداقة رياضة عملية مثلى، لا غنى عنها للترقي الروحي والنفسي والعقلي، وهي تطبيق لأسمى المبادئ التي يتخذها البشر نبراسًا لحياتهم: إذ تزيد المتعبدين في محرابها إيمانًا بالله وثقة بأنفسهم وبالناس، ومقدرة على التمسك بالقواعد الخلقية الرصينة القائمة على المحبة وإنكار الذات، والثبات على المبدأ، والتضحية والتفاني في خدمة الغير؛ والفهم الصحيح للوطنية وواجباتها وتبعاتها، والمقدرة على البذل في سبيل الوطن، والدأب على خدمته؛ ومحبة الوالدين والأولاد والأزواج، بل محبة الناس وحسن مقاربتهم؛ وكرم

النفس، ورقة الشعور، وعفة اليد والعين، والتعالي عن الغيرة والحسد والنفاق والنميمة وإفشاء الأسرار والتجسس والتحسس.

الصداقة كالأمومة قوة خارقة

إن الصداقة كالأمومة، باعثة في الصديق ما ينبعث في الأم من قوة خارقة عند الحاجة، ولو كانت هذه الأم دجاجة، وكان الخطر المهدد أفراخها قطة جائعة، أو حيّة لادغة، فإنها تنقلب عملاقًا ضاريًا، لا يخاف ولا يتراجع.

كذلك الصديق يكاد يصنع المعجزات لأجل صاحبه، مما يعجز عن بذل بعضه في سبيل نفسه: إنه يُقْدم من أجله، عالـمًا أن الإقدام قتّال؛ ويسخو في سبيله بالنفس والمال، غير وَجِلٍ ولا مترددٍ أو مُبَال.

والصداقة كالأمومة تجد جزاءها في تنشيط معنويات النفس، كما ينشّط الخطر الداهم الغدّة الكظرية فتفرز الـ «أدرينالين»؛ لتزيد كفاية الجسم على مواجهته والتغلب عليه أو التخلص منه. وحسب الصديق أن يرتفع إلى علّيين وهو يذود الأذى عن صاحبه، أو يسعى لتحقيق أقصى ما في وسعه من حاجاته ومطالبه، لا يلتمس من جرّاء ذلك جزاء، ولا يتوقع لصنيعه مقابلاً أو ردًّا، لا في الحال ولا في المستقبل.

وأنت مع صديقك قادر على التغاضي عن الهفوات وبلوغ أسمى الغايات: من ضبط للنفس، وتعالٍ عن الصغائر، وتقديم حسن النيّة، والمسارعة إلى انتحال العذر.

فإذا مارست هذه الصفات مع صديقك، فإنك مستطيع بالتدريج، وبعد أن تتبين مقدرتك على التسامح معه بالذات، أن تأنس في نفسك الكفاية على أن تتمنى الهداية لمن

ناصبك العدوان بغير موجب للعداء، وأن تصبح من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس. وما كنت لترتفع إلى هذه الدرجات السامية من الخلق العظيم، إلا مع صداقة حقيقية، يتكشف لك في نورها البهيّ مدى ما تنطوي عليه نفسك من قوى كامنة، ومزايا مركوزة، كانت خافية عليك، فإذا ينابيعها تتفجر أمام ناظريك، بفضل محبتك لصديقك، وتفانيك في الاحتفاظ بصداقته، وهو حِرْصٌ كثيرًا ما يفوق في قوته الإصرارَ على التمسك بالحياة نفسها.

معاني الصداقة ومقوماتها

كما حدانا على دراسة موضوع الصداقة، تطلعنا إلى محاولة تفسير ما حار أغلب الناس في تأويله من معانيها ومقوماتها، مستعينين بما حققه علم النفس من تقدم يلقي ضوءًا لم يكن متاحًا للقُدامى، على موضوع هو من صميم موضوعات النفس والروح؛ وما بلغته الدراسات الفلسفية من شأوٍ جاوز الحدّ الذي انتهى إليه فلاسفة اليونان والرومان، وما وصلت إليه المعرفة في أيامنا بالنسبة إلى ما كانت عليه منذ فترة وجيزة من الزمان.

الصداقة موضوع مصري عربي

وحبّب إلينا هذه المحاولة العسيرة إيماننا بأن الصداقة موضوع مصري، عربي، اشتراكي: أليست الصداقة وفاء، وفداء، ومروءة، وتسامحًا، ونجدة، وسخاءً، وإيثارًا، وإنكارًا للنفس؟ ألم تكن هذه الشمائل الغر محل احتفال قدماء المصريين، حتى لقد بوؤوها في أدبهم القديم مقامًا مرموقًا؟

والعرب؛ ألم يتفوق أدبهم على آداب العالمين في الترنم بهذه الفضائل السامية، وتعظيمها، والإعلاء من شأنها؟ ألم يحفل تاريخهم المجيد بالمثل الخالدة التي ضربها للبشرية الأفذاذ من رجالهم، تطبيقًا لهذه الفضائل الرفيعة، ولو كلفهم التزامها بذل حياتهم، أو تضحية فلذات أكبادهم؛ حتى لا يسعك، إن أنصفت، إلا الاعتقاد بأن جنسية الصداقة لا بد أن تكون مصرية صميمة، عربية أصيلة؛ وإنه إن كان للصداقة لغة، فلغة الصداقة الأولى هي الهيروغليفية، التي سبقت إلى تصويرها بأخوين تماسكت راحتاهما، تسجيلاً لمعنى المؤاخاة الذي لا تنفصم عروته؛ أما لغة الصداقة الثانية فهي لغة الضاد؛ إذ خلعت على الصداقة من الأسماء والنعوت ما لا تدانيها فيه لغة أخرى فيما نعلم.

دوافعنا إلى غرس «جنة الصداقة»

كانت الصداقة عالم المؤلف الذي عاش فيه طوال أيامه، وإنه لعالم صغير محدود، سكانه أفراد قلائل، ولكنه أكبر العوالم؛ عالم يسع كل العوالم، كما تسع الرحمة، رحمة الله، كل شيء.

لذلك فقد استغرق هذا الكتاب، في الواقع، حياة الكاتب؛ لأنه عاشه عمليًّا، قبل أن يبدأ التفكير في دراسة موضوعه نظريًّا، على إثر تطور ألمّ بعالمه العزيز.

عكفنا على تفهم معنى الصداقة ومداها، وأنعمنا النظر في لُحمتها وسداها، نتفقه مقدماتها ومقوماتها، ومؤهلاتها ومعوقاتها، وواجباتها والتزاماتها؛ وعوامل استتبابها ودوامها، وأسباب انهيارها، وبوارها، وانطفاء نارها، وخمود أُوارها؛ لعلنا نسهم في هداية الطامحين إلى عقد صداقة جديدة، أو دعم صداقة متصدعة، أو وصل صداقة منصرمة؛ عن طريق التعريف بالصداقة، ومجمل معناها، وما تتطلبه في طالبها من مزايا تؤهله للحصول على خلصان الخلان، ونخبة الأخدان.

مؤهلات الكتابة في الصداقة

كان شفيعنا إذن في التصدي لهذا الموضوع الجليل الشأن، الشديد الحساسية، المترامي الآفاق؛ خبرة عملية أفدناها من ممارستنا المستمرة للصداقة مع أحسن الأصدقاء وأفضلهم.

كما أفاد من سبقوا إلى الكتابة في موضوعنا، من خبرتهم الشخصية في الصداقة، فقد كان والد «أرسطو» صديقًا لـ «فيليب» والد «الإسكندر»، وقد عاش في بلاطه؛ ثم صديقًا لولده «الإسكندر».

ولما مات أستاذه «أفلاطون»، قصد «أرسطو» إلى صديقه وزميله في الدرس «هرمياس»؛ فأقام عنده حتى اتهمه الفرس بالخيانة وقتلوه، فخلّد «أرسطو» ذكراه بالنشيد المشهور المسمى: «نشيد الفضيلة»، وتزوج من «فتياس» ابنة أخيه.

وكان «شيشرون» صديقًا للكاتب والفيلسوف الأبيقوري «أتيكوس»، الذي أهدى إليه رسالته في الصداقة.

كذلك كان «مونتيني» صديقًا لـ «بويس» حتى لقد صارت صداقتهما مضرب الأمثال، واعتبره النقاد الفرنسيون إمام الكتاب المحدثين في الصداقة، تقديرًا لرسالته الخالدة.

وكان «ملتون» صديق «إدوارد كنج»، الشاعر الإنجليزي الذي مات غريقًا في ميعة العمر، فرثاه بقصيدته المشهورة: «ليسيداس».

ولورد «تنيسون» الذي خلّد بقصيدته «للذكرى» ذكرى صديقه «آرثر هالام»، وكان أيضًا قد قضى غريقًا في شرخ شبابه.

وكتب «كانط» في الصداقة، فتعمق وأجاد، غير أنه إذ كان بلا زوج ولا أصدقاء، فقد احتجب عنه أجمل نواحي الموضوع الشريف الذي تصدّى لدراسته، وأكثرها مجلبة للسلام والعزاء. فضلاً عن أن ظروفه الخاصة جعلته يؤثر الصمت والحذر، تحاشيًا للخطر، واتقاء للضرر؛ لا سيما أنه كان يعيش في كنف حكومة لا تحترم الحريات.

الصداقة والحرية

الصداقة والحرية شيئان متلازمان؛ فلا صداقة ولا أصدقاء، حيث لا حرية ولا أحرار. ومن هنا أيضًا كانت الصداقة عاطفة مصرية عربية؛ لأن الحرية جزء من كياننا، وركن من أركان إيماننا، فقد كان المصريون أسبق شعوب الأرض إلى إدراك معنى الحرية والحرص على التمتع بها. كما كان العرب أكثر الناس اعتزازًا بحريتهم، لذلك ازدهرت الصداقة في ظل دولتهم العريقة من قديم الزمان.

وإن دولة يستطيع أصغر مواطنيها مناداة أمير المؤمنين باسمه مجردًا، ويسأل أميرها وإليه مستنكرًا: متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ دولة تخرج أجنّتها من الأرحام حرة، ويحث رئيسها المنتخب المؤمنين على الجهر برأيهم فيه وفي حكومته القائمة على الشورى، ويدعوهم في خطبة الجمعة إذا وجدوا في أميرهم عوجًا أن يقاوموه، بل يقوّموه.

هذه الدولة جديرة أن يتسع رحابها من باب أولى؛ لأن تقوم العلاقات بين أفرادها على أساس من الائتمان والثقة، والمقدرة على تبادل الرأي في إخلاص وصراحة، بغير حذر ولا مواربة ولا خوف من بطش أو مكيدة؛ وهذه هي أسس الصداقة وشرائطها الجوهرية.

نعي «هتلر» على أصدقائه

لقد كان «هتلر» لا يبرح شاكيًا في أخريات أيامه، لمن قُضي عليهم بمشاركته في مخبئه، من غدر أصدقائه وخيانتهم وانصرافهم عنه، ومفاوضتهم أعداءه من وراء ظهره.

ولو عرف «هتلر» أن الطغاة من أمثاله مقضيّ عليهم بالحرمان من أعظم نعم الله على الناس، وهي نعمة الصداقة، لما عتب، أو عجب، إذا هو افتقد في جمر الاستبداد نار الصداقة، فوجدها خامدة باردة؛ لأن الصداقة جذور تذكيها الحرّية والصراحة والفضيلة، ويخمدها انسكاب ماء الرقاب والوجوه تحت نير القمع، والتجسس، وفقدان الثقة بين الوالد وولده، والزوج وزوجه، والأخ وأخيه، وبَلْهَ المعارف والزملاء والأصحاب.

الفضيلة أساس الصداقة

لما كانت الصداقة مدرسة الأخلاق، وجماع الفضيلة، فإن أساسها هو المحبة، ودراسة الصداقة دراسة للمحبة وتفهّم لمعناها، وإدراك لكنهها: محبة الإنسان لنفسه، ومحبته لصاحبه، ومحبته لخالقه؛ وحيث لا توجد محبة، فلا وجود للصداقة. كما تقترن بالمحبة، وتسير في ركبها، مجموعة الفضائل بأسرها.

المصادقة في طبيعة الإنسان

والتوق إلى اتخاذ الصديق مركوز في طبائع الناس، ولعله ضرب من التخصيص لغريزة القطيع، التي تدفع البشر إلى الحياة الاجتماعية، فالصداقة صورة رفيعة من الحياة الجماعية؛ فيها اختيار، وتخصيص.

الناعون على الصداقة

ومع ذلك، فقد ذهب البعض إلى اعتبار الصداقة الحقيقية مثلاً مستحيل التحقق عمليًا، فهو يراها من نسج الوهم ورسم الخيال، كالغول والعنقاء، سواء.

وإنك واجد أثر ذلك في الحِكم بمختلف اللغات، وفي الأمثال السيارة لكل العصور، التي تنوه بسرعة انصرام أواصر الصداقة، وتحذر من تحوّل الأصدقاء وتنكّرهم، إذا حالت خضرة الزمان، وحلّت نوائب الحدثان؛ أو إذا أقبلت عليهم الأيام، فرفعتهم إلى مصافّ الزعماء والحكام.

ولكن المتأمل لا يبرح أن يتبين أن معظم ما سُجّل ضد الصداقة والأصدقاء، إنما كتبه أشخاص متشائمون متجهمون، أو مخدوعون مضلَّلون، حسبوا أنفسهم قد ظفروا بجوهرة الصداقة، فإذا بهم قد شبّه لهم، ولم يكن ما وجدوه غير زجاج براق لا خير فيه ولا غناء؛ أو دبّجه أشخاص غير مؤهلين للصداقة ضلوا عن طريقها، وفاتهم تذوق رحيقها.

الصداقة في الأدب والفلسفة

لم تظهر في الصداقة بحوث متكاملة، فيما عدا ما كتبه بعض العباقرة الملهمين الذين حاولوا أن يسبقوا بمحكم منطقهم، وسلامة سجيتهم، إلى ما حققته العلوم في زماننا من كشوف، حَرِيّة بأن تلقي على الصداقة ضياءً يجلو من خوافيها ما غاب عن الأقدمين، والسابقين أجمعين.

تمويه معنى الصداقة

ومع ذلك، فلما بلغ علم النفس الدرجة التي وصل إليها منذ عهد قريب، انصرف اهتمام كثير من الكتاب إلى تمويه كلمة «الصداقة»، فاستخدموها بمعنى تكوين العلاقات الاجتماعية العرضية، وسارعوا إلى وضع الكتب في التعريف بأساليب اكتساب «الأصدقاء»، على غرار التعريف بوسائل اقتناص المال عن طريق المضاربة في البورصة، أو أندية القمار. وهؤلاء إنما يعالجون نوعًا من العلاقات الاجتماعية السطحية، وهدفهم تحويل القارئ إلى «صديق للجميع» مستعينين بالكشوف الجديدة في علم النفس، لتلقين قرائهم أفانين الخلابة، وتدريبهم على التظرّف والكياسة، وممارسة ضروب الخبّ والسياسة، ليجتذبوا من يصادفونهم وينتفعوا بالتعرف بهم، من غير أن يكون لهم هدف سوى تحقيق مصلحتهم العاجلة، بالمجاملات الموزعة، والابتسامات المصطنعة، والألفاظ الجوفاء، مع تحاشي الصراحة والتزام التحفظ، والتعامل مع الناس على أنهم أدنى إلى الأشياء منهم إلى الأشخاص، اتقاءً لشرهم، ولمجرد التماس المغانم عن طريقهم.

وليس هذا كله من الصداقة في شيء، بالمعنى الذي نعالجه في كتابنا. فالصداقة التي نقصدها هي أقوى علاقة تؤلف بين اثنين، وهي الزاد الذي لا غنى عنه للمسافر في رحلة الحياة. ولعلها ليست أقل لزومًا للفرد من رابطته بأسرته إبّان طفولته، أو بزوجه بعد اكتمال فتوته.

الصداقة أقوى العلاقات

علاقات الأسرة قوامها عاطفة طبيعية، هدفها تزويد الطفولة العاجزة بالقدر الضروري من الرعاية، وتوفير بيئة ملائمة لنشوء الصداقة والمحبة بين أفرادها. والزواج من ناحيته المعنوية والروحية: مودة، وثقة، وتضحية.

أما الصداقة، فهي وإن اشتركت مع رابطتي الأسرة والزواج، من الوجهتين المعنوية والروحية؛ فإنها في مستوياتها العليا، تتميز بشروط لا يلزم توافرها في العاديين من الأقرباء والأزواج.

ومع ما جُبِلَ عليه البشر من تقديس الروابط بين الوالدين والبنين، وبين الأزواج، وبين الإخوة، وذوي الأرحام؛ غير أن هذه الصلات الطبيعية تبقى عادة في حدود غريزة التكافل والتضامن، لتأمين الحياة وتدميثها، ولا تصل إلى قوة الصداقة إلا حين تتحول الصلة الطبيعية العامة، إلى علاقة اختيارية خاصة منصبّة على فرد بالذات.

استحقاق الحصول على صديق

إن هذا الكتاب دعوة شخصية من المؤلف يهيب فيها بالقارئ أن يجعل هدفه في الحياة استحقاق الحصول على صديق، حتى إذا ظفر به عمل جاهدًا على أن يظل جديرًا بهذه النعمة الجزيلة، التي لا تَعْدلها نعمة.

دراسة فنّ الصداقة

ثمة أشخاص يتميزون باستعداد فطري خاص، يؤهلهم للتفوق في الخطابة أو الأدب أو الرسم أو الموسيقى أو الغناء؛ ولكن لا غنًى لهؤلاء مع ذلك عن دراسة أصول هذه الفنون، ليسيطروا على مواهبهم ويوجهوها.

وإن ممارسة الصداقة على أساس سليم، لتحتاج إلى فهم ومعرفة، فليست تكفيك رغبتك في الصداقة، أو قابليتك للمصادقة، لكي ترقى إلى مرتبة الصديق.

الوصول إلى درجة صديق

والصداقة ليست مصادفة بحتًا، ولا هي مجرد ائتلاف روحين اعتباطًا؛ لأن الأرواح قد تأتلف ثم لا تلبث أن تختلف، إذا لم يعرف الصديقان كيف يتعهدان صداقتهما بالعناية والمحافظة. إن الصداقة كالحرية، غالية الثمن، وهي كسائر النفائس، الحصول عليها عسير، والاحتفاظ بها أشد مشقة.

إن تاريخ البشر حافل بأسماء الملوك ورؤساء الدول والحكومات وأصحاب الملايين، وعدد هؤلاء كثير لا يحصى ولا يحصر؛ ولكن الذين استحقوا أن يكون لهم صديق، ثم استطاعوا الاحتفاظ به؛ فإن عددهم قليل نادر، يذكر ويؤثر.

ذلك بأن استحقاق الظفر بالصديق، أو المقدرة على الاحتفاظ به، يحتاج إلى مزايا أندر من حيث احتمال توافرها، وأسمى في مراتب الإنسانية، ودرجات الروحانية: إذ لا توجد في الدنيا درجة يتطلع الطامح إلى بلوغها، هي أسمى مقامًا، وأعسر منالاً، من درجة الصداقة.

ملك لا يملك صديقًا

وقد روى لنا متحدث مع آخِر من ولي مُلك مصر، أنه إذ أنبأه بأن صديقًا أعاره سِفرًا نفيسًا، قاطعه متحسِّرًا وهو يغبطه قائلاً: ألا ما أسعدك! أنا ليس لي صديق! ولو استحق ذلك الملك صديقًا لكان قد حصل عليه، ولو كان له صديق لما خسر الملك، أو لقي الخاتمة الوخيمة التي انتهت بها حياته القصيرة الفقيرة؛ ولعله اعتبر التهافت على الصديق دون قدر الملوك، وغاب عنه لسوء طالعه، أن الملك الحقيقي هو الذي يملك صديقًا، وأن الصداقة أثبت من العرش، وأجلّ شأنًا من الملك.

الصداقة أعظم ثروة للإنسان

سجلت «جاكلين كينيدي» في مذكرات لها نشرتها مجلة «نيويورك تايمز»: إن «كينيدي» زوجي يعتقد أن أكبر ثروة للفرد هي مجموعة أصدقائه، وأن أعظم قيمة عند الإنسان المعاصر، هي الصداقة. وتقول «جاكلين»: إن أجمل وقت يقضيه زوجي هو الوقت الذي يمضيه مع أصدقائه.

وكان زوجها قد أحرز إحدى جوائز الفكر قبل أن يصير رئيس دولة كبرى، كما كان سليلاً لأسرة غنية بالإخوة والأخوات، ثرية بمجموع ما تملك من ملايين الدولارات.

الصداقة تحل عقد الإنسانية

إننا في زمان يتناحر فيه الناس ويتعاركون ويتحزّبون إذا اختلفوا في الرأي، أو تنافسوا على المغانم، أو تعارضت، حتى في الظاهر، مصالحهم وأهدافهم. ولو أن الناس أحسنوا

فهم الصداقة، ودُرِّبوا على ممارستها، ودأبوا على الاعتصام بحبلها؛ لوجدوا عن طريقها الحل الأكيد لعقد الإنسان جميعًا، والسبيل السويّ إلى السلام.

وإنا لنحسب أن الوقت قد حان لتحتفل الدنيا من جديد بالصداقة فتسترد مكانتها باعتبارها أعلى القيم الإنسانية، وأغلى النعم الإلهية، وليتعلم الناس في مدرستها ما تمس إليه حاجتهم من معاني المحبة والمشاركة والتعاون، فتصفو النفوس، ويرتفع مستوى الأخلاق، وتصير الدنيا مكانًا للسعادة، ومنزلاً للرخاء.

ولا شك أن الصداقة هي المعبد المقدس الذي يكون فيه المتعبد أقرب مقامًا من خالق القيم الغالية والمعاني الجميلة، وإنه لمعبد يتسع للبشر من جميع الأديان، والأجناس، والألوان؛ بل هو لا يضيق بغير البشر من مختلف المخلوقات والكائنات.

منهاج «جنّة الصداقة»

قسمنا البحث إلى خمسة كتب:

الأول في تعريف الصداقة، وتاريخها، وأهميتها، ومزاياها؛ ورأي القائلين باستحالتها.

والثاني في مؤهلات الصداقة، ومعوقاتها، ودوافع عقدها، وأسباب قيامها؛ وأركانها، وشروطها.

والثالث في انعقاد الصداقة، تكلمنا فيه عن اختيار الأصدقاء، وعددهم، وتجديدهم؛ وأنواع الصداقة.

والرابع في استتباب الصداقة، عالجنا فيه معاملة الصديق، وواجبات الصداقة.

والخامس في انقضاء الصداقة، في حياة الصديق أو بموته، ضمّناه أسباب انقضاء الصداقة، ونتائجه؛ كما تناولنا فيه رثاء الصديق.



الكتاب الأوّل

تعريف الصداقة وتاريخها وعمومياتها

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ — قرآن كريم

الباب الأوَّل

التعريف بالصداقة

الفصل الأوّل
تعريف الصداقة والصديق ووصفهما

كلمة «صداقة» بمعناها الواسع

كلمة «صداقة» بمعناها الواسع قد تدل أحيانًا على علاقة دون التعارف بقليل؛ أو تشير إلى أي موضوع ينصبّ عليه اهتمامنا الخيّر، حيث لا تكاد المبادلة تكون ممكنة. حتى إنه ليقال: أصدقاء الفقراء، أو أصدقاء الوطن، أو أصدقاء الجنس البشري، أو أصدقاء الفنّ، أو أصدقاء الدين.

كلمة «صداقة» بمعناها الأدق

ولكن كلمة «صداقة» بمعناها الأدق تتضمن قدرًا من التركيز، ومن تبادل العاطفة. ولا يستلزم هذا حتمًا شيوع المال، كما كان الحال في المجتمع الفيثاغوري وعند المسيحيين الأوائل، ولكنه ينطوي على استعداد كلٍّ من الطرفين لخدمة صاحبه ونفعه؛ ولا تتطلب تساوي السن؛ أو المركز الاجتماعي، أو تشابه العمل أو الرأي، وإن ندر أن نصادف الصداقة لدى تخلّف هذه الأشياء. ولكن يبدو أن الصداقة تستدعي شيئًا من ائتلاف العاطفة وتقارب الخلق، ولو لم ينشأ التفاهم عن تشابه شديد، بقدر رجوعه إلى أن الشخصيتين متكاملتان.

تعدد تعاريف الصديق والصداقة، وأوصافهما

وقد سجل الفلاسفة والأخلاقيون عددًا كبيرًا من تعاريف الصديق والصداقة تختلف تبعًا لتباين وجهات نظرهم، وتفاوت فهمهم لمدلول لفظهما.

فقالوا إن الصديقين جسدان تلهمهما روح واحدة؛ وإن الصديق إنسان هو أنت، إلا أنه بالشخص غيرك، وإنه أنا آخر؛ وإنه نفس واحدة تسكن جسدين، وإنه من يعيش معك، متحدًا وإياك في الذوق: يطربه فرحك، ويكربه ترحك، وهو ما تصنعه الأمهات بصفة خاصة مع أطفالهن. وإنه أكثر كثيرًا من نفس أخرى. وإنه عالم غير محدود. وإنه شخص أستطيع أن أكون معه مخلصًا، وإنه رجاء القلب. ومن يلتمس صحبة آخر راغبًا في خيره، أو يكنّ له الوجدان والاحترام والتقدير. ويفترض فيه الوداد، أو يتوقع منه التعاطف الوجداني والتعاون. وإنه شخص غير كاره ولا عدو.

إن أخـــاك الحـــقَّ مـــن كـــان معك ومـــنْ يـضـــرّ نـفـسَـــه لينفعك

ومـــن إذا ريـــبُ الـزمـــانِ صرَعَك شـــتَّـتَ شـمـلَـه لـيَـجْـمَـعـك

وقالوا إن الصداقة تكافؤ وتواؤم؛ كما قالوا إنها رغبة وبالتالي نقص؛ لأن الرغبة هي التوق إلى تحسين الحال، وهي تزول بتحقيق هدفها. وإنها التعلق بشخص ولاسيما بالعقل الذي فيه. وإنها اتفاق تام في الآراء على جميع المسائل الدينية والمدنية، مقرون بأعلى درجات التعاون والمودة المتبادلة. وإنها أسمى درجات الكمال في المجتمع.

ومنهم من قال بأن الصداقة ليست إلا توفيقًا بين المصالح وتبادلاً للخدمات، وإنها ضرب من التجارة، يتوقع فيها حب النفس دائمًا أن يربح شيئًا. وإنها اتحاد الأرواح واقتران القلوب برباط الفضيلة، وإنها السرور الفاخر الذي يمكن أن نرتجيه، فإذا أعوزنا في

المنزل، أو لم يكن لنا بيت نجده فيه، فإن في وسعنا أن نلتمسه في الخارج. وإنها زواج النفس. وإنها ارتباط قوي للمحبة مع الاحترام، وهي أقصى درجات المحبة المتبادلة. وإنها رباط إلهي. وإنها هبة الآلهة وأسمى النعم لدى الإنسان. وإنها ثقة القلب التي تحملنا على التماس صحبة سوانا؛ نختاره ولا نخشى منه شيئًا، نؤمل في مساندته، ونتمنى له الخير، ونهتبل الفرص لنسديه إليه، ولنقضي معه أطول وقت. وإنها الاختيار الإيجابي غير القابل للتبديل لشخص انتقرناه من أجل صفات نعجب بها غاية الإعجاب. وإنها الزهرة الفياحة يتخلل الشذى كل ثناياها. وإنها تبادل المحبة؛ والاتحاد الحقيقي لقلبين. وإنها نار القلب المصحوبة بالندى، وإيمان الروح المشرق بالهدى. وإنها نوع من المحبة إلا أنها أخصّ منها، وهي المودة بعينها، وليس يمكن أن تقع بين جماعة كثيرين.

وثمة من عرّفها بأنها تأثر وجداني متبادل، أشد تركيزًا من الإحساس بالعطف الذي ينزع الرجل ذو الخلق إلى أن يشعر به نحو كل من تربطه بهم علاقات اجتماعية مستمرة عن طريق العمل أو غيره. وإنها علاقة اجتماعية متبادلة بين اثنين تكون مرضية لكليهما. وإنها علاقة المودة المتبادلة أو المحبة بين شخصين أو أكثر، يحرص كل منهما على اصطحاب الآخر. وإنها عاطفة ممزوجة بالتقدير، مجردة من كل جاذبية جنسية، تربط بين شخصين، ويفترض فيها ضرب من المساواة؛ وتطلق عن طريق التوسع على وجدان بعض الحيوانات، أو تأثرها بالنسبة للإنسان. وهي بالمعنى المحدد عاطفة اختيارية تجعلنا نعامل بعض أشخاص، ننتقيهم بمحض حريتنا، على أنهم أشخاصنا الأُخر.

وعرّفها «مجمع اللغة العربية» في «المعجم الفلسفي» بأنها: عاطفة مكتسبة متبادلة تقوم على ضرب من الاختيار والتفضيل، منشؤها التعاطف والمشاركة في الميول والمشارب،

وأساسها المساواة بين الأصدقاء، تعززها المخالطة والمصاحبة؛ والصداقة الحقة بريئة من الغرض.

الصداقة ممارسة عملية للفضيلة

استعرض «شيشرون» تعريفات الصداقة، فلم يجد فيها مقنعًا، حتى إنه ليقرر بأن الصداقة تستعصي على كل تعريف.

وفي رأينا أن كل ما صادفناه من تعاريف الصديق والصداقة هو مجرد لمحات تمخّض عنها إلمام بناحية من نواحي الصداقة، على قدر ما توافر للمعرّف من معرفة، وما اتسع له وجدانه، وما أسعفته به خبرته الشخصية.

ونحن نعتبر كتابنا هذا محاولة لتعريف الصداقة والتعريف بها؛ والصداقة عندنا ممارسة عملية للفضيلة في أسمى مستوى يمكن أن يرتقي إليه الخلق البشري.

الفصل الثانـي
اسم الصداقة في اللغات

«الصداقة كلمة مجرد رؤيتها مكتوبة يدفئ القلب»

المبحث الأول
كلمة الصداقة في غير اللغة العربية

تابعنا كلمة الصداقة، فوجدناها في معظم اللغات مستمدة من معنى القرابة والمحبة.

كلمة الصداقة في اللغة الهيروغليفية

«سن سن»: سبق قدماء المصريين إلى فهم الصداقة والاعتداد بها، والإعلاء من قدرها، فأطلقت عليها اللغة الهيروغليفية لفظ «س س»؛ من كلمة «سن» أي أخ، و«سن سن» يؤاخي أو يصادق.

صورة الصداقة: ورمز الصداقة في اللغة المصرية القديمة، صورة شخصين متواجهين تماسكت كفاهما، وهي صورة فائقة الدلالة، في تعبيرها المحسوس، على الارتباط والتضامن والثقة والمقاربة، والمواجهة في غير مواربة، وما زال البشر إلى يومنا، يتخذ أكثرهم من المصافحة عنوان الصداقة، ومظهر تجديد عهدها، وتوثيق عقدها.

السمير الأوحد: كما يطلق على الصديق «سيمروات» أي «السمير الأوحد». وكان لفظ «صديق» لقب شرف رسمي في بلاط البطالمة، يمنح لأكبر الموظفين الملكيين.

كلمة صداقة في التوراة

استخدمت التوراة كلمة «شابر» بمعنى «رفيق»، ثم صارت فيما بعد «زميلاً يدرس الشريعة». وتُستخدم كلمتان عبريتان في معنى صديق؛ إحداهما «الذي يحب»، أي الصاحب الحقيقي؛ والأخرى «الصاحب الموالي».

كلمة صداقة في اللغة الإغريقية

أما في اللغة الإغريقية فمعناها «لي»؛ لأن ما هو لي يكون غاليًا عندي؛ والذي يكون غاليًا عليّ هو الذي أعتبره لي. واللفظ الذي كان مستخدمًا من قبل، ولا يبرح مستعملاً في الشعر، مشتق من نفس الأصل، ومعناه يعامله كصديق، ويمكن ترجمته «حب» أو «ود». ويخلط «سقراط» و«أفلاطون» بين الصداقة والحب، ويريان الصداقة حبًّا نقيًّا.

كلمة الصداقة في اللغة السنسكريتية

وأصل كلمة الصداقة في اللغة السنسكريتية مشتق من «يحب».

كلمة الصداقة في اللغات الأوربية

وكلمة صديق في اللغة الإنجليزية القديمة «مماثل»؛ وفي الألمانية القديمة العالية بمعنى «قريب»، وفي الإسكندينافية القديمة بمعنى «من العصبات». والفعل السكسوني القديم «فريون» معناه يحب. وهو الفعل الذي تستخدمه الآن اللغات الألمانية والفرنسية والإيطالية الحديثة.

المبحث الثاني

كلمة الصداقة ومرادفاتها في اللغة العربية

الصداقة محبة وصدق

تنفرد اللغة العربية باختيار كلمة الصداقة نعتًا تطلقه على العلاقة الإنسانية العظمى، وتضفي عليها أسمى معنيين: فالصداقة في اللغة العربية هي المحبة، كما أنها مشتقة من الصدق.

المحبة في اللغة العربية

استحبه كأحبه؛ والاستحباب كالاستحسان، وحُبَّتُك: ما أحببت أن تعطاه. والمحابة: المُوَادّة والحُبّ.. والحِبّ: الحبيب، مثل خِدن وخدين، والمحبوب؛ وكان «زيد بن حارثة» يدعى حِبّ رسول الله، والأنثى بالهاء، وفي الحديث: ومن يجترئُ على ذلك إلا أُسامةُ حِبُّ رسول الله. أي محبوبه. وكان ﷺ يحبه كثيرًا. وجمع الحِب: أحباب وحِبّان وحُبُوب وحِبَبة. وحَبُبْتُ إليه، صرت حبيبًا.

الصدق والصديق والصداقة

الصدق: اسم الصداقة في اللغة العربية من مادة صدق، والصدق: مطابقة الكلام للواقع بحسب اعتقاد المتكلم؛ والصلابة والشدة، يقال رجل صدق وامرأة صدق؛ والأمر الصالح لا شية فيه من نقص أو كذب، قال الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء: ٨٠] وتقول أصدق فلانًا النصيحة أو الإخاء: أخلصهما له. وصدقه الوعد: أوفى به؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾[آل عمران: ١٥٢].

الصديق: الصاحب الخالص الودّ. وقد يستعمل للواحد أو الجمع والمؤنث. قال تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾[النور: ٦١] ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ. وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[الشعراء: ١٠٠ - ١٠١]. ألا تره عطفه على الجمع. ومن أمثال العرب: صديقك من صَدَقَك، لا من صدّقك. ويقال فلان صديقي: أي أخص أصدقائي. ومن صفات الصديق أن يكون صادقًا إذا قال. والصديق المصادق لك، والجمع أصدقاء، وصُدقان، وصدقاء، وأصادق.

الصِّدِّيق: والصديق، من لا يكون إلا صادقًا في قول أو فعل أو «صحبة» قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[مريم: ٤١]. والصِدّيق لقب «أبي بكر». وقيل: إنما سمي الصديق صِدّيقًا لصدقه.

الصَّدْق: الجامع للأوصاف المحمودة؛ والرمح يوصف بالطول والاستواء واللين والصلابة؛ والكامل من كل شيء. يقال رجل صَدْق وامرأة صدقة أو صَدْق من الصدق بعينه، والمعنى أنه يصدق في وصفه من صلابة وقوة وجودة. والصدق القطب، والملك، والثبت اللقاء، والجمع صُدْق، وقد صَدَق اللقاء صَدْقًا؛ ومن صفات الصديق أن يكون صدقًا إذا عمل؛ وقال النابغة: في حالكِ اللونِ صَدْق غير ذي أود.

المصادقة: صادقه مصادقة وصداقًا، اتخذه صديقًا. وتصادقًا: تصاحبًا وتوادًّا. والمصادقة المخالّة، وصَدّقه النصيحة والإخاء: أمحضه، وصادقته: خاللته، والاسم الصداقة. وتصادقا في الحديث وفي المودة. والصداقة مصدر الصَّديق، واشتقاقه.

مرادفات كلمة صداقة: الأُدمة: الخلطة والموافقة والألفة؛ يقال بينهم أدمة. الألفة: الاجتماع والالتئام. والألفة في علم النفس خاصة، تجاذب الظواهر النفسية في المجال الشعوري بتداعي الأفكار وترابطها.

الخلالة: الصداقة المختصة التي ليس فيها خلل. الخلة: الصداقة الخالصة التي تخللت القلب، وجمعها خلال. وخالّه مخالة وخلالاً: صادقه على هذا النحو. ويقال: خاللـه.

مرادفات كلمة صديق: أخ: يسمى الصديق أخًا: إخوان الوداد أقرب من إخوة الولاد. ورُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك. ويقال: لا أخا لك بفلان: لا صداقة لك معه. وإن أخاك من آساك. إنس: الصديق الصفي. يقال هو ابن إنس فلان، والجمع آناس. خل: كما يسمى الصديق خلاًّ، والخل: الصديق المختص، يستوي فيه الذكر والمؤنث، وجمعه أخلال. خليل: والخليل: الصديق المخلص الذي تخللت محبته القلب فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته، وهو الذي اصطفى المودة وأصحّها؛ وهو الحبيب، والجمع أخلاء. قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾[النساء: ١٢٥] أي اصطفاه، وخصه بكرامة تشبه كرامة الخليل لدى خليله.

قال «بشار»:

قـد تخللتَ مَسْلَكَ الــرُّوحِ مني وبـه سُمّي الخليــلُ خَلِيـــلا

وجار، وحبيب، وخَدِين، ورَفِيق، وصاحب، وعَدِيل، وقريب، وقرين، ومصطفى، ووليّ.

الباب الثاني

الصداقــة عــبر العصــور

الفصل الأول
الصداقــة قبل التاريــخ

أسطورة «إنكيدا» و«جلجامش»

عثر المنقّبون في أرض العراق، بمكتوب يرجع تاريخه إلى الألف الثانية قبل الميلاد، سجل إحدى أساطير ما قبل التاريخ؛ خلاصته أن «جلجامش» حاكم «العراق»، اشتدت وطأته على العراقيين فابتهلوا للآلهة أن تخلق له شقيقًا ليتنافسا فيجد الشعب متنفسًا. وتستجيب الآلهة فتخلق «إنكيدا» الذي يصير رفيق «جلجامش» وصديقه؛ وينطلق الصديقان في طلب المغامرات الخطرة، حيث يقتلان الوحش المرعب «هاواوا» الذي يحرس الغابة لـ «إنليل». ولدى عودتهما تقع الإلهة «إينانا» في حب «جلجامش»، حتى إذا وجدته معرِضًا، أرسلت عليه ثور السماء المرعب ليقتله؛ ولكن البطلين صارعا الثور وأَرْدَيَاه. وهكذا تهاوى أفظع الخصوم تحت سلاحيهما، واستفحل بأسهما حتى صارا يعاملان الآلهة بجسارة بالغة. ثم تُقرر «إنليل» أن «إنكيدا» يجب أن يموت عقابًا له على قتل «هاواوا»، فيمرض «إنكيدا» الذي لا يقهر، ثم يموت.

وكان الموت حتى الآن لا يعني إلا قليلاً لـ «جلجامش». لم يكن إذ ذاك يعرف الموت إلا مجردًا، ولم يسبق أن مسّه مباشرة، بكل حقيقته المطلقة. ولكنه يصدمه حين يموت

«إنكيدا». وإنه ليناديه قائلاً: يا صديقي، يا أخي الأصغر الذي صاد معي الحمير البرية في سفوح التلال، والنُّمُر في السهول؛ «إنكيدا» يا صديقي، يا أخي الأصغر يا من صاد معي الحمير والببر في السهول؛ الذي كان معي يستطيع صنع كل شيء. الذي تسلق الصخرة الشامخة، وأمسك بقرني ثور السماء فقتله، وأطاح بـ «هاواوا» الساكن في غابة السنديان؛ ما هذا النوم الذي أخذتك سنته.

لم يرفع «إنكيدا» عينيه، ولما لمس «جلجامش» قلبه، ألفاه لا يدق. فدثّره كما لو كان عروسًا. وزأر كالليث.. كاللبؤة تزود عن أشبالها. التفت إلى صديقه المَرَّة تِلْوَ المَرَّة، وهو يشد شعره وينثر الخصل، وينتزع حُلِيَّه ويطوّحها.

كانت الخسارة التي مُنِيَ بها فوق احتماله. وإنه ليرفض بكل نفسه أن يتقبلها على أنها حقيقة. وقد سجلنا رثاءه لصديقه في فصل الرثاء.

الفصل الثاني
الصداقة لدى الشعوب

المبحث الأول

الصداقة عند قدماء المصريين

يفاخرون بصداقة الأخيار

كان حكماء قدماء المصريين يعتزون بأنهم لا يعرفون غير خيار الناس، وأنه لا يوجد بين معارفهم واحد من أهل السوء.

من آداب الصداقة عندهم

كما اهتم الأخلاقيون المصريون بالصداقة، والتعريف بوسائل الاحتفاظ بالأصدقاء، فمن حكمهم المأثورة: من أراد الاحتفاظ بأصدقائه فليتحاش التعرف بنسائهم؛ وما زال هذا رأي «إيمرسون» رغم مرور ألوف السنين!

مواجهة الصديق ومصارحته

ومن أمثالهم في اختيار الصديق، والتثبت من حقيقة شعوره، قولهم: إذا رغبت في التأكد من الوجدان الحق لصديقك، فلتخل إليه؛ وإياك أن تستقي معلوماتك عنه من سواه.

الضراء مسبار الأصدقاء

وورد في حكم «بتاح - حوتيب» منذ سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد: لن تعرف طوية الصديق، حتى تُحْوِجَك الضَّرَّاءُ إلى معونته.

النعي على الأصدقاء الواهنين

وكان للصداقة منزلتها في أخلاق قدماء المصريين منذ أقدم العصور، بدليل نعي بعضهم على أبناء زمانه نسيان الصنيع والتقاعس عن رد الجميل، بخلاف ما كانت عليه الحال فيما مضى؛ فيقول: أمس يُنسى، ولمن صنع لا يُرد الصنيع في هذه الأيام.

المبحث الثاني

الصداقـــة عند اليونـــان

رابطة الزواج ومركز المرأة

كانت الصداقة هي العاطفة التي صبّ اليونان فيها كل قلوبهم؛ لأن الزواج لم يكن عندهم اتحاد شخصين متوافقين يبغيان المشاركة في متع الحياة ومتاعبها، بل كانت له صفة

دينية غالبة هدفها استمرار النوع واستدامة العبادة البيتية، ولم يكن للحب محل في الحياة الزوجية، إذ كان الزواج ضرورة طبيعية والتزامًا اجتماعيًا.

لذلك حذر الأبيقوريون من الزواج باعتباره ضد المصلحة الشخصية، ونعى عليه السوفسطائيون أنه يصرف الحكيم عن واجباته. ويرجع ذلك إلى أن مركز المرأة كان متخلفًا في أنظمتهم الاجتماعية والقانونية والأخلاقية بحيث يستعصي الشعور من نحوها بالانعطاف الرفيع.

ومن هنا أيضًا، جاء الاهتمام بالغانيات وإيثارهن؛ إذ كن يجمعن إلى جاذبية الجمال التفوق العقلي، وقد عرفنا منهن من كانت تعلّم الفصاحة، وتوجه السياسة في أثينا؛ كما خلد التاريخ اسم غانية كان «سقراط» يزورها مع تلاميذه يتأملون محاسنها.

الاستغراق في الحياة العامة

يضاف إلى هذا أن التطور البالغ للحياة العامة قد غلّب على اليوناني صفة المواطنة، وطغى على مركز المحبة وصلات الأسرة، وطوّعها لمقتضيات الوطنية؛ في حين أطلق للصداقة العنان.

الصداقة إلهام ديني، خلقي، اجتماعي، عقلي

إلهام ديني

عجز الدين التقليدي عن تزويد السلوك بدوافع كافية، فصارت الصداقة مصدر إلهام ديني.

الصداقة والأخلاق

كانت الصداقة صمام أمان أخلاقي، ويعتبر تاريخ الصداقة خلاصة لتاريخ الحياة الخلقية اليونانية. كما كان تاريخ المدارس الفلسفية اليونانية، كالفيثاغورية، والأبيقورية، تاريخًا للصداقة في اليونان، إذ قامت هذه المدارس على أنها جمعيات من الأصدقاء.

ملاذ من صرامة المجتمع

وقد كان في وسع المواطن أو السياسي الذي يلتمس الخلاص من صرامة المجتمع وقساوته، أن يقول مع «سقراط»: «لي اشتهاء إلى الصداقة». وقد كان «سقراط» قليل الاهتمام بحياة الأسرة، وهو يكاد يقضي حاجاته الاجتماعية والشخصية عن طريق الصداقة.

وسيلة العقل للتعبير

كما كانت ممارسة الصداقة وسيلة العقل اليوناني إلى التعبير عن ذاته.

يتخذون من الصداقة فنًّا جميلاً

اعتبرت الصداقة إحدى معالم الحياة البارزة أيام اليونان الأقدمين، يتأدون لممارستها، كما يتدربون على الألعاب الرياضية، فتخصصوا فيها وبرعوا، واتخذوا منها فنًّا جميلاً يدرسون قواعده، ويطبقون أساليبه.

الصداقة في الحرب والسلم

وفي يونان البطولة المحاربة، توطدت صداقة زملاء السلاح؛ أما في اليونان الوادعة المسالمة، فقد توثقت الألفة بين أقران الدراسة، وإخوان الصفاء.

الأسطورة في ركاب الصداقة

ترنمت الأسطورة اليونانية بخلقيات الصداقة، وهيّأت لفضيلة الصداقة من أسباب الشهرة والذيوع ما لم يتح مثله لسائر الفضائل.

الحكماء السبعة

احتلت الصداقة عند اليونان مكانة أسمى من الغرام. واهتم بها حكماؤهم وسجلوا آراءهم بصددها قبل الميلاد بستة قرون، فحضَّ أحدهم على أن يتذكر الصديق صديقه حاضرًا أو غائبًا. وحذر الثاني من التحدث بسوء عن الصديق. ونصح ثالث بأن يحب الإنسان كما لو كان ثمة احتمال أن يكره؛ لأن معظم الناس أشرار. وأهاب رابع بعدم التعجل في اتخاذ الأصدقاء، ولكن عند اتخاذهم فلا سبيل إلى نبذهم، ونوّه خامس بأن ينفع المرء صديقه لتزيد صداقته، وليحول عدوه صديقًا، إذ يجب أن يتيقظ الإنسان لنقد الأصدقاء ومؤامرات الأعداء. وأمَر سادس بأن لا يتغير المرء مع أصدقائه في حالي إقبال الدنيا عليهم، وإدبارها عنهم. وأوحى سابع بأن نخفّ إلى المشاركة في محنة أصحابنا، بأسرع من المساهمة في سرائهم.

فلاسفة اليونان والصداقة

وقد أولى «سقراط» و«أفلاطون» الصداقة نصيبًا موفورًا من اهتمامهما، وخصص لها «أرسطو» كتابين من سِفْرِه في الأخلاق، كما ألّف فيه خليفته «تيوفراستوس».

ويقال إن «كليانثيو» الذي خلف «زيتو» في «السقيفة»، كتب مؤلفًا عن الصداقة، تأثر فيه بقدوة «أبيقور».

واشتهرت المدرسة الأبيقورية بصداقاتها المخلصة الساحرة.

شعراء اليونان والصداقة

اهتم الشعراء بالصداقة، فترنم «هومر» بصداقة «أشيل»، و«باتروكل»، الذي قتله «هكتور» في الحرب التروجانية.

تمثال الصداقة

أقام اليونان النُّصُب للصداقة. فمثلوها في شكل شابة عارية الرأس، ترفل في حلة من نسيج مبرقش، واضعة يدها على قلبها، معتمدة بالأخرى على شجرة في الطريق ضربتها الصاعقة، تحيط بها كرمة مثقلة بالعنب. والشجرة هي النوائب، أما الكرمة فترمز إلى حلاوة مزايا الصداقة.

المبحث الثالث

الصداقـــة عند الرومـــان

عُني الرومان بممارسة الصداقة، ووضعوا المؤلفات في تباين فضائها ومزاياها وضرورتها؛ آخذين عن اليونان، ناهجين نهجهم، أو متفوقين عليهم.

فقد اتخذ «شيشرون» من كتب «تيوفراستوس»، بعد قرنين ونصف قرن من وفاته، أساسًا لمؤلفه عن الصداقة الذي ظهر في غضون سنة ٤٤ قبل الميلاد؛ كما ورث التقاليد الأبيقورية في الصداقة، «أتيكوس» صديق «شيشرون».

«أبيكتيتوس»

كتب «أبيكتيتوس» دراسة أو بحثًا في الصداقة، واعتبرها مقصورة على الحكماء، وأن من يقرنون مصلحتهم بالأمانة والعدالة، والحق؛ هم وحدهم الذين يؤتمنون على أن لا يلتمسوا مصلحتهم على حساب آخر.

صداقات الرومان

وكان للرومان صداقاتهم الشهيرة، مثل صداقة «ليليوس» و«شيبيون»؛ وصداقة «أفريكانوس» الكبير و«كونيلياس» القائد الروماني، والقنصل الذي هزم «هانيبال».

الشعراء تترنم بالصداقة

اهتم شعراء الرومان بالصداقة، ومنهم: «أوفيد»، و«فرجيل» الذي نوّه بصداقة «نيسيوس» و«يوريال»، وقد جاء ذكرهما في مطلب: «حدود الالتزام الخلقي».

تماثيل الصداقة

وأقام الرومان النُّصب للصداقة، فمثلوها في صورة جارية مكللة بالغار وزهور الرمان، ترتدي ثوبًا رومانيًا طويلاً أبيض، شُدّ بُـزنّار حول خصرها، وقد كشف عن نصف نحرها، وأمسكت قلبين مسلسلين في كفها، وقد كتب على هُدْبِ ردائها كلمتا: الموت والحياة. وعلى جبهتها: الصيف والشتاء، وهي تشير بيمينها إلى جانبها الأيسر المفتوح لغاية قلبها، حيث كُتِبَ: على القرب والبعد.

مذبح للصداقة

خصص مجلس الشيوخ مذبحًا للصداقة، كما لو كانت آلهة، تخليدًا لصداقة «تيبريوس قيصر» و«سيجانوس»، وقد أشرنا إليها في فصل: «صداقة الملوك».

حجر كريم للصداقة

ولعل الرومان هم الذين اختاروا الياقوت الأزرق رمزًا للصداقة والحقيقة والدوام.

المبحث الرابـع

الصداقـــة عند العـــرب

الخلق العربي

أكبَرَ العربُ الصداقة، وترنموا بمزاياها، والشيء من معدنه لا يستغرب؛ لأن أركان الخلق العربي تقوم على أساس من الصدق، والشجاعة، ومكارم الأخلاق، والثبات على المبدأ، والنجدة، والمروءة، والوفاء، وحماية الجار، وإكرام الضيف؛ وكلها صفات لا غنى عنها لمن يستحق أن يكون صديقًا، ولا سبيل إلى قيام الصداقة إلا على أساسها.

أدب العرب وتاريخهم

والأدب العربي زاخر بالشعر، والنثر، والحِكَم، والأمثال التي تنوّه بالصداقة والصديق؛ والتاريخ العربي حافل بالوقائع التي تسجل وفاء الأصدقاء، وتضحيتهم بالنفس والمال

في سبيل أصدقائهم الأحياء، بل دفاعًا عن ذكرى القتلى من أصحابهم في مواجهة الملوك والطغاة الذين أهدروا دماءهم؛ والثبات على الصداقة بعد انتقال الأصدقاء إلى دار البقاء.

وأنت واجد في مادة الصداقة كنوزًا من جواهر الأدب العربي في: «الأدب الكبير» و«الأدب الصغير» لـ «ابن المقفع»؛ وفي «التاج» لـ «الجاحظ»؛ وفي «عيون الأخبار» لـ «ابن قتيبة»؛ وفي «رسائل إخوان الصفاء»؛ وفي «أدب الدنيا والدين» لـ «الماوردي»؛ وفي «تهذيب الأخلاق» لـ «ابن مسكويه»؛ وفي «الصداقة والصديق» لـ «أبو حيان التوحيدي»؛ وفي «طوق الحمامة والألفة والألّاف» لـ «ابن حزم الأندلسي»؛ وفي «مقامات الحريري» لـ «أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان»؛ وفي «نهاية الأرب» لـ «النويري»؛ وفي «إحياء علوم الدين» لـ «الغزالي».

لغة العرب

أما اللغة العربية، فقد احتوت ألفاظًا ومترادفات منوعة لكلمة الصداقة، أوردناها في مبحث: «كلمة الصداقة ومرادفاتها في اللغة العربية».

الفصل الثالث
الصداقة في الأديان

المبحث الأول
الصداقة في التوراة

الصداقة في علِّيّين

في حين كانت فكرة المدارس اليونانية عن الله مجرد تأملات غامضة، فإن ما انطوت عليه التوراة من عقد الخالق صداقة مع المخلوق، قد أوجد خبرة جديدة مثيرة.

صداقة المولى لـ «إبراهيم» و«موسى»

لم يتميز «إبراهيم» و«موسى» على سائر مواطنيهما بسبب زعامتهما، بل على أساس العلاقة الوثيقة العجيبة التي أتاحت لهما التفرد بالمكانة العليا باعتبارهما صديقين للمولى - عز وجل؛ وقد تناولنا هذه العلاقة في فصل: «الصداقة بين الله والإنسان».

«راعوث» و«نعومي»

سجلت التوراة صداقة «راعوث» وحماتها «نعومي»؛ وسيجيء الكلام عنهما في مطلب: «صداقة النساء».

«يوناثان» و«داود»

وأشهر صداقات التوراة وأهمها، صداقة «يوناثان» و«داود»، وهي التي تقابل في أساطير اليونان صداقة «بيلاد» و«أوريست» زوج أخته وابن عمته، التي صارت مضربًا للأمثال؛ وقد أوردناها في فصل: «صداقات الشباب».

الأنبياء وخدامهم

وثمة صداقة المرافقين الشخصيين الذين قاموا على خدمة الأنبياء، مثل «اليشع» خادم «إيليا»؛ وصداقة الحواريين الذين التفوا حول «إشعياء» باعتباره زعيمهم الروحي وقائدهم؛ و«متقو الرب» الذين تكاتفوا في الأزمنة المتحللة الخطرة، وقد ورد ذكرهم في سفر «ملاخي»: حينئذ كلم متقو الرب كلّ واحد قريبه، والرب أصغى وسمع، وكتب أمامه سِفْر تذكرة للذين اتقوا الرب وللمفكرين في اسمه.

أمثال «سليمان»

ويعتبر «سِفْر الأمثال» مدوّنة للصداقة في «العهد القديم»، تتبلور في عباراته المحددة المنحوتة حِكَم الصداقة وخبراتها، ويتضمن فلسفة عملية لمواجهة واجبات الصداقة ومخاطر المصاحبة: «المساير الحكماء يصير حكيمًا، ورفيق الجهال يضرّ».

كما يعلي «سليمان» الصداقة فوق الحب القائم على روابط الجنس وعلاقات الدم، ويعتبر أنها قد تكون أوثق من العلاقات الطبيعية، وأكثر منها تحملاً.

المبحث الثاني

الصداقة في البوذية

عاطفة الوئام

تتميز البوذية بأنها تضفي عاطفة الوئام على جميع الأحياء؛ والوئام كلمة قد تفوق المحبة من حيث حسنُ أدائها للمعنى المقصود، وهي العاطفة التي يختص بها الرجل العادي أصدقاءه وزملاءه الشخصيين وحدهم.

وغرس الصداقة، والرحمة، والفرح التعاطفي، والاتزان، يتكون منها قانون أخلاقي متسام. فالثلاثة الأولى منها تشكل تطويرًا لذلك التراحم الذي هو اتجاه جوهري للغاية في الأخلاق البوذية.

وإنك لا تكاد تجد في الأدب القديم استهلالاً يتوهج بالوئام نحو الناس مثل فاتحة ما يسمونه «النزعات الحسنى» أو «السرمديات الأربع».

المبحث الثالــث

الصداقـة في الكونفيوشيوسية

تمارس الفضائل في إطار الصداقة

الصداقة من أركان الكونفيوشيوسية، وهي عند «لي»، التلميذ الأول لـ «كونفيوشيوس» إحدى العلاقات الخمس التي تمارس في إطارها الفضائل الخمس، اللازمة لتحقيق أدب القلب، وهي: الجود، والاستقامة، واللياقة، والمعرفة، والإخلاص.

المبحث الرابـع

الصداقة في المسيحية

الزعم بأن الصداقة ليست فضيلة مسيحية

أنكر البعض أن الصداقة من الفضائل المسيحية، باعتبارها تمييزًا لمصلحة الصديق بتجاهل مصلحة سواه أو إهدارها؛ في حين تدعو المسيحية إلى فعل الخير العام، وإلى اعتبار البشر إخوة، وهو ما يناقض الصداقة كما وصفها قدماء الفلاسفة، الذين ذهب أحدهم إلى حد القول بأن من له «أصدقاء» ليس له «صديق».

القول بأن المسيحية تمتص الصداقة

ورأى البعض أن المسيحية، وإن لم تتجاهل الصداقة، إلا أنها تمتصها في تيار أعمق، وتخلق من هذه العلاقة العتيقة طرازًا جديدًا. فإن العالم القديم يتميز بصداقة يتمتع بها الأقلون، على أنها حق خاص مقصور عليهم؛ أما العالم الجديد الذي أبدعه السيد المسيح والإنجيل، فإن طابعه المحبة التي يمكن أن ينعم بها الجميع، ويتخذونها مصدر دوافعهم وإلهامهم: ذلك بأن المسيحية قد تخللت مؤسسات الأسرة والصداقة، فحولت طبيعتها ومحتواها، وأعادت صياغة الأنماط والمثل التي كانت سائدة قبل قيامها.

المحبة قوام الأخلاق المسيحية

فالمحبة عند السيد المسيح هي النابض الأساسي للأخلاق الجديدة، والخيط الذهبي الذي يربط الناس بالله، كما يشدّ بعضهم إلى بعض، والمسيحيون مدفوعون إلى هذه المحبة، باعتبارها استجابة لصداقة السيد المسيح السامية، على أن تتسم صداقتهم بفضيلتي الإخلاص والطاعة؛ وقد قال السيد المسيح: ليس لأحد حب أعظم من هذا، أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه (أصدقائه). أنتم أحبائي (أصدقائي) إن فعلتم ما أوصيكم به، لا أعود أسميكم عبيدًا؛ لأن العبد لا يعلم ما يعمله سيده، ولكني قد سميتكم أحباء (أصدقاء).

المسيحية تعترف بالصداقة وتمارسها

ويبدو أن القائلين بأن الصداقة ليست فضيلة مسيحية قد شُبِّهَ لهم، فإن فرص صنع الخير لجميع الناس ومحبتهم، لا يمنع من اختصاص الأقربين بالمعروف، فقد كان للسيد

المسيح اثنا عشر صديقًا هم تلاميذه الذين خاطبهم قائلاً: لكني قد سميتكم أحباء (أصدقاء). بل لقد انفرد أحد الاثني عشر بمنزلة لا يشاركه فيها حواريّ غيره، وهو «يوحنا» الذي أطلق عليه اسم: «التلميذ الذي كان يسوع يحبه». كذلك كان السيد المسيح صديقًا لـ «العازر» وأختيه، وهو يقول: لعازر حبيبنا (صديقنا) قد نام.

كما اعترف السيد المسيح بالصداقة، بمعناها المتداول من قديم على أنها علاقة شخصية وثيقة، وهو ينوّه بها في قوله: «إذا وَجَدته تدعو الصديقات والجارات قائلة، افرحن معي؛ لأني وجدت الدرهم الذي أضعته».

أصدقاء «بولس»

ورد في العهد الجديد أن «يوليوس» عامل «بولس» بالرفق؛ وأذن له أن يذهب إلى «أصدقائه». وليس يغير من قيمة هذا الدليل أن لفظ أصدقاء قد يكون مستعملاً كمرادف للفظي: إخوة، أو تلاميذ.

أصدقاء «يوحنا»

وقد تضمن سلام الختام في «رسالة «يوحنا» الثالثة»، العبارة التالية: يسلّم عليك الأحباء (أصدقاؤنا)، سلم على الأحباء (الأصدقاء) بأسمائهم.

والظاهر أن جماعات العهد الجديد الأُصلية، أو الطوائف المسيحية، قد شكلت دائرة داخلية من التلاميذ والإخوة، وأن اللفظ الذي استخدمه السيد المسيح استمر يحمل معنى روحيًا خاصًا.

ولا يؤخذ من هذا أن المسيحيين الأوائل كان بعضهم يطلق على بعض لقب الصديق، على نحو ما كان يطلقه مهنيًّا فلاسفة اليونان من مدرسة الأبيقوريين؛ بل كان يدل على رابطة شخصية بين اثنين بالذات.

وثمة من ينوه بأن المسيحيين الأولين، تماشيًا مع ما يستشعرونه من روابط الزمالة، آثروا لفظ «إخوة» على لفظ «أصدقاء» لما يتسم به لفظ «إخوة» من حرارة وقربى.

الصداقة في مدونات «العهد الجديد»

تشغل الصداقة في «العهد الجديد» محلاً قد يعد إضافيًّا بالنسبة إلى مكانها في الخلقيات القديمة، ولكن لا بد من التمييز بين مدونات «العهد الجديد» وبين المسيحية، فإن «العهد الجديد» وإن لم يتضمن مثلاً فريدة للصداقة، إلا أن تاريخ الصداقة في المسيحية ومكانتها ليستا محل خلاف.

حركة «أصدقاء الله»

نهضة صوفية في ألمانيا وسويسرا في القرن الرابع عشر، وقد أشرنا إليها في مطلب: «الصداقة بين الله والإنسان».

جماعة الـ «كويكرز» في إنجلترا

كما قامت في القرن السابع عشر جمعية الـ «كويكرز الأصدقاء» وانتشرت في أنحاء إنجلترا.

المبحث الخامس

الصداقـــة في الإسلام

الصداقة في القرآن الكريم

كرّم الإسلام الصداقة وأحلّها مقامًا ساميًا. ورفع الحرج عن الولد أن يأكل من بيت أبيه، أو أمه، أو أخيه، أو أخته، أو عمه، أو عمته، أو خاله، أو خالته، أو ما ملك مفاتحه، أو صديقه. أي أنه يضع الصديق، من حيث الألفة ورفع الكلفة، في منزلة المحارم وأقرباء الدرجات الأولى، وهو بذلك يجعل رابطة الصداقة في حكم أوثق روابط الدم.

والقرآن الكريم يوصي: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا..... وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ (أي الصاحب الملازم الذي يقرب منك، ويكون إلى جانبك). ويحض على المصادقة فيقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾؛ ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾؛ ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾؛ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾. كما نوّه القرآن الكريم بأن من أقسى درجات العذاب في النار حسرة أهلها على انعدام الصديق الحميم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ. وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

أصدقاء النبي ﷺ

سجل التاريخ الإسلامي صداقة النبي ﷺ بـ «أبي بكر الصديق» وصداقته بـ «علي بن أبي طالب».

من أحاديث النبي ﷺ في الصداقة

قال النبي ﷺ: «إن أقربكم مني مجلسًا أحاسنكم أخلاقًا، الموطؤون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون». «إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلى الله المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الإخوان». «المؤمن أِلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف». وقد أوردنا أحاديث شريفة أخرى في مبحث «أقوال مأثورة في أهمية الصداقة».

المؤاخاة في الله

وقد حضّ الإسلام المؤمنين على المؤاخاة في الله، ولا غرو فالصداقة في أسمى مراتبها هي في الواقع مؤاخاة في الله، مصدر الفضيلة والكمال. وقد تحدثنا عن هذه المؤاخاة في مطلب: «الإخوة في الله».

الفصل الرابع
الصداقة في الأزمنة الحديثة

الصداقة، هل ولّى زمانها؟

ظن بعض المتأخرين أن زمان الصداقة ولّى، وأن صدر حضارتنا الحاضرة لم يعد يتسع للصداقة التي يعزى ازدهارها لدى القدامى إلى أنهم كانوا يتوسلون بالأصدقاء لإشباع رغبتهم في تبادل المحبة، وكانوا لا يجدون حاجتهم داخل حدود الأسرة حيث تنحصر مهمة الزوجة في إنتاج البنين وتربيتهم، فضلاً عن أن توافر الوقت عندهم، كان كفيلاً بتيسير قيامهم بواجبات الصداقة واضطلاعهم بتكاليفها.

الصداقة في صميم البشر

ولكن هذا الظن لا يؤيده الواقع: فإن الصداقة مركوزة في صميم النفس الإنسانية، وسوس الطبيعة البشرية، وصروحها عالية في جميع الأزمان، ومعالمها ماثلة للعيان، في كل مكان.

الصداقة في القرون الوسطى

عرفت القرون الوسطى صداقات متحمسة حامية مجيدة.

الصداقة في عهد «النهضة»

ازدهرت الإنسانية في أوربا في عهد «النهضة»، فاستردت الصداقة مكانتها، إذ ولّى الناس وجوههم معجبين شطر نماذج المأثورات الفنية والأدبية، وصار تقديس الصداقة عاطفة ابتداعية دينية.

وقد اشتهرت في «عهد النهضة» صداقات متوقدة لا عهد للصداقات القديمة بمثل صفائها وروائها، واتخذتها الحقب التالية منائر عالية تضيء طريق البشرية في ظلمات بحر الحياة اللجيّ.

الصداقة في أيامنا

أما في زماننا، فقد بلغت الصداقة أَوْج مجدها، بعد أن صار الناس أقرب إلى فهم عواطفهم وانفعالاتهم وأحاسيسهم، وأبصر بتحليل دوافعهم ونزعاتهم وتصرفاتهم، وأخبر بفنون الصداقة ومقتضياتها، وأعرف بقيمتها، وأقدر على تذوق مزاياها ومتعتها.

وإن علم النفس الحديث يسلم بأن الإنسان يجد في الصديق «أنا» أخرى، يتسع عن طريقها عالم شخصيته على نحو أكثر كمالاً مما يمكن أن يتحقق في ظل أي شكل آخر من العلاقات؛ ولا سيما في حالات الصداقة المثالية.

الباب الثالث

أهمية الصداقة؛ ومزاياها

«ولا خير في الدنيا إذا لم تجد بها صديقًا صدوقًا صادق الود مخلصًا»

الإمام الشافعي

الصديق أفضل من مملكة

سأل «كورَش» ملك فارس، جنديًا شابًّا عما يرتضيه مقابلاً لجواره الفائز بقصب السبق: أوَ يقبل لقاءه مملكة؟ أجاب الجندي: لا يقينًا يا مولاي؛ ومع ذلك فإني أتخلّى عنه راضيًا لأكسب صديقًا حقيقيًّا، لو أنني وجدت رجلاً جديرًا.

إجماع على تكريم الصداقة

لعل الصداقة قد انفردت بالمقام الرفيع عند جميع الناس في مختلف العصور، وكل البلدان. فهي محل تكريم البشر قبل نزول الأديان، وهي تسبيحة الحكماء، وأنشودة الكتاب والشعراء، تتبارى في وصفها ألسنتهم، ويشيد بأهميتها نظمهم ونثرهم، وتفتنّ في تصوير مزاياها أساطيرهم، ويتخذ الأدباء من مآثرها أساسًا لتمثيلياتهم، وموضوعًا لمؤلفاتهم، ويجعلونها صنو الفضيلة وقسيمتها، ويرفعون مقامها فوق سائر القيم؛ لا يستثنون الحرية نفسها.

وسنتعرض فيما يلي لأهمية الصداقة، من بعض النواحي النفسية والاجتماعية والأخلاقية؛ ونلمح إلى مزاياها التي سوّدتها، وأعلت مكانتها.

الفصل الأول
أهميـة الصداقــة

المبحث الأول
تكييف أهمية الصداقـة

المطلب الأول: التكييف السيكولوجي لأهمية الصداقة

تأثير الصداقة في تصرفات الطفل

يتوقف بناء عواطف الطفل وتنسيقها على طبيعة الأشياء والأشخاص التي تبنى حولها، وعلى نوع عاطفته السائدة أو المسيطرة.

ويمكن أن تكون عاطفة الصداقة قوة عظيمة في حياة الطفل، وهي تنبثق من الدافع الاجتماعي (القطيعي) بمجرد التقاء طفلين؛ والمشاركة تزيد متعة الألعاب والاهتمامات المنوعة، كما تنقص متاعب الطفل وهمومه، بقدر ما تثير فيه تصرفات الصديق الشفيقة

شعور العرفان بالجميل، وهكذا توجد بين الاثنين عدة روابط، وينمو الوجدان الحقيقي الذي يجسم مزايا الصديق الظاهرة، ويصرف النظر عن نقائصه، مما يؤثر في تصرفاته وأخلاقه، تأثيرًا يختلف تبعًا لطبيعة صديقه؛ كما سوف يجيء في مطلب: «التكييف الأخلاقي لأهمية الصداقة».

التشبه من عوامل نمو الطفل

ومن أهم وسائل النمو النفسي للطفل، عملية التشبه، أي دمج نفسه مع شخص أو جماعة دمجًا ينشأ عنه ارتباط عاطفي وثيق. وهي عملية تخالف شبيهاتها من أساليب التعلم وحلّ المشاكل، في أنها تتضمن تمثّل سلوك الآخرين، ومشاكلهم.

دمج النفس يصوغ شخصية الطفل

وفي مطلع الحياة يبدو دمج النفس جسيمًا، سريعًا، غير محدد، ولا مستقرٌّ. وهو يحدث بالنسبة لأفراد الأسرة، وكلما كبر الطفل صار دمج النفس أقل تمامًا؛ وأكثر بطئًا، وتمييزًا، واستقرارًا: فيتخذ الطفل بعض مظاهر المحيطين به، ويتجاهل أو يرفض بعضها الآخر، وهذا هو دمج النفس الجزئي. وأخيرًا تؤدي عملية دمج النفس إلى صياغة شخصية الطفل؛ بل إن في اتجاهات دمج نفسه المستقبلة ما يكون له أثره في البناء النهائي لخلقه، واهتماماته التي تنشأ من جراء تشبهه بصاحبه، ونسجه على منواله.

ولعل من مميزات تنظيم الشخصية أن آثار العمليات الأولى لا تضيع أبدًا، فقد تتغير آثار دمج النفس السليم الأولى تغييرًا جذريًّا بالاختبار التالي، وتحدث في أثناء النضج انفعالات كثيرة في الاتجاه العام لدمج النفس، ولكنه يبدو أن بعض ما حسبناه قد ضاع من نماذج الطفولة ربما عاد إلى الظهور في الأزمات.

دمج النفس وتكامل الشخصية

ويعتبر العجز عن تحقيق دمج النفس على نحو كافٍ دائم، من جراء علاقات أبوية غير سليمة، أو لعدم توافر مقومات الأمن الأساسية؛ من الأسباب البالغة الأهمية في اضطراب الشخصية الاجتماعية المريضة.

السعادة واتزان الشخصية

من المسلم به عند علماء النفس المحدثين، أن السعادة الشخصية، والهناءة الاجتماعية تتطلبان القدارة على كسب الأصدقاء والاحتفاظ بهم؛ فإذا أراد الناشئ الظفر بأكبر قسط من السعادة، وبأقصى نصيب من اتزان الشخصية، فعليه بمعالجة كسب الأصدقاء واستبقائهم.

اتساع الشخصية

ولما كان المرء واجدًا في صديقه ذاتًا أخرى، فإن مدى شخصيته يتسع عن طريق الصداقة، على نحوٍ أقرب إلى الكمال منه عن طريق سائر العلاقات، ولا سيما في الصداقات المثالية، كصداقة «تنيسون» و«هالام». إذ أمكن أن يقول «تينسون»: كان غنيًّا حيث كنت فقيرًا.

كمال الشخصية

قرر أحد علماء الطب أن عناصر تكامل الشخصية سبعة، أحدها المقدرة على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الغير.

أما باقيها فهي: المقدرة على المحبة، وعلى التصرف الواقعي، وعلى التكيّف، وعلى التحكم في القلق، وعلى العطاء أكثر من الأخذ، وعلى التخلص من الرغبة في العدوان، ومن الشعور بالذنب؛ وكل هذه العناصر تدخل في تكوين الصداقة ومقوماتها.

الصديق شرارة الحياة

أهمية الأصدقاء بصفة خاصة هي في الحافز الذي يزوّدوننا به؛ والآدمي بغير حافز لا يمكن أن يستقيم له وجود.

وقد أسفرت سلسلة من التجارب أجريت أخيرًا، عن أنه إذا أحدق الظلام الدامس بكائن حيّ، سُدّت أذناه فلا يسمع جرسًا، وأنفه فلا يشم رائحة، وفمه فلا يذوق أو ينبس، وحيل بينه وبين الحركة؛ فإنه لا يلبث أن يصاب بالسعار بسبب انعدام الحافز، الذي هو مفتاح الاشتعال، وشرارة الحياة.

لا حياة بغير أصدقاء

ويقول «منينجر» في كتابه «الحب مقابل الكراهية»: إن الخبرة المعملية لأطباء الأمراض العقلية، قد دلت على أن من لا صديق له يكون قد استسلم للدمار؛ لأن انسحاب الإنسان داخل نفسه بصفة مستمرة، هو تنازل منه عن حقه في الحياة.

المطلب الثانـي: التكييف الاجتماعي لأهمية الصداقة

نشوء الشعور الجماعي

ينمو الشعور الجماعي في الطفولة المتأخرة، ولا تلبث شخصية الطفل أن تتأثر إلى حدّ كبير بأصحابه وزملائه في اللعب. ذلك أن رغبته في موافقة الجماعة عليه من الناحية الاجتماعية، وتقبّله عضوًا في زمرتها، تجعله يبذل قصاراه لتنمية المميزات المثيرة لإعجاب الجماعة كلها. كما تحدوه على محاولة التخلص، أو على الأقل التخفف من المآخذ المنفّرة التي تتسم بها شخصيته، مما قد يؤدي إلى عزله اجتماعيًّا.

بدء الروابط الجماعية

تتاح للطفل في السادسة، أو السابعة من عمره فرصة للصداقات والعلاقات الجماعية خارج المنزل، وهي علاقات ضرورية لاكتمال تطوره الاجتماعي، ومقدرته على الاختيار الانفعالي الناضج. والطفل الذي لا يتمتع بهذه العلاقات المنضجة، لا تكتمل عدته لخوض غمار فترة المراهقة المضطربة، وتحقيق توافقه الذاتي في أوائل سن البلوغ.

الصداقة هي الاجتماعية المثلى

الصداقة عند «أرسطو» ميل اجتماعي، بل هي أول المظاهر المباشرة للميل الاجتماعي وأعلى صوره. ولما كان لا يتصور الحياة الخلقية خارج الحياة في المجتمع، فإن الاجتماعية عنده فضيلة، على الأقل في صورتها المثالية، وهي الصداقة.

تحقُّق أسمى تعبير عن طبيعتنا

ويقول «بونار»: كلما تطهرت نفوسنا وكبرت، وتسامت ملكاتنا وقويت، لم نعد نقنع بالعلاقات العابرة في المستويات العادية، بل نشعر بأننا وقد تحررنا من الجماهير، محتاجون إلى أن نستبقي صلتنا بالإنسانية، فتشتد رغبتنا في الاتصال بها عن طريق صديق خليق؛ وخليل نبيل، يساعدنا على تحقيق أسمى تعبير عن طبيعتنا، كما نساعده على تحقيق نفس الغرض.

أساس حياة المجتمع

ويقول «ميونتز»: إن العدالة والصداقة هما صميم الأساس الفعلي لحياة المجتمع.

توليد شعور الانتماء

يقول «أوفرستريت» في كتاب «العقل الحي»: إن الطفل يكفّ عن النظر إلى غيره من الناس على أنهم أدوات تُستغلّ، أو خطر يُتقى، ويجد في نفسه القدرة المتزايدة على تصور حاجاتهم وأحاسيسهم والوقوف منهم موقف الأخ الصديق؛ وبذلك تزداد بالتدريج قدرته على الأخذ والإعطاء على أساس من حسن النية والمساواة. ولعله يحسّ لأول مرة في حياته بالانتماء إلى النوع البشري؛ فتضيق بذلك شقة الخلاف بينه وبينهم، ويشعر بأنه لم يعد يعيش بمعزل عنهم، بل يتقبل نفسه كفرد له كيانه، وبشر مثل سائر البشر؛ وهو يتقبل غيره على هذا النحو نفسه. ويختفي إحساس العزلة الذي ظل ينغص عليه حياته، أمام شعور بالانتماء إلى أناس يتبادل معهم أحاسيس المحبة والتعاطف. فهو لم يعد يقنع بمجرد الوجود بينهم، بل يصبح بالفعل واحدًا منهم، يبادلهم شعورهم وخبراتهم،

ويشاركهم استطلاعهم. وبذلك يسير بينهم بادي الصحة النفسية والتكامل، بعد أن حرمته من صحبتهم ألوان الصراع التي كانت تعتمل في نفسه.

تكوين الروح الجماعية

كما يقول «أوفرستريت»: إن اكتشاف العلاقات الإنسانية من أهم مميزات الإنسان؛ والشخص السوي هو الذي ينجح في التحرر من ذراعي أمه الشفيقتين وصدرها الرؤوم لينطلق في عالم مشاركة الناس في السراء والضراء، يقطع بذلك شوطًا بعيدًا نحو تكوين الروح الجماعية، حيث تحل المشاركة في الاهتمام بالأشياء محل الاهتمام المتبادل بينه وبين الأشخاص، وتشغل الصداقة مكان المحبة.

تطور المحبة إلى صداقة

تتضمن الصداقة عنصري المحبة والتعاطف، ولكنها تختلف عن المحبة في كونها نتيجة للمشاركة في توجيه الانتباه نحو موضوع معين، أو نتيجة لممارسة ألوان مماثلة من النشاط؛ أكثر منها نتيجة لتبادل الانتباه والاهتمام. وتؤدي المشاركة في الميول إلى تقوية الاهتمام، إن لم تخلقه من جديد، كما تؤدي كذلك إلى تنمية التقدير الذي يشعر به كل فرد نحو شريكه أو مشاركيه.

علاقات جماعية تتمخض عن الصداقة

وفي وسع الطفل أن يحقق بالخروج عن دائرة الأسرة فائدة مزدوجة: فهو يستطيع أن يجد له مكانًا في إحدى المجموعات ولتكن فريق الكرة أو فرقة الكشافة، وأن يتخذ من بين أفرادها صديقًا حميمًا يشاركه خبراته على نحو لم يتيسر له منذ أن شب عن التصاقه بأمه.

تمد الصداقة حياتنا إلى الخارج

وطبيعي أن ما تنطوي عليه الصداقة من حماسة، وتسامح، وتقبّل للآخرين ولأنفسنا، من شأنه أن يتيح لحياتنا الداخلية أن تمتد إلى الخارج، فتختبر الحقيقة في بيئة سمحاء؛ كما تساعد على تزويدنا بالأمان الذي عهدناه من قبل في علاقة الطفل الطيبة بأمه.

تُشبع الصداقة دوافعنا الاجتماعية

ويقول «مكني» في «سيكولوجية السواء الشخصي»: إن الصداقة تشبع دوافعنا الغالية؛ باعتبارنا كائنًا مكافحًا نلتمس الأمن، والخبرات الجديدة، والوجدان، والتفوق في بعض الأعمال، والاعتراف بنا اجتماعيًا. ويساعدنا أصدقاؤنا على إشباع هذه الدوافع البالغة الأهمية، فيمنحوننا الاهتمام والوجدان: وإذا تفوقوا علينا بنفوذهم زاد شعورنا بالأمن. وفي وسعنا أن نلعب معهم داخل الدار وخارجها، فنكتسب خبرات طريفة، ونفيد مغامرة ورياضة، كما يساعدوننا أحيانًا على تحصيل مهارات جديدة في المهنة والهواية.

الصداقة مغموطة الحق

مع كل ما تلقاه الصداقة من تكريم الناس وإعزازهم، فإن ثمة من يرونها مغموطة الحق غير مرعية الجانب؛ فينعون على مدنيتنا تراخيها في تقديرها، ويدعون إلى إبراز مكانتها الحقيقية في الوجود البشري، والاهتمام بإقرار الأوضاع اللائقة بها، والمبادرة إلى رفع الحواجز المعوقة لفهم مكانتها في المجتمع.

وإنهم ليأخذون على الشباب إحلال روابط الجنس في المرتبة الأولى، على أنها في نظرهم الروابط الجدية الوحيدة المرموقة؛ ووضع كل ضروب الصداقة في المكانة الثانية، مما يعدّ استهانة بالغة بالطبيعة البشرية، معطلة للترقي الإنساني.

المطالبة بحقوق قانونية للصداقة

بل، لقد ذهب البعض إلى حد مطالبة المجتمع بالاعتراف بحقوق مدنية للصداقة، باعتبارها رابطة يُفترض دوامها مدى الحياة. فهي وإن كانت علاقة اختيارية، تضمن نفسها؛ إلا أنها مع كل فرديتها واكتفائها الذاتي، تمس النظام الاجتماعي في غير موضع، ولا بد لذلك من أن تظفر بمزايا اجتماعية مقابلة.

وهم يقولون بأن الأزواج يتوارثون، ولو كان الدافع إلى الزواج هو الرفقة، أو المصالح المادية، أو الشبق، أو مجرد إنتاج الأطفال؛ وقد يرثنا قريب مجهول، أو ذو رحم لصيق أشقى حياتنا؛ على حين لا يعترف المجتمع بأي حق لأشد أصدقائنا تفانيًا، من ظل في سَرَّاء الحياة وضَرَّائها أقرب الناس إلينا وأغلاهم لدينا، ومن هم عندنا بمثابة الحياة نفسها.

«جبريل» يكاد يورث الجار

قال النبي ﷺ في حديث متفق عليه: «إن «جبريل» ما زال يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه». وفي هذا الحديث الشريف إعلاء من قدر العلاقات خارج روابط الدم والنسب، والماع إلى أن الدين، وإن لم يورّث الجار «الصديق»، فإن المجتمع حريّ بأن يسلّم له بما يماثل حقوق ذوي القربى.

«إخوان الصفاء» يورثون الصديق

يقول «إخوان الصفاء»، إن صداقتهم ليست خارجة عن ذاتهم، وإن كل صداقة تكون لسبب، فإنه إذا انقطع سببها بطلت؛ إلا صداقة «إخوان الصفاء» فإن صداقتهم قرابة رحم، ورحمهم أن يعيش بعضهم لبعض ويرث بعضهم بعضًا، إذ إنهم نفس واحدة في أجساد متفرقة، وكيفما تغيرت حالة الأجساد وتبدّل شكلها، فالنفس لا تتغير ولا تتبدل.

المطلب الثالث: التكييف الأخلاقي لأهمية الصداقة

قداسة الصداقة

الصداقة شيء ظاهر منزّه، ولا يمكن وجود صداقة حيث توجد قسوة، أو زيف، أو ظلم.

الأهمية الخلقية للصداقة

يعتبر تاريخ الصداقة خلاصة لتاريخ أسمى ما وصلت إليه الحياة الخلقية لمختلف الشعوب.

وقد نوّه «أرسطو» بالأهمية الخلقية للمحبة من حيث مساعدتها على إقامة العدل، بل الحلول محله، وسد نقصه في كثير من الأحوال؛ بخلاف العدل الذي لا يمكن أن يحل محل المحبة. واستخلص من ذلك أن الصداقة ضرورية في الجماعات البشرية، وقد تكلم عن الخير، والفضيلة والسعادة، وأوضح أن الفضيلة هي علة الصداقة الحقة، وأنه إذا أريد فهم السعادة فلا بد أولاً من درس الفضيلة. ولم يكد يفرغ من دراسة الفضيلة، والعدالة باعتبارها ضربًا من الفضيلة، حتى انتقل إلى الصداقة.

وقد بدأ بتبيان الأسباب التي حدته على إدخال الصداقة في «كتاب الأخلاق» فقال: وبعد فإنه ليبدو لائقًا أن نردف ببحث في الصداقة؛ لأنها أولاً: إما أن تكون هي نفسها فضيلة، أو أن تكون مقترنة بالفضيلة؛ وثانيًا: لأنها شيء شديد اللزوم للحياة.

الصداقة تطبيق عملي للفضيلة

وكأن «كتاب الأخلاق» هو الصداقة، التي هي أسمى تطبيق عملي ممكن للفضيلة في دنيا الناس؛ حتى إذا فرغ «أرسطو» من نظرية الصداقة، عاد إلى الكلام في اللذة وفي السعادة الحقة.

الصداقة صفة أخلاقية ملازمة للفضيلة

والصداقة عنده جميلة، أي أنها صفة أخلاقية، أو فضيلة؛ فإن لم تكن فضيلة، فهي على الأقل لا تسير بغير فضيلة.

الصداقة محبة الصديق لفضيلته

ومع أنه لا يستبعد قيام صداقة على قاعدة المصلحة أو التسلية، بغض النظر عن الأخلاق؛ إلا أنه يعترف بأن الصداقة المثلى، وكل العلاقات الأخرى لا تستحق اسم الصداقة إلا بقدر ما تتسم بالفضيلة وتحدث آثارها. وأن الصداقة الوحيدة الحقيقية هي تبادل التقدير بين الأخيار: فإننا إذا أحببنا شخصًا لما يسديه إلينا من خدمات، فإنما نحب فيه ما هو عرضي، أي صفاته المتعلقة بنا، لا ما يتصل بصميم كيانه، وما يكوّن طبيعته ذاتها؛ أما إذا أحببناه لفضيلته، فنحن نحب ما فيه من جوهر وما هو صميم؛ لأن الفضيلة هي الرجل ذاته، والأصدقاء الأفاضل تدوم صداقتهم، إذ يظلون ما هم؛ ولأنه لا توجد ظروف أكثر ملاءمة من الفضيلة لنمو الصداقة وازدهارها ودوامها.

عنصر الأنانية في الصداقة الأبيقورية

وجهة النظر الخلقية بمعنى الكلمة، لا تدخل في النظرية الأبيقورية للصداقة. وقد تناولناها في مبحث «حب النفس».

الصداقة تولد الفضيلة وتنميها

يتخذ الرواقيون الصداقة مثلاً، ويعتبرونها في حكم الفضيلة، أو بالحريّ أنها تتيح للفضيلة فرصة المران، وأنها مصدر للإخلاص والتضحية، وأن الحكيم في ممارسة الصداقة ينمّي فضائله. ولعل هذا ما قصده «سنيكا» بقوله: نريد أن يكون لنا صديق، لا ليساعدنا، فإذا مرضنا أسعفنا، وأنجدنا إذا سجنا أو افتقرنا؛ ولكن ليكون لنا من نساعده إذا مرض، وننقذه إذا أسره العدو، أو أن نجد شخصًا نستطيع أن نموت عوضًا عنه، أو نلحق به في المنفى. فالصداقة إذن إن لم تكن خيرًا في ذاتها، فعلى الأقل من حيث إنها تولد الفضيلة وتزكيها.

الصداقة قوام الحياة الخلقية

الصداقة كالأسرة، والمعبد، والمجتمع، والدولة؛ هي إحدى العلاقات التي تترقى عن طريقها الحياة الخلقية لبني البشر.

الصداقة ترياق الأنانية وأساس المحبة

إذا تعاملنا مع الناس على أنهم أشياء نتداولها، ونتخذها وسيلة لتحقيق مآربنا، صارت حياتنا ذاتية المركز، وليس في وسع آدمي أن يكون نفسه حقًّا في عالم من الأشياء، بل لا بدّ له لكي يصل إلى ذاته الأصلية، أن يلاقي في آدمي آخر ذاتًا أخرى، يصادقها ويبادلها الاحترام،

فتختفي ذاتية المركز لتحل المحبة مكانها، وتتكامل الشخصيتان، ويصير كل من الشخصين ذاته لأول مرة.

الصداقة تعلّم فنّ المساواة

يبدو أن الطفل يتعلم فن المساواة، لأول مرة في حياته عن طريق الصداقة، فيعرف كيف يحبّ لغيره ما يحب لنفسه؛ ذلك أن الرابطة النفسية القوية التي توحّد بين ناشئين من نفس الجنس، ليست رابطة التصاق، وإنما هي رابطة مشابهة في الخبرة والنشاط.

الصداقة دعامة تقدير الذات

تساعد الصداقة على تقدير المرء لذاته، وزيادة اتزانه بإتاحة الفرص له ليكون على سجيته، ويقول «أوفرستريت» في «العقل الحي»: إن تقدير المرء لذاته يغنيه عن التظاهر، وعن محاولة فرض نفسه والغض من شأن غيره، وعن التمرد على النقد مهما يكن يسيرًا، وعن السعي لكسب الامتيازات، وعن التعطش الدائم للمزيد من المديح والإطراء؛ ويهيئ الجو الصالح لازدهار النفس السوية والعقل الحي.

الصديق عنوان الفضيلة

يقول «بن جونسون»: إني إن تقت إلى الحقيقة لا المظهر، وإن حاولت تمحيص ذهب الدنيا خالصًا، وتذوق بساطتها الحكيمة، وإذا أسدت أن أُنصِّب الفضيلة كما كانت في ريعانها، وأن أسمعها تتكلم بلسانها الوحيد الأول، إذا أردت أن أستعيد أقدّس صداقة متجردة ملموسة، وأن أستبقيها هكذا دائمًا؛ فلست بحاجة إلى فنون أخرى خلا دراستك: أنت الذي برهنت على أن هذه كلها كانت، ويمكن أن تكون مرة أخرى.

الصداقة معوان الصدق والصراحة

ويقول «إيمرسون» كل امرئ مخلص بمفرده، فإذا دخل عليه ثانٍ بدأت المواراة، فقد جُبل الإنسان على اتقاء زميله الإنسان: يتحاماه بالمجاملات، والتحيات، ويسلّيه بالقيل والقال، ويستهويه بالفضائح والمصالح، ويخفي عنه فكره تحت طبقات من التمويه والتضليل.

ولا يكتمل إخلاص المرء إلا مع صديق، يمكنه أن يفكر أمامه بصوت مسموع، إذ يشعر بأنه قد وصل أخيرًا إلى حضرة إنسان حقيقي، هو كفء له، بحيث يستطيع أن يتجرد في مواجهته من أردية التصنع والتورية الداخلية، والتزام المداجاة، وإعمال الفكر، التي لا يتخلى عنها الناس أبدًا؛ وأن يتعامل معه بالبساط والمخالّة التي تلتقي فيها ذرّة كيميائية بذرة مثلها.

الاتحاد الأخلاقي للجماعة البشرية

كانت رعاية ذمار الآصرة الإنسانية بمدّ يد المساعدة للشخص الآخر ونجدته، وإقالة عثرته، عملاً تندُب الأديان إليه وتحضّ عليه، كما يحبّذه الرأي العام في المجتمع ويعلي من قدر القائم به؛ بقدر ما يزدري النذل الجبان الذي يلتمس السلامة، ولا يطيق الخروج عن دائرة أنانيته الضيقة الأفق.

وقد زاد شعور الناس في الأزمنة الحديثة بأهمية الاتحاد الأخلاقي للجماعة البشرية، وضرورة العمل على توطيد الجاذبية الغريزية التي تجمع بين الآدميين، وتضفي على حياتهم العامة ترابطًا وتضامنًا؛ حتى في الدوائر الواسعة كدائرة الأمة، بل دائرة المجتمع الإنساني بأسره، وهو ما تعمل على تحقيقه لجان هيئة الأمم المتحدة.

القانون يوسع الدائرة الخلقية للصداقة

صارت القوانين تعاقب في أيامنا على النذالة والنكوص عن معاونة الإنسان لأخيه الإنسان في محنته. ومن ذلك ما نصَّت عليه المادة ٣٧٢ من مشروع قانون العقوبات المصري الجديد، من عقاب من امتنع بدون عذر عن إغاثة ملهوف في كارثة، أو مجنيّ عليه في جريمة؛ بغير أن تضع ضابطًا يحدد نطاق التحريم الوارد بها، ويحول دون امتداده حتى إلى الأبرياء؛ مما حدا اللجنة المشكّلة لمراجعة المشروع على إضافة فقرة في نهاية المادة: «وكان مخالفًا بذلك التزامًا مفروضًا عليه، لم يكن في أدائه ضرر جسيم يلحق به»؛ وهي إضافة لا نرى لها محلاً.

أصدقاؤنا يستنبطون محاسننا

إن محبة الصداقة هي القادرة وحدها على رؤية ما فينا من بريق الذهب الخالص للخلق الجميل الذي يحتجب عن نظر العيون الباردة؛ أما الصديق فتبصر عنه خير ما فينا، وهو بهذا يستخرج أحسن محتوياتنا.

المبحث الثانــي

أقوال مأثورة في أهمية الصداقة

المطلب الأول: من أقوال النبيين والصحابة

يصقل الصديق قوة صديقه

يقول «سليمان»: الحديد بالحديد يُحدّ؛ والإنسان يحدّد وجه صاحبه.

الصديق دليل رضا الله

قال النبي ﷺ: من أراد الله به خيرًا، رزقه خليلاً، إذا نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه.

الصديق معونة ومنفعة

قال النبي ﷺ: مثل الأخوين إذا التقيا، مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى، وما التقى مؤمنان إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيرًا.

الصديق زينة وعصمة

كما قال: عليكم بإخوان الصدق، فإنهم زينة في الرخاء وعصمة في البلاء.

الصديق عزوة وقوة

وقال أيضًا: المرء كثير بأخيه.

الصديق عدّة في الدنيا والآخرة

وقال «عليٍّ ﷺ»: عليكم بالإخوان، فإنهم عدة في الدنيا والآخرة؛ ألا تسمع إلى أهل النار ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

الإخوان جلاء الأحزان

وقال «عمر ﷺ»: لقاء الإخوان، جلاء الأحزان.

المطلب الثانـي: من آراء المفكرين في أهمية الصداقة

أولاً: مفكرو اليونان والرومان

الصديق دواء الحياة وكنزها

تبدأ «أسفار يسوع بن سيراك» بكتاب «الصداقة» الذي جاء به: الصديق الوفي دواء الحياة، والذين يخافون الله يجدونه. وقد ذهب «إيمرسون» إلى حدّ القول بأنه لم يصادف مقولة سرّته أكثر من هذه.

الصديق الوفي أقوى دفع؛ والذي يجده يكون قد وقع على كنز.

الصديق أثمن من الذهب

يقول «سفوكليس»: الصديق أنفس من الذهب الذي لا يحصى.

ويقول «سقراط» في «ليسيس» موجهًا حديثه إلى «ميتيكسينوس». كان لي منذ طفولتي الأولى ولع خاص، ولكل امرئ هوايته: فواحد يكلف بالكلاب، وآخر يشغف بالخيل،

وثالث بالنقود، ورابع بالمناصب؛ أما من ناحيتي فأنا أنظر إلى هذه المسائل باتزان؛ إلا اتخاذ الأصدقاء، فبكل عاطفة المحب، أفضّل إحراز صديق طيب على أحسن سمانة أو ديك في الدنيا، أوثر الصديق الواحد على كل من الجواد والكلب. أجل أعتقد يقينًا بأني أوثر الظفر بصديق وزميل، على كل ذهب «داريوس» بل على «داريوس» ذاته. هذا مبلغ حبي للصداقة. لذلك عندما أراك أنت و«ليسيس»؛ أغرب في التعجب، وأحسبكما سعيدين للغاية، بأن استطعتما رغم حداثتكما، الحصول على هذا الكنز بهذه السرعة والسهولة.

القوة والثروة والأصدقاء

يعدّد «أرسطو» متع الخط الطيب فيقول إنها: القوة، والثروة؛ والأصدقاء.

الأصدقاء أنفس الخيرات

وهو يعتبر الأصدقاء أنفس الخيرات، ويقول بأنه لا يوجد شخص يريد أن يمتلك كل نعم الدنيا، على أن يستأثر بها خالصة لنفسه وحدها.

الأصدقاء أعوان الشباب وعدة الشيوخ

والأصدقاء عنده أعوان الشباب، يجنّبونهم الخطأ؛ وسند للشيوخ، يعنون بحاجاتهم، ويعوضون نقص مقدرتهم على التصرف.

الأصدقاء ذخيرة الناجحين

كما يحبّذ استدعاء الأصدقاء لمناسبة إقبال الدنيا؛ لأن من النبل أن نكون مستعدين لصنع الخير للآخرين، ويقول إن الناجح يلتمس الناس يعيش معهم، ويجاملهم رغبة منه

في البر بالغير؛ وأنه خليق باختيار الأخيار يتخذهم أصدقاء، فهم أولى بالمعروف وأجدر بالمقاربة، فضلاً عن أن سعوده يسرهم.

الصداقة تؤلف بين الأرواح

وهو يعتبر الصداقة غاية، أي حالة كمال يبلغ فيها الكائن مداه، فيتكامل في ذاته ولا تبقى له رغبات.

والصداقة عنده عمل المحبة؛ لأن نشاطنا كله يتجه إلى الخارج، ونحن نعيش في غيرنا كما نعيش في نفسنا، وأن نخرج من ذواتنا، ونعيش مع غيرنا في اتحاد عاطفي وفكري، هو بالضبط أن نحب. والصديقان تأتلف روحاهما وتنصبّ في روح واحدة.

الصداقة تؤمن السعادة مدى الحياة

يقول «أبيقور»: إن اقتناء الأصدقاء هو من أهم وسائل تأمين السعادة طوال الحياة.

الصداقة أنفس القنى

ويقول «شيشرون»: الصداقة أنفس جميع القنى البشرية، فليس ثمة ما هو أشدّ منها ملاءمة لطبيعة الإنسان الخلقية، أو أكثر منها صلاحية لمختلف تطوراته وظروفه، في حالتي نجاحه وإخفاقه.

الصداقة شمس الحياة

وهو يقرر أن محو وجدانات الصداقة من حياتنا، بمثابة طمس الشمس من الطبيعة، فكلاهما مصدر لخير ما أغدقته الآلهة على بني البشر.

وإن الحياة لتتجرد بتاتًا من حيويتها إذا خلت من صديق نسكن إليه واثقين من عطفه وإخلاصه؛ لأن الصداقة الحقة تزيد الأفراح، وتزيح الأتراح بالمشاركة الكريمة في السراء والضراء. إنها تجلو الانقباض الذي يخيم على القلب في يوم الضيق، وتحيي الأمل في أيام أسعد؛ وتمنع الأرواح المريضة من التدهور إلى حال من الضعف واليأس تأباه الرجولة.

الاسم المقدس

يقول «أوفيد»: الصداقة، ذلك الاسم المقدس المعظم.

ثانيًا: مفكرو العرب وأمثالهم وأشعارهم

الإخوان معوان على الخير كله

يقول «ابن المقفع»: إن الإخوان هم الأعوان على الخير كله، والمؤاسون عندما ينوب من المكروه.

الإخوان خير مكاسب الدنيا

ويقول أيضًا: اعلم أن إخوان الصدق خير مكاسب الدنيا: هم زينة في الرخاء، وعدّة في الشدة، ومعونة على خير المعاش والمعاد. فلا تفرّطن في اكتسابهم، وابتغاء الوصلات والأسباب إليهم.

الصداقة أمان من الأعداء والحاسدين

ويقول «الماوردي»: إن الإنسان مقصود بالأذية، محسود بالنعمة، فإذا لم يكن آلفًا مألوفًا تخطفته أيدي حاسديه، وتحكمت فيه أهواء أعاديه، فلم تسلم له نعمة، ولم تصف له مدة؛ فإذا كان آلفًا مألوفًا انتصر بالألفة على أعاديه، وامتنع من حاسديه.

لا يألم بالحياة من له صديق

ويقول «أحمد لطفي السيد»: عجبت من رجل يألم من الحياة وله صديق. صديقي الذي أذكره كلما لمعت أمام عيني لامعة السعادة: أذكره كلما طابت نفسي، ورضيت بمركزها الخاص والعام في الحياة، أذكره كلما نعمت بشيء من نعيم الحياة، أذكره عند الضائقة النفسية؛ أذكره عند الشدائد الخاصة والعامة؛ أذكره عند الرجاء وعند اليأس؛ أذكره عفوًا لا عن طريق التفكير، بل كأنه لازم من لوازم النفس، وأعتقد أنه كذلك.

الصداقة تاج على رؤوس الأصدقاء

قال صديق في رسالة أهدانا إياها: الصداقة تاج على رؤوس الأصدقاء، يخولهم متعة واطمئنانًا: متعة العقل، واطمئنان القلب. ونغمة يتحرك بها الفؤاد، فتشيع في حنايا النفس راحة وسلامًا؛ ورصيد لا ينفَد: تأخذ منه فلا يقلّ؛ ومتعة لا تخضع لقانون تناقص المتعة.

ومن أمثالهم:

أفضل الذخائر أخ وفيّ.

الصديق المساعد، عضد وساعد.

رب صديق أودّ من شقيق.

ومن أشعارهم:

لعمـرك مـا مـــال الرجـــال ذخيـرة ولكن إخـــوان الثقـــــاة ذخائـــر

الصديق سلاح وجنان

أخـاك أخـاك إنّ مـن لا أخـا لـه كسـاعٍ إلى الهيجـا بغـيرِ سِـلاح
وإنْ ابـن عم المـرء، فاعلـم، جناحـه وهـل ينهـضُ البـازيّ بغـير جناح

الصداقة ملك بلا أذى

إذا نائبـاتُ الدهـرِ يسـرن للفتـى ثـلاث خصـالٍ قلمـا تيسّـر
ورابعـة عـزت وقـلّ حصـولها صـديقًا علـى الأيـام لا يتغـير
فـذاك الذي قـد نـال ملكـًا بـلا أذى وأســعد بالخيـرات أن يتعسـر

الصداقة أمنية الحياة

همـومُ رجـالٍ في أمـورٍ كثـيرة وهمّـي مـن الدنيا صـديقٌ مسـاعد
نكون كـروح بين جسمـين قسّمـت فجسـماهما جسـمان، والروحُ واحد

صديقك يحارب عدوك

أخـوك أخـوك مـن تدنـو وترجـو مودتـه وإن دعـي اسـتجابا
إذا حاربـت حـارب مـن تعـادي وزاد سـلاحَه منـك اقترابـا
يؤاسـي في كريهـةٍ كل يـوم إذا مـا معضـلُ الحدثـان نابـا

ثالثًا: مفكرو الأوربيين والأمريكان

الأصدقاء وسيلة للقوة

يرى «بيكون» أن الأصدقاء أصلاً وسيلة للاستزادة من القوة. ولعل هذا الأسلوب العملي للغاية في تقدير الصداقة يفسّر سرّ أفول نجمه وزوال مجده، كما يساعد على تأويل سقوط «نابليون» من بعده. ذلك بأن أصدقاء المرء قلما يمارسون معه فلسفة أسمى من الفلسفة التي يتخذها هو هاديًا لعلاقته بهم.

الأصدقاء ثروة

يقول «شكسبير» أغنياء من لهم أصدقاء حقيقيون.

الصديق أعظم النعم

ويقول «لاروش فوكو»: الصديق الصَّدق أعظم جميع النعم، وهو الشيء الوحيد الذي نولي الحصول عليه أدنى نصيب من اهتمامنا.

الصديق عروة وثقى

يقول: «وليم ين»: لست أشبه بالسلسلة ما بيني وبينك من صداقة؛ لأن السلسلة لابد أن يعتريها الصدأ بفعل الأمطار، أو قد يحطمها الشجر المنهار.

الصداقة مرآة إلهية

وهو يصف الصداقة بأنها مرآة إلهية، حيث يرى الصديقان وجهًا إلى وجه، ويكون حديثهما حرًّا خالصًا.

الصداقة إفضاء ونصيحة ومعونة وولاء

ويقول: إن الصديق يفضي بحرية، وينصح بعدالة، ويساعد بشجاعة، ويستمر صديقًا لا يتغير.

الأصدقاء أفضل من الملوك

ويذهب «فولتير» إلى أنه: يجب تفضيل الأصدقاء على الملوك.

الصداقة هبة سماوية

ويقول «توماس جراي»: كان مخلص النفس، معطاء، فعوضته السماء. أعطى كل ما كان يملك للشقاء: دَمْعَةً؛ وكسب كل ما تمنى من السماء: صديقًا.

الصداقة صنو الفضيلة

ويقول «ألكساندر بوب»: لا شيء يستحق التقدير خلاف الفضيلة والصداقة. وما الصداقة في الواقع إلا جزءًا من الفضيلة.

الصديق رائد المرء وفيلسوفه

كما يقول: كنت رائدي، وفيلسوفي، وصديقي.

الصديق شبيه الآلهة

ويقول «نابليون» الصديق الأمين شبيه الآلهة.

الصداقة أصلب ما عرفنا

ويأبى «إيمرسون» المغالاة في التزام الكياسة مع الصديق؛ لأن الصداقة الحقيقية، ليست خيوطًا من زجاج، ولا شيئًا مصنوعًا من صقيع؛ ولكنها أصلب شيء عرفناه.

الصداقة أغلى القيم

كما يقول: نحن نُعنى بصحتنا، ونُحكم سقوفنا، وندخر النقود ونقتني الملابس الكافية؛ ولكن الحكيم يحتاط لكي لا تعوزه خير المقتنيات طرًّا: الأصدقاء.

الصداقة ماء في البرية

ويقول «جورج إليوت»: أيا خير صديق، يا منهل مائي في البرية.

النصر والفجر في عينيها

ويقول «نيتشيه»: سلام لك أيتها الصداقة، من اشتياقي الأسمى يا أول حمرة الصباح. بدا لي الطريق والليل بلا نهاية، وكل الأحياء كريهة بغير هدف؛ أما الآن فإني أعيش حياة مضاعفة عندما رأيت في عينيك النصر والفجر: أي إلهتي العزيزة للغاية!

الصديق ثمرة الإنسانية

ويقول «بونار»: الإنسانية ليست في أوراقها التي لا تعد؛ إنها في ثمراتها القليلة.

الصداقة مصدر للشجاعة والذوق

ويقول أيضًا: يمدنا أصدقاؤنا بالشجاعة والذوق لنصير ما نحن.

الصداقة جناحاي حين أحلّق

ويقول «بوللوك»: الأصدقاء نصحائي، ومطيّبو نفسي، وقادتي: فرحي في الترح، ونعمتي المجددة في الفرح، رفقاء رغبات صباي. في الشك مهبط وحيي، وجناحاي حين أحلّق. آه إني سأذكر ولن أنسى، أماكن لقائنا، وساعاتنا المقدسة المختارة، كلماتنا المتوقدة المعبرة عن كل النفس، وجوهنا يكسوها حُبٌّ غير أرضي. حزن مع حزن يتأوه، أمل مع أمل يتسامى، قلب يعانق قلبًا بتمامه.

الصداقة سبب الحياة وطريقها وغايتها

يقول «أرندل» رئيس الجمعية الصوفية: إن أنبل المعلمين هم الأحرار الذين كانوا وهم أصدقاء العالم، موقّرين مقدرين رحماء. وإنهم لئن بلغوا قمم الجبال الشامخة للتفتح، فإن هذا لم يكن لأنهم التمسوا المعرفة، لأجل المعرفة، أو القوة؛ لأجل القوة؛ ولكن لأنهم رأوا مجد الصداقة وحققوه: التمسوا الحرية لأجل الصداقة. السيد «بودا»، زهرة إنسانية العالم، كان فوق كل شيء صديق إخوته من كل المستويات، صديق كل المخلوقات. وكان السيد «كرشنا» الصداقة بذاتها مجسدة. والسيد «زارازوسترا» جاء ليجعل الصداقة نقية وجميلة؛ والسيد المسيح عُذّب من أجل الصداقة، وانتصر باسم الصداقة. والنبي محمد ﷺ، كان فوق كل شيء صديق الجميع، والمسلمون يصفون الله بحق، أنه الرحمن الرحيم.

ألا إن الصداقة هي سبب الحياة، وطريقها، وغايتها!

الصداقة غذاء ذات النفس

تتفتح زهرة النفس الجميلة، وتزيد ألوانها تألقًا، بفضل دفء الصداقة، وإشراق شمسها.

الصداقة مفتاح أسرار الحياة

تدرّبنا الصداقة على فنون المعيشة العليا، وتفتح لنا الباب على أسرار الحياة؛ تخرجنا من نفسنا، لندخل نفسًا أخرى.

الصداقة ولادة جديدة

الصداقة كالولادة الجديدة، الولادة الأنقى. لا يرين عليها التوق الوحشي للرومانس، لا تتطلع للاستحواذ، ولا يدفعها الخوف والغيرة. إنها مجرد خطوة أطول في الحياة، إنها الخميرة التي نشبّ بها عن طوق أنفسنا الصغيرة الناشئة، إلى ملء قامة النضج المصقول.

الصديق أروع ما في الدنيا

ليس في الدنيا ما هو أروع من أن يكون لنا صديق طيب وفيّ، أو أن نكون نحن ذلك الصديق.

الصداقة ملاذ، وإلهام، وعزاء

ليس في مقتنيات البشر ما تعدل نفاسته الصداقة. إنها تزودنا بالملاذ، والإلهام، والعزاء، والتشجيع، وتقدير النفس المعقول؛ فما تعجز عن مدّنا بمثله الثروة أو المركز، أو النجاح، أو الجمال، أو الصحة.

الصداقة هي الجمر، وسائر العلاقات ترابها

تبدو كل علاقة شاحبة، مجردة من الحياة، كتراب الجمر، إذا لم يتوقد في صميمها لهب الصداقة.

الصداقة قوة سحرية

ما هذه القوة السحرية – الصداقة؟ لست أدري ولكني رأيت قوتها، شعرت بجاذبيتها. تركت كل ما عداها لأتأثر ضياءها.

الصداقة طريق السلام والسعادة والسعة

إذا كان للسلام طريق يسلكه البشر، فالصداقة طريقهم السلطاني إلى السلام والسعادة والسعة.

الصداقة أهم من الحرية

ونحن نرى أن الصداقة أهم من الحرية، فعن طريق الصداقة يمكن للفرد المستعبد أن يسترجع حريته، بل يمكن للشعب المغلوب أن يسترد مكانته، كما ساعدت بولندا صداقة أميرها «آدم» مع «إلكساندر» إمبراطور روسيا؛ وكما ساعدت على توحيد إيطاليا صداقة «كافور» و«نابليون الثالث».

الفصل الثاني
من مزايا الصداقة

الصداقة مزية الحياة الكبرى

الصداقة مزية الحياة الكبرى، وهي متعتها ونعمتها، وشمس ضحاها، وهلال ليلتها؛ وكنز سعادتها وينبوع سرورها وبهجتها.

وليست مزاياها مقصورة على أنها معوان على الزمان، وضمان للأمان، وجلاء للأحزان، ودعامة للشخصية، والصحة النفسية والروحية؛ ولكنها أيضًا من مقومات الصحة الجسدية وطول العمر.

فقد كتب عضو في الجمعية الطبية الأمريكية قائمة بمقومات الحياة الطويلة الصحيحة، ضمّنها عشرة مبادئ أساسية تساعد الناس على أن يعمّروا في صحة، وكان «الأصدقاء الطيبون، والبيت السعيد هما أهم شيئين».

الصديق طُرفة الطبيعة

ويقول «إيمرسون»: الصداقة من أشد العلاقات جدّية، إنها للمعونة والعزاء في كل صلات الحياة والموت ومسالكهما: إنها للأيام الصافية، والهدايا اللطيفة، والجولان في

الريف؛ ولكنها صالحة أيضًا للطرق الوعرة، والرحلات الشاقة، وغرق المراكب، والفاقة والاضطهاد. إنها توافق ذوي الفطانة، كما تصلح «للمتدروشين». كلا الصديقين يزيد من شعور صاحبه بقيمة مطالب حياة الإنسان اليومية وخدماتها، ويجمّلها بالشجاعة والحكمة والاتحاد، بحيث يمكن أن يعتبر الصديق بحق طرفة الطبيعة.

المبحث الأول

السرور والسعادة

«ليس في الحياة سرور أسمى ولا أنبل من سرور الصداقة»—صموئيل جونسون

السرور أمنية ورغيبة

السرور أمنية الناس ورغيبة الفلاسفة، حتى لقد ذهب بعضهم إلى القول بأن السعادة هي الخير الوحيد، وهؤلاء لا يفرقون عمومًا بين السعادة وبين السرور المطرد، الطويل الأمد.

السرور، غير ما يجلب السرور

وقد أجمع علماء النفس على أن هناك ارتباطًا بين الرغبة والسرور، ولكن ليس معنى ذلك أننا لا نرغب في غير السرور؛ حقًّا أن الإنسان لا يستطيع أن يرغب إلا فيما يسره على نحو ما، ولكن هذا يختلف عن قولنا إنه لا يرغب إلا في السرور ذاته، لا فيما يجلب السرور.

السرور ليس كله حسّيًّا

ويرجع جلّ السبب فيما لاقته «نظرية اللذة» من تجريح، إلى ما افترضه ناقدوها من أن السرور الذي يتخذه أصحابها معيارًا للسلوك، هو حتمًا سرور جسدي بحت؛ في حين إن هذا الافتراض هو في معظم الحالات تحريف تام للحقيقة: ذلك بأن كل القائلين بنظرية اللذة يعترفون بالمسرات المستمدة من السمعة، والشهرة، والمعرفة، والفنّ، والتعاطف الوجداني، والصداقة.

الصداقة كالفضيلة مرتبطة بالسرور

يؤكد «أبيقور» أن الصداقة كالفضيلة لا تنفصل عن السرور، وهو مثل «بنتام» يعتبر أن جميع الناس في كل الأوقات لا يتأثرون إلا بسرورهم الشخصي؛ ويقول «الأبيقوريون»: إن الرغبة في عقد الصداقة تجد أسبابها في السرور الشخصي، ولكن حين يتمخض اطراد العادة عن إحداث الألفة، تتفتح المحبة، إلى حدّ أننا نعزّ أصدقاءنا لذاتهم فقط، بغض النظر عن استخلاص أي فائدة من صداقتهم.

ويرى «شيشرون» أن الصداقة لا يمكن فصلها عن السرور، وأنه يجب لهذا السبب أن نتعهدها؛ لأنه بدونها لا يمكننا أن نعيش آمنين ولا مسرورين.

سرور في سرور في سرور

وعلاقة الصداقة كلها سرور: سرور برؤية الصديق في السراء، يضاعف سرورنا؛ وسرور بلقائه في الضراء يسرّي عنا، وسرور بحضرته ومحادثته يسعدنا ويطمئننا.

إدخال السرور هدف الصداقة

تعتبر دوافع احترام الرأي العام، في دائرة الأسرة أو غيرها من الجماعات الحميمة، بديلاً فعالاً للدوافع الأنانية عند الطفل، فتنظم سلوكه إلى حدٍّ بعيد، منذ نعومة أظفاره. وهو حين يصنع ما أوحي إليه أن يعتقده صوابًا، فإنما يكون دافعه إدخال السرور على من يحبّ، أو دفع الألم عنه؛ لا مجرد الظفر بمديحه، أو تحاشي لومه وتجريحه.

العطاء مصدر السعادة العظمى

الحب الحقيقي هو ومضة الضوء التي يرى المرء أن صنيعه، أو عطيته، أو تضحيته لشخص سواه، مجلبة لأقصى سعادة يستمدها من الحياة؛ لأن أعظم سعادة في الوجود هي أن نُحِبّ وأن نُحَبّ.

سرور معنوي مصدره الفضيلة

ولما كانت الفضيلة أساس الصداقة الحقة، وكان السرور مقرونًا بالفضيلة مستقى منها، وإن لم يكن هدفها ولا دافعها؛ فإن الصداقة المؤسسة على الفضيلة تولد دائمًا سرورًا متبادلاً متجددًا.

سرور حسي مقرون بالفضيلة

ومع أنه لا دوام للصداقات التي تقوم على أساس من المشاركة في المسرات الحسية وحدها؛ إلا أن متع الحس الرقيقة من مؤاكلة ورياضة ورحلات وغيرها من مباهج الصداقة المثالية التي أساسها الفضيلة، هي مسرات طبيعية لا غناء عنها، ولا غبار عليها.

مسرات الصداقة مباهج جمالية

المتع التي نستمدها من الصداقة ومن تربية المباهج الجمالية، هي مسرات هادئة متوازنة، تنبثق من مصادر عقلية وجمالية تحت سيطرتنا؛ لأنها في داخلنا، وهي بعد مسرات تفوق كل المتع.

السرور الحقيقي الوحيد

بالرغم من الطابع المادي للمدنية المعاصرة، فإننا لا نستطيع التخلص من الشعور بأهمية الناحية الروحية للحياة، وبأنها هي وحدها التي تؤدي إلى السرور الحقيقي. ولما كانت الصداقة روحية في جوهرها، إذ هي هبة الوهاب العظيم، وفيض القلب التلقائي الحرّ؛ فإنها حَرِيّة أن تحقق لنا أسمى سرور.

فنّ المصادقة هو فن السعادة

إذا كان ثمة فن للسعادة، فإن هذا الفن يجب أن يتضمن فن ممارسة الصداقة؛ لأنه لا سبيل إلى السعادة بغير أصدقاء فضلاء.

الصداقة متعة وبهجة

يقول «أرسطو»: إن مجرد رؤية المرء أصدقاءه متعة حقة، ولا سيما في وقت الشدة، فإن حضرتهم تكاد تكون معينًا لنا على مغالبة الحزن. كما أن رؤية الصديق وكلماته عزاء، وإن لم يكن طبًّا بالعزاء؛ لأنه عارف بقلب صديقه، عالم تمامًا بما يفرحه وما يحزنه.

ويقول «هوراس»: ما دمت مالكًا زمام عقلي، فلن أفضِّل شيئًا على صديق مبهج.

ويقول «شكسبير»: لا أجد نفسي سعيدًا في شيء، كسعادتي في تذكر أصدقائي الطيبين.

وقد جاء في كتاب «كليلة ودمنة»: إنه لا شيء من سرور الدنيا يعدل صحبة الإخوان. وإنّ أوْلى أهل الدنيا بشدة السرور من لا يزال رَبْعُه من إخوانه وأصدقائه من الصالحين معمورًا، ولا يزال عنده منهم جماعة يسرهم ويسرونه.

الصداقة تضاعف الأفراح

ويقول «فرنسيس بيكون»: تحقق الصداقة أمرين متضادين: إنها تضاعف المسرات، وتتنصّف الهموم.

سرور غير مشوب

ويقول «وليم ين»: تؤدي المطالعة إلى السآمة والملل، ويخلف الخمر الرذيلة والمرض؛ وما تورث الثروة إلا همًّا، ولا الغرام إلا طيشًا؛ ولا شيء خلا الصداقة يسرّ حقًّا.

بهجة الصداقة وحبورها

يقول «إيمرسون»: قال قلبي: أي صديقي، بسبب وحدك السماء مقوسة، وبوساطتك الوردة حمراء، تتخذ كل الأشياء عن طريقك شكلاً أكثر نبلاً، وتشرئب إلى ما وراء الدنيا.

صانعة حلاوة الحياة

كما يقول: إن التمتع بوجدانات الصداقة يحدث ابتهاجًا قلبيًّا محققًا. إن انفعالات الأريحية والمجاملة التي نشعر بها نحو الآخرين، تشبه الآثار المادية للنار، فهي سريعة مثلها أو هي أسرع وأكثر نشاطًا وأشد ابتهاجًا. إن تلك الإشراقات الداخلية، هي التي تصنع حلاوة الحياة.

مجددة شباب الدنيا

ويقول أيضًا: أي شيء يعدل في بهجته تلك الومضات الوجدانية التي تجدد شباب الدنيا؟ ألا ما أجمل خطوات الموهوبين والصديقين وصورهم لدى مقاربتهم هذا القلب الخفّاق! في اللحظة التي نطلق فيها العنان لوجداناتنا، فإن الأرض تتحول: لا شتاء ولا ليل؛ تختفي المآسي والمضايقات، بل الواجبات. لا شيء يملأ الأبدية الزاحفة غير الصور الكلية البهاء للأشخاص المحبوبين. ولو أن النفس وثقت من أنها لابد لاحقة يومًا بصديقها في مكان ما من الكون، فإنها لتقنع وحدها وتمرح، ولو طال الأمد ألف عام.

موسيقى الحياة ونورها وبهجتها

ويقول «شللي»: الصداقة شيء حلو؛ بلسم نفيس؛ طائر سعيد ميمون الطالع من طيور الطقس الساكن، ينساب عبر محيط الحياة الدائم الصخب؛ وردة غضّة ترفع رأسها الجسور في نسيم الدنيا النقي، وتزدهر أشد ما تكون إشراقًا حين تذوي سائر الزهور؛ صحة وأمل وشباب. يشرق نور نضارتها ويتضوع عبيرها داخل غيابة السجن وفي غيهب القبر. قدومها كالموسيقى وسط الضوضاء، وكالضياء في الظلماء؛ كوكب دري يتحرك في السماوات مصحوبًا؛ ابتسامة في العبوس؛ نغمة رقيقة بين الأصوات الغليظة؛ نور محبوب؛ بهجة؛ عزلة وملاذ.

سكّـر الحياة

وقال آخر: أيتها الصداقة! يا أسمنت النفس! وسكّر الحياة، ورابط المجتمع.

المبحث الثانـي

المحادثـة والمناقشـة والمكاشفـة

المطلب الأوَّل: المحادثـــة والمسامـــرة

التحـــوُّط والتحـــرُّز

عُزي إلى «بياس» أحد الحكماء السبعة في اليونان القديمة، أنه قال: أحب صديقك على أنه سيصبح عدوك، وعدوك كأنه سيصير صديقك؛ ولا تسرف في تعريف صديقك بمقاصدك الصحيحة وأفكارك الحقيقية. ولتزد أسئلتك في حديثك على تعبيرك عن رأيك. وإذا تكلمت فلتكن أقوالك إدلاء ببيانات ومعلومات، لا إفضاء بأحكام ومعتقدات.

وقد شكّك هذا الرأي الناس في حكمة قائله، بل أثار عليه نقمتهم، حتى لقد استبعد اسمه من سجل الحكماء، وأدرج في عداد الحمقى.

أو لعل له عذرًا إذ يستعمل لفظ الصداقة للتعبير عن العلاقة العادية؛ أما الصداقة الحقيقية فلا تعرف غير الثقة الكاملة، ومن هنا كانت متعة محادثة الأصدقاء، ومزيتها، وأهميتها.

أهمية المحادثة

المقدرة على قول الشيء المناسب في الوقت المناسب، صفة لها في كل مرحلة من مراحل الحياة، تأثير يفوق أي مزية أخرى يمكن أن نحوزها.

وليست المقدرة على الحديث امتيازًا طبيعيًّا يتفرّد به الموهوبون، بل في وسع كل امرئ أن يكتسبها، وإن لم يولد محدثًا ماهرًا.

جو المحادثة المثالي

وأحسن جو للمحادثة يكون مع صديق يبادلنا الأحاسيس والأفكار ووجهات النظر، نثق به كل الثقة، فتنطلق النفس معه على سجيتها، وتتمخض عن حصيلتها؛ مما يجعل المحادثة مصدرًا للسرور، ووسيلة للتسلية على خير وجه وأنفعه، لذلك صارت محادثة الإخوان في حياتنا بمثابة التوابل في طعامنا، تكسبها فكاهة ومزازة.

ونحن مع الصديق في غير حاجة لالتزام القواعد التي نتقيد بها في حديثنا مع سائر الناس، ولو كانوا والدينا أو أشقاءنا أو أولادنا أو أزواجنا، ففي وسعنا أن نجادله حتى نتبين وجه الصواب فيما اختلفنا عليه، وأن نتحدث إليه في السياسة والدين، أو نكاشفه همومنا ونبوح له بمتاعبنا، وهواجسنا ومخاوفنا.

اتزان النفس وازدهار الفكر

يتحدث «أوفرستريت» في كتاب «العقل الحي» عن الصحة النفسية، ويقول في فصل «التنفيس بالكلام»: إن الإنسان يحيا بفضل ما أوتي من قدرة على التفكير، ويفكر بما أوتي من قدرة على الكلام، وإننا لا نستطيع تحديد أفعالنا وأفكارنا، أو تعليلها، أو تقييمها، أو السيطرة عليها، أو استعادتها إلا إذا صغناها في قالب لغوي؛ لأن ما يحدث لنا أو يصدر عنا لا ينتمي إلينا، إلا حين ندخله في إطار اللغة.

وإن الحياة القويمة المتكاملة ترتبط بالقدرة على سلامة استخدام الألفاظ، وأن ضحايا الصراع والتناقض والجروح النفسية، تسود حياتهم اتجاهات وتصرفات أملتها أحاسيس ودوافع لم ينجحوا في تحديدها بالألفاظ، بل نحّوها بمنأى عن أي اتصال بمنطق العقل، فإذا أتيح لهم أن يصوغوا في ألفاظ ما لم يكن قد تسنى لهم تحديده بوضوح من جوانب حياتهم، تمكنوا من رؤية مشاكلهم في ضوئها الصحيح، وانتقلوا من عالم الخيال الذي غمرهم بمخاوفه وأوهامه، إلى دنيا الحقيقة والواقع.

وإن القدرة على التعبير عن النفس وسيلة لا غنى عنها لفهم الذات وتقبلها، ولإنشاء علاقة منطقية بالعالم المحيط بنا. وأن اتزان النفس وازدهار الفكر، لا يتحققان ما لم تتهيأ للفرد فرصة عادلة ليفصح عما يود أن يقوله، فلا يضطر إلى كبت أحاسيسه وأفكاره، بل ينتفع بمنطقه الذي هو لبّ الإنسانية وجوهرها.

ساعة حديث خير من يوم تأمُّل

وليس كالمحادثة وسيلة تسهل علينا طرح أفكارنا، وتسلس لنا قيادها؛ لأننا نراها كيف تبدو حين تتحول إلى كلمات، فيستنير فهمنا، وتنشحذ فطنتنا، إذ نخرج أفكارنا إلى النور؛ وإن ساعة محادثة، لخير من يوم نقضيه في التفكير والتأمل.

شرط الثنائية في المحادثة

الأحاديث الجماعية تسودها الشكليات، ولا تكاد تتسع لغير الموضوعات العامة، كالطقس والأزياء والأنباء.

أما أمتع المحادثات وأبعدها عن التحفظ، وأعمرها بالفائدة، فهي لا تكون إلا بين الصديقين الحميمين، يطلق كل منهما العنان لما يعنّ له، ويعتمل في أعماق عقله، فيكشف لصاحبه عن آرائه الحبيسة في الأشخاص والأشياء، ويبلو قوة عواطفه ويتذوق جمالها، ويعرض نفسه برمتها لفحص صديقه وتمحيصه.

المحادثة تصهر النفسين في واحدة

تسيل النفسان منصهرتين في نفس واحدة عندما يمارس الصديقان متعة الصداقة الكبرى، التي تصل بها إلى أوج كمالها وبهجتها؛ فيتسع الخيال وتستيقظ الذكريات النائمة، وتتألق الاختبارات الخافية، وتنحل عقدة اللسان فتتدفق بالحديث ساعات حتى ليدهش المتحدثُ ما يتكشف له من قوى خارقة لا عهد له بها من قبل.

ولما كانت كل صداقة حقيقية ترفع الأصدقاء فوق ذواتهم، إلى مستوى يهيمنون منه على حياتهم، فإنهم لا يسأمون المسامرة أبدًا.

محادثة الأصدقاء غذاء ونماء

كنا نخف أيام الجمع إلى الغيطان سيرًا على الأقدام في الذهاب والعودة، ولا نتناول طعامًا خلا ما تظفر به في الطريق من أعواد القصب أو حبات الموالح. فإذا طال بنا المسير جلسنا على الأرض تسري إلينا مغناطيسيتها، ورفعنا أبصارنا إلى السماء نتأمل ضياءها، وبهاءها، وإشراقها، وننعم بما اختص الله به وادينا من دفء الشتاء، واعتدال الهواء. وإن أحدنا ليتحدث بما يعن له من أفكار أو بما راعه أو روعه من مطالعاته الأخيرة، أو برأي له في السياسة، أو الاجتماع، أو الاقتصاد، أو علم النفس، أو القانون، أو الفلسفة.

كانت هذه الرحلات الأسبوعية غذاء أرواحنا، وصقال نفوسنا، ورائد آرائنا في الحياة.

المطلب الثاني: المناقشـــة

تفاعل عقلي منضج

مناقشة الصديق ومحادثته، ومخالطته العقلية والوجدانية، تحدث تفاعلاً ينضج الآراء، ويمحص الأفكار، ويولد الارتباطات والانبعاثات، فيزيد معرفة المرء لنفسه، وفهمه ما كان يعجز من قبل عن تمثله وهضمه.

تساعد على انبثاق العبقرية

يقول د. «مصطفى السويفي» في كتاب «العبقرية في الفن»: إن العبقرية تنبت في تربة اختلاف وجهات نظر الأصدقاء، وما يبذله العبقري من جهود لإتقان أسلوب عرض وجهة نظره، بأن يقرأ لمن سبقوه إلى استخدام هذا الأسلوب، ويروض نفسه على إتقانه حتى ينجح في تغليب وجهة نظره.

متعة اختلاف الرأي

لا يُنقص اختلاف وجهة النظر من قوة الصداقة؛ لأن مسرة الصديقين الحقيقية ليست في تبادل الموافقة، بل في استزادة كل منهما من تفهم صاحبه؛ ولأن الأصدقاء الحقيقيين يستطيعون الاختلاف بقدر ما يقدرون على الاتفاق. فهم واثقون من أن كرامتهم محفوظة لا يفكر صديقهم في انتقاصها، وأن من رجحت وجهة نظره لا يعد تفوقه انتصارًا على صاحبه، بل استنارة مشتركة يرجع فضل تحققها إلى الفريقين سواء، إذ أتاح لهما تمحيص أفكارهما وتركيزها وصقلها، وتخليصها من الشوائب والشكوك، وتطعيمها بأفكار جديدة.

المناقشة امتياز الأصدقاء

مناقشة غير الأصدقاء مشاحنة: مناجزة بين خصمين، همّ كل من طرفيها أن يظفر بمنافسه فيلزمه الحجة؛ فهي بالحريّ لا تبتغي الوصول إلى الحقيقة، أو ترمي إلى الاستنارة، بل غايتها قهر العدو والقضاء عليه بأي وسيلة.

لذلك يتحاصف الناس فيتحاشون إبداء الرأي المضاد خشية إغضاب من يخالفونه، وإثارة حفيظته، إذ يحسبهم أعداء له وخصومًا.

أما الصديق فلا خوف علينا من مخالفته، فهو يشاطرنا السرور إذ يخوض معنا معارك الرأي البريئة، التي تكون غالبًا مجرد حوار رائق شائق، والأصل أن الناس لا يتخاصمون لأن آراءهم متضاربة؛ ولكنهم يتخذون من تباين آرائهم ذريعة للمشاحنة.

ليس أصدقاؤنا أعواننا في ملحمة المصالح، ولكنهم حلفاؤنا في معركة الأخلاق، إن نظرتهم إلى الحياة كنظرتنا؛ لذلك لا يصعب علينا الانضمام إلى رأيهم، بقدر ما يسهل عليهم تأييد رأينا في المسائل المذهبية التي لا تمس صميم طبيعتنا.

المطلب الثالـث: المكاشفـــة

المكاشفة ضرب من المحادثة

المكاشفة محادثة، يفضي فيها المتحدث بمكنون صدره لصديقه، متخففًا من عبئه الذي أقلق فكره، ووقر ظهره.

ولا يخلو حديث الأصدقاء العادي من مكاشفة، بل هو مكاشفة يفتح فيها الصديق قلبه لصاحبه فلا يكاد يحجب عنه شيئًا؛ وإن كان مقصودنا بالمكاشفة هنا إطلاع الصديق على أمر هام لا يعرفه سواه.

المكاشفة للصديق وحده

وأساس المكاشفة الثقة، وهي من أهم أركان الصداقة؛ فالصديق يبوح لصديقه بذات صدره، ويستودعه صميم سره، واثقًا من أنه لن يفرط في صيانته، أو يتخذه يومًا وسيلة لإحراجه أو إساءته.

أما روابط الأسرة فإنها لا تتسع للإفضاء بأقرب الأشياء إلى قلوبنا، لأنها أواصر دم، وليست صلات عقل ووجدان؛ كذلك علاقات الغرام، فهي لا تأذن بالمصارحة، بل تقوم على التظاهر والتحفظ.

دلالة المكاشفة

والإفضاء ليس مجرد مزية من أبرز مزايا الصداقة، ولكنه أيضًا علامة الصداقة، وهو الدلالة على محبة الصديق والاعتزاز بحسن اختيارنا إياه، والاعتراف بأننا كنا محتاجين إليه.

المكاشفة تفريغ للقلب

كما أن لأمراض الاحتباس والاختناق أدوية تنقذ البدن من فتكها الذريع، فإن لتفريغ القلب من امتلائه وفعومته وصْفَة واحدة هي صديق نفضي إليه بأحزاننا وأفراحنا ومخاوفنا وآمالنا وشكوكنا ومعتقداتنا، وكل ما يرين على القلب من كرب.

ولما كانت الانفعالات الحبيسة تفسد عقل المستبطن، كما تسمم الأجسام الغريبة أنسجة الجرح، لذلك يجب أن نتيح لانفعالاتنا الخفية فرصة الانبثاق، بمناقشتها مع صديق ثقة كتوم ننطلق معه على سجيتنا، ونكشف له عن طويتنا، فيستل ما عساه أن يكون قد تسلل إلى نفسنا من حقد أو ضغينة، ولا يلبث الكمد المكبوت أن ينزاح عنا بفضل مشورته ومشاركته.

وقد صار من المسلم به أن كثيرًا من التوافقات السيئة تزداد سوءًا إذا لم يجد المرء من يناقش معه الأمور التي يحسبها مخجلة أو مخيفة، فيمتلئ بالهمّ وحده، أو ينجح في مجرد كبت الأفكار المقبضة؛ في حين إن حديثًا مسهبًا عن المتاعب التي تبهظنا مع من هو محل ثقتنا الكاملة، خليق بتخفيف الهم والوقاية من الكبت، وقطع دائرة الرجع غير التوافقي.

المكاشفة علاج للمالنخوليا

بل إن خير وسيلة للتخلص من أعراض المالنخوليا، وما تورثه من ضعف الإرادة، وفساد الحكم، والعجز عن توجيه النفس إلى ما فيه خيرها؛ هي أن يفضي المصاب بشقائه إلى أقرب أصدقائه.

المكاشفة علاج للتوتر العصبي

كما يُجمع الأطباء النفسيون على أن علاج التوتر العصبي، والانقباض الروحي، رهين إلى حدٍّ بعيد بالإفضاء بأسبابهما إلى صديق لصيق، أو حبيب قريب.

فعندما يعترينا الاكتئاب العقلي، والضيق النفسي، نتطلع إلى صديق نفضي إليه بمتاعبنا بحرية، فينصت إلينا متعاطفًا معنا وجدانيًا، ويكون بمثابة المخرج الانفعالي لحزننا المكتوم، يسرّي عنا توترنا ويعزينا.

ويُعرف تصريف التوتر، الناجم عن صبّ متاعبنا لشخص ما، بالتطهير النفسي.

المكاشفة تنظيم فكري

والتحدث عن متاعبنا، وإطلاق توترنا، لا يؤدي فقط إلى تهدئة الانفعال، بل يساعد على تنظيم تفكيرنا وتوجيه سلوكنا توجيها جديدًا، ويزيدنا مقدرة على اكتشاف أنفسنا وتقديرها تقديرًا سليمًا، ذلك بأن الصديق يزودنا بجو سمْح يشجع على نمونا؛ فهو لا يملقنا، بل يحكم بصراحة على مشاكلنا، فتبدو لنا في حضرته أكثر وضوحًا وأيسر حلاًّ.

طبيعة المكاشفة

يختزن الفرد أفكاره ومعلوماته وخبراته واستطلاعاته في ناحية خفية من نفسه، لا يكشف عن موضعها إلا حين ينفرد بشخص تدفع كل منهما إلى صاحبه قوة لا تقاوم، فيلتقيان في تعاطف وجداني، وكلما فتح أحدهما بابًا فتح له الآخر بابًا يقابله. والمكاشفة نوع من بذل النفس، وتبادلها من ألزم الأشياء لنمو الصداقة ودوامها وتذوق متعتها الفائقة، إذ تتخالل شخصيتا الصديقين وتندمجان.

حاجتنا لمستمع ودود متجاوب

كتب «لنكولن» في أعظم ساعات الحرب الأهلية إلى صديق له يستقدمه، لحاجته إلى الإفضاء إليه ببعض المشاكل.

وبعد أن انفرد بكل الحديث لساعات، هزّ يد جاره القديم، بغير أن يسأله حتى عن رأيه. ويبدو أن هذا قد ساعد على تنوير عقله. قال صديقه إن طلبه «النكولن» لم تكن النصيحة، بل كانت حاجته إلى مجرد مستمع ودود متجاوب يفضي إليه بثقيل أحماله.

مزايا الاعتراف بالخطأ

وقد تكون المكاشفة اعترافًا بخطأ، أو إقرارًا من المكاشف بأنه تنكب الطريق السويّ راغمًا، أو صدف عن سبيل الفضيلة مضطرًّا، أو أن إرادته قد ضعفت أمام مغريات لم يكن له قبل بمقاومتها.

وتشبه المكاشفة في هذه الحالة شعيرة الاعتراف عند بعض الطوائف المسيحية، لما يقترن بها من أسف على ما بدر من تصرف غير سليم؛ وفي التسليم بالخطأ معنى استغفار من وسعت رحمته كل شيء.

ومما يسهل على المخطئ الإقرار بخطئه، أنه لا يستهدف لاستهانة رجل الدين أو الصديق الأمين، ولا يتعرض لازدرائه، بل يجد من مودته وقوة محبته مددًا يقيل عثرته، ويقبل توبته، ويكون منه بمثابة الشفيع عند ربه، بإذنه.

المكاشفة بالشكوى

وقد تكون المكاشفة شكوى من الناس أو نعيًا على الزمان، أو من قبيل معاتبة المولى التماسًا لليقين، واستزادة من الإيمان المكين، واستعانة بالصديق على تسويغ ما يحسبه الشاكي غضبًا من الله، فيرده صديقه إلى صوابه، ويسعفه بما يرضي ضميره ويعيد إليه ثقته بربه، ويحيي أمله في مغفرة ذنبه.

التماس للنصيحة

وقد تكون المكاشفة التماسًا للنصيحة والتوجيه في شأن خطير يراد كتمانه، ولا تجمل إذاعته وإعلانه. ونحن إذ نفضي بمصاعبنا إلى الصديق، فإن وجداننا من نحوه يزداد ودادًا، وهو يحترم صراحتنا ويسدي إلينا النصيحة، وينبهنا على أخطائنا.

الإفضاء بمزايانا

وليست حاجتنا إلى الإفضاء مقصورة على ما نخفيه من نقص فينا؛ بل نحتاج أيضًا، وبنفس القدر على الأقل، إلى أن نجد من نفضي إليه بخير ما فينا، بغير أن يسخر منا، أو يحسدنا؛ لأن الصداقة لا تعرف المنافسة ولا الحسد؛ ولأن صديقنا يقدرنا حق قدرنا، فلا يحمل إفضاءنا بمزايانا محل الكبرياء، أو الغرور؛ ما دمنا نستعرض تفوقنا بحضرة شخص نعتبر نظيرنا وكفؤنا، وهو يعدّ رأينا الحسن في ذاتنا مجاملة له؛ لأنه رأيه؛ ولأننا ذاته الأخرى.

لهذا قال «ديدرو» لـ «روسو»: كأنك لا تحبني إذن؟ أنت لا تقول لي أبدًا شيئًا طيبًا عن نفسك!

الظرف الملائم للمكاشفة

ومع ذلك فالحصيف الكيّس من يعرف كيف يأنس أحيانًا بنفسه، يناجيها ويستوحيها، ولا يكشف لصديقه عن خبيئة صدره شاكيًا أو معترفًا أو مستوحيًا، أو متحدثًا بنعمة الله، إلا في حدود حالته الروحية؛ خشية أن ينوء كاهل صاحبه بما يحمّله إياه، أو أن يبدو في نظره مدلاً أو متعاليًا.

«تالليران» يكاشف مدام «دي لافال»

وإلى القارئ مثلاً طريقًا للمكاشفة أتحفنا به تاريخ فرنسا أيام الإمبراطورية. فقد دعا «نابليون» على إثر عودته العاجلة من إسبانيا، مجلس شورى البلاط إلى جلسة خاصة حضرها عظماء الإمبراطورية وفيهم «تالليران». وقد أبدى «نابليون» أن كبار رجاله ووزرائه ليس لهم حق التفكير لأنفسهم، فضلاً عن التعبير عن آرائهم؛ وأن مجرد تشككهم في إمبراطورهم هو بمثابة الشروع في الخيانة، وأن اختلافهم معه هو الخيانة بذاتها. فلما بلغ من حديثه هذا الحد انقض على «تالليران» وكان مستندًا إلى منضدة صغيرة بجوار النار، متخذًا أحد أوضاعه الرشيقة المسترخية.

وانهمرت المطاعن من شفتي الإمبراطور مدى نصف ساعة كاملة، فما ترك جريمة لم يرمه بارتكابها، ولا نقيصة لم يلصق به عارها: فنعته بأنه لص، جبان، خائن، لم يؤدِّ يومًا واجبًا واحدًا بجدارة، وأنه غشّ كل من صادفه، وأنه زنديق لا يؤمن بالله، وأنه يبيع أباه. وحمله وزر إعدام «دوق إنجين» وتبعة حرب شبه الجزيرة الإسبانية.

ولما طاش صواب الكورسيكي لبرود فريسته، مضى يعيّره بعرجه، ويجبّهه بخيانة زوجه، ثم هزّ قبضته كأنه يهمّ بضربه؛ وقال: إن «تالليران» ليس إلا كمًّا من روث في جورب من حرير.

وفي نفس الليلة اتكأ «تالليران» على أريكة في حجرة استقبال صديقته القديمة العزيزة مدام «دي لافال» وراح يروي لها نكبته؛ فلما فرغ من قصته صاحت به مستنكرة: ألم تلقف كرسيًّا، أو ملقاط المدفأة، أو قضيب إذكاء النار، أو أي شيء تهوي به على أم رأسه؟ قال: فكرت في هذا فعلاً، ولكني كسلت.

كان هذا في سنة ١٨٠٨، ولو أن «تاالليران» لم يجد في تلك الأمسية قلبًا يتسع لشكايته ويتجاوب معه في بليته، ويأسو كلومه بمشاركته؛ لنغر جرحه وقضى نحبه، ولما عاش ثلاثين عامًا أخرى، ولا استطاع في خلال سبع سنين أن ينحّي «نابليون» عن عرشه: ألم يكن هو الذي أقنع قيصر الروس، بعد تسليم باريس، بأن عودة البوربون هي الحل الممكن الوحيد لمشكلة فرنسا، ثم ألم يكن هو الذي دعا مجلس الشيوخ الفرنسي، فقرر بأن «نابليون» قد خسر سلطانه، مما اضطره إلى التنازل عن العرش بعد عشرة أيام؟!

الباب الرابع

القول باستحالة الصداقة؛
وذم الصداقة والأصدقاء

الفصل الأول
القول باستحالة الصداقة

الغول والعنقاء والخل الوفي

خامرت البشر من قديم فكرة عن استحالة الصداقة، سجلتها آداب قدماء المصريين، وأمثال سليمان الحكيم، وخلدتها كثير من الحكم الشائعة، والأقوال المأثورة عند اليونان والرومان والفرس والعرب والهنود والأوروبيين، واعتبر البعض الصديق الوفي ثالث المستحيلات، بل لقد نسبوا إلى «أرسطو» أنه قال: يا أصدقائي، لا يوجد صديق!

وما زالت هذه الفكرة المتشائمة تراود أدب العالم المعاصر، فلا تبرح الشكوى من الأصدقاء مستفيضة، والشك في الصداقة مستفحلاً، حتى ذهب الكثيرون إلى أن الصداقة قد ولّى زمانها، ودالت دولتها.

ليس هؤلاء بأصدقاء

وأشد الشاكين كفرًا بالصداقة، وضيقًا بالأصدقاء، هم أصحاب الجاه والسلطان، الذين يرتد عنهم «أصدقاؤهم» بمجرد ذهاب جاههم وتقلص ظل سلطانهم.

وليس هؤلاء الآبقون بأصدقاء، وإن شبّه للشاكين، جهلاً منهم بحقيقة أمرهم؛ ولكنهم أشخاص دأبهم مقاربة المرموق نفعه، يبتزون ما وسعهم استخلاصه من خيره، فإذا لم يعد لديه فضلة يرتجونها غادروه إلى غيره، كما يطير النحل عن زهرة وقع فوقها، بعد أن يكون قد استصفى رحيقها.

لا يظفر بالصداقة إلا مستحقها

وخليق بهؤلاء الشاكين أن يلوموا أنفسهم أولاً، فإن الجاه والسلطان ليسا المؤهلين الوحيدين للظفر بالصداقة والتمتع بالأصدقاء الجديرين؛ إنما يظفر بالصداقة الحقة والصديق الصَّدق من يستأهلون الصداقة ويستحقون الأصدقاء.

وقديمًا قال «ابن سيراك» إن: الصديق الأمين ترياق الحياة، والذين يخافون الله يجدونه. الذي يخاف الله يوجه صداقته الوجهة السليمة، فإنه كما يكون هو كذلك يكون جاره.

نعيب الصداقة والعيب فينا

وكثيرًا ما يرجع سبب الشكوى من الصداقة إلى أن الشاكين أنفسهم يعوزهم الميل إلى المصادقة؛ لافتقارهم إلى القلب المحب؛ ولأن معظم مؤهلات الصداقة تنقصهم؛ أو لأنهم يتخذون الصداقة وسيلة لرفاهيتهم، وإشباع أنانيتهم.

يكلفون الصداقة فوق وسعها

عيب الصداقة ليس ندرتها، بل هو مغالاة الناس في تصور مقدرة الصديق على الاضطلاع بما لا قبل للطبيعة البشرية باحتماله، مما يجاوز السعة، أو مما يسع القلة النادرة إطاقته بعض الوقت. ويعجز الإنسان حتى عن صنعه لنفسه، ولا يكون من الحصافة ولا الإنصاف أو حسن الرأي أن يجشمه المرء صديقه.

الفصل الثاني
ذم الصداقة والأصدقاء

المبحث الأول

الناعون على الصداقة من غير العرب

قدماء المصريين

عرف قدماء المصريين أهمية الصداقة، وقدسوا واجباتها، وكانوا يستنكرون الجحود، والتقاعس، والخيانة؛ فمن أقوالهم:

جاحدو الجميل: أمس يُنسى، ولمن صنع لا يُرد الجميل في هذه الأيام.

الضيق يعصف بالصديق: ليس للإنسان أهل في يوم الضيق.

يأكلون ويتآمرون: آكل طعامي تآمر ضدي.

لا يجد من يستحق صداقته فينتحر

كما سجل الأدب المصري القديم حوارًا بين معتزم الانتحار ونفسه. وهو ينعى انهيار مقاييس الصداقة في مجتمع اليوم:

مع من أتحدث اليوم؟ زملائي أشرار؛ وأصدقاء اليوم لا يحبّون. مع من أتحدث اليوم؟ قضى «الجنتلمان»؛ أما السليط فقد صار له حق الدخول على كل إنسان. مع من أتحدث اليوم؟ لا أحد يتذكر دروس الماضي؛ لا أحد في هذا الزمان يرد الجميل.

«التـوراة»: يحبهم فيخاصمونه ويبغضونه

وقد شكا بعض الأنبياء في «التوراة» من الأصدقاء، فقالوا: بدل محبتي يخاصمونني.. وضعوا عليّ شرًّا بدل خير، وبغضًا بدل حبي.

لا صديق للفقير: أيضًا من قريبه (صديقه) يُبغض الفقير، ومحبو الغني كثيرون.

لا يثق بأحد: لا تأتمنوا صاحبًا، لا تثقوا بصديق.

جروحه من بيت صديقه: فيقول له ما هذه الجروح في يديك، فيقول هي التي جرحت بها في بيت أحبائي (أصدقائي).

«ابن سيـراك»: يتركك في بليتك ويكشف مثالبك

كما نوّه «ابن سيراك» بوجوب التحرز من الأصدقاء؛ لأن من الناس من هو صديق لمناسبته الخاصة، ولا يدوم في يوم البلية. وأيضًا ثمة صديق هو مؤاكل لا يستمر في يوم بليتك، لكنه يكون في سرائك مثل نفسك، شديدًا على خدمك، فإذا تدهورت وقف ضدك، وتوارى عن وجهك. وثمة صديق، إذا انقلب إلى العداوة والخصام، يكتشف مثالبك.

«أوفيد»: الصديق لا يؤتمن

ويقول «أوفيد»: إن الصداقة ليست إلا مجرد اسم. ومع أنه ينوه بأن حفيد «أكتون» لم يخن قط «أخيلوس»، وأن «فيدرا» لم ترتكب الخطيئة مع «بيريسيس»، وأن «بيلادس» أحب «هرميون» حبًّا نقيًّا، كما أحب «فيبوس» «باللاس»؛ غير أنه يقول: إن حماستك في وصف الحبيبة قد يثير أعز أصدقائك فييمم من فوره شطر فراشك.

«أوغسطين»: مساوئ الصداقة وأعباؤها

نظرة «أوغسطين» إلى الصداقة منفعية عكسية: فبدلاً من إبراز مزايا الصداقة إعلاء لمكانتها، فإنه يتخذ من مضايقاتها حجة في الحض على مجانبتها.

فهو ينوه بأننا كثيرًا ما نخطئ في حالتنا الحاضرة التاعسة، فنحسب صديقًا عدوًّا، أو عدوًّا صديقًا؛ فإذا وقينا التورط في هذا الخطأ لم نأمن على أصدقائنا، وهم عزاؤنا الوحيد في الدنيا، أن يبتلوا بالجوع أو الحرب أو المرض، أو الأسر أو العبودية؛ بل نخشى عليهم ما هو شر من هذا: أن يتغيروا فيغدروا أو يحقدوا أو يظلموا. فإذا كان ما خفنا أن يكون، مزقت الغصص قلوبنا، حتى لنؤثر أن نسمع نعيهم. أما من أراد السلامة من مكابدة مثل هذا الحزن، فليتحاش عقد الصداقة، أو أي علاقة أخرى بالناس، أو على الأقل فليحاول حماية روحه من تذوق حلاوتها.

ويبدو أن «أوغسطين» يهدف إلى التهوين من قدر صلاتنا بالناس، ليخلص إلى أن الرابطة المثالية، إنما تكون بالمولى -عز وجل؛ وفاته أن علاقتنا بالله لا تبلغ تمامها إلا

عن طريق علاقتنا بالناس. ومع ذلك فقد كان لهذا القديس صديق هو تلميذه الطاهر «اليبيوس»، الذي لازمه طوال حياته:

«سويفت»: إني متعب من الأصدقاء

قال «سويفت»: إني متعب من الأصدقاء، وكل الصداقات غير سوية.

ولعل «سويفت» يكون قد غيّر رأيه بعد أن كرمه صديقه «إديسون»، ولم يمنعه اختلافهما في الرأي السياسي من أن يبرّ به، مستهدفًا لإثارة حفيظة الأحرار الذين عينوه حاكمًا لإسكتلندا.

«كانط»: يا أصدقائي، لا يوجد أصدقاء

عزا «كانط» إلى «أرسطو» أنه قال: «يا أصدقائي الأعزاء، إنه لا يوجد أصدقاء أبدًا». مع أنه بريء من هذه الفِرية، وكل ما قاله هو أن كثير الأصدقاء ليس له صديق واحد حقيقي، ولعل «كانط» قد ضلله خطأ في رسم النسخة اليونانية؛ ولو أن «أرسطو» لا يسلم بوجود الأصدقاء، لما ألّف في الصداقة.

الصداقة فكرة لا سبيل لتحققها كاملة

ومن رأي «كانط» أن الصداقة فكرة، وأن مكانها هو في الذهن، وأنها وإن كانت فكرة شديدة اللزوم في الأخلاق، فإنها ليست مستمدة من التجربة، وإن الأمثلة التجريبية على الصداقة غاية في القصور.

وهو يقول إننا نحتاج إلى معيار لقياس الدرجة، وقد يكون المقياس طبيعيًا أو عرفيًا، تبعًا لكون الكمية المقيسة محددة أو غير محددة بوساطة تصورات أولى يفترضها الذهن قبل التجربة.

وإنه ليتساءل: ما المعيار الحاسم الذي نقيس به الكميات المحددة أوليًا؟ إن المعيار في هذه الحالات هو الحد الأعلى، النهاية العظمى الممكنة. وحينما يستخدم هذا المعيار كمقياس للكميات الأقل، فهو فكرة مستمدة من الخارج وليس من التجربة، وعندما يستخدم كنموذج فهو مثال.

والآن، فإننا إذا قارنا ميول الناس التأثرية، ألفيناهم يوزعون محبتهم بين أنفسهم وأصدقائهم، بدرجات ونسب شديدة التفاوت.

والصداقة هي المعيار الذي نحدد بوساطته المحبة المتبادلة؛ لأن الصداقة أقصى درجات المحبة المتبادلة، فهي مثال.

وأن أعظم محبة يمكن أن أحب بها غيري، هي أن أحبه محبتي لنفسي. ولكن إن كان لي أن أحبه كما أحب نفسي، فلابد أن أتأكد من أنه سيحبني محبته لنفسه، وهو إذ يرد إليّ ما تخليت له عنه، فإني أثوب إلى نفسي من جديد.

وهذه الفكرة عن الصداقة، تتيح لنا قياسها، واستبانة مدى قصورها. لذلك فإن «أرسطو» حين يقول: «يا صديقي العزيز لا يوجد أصدقاء». فإنه يكني بذلك عن أنه لا توجد صداقة تتطابق تمامًا مع فكرة الصداقة. وإنه لعلى حق؛ لأن المطابقة المطلقة مستحيلة، ولكن الفكرة حقيقية:

هبني اخترت الصداقة وحدها، فعنيت فقط بسعادة صديقي، مؤملاً في أن يعنى هو بسعادتي؛ إن حبنا يكون متبادلاً، منطويًا على تعويض كامل: أرعى أنا سعادته بدافع أريحي، ويرعى هو أيضًا سعادتي، لا أطوّح بسعادتي، بل أنوطه بها، وهو بدوره ينوط بي سعادته.

ولكنها فكرة لا غناء فيها إلا من حيث صلاحيتها للتأمل، أما في الحياة العملية، فإن مثل هذه الأمور لا تقع.

نقد «كانط»

غالى «كانط» في تصوير الصداقة المثالية. واستند إلى التصريح المنسوب خطأ إلى «أرسطو»، ليدلل على أن الصداقة تكاد تكون مستحيلة عمليًا. ولعل خلو حياة «كانط»من صديق، أو زوج، كان له الأثر الكبير في اتخاذه هذا الموقف من الصداقة، الذي كان محل مؤاخذة شديدة لدى الأخلاقيين.

وقد نوه «تيل» في كتابه «الخلقيات الكانطية» بشكوى «كانط» ضد الإنسانية بسبب الزيف الخلقي الذي لا تسلم منه حتى الصداقة الحميمة، بحيث صار من الحكم الحقيقية المسلّم بها بصفة عامة أنه يجب على الناس، ولو كانوا من أحسن الأصدقاء، أن يكفّوا من غرب ثقتهم في اتصالاتهم المتبادلة، وأن يستعد المحسن لاتقاء نزعة الكراهية في الشخص الذي يدين له بالمعروف؛ ولم تسلم المحبة الخالصة ذاتها من ملاحظة القائل بأننا نجد في مصايب أحسن أصحابنا شيئًا لا يخلو تمامًا مما نسرّ له، ومن كثير من الرذائل الأخرى المتوارية تحت مظهر الفضيلة.

«تشارلس لام»: الاندفاع إلى اتهام الأصدقاء

أحسن «تشارلس لام» تصوير أحد الناقمين على الصداقة والأصدقاء، إذ قال يخاطبه: إنك تستحضر صورة ذهنية لكل الأحاسيس الحنون التي استشعرتها نحو صديقك، وما كنتَه له، وما كان يمكن أن تكون بالنسبة إليه، لو أنه مكّنك: كيف دافعت عنه في هذا الموضع أو ذاك، وكيف كان اسمه الطيب، وسمعته الأدبية، وما إليها، أغلى عندك من اسمك وسمعتك. قلبك يتشوف إليه على الرغم منه، في وسعك أن تبكي دموعًا من دم لولا وازع من كبريائك.

أيوجد بين أصدقائك واحد لم يثبت لك أنه خاوٍ مزيف زلق كالماء. ولك هنا أن تتصور أن فكرة الصداقة ذاتها بأجزائها المكونة لها، كالشرف والأمانة والثبات، لا وجود لها إلا في قلبك وحده. تصور نفسك الصديق الوحيد.

والآن تتكاثف الظلمة، ويتألق نجم حب النفس الصغير، ليدفع بك إلى ظلمات أبعد غورًا. تأمل كيف عوملت معاملة ظالمة على نحو غريب؛ حيث كنت، بغض النظر عن عرفان الجميل، وما يتبادله الأصدقاء من مجاملة، لا تتطلع لأكثر من العدالة: الحق المجرد لجميع الناس.

أنعم نظرك في أن الفكرة المجردة عن الحق واللائق قد ولت من الدنيا، أو أن قلبك هو مقرها الوحيد، حتى تتفتح نفسك لتصبح على الأقل أحد نصفي الكرة الأرضية، أما نصفها الآخر فهو صحراء أصدقائك الحجرية، والعالم المشار إليه سابقًا. إن مسرات التجهم الحقيقية هي في أن يتزايد حجم غرورك كل دقيقة، وأن يتناقص حجم العالم، أن تؤلّه نفسك على حساب نوعك.

«كارليـل»

يقول «كارليل»: كدت أستشعر عاطفة الصداقة التي صارت الآن مهجورة من نحو السيد «الطيب أكثر من اللازم» ذلك الشاب الحاني الرأس، العنيد الرأس، المخطئ الرأس.

أجل فقد شعرت رغم سخافتي وجهلي، بأني كنت مستطيعًا في ظروف معينة أن أحب ذلك الرجل، وأضمه إلى صدري وأصير أخاه مرة ودائمًا. ولكني مع ذلك أفهم بالتدريج الوقت الجديد، ومطالبه. إذا كانت نفس المرء، كما في اللغة الفنلندية ومذهب المنفعة نوعًا من «المعدة»، فماذا عساه أن يعني الاتحاد الروحي إلا أنه مؤاكلة؟ وبذلك فإننا عوضًا عن أن نكون أصدقاء، فنحن ضيوف عشاء؛ ونكون هنا كما في مواضع أخرى قد اطرحنا الأوهام.

ليس في الدنيا صديق

وهو يقول أيضًا: عزلتني عن كل حيّ جدران خافية عن العيان ولكنها لا تُخترق، كأنها مسحورة: أكان في الدنيا الواسعة صدر مخلص أستطيع ضمه إلى صدري؟ أيتها السماء.. لا.. لا يوجد! ألصقت بقُفلٍ شفتيّ، لماذا أتحدث كثيرًا إلى هذه الجماعة المتغيرة المتنقلة المسماة أصدقاء ممن صارت الصداقة في نفوسهم المتغضنة المتكبرة المتضورة تقليدًا لا يصدق؟ في مثل هذه الحالات تكون سلامتك في قلة الكلام، على أن يكون معظم هذا القليل من أقوال الصحف.

«إيمرسون»: عزاؤنا أننا واجدون أصدقاء في عالم آخر

يقول «إيمرسون»: نحن نسير وحدنا في هذه الدنيا. الأصدقاء الذين نرغب فيهم أحلام وخرافات. ولكن أملاً ساميًا لا يبرح يبهج القلب المؤمن: إنه في موضع آخر في مناطق أخرى من القوى الكونية، توجد أرواح عاملة، متحملة جسور، يمكنها أن تحبنا، وتمكننا من محبتها.

أقوال أخرى

الصداقة اسم فارغ خادع

قال بعض المتشائمين: إن الصداقة كلمة، اسم فارغ، أطلق ليخدع من تغريهم طبيعتهم الطيبة بالتصديق؛ تعويذة مخدرة؛ ظل يتبع الثروة والشهرة، ويذر التاعس ينتحب. لا يوجد في الدنيا شيء اسمه صداقة، إن أقصى ما يمكن أن نأمله هنا حياد ساكن.

فلتصر عدوّي لأجل الصداقة

وكتب «وليام بلاك» إلى «هايلي» يقول: كثيرًا ما أوجعت صداقتك قلبي، فلتصِرْ إذن عدوي لأجل الصداقة.

المبحث الثانــي

النعي على الصداقة في الأدب العربي

يائس من وجود صديق

قيل لـ «رويمة»: ما أقعدك عن طلب الصديق؛ قال: يأسي من وجدانه.

يقنع بنصف صديق

سئل أعرابي: ألك صديق؟ قال: أما الصديق فلا؛ ولكن نصف صديق؛ قيل فكيف انتفاعك به؟ قال انتفاع العريان بالثوب البالي.

ربنا احفظنا من أصدقائنا

كان رجل يدعو، فيقول: اللَّهُمَّ اكفني بوائق الثقات، واحفظني من الصديق.

أصدقاؤنا مصدر بليتنا

وكتب رجل على باب داره: جزى الله من لا يعرفنا ولا نعرفه خيرًا، فأما أصدقاؤنا فلا جُزوا ذلك، فإنا لم نؤتَ قط إلا منهم.

ثلاثون سنة ينشد صديقًا

سمع «ابن عطاء» رجلاً يقول: أنا في طلب صديق منذ ثلاثين سنة فلا أجده؛ فقال له لعلك في طلب صديق تأخذ منه شيئًا، ولو طلبت صديقًا تعطيه شيئًا لوجدته.

قال «أبو سليمان» هذا كلام ظالم، الصديق لا يطلب ليؤخذ منه شيء، أو ليُعطَى شيئًا؛ ولكن ليسكن إليه ويعتمد عليه، ويستأنس به، ويستفاد منه، ويستشار في الملم، وينهض في المهم، ويزيّن به إذا حضر، ويتشوق إليه إذا سفر. والأخذ والإعطاء في معرض ذلك جاريان على مذهب الجود والكرم.

عفاء على الصداقة

ويقول «أبو حيان»: الصداقة، والألفة، والأُخوّة، والمودة، والرعاية، والمحافظة قد نبذت نبذًا، ورفضت رفضًا، ووطئت بالأقدام، ولويت دونها الشفاه، وصرفت عنها الرغبات.

مشتاق إلى ظل صاحب

لما غنّى «علوية» «المأمون» قول الشاعر:

وإني لمشتاقٌ إلى ظلِّ صاحبٍ ... يرُق ويصفو إن كدرتُ عليه

عذيري من الإنسان لا إن جفوتُه ... صفا لي، ولا أن صرتُ طوعَ يديه

استعاده «المأمون» مرات، ثم قال: هات يا «علوية» هذا الصاحب، وخذ الخلافة. قد صرنا ولله الحمد نرضى اليوم من الصاحب، والعامل، والتابع، والمتبوع أن يكون فضلهم غامرًا لنقصهم، وخيرهم زائدًا على شرهم، وعدلهم أرجح من ظلمهم، وإنهم إن لم يبذلوا الخير كله، لم يستقصوا الشرّ كله؛ بل قد رضينا بدون هذا، وهو أن نهب خيرهم لشرهم، وإحسانهم لإساءتهم، وعدلهم لجورهم، فلا نفرح بهذا، ولا نحزن لذاك، ونخرج بعد اللتيا والتي بالكفاف والعفاف.

لا صديق ولا شبه صديق

حديث الصديق حلو، ووصف الصاحب المساعد مطرب؛ وقبل كل شيء ينبغي أن نثق بأنه لا صديق ولا من يتشبه بالصديق.

الشغل بهم تضييع للحياة

قال «جميل بن مرة»: صحبت الناس أربعين سنة، فما رأيتهم غفروا لي ذنبًا، ولا ستروا لي عيبًا، ولا حفظوا لي غيبًا، ولا أقالوا لي عثرة، ولا رحموا لي عبرة، ولا قبلوا مني معذرة، ولا فكّوني من أَسرة، ولا جبروا مني كسرة، ولا بذلوا لي نصرة؛ ورأيت الشغل بهم تضييعًا للحياة، وتباعدًا من الله، وتجرعًا للغيظ مع الساعات، وتسليطًا للهوى في الهنات، بعد الهنات.

الحكمة في إنكارهم

قال «الثوري» لرجل طلب نصيحته: أنكِر من تعرفه. قال: زدني. قال: لا مزيد.

لا غناء فيهم

وكان «ابن كعب» يقول: لا خير في مخالطة الناس، ولا فائدة في القرب منهم، والثقة بهم، والاعتماد عليهم.

الصديق لا يوجد

قال «العتابي»: قلت لأعرابي قحّ: إني أريد أن أتخذ صديقًا، فانعته لي حتى أطلبه. قال لا تبعث فإنك لا تجده.

ليس من صديق يسرّ

لــــمْ يــبــقَ في الــنــاســِ حــرٌّ ولا صــــديــــق يَــــسُــــرّ
وكــــلّ مــــن ترتضيــه عنــــد المــذاقــــة مُــــرّ

الخير في هجرهم

إخـــــاء الـــنـــاس ممــتــزجٌ وأكـــبر فِـعْـلِـهـم سـمـجُ
فـــإن بـــدهـــتــك مـفـظـعـةٌ فـــمـــا لـــدنـــيـــثـــهـــم فـــرجُ
تـقـوّمـهـم بـهـجـرهِـم فـــإن لـــم يـهـجـروا اعـتـوجُـوا

ليس في الدنيا صديق

قال «أبو إسحاق إبراهيم بن هلال»:

أيـا ربّ كـل النـاس أبنـاء علـةٍ أمـا تَـعْـثُرُ الدنيـا لنـا بصديـق

ومن لي بالصحيح المسلّم

قال «عبد الله بن الطاهر»:

طلبتُ أخـًا محضًا صحيحًا مسلمًا نقيًا مـن الآفــاتِ في كـلّ موسمِ
لأمنحَهُ ودّي فلــمْ أجــدِ الذي طلبتُ ومـنْ لي بالصحيح المسلّم

مسبعة الصاحب والرفيق

ألا ليتي حيث انتوتْ أفـرخُ القطا بأقْصَى محـلٍّ في الـفـلاة سحيق
أخــو وحــدة قـد آنستني كأنني بـهـا نــازل في معشري وفريقي
فذلك خــيرٌ للفتـى مِــنْ ثوائِهِ بمسبعةٍ مِــنْ صـاحـبٍ ورفـيــقِ

٣٠٠ صديق جاحد

قامت إحدى الصحفيات بتفتيش كاتب شهير، فوجدت في جيبه مظروفًا صغيرًا كتب عليه «سري» فيه قائمة سوداء باسم ثلاثمائة صديق لم يسئ إليهم وأساؤوا إليه.

كما اكتشفت الصحفية البارعة في نفس الجيب زجَلاً عن جحود الأصدقاء!

الكتاب الثاني

مؤهلات الصداقة ومعوّقاتها وأسباب قيامها

البـــاب الأوَّل

مؤهلات الصداقة؛ ومعوّقاتها

الفصل الأوّل

مؤهلات الصداقة

«وله خلائق بيض لا يغيّرها صرف الزمان كما لا يصدأ الذهب»

المبحث الأَوَّل

الاستعداد الشخصي للصداقة

فكرة الأطفال عن مقدمات الصداقة

يتلقى الأطفال منذ نعومة أظفارهم في دائرة الأسرة قبل دخول المدرسة، وفي رياض الأطفال، والمدارس الابتدائية، بعض مقدمات عن علاقات الصداقة والأسرة، فيعرفون مدى ما يجب عليهم أن يتنازلوا عنه لمن يحبونهم، ومقدار ما هم مطالبون ببذله: أيعلن المرء النضال إذا خالف غيره في الآراء والرغبات؛ أيكون أنانيًا محبًا للذات، أم جوادًا كريمًا سمحًا، يكيّف نشاطه ونزعاته، وفقًا لحاجات الآخرين وحقوقهم.

والأطفال يتعلمون في هذه السن المبكرة شيئًا عن واجبات الوالدين ومسؤولياتهم وامتيازاتهم، وما يستحسنه الرجال في النساء، وما يتوقعونه منهن أو ما يتنازلون عنه لهن؛ وما ينتظره النساء من الرجال، أو يتخلين عنه لهم.

اكتساب البراعة الاجتماعية

ولابد للطفل من أن يتطور تطورًا اجتماعيًّا كافيًا في خلال سني النمو ليكتسب خبرة تساعده على التعامل بكفاية مع مختلف الأشخاص الذين سوف يصادفهم، ويتصل بهم مهنيًّا أو اجتماعيًّا؛ فيتعلم ضبط نزواته الشخصية، ورغباته وحالاته النفسية، ويعرف كيف يسمح، ويعامل الناس في تعاطف وجداني يتّسم بالكرم.

وتتوقف على هذه البراعة الاجتماعية مقدرة الطفل إذا كبر، على فهم الصداقة وتقديرها، وعلى كسب الأصدقاء والاحتفاظ بهم؛ فيشبّ متزن الشخصية، مكتمل الصحة النفسية.

الإلمام بآداب السلوك

التعامل السهل، أو السلوك الاجتماعي المقبول، يمهّد طريق العلاقات الاجتماعية، فهو يساعد على معرفة ما يصنعه الإنسان بيديه وقدميه، وكيف يقدم الناس للناس، وكيف يطلب الغذاء ويتناوله، وكيف يتحدث في يسر وإقناع عن لا شيء على الخصوص؛ كل هذا لا غناء عنه. وتتوطد هذه البراعات والآداب إذا تعلمناها مبكرين.

والاهتمام براحة الغير ورغباتهم، يجيء نتيجة الخبرة بهذا الاهتمام في الطفولة؛ أو التوافر على أخذ النفس بالنظام الدقيق، وبالملاحظة الشديدة لردّ الفعل على الآخرين في مرحلة الطفولة المتأخرة والبلوغ.

أما من فاتهم حظ تحصيل هذه الامتيازات الثقافية في الطفولة، فحريّ بهم أن يتعلموها، فيما بعد عن طريق الممارسة الدائبة مستعينين بكتب آداب السلوك.

المصادقة دليل الصحة النفسية

ثمة أطفال متوافقون اجتماعيًّا، تنمو معهم محبة الناس، فهي عندهم طبيعة ثانية، كالميل للموسيقى، والوَلَع بالأطعمة الشهية.

ويقول «أوفرستريت»: إن القدرة على عقد الصداقة من علامات الصحة النفسية، وهي نوع من الاستعداد لتقبّل الناس على علاّتهم، والترحيب بهم، واحترام حقوقهم، وتفهّم أحاسيسهم تلقائيًّا بغير حاجة إلى حفز أو توجيه، والاستماع بالمشاركة الفسيحة المدى التي تشمل الصديق الحميم ولا تستبعد عابر السبيل، في سماحة خالصة من التحيّز، خالية من الانحجاز، أساسها حسن الظن بالناس، واعتبارهم جميعًا جديرين بالمحبة والتقدير.

والقادرون على المصادقة يتوسمون الخير فيمن يلقون، ولا يضنّون بخالص مودتهم وإقبالهم، وكأنما يؤمنون بأن الوافدين الجديرين بثقتهم وتقديرهم ومحبتهم سيظل يتدفق سيلهم أبدًا بغير انقطاع.

وإن هؤلاء ليتصفون بالمكارم والسخاء، ويتخذون من الناس ومن آرائهم وأفكارهم ومشاكلهم موقفًا طابعه الترحيب؛ ويعتبرون الصداقة نبتًا من واجبهم، أو من مصلحتهم أن يغرسوه، وأن يتعهدوه.

الطفل غير المتوافق اجتماعيًّا

ومن علامات عدم توافق الطفل اجتماعيًّا، عجزه عن اتخاذ الأصدقاء، وليس يجدي وعظه بضرورة المصادقة، فإن الحضّ يزيده قصورًا وشعورًا بالذات. والأطفال غير المتوافقين اجتماعيًّا قد لا تنقصهم رغبة المصادقة، بقدر ما تعوزهم المقدرة على اكتساب الأصدقاء، فهم حائرون لا يدرون ما يصنعون، ومنهم من يحسب نفسه قادرًا على التوافق لو أنه اهتدى إلى معارف جدد، وهو لذلك يتطلع إلى تغيير مدرسته؛ ومنهم من يتصور إمكان شراء الأصدقاء بالهبات والمجاملات، فهو يبتاع الهدايا الفاخرة لمدرسيه وأصحابه، ولو اضطر إلى سرقة ثمنها.

وربما هدد الطفل من يصغرونه سنًّا، ليحدوهم على ملاعبته، أو قصّ عليهم القصص عن مغامراته، أو حاول استعراض قواه للتأثير في أقرانه.

وقد ينتقم ممن حاول عبثًا اكتساب مودتهم، أو يمارس معهم الخدع المبتذلة.

عوامل التوافق الاجتماعي للمراهق

ولكن الأصدقاء لا يكتسبون في مكان دون مكان، ولا يكون الحصول عليهم بالهدايا أو التهديد، بل لابدّ للمراهق أن يتعلم أولاً كيف يتقبل ذاته كفرد، وهذا يتضمن توافقه مع مظهره وكفايته، وأن يتعلم قبول نفسه عضوًا في جماعة، فيدرك أن معارفه العديدين يختلفون من نواحٍ منوعة، وأن سلوكهم يحتمل أحيانًا أن يكون غير متوقع، كما أن عليه أن يقبل الآخرين، مع التسليم بما بينه وبينهم من فوارق، وتحري الأساليب التي تزيده قبولاً لديهم.

الصداقة والمحبة فن يكتسب

ولما كانت الصداقة الوثيقة تسبر أعمق أغوار الشخصية، فلا يستطيع المرء أن يخفي عن صديقه عاداته ورغباته واندفاعاته، فإن الصداقة المهذبة والمحبة السليمة من شأنها أن تؤثر في شخصية الصديق، فتصقل عاداته واتجاهاته وأحاسيسه وتنظّمها وتخلّصها من الشوائب.

فليس يكفي في الصداقة أن يكون الإنسان شخصًا، بل يجب أن يعرف كيف يجد الأشخاص الآخرين الذين يستجيبون لنفسه الحقيقية، وكيف يكسبهم؟ ومن الوجهة المثالية، فإن كل شخص يجب أن يصير شخصية أغنى، وأنفع وأسعد، بسبب الصداقة وخبرات المحبة.

فن الإرضاء وقواعده

وكان «سقراط» يعتقد أن ثمة فنًا وقواعد مؤكدة للإرضاء، كما أن هناك قواعد للإفصاح، وأن الذي يحسنها ويمارسها لا بد أن ينجح في تحبيب نفسه لكل الناس.

وينحصر فنّ اكتساب محبة الناس، في أن نجعل أنفسنا نافعين وضروريين. وقد قال «هيجو»: أن تكون صديقًا هو أن تعرف كيف تجعل مَن هو ضروري لك، عاجزًا عن الاستغناء عنك؟

قال «نيتشة»: يجب أن نتعلم كيف نحب، وكيف نكون طيبين؟ فإن لم يُتَح لنا التمرين على هذه العواطف منذ الصبا، تيبّست نفسنا.

سمات القادر على كسب الأصدقاء

قال «سقراط» لـ«كريتوبيل»: إذا أذنت لي أن أقول عنك إنك تُعْنَى بأصدقائك، وإنك لا تحبّ أحدًا بقدر ما تحب صديقًا طيبًا، وإنك فخور بأعمال أصدقائك الجميلة، فخرك بأعمالك الخاصة، وإنك تبتهج بسعادتهم، كما تغتبط بسعادتك، وإنك لا تألو جهدًا لتجعلهم سعداء، فإذا أضفت أنك تنطوي على فضيلة الرجل الذي يفوق أصدقاءه في الكرم، وفي الانتقام من أعدائهم؛ فإني أعتقد أني سأجدك معاونًا في التماس الأصدقاء.

وما كانت فصاحة «سقراط» وجاذبيته لتعقدا له أستاذية الحب، لولا نشاطه في ممارسة الجود المخلص: فقد كان المنعم على تلاميذه، فإذا عجز عن إسداء المعروف بنفسه، أولاهم إياه عن طريق سواه.

صفات الصديق المفضل

يقول «مكنى»: إن معظم الطلبة في الكلية يتخذون بعض أصدقاء، ولكن الذين يكتسبون الأصدقاء بسهولة بالغة يغلب أن يكونوا أكثر من غيرهم انبساطًا نفسيًّا، واستقرارًا انفعاليًّا، ومرحًا وتسامحًا وكرمًا، وقدارة في الحديث. وقد طلب إلى طلبة إحدى الجامعات الأمريكية تسجيل أسماء خمسة من زملائهم يرغبون إن استطاعوا أن يعقدوا معهم علاقة وثيقة بعد انتهاء الدراسة، بغض النظر عن الاعتبارات الجغرافية، والعرضية التي يمكن تجاهلها؛ فدلّت الإجابة على أن ثمة ارتباطًا وثيقًا بين عدد مرات انتخاب الطالب نائبًا عن زملائه، وعدد مرات انتخابه كصديق حميم.

الفصاحة المقنعة والأعمال الطيبة

يستخدم «سقراط» لكسب الأصدقاء طريقتين لا تخيبان: الفصاحة المقنعة؛ والأعمال الطيبة: فنحن لا نأخذ الأصدقاء بالسباق كالأرانب، ولا بالشِّرَاك كالعصافير، ولا بالقوة كالأعداء؛ لأن العنف يولد الكراهية لا الصداقة، وفن جعل الإنسان محبوبًا ينفر من استخدام الوسائل غير المستقيمة، وقد قالت «إسبازي»: إن الخاطبات الطيبات هن اللائي لا تكذبن؛ لأننا نستاء من المديح الذي نعلم أننا لا نستحقه.

اللطف الثاوي في القلوب

ويرى «سقراط» أن من العدل الاحتكام إلى اللطف القارّ في القلوب؛ وأن حاجتنا إلى الاعتقاد فيه، تفوق حاجتنا إلى إثارته. فلنقدم غير وَجِلين على المقاربات: فإنه فوق جمال إعطاء القدوة للعواطف الطيبة، حتى إذا لم تلق هذه القدوة استجابة، فإنه لما يسرنا ويشرفنا أن نكون قد قمنا بواجبنا. يجب أن نؤمل دائمًا، وأن نعتقد إلى أن يثبت العكس، في أن الاحتكام الحار إلى طيبة الآخرين يلقى استجابة.

المشاركة الوجدانية

الموفور الحظ من المشاركة الوجدانية، يفتقد منفردًا ما كان يتذوقه في الأشياء من غبطة ..، وهو في صحبة صديق يتعاطف معه وجدانيًا: قد يكون مثلاً شديد الإعجاب بجمال الطبيعة، فإذا اتفق أن تمشّى منفردًا بين أروع المناظر، فإن هزاته الانفعالية، التي لو أن غيره كان قد شاركه فيها لصارت غِبْطَة خالصة؛ تشوبها رغبة غامضة إلا أنها مؤلمة، ربما استبان طبيعتها، أو قد تخفى عليه. وليس بمستبعد أن يشغل نفسه بالتعليق العقلي

على المنظر المترامي أمام ناظريه، ثم يُهْرَع إلى صديق يعرف أن استماعه لوصفه سوف يمتعه، فينقل إليه انطباعاته لكي يشاركه في انفعالاته.

الروح الرياضية والنظام وضبط النفس

من أهم مظاهر الاستعداد الشخصي لعقد الصداقة، قدرة المرء على الاحتفاظ باتزان مزاجه يومًا بعد يوم في مواجهة ما يبدر من الناس في معاملتهم من مثيرات تتطلب ضبط النفس. وأن لا يفضي بمضايقاته الشخصية إلاّ للأقربين، وأن يتحمل نصيبه، وأن يحسن الابتسام، ولو كان غير منشرح الصدر، ولا رخيّ البال.

الصحة شرط لتذوق الصداقة

والصحة أيضًا ضرورية في صدد الصداقة، كما هي لازمة للاستمتاع الكامل بسائر العلاقات، فلابد للشخص من صحة كافية ليكون كسبًا لا عبئًا في المشاركة الوادعة لصداقة قوية.

أثر المظهر في كسب الأصدقاء

ويساعد المظهر على كسب الأصدقاء، وإن صارت للمميزات الخلقية والشخصية... أهمية كبرى بعد مجاوزة فترة المراهقة.

الجاذبية الشخصية تزيدها المعلومات

تزيد القيمة المتحركة للجاذبية الشخصية، بتوافر خلفية معقولة من المعلومات الواقعية الممتعة.

المبحث الثاني

التـــأدّي للصداقـــة

المبـــــادأة

لا يظفر بالصداقة من لا يسعى إليها بعمل إيجابي يظهر به رغبته في المصادقة. أما طالب الصداقة الذي يقعد وحيدًا يتلهف على من يسعى إليه مصادقًا، فإن سلبيته خليقة أن تقف حائلاً دون تحقيق أمنيته.

إنما يحب الناسُ الباسطين أيديهم، الجادّين في السعي للظفر بصداقتهم، غير القانعين بمجرد الجلوس والتمني، بل القائمين بالعديد من أعمال المودة البسيطة الإيجابية المهذبة: يسألون، ويهنئون، ويعودون، ويعنون بالآخرين وبما يصنعون.

فلتكن جديرًا بالمصادقة

انطلق «ديوجينوس» والمصباح بيده يبحث عن رجل حقيقي، وليس بمستغرب أنه لم يهتد لضالته؛ لأن الوسيلة المثلى للقاء رجل حقيقي، أن تصير أنت نفسك ذلك الرجل.

روح المصادقة

لكسب الأصدقاء، يجب أن يكون المرء أكثر من مصادق، والمقولة القديمة: «إن أردت أن يكون لك أصدقاء؛ كن صديقًا» هي نصف الحقيقة، فكثيرًا ما يُستبعد أشد الناس مصادقة لضعف شخصيتهم؛ إنما تُستوفى شروط المصادقة بالكرم والحنان، والمعونة، والرغبة في إدخال السرور، والكياسة، والعناية بالآخرين.

فلكي تكون للشخص شعبية يجب أن يعتدّ بما هو عليه، وبما يساهم بإسدائه إلى الجماعة؛ لا بمجرد استيفائه سمة أو أكثر، مما يعتبر عادة من مؤهلات كسب الأصدقاء.

التحلي بالصفات الاجتماعية المحببة

من مؤهلات الصداقة التحلي بالصفات الاجتماعية المحببة، وقد وجه «برتون» في كتابه: «قوة الحياة الإيجابية» نصائح تساعد على اكتساب هذه الصفات:

- دع التكلف في ممارسة ما تليه من أعمال، واحرص على إفعامها بالحيوية. تحاسن التعليق على الآخرين بملاحظات لا تبديها في مواجهتهم، جانب النقد، مجانبتك الطاعون.
- إياك والجدل، فإن تورطت في جدل فلا تفقد إربك، بل حاول أن تتبين وجهة نظر من تحاوره.
- بادر بإبداء عناية حقيقية بما يتحمس له أصدقاؤك.
- أظهر احتفالك بالأحداث الخاصة، التي تهُمّ من تعرف.
- نوّه للآخرين بمميزات معارفك وأصدقائك؛ وإنجازاتهم.
- اعمل حسابًا دقيقًا لحساسية الآخرين، وتغيّر أمزجتهم.
- التمس الرأي والنصيحة عند أصدقائك وغيرهم.
- اخرج عن طريقك لتسدي المعروف.
- أنجز ما وعدت بصنعه.
- احتفظ لنفسك بشكاياتك وتحاملك.

- كن السابق بالخطوة الأولى، لتوثيق علاقتك بمن تريد الاستزادة من معرفته.
- اقترح لأصدقائك وجوه النشاط التي تحسبها ممتعة.
- امتنع عن التطفل على ما يكشفه الآخرون من خصوصيات.
- كن مرحًا؛ وإياك أن تفرض على الناس كآبتك، ورثاءك لذاتك.
- لا تفرض صداقتك، ولا تعتبر صداقة الآخرين أمرًا مقضيًّا.
- تطوع بإسداء الخدمات الصغيرة.

إشباع لهفة الناس على التقدير

قال: «إبراهام لنكولن» في أول خطبة للناخبين: ليس لي مطمع أهم من إحراز تقدير زملائي.

وقد استخدم «نابليون» الجيوش لدعم شعوره بقيمته الشخصية؛ وكان يلطف من لهفته على التقدير، وهو على فراش الموت، أن... مدرسًا خاملاً للرياضة، في أكاديمية «برين» العسكرية؛ لابد أن يكون قد عرف بشهرته العالمية. وقد كان المدرس يستهين بمقدرة «نابليون» الشاب؛ فلم ينس له «نابليون» قط هذا المساس بذاته.

التطلع إلى أحسن ما في الناس

يجب أن يكون الاهتمام بالآخرين وديًّا، ليس اهتمام متعقب الأخطاء، أو المتجر بالفضائح؛ فقلما يسعد بالحياة أو ينجح فيها واحد من هذين. أما المتطلع إلى أحسن ما في الناس، فإنه يكافأ بما يتكشف له فيهم من صفات كثيرة تستحق الإعجاب؛ كما أنه يبعث أحسن ما في الناس وما في نفسه من مزايا.

ضع نفسك مكانه

حين نضع نفسنا محل غيرنا نشعره بأننا قد فهمناه، ونحن إذا فهمنا شخصًا وتبينّا ظروفه ورغباته ومصاعبه، قدرناه وأحببناه؛ لأنه يصير كشخصنا، ننتحل له الأعذار، ونقف بجانبه عوضًا عن مهاجمته.

إن وضع نفسك في موقع الشخص الآخر يجمّل مظهر الوجود بجملته، فهو يقلل الاحتكاك، ويزيد الفهم، ويوسع العقل، ويساعد على سرعة تحقيق الرغبات؛ وهو أعلى صور الكياسة، وأساس كل سياسة.

لا تدن صديقك

ثمة ما يثير السخرية في مسلك من يدينون الناس؛ إنهم ينتحلون لأنفسهم صفة القضاة، ويتبوأون منصة القضاء، ثم يصدرون أحكامهم بغير سماع شيء من دفاع من وضعوهم في قفص الاتهام. إن قليلاً من الكياسة كفيل بمنعنا عن اتخاذ هذا المسلك المسرف في الأثرة، المشوب بالغرور.

الاهتمام بخدمة الصديق

يجب انتهاز كل ظرف يعرض وإظهار إخلاصنا وعطفنا، ومراعاتنا وتقديرنا: فالحياة بالنسبة لمعظمنا تتكون من أشياء صغيرة، وسر النجاح في ملاحظة التفصيلات البسيطة، وليست العبرة بضخامة الخدمة أو بقيمتها، بل بدلالتها على التفكير والمحبة؛ وكم من صداقة قضى عليها الإهمال؛ لأن كلاًّ من طرفيها ينتظر مناسبة كبرى لإبداء وجدانه لصديقه. والواقع أننا نتدرب عن طريق بذل المعونات الصغرى على مواجهة التجربة الكبرى إن قدر حدوثها، حين تواجه الصداقة امتحانها النهائي.

الفصل الثاني
معوّقـــات الصداقـــة

المبحث الأَوَّل
معوقات نفسية

المطلب الأَوَّل: العقبات النفسية العامة

صعوبة المقاربة والتفاهم

يقول «منينجر» في كتابه «الحب مقابل الكراهية»: إن التقارب الحقيقي بين الآدميين في أحسن حالاتهم صعب عسير؛ فإذا تقاربوا وصاروا في حكم الأصدقاء، فليس من السهل حتى على الأصدقاء أن يفهم بعضهم بعضًا، وأن يشعروا معًا على نحو يكفي للاستزادة من ذلك الوجدان السلمي المتجدد.

الجمود العاطفي

وحسبنا أن نلاحظ التهيب التقليدي في مقاربات الناس، ومظاهر الإخلاص المتكلف، والمرح المصطنع التي يفرضها بعضهم على بعض، وما يشعر به الكثيرون من حاجة إلى أن يتخذوا من الاجتماع حول الموائد الحافلة بالطعام والشراب وسيلة لإذابة جمودهم العاطفي، وزيادة شعورهم بالتقارب والألفة.

مشقة التودد والمجاملة

وإن ما يعترينا من نَصَب على إثر جولة اجتماعية، حتى في المناســبات السارة؛ ليدلنا على ما يبذله جميع الناس من جهد في سبيل المحبة والتقدير وحسن المزاملة، وما يعترض طريقهم من سدود تحول دون حصولهم على كل ما تمس إليه حاجاتهم من هذه الهبات.

بديل المحبة لا يغني عنها

في هذا يقول «فرنسيزي» يريد الناس ليحب بعضهم بعضًا، ولكنهم لا يعرفون السبيل: إنهم محرومون متضورون، مفتقرون إلى كلمة أو إشارة أو ابتسامة أو مشاركة تشبع جوعهم. وإن أكثرهم ليحاول جاهدًا أن يملأ هذا الفراغ بما يشبه المحبة؛ بالنشاط، والشهرة، والبذل في سبيل الإنسانية، واكتساب النفوذ؛ وغيرها من آلاف الوسائل لاستخلاص التقدير بدلاً من المحبة؛ ولكن ما من وسيلة منها يمكن أن تسد الحاجة الحقيقية إلى المحبة.

الرهبة من رفع القناع

ومن معوقات المحبة الشعور بأننا غير مقدّرين؛ كما يعوقها الخوف الغامض الذي يخامر أكثر الناس من أن يخترق الآخرون أقنعة الكبت والمداجاة التي فرضتها عليهم التقاليد. إنها هذه هي التي تدفع إلى تحاشي الألفة، وإلى استبقاء العلاقات على مستوى سطحي، وإلى التطفيف من قيمة الآخرين؛ فلا نقدرهم حق قدرهم، خشية أن يصلوا إلى تقديرنا كما نستحق. وقد أوردنا في المطلب التالي مثلاً ضربه «مكني» لطالب من هذا القبيل.

المطلب الثاني: عقبات نفسية خاصة

ظروف شخصية تعوق الصداقة

ضرب «ماكني» في «سيكولوجية التوافق الشخصي» أمثلة لحالات نفسية تؤدي إلى عرقلة قيام الصداقة.

ذاتية المركز (التركيز حول الذات)

طالب ذاتي المركز، انصبَّ عليه التفات كبير منذ نعومة أظفاره، فصار واسطة العقد وقطب الرَّحى؛ وإنه ليستنكر الآن، وقد شبَّ عن الطوق، أن يظفر بالالتفات شخص سواه؛ فهو يبني كثيرًا من الكراهات، وقليلاً من الصداقات.

خشية انكشاف خبيئته

وآخر لا يحصل على أصدقاء؛ لأنه يرفض مقاربة غيره، مخافة أن يعرفوا فوق ما يريدهم أن يعرفوه من أمره؛ وهو لذلك يستبقيهم على مبعدة منه، ولا يرفع معهم الكلفة، بل يصطنع في حضرتهم شيئًا من الصلف والانحجاز، ولا يندمج في ثلتهم، فهو يشعر بسخريتهم الحقيقية أو المتوهمة، ولا يستطيع ممازحتهم.

رد الفعل ضد مآسي الطفولة

والطالب الذي كيد له واضطهد في طفولته، يتخذ موقفًا غير منطوٍ على المحبة، بل يتوقع عداء الآخرين، واتجاهه من الناس عامة ملتوٍ؛ يكرههم ويخافهم، ويظن أنهم يبغضونه ولا يريدونه في جماعتهم.

استدامة علاقات الطفولة بالوالدين

الطفل الذي لم يكتمل تحرره من علاقات الطفولة الوثيقة بأحد والديه، ليس حرًّا في أن يضير من علاقة صداقة حميمة؛ ولا بدّ لتطور الطفل إلى شخص سويّ اجتماعيًّا، قمين باختبار انفعالي ناضج، من أن تتوافر له روابط اجتماعية خارج المنزل، حين يبلغ السادسة أو السابعة.

والطفل الذي لا يتمتع بهذه العلاقات المنضجة، تعوزه العدة للدخول على فترة البلوغ الصاخبة، وتحقيق توافقه الذاتي في أوائل البلوغ.

الفردية والاستقلال

يقول «أوفرستريت» في «العقل الحي»: إن على المرء أن يحاول الاحتفاظ في حياته بقدر من المشاركة في الخبرة يمنع الفردية والاستقلال من أن ينقلبا إلى عزلة ووحدة.

فإذا طال أمد شعور المرء بالعزلة، والعجز أمام خضم المشكلات المعقدة، فلا مفرّ له من النُّكُوص، فيحاول أن يتخذ من العلاقات، التي قُصد بها المشاركة، وسيلة لاسترجاع أحاسيس الأمن والطمأنينة التي نعم بها أيام الطفولة. ويشاهد هذا في الشخص الذي يتخذ الصداقة وسيلة للتملك والغيرة.

الشخصية «السيكوتية»

كان «هتلر» كغيره من أصحاب الشخصية: «السيكوتية» (المصابة بالذهان، وهو مرض عقلي) قليل المقدرة نسبيًّا على التعامل مع الناس، إلا إذا شعر بأن في وسعه أن يستخلص منهم شيئًا.

وربما وقع المصاب بالذهان في محبة نفسه، واستغرق في حاجاته، بحيث تزيد أهميتها عنده على أي شيء أو شخص آخر في الدنيا.

ضعاف المشاركة الوجدانية

ثمة أناس كأنهم مجردون من المشاركة الوجدانية الإيجابية، يحتفظون لأنفسهم بما يخامرهم من انفعالات الإعجاب، أو الاشمئزاز، أو حب الاستطلاع، أو عرفان الجميل، ولا يكادون يجدون غناء في أن يعرفوا أن هناك من يشاركهم انفعالاتهم.

وليس هؤلاء حتمًا غير أهل لانفعال الحنان وعاطفة المحبة. فقد يستشعرون ولاء وانعطافًا نحو أسرهم، ويسلم سلوكهم من تحري المصلحة الشخصية؛ ولكنهم بطبيعتهم متوحّدون، ضعاف الغريزة الاجتماعية إلى حدٍّ غير عادي، وهم لذلك يقنعون بترك أفراحهم وأتراحهم حبيسة في صدورهم.

المبحث الثاني

عقبات اجتماعية وخلقية

المعزولون اجتماعيًّا

أسفرت تجارب علم النفس عن أن الأطفال المعزولين أو المنبوذين، هم الذين تعوزهم الاجتماعية التي يتطلبها رفقاؤهم، كما دلت على أن المنبوذين إنما يجانبون لاعتبارهم مصدر حرمان وتنازع اجتماعي.

المنتحرون اجتماعيًّا باختيارهم

يقدم بعض الأشخاص على الانتحار الاجتماعي مختارين، ويقيم البعض حاجزًا عاليًا بينهم وبين الآخرين، غير شاعرين؛... يتخلون آسفين عن متعة مزاملة الأصدقاء، ومبادلتهم السارة، لمجرد أنهم مدفوعون لتحقيق غاية، أو ممارسة هواية: تستحوذ عليهم، وتستغرق جل فراغهم؛ فيحرمون أنفسهم متعة الاتصال الاجتماعي المتكرر بأصدقائهم.

هؤلاء رجال وحيدون، لا عن نزعة غير اجتماعية طبيعية فيهم، تفصلهم عن زملائهم؛ فإن في وسعهم بمنتهى السهولة أن يستمتعوا بمسرة المشاركة في لعبة مريحة للأعصاب، أو أي صورة من صور الاتصال المنوّعة بجيرانهم.

وهم يدركون غضاضة الاعتذار عن قبول دعوة الأصدقاء، ويشعرون بصعوبة الانتقال من عمل شاقّ إلى هواية لا تقلّ عنه مشقّة. ويعرفون أنهم منتحرون اجتماعيًّا باختيارهم، إذ كان لهم أصدقاء حميمون ففضّلوا عليهم عملهم أو هوايتهم.

المنتحرون اجتماعيًّا، المنبوذون

وثمة المنتحرون اجتماعيًّا الذين يتخلون تدريجيًّا عن محبة أصدقائهم، وسرعان ما يعتبرون في حكم المتعالين على من يعدّونهم دونهم، أو أنهم أشخاص غير اجتماعيين، أو كائنات بذاتها على شيء من الغرابة؛ وسرعان ما يصيرون منبوذين. فضلاً عن أن النأي عن الأقران قد يعدّ دليل فردية سقيمة، أساسها حسبان المرء نفسه أسمى من مخالطة السوقة.

الخجلون المتهيبون

الخجلون المتهيبون من فطنة فرض أنفسهم، المشفقون من أن يساء فهمهم، المتكتمون على أسرارهم؛ يميلون إلى التستر بعيدًا خلف جدار من الانحجاز، وهم بذلك يفقدون قدرًا كبيرًا من متعة الحياة. وقد ألمعنا إليهم في كل من المطلبين السابقين.

نماذج من معوقات اجتماعية

ضرب «ماكني» ثلاثة أمثلة لحالات اجتماعية معوّقة لقيام الصداقة.

أسرة غير اجتماعية: شبَّ طالب في أسرة غير اجتماعية النزعة، انحجز والداه لأمر ما عن الجيران والزملاء؛ فنشأ محرومًا من القدرة على عقد الصداقات.

عزلة اضطرارية: وشخص بلا أصدقاء؛ لأن خبرة باكرة في حياته علمته أن ينفرد: نشأ في مزرعة يرى فيها قليلاً من الناس، فلما بدأ يحتكّ بغيره، كابد صعوبة في مسايرتهم؛ وحمله هذا الإخفاق على أن يرجع إلى الأعمال والتسليات الانفرادية، يشبع بها جلّ دوافعه، ويستمد منها معظم مسراته.

شعور بصدوف الآخرين: وثمة طالبة تشعر بأنها غير مرغوبة، وأنه لا مكان لها في الجماعة وإن لم تعرف السبب؛ إنها تختلف عن أفرادها: فلها طريقتها الخاصة في ارتداء ملابسها، ولها آراؤها المتميزة عن آراء معظم الجماعة، وهي تقضي الساعات وحدها. إنها مشرقة ولكنها لم تصر قطّ اجتماعية، تشعر بالتخلف في الثُّلل الاجتماعية، وإن عرفت بتفوقها فيما عداها. لم تحاول قَطّ التعرف بالآخرين، ولما كانت لا تتميز بطراز خاص، فإنهم لا يبذلون جهدًا لمعرفتها؛ لذلك تبقى بلا مصادقة.

الانطواء والخجل والانحجاز

يجد المنطوي على نفسه صعوبة بالغة في معاشرة الآخرين، وكسب الأصدقاء؛ وليس الخجل ولا الانحجاز بفضيلة، بل هما نوع من الكبرياء، يؤسف له؛ كما يؤسف على شفة هدلة، أو ظهر حدْب، يمكن تقويمهما بالتدريب والرياضة.

الأنانيون المستسلمون لأهوائهم

يقول «بونار»: إن الأنانيّ غير خليق بالصداقة، ولكنه يتوق لأن يكون له أصدقاء، يلحق وجدانهم بأنانيته، إذ يجد أنه قليل عليه جدًّا أن يحب نفسه وحدها. فهو يلتمس أصدقاء يستغل حساسيتهم، فيظفر بثقتهم. ولا شيء أشد مجلبة للسرور، من رؤية اثنين أنانيين معًا، يتسارقان قليلاً من الصداقة.

ومعاملة الأنانيين عسيرة لما يتسمون به من السلبية، وعدم التعاون وحب المباهاة والولع بالجدل، فوق عجزهم عن إسداء المكارم أو تقبلها، وتخلفهم في مضمار المروءة والأريحية، لانشغالهم الدائم بمصلحتهم، واستسلامهم المفرط لأهوائهم، واعتقادهم الراسخ بقانون تناقص المنفعة بنسبة اشتراك الغير فيها.

الذين يعتبرون الناس أصفارًا

كان «نابليون» يعتبر الكائن البشري واقعة أو شيئًا، لا وجودًا مثل وجوده؛ فمن وجهة نظره لا يوجد أحد سواه، وكل ما عداه من الأغيار، مجموعة من الأصفار.

الأغنياء المحدثون

الفقراء أكثر الناس استعدادًا للصداقة؛ وأقلهم قابلية لها هم الأغنياء المحدثون.

المتقلبون المولعون بالجديد

هناك أشخاص لا تتعارض طباعهم مع الفضيلة المثالية، ولا يعوزهم الكرم والتطوع بعرض خدماتهم؛ ولكنهم متقلبون لا يثبتون على حال، يستهويهم الجديد فيشمئزون بدون إساءة، وينفرون لغير عداوة.

المنقادون المستسلمون

وثمة لينو العريكة السريعو التأثر بالهمسات والحديث المنقول، المستعدون أبدًا؛ لأن يفزعوا من كل ظرف مريب، يضحّوا بأصدقائهم لأقل شبهة يثيرها ضدهم حاسد أو منافق، وأن يتبعوا نصيحة كل ناصح، ويتحركوا بدافع الوازع الأخير.

المستبدون برأيهم

والبعض لا يصير على المعارضة، مؤثرًا أن يضلّ وفقًا لرأيه، على أن يدين لغيره بسلوك الطريق الآمن السوي. يعتبرون النصيحة إهانة، والسؤال نقصًا في الثقة بالنفس، ولا يعيرون التفاتهم أحدًا، إلا بشرط الامتثال والتسليم بغير قيد.

الثقلاء

أشار «أرسطو» إلى أن الطبع الإنساني ينفر مما يشق عليه؛ ويسعى وراء ما يأنس إليه، وأن أحدًا لا يستطيب ملازمة من يضيق بخلطته، أو لا يجد انشراحًا في صحبته؛ ونوّه بأن الشيوخ والسوداويين بصفة عامة قليلو الميل إلى الصداقة لضعف إحساسهم بالسرور.

ذوو المظهر المنفر

كما أن المظهر الجذاب من مؤهلات الصداقة؛ فإن المظهر المنفر من معوقاتها، ومن أشهر نماذجه «كانط»، فلم يكن في مظهره ما يشجع على مصادقته، إذ كان بطبيعته من الظانين الجامدين.

الغامضون المتسترون

والبعض غامض ملتوٍ حريص على إخفاء مقاصده، الطيب منها والرديء سواء؛ يسره التأدّي بالوسائل الخفية، فلا يكشف عن تدبيره إلا عند التنفيذ.

المتعجلون بالاتهام وإفشاء الأسرار

وآخرون متصلون بالناس كافّة، متكشّفون لكل عين، فيّاضون بأسرارهم وأسرار سواهم، لا يتحرّجون ولا يحتاطون؛ يُتَّهَمون ولو كانوا غير حاقدين، ويفشون الأسرار دون أن يقصدوا الخيانة.

أشخاص لا يسرّون

ثمة أشخاص طيبون مخلصون يعرفون واجبهم، ولا يقصّرون في أدائه؛ ومع ذلك فإن فيهم ما يصدّ الناس عن محبتهم، ويمنعهم من أن يجدوا سرورًا في صحبتهم.

وقد أجاد «هزلت» وصفهم في رسالته المشهورة عن «المنفرين» قال:

غير مستريحين في أنفسهم: كثيرًا ما نصادف أناسًا إن صحبناهم، لم نجد مأخذًا معينًا على فهمهم أو خلقهم، ولكن صحبتهم لا ترضينا تمام الرضا، رغم مودتهم وحسن نيتهم، وحرصهم على مجاملتنا، واحترامنا ومعاونتنا.

وإنا لننكر من أنفسنا هذا التجني، ونعزوه إلى نزوة أو غِلظة، فإذا قاومنا عزوفنا، صرفتنا طريقة تصرفهم عن الشعور بمحبتهم، أو الإخلاص في عرفان جميلهم. نراهم من أهل الفضل، ويسرنا أن تتاح لنا فرصة لرد صنيعهم لو وسِعنا رده؛ ولكنا لا نستطيع مجاوزة هذا الحد. إن أقصى ما نطيقه أن نحافظ معهم على المظهر الخارجي، فلا نصطدم بهم علانية.

إنهم لا يسيئون عامدين، أو يستهدفون للبغضاء من جرّاء عيب واضح جسدي أو عقلي: من دمامة، أو كبرياء، أو سوء خلق. ثمة شيء في أسلوبهم مرجعه الأساسي حالة شعورية شكسة لا اجتماعية، تؤثر فينا بغير أن نتنبه عليها بصورة واضحة. فإذا تحرينا سبب نفورنا مع كل المؤهلات التي تزكّيهم لدى الناس، ظهر لنا أن قصورهم عن النجاح في إرضائنا يرجع إلى أنهم غير راضين بتاتًا عن أنفسهم، يغلب عليهم القلق وانحراف المزاج، بحيث لا نستريح إليهم، ولا نستجيب لمجاملتهم.

الحقيقة أنهم لا يبادلوننا الوجدان كما يجب، يسدون جميلهم إلينا على أنه واجب يؤدونه بصورة جافة جامدة، أو بمزاج الشخص المشغول، أو لإظهار تفوقهم علينا، أو رعايتهم لعجزنا، أو لأي سبب سوى إدخال السرور، أو مراعاة الشعور.

من لا يرون إلاّ أكدار الحياة: إنهم لا يرون إلا نواحي الحياة المكدرة، غير المشجعة، وهم يحاولون بكل ما أوتوا من حسن قصد أن يقللوا من راحة جميع من يلقون. يشعرون بألمك ويبذلون قصاراهم لإزالته، ولكنهم لا يجدون قناعة فيما حققوه لك من فرح وراحة، وإنهم ليتطلعون إلى مناسبة جديدة لإظهار حماستهم، ولا يتحرجون من الإلماع إلى أنك

لن تلبث أن تحتاج إلى معونتهم لحمايتك من التورط في صعوبات جديدة، أو لتخليصك مما عساه أن يعتريك.

وهم لا يكفّون عن تذكيرك بشيء فسد في الماضي، أو قد يفسد في المستقبل، ثم يدهشهم أن لا يتحقق ما توقعوه من كسب كامل رضاك بتلميحاتهم الخرقاء، وتعريضهم الماكر، وأسئلتهم الفظة، وسماهم الرصينة.

ناس نافعون غير سائغين: قد يساعدونك في شؤونك، ولكنهم يغمّونك ويتحكمون في أحاسيسك. إن أسعدوك لا يذرونك تنعم بما أسدوه من خير، تلازمهم أبدًا نغمتهم المالنخولية المبتسرة، وكشارتهم الكئيبة، وتبلد شعورهم المثير للغثيان. تقف معونتهم عند حدّ حكّ الموضع المقروح، فإذا ظفرت بالراحة أو العزاء، لم يعد لهم بك شأن، باعتبارك واحدًا من رعايا إحساناتهم العديدين.

أصدقاء الرخاء والسراء: وثمة أصدقاء السراء يجاملونك في الرخاء، ويملّقون كبرياءك، ويغالون في التمشي مع نزواتك، لا يجدون فيك خطأ يلاحظونه أو يعرّضون به، يسعفونك بما يسرّك، ويذللون لك الصعاب؛ فإذا لاحت أدنى بوادر التغيير في إقبال الدنيا، أو بدا في الأفق شيء غير سار، ولّوك الأَدبار، مهطعين لا يلوون على شيء.

ومع أننا قد نحتقر مثل هؤلاء التافهين؛ إلا أن أسفنا لفراقهم يفوق أسانا على الأصدقاء الحسَني القصد، الذين يرين عليهم انقباض متبلد يسحبهم، وكل ما حولهم إلى الحضيض.

الواقعيون: وثمة من يمكن أن يكونوا أناسًا سائغين للغاية، لو أن فيهم من الحيوية ما يسعفهم؛ ولكن طابعًا من الضيق، والضعة، وقلة التهذيب يرين على كل ما يقولون أو يفعلون. مستوى فهمهم ومعلوماتهم عالٍ، وهم على إلمام واسع بأصول الأخلاق، ولا

غبار على سلوكهم ومظهرهم. ومع ذلك فلا سبيل إلى محبتهم؛ لا تسرنا رؤيتهم ولا نأسى على بعادهم. معرفتنا بهم مهما تزد، يعوزها عنصر الصلابة؛ لا تسرهم بنات أفكارهم، فلا يقدرون على أن يزفوها للآخرين. أسلوبهم جافٍ أجشّ ذو صرير: حقارة في التفصيل، وتعلّق بالجزئيات مهما تكن نافلة أو بغيضة، ونزوع إلى الاعتراضات التافهة، وعزوف عن النظرة الواسعة الحرة؛ وبالإجمال واقعية صارمة مؤلمة، خالية من الروح والتأثر.

المغرقون في الصراحة: تشبه الصراحة الواقعية؛ وقد يكون الصدق أفتك أسلحة الإساءة. ولئن كان الذين يتعاملون في المسائل الجافة الكريهة من الأمر الواقع، يتعبون أصدقاءهم؛ فإن الذين يدفعون الناس بحقائقهم الجافة المبتذلة، يجعلون من أنفسهم أعداء ألدّاء أينما حلّوا؛ ولا يبرحون يفاخرون بأن: قول الحق لم يدع لهم صديقًا!

المتسمون بالسلاطة: ثمة الأشخاص المتبلدو الذهن، الذين لا يتركون فرصة لا يتيحون لك فيها معرفة ما يكنّون. يحرصون على إبلاغك كل ما يسمعون فيك من قدح، ويحجبون عنك المديح، لا يملّقونك بحال، ينتحلون صفة الصديق لكي يحذروك من مكر الآخرين؛ وليست هذه منهم بصراحة، بل هي سلاطة؛ ومع ذلك فإنهم يستغربون أن لا يسحرك عدم تحفظهم في إبداء ملاحظاتهم.

المنافقون المتملقون: وعلى الضد، فإن الترحيب حليف الدائبين على كشف أسرار الناس من ناقلي القصص، ومذيعي لغو الجيران؛ الذين يملقونك في وجهك، ويسخرون منك من وراء ظهرك. ومع علمك بأن دورك لا يلبث أن يجيء، فإنه لا يسعك في سبيل رضاك الفوري، إلا دفع نصيبك من الضريبة العامة على الأخلاق، ويزيد سرورك بالأباطيل

التي لا تصل إلى أذنيك أبدًا، على الحقائق التي يجبهك بها الآخرون ممن هم أكثر إخلاصًا، وأقل رغبة في المجاملة. ألا ما أقصر نظر محبتنا لأنفسنا، وما أشد تقبلها للتضليل!

المتقصون المجادلون: ثمة رجل يبدو أنه لا يقتنع بغير أن تلزمه الحجة؛ وآخر يسألك خمسين سؤالاً عن أبسط ما تبديه، وأنه لحريّ بمثل هؤلاء المتسائلين المتفحصين أن يخرجوا بعشرة أعداء من كل مناقشة يخوضونها. فإن الناس لا يروعهم شيء كإقناعهم بأخطائهم؛ لأن إسداء هذه اليد إليهم، يقاوم بنفس القوة نزواتهم ومصالحهم وكبرياءهم وتراخيهم؛ إنك لا تفترض فقط تفوقك عليهم في الفهم، وهو ما يكرهون، بل تجردهم من ثقتهم بأنفسهم، وتنكبهم فيمن ألفوا أن يولّوا الوجوه شطرهم التماسًا للتوجيه والنصيحة.

المدمرون لعقائد الناس: وثمة من يعتبرون الناس أطفالاً فيقتلعون آراءهم القارة، ويحطمون سلاسل أفكارهم، ويتركونهم في هذه الحالة المتهافتة الخاوية القلقة، غير راضين عن عقائدهم؛ ثم يتوقعون أن يسعى الناس إلى صحبتهم، ويبتهجوا بمقاربتهم؛ لمجرد أنهم في الواقع لم يعبّروا إلا عن عقيدتهم المخلصة بوحي من ضميرهم.

المجادلون لينتصروا بأي ثمن: والذين لا يتراجعون خطوة في الجدل، ولا يبرحون يلتمسون وسائل الانتصار؛ هم في نظر العالم ناس كريهون لا ضمير لهم، تجمل مقاطعتهم أو يحسن تركهم وشأنهم يشاحنون أنفسهم.

المتجرون بالتناقضات الظاهرية: والأمر لا يختلف بالنسبة إلى الكتب، التي تنفث التناقضات الظاهرية تحت ستار الحديث الصريح؛ مستدبرة الفطرة السليمة للجنس البشري، وهي كتب لا غناء فيها لناشريها، ولا نصيب من خلود الذكر لمؤلفيها: تثير أول

الأمر ضجة ومعارضة، ثم لا تبرح عادة أن يعفى عليها النسيان. ولئن انتهى الأمر بإقناع القراء بما تضمنته من آراء، فإن مؤلفيها لا يفيدون منها إلا قليلاً، فظل أسماؤهم خاملة، نظرًا لنفور الجمهور من الاعتراف بأي جميل لهؤلاء المحسنين الكريهين.

ومن الناحية الأخرى، فإن هناك كتبًا كثيرة أسلوبها سارّ للغاية، على قلة ما تحتويه، وهي رائجة؛ لأن مبدأها إدخال السرور؛ ولما كنا نتسامح مع من يحترمون شعورنا، فإنا نغض الطرف عن قصور مؤلفيها.

كذلك نجد ممثلين من درجة عادية، لا مزية لهم إلا أنهم على وفاق مع أنفسهم، وعلى علاقة طيبة بأدوارهم (وإن لم يفهموا كلمة منها) يختصهم المستمعون في كل مكان بإيثارهم. وغيرهم من أساتذة الفن، قد لا تسرّك رؤيتهم بسبب شيء جاف كريه غير قابل للتوفيق في طريقتهم.

الفيصل بين المحبّبين والمنفرين: إذا نظرنا حولنا، وسألنا مَن المحببون؟ ومن هم غير المحببين؟ رأينا أن الأمر لا يتوقف كثيرًا على فضائلهم أو رذائلهم، وذكائهم أو غبائهم؛ بقدر توقفه على درجة السرور، أو الألم الذي يستشعرونه في علاقاتهم الاجتماعية العادية.

المشاكسون المتذمرون: عقول بعض الناس مشاكسة متململة، لا يذرونك تستريح لحظة؛ كل الأمور معهم على غير ما يرام، يشكون الصداع أو الجو؛ يتناولون كتابًا ثم ينحّونه؛ يدلون بالرأي، ثم يعارضونه قبل فراغهم من عرضه؛ يتطوعون بخدمتك، ثم يمنعون سواهم من أن يخفّوا لنجدتك. إن تغديت معهم في خان، ليزيد استمتاعك بحريتك، فالسمك فطير، و«الصلصة» غير ملائمة؛ يطلبون شرابًا، يحسبون الحصول عليه عسيرًا، فإذا استحضر بعد مشقة، لم يقربوه، يلقون على النادل خمسين أمرًا متناقضًا، لا يقرّ لهم قرار طوال فترة الطعام وكأنهم يتوسّدون الشوك. كل هذا نتيجة افتقارهم إلى الصحة الجيدة، والروح القوية القادرة

على الاستمتاع، إنها لعادة عقلية متحذلقة، تولدها عادة جسدية سقيمة، تفقدهم إربهم في جميع الأحوال. ولا شك أن اعتلال مزاجهم وصعوبة مراسهم تنتقل إليك، فأنت تضيق بهم كما يضيقون بكل شيء.

الناس لديهم أشياء: أشخاص لا يستطيعون اصطناع الأصدقاء، لا يقدرون أن يصيروا أصدقاء، لا يهتمون بك بتاتًا، ولا يعنيهم رأيك فيهم، ولا يظهرون فرحًا للقائك، فإذا تركتهم شعرت باستغنائهم عنك؛ لا عن عناد أو عدم اكتراث، أو شرود ذهني، ولكنهم ينصرفون فقط إلى تأملاتهم وحدها، وما أنت إلا أحد الموضوعات التي يدربون عليها أفكارهم. يعيشون في المجتمع كأنهم في عزلة، ومهما تكدّ عقلهم فإن نبضهم لا يسرع أو يبطئ لأحداث الحياة.

المتهورون: وآخرون من أهل الفضل والعقل، يستسلمون لحمو المزاج؛ ينفّرك، ويقصبك عنهم عنف حركتهم التي لا تفتر، بحيث لا تجسر على مقاربتهم، أو يعتريك القلق لقدومهم كأنك على فُوّهة بركان، لهم فترات سكون مؤقتة، ولكنك لن تأمن عندئذ أن تثور ثائرتهم فجأة بعد لحظة.

المرجفون بالمكاره: وثمة من لا يقاربونك إلا بالنصيحة أو المعلومات المروعة، فينذرونك، إبراء لضميرهم، بأنك صائر إلى حتفك، أو أن أعمالك على شفا جرفٍ هارٍ، من خراب أو دمار، أو يتركونك تفهم نفس الشيء على سبيل النكتة الجيدة.

الصخّابون المدوون: نصادف أمثلة من أشخاص يغلب عليهم مرح مدوٍّ، كأنما تقمصتهم أرواح حيوانية سليطة، تستعصي مجاراتهم في هياجهم العادي، كما تصعب معاملة ثمل سُكره بيّن.

الصامتون المنحجزون: يقابل هؤلاء من نكاد نحسبهم غير أحياء، لا يهتمون بشيء أو يسرّون، ولدوا ليكونوا نماذج للحكمة القاتلة؛ كل الفن الذي يعرفونه، هو الامتناع عن الإعجاب بالناس.

القرويرون الجامدون المستهزِئون المتشيعون: ويسبب لنا نفس القدر من المضايقة من يثيرون فينا الغثيان بعدم حساسيتهم العاطفية، واستهزائهم العنيد؛ وعلى العموم كل من كانت نشأته بدائية خشنة، كل المتعصبين، كل أنصار القضايا الخاسرة، هم غير راضين، وغير سارّين.

الشبيهون بسمكة الرعاد: قبل هؤلاء جميعًا الذين تجري دماؤهم في مثل برودة شرايينهم، كسمكة الرعاد الكهربائية، تصيبك الرجفة إن مسستها أو مسستهم.

الثرثارون الثقلاء: الذين يلقفون موضوعًا، فيستطردون فيه بغير تحديد ولا ضابط، وإن لم يحفل مستمعوهم بكلمة مما يهدفون؛ هؤلاء هم ثقيلو الظل.

وبهذا ينتهي ما عنّ لنا تخيّره من رسالة «هزلت» عن «المنفرين».

المبحث الثالث

عقبات حضارتنا الحالية

تضاؤل فرص التعارف والتعاطف

تضاعفت في زماننا مناسبات احتشاد الألوف لشهود الحفلات والمباريات، والمشاركة في الاستقبالات، وإحياء الذكريات؛ ولكن هذه التجمعات ليس من شأنها أن تتيح تآلف

المشتركين فيها أو تعارفهم أو تعاطفهم، إلا في حدود الآداب الاجتماعية السطحية التي تلطف من حدة الاحتكاك.

ازدحام المدن يذكي روح المنافسة

وقد زاد ازدحام المدن الكبيرة من شعور السكان بضرورة المنافسة على تحصيل الرزق وقضاء الحاجات، والسبق إلى شغل المسكن المناسب، واحتلال المقعد المريح، والتهام اللقمة السائغة؛ مما شغلهم بأنفسهم إلى حدٍّ، يكاد يذهلهم عن التفكير في سواهم.

ضعف علاقات الجوار

كما أدى قيام المباني الضخمة الشاهقة الحافلة بعشرات الشقق ومئات السكان، إلى إضعاف علاقات الجوار والتهوين من شأنها؛ ولاسيما أن الحياة لم تعد كما كانت تُقضى في رحاب الدور الفسيحة، وصارت المساكن الضيقة لا تتسع لغير المبيت.

اتصالات عابرة تفسدها المنافسة

وهكذا صارت اتصالات الأفراد اليومية خارج دائرة الأُسرة وزمالة العمل، عاجلة عابرة تفسدها المنافسة ويعرقلها الشك ويسودها طابع التوقّي والتحاشي، سدًّا للذرائع، والتماسًا للسلامة والأمن، وخشية ما عساه أن يترتب على الاحتكاك من مضايقات ومتاعب.

صعوبة المواصلات وغلاؤها

كما زادت المسافات بين المسكن ومقر العمل، وبين البيوت في الضواحي النائية، مع مشقة المواصلات وارتفاع كلفتها؛ من صعوبة اتصال الناس، وقللت من مناسبات المقاربة، ومن فرص دعم عاطفة المحبة.

تشتت الأسرة

كذلك تأثرت العلاقات داخل المنزل، فلم تعد الزوجة قعيدة ولا عقيلة، بل صارت مستقلة طليقة تسعى في الرزق كزوجها، وقد يكون عمل الزوجين في بلدين نائيين، فلا يلتقيان إلا في نهاية الأسبوع أو الشهر. أما الأبناء والبنات، فقد اختلفت مواعيد مدارسهم أو أعمالهم وقلّت فرص اندماجهم، فإذا شبّوا انتشروا في الأرض، والأرض ليست مجرد قرية أو مدينة بذاتها، بل صارت تمتد إلى الدولة كلها إن لم تشمل الدنيا بأسرها، قديمها وجديدها.

الكتب والسينما والتليفزيون والرحلات

وقد ساعد انتشار الكتب، والجرائد والمجلات ودور السينما وأجهزة التليفزيون والراديو، والنوادي والرحلات، على شغل فراغ الناس، وتوفير حاجاتهم الاجتماعية داخل المنزل وخارجه.

الصداقة في مجتمع اليوم

ولهذا يذهب البعض إلى حدّ القول بأن مجتمع اليوم يتكون من طابق واحد، تملؤه المشاغل والمصالح، بحيث لا يتسع الوقت لالتقاء شخصين مع ما يستشعره كلاهما نحو صاحبه من تعاطف مخلص. وكل امرئ مستغرق في عمله، متفرغ لمهنته بجملته، فإذا ظفر بشيء من الراحة الوقتية، كان في حالة من القلق والإرهاق لا يطيق معها غير المسرات العادية العابرة.

ولا يمكن تصور الصداقة إلا مع توافر قدر من السعة يشرك فيها المرء من اصطفاه؛ أما الحياة السطحية الصاخبة التي يعيشها الناس في زماننا، فلا تأذن باستقرار الصداقة بين اثنين خاويين، صفر اليدين، ليس لهما رصيد؛ كالحانوتين أقفرت مخازنهما إلا من البضاعة المعروضة في نافذتيهما، ثم من أين لهما أن يغذيا صداقتهما في عالم خلو من الصفوة لا يمكن أن توجد فيه صداقات.

لذلك يزيد الاتجاه المعاصر حرصًا على توفير أوقات الفراغ وإنقاص ساعات العمل، مع زيادة أجر العمال ورفع مستواهم، ليتاح للبشر أن ينعموا بحياة طابعها الدعة والسعة.

المبحث الرابع

عقبات المجتمع؛ والسياسة؛ والعقيدة

المطلب الأول: عقبات المجتمع

أولاً: المجتمع المتأخر

لا يمكن أن تزدهر الصداقة إلا في المجتمعات الممتازة، أما المجتمعات المتأخرة فهي بيئة لا تتوافر فيها مقومات الصداقة، وثمة من ضرب بالصين مثلاً للمجتمع المثالي للصداقة، لما يتحلى به الصينيون من التهذيب والمراعاة الدقيقة لآداب السلوك، والاهتمام البالغ بمحاسن الأخلاق وبالفنون الجميلة والمعاني السامية، وما يتسمون به من الإنسانية الرفيعة، والإحساس المرهف.

ثانيًا: المرأة المتخلفة

هناك رأي بأن الصداقة تتفتح أكمامها في المجتمعات التي يتدهور فيها مركز المرأة، ويعزون العهد الذهبي للصداقة في أيام الإغريق إلى أن المرأة لم تكن لها عندهم مكانة مرموقة، فكان الأزواج لا يجدون في زوجاتهم غير إشباع رغبات الجسد، أما العلاقات الروحية والعقلية السامية فيلتمسونها خارج البيت، ويضربون مثلاً متطرفًا بـ«سقراط»، فإن علاقته بزوجه كادت تكون مقطوعة.

ويمكن أن يُردّ على هذا بأن «أرسطو» وجد في زوجه صديقًا؛ وأن تفشي العلاقات الغرامية في فارس والهند، وفى فرنسا في القرنين الثالث عشر والسابع عشر، لم يمنع من قيام صداقات سجلها التاريخ.

المطلب الثاني: عقبات الحكومة الاستبدادية

«لا يمكن أن توجد الصداقة حيث لا حرية؛ تحب الصداقة الهواء الطلق، ولا تطيق الحظائر الضيقة»—وليام بن

حرية الصداقة

الصداقة إحدى الحريات، بل هي تاج الحريات ودرتها، كما أنها قمة الإنسانية وزهرتها. فلا صداقة ولا أصدقاء، حيث لا حرية ولا أحرار.

الحاكم المستبد عدو الصداقة

وقد نوه بهذا «أرسطو» في «كتاب السياسة» وفي «كتاب الأخلاق»، وأشار إلى أن المدينة المثلى، مدينة الأحرار، يجب أن تشكل عادة من الطبقات المتوسطة لتساويها ومشابهتها، أما

إذا شكلت المدينة من أحرار وعبيد، فإن حكومتها تكون استبدادية، وليس شيء أقتل منها للصداقة، لأن أهلها يكونون متعادين، يكرهون حتى المشاركة في سلوك نفس الطريق؛ بخلاف أهل المدينة المثلى، فإن حسن الصحبة يؤدي بهم إلى الصداقة.

وكما أن مبدأ العدالة يتضاءل في الأوضاع المنحرفة للأشكال الدستورية، كذلك تتضاءل الصداقة: ففي الحكومات الاستبدادية لا يوجد إلا القليل من الصداقة، وقد لا يوجد منها شيء على الإطلاق، فلا شيء على العموم مشترك بين الحاكم والمحكومين، ولا صداقة، إذ لا عدل، وليس بينهم إلا رابطة الصانع بالآلة، وصلة السيد بالعبد.

الصداقة في حكومة الطاغية

يسرد «أرسطو» وصفات قديمة للحفاظ على الحكومة الاستبدادية، ما أمكن، ومنها أنه لما كان الأعلَون هم أعداء المستبدّ، فعليه أن يطيح بهم، وأن يقتل ذوي الشخصية، وأن لا يأذن بالولائم العامة، ولا النوادي، ولا التعليم وما أشبه، وأن يحظر كل ما يحتمل أن يوحي بالشجاعة أو الثقة بين رعاياه، وأن يمنع الجمعيات الأدبية أو أي لقاءات أخرى للمناقشة، وعليه أن يتخذ الوسائل كافة لصرف الناس عن التعارف؛ لأن التعارف يولد الثقة المتبادلة.

وعلى المستبد أيضًا أن يحاول معرفة ما يقوله أو يفعله كل واحد من رعاياه، وأن يستخدم الجواسيس والمتسمعين؛ لأن الخوف من المخبرين يمنع الناس من الإفصاح عما يدور بخلدهم، فإذا تكلموا انكشف أمرهم.

وثمة وسيلة أخرى من وسائل الطاغية، أن يغرس الشقاق بين المواطنين، بحيث يتنازع الأصدقاء.

الصداقة والحرية صنوان

ويقول «أروندبل» رئيس «الجمعية الصوفية»: حيث يعاقب الناس على الإخلاص وسلامة الضمير، حيث يحل الطغيان محل الحرية، والشك وعدم الائتمان محل الصداقة، فثمة بذور كل الشرور. الحرية هي تحية الصداقة الرئيسية وصنوها، لا قمم للصداقة بغير الحرية، لا مجد أبدي ولا تأليه. ليس للحرية حقيقة، ولا حياة إلا في الصداقة.

العظماء الحقيقيون، ولا أعني العلماء المتبحرين ولا الأقوياء الجليلين، يتميزون بحريتهم المتزنة، وصداقتهم الحقة. الصداقة زهرة كل عبقريتهم، وتعبيرها وحياتها وحريتها.

عمليات التطهير تقتل الصداقة

ويقول «أوفرستريت» في «العقل الحي»: إن إجراءات التطهير التي تلجأ إليها بعض الحكومات الاستبدادية، من شأنها أن تبث الخوف والشك وتنشره في نفوس الناس، فتقتل فرص التفكير الحر، وهي توجد جوًّا يعادي فيه الأخ أخاه، ويشيع فيه الكذب والنميمة والانتهازية، فتصبح مراكز القوة في أيدي من تعوزهم الصحة النفسية، وتسيطر على حياتهم روح العداء.

«كانط» يتحاشى مخاطر الصداقة

أشرنا في المقدمة إلى أن «كانط» عاش في كنف حكومة لا تحترم الحريات، ومع أشخاص من طراز خاص؛ فآثر الصمت والحذر، التماسًا للسلامة وتفاديًا للخطر والضرر.

الولد يشي بأبيه

لم يعد يؤاخذ الولد في بعض البلدان على التبليغ ضد أبيه، بل هو يؤمر على الضد أن يصنع هكذا. كذلك عُفّي على عبادة السلف، ونُبِشَت أُلوفٌ من المدافن القديمة. ومما هو جدير بالذكر أن القانون المصري يعفي من أداء الشهادة ضد المتهم، أصوله وفروعه وأقاربه وأصهاره إلى الدرجة الثانية، وزوجه ولو بعد انقضاء رابطة الزوجية.

الحروب والثورات

وقد تطرأ على المجتمع الممتاز عوارض تكدر صفوه، كالحروب والقلاقل والثورات، تشعر الناس بالقلق، وتزيد حرصهم على التماس الأمان، وتقلل من ثقتهم بالغير؛ ومما يساعد على هذا، الإجراءات الاستثنائية التي تتخذ، وما يقترن بها من تقييد الحريات. ومن شأن هذا أن يوجد جوًّا لا يشجع على عقد العلاقات الوثيقة.

ومع ذلك فكثيرًا ما تتيح الظروف العصيبة فرصًا عجيبة للنفوس المحرومة أن تتقارب وتتعاون، كما حدث بين بعض أهالي دول أوربة إبان الحرب العظمى الثانية.

المطلب الثالث: عقبات الخلافات الحزبية

عرّف البعض الصداقة بأنها اتفاق تامّ في كل الأمور الهامة؛ ولا شك أن اختلاف الرأي في المسائل الجوهرية قد يعكر صفو العلاقات.

والمجتمعات المتأخرة لا يطيق أفرادها أي خلاف، فالصديق يجب أن يتفق وصديقه في كل شيء؛ لأن العداوة عندهم هي الاختلاف أيًّا كان سببه، ولا سيما اختلاف الدين أو المذهب السياسي.

وقد عرّف الناس في بلادنا صداقات وثيقة طال أمدها، فلما اختلف الصديقان في الرأي السياسي، حل العداء محل المحبة، وانقطعت صداقة أعيت خصومها عشرات السنين.

بل لقد بلغ من تعصب الأبناء أن تعادوا بسبب انتماء آبائهم إلى أحزاب سياسية متنافسة، وكان بعض الخصوم السياسيين لا يتصاهرون ولا يتزاورون ولا يتبادلون التحية؛ فأما من خرج على هذا التقليد، فهو عرضة للنقد، وسوء الظن الشديد.

ولكن لم تلبث زيادة الفهم والخبرة أن خففت من حدة هذه الحماسة البدائية، واسترد الناس كثيرًا من حريتهم، ولم يعد يؤخذ عليهم رعاية علاقات قديمة مع أشخاص كانوا ينتمون إلى نفس مذهبهم السياسي، ثم انفضوا من حوله ولحقوا بخصومه.

ومع ذلك، فإن التاريخ حافل بصداقات لم يقو اختلاف المذهب السياسي على فصمها، بل ظلت قائمة قوية، رغم ما كان يستهدف له كلا الصديقين من سوء ظن فريقه به؛ لأن أكثر الناس يحسبون أن صديق عددهم لا بد أن يكن عدوًّا لهم.

وقد سبقت الإشارة إلى ما كان من أمر «أديسون» مع «سويفت» في مبحث: «الناعون على الصداقة من غير العرب».

المطلب الرابع: عقبات الخلافات الدينية

كان اختلاف الدين في المدنيات المتأخرة من أسباب الخصومة والعداء، بل كان اختلاف المذهب الديني من دوافع إراقة الدماء، وسوف لا ينسى الناس مذابح الـ «هجنوت» في

فرنسا، ومواقف مسيحيي إنجلترا من مواطنيهم الكاثوليك؛ صراع الكاثوليك والبروتستانت في أيرلندا المعاصرة.

أما الشرق فقد كان طابعه التسامح الديني، ولا سيما الإسلام الذي كرم الأديان السماوية، وأوصى بأهلها.

النبي ﷺ تزوج من قبطية

وقد بنى النبيّ ﷺ بسيدة قبطية مصرية، وما زال المسلمون يتزوجون المسيحيات إلى يومنا.

«الأخطل» صديق أمراء المؤمنين

وكان «الأخطل» نصرانيًّا مات على دينه، ولم يمنع اختلاف الدين من اختلاطه بملوك المسلمين وأمرائهم، وحظوته عندهم، ولاسيما «عبد الملك بن مروان»، الذي قال له: أريد أن أكتب للآفاق أنك أشهر العرب.

«الشريف الرضيّ» و«الصابي»

«أبو إسحق إبراهيم بن هلال الصابي» ينتمي إلى دين «صابئ بن شيث»، ولم يحل تشدده في دينه وحرصه على كرامته، دون معاشرة المسلمين أحسن عشرة، وخدمتهم أجل خدمة: فقد كان يصوم معهم رمضان، ويجيد حفظ القرآن. كما كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة «الطائع» و«عز الدولة بختيار الديلمي». وقد توطدت علاقته بحفيد رسول الله «الشريف الرضي»، حتى تحدث بصداقتهما الركبان؛ فلما توفي «الصابي» رثاه «الشريف» بقصيدة عصماء، ولما مرّ بقبره ارتجل أبياتًا كلها حنين واشتياق، وقد أشرنا إليها في فصل: «رثاء الصديق».

البـــاب الثاني

دوافع عقد الصداقة وأسباب قيامها

دوافع الصداقة وقيامها

نشوء الصداقة ظاهرة رائعة يبهر بريقها، ويبهج رحيقها. وسوف نتابع في الفصل الأول خطوات الطفل نحو الصداقة، منذ نشوء عاطفته الاجتماعية، ونتفهم طبيعة علاقته بأمه، ونلم بطرف من الدوافع النفسية لما يعقده من علاقات مع سائر أفراد أسرته، أو مع لداته من أطفال جيرته، ليملأ به ما تخلل حياته من فراغ بعد انقطاع علاقته الجسدية بوالدته. ثم نتعرف طبيعة الدافع إلى الصداقة: فنتكلم في ما نسميه غريزة المصادقة وعاطفتها، ودور العقل والإرادة في عقدها.

ونتناول في الفصل الثاني أسباب قيام الصداقة: هل هي أسباب إلهية روحية مقدرة؛ أم إعجاب بصورة الخير والفضيلة؛ أم ضيق بالعزلة؛ أم بحث عن الشبيه؛ أم هي حكم العادة؟ وما مدى سيطرة حب النفس على هذه الدوافع، وإلى أي حدّ يمكن التوفيق بين محبة النفس ومحبة الصديق؟

الفصل الأَوَّل
دوافع عقد الصداقة

المبحث الأَوَّل

حاجتنا الطبيعية إلى الصداقة

«الناس ميالون على العموم إلى تكوين علاقات خاصة؛ لأن هذا دافع طبيعي؛ ولأننا جميعًا نبدأ بالخاص ثم نتجه إلى العام» — كانط

المطلب الأَوَّل: الصحبة وسيلة الوليد للمحافظة على ذاته

العاطفة الاجتماعية

من المعروف أن الحيوانات الاجتماعية بصفة عامة تطعم صغارها، وأن الحيوانات التي يطعمها والدوها تتجه، نوعًا ما، إلى أن تكون حيوانات اجتماعية. ويبدو أن هذا الميل الاجتماعي عند الطفل، نحو إشباع حاجته الفطرية إلى المصاحبة، هو استمرار مكيف لحاجته إلى حضرة الوالدين المطعمين، حتى بعد أن تجاوز سنّه مرحلة الحاجة المادية. وتدخل

في هذه الحاجة أيضًا الدوافع الاستمرائية أو الوالدية؛ وإن لم يكن ثمة ضرورة لافتراض وجود غريزة اجتماعية خاصة.

محبة الأم لطفلها

غريزة الأم تدفعها إلى حماية وليدها وتدليله، وهي غريزة لا يكاد يخلو منها نوع من الحيوانات العليا، ولعلها أبرز ما تكون في الإنسان، بل هي أقوى غرائزه؛ إذ تحافظ على النوع بأسره، على حين إن سائر الغرائز تعمل أصلاً في خدمة حياة الفرد وحده.

والأم تحب طفلها، وإن كان كل ما فيه يدعو إلى الكراهة، وكلما اشتدت حاجته إلى رعايتها تحركت في حشاها انفعالات الحنان، واطّرد جيشانها، واشتد اتقادها؛ فإن الطبيعة بعد أن ناطت بالأم مهمة المحافظة على الأحياء كافة، كافأتها بأن سلكت مهمتها بين المسرات، بل بين الآلام اللذيذة.

استجابة الطفل لمحبة أمه

ومن الطبيعي أيضًا أن يبادل الطفل أُمّه لمحة من محبتها في حدود وسعه، تكون بمثابة استهلال لحياته الاجتماعية، وافتتاح واعٍ لأول علاقاته بأبناء جنسه.

مبادئ النمو الاجتماعي والذاتي

والمشاهد أن الطفل العادي ربما ألقى في الأسبوع الرابع من عمره نظرة عابرة على وجه منعطف فوقه، مقرونة بتغيير طفيف في تعبيره يعكس شعوره بالوجه الحاني عليه، وإنه ليستجيب بطريقة مماثلة للصوت الإنساني، وهو يطيب نفسًا إذا التقطته يدان مترفقتان

مكينتان، مظهرًا بذلك ما يمكن أن نعزوه إلى شعور بالأمان. وهذه هي أول مبادئ النمو الاجتماعي، والذاتي.

وقد دلت التجارب على أن علاقة الطفل الاجتماعية تتفتح بوادرها حوالي الشهر الثاني أو الثالث، حين تبدأ استجابته لما حوله.

وقد يبدر من الطفل العادي إذا بلغ شهره الرابع ما يدل بوضوح على تمييز أمه، أو الشخص الذي يتعهد بالرعاية، فيبتسم إذا قاربه؛ في حين يرمق الغريب في وقار المستريب.

أساس علاقة الطفل بأمه

ثمة نظرية مؤداها أن المحبة والجنس صنوان، وأن المحبة المجردة من الجنس لا وجود لها، ولو كانت محبة الطفل لأمه؛ وأن كل رغائب الطفل في أمه، وما يظفر به من تحقيقها، عن طريقها، إنما يرجع إلى طبيعة جنسية.

وقد ظلت هذه النظرية سائدة من الناحية العلمية فترة من الزمان، وإن لم تلق غير الإعراض من الرأي العام، إلى أن انبرى لها فريق من العلماء، نجح في إدحاضها بأن أثبت أن الجنس ليس أساس المحبة، وأن الحاجة إلى الأم يتمثلها عقل الطفل في صورة حاجة إلى الصحبة، وضيق بالعزلة، وأن الحاجة إلى الصحبة وإلى التوجيه والرعاية والحماية، تستمر بعد أن يصير ارتباط الطفل بأمه غير ضروري.

ذلك أن للإحساس بالأمن أهمية عند الطفل تفوق وجدانه باللذة والألم؛ ولما كانت المحبة تنطوي على الحماية، فإن علاقة الصحبة التي مساكها المحبة، تكون هي أساس الحياة الاجتماعية، والنقطة التي يبدأ منها الارتقاء العقلي.

سبب المحبة تحاشي الوحدة والانعزال

ويقول هؤلاء العلماء: إن سبب المحبة قد ينبثق في أول مراحل الحياة، من حاجة الطفل إلى الطعام وما إليه، ولكنه ليس وليد رغباته وأحاسيسه الجنسية؛ وإن الأم لا الأب، هي هدف المحبة الأصيل، كما أنها قبلة الإعزاز والتبجيل.

وإن حاجة الطفل الإيحائية إلى الطعام، قد تتخذ فورًا صورة سيكولوجية في عقل الطفل؛ لا باعتبارها مجموعة من ضرورات عضوية عملية، ومن احتمالات الحرمان؛ ولكن بوصف كونها مضايقة مقرونة بالخوف من الوحدة والانعزال.

المحبة أول حاجة استشعرها البشر

ولعل المحبة كانت أول حاجة شعر بها الإنسان، فقد صار من المسلَّم به أن الحاجة إلى الصحبة (المحبة) هي نقطة الابتداء في تصور الحياة الإنسانية وتطورها، وهي حقيقة يمكن ملاحظتها موضوعيًّا في مظاهر سلوك الأطفال الباكر، وفي سلوك الحيوان.

المحبة تبادل إيجابي متوافق

وقد أدحض المؤمنون بأن أساس المحبة هو الحاجة إلى الصحبة، مزاعم القائلين بأن التعبير عن النفس، هو طريقة للتخلص من التوتر، أو للتفريغ العاطفي؛ وقرروا أن التعبير عن النفس عطاء، أو إيعاز موجّه إلى الغير، هدفه الحصول على استجابته؛ وأن المحبة نفسها في جوهرها، حالة من التبادل الإيجابي المتوافق، وليست مجرد ممارسة ممتعة للوظيفة.

الصحبة وسيلة الطفل للمحافظة على ذاته

ويخلص القائلون بالمحبة المجردة من الجنس، القائمة على أساس من الرغبة في الصحبة، إلى أن إشباع الحاجة الفطرية للمصاحبة، هو سبيل الطفل الوحيد إلى المحافظة على ذاته، وهذه الحاجة، بما تثيره من «محبة» الوالدين، ومحبة الزملاء، هي التي تقابل اللبيد: أي الرغبة أو الطاقة الجنسية عند القائلين بأن الجنس يشوب كل العلاقات.

ويزيد اقتناع علماء النفس في زماننا، بأن قلق أو حصر الانفصال، هو التعبير الشعوري للصورة الآدمية لغريزة حفظ النفس، التي كانت في الأصل تربط الطفل بأمه.

المحبة ترياق القلق

وأنهم يعتبرون المحبة ترياقًا للكراهة والرغبات العدوانية المسؤولة عن معظم مقدمات القلق؛ ولاسيما بعد أن صارت الحياة اليومية سعيًا متجددًا للسيطرة على القلق، وبعد أن اعتبرت أعراض الأمراض العقلية محاولة من المريض لمغالبة ما يعانيه من أسباب القلق.

ولم يعد هذا القلق نفسه معتبرًا مجرد رغبة جنسية مكبوتة، بل صار يُعزى معظمه إلى الكراهة والتمنيات العدوانية؛ بحيث أمسى تحقيق التطور السّويّ، يقتضي تغليب المحبة والمصاحبة، على الكراهة والعدوان.

القلق فرع من العزلة

لم يعد علماء النفس يرون الحياة الإنسانية كفاحًا في سبيل تحصيل السرور، وإرضاء رغبات الجنس أو التعبير عن النفس لإزالة التوتر، بل يتصورونها كفاحًا للسيطرة على

القلق؛ ويذهب الكثيرون منهم إلى أن رهبة القلق هي رهبة من الانفصال، ويزيد اقتناعهم، بأن القلق هو في الواقع فزع من العزلة.

الصحبة تحقق أمان التكامل الاجتماعي

والإنسان هو الحيوان الوحيد القلق، ولعل قدرته المبهمة، على المحبة، وحاجته المِلِحَّة إليها، هي التي تدفعه دفعًا إلى أن يصير قلقًا، معتديًا، كابتًا؛ وهي التي ما تزال تسوقه إلى التماس علاقات اجتماعية من طراز جديد، في سبيل البحث عن أمان التكامل الاجتماعي: أي عن الصحبة، ومتعتها.

علاقات داخل الأسرة

تتوطد علاقات الطفل بأفراد أسرته على مرّ الأيام، فإذا أكمل سنته الأولى تبوأ بينهم مكانة اجتماعية، وربما صار واسطة عقد الأسرة بأسرها.

علاقات عامة خارج الأسرة

يولد الطفل مغمض العينين اجتماعيًّا بالنسبة لسائر الأطفال، ولا يبدأ اهتمامه الاجتماعي بهم إلا في شهره الرابع، ويتزايد اهتمامه ببطء حتى يبلغ شهره التاسع، ثم يطرد سريعًا بعد ذلك.

ومع أن الطفل الصغير يلعب إلى جوار سائر الأطفال، غير أنه لا تكاد بعد تكون صداقة؛ فهو لا يفرق بين طفل وآخر؛ لأن كل الأطفال لديه سواء، يكفي أيهم لسد حاجته.

اللعب والصداقة

ولا يكاد الطفل يريم عن حضن أمه، ويتعرف إلى نفسه، ويفرق بين يومه وأمه، حتى يزيد شعوره بالحاجة إلى الصحبة، والضيق بالانفراد والعزلة، ويبدأ تطلعه إلى التعاون مع لِدَاته ومباراتهم وملاعبتهم، فيحتل منه زملاء اللعب منزلة قد تفوق مكانة أفراد أسرته، ويعتبر التعاون والتنافس والعلاقات العقلية والثقافية، بديلاً عن علاقة التدليل المتبادل بينه وبين أمه، ويحل الاهتمام المشترك بالأشياء محل الاهتمام المشترك بالأشخاص، وتكون المحبة قد تمخضت عن الصداقة.

وأهمية اللعب غير مقصورة على تقوية الملكات الجسدية والعقلية، ولكنه يتيح للفرد اتصالاً مطمئنًا بزملائه، يعوضه عن الاتصال الذي فقده لما انقضت حاجته إلى أمه، أو حين قطعت عنه أمه خدماتها الجسدية.

المحادثة والصداقة

والمحادثة من قبيل اللعب، فهي لعب عقلي، وقد تناولناها في مطلب: «المحادثة».

المطلب الثاني: غريزة الصداقة؛ وعاطفتها

أولًا: غريزة الصداقة

«الطائر يلتمس عشًا، والعنكبوت نسيجًا؛ والإنسان صديقًا»—«وليم بليك»

تعريف الغريزة

عرّف مجمع اللغة العربية الغريزة في «المعجم الفلسفي» بأنها: صورة من صور النشاط النفسي، وطراز من السلوك يعتمد على الفطرة والوراثة البيولوجية؛ وتقابل الوعي، والسلوك الغريزي من خصائص الحيوان، وعدّه «بافلوف» سلسلة من الأفعال المنعكسة اللا مشروطة. أما السلوك الواعي فهو من خصائص الإنسان، وينمو تبعًا للمؤثرات الاجتماعية والتاريخية، ويحاول أن يغير الطبيعة على وفق مقاصده.

وعند «فرويد» تقع الغريزة بين الظواهر البيولوجية والظواهر السيكولوجية؛ وهو يرد الظواهر النفسية كلها إلى غريزتّي الموت والحياة.

الصداقة مركوزة في طبائع الناس

يقول «سقراط»: إن مبادئ الصداقة مركوزة في الناس بحكم طبيعتهم نفسها؛ فمن الطبيعي بالنسبة إليهم أن يتحابوا؛ لأنهم محتاجون بعضهم إلى بعض؛ ولأنهم يستجيبون للعطف؛ ولأنهم إذ يتعاونون، فإنهم يخدمون أنفسهم، وإذ يدركون هذا، يقدر كلٌّ أخاه.

ميل طبيعي في كل حيّ

الصداقة عند «أرسطو» ميل أودعته الطبيعة كل كائن حي، فهي تلاحظ مثلاً في العصافير، وعلى العموم في الحيوانات من نفس النوع.

ومع ذلك، فثمة من يرون بأن الإنسان غير قابل للجمعية، في حين إنه مقدر عليه أن يعيش في كنفها، ومن هؤلاء «كانط» الذي يرمِي النوع الإنساني بعدم القابلية للاجتماع؛ ولعل القائلين بهذا الرأي، قد تأثروا بظروف خاصة جعلتهم يسيئون الظن بالناس خشية أن يعرفوا من أمرهم ما يهدد سلامتهم.

الصديق وثبة القلب التلقائية

يرى الرواقيون أن الغريزة، وليست المصلحة، هي التي تخلق بين الناس روابط الوجدان: فإنما نمارس الصداقة قبل أن نحسب منافعها، بل قبل أن نشعر بتلك المنافع أو نعرفها؛ ونحن لا يمكن أن نلتمس الصداقة من أجل مسراتها؛ لأن هذه المسرات تالية لانعقاد الصداقة. فالصداقة تنبثق أصلاً، إلى حدٍّ ما، من وثبة القلب التلقائية، لا من حساب أناني، وهي ليست عملاً بارعًا من أعمال التدبر والحصافة، ولا مجرد عمل تعاطفي وجداني غريزي.

الصداقة ميل طبيعي غريزي

ويعتقد «شيشرون» أن مبدأين متميزين يسودان عالم الحيوان في كل مكان؛ الأول: حبّ النفس الكامن في كل كائن حساس؛ والثاني: درجة من الوجدان الاجتماعي، تحدو الفرد من الحيوان على أن يرعى مع نوعه.

ولا بد بالحريّ أن يكون أقوى من هذا بكثير، ما أشربته الطبيعة قلب الإنسان بالذات، من حبّ النفس والميل القطيعي. وهو مدفوع بالميل القطيعي أو الاجتماعي، لا إلى مجرد الاتحاد بنوعه عمومًا، بل إلى التماس فرد يندمج فيه بعواطفه وميول، بحيث يصيران نفسًا واحدة في جسدين.

الصداقة غريزة لربط الناس

يقول «سنيكا»: إن الطبيعة غرست في كل الناس غريزة تحملهم على التماس الصداقة، لكي تربط الإنسان بالإنسان.

وحدة الكائنات العاقلة

وأصل الصداقة عند الرواقيين كما يقول «مارك أوريل» هي علاقة الوحدة التي توجد بين الكائنات العاقلة، كما توجد بين أعضاء الجسد؛ لأنهم خلقوا ليتعاونوا؛ ولأن أول صفات الطبيعة البشرية هي إذن اجتماعية.

الإنسان مطبوع على الافتقار لجنسه

يقول «الماوردي»: إن الإنسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه، واستعانته صفة لازمة لطبعه، وخلقه؛ قائمة في جوهره.

اتجاهنا الغريزي نحو الصداقة

وقد جاء في «معجم «لاروس» للقرن العشرين» إنه: يوجد من ميولنا الغريزية، اتجاه طبيعي؛ لأن نحقق مع أشخاص آخرين نختارهم بمحض إرادتنا، ذلك الاتحاد العميق الواثق الهادئ الفعال الذي نسميه صداقة.

ثانيًا: عاطفة الصداقة

«الصداقة عاطفة جميع البلاد، وكل الأزمنة»—«مسنجر»

العاطفة مصطلح حديث

لعل «شاند» أول من اقترح كلمة «عاطفة» في آخر القرن الماضي. وهي عنده نسق منظم من الميول الانفعالية المتحلقة حول فكرة موضوع ما. ويستخدم «رابو» كلمة «هوى» بمعنى مشابه شيئًا، ويعرّف الهوى بأنه انفعال طويل المدى ذو مضمون عقلي، تسيطر عليه فكرة ثابتة. وقد عرف مجمع اللغة العربية العاطفة في «المعجم الفلسفي» بأنها: حال نفسية تنزع إلى الشعور بانفعالات معينة، أو القيام بسلوك خاص حيال فكرة أو شيء.

الصداقة عاطفة

وتعتبر الصداقة عاطفة بهذا المعنى؛ فإن أحاسيسنا من نحو أصدقائنا ليست انفعالات فجة بدائية؛ بل هي أكثر تركيبًا في تكوينها ونشأتها: فنحن نشعر بالسرور في حضور صديقنا، وبالأسف لغيابه، وبالغضب ممن يؤذونه، والمودّة لمن يؤازرونه.

عاطفة الصداقة عند القدامى

الصداقة ظاهرة سيكولوجية، وقد اتخذها الإغريق رمزًا لجميع الوجدانات، وأدمجوا فيها كل العواطف؛ لأنها أقواها وأكثرها تطورًا: فهي أقوى من الغرام، وجذورها أشدّ تأصلاً من عواطف الأسرة: إنها الوجدان البطولي الذي ترنّم به الشعراء.

وكانت الصداقة في العالم العتيق كالغرام في عالم الفروسية والمسيحية، العاطفة المفردة، أو العاطفة المسوّدة؛ وهي مركز الحياة الخلقية ومحورها.

التعاطف الوجداني أساس الصداقة

تتولد علاقة إيجابية أو عقلية بين الناس إذا طال اتصالهم فترة من الزمن، مظهرها أحاسيس من التعاطف أو التنافر الوجداني، وأحاسيس التعاطف الوجداني هي أساس عواطف الصداقة والتوافق العقلي.

نشوء عاطفة الصداقة

يصف «مكدوجال» نشوء عاطفة الصداقة وتطورها، فيقول: إن جمعتكما الآن دراستكما، أنشأ كل منكما يعتمد على صاحبه: تتبادلان المجاملات والخدمات، والمعونة، وإنك لتبدأ على الخصوص بأن تجد فيه إشباعًا لدافعك الاجتماعي أو القطيعي. إذا تلقيت أخبارًا سارة أو مكدرة، أو سنحت لك نكتة رائقة، أو شهدت تمثيلية ممتعة، أو صادفت حادثًا مثيرًا؛ شعرت بالحاجة إلى من تبثّه انفعالاتك؛ لأن إشراك غيرك في رد الفعل الانفعالي، يشبع رغبتك، ويزيد متعتك، ويلطف لوعتك.

وأنت بهذه الطريقة توطد تدريجًا مع صديقك علاقة تعاطف وجداني إيجابي. فلا تعود تقصر أمرك معه على احترامه ومشاركته العرضية في ردود الفعل لانفعالاته، بل تسعى جادًّا لإشراكه في خبرتك، وتطّرد مناسبات شعورك من نحوه بعرفان الجميل لقاء ما يسديه إليك من أياديه. وقد يجد دافع الحنان عن هذا الطريق محلاً إضافيًّا في عواطفك.

هذه هي عاطفة الصداقة. وإنها لتزيد بطبيعة الحال قوة وثباتًا، كلما تكاثرت الذكريات المشتركة، ولا سيما ذكرى الأحداث التي تعاونتما فيها متعاطفين وجدانيًّا.

التعاطف الإيجابي في الصداقة

وعاطفة الوجدان نحو الندّ، لا تنجم عادة من انفعالات حنان بسيط، بل من إعجاب، أو عرفان بالجميل، أو شفقة؛ وهي تنمو بصفة خاصة بالتعاطف الإيجابي.

ضرورة التماثل العاطفي

والمشاركة الإيجابية خليقة أن تنمو بين شخصين يكثر لقاؤهما؛ وتثير فيهما الأشياء المتشابهة انفعالات متشاكلة؛ وهذا لا يكون إلا إذا تماثلت عواطفهما: فقد يعيش شخصان معًا السنين ذوات العدد، بغير أن ينشأ بينهما تعاطفٌ معتاد، ما دامت عواطفهما متنافرة: كأن يحب أحدهما أو يكره الأشياء التي لا يوليها الآخر اهتمامًا.

محبة متبادلة بلا تعاطف وجداني

ويمكن أن توجد عاطفة محبة متبادلة، بغير تعاطف إيجابي، كما هو الحال في بعض علاقات الأم بالطفل، وفي مثل هذه الحالات يحدث تبادل لانفعال الحنان، وإذا وقع أحد طرفي العلاقة في كرب، أشفق عليه الآخر، وخَفَّ لنجدته.

ولكن مثل هذه العاطفة من المحبة بغير مشاركة إيجابية لا تجلب غير سرور يسير، وهي عرضة؛ لأن يكدرها تكرار الهزات والمضايقات، والشقاقات.

التعاطف الوجداني أساس المحبة

وفيما عدا المحبة الوالدية؛ فإن التعاطف الوجداني الإيجابي هو أساس محبة الصداقة، وهو مظهر جوهري لأي وجدان سائغ.

ويزيد عنفوان انفعالاتنا السارة إذا شاركنا فيها غيرها، عن طريق رد الفعل الأساسي للتعاطف البدائي؛ فيزيد بذلك ابتهاجنا.

ثورة غرائزنا تحوجنا إلى المشاركة

ونحن في حالات انفعالاتنا المؤلمة، كالغضب، أو حب الانتقام، والخوف والشفقة، والحزن؛ نرغب في أن يشاركنا سوانا، ونجد نوعًا من الرضا حين يصنعون.

تخصيص التعاطف الوجداني

والوازع النفسي الأعمى الذي يدفع الحيوان الاجتماعي إلى التماس صحبة بقية القطيع، كلما أثيرت إحدى غرائزه، ولا سيما غريزة الخوف، وانفعال الغضب؛ يتحول إلى رغبة في أن نجد أنفسنا محوطين بمن يشاركوننا انفعالنا، وهي رغبة حَريّة أن تتجه نحو الحصول على استجابة التعاطف الوجداني لفرد بعينه، نثق من أنه لابدّ مستجيب لنا.

والتعاطف الوجداني الإيجابي، لا يمكن أن يتحقق بمعنى الكلمة، حتى يتخصص، ويرتبط طرفاه بعاطفة متبادلة؛ وحتى يرغب كل منهما في أن يزيد سرور صاحبه وينتقص من ألمه، عالمًا بأن صاحبه يبتغي مشاركته الوجدانية، ويستمد منها ازديادًا لفرحه، ونقصانًا من حزنه، وشاعرًا بقدرته على تحقيق رغبته، وعالمًا بأنه يحققها بالفعل.

عاطفة مساواة ومسالمة

وتتميز عاطفة الصداقة عن سائر الوجدانات بخاصتين رئيسيتين:

فهي عاطفة مسالمة هادئة، وهي عاطفة فيها مساواة؛ ومهما يبدُ في بعض الصداقات من عدم المساواة الظاهرية، فإن المساواة هي صفة الصداقة الأساسية.

المطلب الثالـث: دور العقل والإرادة في عقد الصداقة

أولًا: الصداقة أرجح أعمال العقل

التعقل المنطقي أساس الصداقة

الصداقة عند «سقراط» أميز أعمال العقل، العقل الذي يوحي بالحكمة العملية؛ وهي تقوم في الواقع على حساب المصلحة: فنحن نتذوق جاذبيتها، على أنها ميل نتبعه، ولكنها أيضًا وفوق ذلك فضيلة. وأكثر ما يسترعي النظر فيها أنها تكتسب وتؤسس على تعقل منطقي. ندخل في اعتبارنا التضحيات التي نبذلها للآخرين، والخير الذي يلحقنا من صحبتهم؛ ومحبة الذات توحي إلينا إذ ذاك بالرغبة في الصداقة، إن ما فينا من ميل طبيعي للعمل الطيب والتقدير، يزيد وينضج، وهو لا يتعارض مع مصلحتنا، بل بالحري تقوّيه مصلحتنا وتدعمه. إنه بالاحتكام إلى عقلنا، ينفعل قلبنا، وينبثق فيما التعاطف الوجداني.

العقل يرجح الميل في تكوين الصداقة

الصداقة حركة نفسية، نصيب العقل منها أكبر من الميل، تحتاج جهدًا إراديًّا لإيقاظها والحفاظ عليها. بخلاف الغرام الذي هو ميل أعمى يتجه ضد مصالحنا، ويدمر سعادتنا أو يعرضها للخطر.

ثانيًا: الصداقة من أعمال الإرادة

لا غناء عن التأدي في الصداقة

يعتقد «سقراط» بأن النية الطيبة وحدها لا تكفي لنشوء الصداقة، بل يجب التأدي باللباقة والحذق والفن، لكي يسعى الأصدقاء إلينا.

الصداقة تنمو ولا تحدُث

الصداقة نبت جميل نام، لا تنضجه ابتسامة مرحة واحدة، أو نظرة مخلصة عابرة، وهي لا يمكن أن تحدث حدوثًا، بل يجب على من يجدها أن يجدّ في العمل من أجلها دائبًا جاهدًا؛ لتثبت وتنتشر في مواضع القلب الخفيّة انتشار الخميرة في العجين؛ وأن لا يكفّ عن تعهد نموها الطبيعي البطيء حتى تؤتي ثمرتها النادرة، فهي ككل الطيبات غالية الثمن تتطلب التضحية، وتستلزم أن يكون المرشح لها جديرًا بها.

الفصل الثاني
أسباب عقد الصداقة

المبحث الأَوَّل
أسباب خَفِيّة

تكلمنا في دوافع عقد الصداقة، فتصدينا لما تتميز به طبائع الناس، وميولهم من نزوع إلى المصادقة، واستعداد لعقد الصداقات بصفة عامة.

ونتكلم الآن في الحوافز الخاصة لعقد صداقة بين اثنين معينين بالذات، فنستعرض الآراء المنوعة لتكييف نشوء هذه العلاقة التي كثيرًا ما يستعصي تسويغ حدوثها على المنطق؛ لتجرده من المقدمات، أو لتعارضه معها.

سبب الصداقة روحي خَفِيّ

يعتقد البعض في أن للصداقة سببًا روحيًا لا يدركه العقل، ولا يمكن تفسيره، فهي تجيء وقتما تريد، كالريح تهبّ حيث تميل؛ وكأنما يفرض أصدقاؤنا أنفسهم علينا، تحت سلطان قانون لا نستطيع نحن ولا هُم فهمَه أو تعليله.

الجاذبية والصلة الخفية

ثمة تجاوب خفيّ، وجاذبية متبادلة، تكون هي بداية الصداقة، وإن لم تكفِ وحدها لاستمرارها. فتطرُق الصداقةُ بابَنا دون أن نتوقعَها أو نطلبَها، غير مقرونة بأي وجدان معين من كَسْبٍ أو منفعة، وتسيطر علينا بسحر الخلق والشخصية، قبل أن تتاح لنا فرصة المرور بمرحلة الاختبار والاختيار.

سبب الجاذبية

رغبة موضوعها الخير المطلق: يحلل «أفلاطون» في «ليسيس» الجاذبية التي تحدث بين آدميين، ويستخلص أن سبب الجاذبية هو الرغبة، وأن موضوع الرغبة شيء هو خير مطلقًا، وليس مجرد خير هو وسيلة لخير أعلى.

توق النفس لاستعادة كمالها الأول: ويوضح في «السيمبوزيوم» أن موضوع الرغبة يجب أن يكون الصورة الأبدية، التي فقدت النفس معرفتها لدى دخولها الجسد، التي لا بد أن نستردها إذا أرادت استعادة كمالها الأول.

التقاء المرء بنصفه: وفي «السيمبوزيوم» حديث يعزوه «أفلاطون» ساخرًا إلى «أرستوفانيس»، مؤداه أن الإنسان الأول خلق مكوّرًا، يكوّن ظهره وجانباه دائرة، وكانت له أربع أيد وأربع أقدام ورأس ذو وجهين متماثلين، في اتجاهين متعاكسين؛ وكان في وسعه أن يمشي منتصبًا كما يسير الناس الآن، وأن يتجه إلى الأمام أو الخلف حسبما يشاء، هذا إلى مقدرته على الدحرجة بسرعة فائقة!

وقد بلغ من قوة الناس وجبروتهم أن هاجموا الآلهة، الذين اختلف رأيهم بصدد إبادة الثوار بالصواعق، كما قطعوا دابر العمالقة من قبل، وبذلك ينقرض الجنس، وينقطع تقديم الذبائح، وتتوقف إقامة الشعائر.

وأخيرًا اهتدى «زيوس» إلى طريقة تخضد شوكة البشر، وتقوّم أخلاقهم، بغير أن يستلزم الأمر استئصالهم، اجتزاء بشقهم شطرين، بما يحقق منفعتين. تنصيف قوتهم، مع زيادة عدد الذبائح ضعفين.

فلما انقسم الآدميون نصفين، التمس كل شطره، حتى إذا التقيا، سادتهما الدهشة، ورفرفت عليهما المحبة والصداقة وتوثقت علاقتهما، وامتنع على أيهما أن يغيب عن بصر صاحبه، وإن كان لا يدري ما يريد من صنوه؛ لأن شغف كل بأخيه ليس غرام العاشقين، ولكنه من طراز آخر، ترغب فيه نفس كل منهما وتعجز عن الإفضاء به.

صورة الجمال الأبدي: ويبدو أن الجمال، أكثر من أي صفة أخرى، هو الذي يوقظ في الإنسان الرغبة التي هي بمثابة المحرك الأساس لنشاطه، ويجب أن تتحول هذه الرغبة عن الشخص المحبوب الذي لا يعدو أن يكون أحد الأمثلة لأشياء كثيرة جميلة على هذه الأرض، ويتجه نحو الجمال الأبدي ذاته.

تقدير السماء بقضاء خفيّ: يقول «مونتيني»: إنه و«لابويسي» قد سعى كل إلى صاحبه قبل أن يكون قد رآه، وعن طريق ما بلغه عنه، وكأن السماء قد قدرت بقضاء خفيّ أن يتعانقا باسميهما، قبل أن يلتقيا بجسميهما.

وهو يقول: إن لقاءنا الأول كان مصادفة، وقد أذهلنا أن ألفينا نفسينا متعارفين، مصطحبين، مترابطين ومتحدين، ومنذ تلك اللحظة لم يعد أحد أقرب إلى أينا من أخيه.

ولم تكن صداقة من طراز الصداقة العادية المتراخية أو على غرارها، فتتطلب احتياطًا طويلاً سابقًا: لم تكن لصداقتنا أي فكرة إلا عن ذاتها، ولا كانت لتقبل أي إشارة إلا إلى نفسها. لم يكن ثمة اعتبار واحد خاص، أو اعتباران أو ثلاثة أو أربعة أو ألف، بل كان ضربًا لستُ أدريه من خلاصة كل هذا الخليط؛ وبعد إذ استحوذ على كل إرادتي، أغراها بأن تنسى نفسها فتندمج في إرادته، كما استحوذت على كل إرادته، وحملتها على نسيان نفسها والاندماج في إرادتي بشره متبادل، وتوافق متماثل، ولو أن أحدًا طالبني بأن أقول لماذا أحببته، لشعرت بعجزي عن التعبير بأكثر من أنني أحببته؛ لأنه كان هو، لأنه كان أنا.

لست أدرى أي قوة محتومة لا تفسّر، كانت وسيلة هذا الاتحاد الذي لا تنفصم عروته، ووسيطته.

المشاركة في العقل الإلهي: يرى «سنيكا» أن العلاقات بين الناس هي علاقات مجتمع، كما أنها في نفس الوقت علاقات تعاطف وجداني؛ والناس باعتبارهم شركاء في العقل الإلهي، ميالون لأن يتحابوا.

الله ألّف بينهم: قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾. وقال: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

الأرواح جنود مجندة: وقد روي عن النبي ﷺ الحديث التالي: الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. وفي بعض الألفاظ: الأرواح جنود مجندة

تلتقي فتتشامّ في الهواء. ويفسّر «الغزالي» التعارف بأنه الائتلاف، وهو نتيجة التناسب؛ كما أن التناكر نتيجة التباين. والتناسب في الطباع والأخلاق باطنًا وظاهرًا أمر مفهوم؛ وأما الأسباب التي أوجبت تلك المناسبة، فليس في قوة البشر الاطلاع عليها.

ويقول: إن بعض العلماء، قد كنى عن هذا بأن الله تعالى خلق الأرواح، ففلق بعضها فلقًا، وأطافها حول العرش، فأي روحين من فلقتين تعارفا هناك فالتقيا، تواصلا في الدنيا.

الإلهام الخفي: كما يروي حديثًا شريفًا: لو أن مؤمنًا دخل مجلسًا فيه مائة منافق، ومؤمن واحد؛ لجاء حتى يجلس إليه.

المناسبة الباطنة: وهو يقول: إن في ائتلاف القلوب أمرًا أغمض من هذا، فإنه قد تستحكم المودة بين شخصين، من غير ملاحة في صورة، ولا حسن في خلق ولا خلق، ولكن لمناسبة باطنة توجب الألفة والموافقة. فإن شبيه الشيء ينجذب إليه بالطبع، والأشياء الباطنة خفية، ولها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر الاطلاع عليها.

تعارف القلوب والنفوس

يقول «أبو العتاهية»:

للقلـــبِ علـــى القلـــبِ دليـــلٌ حيـــنَ يلقـــاهُ

نفسان تتطلعان إلى السماء فتلتقيان: يقول «كارليل» إن صحبة نفسين، ترفع كلتاهما بصرها إلى السماء، هو شيء لا يدركه العقل، إنه يفوق السحر. هنا تتحدث أولاً النفس إلى النفس، لأن ما نسميه الاتحاد والمحبة المتبادلة والمجتمع، لا تبدأ أن تكون ممكنة إلا بالنظر إلى السماء، ولتفهم هذا النظر بالمعنى الذي يروقك؛ وليس بالنظر إلى الأرض.

حدق في محيا أخيك، في تلكما العينين حيث ترفّ نار الحنان الهفّاف. ثم استشعر كيف تتوقد نفسك الهادئة من فورها، وعلى غير إرادة منك بالمثل، فتشتعل وترجّع صدى الأخرى، حتى تصيرا لهيبًا واحدًا مندمجًا غير محدود من محبة متعانقة؛ ثم قل عندئذ أي فضيلة معجزة تخرج من رجل إلى رجل.

الألفة الإلهية للفضيلة مع نفسها: يقول «إيمرسون»: جاءني أصدقائي يجرون أذيالهم، أعطانيهم الخالق العظيم. أجدهم بحكم الحق الأقدم، بحكم الألفة الإلهية للفضيلة مع نفسها. أو بالحريّ لست أنا، بل الإله الذي فيّ وفيهم، هو الذي يوحّد المتعدد: فيزيل الجدران السميكة لأخلاق الفرد، والعلاقة، والسن، والنوع، والظرف؛ ولا يأبه لها، ويتغاضى عنها.

قران النفوس سرّ سماوي: يقول البعض: إن الأصدقاء يولدون ولا يصنعون، أو أن هذا هو الحال على الأقل بالنسبة إلى الطراز السامي من الصداقات: فإن قران النفوس سرّ سماوي ليس في وسعنا تفسيره.

أميّز صديقي حين ألقاه: وثمة من يقول: إني حين ألقى من سوف يصير صديقي وسط حشد المخلوقات البشرية الذي يزحم الدنيا، فإني أعرفه، تميزه عيناي بين الجموع، يستجيب لي قلبه. وكأني أسمعه يقول: «إني صديقك!» فأردّ عليه: «إني صديقك!».

جبرية الصداقة مثل جبرية الميلاد: ولربما حدث ما لم نتوقع، ونحن ماضون في عمل آخر، بغير أن نحلم بالشيء الذي يحدث، إذ يشرق علينا ضياء فلا تعود الحياة من بعد ما كانت أبدًا؛ نشعر بأننا بين يدي محبة تنظم طرقنا، وهو شعور يورثنا الهدوء والسلام. إن جبرية الصداقة، مثل جبرية الميلاد.

تجديد علاقة في وجود سابق: يقول «أندريه موروا»: إن ثمة صداقة لأول نظرة، كالحب لأول نظرة: كلمة، ابتسامة، أو نظرة تكشف عن روح مماثلة؛ عمل يؤكد أننا استكشفنا شخصية نبيلة. وهكذا تبدأ الصداقة بالصداقة، كما يبدأ الحب بالحب. فإن ثمة إلهامًا غريزيًّا للقلب البشري، فكم كوّنّا رأينا فورًا، فما كادت تتغير انطباعاتنا، بل إنها قلما تكون قد أخطأت. ومع أن المحبة لأول نظرة تبدو كالحماقة، فهي تكاد مع ذلك تكون إشراقًا؛ وكأنما تجدد علاقات عقدناها في وجود لنا سابق.

إنه عرفان مفاجئ حيوي. وقد لا يحدث في هذا اللقاء الأول إلا أن تتبادل النفسان تحية عابرة؛ وقد يحدث أن تندفع كل منهما نحو الأخرى فتتعانقا بحرارة.

عقول ذبذبتها من ذات الطبقة: ومن الباحثين النظريين من ذهب إلى القول بأن من أسباب عقد الصداقة تكون ذبذبة عقل الصديقين من نفس الطبقة.

المبحث الثاني

الإعجاب بصورة الخير والفضيلة

المطلب الأول: التكييف السيكولوجي لعاطفة الإعجاب

الإعجاب والنضج العقلي

يقول مكدوجال: «إن الإعجاب عاطفة حقيقية، بقدر ما هو عاطفة بدائية؛ وهي حالة وجدانية مركبة تستلزم درجة كبيرة من النضج العقلي، ولذلك فإن من الصعب أن يكون

الحيوان قادرًا على الإعجاب بالمعنى الحقيقي للكلمة، كما أنه ليس في مكنة الأطفال الصغار أن يبدوا إعجابًا.

الإدراك الحسّي السار والإعجاب

وليس الإعجاب مجرد إدراك حسّي سار، أو تأمل. فقد يستخلص المرء سرورًا من الإدراك الحسّي لموضوع ما، أو من تأمله، بغير أن يشعر من نحوه بأي إعجاب: كأن يسره سماع أغنية شعبية من أرغن آلي، بغير أن يعجب بالأغنية ولا بطريقة إخراجها؛ ولربما ازدرى نفسه قليلاً من جراء السرور الذي استشعره. كما أن الإعجاب ليس مجرد تقدير ذهني سارّ لعظمة موضوعه أو امتيازه.

انفعالا العجب والخضوع

ويبدو أن ثمة انفعالين بدائيين يتضمنهما الإعجاب بصفة أساسية، في الحالة المركبة التي يثيرها تأمل موضوعه، وهما: العجب؛ والوجدان السلبي بالنفس، أو عاطفة الخضوع.

ويتجلى العجب بدافع مقاربة موضوع الإعجاب، ومتابعة تأمله؛ لأن هذا هو الدافع التالي لغريزة حب الاستطلاع. ويظهر العجب واضحًا على الوجه في حالة حب الاستطلاع الشديد. وينقطع إعجابنا بمجرد فهمنا التام لموضوعه، وقدرتنا على تفسيره، ولا يعود من بعد الانفعال الذي يثيره الموضوع إعجابًا.

الإعجاب يحرك غريزة الخضوع

ولكن الإعجاب أكثر من العجب، فنحن لا ننبري فقط لفحص موضوع إعجابنا، كما نفحص موضوعًا لا يثير غير حب استطلاعنا أو تعجبنا، بل نقاربه في شيء من التردد،

ونتضاءل بإزائه، فإذا اشتد إعجابنا بشخص ما، شعرنا بالخجل، كما يشعر الطفل في حضرة كبير غريب، واعترافًا دافع إلى الانكماش والسكون ومجانبة لفت نظره؛ لأن غريزة الخضوع تكون قد أثيرت فينا مقرونة بانفعالها المناسب، وهو الوجدان السلبي بالنفس، لإدراكنا الحسي بأننا في حضرة قوة سامية، أو شيء يكبرنا.

الوجدان السلبي بالنفس

والوجدان السلبي بالنفس جوهري في الإعجاب، فالشخص المعتدّ، إلى أبعد حدّ، الواثق بذاته، الشديد الغرور، غير قادر على الإعجاب، لانطواء الإعجاب الحقيقي على شيء من التواضع والكرم؛ لأنه مركب من العجب والوجدان السلبي بالنفس. ودافع العجب يستبقي الالتفات منصبًّا على محل الإعجاب، كما أن دافع الوجدان السلبي بالنفس يورث الخضوع قابلية التأثر بموضوع الإعجاب.

سلطان صداقة الإعجاب المتبادل

وهذا الاتصال الشخصي بين فردين متكافئين، وما يقترن به من نفوذ متبادل وتأثير شخصي، هو الذي يجعل للصداقة التي أساسها الإعجاب المشترك، سلطانًا سحريًّا على عقل طرفيها وعواطفهما وشخصيتهما، لا يمكن أن يشاركها في قوته وجدواه أي نفوذ آخر.

الإعجاب يطيح بغضاضة النقد

وإذا كان الإعجاب هو أساس الصداقة الأول، فإنه يساعد على إخلاص الصديقين، ويسهل مهمة قيام كل منهما بواجبه نحو صاحبه، فيمحضه النصيحة ويصارحه بالنقد، دون أن تثير صراحته غضب أخيه إذ يعلم بأنه يطوي الجوانح على الإعجاب به، وأنه أنعم

النظر في مزاياه ومآخذه، فاختاره وفضله على الناس أجمعين. وسيجيء الكلام عن هذا في مطلب: «النصيحة».

المطلب الثاني: جاذبية صور الخير والفضيلة وسلطانها

أندر الصداقات وأبقاها

أندر الصداقات عند «أرسطو» وأبطؤها تكوينًا وأبقاها على الدهر، هي الصداقة التي أساسها الخير، وقوامها الفضيلة وتبادل الاحترام.

نشدان الفضيلة يوحّد بين الصديقين

وأقوى صور الصداقة عند «أفلاطون» صداقة شخصين يوحّدهما نشدان الفضيلة.

جمال الفضيلة يسترعي محبة الصداقة

كما يرجع «شيشرون» نشأة الصداقة إلى عواطف الاستحسان الخفيّ التي تخامرنا لدى أول لقاء مع من يبدو تأديبه ومزاجه متوافقًا مع خلقنا ومزاجنا، ومن نحسب أننا نكتشف فيه سمات عقل مخلص فاضل؛ إذ لا شيء يعدل الفضيلة في جماله، أو يفوقها في اتجاهها المباشر نحو القلب.

وهو يقرر بأننا نشعر بقدر من الوجدان، حتى نحو الذين لم تسبق لنا رؤيتهم من الأشخاص الجديرين بالتقدير، بل لا نتمالك الإعجاب بمفاتن الفضيلة، ولو انبعثت من عدو، فما بالك بمن يعايشوننا ويتعاملون معنا.

ثم لا يلبث هذا التأثر الارتجالي أن يزيد ويطرد تحسّنه بعد زيادة المقاربة، وتبادل الخدمات، مما يعقد في القلب أقوى الصداقات وأجودها.

شكل الفضيلة يستهوي القلب

وإنه لشديد الإيمان بأن في الإنسان حاسة مغروسة تستهوي بها الطبيعة قلبه إلى مفاتن الفضيلة، إذ يتجلى شكلها المحبوب في شخص ما. لذلك ينساق من يأنسون من أنفسهم انحيازًا لموضوع معين من التفوق الخلقي، إلى مقاربة المتفوق والارتباط به لينعموا بمزاياه العقلية النقية.

سحر الفضيلة يستولي على الوجدان

ثمة سحر في الفضيلة، بحيث إنها بشيء من الإيحاء الخفيّ تستهوي وجدان من تقرّ فيهم، فينجذب بعضهم نحو بعض، وتصحب هذه المودة الفجائية رغبة متبادلة في توثيق العلاقة ودعمها مما يؤدي في النهاية، كنتيجة طبيعية لازمة، إلى صداقات شخصية.

جاذبية تشابه النزعة الخلقية

إن تشابه الأساليب هو أقوى الجاذبيات، ولا بد من التسليم بأن الأفاضل مدفوعون بقوة بعضهم نحو بعض، بما بينهم من نزعة خلقية ورابطة طبيعية مستمرة.

حاسة تواؤم الأفاضل

والأفاضل بالضرورة، وبدافع من حاسة مركوزة في القلب، يتلقون تأثيرات من الوئام بعضهم نحو بعض، هي المنابع الطبيعية التي لا تنبثق الصداقة إلا من نميرها.

إعجاب كلا الصديقين بفضيلة صاحبه

وإن «شيشرون» ليتساءل بلسان «ليليوس»: ألا بأي مناسبة كان ممكنًا أن يحتاج «شيبيو» إلى خدماتي؟ لقد كان كلانا بالتأكيد غنيًّا عن معونة صاحبه؛ ولكنها الفضائل الفريدة التي أعجبت بها في أخلاقه، مع الرأي المناسب الذي لعله يكون، إلى حدٍّ ما، قد ارتآه في أخلاقي، كانت هي الدوافع الأولى والسائدة لذلك الارتباط الوجداني الذي زادت قوته من بعد زيادة كبيرة، باعتيادنا الحديث المخلص الخالي من التحفظ. ومع أن تحالفنا قد عاد على كلينا بكثير من الفوائد الفائقة؛ فإني على يقين من أن الأمل في تحقيق هذه الفوائد لم يدخل بتاتًا في سبب ألفتنا الأصلي.

الإعجاب بالصفات النادرة

ويقول «أندريه موروا»: إن الإعجاب بشخص يتميز بصفات مسلّم بندرتها، يكفي حده أحيانًا لتكوين علاقات وثيقة بين اثنين في حالة هدوء تامّ ليس بينهما جاذبية جسدية.

المبحث الثالث

الضيق بالعزلة

«لو أن شخصًا عُرِّج به إلى عنان السماء وكُشف له عن جمال الطبيعة الكونية، فإن منظرها العجيب ما كان ليورثه غير قليل من السرور، إذ لم يجد من يسرُد له المجد الذي شهد»—شيشرون

مفهوم العزلة

ليس الوجود في وسط الجماعة بمانع من العزلة، أو محقق لمزايا الصحبة: فما أشبه ما يعج به المجتمع من وجوه، بمعرض للصور؛ وما أشبه ما يدور في محيطه من حديث بصنج يرنّ. حيث لا محبة؛ فهو عزلة تاعسة خالية من الأصدقاء الحقيقيين، الذين بغيرهم تقفر الدنيا.

السآمة مبدأ الاجتماعية

يقول «شوبنهاور»: إن السآمة هي مبدأ الاجتماعية، وقد بلغ من قوتها أنها تحدو الآدميين، على قلة ما في قلوبهم من محبة، أن يلتمس بعضهم صحبة بعض.

رهبة الشعور بالوحدة

وقد اشتد ضيق «نيتشيه» بالوحدة، إذ تصور أنه عاجز عن أن يظفر بين الأحياء أو الموتى، بمن يشعر بأنه يمتّ إليه بمشابهة أو قربى، ووصف هذا الشعور بأنه رهيب جدًّا.

الاستغناء بالرفقاء عن الأصدقاء

ويقول «بونار»: إن من الناس من لا يتصورون أنفسهم وحدهم أبدًا، طالما أنهم ليسوا في صحراء؛ لأن لديهم ما يزيد عن حاجتهم من الرفقاء، بحيث لا يشعرون أنهم يفتقرون إلى أصدقاء.

أصدقاء السآمة أقرب إلى الرفقاء

وعند «فاجيه» أن الناس عاجزون غالبًا عن تحمل الوحدة، إما بسبب ما فيهم من خير أو من شر، أو من انعدام العبقرية؛ ولهذا فهم يبحثون عن الأصدقاء، حتى ليغلب أن تكون الصداقة اتحاد متضايقين. ولكن الأصدقاء الذين نحصل عليهم من هذا الطراز، هم أقرب إلى الرفقاء منهم إلى الأصدقاء، إذ يغلب على هذا النوع من الصداقة طابع الصدفة، ولا يكون فيه عادة شيء مشترك خلا رغبة الخلاص من السآمة، أي الإفلات من تفاهتنا. ومن هؤلاء أصدقاء المقهى، أو الرحلات الجماعية؛ فإنهم لا يستبقوننا إلا خوفًا مما ينتظرهم.

ومع ذلك، فيجب أن لا يغيب عنا أن الرعب من الفراغ هو أحد دوافع الصداقة، وأنه لولا النفور من الوحدة لما بحث الإنسان حتى عن شبيهه، ولما كان للصداقة وجود.

طول الشعور بالعزلة يؤدي إلى النكوص

يقول «أوفرستريت» في «العقل الحيّ»: إنه إذا طال شعور المرء بالعزلة والعجز، فلا مفرّ من نكوصه، بحيث يحاول أن يتخذ من العلاقات التي قُصد بها المشاركة، وسيلة لاستعادة أحاسيس الأمان والاطمئنان التي سعد بها إبّان طفولته، فيحاول مثلاً أن يتخذ من الصداقة وسيلة للاستحواذ والغيرة. أو يتوقع أن تحلّ زوجه محل أمه. أو أن ينتمي إلى

جماعة معينة لا يعدوها، ولا يرضى بأن يضم إليها غيره. أما القدرة على تكوين العلاقات، فهي من علامات الصحة النفسية.

الأنس بالنفس

يقول «فاجيه»: إن ثمة أشخاصًا لا يطيقون العزلة، ويرجع ذلك إلى أن حبهم لأنفسهم لم يبلغ درجة كافية من القوة تأذن لهم بأن يعيشوا مع ذواتهم، أو أن طبائعهم ليست من الخصب بحيث يستطيبون ثمراتها.

وهو يقرر أن «إبسن» كان على حق، إذ قال: إن الرجل الحر هو الذي يعيش وحده؛ ولكن فاته أن أحدًا لا يستطيع أن يعيش وحده، ولو كان هو «ديكارت» أو «كانط» أو «نيتشيه» أو «إبسن» نفسه. ذلك بأن من يعيش بمفرده هو رجل يخلق مجتمعه. تتمخض نفسه باستمرار عن تصورات وأفكار، وأحلام وشخصيات تكون له صحبة، وهي متعددة منوعة بحيث لا يعوزه أحد، فإذا جاءه شخص يقول: أتيت أملأ وحدتك، فإن في وسعه أن يردّ قائلاً: لا بربك فإنك قد فعلت.

المبحث الرابـــع

البحــث عن الشبيـــه

يقاس المرء بالمرء إذا هو ماشاه—أبو العتاهية

اتحاد الأشباه

من القدامى من كان يعتقد أن ثمة إلهًا لا يفتأ يجذب الشبيه إلى الشبيه، ولكن «أفلاطون» يشك في صحة هذه النظرية، على الأقل من حيث انطباقها على الأشرار: فإنه كلما اشتد شبه الشرير بالشرير زادت عداوتهما؛ لأن الشرير غير عادل، ومن المحال أن يصادق الظالم المظلوم. أما البارّ فإنه لا يصادق صاحبه لبرّه؛ بل الفضيلة وليست المشابهة هي أساس صداقتهما.

اتحاد الأضداد

ويرى البعض أن الصداقة اتحاد الأضداد، فالخزّاف يغار من الخزّاف، والمتسوّل من المتسوّل. وأنه لولا الخلاف ما كانت صداقة، فالمفارقة بين النغمات الحادة والرصينة هي منشأ التوافق، واختلاف الجنسين هو علة الغرام. وعلى حين إنه ليس ثمة ما يتوقعه الشبيه من شبيهه، فإن الضد يحتاج إلى ضده: فالفقير يحب الغني، والضعيف القوي، والمريض الطبيب، والجاهل العالم.

وهذا تناقض ظاهري يدحض بالخُلف؛ لأن الصداقة على هذا الاعتبار يجب أن تكون صديقة للكراهة، والعدالة للظلم، والاعتدال للتطرف.

التجانس

ومن فلاسفة الرومان من ذهب إلى أن الصداقة لا تستمد أصلها من عِوَز الطبيعة البشرية، ولكن من اتجاه غريزي ما، يستدرج العقول المتجانسة إلى الاتحاد.

ولعل التجانس هو أول أسباب الإخاء.

قال النبي ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف». وهي بالتجانس متعارفة وبفقده متناكرة.

وقيل: الأضداد لا تتفق، والأشكال لا تفترق. وقيل: بحسن تشاكل الإخوان يلبث التواصل. وقيل:

فلا تحتقر نفسي وأنت خليلُها ... فقلتُ لهم إن الشكولَ أقاربُ
نسيبي في رأيي وعرضي وهمتي ... وإن فرَّقتنا في الأصولِ المناسبُ

اتفاق الطبع

وجاء في «إخوان الصفاء»: إن الصداقة لا تتم بين مختلفين في الطبع؛ لأن الضدين لا يجتمعان. مثال ذلك السخيّ والبخيل، فإنهما متضادان في الطبع، فلا تتم بينهما الصداقة، ولا تصفو لهما المودة، ولا يهنيهما العيش؛ لأنه إذا فعل السخيّ شيئًا مما يوجبه سخاؤه من بذل المال، أو المعروف؛ رآه البخيل قد فعل ما لا ينبغي ولا يجوز، وإذا فعل البخيل بطبعه شيئًا من إمساك المال مما يوجبه بخله، رآه السخيّ بصورة من قد أتى منكرًا لا يحسُن فعلُه. فيصير ذلك سببًا لعيب كل واحد منهما على صاحبه، حتى يعتقد البخيل في السخيّ سخف الرأي، وتضييع

المال، وترك النظر في العواقب؛ ويعتقد السخيّ في البخيل النذالة والدناءة، وصغر النفس، وقصور الهمة، فإذا وقع بينهما وداد صارت وحشة وتواترت حتى تصير عداوة.

تشابه النفوس العظيمة

ولعل النفوس العظيمة تتجه بغريزتها، بعضها نحو بعض، تلتمس التحالف، وتنصهر في الصداقة.

تشابه الفضيلة في الصديقين

وثمة من لا يكتفي بمجرد وجود فضيلة مشتركة بين الصديقين، بل يتحرى أن تكون فضيلة من نفس النوع؛ ولا يجتزئ باتحاد الغاية، بل يتطلب أيضًا أن تتشابه وسائل تحقيقها.

اتفاق الرأي على المبادئ

لا بد من اتفاق الرأي، على الأقل فيما يتعلق بالمبادئ النشطة البارزة، التي تؤدي إلى اختلاف الأحزاب في الدولة، وتعدد العقائد في الدين الواحد، والتي تؤثر إلى حدٍّ ما في خلفيات الحياة.

فالمنتمون إلى شيع متباينة لأسباب سياسية أو دينية أو خلقية، تختلف عادة نظراتهم، وتتعارض مبادئهم في مواجهة المشاكل.

فإذا شجرت مناسبات الشحناء، كانت الموافقة خيانة لقضيتنا، واحتفاظًا بالصداقة بطريق الكف عن استحقاقها؛ وإذا التزمنا الصمت، فقدنا سعادة حرية الرأي وكرامته، وعشنا في ضيق دائم. وإن تخلينا عن صديقنا فمن ذا يقرر أي الصديقين كان حريًا به

الاستسلام والاعتراف بالخطأ. لم يبقَ إذن غير المعارضة والجدل، وما يقترن بهما من حدة وعنف، ومن خيلاء النصر، أو مضض الهزيمة.

قد يستمر بلا شك تبادل الإعزاز والمجاملات، كما تظل الفروع خضراء بعد إصابة الجذر، ولكن سمّ الخلاف قد نفذ؛ ولئن احتفظ المحيّا بابتسامته، فإن القلب لا يلبث أن يتيبس ويتغضن لساعته.

اتفاق الرأي في الأمور الصغيرة

غير أننا وإن كنا في حِلّ من حرية الاختلاف على الموضوعات الكبيرة، فإن حاجتنا ماسة إلى أن نكون على وفاق مع أصدقائنا في الأمور الصغيرة؛ لأن هذه المناسبات الخفية تكشف عن طبيعتنا، إذ نستطيع لمس النسيج الذي حيك منه ثوب كل واحد منا، ولما كان الأمر يتعلق بمن هو حبيب إلينا، فإنا نتحرى أن نحس أن ثوبه قد حِيكَ من حرير.

يسرنا أن يعارضنا صديق في مسألة فلسفية أو فنية. أما أن يقسو على فقير، أو يغالظ امرأة، أو يخاشن مرؤوسًا؛ فإنه وإن استكمل بعد ذلك كل طلباتنا، فهو من غير نوعنا، وليس يجمعنا به شيء مشترك.

تشابه المثل العليا

أما مثل الحياة العليا، ومبادئُها الأساسية، وقضاياها الكبرى، فإن اتفاق رأي الصديقين عليها، وتشابه موقفهما منها، أمر ضروري لقيام الصداقة واستمرارها.

تشابه الشخصية

وقد ضرب «ماكني» في «سيكولوجية التوافق الشخصي» مثلاً للصديقين يتقاربان بسبب تشابه الشخصية والمصالح ووجهات النظر والدوافع: اثنين يلعبان في فريق كرة القدم أو يشتركان معًا في حجرة واحدة، ويتناقشان في مشاكلهما. إنهما صديقان حميمان، يستمتع كلٌّ بصحبة الآخر، ويفضي إليه بأسراره، ليس لأحدهما مورد مالي من بيته، وكلاهما يكسب أو يقترض كل ما يلزم لنفقته من نقود. إنهما يترابطان بمجموعة من العوامل مشتركة بينهما. كلاهما معتبر من الصفوة. خلفيتاهما متماثلتان من حيث ما كابداه من قبل من مصاعب وخبرات. يعرف كل منهما أخطاء صاحبه، ويتقبّلها. لا تكاد تكون بينهما منافسة، فكلاهما يزيد من شعور صاحبه بالأمان. إذا غشيا المجتمعات أقبلا على ألعاب بعينها، وتستهويهما نفس المصالح، وموضوعات الحديث، يحرص كل منهما على أن يرافقه صاحبه إلى الأماكن التي يقصدها. وهما يقرران إلى أبعد حد أن في وسع كل منهما الترفيه عن كربه، في حضرة صاحبه، بغير أن تنقطع علاقتهما الحارة الثابتة.

الصداقة مِزاج من المشابهة والمخالفة

«يتفاهمان من خلال خلافاتهما»—بونار

أما «إمرسون»، فإنه يقول: إن الصداقة تتطلب ذلك الوسط السعيد بين المشابهة والمخالفة، وأن الصديق يجب أن لا ينقطع لحظة عن أن يكون نفسه؛ لأن الفرح الوحيد الذي أحصل عليه من كونه لي، أن الذي ليس لي قد صار لي. وأنه لمما يورث الغثيان، ويحجب نور النهار عن الإنسان، أنني حيث ألتمس مناصرةً، أو على الأقل مقاومةَ رجل، أُلفي خبيصًا من الإذعان. خير أن تكون شوكة في جنب صديقك، من أن تصير صداه، إذ

يجب أن يكون الصديقان اثنين بمعنى الكلمة، قبل أن يكونا واحدًا. فلتكن الصداقة محالفة بين طبيعتين كبيرتين هائلتين، محترمة من الجانبين، مرعيّة من الطرفين؛ قبل أن يتبينا المطابقة العميقة التي توحّدهما تحت ما بينهما من تفاوت.

اختلاف النزوات والأذواق والحرف

ولعل اختلاف النزوات والنزعات والأذواق والحِرَف، مما يزيد أحيانًا متعة الصداقة ويوثق أواصرها؛ ولأنه وإن كانت المشابهات السطحية هي التي تجمع بين الأصدقاء العاديين، إذ يكفي أن تربطهم مهنة واحدة، أو ذوق مشترك ولو كان مصطنعًا؛ فإن الذي أوتي نصيبًا من الغنى الداخلي يختار أصدقاءه؛ ليضم خبرتهم إلى خبرته، فيكمل بهم نقصه ويتيح لمواهبه الهاجعة فرصة التيقظ والنشاط. وهو لذلك يختار أصدقاءه من أمثاله؛ وممن لم يستطع أن يصل بملكاته إلى مستواهم، الذي يتطلع إلى بلوغه بمساعدتهم؛ أو ممن يعاونونه على استعادة وضع يصعب عليه استرداده بمفرده.

فإذا أتيح للطبيب أو القانوني، أو رجل المال أو الشاعر أو السياسي أو العسكري، أن يزيد ما عنده بما عند صاحبه؛ فإن هذا الحرص على المبادلة يدل على امتياز الطرفين، ويحقق المساواة بما تتميز به علاقتهما من مشابهة جوهرية، رغم ما عساها أن تنطوي عليه من اختلاف.

تباين التفكير

يقول «كانط» في محاضراته في الأخلاق، إن الصداقة ليست تطابقًا في التفكير، بل بالعكس إن تباين التفكير هو أساس أقوى للصداقة، إذ يكمل الواحد قصور صاحبه؛

وإن كان لا بد من اتفاق الصديقين على نقط معينة، بأن تتطابق مبادئهُما الثقافية والأدبية، إذا أراد أن يكون بينهما تفاهم تامّ؛ وإلا فإن قراراتهما تختلف دائمًا، ولا تتفق أبدًا.

تعاون الفوارق والخلافات

ويقول «موريس يرادنس» في كتابه في علم النفس: الصداقة ليست مشاركة في التعاطف الوجداني؛ بقدر ما هي تعاون الفوارق، إن لم يكن تعاون الخلافات.

تجاذب عكسي يحقق تكامل الشخصية

وقد تجد أفرادًا كثيرين يتجاذبون عكسيًّا؛ لأنهم يختلفون، هؤلاء أفراد تتكامل شخصياتهم: يشبع أحدهم دوافع الآخر، للواحد مميزات يعجب بها الثاني، ويود لو أنه ظفر بمثلها، ولكنه يعرف أنها تعوزه. إنه يعجب بنفوذ صاحبه، بممتلكاته، وإنجازاته، بمزاجه واتزانه، أو مقدرته الاجتماعية. ويمكن أن يعيش وجدانيًّا عن طريق صاحبه ويستطيع أن يظهر للآخرين سمات مرغوبة للغاية، بإدماج صاحبه في حياته الاجتماعية، وعمله النمطي. وأحيانًا يقدر هو بدوره على توفير حاجات صاحبه، وبذلك يوثق الرابطة. ومع ذلك، فإن هذه العلاقة قد تجهدها رغبة أحد طرفيها في الاستحواذ. وقد ضرب «ماكني» مثلاً طالبتين في كلية تتفانى كل منهما في صاحبتها إحداهن حسناء مرحة كثيرة الأصدقاء، والأخرى ليست بذات جمال، وهي خجول نوعًا، ولكنها لا تعرف الأنانية بتاتًا، واتجاهها سار.

تنحدر الفتاة الحسناء المرحة المحبوبة من أسرة ليس لها في الواقع أي مورد مالي، في حين تستطيع أسرة الفتاة الثانية أن تمدّ ابنتها بكل مطالبها؛ وإنها لتضيق بالحرمان من صديقتها الجذابة؛ لأنها تجعل حياتها أكثر اكتمالاً، وتضفي عليها بعض الشعبية، وتشعرها بمزيد من الأمن، وهي لا تضنّ عليها بسيارتها وملابسها، مما يرفع قدرها ويكسبها جاهًا ونفوذًا.

وتتوطد بين الفتاتين في خلال سني الدراسة، علاقة قوامها التفاهم والتقبل، والاحترام؛ فهما صديقتان متلازمتان، تستضيف كل منهما الأخرى في بيتها، وتوفر لها ما تمس إليه حاجتها.

تشابه الأصدقاء واختلافهم

«تالليران» و«هملتون»: يقول «دف كوبر» في كتابه «تالليران»: إنه عقد صداقة مع أمريكي، لعله أبرز رجل في تلك القارة. وجد «تالليران» في شخصية «إسكندر هملتون» رجلاً يستطيع أن يحبه ويحترمه في وقت معًا. كان بينهما كثير مشترك، وحيث يختلفان كانت الأفضلية كلها في جانب «هملتون».

فهما أرستوقراطيان من حيث التربية ووجهة النظر، ولكنهما سلما مما تنطوي عليه الأرستوقراطية من مساوئ. وكلاهما شديد الاهتمام بالسياسة، ينظران إليها نظرة واقعية، ويحتقران التهريج الحماسي سواء انهمرت ألفاظه من شفتي «رودسيير» الإرهابي الذي ينتحب على الإنسانية، أو «جفرسون» مالك العبيد المتحدث بطلاقة عن الحرية، فإنهما كريهان بنفس القدر لدى هذين السياسيين العمليين، اللذين يحاولان رؤية الأشياء كما هي.

كان الاثنان مولعين بالسرور، يبتهجان بوشي الحياة الذي نسميه أناقة؛ ولم يكن أحدهما معصومًا من الافتتان بالنساء. ولكن على حين صار الفرنسي نموذجًا للتجرد من المبادئ في عصر لا مبدأ له؛ كانت للأمريكي مبادئ يُستشهد في سبيلها. وبينما يرى «تالليران» في السياسة سبيله إلى الغنى؛ فإن «هملتون» ليؤثر احتراف النشل، على أن يحرز قرشًا عن طريق مركزه السياسي.

ولم يستطع «تالليران» أن يفهم لماذا اضطر «هملتون» أن يعود للمحاماة ليكسب رزقه، بعد اعتزال وظيفته؟ بل عجز عن الإعجاب بتجرده من المصلحة الشخصية، إذ بدا له هذا منه سخفًا.

ومع ذلك، فقد كان الاثنان صديقين. وبعد سنين، لما وصل باريس «هارون بر» الذي بارز «هملتون» فقتله، وترك بطاقته لـ «تالليران»، أمر قهرمانه أن يخبر السيد «بر» حين يعود، أن صورة «ألكساندر هملتون» معلقة فوق مدفأته.

«تالليران» «روابيه كولار»: لو لم يكن «روابيه كولار» ملكيًا كاثوليكيًا لكاد يوصف بأنه «جون برايط» السياسة الفرنسية. كانت صراحته وفضيلته، في حياته الخاصة والعامة كليهما، محل إعجاب الناس كافة، وكان لا يعدل ولاءه لعرش فرنسا، وإخلاصه في عقيدته الدينية؛ إلا تحرره العقلي، وتجرده التام من الاهتمام بمصلحته الخاصة.

قال مرة إن رؤية قسّ متزوج تورثه شعورًا بالغثيان (وكان «تالليران» قسًا، كما كان زوجًا)؛ وقد رفض ببرود عرض «تالليران» بمقولة: إن صحة مدام «روابيه كولار» لا تأذن برد زيارته؛ ولكن «تالليران» قدم لزيارته، وتوثقت منذ ذلك اليوم العلاقات بين البيتين. ولفرط دهشة الكثيرين ممن يجلّون «روابيه كولار» بقدر ما يمقتون «تالليران»، نشأت صداقة قوية دائمة بين الاثنين.

وقد كتب «روابيه كولار» قبل وفاته ببضع سنين، يقول له: إنك تعرف المكانة التي احتللتها في حياتي مدى أعوام كثيرة، منزلة لا يستطيع أن يملأها سواك، إنك الوحيد الباقي من سلالة العمالقة.

«تالليران» و«تيير»: عرفه «تالليران» لأول مرة سنة ١٨٢٢، كانا على طرفي نقيض في المحادثة: البرجوازي الصغير المتوثب، يتفجر حماسة وذلاقة؛ والأرستوقراطي الرابط الجأش، المترفع، الطويل الصمت، البصير بصياغة الحِكَم البارعة المصقولة. كان كل منهما مثالاً مثيرًا للقرنين اللذين ينتشبان إليهما. وقد شكا «تيير» مرة من أنه إذا همّ بالكلام في السياسة، حوّل «تاlليران» الحديث إلى موضوع النساء؛ فرد «تاlليران» قائلاً: ولكن النساء سياسة.

ضرورة المخالفة ومداها

يغالي «فاجيه» عضو «الأكاديمي فرانسيز» في تقدير عنصر الشبه، ويعتبره الصداقة كلها، أو على الأقل جوهرها. وهو يفسر رأيه بأن الـ «أنا» تبحث عن «أنا» خارجها، لتخرج من ذاتها فتجدها في ظل تلك القاعدة المزدوجة: إنها تحب نفسها، وتتوازن قليلاً على نفسها؛ وإنها تريد الفرار من نفسها، والتمسك بها في وقت معًا؛ تريد التخفف منها، والتمتع بها. إنها هي الصداقة تعيدنا إلى أنفسنا التي نهجرها بسبب الإرهاق، وهي التي نلتمس فيها بغريزتنا أن نعود فنجد نفسنا بغير أن نشعر بتاتًا.

يجب أن لا نجد في الصديق نفسنا تمامًا؛ بل يلزم أن توجد فروق طفيفة بين الـ «أنا» نين؛ فالذي قال لصاحبه: «خالفني إذن بين حين وآخر لكي نكون اثنين» يكون على إلمام دقيق بالصداقة. يجب أن ترد الصداقة «أنا» نا إلينا، لا أن تحتوينا، فلا يكون ثمة جدوى من البحث عنها.

ولكن إذا استهدف الرجل الذي نحن بصدده، لمعارضة مستمرة من صاحبه، لما تأخر عن أن يقول له: «إنك تُثَنِّيني فوق ما يجب».

إن جوهر الصداقة هو البحث عن شبيه، أي عن شخص هو «أنا» من غير أن تكون كذلك تمامًا، ولكنه أيضًا صورتنا؛ نحبه عن طريق تغيير صفة الـ «أنا»، فيوقّينا مضايقة محبة أنفسنا ومعرتها، على حين يأذن لنا مع ذلك بأن نحبها بغير أن نشعر.

المبحث الخامس

العـــــادة

عادة العطف قد تتحول صداقة

للعادة شأن في توثيق الروابط الواهية بين شخصين يتبادلان التحية بحكم الجوار في السكنى أو العمل، أو الانتماء إلى نادٍ أو هيأة دينية أو جماعة سياسية أو علمية؛ فلا تلبث العادة أن توجد نوعًا من العطف.

وينبه «أرسطو» على أن العطف يشبه الصداقة، وإن كان خلوًا من القوة والرغبة، وهما العلامتان اللتان تسبقان الميل عادة. ويقول: إنه لا يكفي أن يشعر المرء بالعطف ليكون محبًّا؛ لأن العطف لا ينطوي على الاستعداد لعمل شيء لمن نعطف عليهم، أو تجشُّم مشقة في سبيلهم. وإذن لا يكون إلا من باب المجاز أن يقال عن العطف إنه من قبيل الصداقة؛ ولكن يمكن أن يقال إن العطف إن طال أمده حتى أمسى عادة، قد يصير صداقة حقة.

العادة تتمخض عن الصداقة

والأبيقوريون يحتفلون بأثر العادة في عواطفنا، ويقولون بأن المبادرة والمقاربات الأولى، والرغبة في عقد الصداقة تجد أسبابها في السرور الشخصي، ولكن حين تحدث

الألفة، فعندئذ ينفتح الحب، إلى حد أن نعزّ أصدقاءنا لذاتهم بغير أن نستصفي أي فائدة من الصداقة. إن العادة تربطنا بالأماكن والمعابد: بكلابنا وخيولنا وألعابنا؛ فكم بالحريّ يكون أثرها في ربطنا بالناس. إننا نلصق بصديقنا لصوقنا بالمكان الذي نعيش فيه، مدفوعين بنفس الأسباب، فتصير الأشياء والأشخاص عزيزة لدينا بطول الاستخدام واستمرار التعامل.

مجموعة من فَعال المودة

يقول «بوزويل»: إنه ليس في مقدورنا أن نحدّد اللحظة التي نشأت فيها الصداقة: فكما أن الإناء إن ملأناه قطرة فقطرة، فاض بإضافة قطرة معينة؛ كذلك في سلسلة من فعال المودة، فإن ثمة واحدًا منها على الأقل يفعم القلب فيفيض بالصداقة.

المبحث السادس

حـب النفــس

وازن عديد من رواد الفكر البشري، ولا سيما فلاسفة اليونان والرومان، واللاهوتيون المسيحيون، بين محبة النفس ومحبة الغير، وهي موازنة لا بدّ لكل امرئ من ممارستها في حياته اليومية؛ وعلى مدى توفيقه في تحقيقها تتوقف سعادته وسعادة خاصته.

وما دمنا بصدد دراسة الصداقة، وهي أوثق العلاقات وأسماها، وأدناها إلى التمام والكمال، وألصقها بالإيثار على النفس؛ فإن متابعة اتجاهات الفكر البشري في الموازنة بين محبة النفس ومحبة الغير، يكون لها أهمية خاصة في تعرّف ضوابط الأسس التي تقوم

عليها روابطنا بأثيرينا؛ لاسيما أن صلة الصداقة ليست مقصورة على الناس وحدهم، بل هي مستطاعة بين الإنسان والله عز وجل.

المطلب الأول: الموازنة بين محبة النفس ومحبة الصديق عند فلاسفة اليونان

أولًا: «سقراط»

من مصلحتنا أن نحب غيرنا

يؤسس «سقراط» الصداقة على المصلحة؛ ويقرر بأن مبادئ الصداقة مركوزة في الناس بحكم طبيعتهم نفسها، فمن الطبيعي أن يتحابوا؛ لأنهم محتاجون بعضهم إلى بعض، وهم إذ يتعاونون ينفعون أنفسهم.

الصديق ثروة وأمان من الحاجة

وهو يعتبر الصديق ثروة بمعنى الكلمة، ويعدّه مصدرًا للإيراد، ووسيلة للعيش؛ إذ يقول: إن الأصدقاء الذين اتخذتهم لنفسي أرادوا أن يغمروني بفضلهم، وليس لي مورد غيرهم، ويستخلص من هذا، أنه خير للإنسان أن يكون له أصدقاء كُثُر، من أن يمتلك قطعانًا من الغنم والبقر والماعز؛ إذ يكفي في الواقع أن يكون له صديق واحد غني، ليظل بمنجاة من الحاجة؛ لأن الصديق يأخذ على عاتقه تزويد صديقه بما يعوزه. وهو يرجو أن يعتبر صاحبُه ثروتَه ملكه، كما يعتبر هو ثروة صديقه بمثابة ثروته.

الصداقة تجارة رابحة

وعنده أن الصداقة هي قبل كل شيء عمل حكمة وعقل، وأنها يجب أن تتسلل مخترقة عقبات المنافسة والغضب والطمع والحسد. إنها انتصار على أهواء حب الذات، شرطها الاعتدال والسيطرة على النفس.

والناس يصيرون أصدقاء بنوع من التعاقد، يقتضي تسامح الطرفين، مع مراعاة المصلحة الشخصية، وفي حدود العدالة، بالقدر الذي تقتضيه معيشتهما معًا في سلام. وفي الواقع أن الصداقة تقوم على تقدير المصلحة: فنحن نضع تحت نظرنا التضحيات التي نسديها للآخرين، والخير الذي يلحقنا من صحبتهم؛ فيوحي إلينا حبّ الذات إذ ذاك بالرغبة في الصداقة.

ثانيًا: «أفلاطون»

الصداقة تعلمنا التجرد من المصلحة

يعتبر «أفلاطون» أن حب الخير سابق على كل حب سواه؛ وأن حب النفس، وحب الصداقة ينبع كلاهما من حب الخير. وعنده أننا لا نحب الخير بغير أن نود تملكه، وفي نفس الوقت فإننا لا نحبه إلا إذا أردنا إبلاغه لشخص آخر. فحب الخير إذن هو المصدر المشترك لمحبة الذات، وللتعاطف والصداقة تفصلنا عن ذواتنا، وتعلمنا التجرد من المصلحة.

محبة خالصة من المصلحة

وهو يكتفي بأن تكون المحبة حقيقية، مخلصة، غير مختلطة بالمصلحة، أو مشوبة بالغيرة، أو بأي عاطفة أخرى قريبة من الكراهة؛ لكي تتبوأ مكانًا في جدل القلب، أيًا كان

الاسم الذي يوافقها، سواء سميت «محبة» أو «صداقة» كما يؤسس اختيار الأصحاب على دوافع يقرها العقل، وهذه الدوافع لا تكون المصلحة أو الطمع.

التفاني في الصديق ليس إنكارًا للذات

ويعرّف الصديق عمومًا بأنه نفس أخرى، ويعتبر أن الأصدقاء لا يكوّنون غير نفس واحدة. وليس لهم شيء لذاتهم، لا أشخاصهم، ولا أموالهم. ولذلك فإن الصداقة هي أن يعامل الصديق معاملة النفس. ولما كان الصديق ذاتًا ثانية، فإن التفاني في الصديق لا يكون إنكارًا للذات.

ومن ناحية أخرى يمكن أن يقال: إن عدم تفضيل مصلحتنا على مصلحة صديقنا، هو إنكار لذاتنا؛ لأن مجد الصداقة في أنها تفصلنا عن مصالحنا الشخصية، أو تجعلنا لا نفرق بعد بين ذاتنا وصديقنا، أو بين مصالحه ومصالحنا.

ثالثًا: «أرسطو»

الصداقة صورة من محبة النفس

أما «أرسطو»، فإنه يفرق بين ثلاثة أنواع من محبة الصداقة: محبة مثارها المنفعة؛ ومحبة نابعة من السرور؛ ومحبة مساكها ما هو دائم فينا. والنوع الأول يزول حين لا منفعة، والثاني متقلّب؛ لأنه أناني: فالشباب يحبون ثم يسلون، أو تمرضهم المحبة فيصابون بالجنون.

أما النوع الثالث، فهو أساس صداقة الرجال الأخيار، المتشابهين في الفضيلة؛ لأن هؤلاء يتمنون الخير بعضهم لبعض، وهم أخيار في أنفسهم والذين يتمنون الخير لأجل ذات أصدقائهم هم الأصدقاء حقًّا؛ لأن أساس حبهم: ما هو خير، وباق.

حب النفس النبيل أساس الصداقة

وهو إذ يحلل النوع الثالث تحليلاً دقيقًا، يعتبره صورة من محبة النفس. ويرتّب على ذلك أن أسمى الصداقات صداقة أساسها حب نفس نبيل، وأن الأشرار عاجزون عن ممارسة هذه المحبة التي تقوم عليها الصداقة الحقة؛ لأنهم متقلبون وفي حرب مع أنفسهم، ولأنهم عاجزون عن حبها لفسادها وتجردها من كل نفيس.

إحساسنا بصديقنا إحساس بنفسنا

ومع أن كل امرئ يعيش لنفسه، ولا يستطيع أن يعيش لغيره؛ إلا أن صديقنا هو في الحقيقة شخصنا الآخر، وإحساسنا به هو، في صورة ما، إحساس بنفسنا، وعرفان بذاتنا.

تتألق الصداقة بتجردها من المصلحة

والصداقة يزيد تألقها ما زاد تجردها من المصلحة، وإن محبة المحسنين والأمهات لا تفتقر لأدنى جزاء؛ وإن الصداقة التي تفهم أولاً على أنها محبة تأخذ بقدر ما تعطي؛ تجد نفسها بعد ذلك منقادة بكليتها إلى المحبة السخيّة، تغدق بغير حساب، بل بغير أن تأخذ. وأسمى تعبير لها، هو التجرد من المصلحة. وأنها تتكون من أن نُحِب فوق ما نُحَبّ، وأن نحب صديقنا من أجل نفسه.

التوفيق بين الصداقة وحب النفس

ولكن كيف يمكن التوفيق بين الصداقة وحب النفس؟ إن هذه المشكلة لا تعرض لـ «سقراط» الذي يؤسس الصداقة على المصلحة؛ ولا تواجه «أفلاطون» الذي يعتقد أن حب الخير سابق على كل حب سواه، وأن حب النفس والصداقة منبثقان منه.

حب النفس يفسر الصداقة

ومع أن «أرسطو» يعتبر حب النفس أول ميولنا وأقواها، فقد توافر على إثبات أنه لا يستبعد الصداقة، بل بالحريّ يعلّلها.

وفي الحقيقة، فإننا لا نفهم هذا التعلق بشخص، وهو أصل الصداقة، إذا لم نجده متحققًا في مكان آخر: في حب النفس. إننا بالنسبة لصديقنا، ما نحن بالنسبة لنفسنا؛ لأن الصديق هو نفس أخرى.

محبة النفس تشبه محبة الصداقة

حب النفس إذن يفسر الصداقة، ويصلح لتعريفها، وإن لم يكن مبدأها؛ لأن الصداقة لا ترجع إلى محبة النفس، ولكنها تشبهها. وإن «أرسطو» ليكاد يخلط بين الصداقة وحب النفس، فهو يقول: إن تعريف الصداقة مستمد من تعريف حب النفس. وإن البعض يعتقدون أن كل واحد يحب نفسه بالذات قبل أي شيء، ويتخذون هذه العاطفة نموذجًا للمحبة التي نستشعرها نحو الآخرين، أي الصداقة. وحب النفس سابق على الصداقة، وأقرب منها إلى الحقيقة وأقوى؛ وأن أوثق صداقة هي التي نستشعرها نحو أنفسنا. وأن الحب الذي نحمله لأنفسنا يشابه من كل الوجوه الحب الذي نوليه صديقنا.

مميزات الصداقة وحب النفس واحدة

وإذا استعرضنا الصفات المميزة للصداقة لن نجد بينها صفة واحدة لا تنطبق على حب النفس: فالصداقة تتألف من محبة الخير لآخر حبًّا فيه؛ كذلك كل امرئ يحب الخير لنفسه، ولا يرتضي أن يصير شخصًا آخر، ولو حاز الخيرات كلها. والصداقة مشاركة الصديق في

عواطف صديقه: يحزن معه ويفرح؛ كذلك كل إنسان يتعاطف مع نفسه وهو واجد من السرور في أن يعيش في دخيلة نفسه، ما يجده الصديق في أن يعيش بصحبة صديقه، وهو يعجب بنفسه في ذكرياته، وتسحره آماله. وأخيرًا، فكما يقطع الصديق على نفسه العهود بالمحافظة على صديقه، فإن كل شخص متعلق بحياته الخاصة.

وبالجملة، فإن المحبة يتغير موضوعها، من غير أن تُغيِّر طبيعتها. ليس للمحبة غير أسلوب واحد؛ فعواطف محبة النفس، وعواطف محبة الغير واحدة.

سببان لمحبة الصديق

ثمة عدد من أنواع محبة النفس، بقدر عدد أنواع الصداقة. الصداقة ومحبة النفس دوافعهما واحدة تمامًا؛ فإن ما يحدونا على محبة الآخرين، هو بذاته أيضًا ما نحبه فيهم. يوجد أسلوبان لمحبة الصديق: إما لذاته، وإما لما فيه من الذاتيّ، أي الفضيلة؛ أو لما هو ليس في الحقيقة شخصيًّا، مما لا نصادفه فيه إلا عرضًا، كالمنفعة أو الظرف.

نوعان من محبة النفس

وهناك أيضًا نوعان من محبة النفس؛ فنحن نميز في النفس جانبًا جوهريًّا هو العقل، وجانبًا أدنى أو غير عاقل، من الشهوات المتصارعة.

حب النفس المبتذل: فإذا أحببنا أنفسنا في ملكاتها الدنيا، فإن حب النفس يفهم بالمعنى الضار المبتذل: بمعنى حب النفس الأناني. والمحب لنفسه بالمعنى المبتذل أو الأناني، الذي ينتحل لذاته الثراء وأسباب التشريف والمسرات الجسدية، ملتمسًا ما يتبارى الناس على تملكه، يحدق به المنافسون، ولا يظفر بالأصدقاء. إن الذي لا يترك نفسه يحَب، لا يحب

حتى نفسه؛ الأناني الذي يستبعد الآخرين، يكره نفسه أيضًا. والأناني مرادف للشرير، والشرير في كل أفعاله لا يرقب غير نفسه، وكلما زاد شره زادت أنانيته.

والشرير بغيض إلى نفسه، لا تتسق إرادته مع رغباته: إنه يؤثر على الخير، السرور الذي يؤذيه؛ ويمنعه التراخي والكسل عن اتخاذ الجانب الذي يرى الخيرة فيه؛ ويحدث، حين تلطخه الجرائم، أن يهرب من الحياة، فيقتل نفسه. إنه لا يسعى إلى صحبة الغير إلا تخلصًا من نفسه وفرارًا من أفكاره؛ ليس في حياته إلا ما يأسى عليه: الماضي يرعبه، والمستقبل يرهبه، وبما أنه خلو مما يحَب، فهو لا يفكر في حب صاحبه. وفي وسعنا أن نقول إن الأناني لا يحب نفسه أبدًا. إنه يريد أن يحبها، ولكنه لا يعرف الوسيلة. محبة النفس الأنانية، تبعث فقط على توهم محبة النفس؛ كما توحي الارتباطات القائمة على المصلحة والسرور، بتوهم الصداقة. مع ذلك ففي وسع الشرير أن يحب نفسه، بقدر ما يكون شرّه غير مستشرٍ؛ كما أن صديق المصلحة، هو أيضًا صديق، ما بقي قابلاً للتأثر بعواطف أخرى غير المصلحة.

حب النفس الحقيقي: أما إذا أحب الإنسان من نفسه العقل، اتخذ حب النفس معنى شريفًا، وصار حبًا مشروعًا، بل حبًا نبيلاً رفيعًا. وحب النفس الحقيقي هو الذي نلقاه عند رجل الخير. كما أن الصداقة الحقيقية هي الصداقة الفاضلة. رجل الخير يحب نفسه، إنه مخلص لأخلاقه، يتذوق في روحه الهدوء والسلام، ويعرف كيف يحصر رغباته، وهو يعتبر الوجود خيرًا، يريد الاحتفاظ به. إنه يتذكر الماضي بسرور، ولا يلمح في المستقبل غير السعادة، ليس في قلبه عواطف لا يقرها عقله.

والإنسان الخيّر مسوق إلى حب نفسه، فليس فيه إلا ما يحب، إنه يحب نفسه على غير ما يحب الأناني نفسه: فهو لا يتّبع هواه، والخير لا النافع هو طلبته؛ ليست بغيته الثروات ولا

المشرّفات؛ بل العدالة، والاعتدال، وكل الفضائل. إنه يحب نفسه فوق ما يستطيع الأناني أن يحب نفسه؛ لأنه يختار نصيبًا له أحسن الخيرات وأعظمها. وما يحبه في نفسه هو جانبها المتفوق والسيد: العقل.

وفي الوقت الذي يحب فيه نفسه، فهو يجعل نفسه محبوبًا. إن إضرار الشرير بنفسه، ليس أقل من إضراره بغيره، في حين إن صانع الخير يجد فائدته في عمل الخير، بقدر ما يجعل نفسه نافعًا أيضًا للغير. فيحبب فيه الغير، ويكون في ذات الوقت، ولنفس الأسباب، محبًّا لنفسه ولغيره.

حقًّا، إن رجل الخير مخلص حتى الموت لأصدقائه، ووطنه. إنه يتخلّى لهم عن الغنى والمفاخر، وكل الخيرات الموموقة، ولا يحتفظ لنفسه إلا بالفضيلة. يؤثر غبطة مركّزة قصيرة المدى، على مسرات عادية مستمرة؛ يفضل سنة وحيدة، من حياة حافلة مجيدة، على سنوات عديدة من حياة عادية، يعتز بعمل فذّ متألق، فوق اعتزازه بمجموعة أعمال تافهة. ولكنه يحسن الحساب؛ فهو يتخلى لصديقه عن الغنى، ولا يحتفظ لنفسه إلا بالفضيلة، وإنه هو الذي يظفر بالنصيب الأوفى؛ وهو لا ينفث على صديقه المآثر، ولا ينكر عليه استحقاق فخر الصنيع الطيب، ولكنه لا يرتضي أن يتنحى له عن الفضيلة. وإذن فهو لا ينسى أبدًا نفسه، إنه يحب صاحبه، ولكنه يحب أيضًا نفسه، وحبه لنفسه يفوق حبه لصاحبه. إنه يمارس التفاني، ليس قط أنانيًّا. فهو في الواقع لا يحب نفسه بالمعنى المبتذل للكلمة، ولكن بما يسميه تفانيًا، والتفاني هو نشدان الخيرات الأسمى، والتخلي عن الأدنى؛ وهو في الحقيقة أعلى درجات حب النفس، وأعمق تعلق بالذات. والكريم يحب نفسه حقًّا؛ أما الأناني، فإنه بالحريّ الذي لا يحب نفسه، أو هو يحبها حبًّا رديئًا.

نحب نفسنا في صديقنا

وإن «أرسطو» ليتخذ موقفا وسطًا بين الأبيقوريين السوفسطائيين: الأولون أغلظ من أن يعترفوا بتجرد الصداقة من المصلحة، والآخرون أكثر تهذيبًا من أن يتصوروا الصداقة إلا خالصة تمامًا من المصلحة.

إنه يعنّي نفسه بأن يثبت مع الأولين أن الصداقة لا تخلو من حب النفس، ولكنه يضيف إنها ليست قابلة لأن تستحيل مجرد حب للنفس، وهو من بعد لا يُخرج الصداقة من نطاق حب النفس، بل يقول إنها تؤول إلى حب النفس، بغير أن تتجه إليه ابتداءً. إن الذي يحببنا إلى الغير، هو ما يحببنا إلى أنفسنا. بقدر ما يكون الصديق نفسًا أخرى لنا، فإن شخصه لا يختلف عن شخصنا. إن شخصه يتكون من جوهره: من العقل؛ والعقل متماثل في كل منا. أن تحب صديقك، وأن تحب نفسك، في حدود المعقول والخير، هو أن تحب في شخصين ذات الشيء: حب النفس النبيل، وصداقة الفضيلة، هما وجدان واحد، موضوعهما واحد، وهدفهما واحد.

حب النفس مصحح للصداقة

وإنه ليخشى فرط التجرد من المصلحة، فيتخذ من حب النفس مصححًا للصداقة، كما يتخذ الأبيقوريون من الصداقة مصححًا لحب النفس، وينوه بأن لنكران النفس حدًّا: نحن نتمنى لأصدقائنا أسمى الخيرات، ولكننا لا نذهب إلى حد التمني أن يصيروا آلهة؛ لأنهم إذ يصيرون آلهة، لا يعودون من بعد أصدقاءنا. فإذا قيل بحق إن الصديق يريد خير صديقه، من أجل ذات صديقه، فعلى الأقل يجب أن يظل صديقه إنسانًا كما كان. وهو

إذ يعتبر صديقه إنسانًا يتمنى له أعظم الخيرات، ومع ذلك فربما لا يرجو له كل الخيرات؛ لأن المرء إنما يبتغي الخير لنفسه على الخصوص.

مصلحتنا في الصداقة

وهو يسوغ الصداقة بمزاياها، ويثبت ضرورتها: فالتاعس محتاج للنجدة، وللتعزية وللعطف؛ وحضرة الصديق فيها تخفيف لآلامه. حتى الرجل السعيد الحكيم، لا يكفي لذاته، لأن أحدًا لا يريد تملك كل الخيرات، بشرط التمتع بها وحده، ولأن من تسرّه العزلة، يجب أن يكون فوق الإنسان أو دونه: أن يكون إلهًا أو حيوانًا. يريد الحكيم ليعيش في رُفقة أناس آخرين، وليس مع أي شخص غريب، بل مع أصدقاء.

تركيز الحياة مرتبط بامتدادها

السعادة ليست دائمًا استقلالاً، إنها «فعل»؛ والفعال الأشد تركيزًا، والحياة الأكثر امتلاءً، هي التي تمتد إلى الخارج؛ لا يسهل علينا العمل بصفة مستمرة إذا انحجزنا في ذواتنا، إنما ييسّر العمل اتحادنا بآخرين، أو عملنا لآخرين. إن تركيز الحياة مرتبط بامتدادها، وعناصر السعادة أقل في الحياة الشخصية منها في الحياة الاجتماعية.

تمتعنا بسعادة أصدقائنا

وفوق ذلك، فإن السعادة تتزايد حين تتقاسمها، وإلا كان البائسون بحاجة إلى من يخفّ لنجدتهم، فإن السعداء مفتقرون إلى من يشارك في مسرتهم. كما أن إحساسنا بسعادة أصدقائنا يفوق شعورنا بسعادتنا الخاصة، إذ نستطيع رؤية القريبين منا، خيرًا مما نرى

أنفسنا. وأن نبصر أفعالهم أحسن مما نرى فَعالنا. ولما كان أصدقاؤنا نفوسًا لنا أخرى، فإنا نغتبط بسعادتهم كأنها سعادتنا، ونستمتع بها أكثر من سعادتنا لأنها خارجنا، نراها بأعيننا؛ على حين إن سعادتنا موصدة دوننا، في ضميرنا، ولا نشعر بها إلا مهوشة.

وبالإيجاز، إن اتساع الحياة، وتشعُّبها إلى الخارج، يزيد سعادتنا، فليس في وسعنا قط أن نستغني عن الأصدقاء.

حب النفس موضوع الصداقة

نحن نعيش في الغير كما نعيش في أنفسنا؛ وأن نخرج من ذواتنا، ونعيش مع الآخرين في اتحاد عاطفي وفكري، هو بالضبط أن نحب.

الصداقة هي التعلق بشخص، ولا سيما بالعقل الذي فيه، الذي هو عين وجوده. ولما كان صميم الإنسان هو العقل، فإن الصداقة تأتلف مع حب النفس. وسواء أكان هو صديقي أو نفسى هي التي أحب، فإنه دائمًا العقل ونفس العقل هو الذي أحب. ليس للصداقة موضوع غير حب الذات.

تجانس الصداقة وحب النفس

وقد وفق «أرسطو» بين تجرد الصداقة من المصلحة، وبين مطالب حب النفس، فهو يثبت تجانسهما، بغير أن يستخلص، مثل «أبيقور»، تطابقهما.

الإلهي ينادي الإلهي

وإذا كان في باب الصداقة، الإلهي هو الذي ينادي الإلهي ويستجيب له، فقد انحلّ اللغز، فسواء علينا أأحببنا صديقنا من أجل ذاته أم من أجل ذاتنا: أو بالحريّ لأجل الذات

الوحيدة الحقيقية الموجودة في كلينا. صديقي ذات ثانية، وليس غير الإلهي هو هكذا واحدًا في كثير، ليس غير الخير الصميم والخير الصراح.

رابعًا: الأبيقوريون

الصداقة تساير مصلحتنا

أما الصداقة الأبيقورية، فإنها تستند إلى الإرادة وحدها، فهي رابطة يسرنا عقدها، ويجب أن تتفق مصلحتنا؛ لأننا إذ نتصرف بدافع من مصلحتنا لا نعاني أدنى مشقة. قد تجري الصداقة في الظاهر ضد مصلحتنا وتبدو خالصة؛ لأننا إذ ننكر أنفسنا نجد مسرتنا، ولكنها تتكون دائمًا من أن نعمل راضين أو راغبين.

ومن رأي الأبيقوريين أن الغرام كسائر الشهوات، من شأنه أن يجرّدنا من حيازة ذواتنا؛ أما الصداقة فتترك لنا ذواتنا كاملة. وأن تفوّق الصداقة على كل وجداناتنا مرجعه إلى أنها من وحي مصلحتنا، فهي الوحيدة بين العواطف التي لا تنطوي على التزام واجب ما، وهي تلائم دائمًا ذوقنا أو تتمشى مع مصلحتنا ومسرتنا.

نحب الصديق محبتنا لنفسنا

تقوم المحبة الأبيقورية على أساس المصلحة؛ وتستقي من حب النفس. والصداقة عند «أبيقور» إما أن تؤدي إلى حب النفس، أو أن يتحول حب النفس إلى صداقة، وهو ينوه بأن في الصداقة المتفانية، تحولاً وانتصارًا لأنانية رقيقة، ويبيّن أن الصداقة كالفضائل لا تنفصل عن السرور، ويقرر أن مبادئه لا تتعارض مع حقه في أن يحب أصدقاءه محبته لنفسه.

صداقة المصلحة وصداقة الميل

وهو يقول: إنه ليس يكفينا لكي نحب أصدقاءنا، أن نشعر بمدى حاجتنا إلى خدماتهم. ويفرق بين صورتين، أو درجتين من الصداقة: الصداقة التي أساسها المصلحة، والصداقة التي أساسها الميل أو الجاذبية. ويرى أن الصداقة تبدأ بالحاجة، ولكنها تتوثق بالاستمتاع بالحياة المشتركة.

نتخلى عن مصلحتنا لنظفر بالصداقة

بغير الصداقة لا يمكن أن نحوز سعادة قوية طويلة المدى، ولكنا لا نستطيع المحافظة على الصداقة، إذا لم نحب أصدقاءنا كما نحب أنفسنا. وبعبارة أخرى أن من مصلحتنا أن يكون لنا أصدقاء، ولكن ليس في وسعنا الظفر بهم إلا إذا تخلينا عن مصلحتنا. حتى ليمكن أن يقال إن الصداقة، وإن اتخذت مظهر التحدي للأنانية، فهي تكشف في الواقع عما يمكن أن تلعبه المصلحة من دور دقيق، فإن الأنانية قد تؤدي بنا إلى أن نحب أصدقاءنا بقدر ما نحب أنفسنا، فوق ما نحبها. إن الصداقة بذاتها، بغض النظر عن المنفعة، هي مصدر للمتعة، وعنصر للسعادة. إنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالسرور، فنحن نفرح بسرور أصدقائنا فرحنا بسرورنا، بالمثل نشقى بألمهم.

حتى الأناني يسخو بصداق الصداقة

وهو لا ينازع في التسليم بما يسميه واجبات الصداقة، فيقول: إن الحكيم يشعر نحو أصدقائه بنفس العواطف التي يشعر بها نحو نفسه، وكل الجهود التي يبذلها ليحقق لنفسه السرور، يسخو بها في سبيل تحقيق السرور لصديقه. وإن الحكيم يموت، إذا اقتضى الأمر،

من أجل صديقه، وأنه يحبه لذاته، ويحزن لوفاته، ويحتفل بذكرياته؛ ولكن الصديق إذ يصنع هذا كله، فإنما يطيع ميله، ويلبي نداء قلبه، ويراعي مصلحته.

وتدل هذه الأقوال على أن مسرات الصداقة من طراز رقيق نادر، بحيث إن الأناني المهذب يرغب في اقتنائها، ويجود بصداقها عالمًا بأنه لم يغلها مهرًا.

الصداقة شرط للسعادة

إن الأبيقوري صديق مخلص، ورفيق أمين، مع احتفاظه بأنانيته، فهو يفكر فقط في التمتع بالصداقة، ويراها شرطًا للسعادة وليست واجبًا. فإذا أخلص لصاحبه، فذلك بأنه يشعر بالسرور في أن يسبب له السعادة.

سرور لا تذكر بجانبه التضحية

يرد «أبيقور» على الأنانيين الغلاظ المزاج، الذين يزعمون بأن الصداقة لا تساوي أعباءها، بأن من شأن الأنانية المتفوقة أن نضحي حين لا تعدّ التضحية شيئًا مذكورًا بجانب السرور المستمد من ممارستها، وإن كان مما يؤسف له أن تكون هذه الصورة من الأنانية نادرة، مقصورة على نفوس الصفوة وحدهم.

الصداقة متعة بذاتها

ومع ذلك، فإن «أبيقور» وإن اشترك مع سواه ممن ينوهون بمنافع الصداقة، فإنه ينتهي إلى أن الصداقة نفيسة وطيبة، ولو تجردت من منافعها؛ لأنها متعة بذاتها.

نحبهم لأنفسنا ثم لذواتهم

أما الأبيقوريون المتأخرون، فإن منهم فريقًا يدين بالنظرية القائلة بأننا نبدأ بمحبة أصدقائنا بدافع من المصلحة، ثم ننتهي بأن نحبهم من أجل ذواتهم؛ وهي نظرية غريبة عن «أبيقور».

جمع بين مذهبي اللذة البحت، والمنفعة

ذهب «أبيقور» إلى أن الصداقة ضمان حياتنا، سحرها في وقت معًا؛ فإن من مصلحتنا أن يكون لنا أصدقاء، وإنه لسرّنا أن يكونوا لنا، وأن نخلص لهم. وهو بهذا يعترف بالدور بمذهب اللذة البحت، وبمذهب المنفعة. وإنه ليلوذ بأحدهما لنجدة الآخر: فغير المستطاع تحقيقه عن طريق المصلحة، كقبول أعباء الصداقة، يتحقق عن طريق السرور.

المصلحة والسرور، يولّد كل منهما الآخر

ولكن الأبيقورية لا تستطيع، بغير رجوع إلى القورينائية، (مذهب يقول بأن السرور هو الخير الأساس، وهو يختلف عن الأبيقورية، في أنه يؤثر المسرات الإيجابية على المسرات، أن تقول بأن السرور هدف، سنده كسند المصلحة سواء. ولهذا فإن الأبيقوريين المتأخرين بدلاً من أن يعرضوا مبدأين: المصلحة، والسرور؛ فإنهم يقررون بأن الواحد ينتج الآخر، ثم يختفي أمامه. الصداقة مفاجأة: الإنسان لا يفكر إلا في نفسه، ويحدث أن يتحمس للآخرين؛ فيفارق الأنانية، ويصل إلى نكران النفس، والتضحية.

الأنانية المتحولة

والصداقة، وإن كانت وليدة المصلحة، فإنها تبتعد عن مبدئها، أي أنها تخرج من الأنانية، خروج النباتات من الأرض، تخترقها بجذورها، ولكنها تتسامى بسوقها وزهورها؛ واكتمال نموها يحجب أصلها، بحيث يكون الفرق بين الأنانية والصداقة بعيدًا، كالفرق بين البذرة والنبات. وبعبارة أخرى يبدو أننا ابتغينا غاية هي المصلحة، فحققنا غاية أخرى هي المحبة؛ فتختفي الأنانية، إذ أدت مهمتها، وتحتل الصداقة مكانتها.

وتنطوي الأبيقورية على أصل نظريات «ستيوارت ميل»: الصديق أولاً وسيلة، يُلتمس بدافع من المصلحة، وباعتباره سندًا؛ ثم يصير فيما بعد غاية، يُحَب لذاته؛ كما يُحِب البخيل الذهب من أجل الذهب، بعد أن يكون قد أحبه ليستخدمه في قضاء مآربه؛ وكما يحب الشريف العدل لأجل العدل، بعد أن كان يمارسه التماسًا للسعادة.

خامسًا: الرواقيون

تُلتمس الصداقة لذاتها

أما الرواقيون، فإن الصداقة عندهم تلتمس لذاتها، ويمكن أن تكون المنفعة نتيجتها، أو أثرًا من آثارها؛ ولكنها ليست قط مبدأها.

المطلب الثاني: الموازنة بين محبة الذات ومحبة الصديق عند فلاسفة الرومان

دافع طبيعي كريم

يتساءل «شيشرون»: هل تنبثق الصداقة من حاجات الإنسان وعجزه؛ وتمارس لمجرد الحصول، بوساطة تبادل الصنائع، على المزايا التي لا سبيل إلى الظفر بها عن غير طريق الصداقة. أم أنه على الرغم من أن هذه المبادلة النافعة لا يمكن فصلها عن علاقة الصداقة، فإن الطبيعة تسبق إلى إعداد القلب للاشتغال بالصداقة بدافع أشد نبلاً وأكثر كرمًا.

ويقول بأنه لابد للفصل في هذه المسألة من ملاحظة أن المحبة مبدأ هام جوهري في تكوين هذا الطراز الخاص من الأريحية المسمى صداقة. وأن الصداقة لا يمكن أن تتولد بدافع من المصلحة وحدها، فإن في الصداقة الحقيقية لصدقًا ويُسرًا، وانفعالاً تلقائيًا لا إكراه فيه، يتعارض تمامًا مع كل ضروب الخِب والخِلابة.

اتحاد العقول المتجانسة

وهو لذلك مقتنع بأن الصداقة تستمد أصلها لا من عوَز الطبيعة البشرية، بل من نوع من الميل الفطري يدفع العقول المتجانسة إلى الاتحاد، وليس من حساب حصيف للمنافع التي تتمخض عنها مصادقتهم.

وإنه ليلاحظ القوة العجيبة لنزعات فطرية من طراز أريحي، حتى بين البهائم. ألا ترى إلى الالتصاق الحنون الذي يسود خلال فترة معينة بين أم الحيوان ووليدها.

دافع الضعف الإنساني

ويقول إننا إن زعمنا بأن كل العلاقات التي من هذا الطراز ناجمة عن مجرد الضعف الإنساني، ولأجل سد ما نستشعره من نقص في أنفسنا، بما نتوقعه من مساعدة سوانا؛ انحدرنا بالصداقة إلى أصل خسيس غير لائق.

لو أن هذا الزعم كان صحيحًا، فإن الذين يلمسون في أنفسهم أجسم العيوب، يكونون هم الأكثر استعدادًا وصلاحية لعقد هذا النوع من الارتباط؛ وهو أمر مخالف للواقع. ذلك بأن التجارب تدل على أن الإنسان كلما زاد نشدانه لسعادته في داخل نفسه، وقوي استناده إلى شعوره بالجدارة الذاتية؛ اشتدت رغبته في ممارسة علاقة الصداقة، وأثبت أنه من خِيرة الأصدقاء.

سرور منزّه عن الغرض

والواقع أنه كما تستنكف المكارم من اتخاذ معروفها تجارة؛ وكما يغدق العقل السخيّ الصلات لا بدافع من أمل وضيع في اقتضاء مقابلها، ولكن لمجرد الرضا الذي ربطته الطبيعة بإسداء الفعال الكريمة؛ فإن من الواضح أن الدافع الذي يغرينا بعقد الصداقات، ليس هو الطمع في توقع منفعتها، ولكنه السرور الخالص المنزه عن الغرض الذي ينشأ من الوجدان ذاته.

الصداقة وليدة قوانين الطبيعة

ولو أن المصلحة كانت الوسيلة الوحيدة الحقيقية لتوثيق رابطة الصداقة، لتوقف استمرارها على دوام المصلحة؛ والمصلحة متغيرة لا تبقى على حال. في حين تكون الصداقة

الحقيقية، التي ولدتها قوانين الطبيعة الثابتة غير المتغيرة، شبيهة بمصدرها الذي تنبثق منه، فهي دائمة أبدًا لا يعتريها تبديل.

الصداقة شمس الأخلاق

إن هذا الفريق من الفلاسفة المزعومين، المنتمين إلى بلاد اليونان، إذ يقولون بأن الصداقة مسألة مصلحة شخصية بحت، وإن الدافع إلى التقيد بها ليس إشباع الوجدانات الشفيقة الكريمة؛ بل الإفادة بما تزودنا به من معونة وسند، مؤكدين بأن أشد الناس لواذًا بهذا النوع من الأخلاق المسعفة هم أقلهم أهلية بحكم الطبيعة أو الثروة للاعتماد على بأسهم وقوتهم؛ فالجنس الأضعف مثلاً من نوعنا البشر، هو على العموم أكثر ميلاً لإبرام الصداقات من الذكور، والذين أذلتهم الفاقة، أو رزَّحتهم النوائب، أشد نزوعًا إلى عقدها من الأغنياء والموفقين.

إن ما يقول به هؤلاء المتفلسفون من استبعاد وجدانات الصداقة من عالم الأخلاق، هو بمثابة طمس الشمس من سماء الطبيعة، فإن كلاً منهما مصدر لخير ما أغدقته الآلهة على بني البشر، من أسباب الرضا ودواعي الشكران.

التماس المنفعة

والمتمسكون بأن المنفعة هي أقوى دافع يغري البشر بعقد الصداقات الفردية، إنما يجردون هذه العلاقات من أحب مبادئها وأقربها إلى القلب. فإن العقل السوي لا يأبه بما يتلقاه من منافع، احتفاله بالحمية الوجدانية التي انبثقت منها، والتي تخلع عليها قيمتها الكبرى وتكسبها حسن القبول.

الشعور بالحاجة

إنه لمن المستبعد كل البعد أن يقوم الدليل على أن شعورنا بحاجاتنا هو السبب الأصلي لعقد هذه الأحلاف من الصداقة؛ بل الملاحظ بأن أحدًا لم يكن في صداقته أكثر تفوقًا ممن سوّدتهم قوّتهم وسعتهم، ولا سيما فضيلتهم السامية وهي السند الوطيد؛ فوق ضرورة اللياذ بمعونة الخير.

المنفعة ليست دافع الصداقة الأول

ويستدرك «شيشرون» متسائلاً: أمن المرغوب فيه أن يبلغ اكتفاء صديق المرء بذاته حدًّا لا تكون له معه حاجات من أي نوع، لا تقوى قدراته الشخصية على مواجهتها في يسرٍ؟ ويقول بلسان «ليليوس»: إني موقن على الأقل من أنني كنت أحرم رضًا رائعًا لو أن الفرصة لم تؤاتني للتعبير عن حمى وجدان قلبي نحو «شيبيو»؛ أو لو أنه عَدِم مناسبة، في عملياته المدنية أو العسكرية، يفيد فيها بنصيحتي أو ينتفع بمعونتي.

ويكون الرأي الحقيقي في هذه المسألة، أن الصداقة وإن تمخضت يقينًا عن منفعة، فإن المنفعة ليست بدافعها الأول، وإذن فعلاً عبرة بما يقوله المخالفون لهذا الرأي من الأنانيين المستعبدين لشهواتهم، الهاجعين في أعطاف الترف؛ لأنهم غير خليقين، بحكم تفكيرهم أو خبرتهم، بأن يكونوا قضاة عدولاً في الموضوع.

أنانية المعطي بقدر ما يأخذ

ومن مظاهر حب الذات الحرص على أن لا نعطي من وجداننا وخدماتنا إلا بقدر ما نأخذ من حيث القيمة والكيف، مما ينزل بالصداقة إلى مجرد حساب تجاري بين دائن ومدين.

أنانية المتحرز من انقلاب الصديق

من مظاهره أيضًا التحرز من الصديق خشية أن ينقلب عدوًّا؛ لأن من المؤكد أنك لن تصادق شخصًا هذا رأيك فيه. والرأي أن نجتزئ بالتحرز في عقد الصداقة لا بعد قيامها.

الذين يحصرون المزايا في تحقيق مصلحتهم

إن أغلبية العالم لسوء الحظ لا تتصور مزية فيما خلا ما يمكن أن يتحول إلى مصلحة، يحبون أصدقاءهم على نفس الأساس الذي يحببهم في قطعانهم وسائمتهم؛ فلكل من رعايتهم بقدر ما يجتنبونه من نفعه.

لذلك فإنهم يظلون أبدًا بعيدين عن غبطة الصداقة الكريمة النابعة من الغرائز الطبيعية المركوزة أصلاً في النفس الإنسانية، والمبتغاة لقيمتها الذاتية المجردة.

فليكن حبنا للصديق كحبنا لنفسنا

إن المحبة التي يحملها كل امرئ لنفسه لا تنبثق بالتأكيد من توقع تعويض أو مكافأة، بل تنبع فقط من التقدير الفطري المحض الذي يستشعره كل إنسان نحو شخصه. لذلك فإنه ما لم يستحل نفس هذا النوع من الوجدان إلى صداقة، فإن من العبث أن نؤمل في الظفر بصديق حقيقي؛ لأن الصديق الحقيقي ليس في الواقع غير نفس ثانية.

المنفعة ليست هدف الصداقة بل نتيجتها

ويلخص «شيشرون» رأيه في أن الصداقة الحقيقية هي وليدة الوئام الخالص، ولا يدخل في تكوينها أي دافع من منفعة أو فائدة، وإن كثيرًا من النتائج النافعة تنجم منها، وإن كانت هذه النتائج لا تكاد تكون أهدافًا تدخل أول الأمر في الاعتبار.

المطلب الثالـث: الصداقة والمحبة المركَّزة على الذات عند اللاهوتيين المسيحيين

اختلف اللاهوتيون المسيحيون حول موقف الإنسان المثالي من نفسه: أيحبها؛ أم ينكرها ويستهين بشأنها؛ أم يجمع بين المحبتين: محبة ذاته، ومحبة غيره؟

أولًا: كل امرئ يحب ذاته

حب النفس طبيعي

فمنهم القائل بأن: كل رغباتنا تنبثق من الكائن المركب الذي هو ذاتنا، فنحن لا شك شاعرون بالذات، وذاتنا لا تبرح تلازمنا ماثلة أمام عينينا. وإنه لطبيعي إذن أن يخامرنا حب النفس، وأن ثمة قانونًا شاملاً يقضي بأن يحب كل كائن ذاته، وأن يلتمس ما يلائم طبيعته: فالقط يحب السمك لا الحصى، ويحب السمكُ الماءَ لا النار؛ وفي كلٍّ من الحالتين يكون الملائم هو أول الشيئين دون الثاني. وأن حب الذات يستحيل فصله عن فكرة المحبة، وأن الإنسان عاجز عن التخلي بتاتًا عن خيره الشخصي. وهو يبدأ في حالته الراهنة مكفوفًا، راغبًا فيما يرضي زهوه وكبرياءه، شاعرًا بذاته وخصوصيته؛ وشعوره بهما واضح جلي، على حين إن تصوره للخير العام غامض خفيّ. وإنه لشرط ضروري للمحبة من أي نوع، مهما يبلغ نقاؤها، أن تبدو في نفس الوقت نافعة مفيدة لنا كآدميين؛ وأن ما نبتغيه يجب في صورة ما أن يكون فيه خيرنا.

ثانيًا: حب النفس مكروه مقيت

حب النفس كبرياء واستحواذ

ومنهم القائل بحب الله والغير، واحتقار النفس؛ لأن محبتها تورث الكبرياء، وشهوة الحيازة، وهما شر الرذائل. وأنه لذلك يجب استبعاد كل أثر للذات. وأن محبة الصداقة إذا بلغت حدًّا يجعل من الصديق ذاتًا أخرى، ومحبتنا لله إذا استطاعت انتزاعنا من أنفسنا متأثرين بذلك الجمال الأصلي الذي تعتبر ذواتنا المسكينة صورًا له خافتة؛ فإن هذه الحبة على عظمتها، لا تكون محبة إنسانية كاملة؛ لأن المحبة لا تكون كاملة حتى تتجرد تمامًا من المصلحة؛ ولأن مجد المحبة الحقيقية في خلوها من كل مصلحة شخصية، وفي وجود سببها وهدفها في ذاتها، وفي تعمّد التجرد من أنفسنا ونسيانها في المحبوب، جاعلين من محبتنا هبة بلا مقابل، وبغير مشارطة، أو باعث خفيّ، مؤملين بذلك فقط أن نسرّ المحبوب.

وما ظلت غير متوافرة هذه التضحية المتعمدة بالنفس، وهذا الاهتمام غير المشروط بخير الآخر خالصًا من المصلحة الشخصية، فلن يتحقق الاكتمال النهائي للمحبة.

إيثار الأم ومكافأته

إن الأم التي تعنّي نفسها كادحة مكابدة لإنقاذ ولدها، لترفض مرتاعة مجرد الإشارة إلى أن وراء ما تعانيه دافعًا من مصلحة شخصية، وإن كانت واجدة بالفعل في تضحيتها بنفسها، أنقى فرح يمكن للعقل أن يتصوره.

المحبة المسيحية، وحب النفس

والمحبة المسيحية لا تتعامل بتاتًا مع حب النفس، بل تستبعده تمامًا: الله هو المحبة، وهو يثبت فيمن شاء من عباده، بغض النظر عن استحقاقه، محبة مقابلة، فيخرجه بذلك تمامًا من نفسه، ويلهمه بدل محبة النفس، محبة غير طبيعية لله ولجيرانه.

السرور الملازم للتضحية بالنفس

وإن غلاة المطالبين بنسيان النفس، الداعين إلى التجرد التام من المصلحة ليشترطون أن ينقطع آخر خيط من المصلحة الشخصية، حتى مجرد السرور الذي يلازم التضحية بالنفس؛ لأن المحب يعيش في أعلى درجة من ذاتيته حين ينسى نفسه ليفكر في المحبوب وحده؛ ذلك لأن المحبة لا تلتمس جزاء، فإن التمسته توقفت فورًا عن أن تكون محبة. وأن المحبة عندما تبلغ قمتها، يحرق المُحبّ جسوره كافة، باذلاً جميع ما لديه وكل ما هو في سبيل المحبة.

الله خير بذاته

وفي محبة الله، يجب حتمًا أن يعتبر الله خيرًا بذاته، لا خيرًا من أجل المحب الآدمي، وإن معرفتنا بأننا في محبة الله نتذوق السعادة التي لا نهاية لها، ليست إلا عرضية بالنسبة إلى المحبة التي نقدمها.

محبة الله لاعتبار شخصي

ويميل بعض اللاهوتيين، إلى اعتبار أن أي حب لله يكون لاعتبار شخصي، إنما هو من قبيل الأمل، لا المحبة.

ثالثًا: محبة النفس مقرونة بمحبة الغير

لابد من المحبتين

ومنهم من يتخذ موقفًا وسطًا، فيقول بأن حب النفس لا يكون رذيلة إلا إذا صار اهتمامًا لا محل له بالنفس، وعدم الأنانية لا يكون فضيلة إلا مقرنًا باحترام النفس، فالمحبتان إذن أبعد ما تكونان عن التناقض، ويبدو أن كلاً منهما يتطلب وجود الآخر. ونحن لا نلوم امرءًا على سعيه في تنمية عقله وإرادته، وتوكيد حقوقه في المناسبات، ما دام غير منصبّ بكليته على رعاية مصالحه الشخصية. كذلك نعجب بالمضحّي بنفسه، ولكنا لا نتمالك الاشمئزاز ممن يعوزهم كل أثر لاحترام النفس، فيبذلون شرفهم مثلاً في سبيل عقيدة أو قضية، مهما تكن سامية جليلة.

وإن محبة النفس، وإن كانت شيئًا طبيعيًّا، غير أن رغباتنا مع ذلك تتجه طوال أيامنا إلى ما هو غير ذواتنا من أشخاص أو أشياء تجذبنا لنتحد بها، أو لكي نتملكها. وأن محبة النفس ومحبة الغير حاضرتان في كل فعل للذات، وإن خفيت إحدى المحبتين بحيث تفوتنا ملاحظتها.

التماس الخير الحقيقي للنفس

وإنهم ينعون على الداعين إلى استبعاد كل أثر للذات، إنهم يخلطون التماس الخير الحقيقي للنفس، بالتماس النفس على أنها هي الخير الحقيقي.

حتمية دخول الذات في المحبة

ويقولون بأن محبة الذات لا يمكن فصلها عن فكرة المحبة، وإن المحبة مزيج من الفرح بسعادة المحبوب، والفرح بحيازة محبته، وأن المحبة لا تعود محبة إذا تجردت من السرور المقترن بها. وإن المحبة التي لا تدخلها الذات ليست محبة على الإطلاق. وإن كل محبة تجمع في نفس الوقت بين أن تكون مجردة من المصلحة، ومحل مكافأة، وإن كان المحب لا يكافأ إن لم يتجرد من المصلحة؛ لأن التجرد من المصلحة هو صميم جوهر المحبة.

صور المحبة

إن أول محبة تلائم طبيعتنا هي أن نحب أنفسنا، وهذا هو الحب الجسدي، وهو يرجع إلى الحالة التي ولدنا فيها، والتي نحياها. وأن أدنى صور الحب، أن يحب امرؤ نفسه لنفسه. ثم إنه قد يحب الله، لا لذات الله ولكن لذات نفسه. وفي المرحلة التالية يحب الله ليس لذات نفسه وحدها، بل لذات الله أيضًا. وأخيرًا يحب نفسه لسبب واحد هو محبته لله. والمحبة إذا وصلت بنعمة الله إلى تمامها، فإن الجسد يُحَبّ، وكل الأشياء الجسدية الطيبة، ابتغاء وجه الله وحده؛ أما الله فإنه يحب مباشرة من أجل ذاته ومن المستحيل فصل محبة الله عما هو مقترن بها، وهو الخير الذي تسببه للمحب. ومن العبث أن يوصم حب امرئ للحقيقة بأنه حب مشوب بالمصلحة، لمجرد أن محبته للحقيقة ومعرفته بها، قد أصلحتا من شأنه.

صورتان متعارضتان من المحبة

إن هناك محبة مهتمة بالنفس، ومحبة مضحية بالنفس، يعبر عنهما بالعطاء والأخذ. أما المحبة المهتمة بالنفس، فإنها تتجلى بصفة خاصة في عالم العقل. في حين تتعلق المحبة

المنكرة للنفس بذلك الجانب من النفس القليل الاهتمام بحقوقه وسيادته، الذي يتجه نحو الرومانتيكية، وحتى اللاعقلية. الأولى قائمة على تحقيق النفس، على أساس أن الإنسان يجب بطبيعته أن يحب نفسه حتى وهو يحب الغير. وتستحي الثانية من مثل هذه الفكرة، مؤثرة الاندماج في المحبوب، وتضييع نفسها. ولكن على الاثنتين مع ذلك أن تعيشا معًا، وأنه فقط عن طريق التجريد يمكننا التفكير فيهما على أنهما منفصلتان. ويضرب أحد اللاهوتيين مثلاً القديس «بولس»، وأنه إذ كان يحب أشخاصًا آخرين، فإنه قد تقمَّصهم متوحدًا فيهم، يخفق قلبه مع قلوبهم، بحيث يستطيع أن يصدع بأنه إذا أوذي أحد محبوبيه، لحقه الأذى معه، وإذا افترى عليه، اعتراه الافتراء وإياه. يخامره الشعور باتحاد طبيعته وطبيعتهم، وباندماجه الوجداني معهم. ويقول هذا اللاهوتي إنه في أعلى مستويات تحقيق الذات، حين تصل محبة الذات إلى ذروتها، تختفي برودة اللاشخصية من علاقاتنا الفاعلة المنفعلة.

مدى قدرتنا على محبة الغير

وقد تعرض بعضهم للدرجة التي يمكن أن تبلغها محبة الغير، فمنهم من قال بأن الذي يحب يخرج عن طوره إلى حد أنه يحب الخير، ويصنعه من أجل صاحبه، ولكنه مع ذلك لا يحب الخير لصاحبه فوق ما يحبه لنفسه.

على حين حلّ غيره مشكلة قدرة الإنسان على أن يحب الله أكثر من نفسه، على أساس أن الإنسان جزء من الله، وقد خلقه الله على صورته؛ والجزء يحب الكل أكثر من نفسه، كما أن الصورة تحب الأصل أكثر من نفسها.

تحالف محبة السيطرة، ومحبة محو النفس

وإن قمة الحياة البشرية هي في حب الأشخاص المتبادل، وهنا تبرم المحبتان وفاقًا: محبة السيطرة، ومحبة محو النفس، فيتحد الدافعان، ويدعم أحدهما الآخر، يعطي الواحد، ويعيد الآخر، تتكامل شخصية النفس كلما زادت تضحيتها، ويتحقق القول بأنه ما لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت، فهي تبقى وحدها؛ ولكن إذا ماتت تأتي بثمر كثير، وأن الذي يريد أن يجد حياته يجب أن يضيّعها.

وإن ثمة محبتين في الإنسان: مبدآن ينجمان من كونه فردًا، ومن كونه عضوًا في نوع ومجتمع؛ يتحد كلاهما معًا في طبيعة واحدة، لا يخضع أحدهما للآخر، لأن الإنسان كفرد صار مقدسًا، واشتدت دوافعه؛ لأن يعيش لنفسه، وأن يكون محورًا يدور الآخرون حوله، بل يدور حوله الوجود كله.

المحبتان تحققان اتزان النفس

ليس العقل هو سبب تفكيرنا، بل هي النفس التي تعبّر بطبيعة الحال عن دافع ذاتي المركز، كما تعبر عن دافع غيريّ هدفه الانتماء إلى آخر. والدافعان معًا يستبقيان اتزان النفس الذي لا غنى لها عنه: إن النفس بتضييع ذاتها تجدها، وإن بدا هذا متناقضًا في الظاهر، والملاحظ أن النفس إذ تلتمس ذاتها أولاً، يشحب لونها وتفقد وجودها.

وإنه ليبدو أن حياتنا قد صيغت من محاولة ناجحة إلى حد ما، للتوفيق بين محبتين، وإيجاد معدل لما يتطلّبانه منا؛ وإن كبرياءنا يقترن بكبح جماح العقل الذي يؤدي إلى محبة للنفس مستنيرة، كبيرة القلب، ذات مشاركة وجدانية، تصدّ بدورها التدفق العارم لغرائزنا الدنيا.

ندلي بحكمنا كأن لا معقب عليه: ربما كان حب النفس هو موكلنا الأساسي؛ فكلنا في الواقع حساسون من جهة أنفسنا، مغرورون، متكبرون، طامحون مصرون على سلوك الطريق الذي اخترناه. ومهما يكن جهل المرء، ومهما يبلغ من وكسه، وخواء رأسه؛ فإنه يدلي بحكمه، إذا توسط أصدقاءه في النادي، أو في البيت، وكأن لا معقب لحكمه.

قربنا من نفسنا يجعلها محور الوجود: قريبون نحن من نفوسنا إلى درجة لا يسعنا معها إلا أن نجعل من ذواتنا محورًا يدور حوله التاريخ الماضي والمستقبل كما يدور التاريخ الحاضر؛ فالدنيا وحوادثها تهمنا بالقدر الذي يمس مصيرنا، أو يرتبط بما نحب وما نكره.

نؤثر أن يبدو تفكيرنا مجردًا من المصلحة: ولكن لما كانت المحبة المجردة من النفس هي التي تستدعي الالتفات الأكبر، لذلك نحب أن نفكر في أنفسنا وفي الآخرين باعتبارنا مجردين من المصلحة، ساعين إلى مُثُل لا تؤدي إلى فائدة شخصية.

حركتا النفس؛ الذاتية، والوجودية: النفس باعتبارها موجودة هي مصدر سلوكنا، وجميع علاقاتنا بالأشياء الحقيقية، والكائنات الموجودة خارجنا.

وكما يتجه الإنسان في حركته الذاتية إلى الداخل، فإنه يتجه في حركته الوجودية إلى الخارج. وهكذا تلتقي فينا محبتان؛ محبة الأخذ، ومحبة العطاء: المحبة المائلة نحو المركز، والمحبة المنحرفة من المركز؛ أو بين الذات والوجود. حركة النفس الذاتية تهتم بالنفس، وحركة النفس الوجودية تتجه نحو الله، والأشخاص الآخرين الموجودين.

يجب مع ذلك ألا نفكر في الحبين على أنهما منفصلان ومستقلاّن داخل النفس الواحدة، وإن وجب أن نعاملهما باعتبارهما منفصلين ومستقلّين. وحين نستخدم كلمة شخص فإنا نفكر في شيء: نجعل من الكائن البشري ذات نفسه في استقلاله، وفرديته؛

وفي نفس الوقت يبدو أن كلمة شخص تنطوي على علاقة. وبعبارة أخرى، فإن الشخص هو الذي يملك نفسه وهو «أنا»، كما أنه أيضًا عوضًا عن أن يتجه إلى الداخل في استبطان قاتل كالمعتوه، فإنه يتخذ موقفًا في عالم الحقيقة، وهو شاعر بالعلاقات الإيجابية، بالمساواة أو التبعية أو المحبة مع واحد أو أكثر من الأحياء الآخرين، له كل من محبة تقدير النفس، والمحبة المجردة من المصلحة، كذلك هو معتد، كوجود هو تابع: هو مطلق، على مقياس محدود، متوحد.

ليس ألصق بنفوسنا من هذا الـ «أنا» الغامض، الذي هو القاعدة العامة لأعمالنا، والكلمة التي لا يستطيع المرء أن يجاوزها في خط الإرادة «أنا» و«إني» وهذا كل شيء، ولكن يا له من لغز! انظر كيف أن هذا الكائن المطلق الذي لا يتبدل أو يتغير لا يستطيع أن يجد سلامًا في نفسه. إنها تبحث، وليس الذي تلتمسه شيئًا، لأن الأشياء لا تثير اهتمامها أو تشبعها - إنها تبحث عن «أنا» أخرى؛ تود أن تتملكها لتستكشف نفسها فيها، ولكي تتخلص من نفسها.

الصداقة تتسامى بالعقل

في الصداقة يسمو عقل الإنسان فوق كل مدعيات طبيعته الجسدية والانفعالية حتى يلامس ما هو عام وحق وخير، بصورة لا يمكن أن تبلغها نفسه الدنيا، برغباتها الملحفة المقصورة على محبة الذات.

إن هناك حبًّا منبعه أعمق من هذا، كامنًا في كل منا إلى حد ما، خيّر وغير قابل للفناء- يعيش الله يقينًا في قلب كل إنسان. والله إذ يتحرك وينتشر فيه، يدفعه إلى أعمال خارقة وحالات من الوجود لا يمكن تعليلها.

وهكذا، إذا كان في الصداقة الإلهي هو الذي ينادي الإلهي ويحييه، فقد انحلّ اللغز، فسواء أحببنا صديقنا من أجل ذاته، أو من أجل ذاتنا: أو بالحريّ من أجل الذات الوحيدة الحقيقية الموجودة فيه وفينا: صديقي ذات ذاتية، وليس غير الإلهيّ هو هكذا، واحدًا في كثير؛ ليس غير الصميم والخير الصراح.

المطلب الرابـــع: محبة النفس والصداقة عند «كانط»

حب النفس، وحب الإنسانية

عالج «كانط» التكييف الأخلاقي لنشوء الصداقة، وهو يرى أن الإنسان يحركه للعمل دافعان: أولهما حب النفس، ينبثق من نفسه؛ والثاني حب الإنسانية، ويستمده من الآخرين، وهو الدافع الأدبي.

فعال حب النفس لا تظفر بالتقدير

ولكن فعالنا التي دافعها محبة النفس، لا تظفر بالتقدير الأدبي، وإن كانت في أحسن حالاتها لا تتعارض مع القانون الأخلاقي؛ في حين تكون أعمالنا الأكثر استحقاقًا للتقدير، هي التي أساسها محبتنا للإنسانية، ورغبتنا في زيادة السعادة البشرية.

أنبدأ بمحبة نفسنا؟

أنبدأ بمحبة نفسنا، ونلحق سعادة غيرنا بسعادتنا، فتتزايد شيئًا فشيئًا قوة اتجاهنا نحو تحقيق سعادتنا، ولا يقف سعينا وراء سعادتنا عند حدٍّ، ولا يلبث أن يتوقف تمامًا اهتمامنا بسعادة الآخرين.

ولو أن كل إنسان قصر همه على تحقيق سعادته وحدها، غير عابئ بسعادة سواه لكان هذا من حقّه، ما دام لا يعوّق من سعى جاره في تحقيق سعادته؛ وإن لم يستحق مسلكه هذا تقديرًا أدبيًّا.

أنبدأ بمحبة صديقنا؟

أم نجعل سعادة غيرنا محل اهتمامنا الأول، بأن نفكر في الآخرين، فتتخلف سعادتنا في السباق؟ ومع ذلك فلو رغب الناس كافة في أن يُعنى كل واحد بسعادة سواه، إذن لَصِينَت سعادة المرء عن طريق جهود أصحابه. فإذا شعرنا بأن الآخرين معنيون بسعادتنا عنايتنا بسعادتهم، لما كان هناك سبب للتخوف من التخلف؛ لأني سأسترد ما أعطيه غيري من سعادة؛ بل يكون ثمة تبادل للخير، فلا يشقى أحد؛ لأن آخر سوف يعنى بسعادتي كما عنيت بسعادته.

قد يبدو كأنني الخاسر حتمًا باهتمامي بسعادة الآخرين؛ ولكن الاهتمام إذا كان متبادلاً فلا خسارة، بل تزيد أريحية الآخرين من سعادة كل فرد. وهذه هي فكرة الصداقة، إذ يسبق محبة النفس، تبادل سخيّ للمحبة.

الاختيار بين الصداقة ومحبة النفس

ولكن هبه كان لزامًا أن أختار بين الصداقة ومحبة النفس، فأيهما أفضل؟ على الأساس الخلقي، يجب أن أختار الصداقة؛ أما على الأساس العملي، فإني أقدم محبة النفس، لأن أحدًا لا يستطيع الاهتمام بسعادتي كما أستطيع أنا رعايتها.

غير أن اختياري لا يكون سليمًا في الحالتين: إذا اخترت الصداقة وحدها تأثرت سعادتي؛ وإذا اخترت محبة النفس وحدها، خلا اختياري من الجدارة الأدبية والفضل.

التوفيق بين المحبتين

فلا بد أن يعنى المرء بسعادته، وبسعادة سواه أيضًا، ولكن بما أنه قد لا توجد لهذه المسألة حدود ثابتة، ولا يتيسر إذن تقدير الدرجات والنسب، إذ إن معيار الصداقة في الرابطة لا يمكن تحديده بأي قانون أو معادلة: إن عليّ أن أعنى بحاجاتي ورفاهيتي؛ فإذا لم أستطع تحقيق سعادة جاري بغير الامتناع عن إشباع ضرورات حياتي، فإن أحدًا لا يستطيع أن يفرض عليّ النظر إلى سعادته، والتزام الصداقة من نحوه.

ولكن لما كان لكل امرئ مقياسه للضرورات، وفي وسعه أن يرفع مستواه على هواه؛ فإن النقطة التي تقف عندها ضرورة سد الحاجات الشخصية، وتبدأ منها التزامات القيام بواجب الصداقة، لا تكون محددة. ومع ذلك فلاشك في أن كثيرًا من ضروراتنا، تأذن طبيعتها بأن يضحى بها في سبيل الصداقة.

البـــاب الثالث

أركان الصداقة وشروطها

الفصل الأَوَّل
الفضيلة؛ ومكارم الأخلاق

الصداقة امتياز الفضلاء

الفضيلة صفة المهتدين إلى الصراط المستقيم، الذين أنعم الله عليهم بالسواء النفسي والخلقي.

تأثر الفضيلة بتغيير الظروف

والصداقة، باعتبارها رابطة بين فاضليين، يمكن أن تعدّ امتيازًا مقصورًا على الأسوياء ما استمر سواؤهم.

وإذا كانت العصمة لله وحده، وكان تغير ظرف الحياة يؤثر في درجة سواء الناس واستقامتهم، فإن الصداقة المثلى كثيرًا ما تتعرض للمؤثرات والمكدرات؛ بسبب ما يستهدف له الأصدقاء من أحداث وتقلبات.

الفضيلة عماد الصداقة

كان «سقراط» أول من جعل الفضيلة عماد الصداقة، ذلك بأنه يؤسس الصداقة على المنفعة، لما كانت المنفعة والفضيلة عنده صنوين، فهو يربط الشريف بالنافع، والأصدقاء

هم النافعون، الذين لا غناء لنا عنهم، أي هم الأخيار؛ لأن الصفات الخلقية تدفع الناس إلى تبادل المنافع، ولأن طيبة أصدقائنا هي خير ضمان لما يمكن أن نتوقعه من خدماتهم. والصداقة النافعة للغاية، لا توجد إلا بين من كملت فضيلتهم.

تنمية الصفات الخلقية

ومن رأيه أنك إن أردت أن تكون محبوبًا لا غنى عنك، فلتكن نافعًا؛ ولكي تكون نافعًا فعليك بتنمية صفاتك الخلقية، وقيمتك الذاتية.

صفات الصديق الفاضل

ولا يكون الصديق فاضلاً في رأي «سقراط» إذا أدمن الخمر، أو أفرط في أكل اللحم، أو كان متهتكًا، أو مكسالاً، أو مبذرًا، أو بخيلاً، أو مثيرًا للخصومات، أو متقاعسًا عن رد الجميل.

شرط محبة الفضيلة لذاتها

وانعقاد الصداقة بين فاضلين لا يكفي في رأي «شيشرون»، بل يشترط أن يكون تمسكهما بالفضيلة حبًا في الفضيلة لذاتها، فلا يتخذها أحدهما وسيلة لتحقيق غايته من السعادة والدعة؛ لأنه خليق إذ ذاك أن يهجر صاحبه إذا تغير حاله. على حين لا يجد «أرسطو» بأسًا بحب النفس المستنير؛ ويرجع هذا إلى أن «شيشرون» لا يدين بمبدأ المنفعة.

التساهل في تعريف الرجل الفاضل

يقطع «شيشرون» بأن الصداقة لا يمكن أن توجد، أو تبقى، إلا بين المتمسكين بأسمى مبادئ الشرف والفضيلة. ولكنه لا يستلزم الكمال المطلق الذي يتطلبه بعض الفلاسفة

النظريين؛ لأنه مرتبة من الفضيلة يتعذر على البشر بلوغها؛ مجتزئًا بدرجة من الاستحقاق الخلقيّ المقدور على تحقيقه، وهي ما يفهمه العامة في حديثهم العادي من مدلول كلمة الفضيلة، مما يمكن أن توجد له أمثلة في الحياة العملية.

وهو يتخيّر بعض الشخصيات التي عرفت بفضلها، ليتخذ الناس أصحابها نماذج يحتذونها في قدع شهواتهم، والتزام مبدأ واحد مطّرد من الشرف والعدالة في كل علاقاتهم.

ناس طيبون فوق اللازم

ولكن قلما تكفي جاذبية الفضيلة وحدها، فالطيبون جدًّا يملأوننا إعجابًا ورهبة، حتى لنكاد نتهيب مقاربتهم؛ على حين قد يستهوينا الأشرار بشطارتهم، فترانا مع الأسف أشد رغبة في مواصلتهم.

وليس هذا بمانع من أن في المتميزين بالطيبة البالغة، من يتمتعون بالصداقات الرقيقة؛ ولعل مرجع هذا إلى بعض الهنات الإنسانية السارة التي لا يعرفها غير خاصتهم.

الصداقة ليست ثمنًا للفضيلة

يقول «بروك» في كتابة: «ما الحب»؟ إن الصداقة فوق العقل، ورب صديق أنت واجد فيه اليوم فضائل لم تكن قد تبينتها حتى صار لك صديقًا.

فالصداقة هدية نسديها؛ لأنه لا محيص لنا عن تقديمها، فإن قدمناها على أنها المكافأة على الفضيلة، فكأننا نقدر للفضيلة ثمنًا؛ ومن يتقاضى ثمن الفضيلة، فلا صداقة لديه يهديها. وأنت إذا اخترت أصدقاءك لأنك فاضل تنشد صحبة فضلى؛ فإنك لست أقرب إلى الصداقة الحقة، منك إذا اخترتهم على أساس تجاري.

الصداقة لا تجتزئ بالعدالة

ويميز «سقراط» بين فضيلة العدالة وفضيلة الكرم، ولا يرضيه من ينحصر صلاحهم في حدود العدالة؛ لأنهم عرضة للطمع والمنافسة والحسد؛ ويرى أن المبدأ الحقيقي للمحبة هو الجود، فالأصدقاء إذا جاعوا أو عطشوا يقتسمون، غير آسفين، ما يأكلون أو ما يشربون: إذ يعتبرون أموالهم مملوكة لأصدقائهم، وأموال أصدقائهم كأموالهم.

ونحن إذا فهمنا الفضيلة على أنها الجود الذي يحدو المرء على التخلي عن حقه لمصلحة غيره؛ فإن الفضيلة لا تكون فقط شرط الصداقة، بل ركنها.

اشتراط الفضيلة في أحد طرفي الصداقة

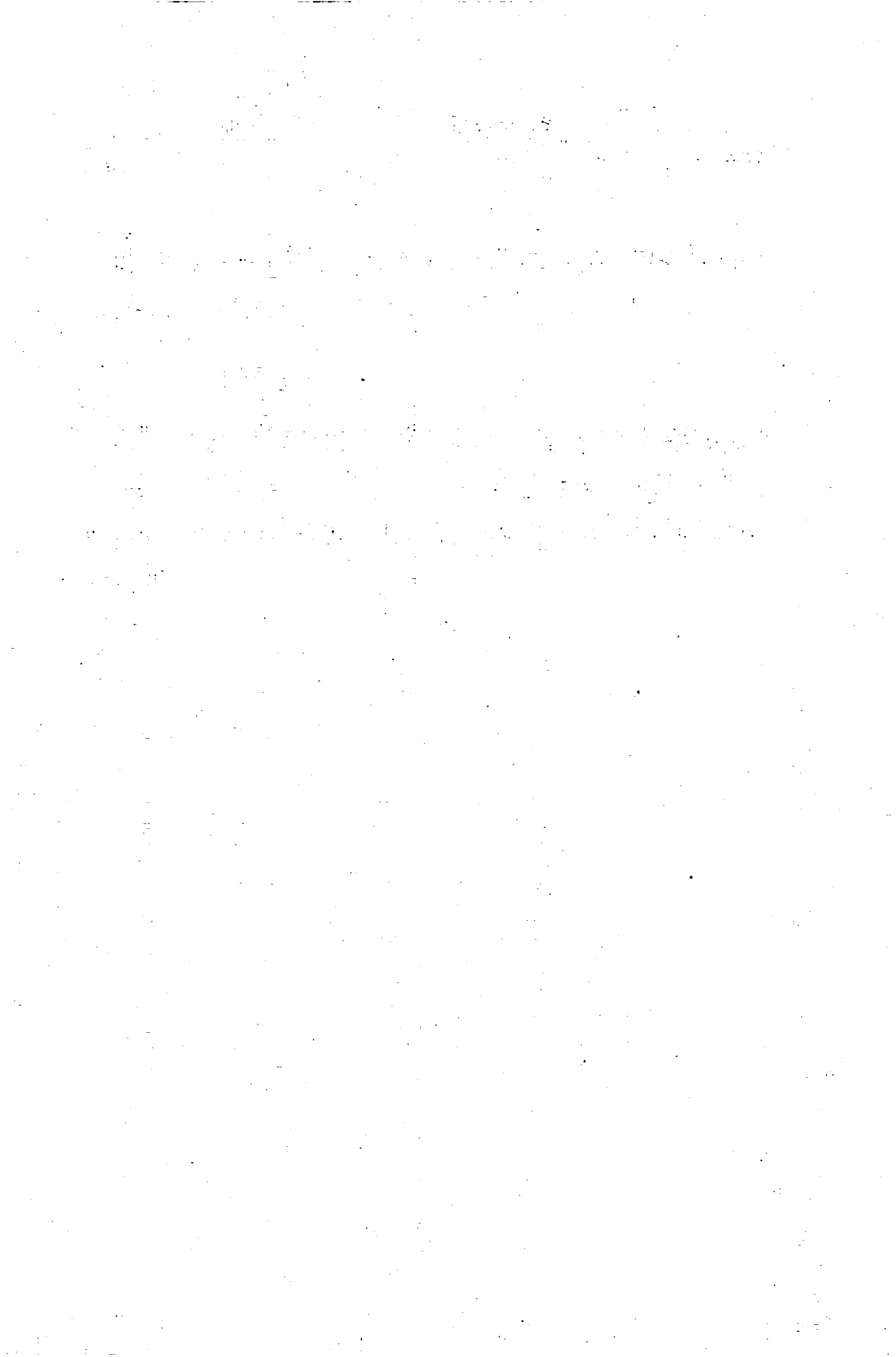
تناول «سقراط» الصداقة بصفة كونه أخلاقيًّا، وعرّفها بالفضيلة؛ أما «أفلاطون» فإنه اهتم بالمحبة فوق عنايته بدراسة الصداقة، وهو يدرسها باعتباره من علماء ما وراء الطبيعة، ويحدد هدفها، وعلاقتها، ليس بالفضيلة، ولكن مع الخير في ذاته.

والصداقة عند «أفلاطون» لا تقوم بين الأخيار، بل بين الأخيار ومن هم ليسوا بأخيار أو أشرار، أي الذين لا يملكون الخير ولكنهم يتطلعون إليه ويشعرون بحاجتهم إلى بلوغه، ويتوقون إلى معونة الأخيار، ومصادقتهم. فالصداقة عنده تستند إلى المنفعة وإلى الخير في وقت معًا، أو بالحريّ تؤسس فقط على حاجة الناس الخلقية بعضهم إلى بعض؛ وعلى حين يرى «سقراط» أن الصداقة مستمدة من الفضيلة، وهي في النظام الاجتماعي تاج الفضيلة وجزاؤها؛ فإنها عند «أفلاطون» ليست إلا جهد الناس المشترك في سبيل بلوغ الخير.

والواقع أن الصداقة وفقًا لـ«سقراط» تفترض فضيلة قائمة فعلاً؛ ووفقًا لـ «أفلاطون» تتيح تحقيق فضيلة لم يكن أحد طرفي الصداقة، قد استكمل حظه منها.

الفضيلة أمّ الصداقة وحارستها

يقول «شيشرون»: ألا إنها الفضيلة، والفضيلة وحدها، هي التي تولد الصداقة وتقويها وتكفل دوامها؛ لأن الفضيلة مبدأ متسق مطرد لا يتناقض في عمله أبدًا مع نفسه. والذين تضيء نارها بين جوانحهم، يتوقد وجدانهم نحو أصحابهم بوداد قلبي نقيّ، منزه عن أي اعتبار أناني.



الفصل الثاني
الكفـــاءة

لا صداقة إلا بين أكفاء

لا خلاف مبدئيًا على استحالة انعقاد الصداقة واستمرارها إلا بين أنداد، إذ قلما تدوم الصداقة بين غير الأكفاء، أو حين لا يلطف من تفوق أحد الجانبين، وجود مزية توازيها في الجانب الآخر. ذلك بأن العوارف لا يمكن ردّها، والالتزامات التي لا يتُخفّف من عبئها، لا تعد عادة من دواعي زيادة الوجدان، ولكنها تثير عرفان الجميل، وتزيد من الشعور بالتبجيل.

مفهوم الكفاءة

للناس رأي قديم في الكفاءة، بلغ من جرأته أنهم ألفَوا الفأر كفؤًا لصداقة المطوقة ملكة الحمام، وللأسد سيد الغاب. فلربما احتاجت الملكات، والملوك لأسنان الجرز تقرض حبالتهم، وتعيد إليهم حريتهم. ولقد احتاج «لاتيد» سجين «الباستيل» إلى جرذانه تؤنس من وحشته، وتدرأ عنه غائلة الفيران الواغلة في حجرته، الطامعة في طعامه وفتات مائدته.

ولكنا غير راغبين هنا في الإغراب، وحسبنا أن نحذر من اتخاذ ظاهر الأمور مقياسًا للمماثلة والمساواة بين الأصدقاء، وأن ندخل في الاعتبار وجوهًا منوعة للمقارنة، فلا نقصرها على المساواة في الثراء، أو الحسب، أو المرتبة الرسمية، أو المكانة الاجتماعية، أو الشهرة، أو الفضيلة؛ بل تتخذ معيارًا شاملاً بحيث تصير الكفاءة توازنًا بين مجموع المزايا، وليس انصبابًا على مزية بارزة واحدة أو غير واحدة.

المساواة والمشابهة في الفضيلة

يقول «أرسطو» إن المساواة والمشابهة في الفضيلة تجعل الصداقة ممكنة بين أشخاص غير متساويين بتاتًا؛ لأن احترامهم المتبادل يجعلهم متساويين في الطبيعة؛ وهو يسلم بأن الرجل الطيب يمكن أن يصادق من هو دونه طيبة.

المساواة المعنوية

وهو يرى أن المقصود ليس المساواة في الحالة والرتبة والثروة؛ بل المساواة المعنوية، المتعلقة باستحقاق الأشخاص، والتي يكون فيها الحكم الوحيد للعاطفة.

تفاوت درجة المحبة يحقق المساواة

وهو يسلم بأن الصداقة يمكن قيامها بين غني وفقير، وإن كان من الضروري أن تختلف عواطف كل منهما وسلوكه عن الآخر؛ كما أن عدم المساواة الطبيعية بين الوالد والولد غير مانعة من صداقتهما، وإن كانت لكل واحد فيهما وظيفته، وهو يظهر لصاحبه فضائل عواطف خاصة به، فالتقوى البنوية تختلف عن المحبة الأبوية، وبصفة عامة يكون شعور كل من الصديقين وفق طريقته.

المساواة في المحبة

ثم إن في مقدور الصداقة تسوية كل الفوارق المترتبة على الظروف الخارجية، ومعنى المساواة الحقيقي أن الصديقين متساويان في المحبة. والصديق الفقير يعطي محبته لقاء ما تلقّاه من جود صديقه، وأنه بهذا يعطي فوق ما أخذ، وهو جدير بتقدير صديقه ومحبته.

المساواة حصول كل على استحقاقه

المساواة في الصداقة هي أن يحصل الصديقان كل على ما يستحقه، فيظفر المتفوق بمحبة تناسب استحقاقه، ولكن تفوّق الطبيعة، وتفوق الفضيلة من شأنهما، أن يزيدا من محبة المتفوق؛ وهكذا يتساوى الصديقان بمحبتهما المشتركة.

ولا يسلّم «أرسطو» بأن الصداقة اقتسام دقيق للمنافع المادية؛ لأن الصداقة خالية من الغرض، وأن المحسَن إليه يتخالص مع المحسِن بتبجيله، حينما يعجز عن ردّ مقابل جميله.

الصديق لا يغار من تفوق صديقه

والأصدقاء متساوون ما انطوت قلوبهم على نفس المحبة؛ لأن الصداقة لا تغار أبدًا من التفوق، فالصديق أقل اعتزازًا بفضيلته منه بفضيلة صديقه؛ وإذا رضي أن يكون دونه، فليس عن مذلة أو صغار، بل لأن صديقه بمثابة نفسه الأخرى فهو شريكه في تفوقه.

عندما يجاوز الفرق المدى

ولكن «أرسطو» لا يعترف بإمكان قيام الصداقة واستمرارها إذا استفحل الفرق بين الصديقين؛ لأن الإنسان لا يطيق طويلاً أن ينتقص حقّه، فإن الفرق بين الصديقين إذا جاوز المدى، لم تلبث الصداقة أن يتصدع صرحها، وينصرم حبلها.

الفروق بين الناس سطحية

ويرى الرواقيون، وكثير غيرهم من الفلاسفة القدامى والمعاصرين، أن الفروق بين الناس سطحية نافلة، وأنهم متساوون بطبيعتهم وقد خلقوا ليتحابوا.

اختيار الأصدقاء من النظراء

يقول «بونار» يجب أن نختار أصدقاءنا من النظراء؛ لأن الأصدقاء يعيشون في مساواة تامة، هي أولاً نتيجة تجاوزهم عند اللقاء عن كل الفروق الاجتماعية، أما فروق الروح والمواهب، فلا تعوّقهم؛ لأنهم يشعرون بالتساوي حينما يحبون وإن تفاوتت هويتهم.

أما فرق الظروف فلا يمنع الوجدان بين الناس، بل هو أحد المزايا الكبرى للمجتمعات المكتملة الاستقرار.

يصادقون عبيدهم

واتخذ كثير من الأقدمين الممتازين أصدقاءً من عبيدهم؛ لأنهم استطاعوا أن يتجاهلوا بسهولة الفارق الاجتماعي ما دام لهم نفس الذوق والمعرفة؛ ولكن حيث ينعدم هذا الشيوع في الآداب والثقافة، فإن الشعور بالفارق الاجتماعي الذي لا يكاد يذكر، يكون محسوسًا بدرجة فائقة، ومانعًا من ازدهار الصداقة.

ونحن واجدون وسط الناس من أبناء البلاد العريقة في المدنية، أناسًا خالين من الجلافة، وإن لم يصقلوا صقلاً خاصًا؛ ومع أنهم غير مثقفين، فهم ينتمون إلى سلالة مشبعة بالثقافة: الفلاح في مزرعته، سيد غامض؛ والصانع في دكانه الصغير أستاذ مغمور؛ وليس أنبل ولا

أقوى من بوادي الصداقة التي تقوى على ربط رجل من هذا الطراز بآخر أكثر استكمالاً لتكوينه.

شرط التشاكل المعنوي

قال «ابن عتبة» لـ «عمر بن عبد العزيز»:

أَبِـنْ لي فكـنْ مثلـي أو ابتـغِ صـاحبًا ... كمثلـك إني مبتـغٍ صـاحبًا مثلـي

عزيـزٌ إخائي، لا ينـــالُ مـودتـِـي ... من القومِ إلا مســـلمٌ كاملُ العقلِ

ومـا يلبـثُ الإخـوان أن يتفرقـوا ... إذا لم يؤلّـف روحُ شـكل إلى شـكلِ

وقال بعضهم:

إن صادفتُ منك جوهر نفسي، فأنا غير محمود على الانقياد لك بغير زمام؛ لأن النفس يتبع بعضُها بعضًا.

شرط التشابه في السن

دلّت التجارب على أن صداقة الأطفال تنعقد عادة بين من تتساوى أسنانهم، كما أن الطفل المتفوق أكثر ميلاً لمصاحبة من يكبرونه سنًّا، بخلاف المتخلف؛ فإنه يصادق من يصغرونه.

ويبدو أن من رأي «أفلاطون» أن أعلى أنواع الصداقة ما كان بين رجلين أحدهما أكبر سنًّا، وهو يضع دائمًا نصب عينيه، مثل أستاذه وصديقه «سقراط»، إذ كان يكبره بنحو اثنين وأربعين عامًا؛ ومثل «ديون» الصقلي، الذي يدين له بتدخله غير الموفق، في شؤون

صقلية السياسية، وكان يصغره بعشرين عامًا. كما كان «فاجز» يكبر «نيتشيه» بأكثر من ثلاثين عامًا.

وكان «نيتشيه» أكبر كثيرًا من «يعقوب بركهارت». وكانت مدام «دي دافوند» تكبر صديقها «ولبول» بثمانٍ وثلاثين سنة.

صداقة العجائز بالشبان

هذه صداقات غير مألوفة، وإن كان من الممكن انعقادها بين الأفذاذ الذين يعتبرون فارق السن عرضيًّا، يستبعدونه لكي يلتقوا؛ لأن العبرة عندهم بتساوي طبيعتهم؛ وطبيعة الإنسان تلازمه عبر مختلف مراحل الحياة.

ومن مزايا فارق السن أن يعصم العلاقة من أن تشوبها المنافسة أو الزهو، مما يتيح لكل من طرفيها أن يتبين طبيعة صاحبه على حقيقتها.

الفصل الثالث

الثقـــــة

«الثقة أصل الصداقة»—أبيقور

الواثق بنفسه يثق بغيره

ثقة المرء بصديقه من قبيل ثقته بنفسه، فهي مستقاة من يقينه بسلامة تقديره، ونافذ بصارته بوزن الرجال، واختيار أهل الفضل.

والرجل الواثق بنفسه، يحسن الظن بمن يراهم أهلاً لإعجابه؛ لأن فِراسته لا تخونه، فهو مؤمن ينظر بنور الله، تهديه فطرته السليمة إلى الخير الخالص الصراح، وهو النزيه الذي لا يشوب حكمه حرص على التماس منفعة عاجلة، أو تحقيق رغبة رخيصة، أو إشباع شهوة مشبوبة.

ولو أنه أخطأ التقدير مرة، فوقع اختياره على غير جدير، فإن ائتمانه إياه عن يقين واطمئنان، كفيل بأن يصيّره خليقًا بالائتمان؛ وقديمًا قالوا: من ائتمنك فلا تخنه، ولو كنت خائنًا.

ومع ذلك، فإن استرابة المرء بأصدقائه، أشد غضاضة من استهدافه لغدرهم؛ لأن عار الارتياب لاحقٌ به، دالّ على ضعف ثقته بنفسه؛ أما وزر الغدر فلاصق بالغادر دونه.

إعطاء النفس

لا غنى لنا عن قدر من النخوة، وسعة العقل لنستطيع عقد آصرة الصداقة التي تستلزم استعدادًا لإعطاء أنفسنا بطلاقة في غير تحفظ؛ أما الإمعان في الحذر والتحرز فهو من قبيل الحياد المسلح الذي يعزلنا عن الناس، وليس أقتل للصداقة من الشك.

ثقتنا بأخلاق الصديق ومحبته

والثقة التي هي عماد الصداقة الحقّة، يجب أن تكون ثقة في أخلاق صديقنا، وثقة في محبته لنا؛ فإذا استتبت لنا أسباب هذه الثقة اطمأن قلبنا واستراح بالنا، فلا خوف ولا عناء.

الأخصائيون في التحرز

بلغ من سوء ظن بعض الناس، ومن شدة تحرزهم أن يفاخروا بأنهم لم يخدعوا قط؛ وقد يظفر سيئ الظن بالسلامة، أما السلام فلن ينعم به غير من يتوسمون الخير في الخَلق.

ولربما اكتشف سيئ الظن كل تفاهات البشر، ولكن نبل الناس محجوب عنه، وكما توعز الثقةُ إلى الموثوق به بأن يكون أهلاً للائتمان، كذلك يستدعي سوء الظن تحقيق ما توقعناه، وأردنا أن نتحاماه.

أشخاص غير جديرين بالثقة

يقول «بيكون» إن المشوهين والخصيان وأولاد الزنا مطبوعون على الحسد؛ ولا شك أن الإخلاص ليس من شيم ضعيفي الأخلاق، الذين يبادرون بتضحية مصالح غيرهم بمجرد تعارضها مع مصلحتهم، مدفوعين إلى ذلك بأنانية مقيتة قصيرة النظر. ولعل هذا الطراز من الآدميين المتحللين هو الذي حدا غلاة المتشائمين على التحذير من الثقة بأحد، والتوصية بالإغراق في محبة النفـــس وحمايتها من احتمال عدوان أقرب الناس، وانقلابهم.

تقلب الصديق أو حماسته

وقد أوصى «كانط» بالتحرز من تزويد الصديق بما يمكن أن يتذرع به ضدنا؛ وهو يقول: يجب بلا شك أن لا نفترض احتمال صيرورة الصديق عدوًّا، فإن مثل هذا الافتراض يُعدم الثقة بيننا؛ ولكن من المغالاة في الغفلة، أن نضع نفسنا في قبضة صديق، فنفضي إليه بأسرار قد تشقينا إذاعتها إذا ناصبنا العدوان. إنها مجافاة للحصافة، ليس فقط لأنه ربما ضدنا إن صار عدوّنا، بل لأنه قد لا يستطيع الحفاظ على سرنا بسبب عدم تحرزه. ويجب على الخصوص أن لا نسلم سلاحًا إلى صديق حامي الرأس، فإنه حريّ أن يبعث بنا إلى المشنقة في إحدى لحظات حماسته وحدّته؛ وإن هو بادر بالتماس مغفرتنا بمجرد خمود ثورته، وهدوء فورته.

الفصل الرابع

المحبـــــة

«حيــث لا محبـــة، فالصـــداقة لا يمكن أن يكون لها وجود»—شيشرون

المبحث الأول

تعريف المحبة

المدلول اللغوي للفظ المحبة

المحبة لفظ يستخدم في وصف مظاهر منوعة من السلوك، والخبرة؛ مثل علاقة الوالدين بالطفل؛ وعلاقة الصداقة؛ والعلاقة بين الجنسين؛ والتعلق بالأماكن والأشياء، وبالأحداث، أو بالطعام.

مدلول المحبة في علم الأخلاق

والمحبة في علم الأخلاق، هي الحاجة الماسة للتجاوب، وهي مثال ينمو مع احترام الفرد باعتباره غاية في ذاته. وترتبط بها قواعد للسلوك من إخلاص وثقة ومبادلة.

المبحث الثاني

المحبة عبر العصور

المطلب الأَوَّل: المحبة عند فلاسفة اليونان

«لا أعرف غير علم صغير هو المحبة؛ ولكني أجرؤ على المباهـــاة بأني أكثر تعمقًا في هذا العلـم من كل من تقدموني، ومن أهل جيلي جميعًا»—«سقـراط»

فهمنا للصداقة يحملنا على المحبة

يقول «سقراط»: إن فهمنا للصداقة يستلزم فهم واجباتنا نحو الآخرين، فإذا فهمناها انسقنا إلى محبتهم، وحين نستنير فيما يختص بمصلحتنا، فإن التعاطف يستيقظ فينا؛ لأن الاحتكام إلى عقلنا، يمس قلبنا.

حب الخير مصدر محبة الذات والتعاطف

والمحبة عند «أفلاطون» تبدأ دائمًا غير شخصية، فنحن نحب الخير، ولكن لما كنا لا نحب الخير بغير أن نريد تملكه، ولا نحبه إلا راغبين في إبلاغه إلى شخص آخر؛ فحب الخير إذن هو المصدر المشترك لمحبة الذات، وللتعاطف.

نحب الغير ليساعدونا على الخير

ولما كان الغير يساعدوننا على فعل الخير، أو على تنميته فينا؛ فنحن نحبهم من أجل الخير الذي ندين لهم به، كما نحبهم لما هم مدينون لنا به، في وقت معًا.

الخير هو موضوع الصداقة والمحبة

فالخير هو الموضوع المشترك للصداقة والمحبة. وأن الصداقة والمحبة تنقادان للرغبة، والرغبة لا يمكن تصورها مجردة عن موضوعها. لذلك يتوقف الظل الخاص لعاطفتي شخصين صديقين يتحدان في البحث عن الخير، على طبيعة الخير الذي ينشدانه.

ثلاثة أنواع من الخير

يميز «أفلاطون» ثلاثة أنواع من الخير: المسرات، والفضائل، والخير المطلق، وهو يسمي المحبات تبعًا لهذا التقسيم: محبة الهوى، والمحبة القلبية، والمحبة العقلية؛ وفقًا لنوع الخير الذي ننشد. والصورة التي رسمها للمحبة العقلية تقارب في مجموعها فكرتنا اليوم عن الصداقة.

محبة واحدة لا تتعدد

والخير عنده تتعدّد أشكاله أو درجاته، ولا تتعدد أنواعه؛ وهو يرتب على هذا أنه ليس ثمة أنواع مختلفة من المحبة، بل محبة واحدة. وكما أن كل الخيرات تنبثق من الخير في ذاته، فإن كل المحبات تلصق بالمحبة العقلية؛ ومن هنا فإن الصداقة ليست محبة من طراز خاص أدنى.

جدل المحبة

وعنده أن كلمتي صداقة محبة، مترادفتان؛ وكما يوجد منطق للمحبة، فثمة منطق للصداقة.

المحبة جاذبية، رغبة

المحبة في رأيه جاذبية، والجاذبية هي الرغبة، ويجب أن يكون موضوع الرغبة شيئًا طيبًا مطلقًا، وليس طيبًا فقط كوسيلة إلى ما هو أكثر طيبة. كما أن الرغبة علاقة قصور، لأنها تنطوي على حاجة، ويوضح في «الندوة» «السيمبوزيوم» أن موضوع الرغبة هو الشكل الأبدي الذي فقدت النفس معرفته بدخولها في الجسد، والذي لابد لها من أن تسترده إن أرادت استعادة كمالها الأول.

وهو يرى أن حب الرغبة في كل صوره، هو تهافت النفس على خير تبتغيه، ولما تظفر به بعد. والنفس الراغبة لم تنقل مرامها من الخير، ولكنها في طريقها إلى نيل المرام؛ كالفيلسوف لم يحصّل الحكمة، ولكنه يتهافت على تحصيلها.

محبة جسدية هدفها خلود مادي

الجمال هو الموضوع الذي يوقظ حب الرغبة، في كل صوره؛ والجمال أبدي، وهو في أدنى صوره حب الشخص الجميل للحصول بوساطته على ذرية تكون بمثابة بديل عن الخلود؛ وهو كل ما يستطيع الجسد تحقيقه.

محبة روحية هدفها خلود أدبي

وثمة صورة أكثر روحانية لنفس التوقان للخلود، هو اللهفة على كسب الشهرة الخالدة، عن طريق اتحاد بنفس مماثلة، يتمخض عنه مولد تقاليد وقوانين رصينة للحياة.

وأكثر من هذا روحانية، محاولة تزويد الفلسفة والعلم، عن طريق الاقتران بالعقول المختارة، بما يغنيها من محاضرات وأفكار نبيلة.

محبة الاتحاد بالجمال المطلق هدفها خلود حقيقي

ولكن الهدف يظل مع ذلك دون البلوغ. فإذا وصل امرؤ من رحلته إلى هذا المدى، انكشف له فجأة جمال جليل هو سبب كل ما سبق أن تميّزه حتى الآن من جمال، وهو أصله. وعن طريق الاتحاد بهذا الجمال وحده، يتحقق نهائيًّا الخلود الحقيقي.

ثلاثة أنواع من الرغبة

أي أن «أفلاطون» يفرق بين ثلاثة أنواع من الرغبة: رغبة الهوى، ورغبة القلب، ورغبة العقل. وأن كل رغبة موضوعها الجميل والطيب: فرغبة الهوى موضوعها الجمال الجسدي، ورغبة القلب موضوعها الجمال الخلقي، ورغبة العقل (حب الجدل) موضوعها الجمال المطلق.

محبة الصداقة

هي المحبة القلبية، وهدفها الخير، وطابعها الاعتدال، إنها محبة النفوس وليست محبة الأجساد، وهي مجردة تمامًا من الجاذبية الجنسية، فلا تكون إلا بين أفراد من نفس النوع. وأكثر ما تكون بين الرجال في سنّ التعقل؛ وهذه العاطفة المجردة من جاذبية الحواس هي الصداقة بمعنى الكلمة.

وللمحبة القلبية خاصية أخرى، تجعلها شبيهة بالصداقة؛ لأنها تنشأ من التدبر والاختيار المؤسس على دوافع يقرّها العقل، وهي دوافع لا تشوبها المصلحة، أو الطمع؛ فلا يكون خضوع المحبين الاختياري لها محل ملامة. وعندما يكون هدفهم الفضيلة ولا سيما الحكمة، يجب أن يكون المحب قادرًا حقًّا على الإيحاء بالفضيلة والحكمة.

ويجب أن يكون المحبوب راغبًا فعلاً في الأخذ عنه؛ فإذا اجتمعت كل هذه الشروط، فهنا فقط يحسن الاستسلام لمحبينا.

وإذن فللمحبة القلبية كل صفات الصداقة، وهي قطعًا تتولد في النفس لدى رؤية الجمال، ولكنها لا تشعر نحو الجمال إلا بعاطفة الاحترام. وفي حين تتقلب محبة الهوى؛ لأنها مرتبطة بالجمال الجسدي الذي لا دوام له؛ فإن المحبة القلبية تظل أمينة مدى الحياة؛ لأن المحبوب، أي الخير، لا يتغير.

وفي حين إن محبة الهوى خداع كريه مشؤوم؛ فإن المحبة القلبية فيها مسرة للمحبين، فوق أنها نافعة لهم، وهي تحقق تقدمهم في الحكمة. وإن المحبة القلبية لتبد إذن محققة تمامًا للصداقة، حتى الصداقة العقلية التي هي من صنع العقل، والتي هدفها تحصيل الحكمة.

أن نحب هو أن نتبع وحي قلبنا

غير أن هذه المحبة، من وجهة نظر أخرى، بعيدة عن الصداقة الصرف؛ لأنها انتفاضة القلب وليست وثبة العقل. ومع ذلك فالمحبة ليست قط وليدة العقل المتزن، وهي لا تقوم على المصلحة والحساب: أن نحب هو أن نتبع وحي قلبنا، وأن نخضع لرعونة العاطفة؛ المحبة ليس لها بتاتًا جاذبيات الحكمة، إنها تتماشى والحكمة العرفية؛ لأن الحكمة الحقيقية تسلم بأن للقلب عقليته التي لا يعرفها العقل؛ إنها انتفاضة الروح لدى رؤية الجمال: الرجل إذ يلمح الجمال الأرضي هنا، يتذكر الجمال الحقيقي، فيتخذ جناحين، ويتشوف إلى التحليق نحوه.

المحبة القلبية، هي: إذن هوائية وعقلية في وقت معًا. تبدو إنها الصداقة كما يتصورها المرء في سبّها، أو في هدفها وهو الحكمة؛ ولكن تحولاتها، وحرارتها المتحمسة تدل على المحبة.

وجهتا نظر في محبة الصداقة

تبدو الصداقة في النظرية السقراطية مجرد انتصار للعقل، وهي في الأفلاطونية انتفاضة القلب، وعند «أفلاطون» العقل لا يستبعد الهوى، ولا الحكمة الحماقة؛ فالمحبة القلبية لا تعدو أن تكون أحد أشكال المحبة، وأكثرها استجابة للصداقة: ليس لكل الصداقات، بل لصداقة خاصة، لعلها أسمى الصداقات طرًّا، وهي الصداقة الفلسفية.

محبة الجمال في ذاته

تترقى الصداقة عند «أفلاطون» نحو الكمال بقدر اتساعها لأكبر عدد من الكائنات؛ وإنه ليؤثر محبة الجمال الثاوي في كل الأجسام، على محبة جسد جميل واحد؛ ويرى أن محبة الجمال في ذاته، مقدمة على محبة شكل معين، ولو كان جمالاً خلقيًّا. فجدل المحبة هو الانتقال من الجزئي إلى الكلي، أي الانفصال عن الأشخاص، والالتصاق بالفكرة؛ لأن المحبة الأسمى، محبة غير شخصية.

المحبة الشخصية الحميمة

أما «أرسطو»، فإن المحبة يزيد اكتمالها في نظره كلما كانت شخصية حميمة؛ وإن الصداقة التي يسميها إغراقًا في المحبة، لا يمكن قيامها إلا بين اثنين، وهي تبتدئ بمتعة النظر، إذ يستحيل أن يصير امرؤ صديقًا لإنسان يبغض شخصه المادي، وأنه بعكس ما يقول به «أفلاطون»، فإن العواطف تتطور من العموم إلى الخصوص؛ والصداقة ليست قط عاطفة غامضة غير شخصية، ولكنها المحبة التي تربط شخصًا معينًا بشخص معين آخر. وما يسميه «أفلاطون» الحب الأسمى أو الأقوى، وهو الحب الذي موضوعه المطلق؛ يسميه

«أرسطو» الحب الأقل، والأضعف؛ وإنه في الحقيقة الأقل، من حيث نوعه، ومن حيث تركيزه. ومتى تطرفت الصداقة اشتد شبهها بالمحبة التي يجدها المرء نحو نفسه.

المحبة ميل طبيعي

تدخل الرواقية الصداقة في المحبة التي تربط كل الناس بعضهم ببعض، فالإنسان عند الرواقيين مدفوع بالطبيعة، أي بالميل والواجب إلى محبة أمثاله.

تحول الاجتماعية الغريزية إلى اجتماعية عقلية

ويكون هذا الميل أول الأمر أعمى، ثم يصير متدبرًا جدًّا، بتغير الاجتماعية الغريزية إلى اجتماعية عاقلة. ومع أن مبدأ وجداناتنا هو دائمًا الطبيعة؛ فإن كلمة الطبيعة تدل أحيانًا على التوق أو الغريزة، وطورًا على الإرادة أو العقل.

العقل مبدأ المحبة

والعقل هو المبدأ الحقيقي للمحبة، وهو الذي يكون في نفس الوقت الذكاء والإرادة.

إنه الإرادة الذكية، أو الذكاء النشط. والعلاقات الاجتماعية، سواء أكانت صلات مجتمع أو أواصر دم؛ سابقة على الوجدان وأساس له.

الوجدان مساك الجماعة

ومع ذلك، فإن الجماعة لا توجد إلا بالوجدان، فهي هباءٌ إذا لم تكن اتحادًا اختياريًّا للقلوب.

الصداقة محبة اختيارية

والرواقيون كالأبيقوريين يفهمون معنى الصداقة على أنه المحبة الاختيارية. ويرى الرواقيون أن المحبات المقدسة ليست غريبة على الحكيم، وإن كانت الصداقة عندهم عاطفة أصلية متميزة عن عاطفة المحبة.

الصداقة محبة مخصصة الموضوع

ولئِن حدانا العقل على محبة كل الناس، فإنه لا يحضّنا على أن نحبهم جميعًا حبًّا متساويًا. وإنه ليؤذن للحكيم أن يحب محبة إيثار، وهذه هي الصداقة.

المطلب الثاني: المحبة في المسيحية

الفضائل المسيحية

زاد الأخلاقيون المسيحيون على الفضائل الطبيعية الأربع، وهي: الحصافة، والاعتدال، والجلد، والعدالة؛ فضائل لاهوتية ثلاثًا هي: الإيمان، والرجاء، والمحبة.

محبة الإنسان لله

وكلمة *charity* (ترجمة للكلمة اليونانية *agape*)، تدل في «العهد الجديد» بصفة خاصة على محبة الإنسان لله، التي استدعتها محبة الله للإنسان، كما ظهرت في حياة السيد المسيح وتعاليمه وموته.

رأي «بولس» في المحبة

المحبة عند القديس «بولس» هي رأس الفضائل المسيحية، وقد أفاض في وصفها، وبيان أهميتها فقال: إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة، ولكن ليس لي محبة؛ فقد صرت نحاسًا يطنّ أو صنجًا يرنّ. وإن كانت لي نبوّة وأعلم جميع الأسرار وكل علم، وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقُل الجبال؛ ولكن ليس لي محبة ، فلست شيئًا. وإن أطعمت كل أموالي، وإن سلمت جسدي حتى احترق؛ ولكن ليس لي محبة، فلا انتفع شيئًا. المحبة تتأنى وتترفق، المحبة لا تحسد؛ المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ، ولا تقبّح ولا تطلب ما لنفسها، ولا تحتدّ ولا تظن السوء، ولا تفرح بالإثم؛ بل تفرح بالحق، وتحتمل كل شيء وتصدق كل شيء، وترجو كل شيء، وتصبر على كل شيء. المحبة لا تسقط أبدًا.

المطلب الثالث: اختلاف الصداقة عن المحبة

لا شك أن الصداقة تحتفظ بطابع المحبة الشخصية، والمشاركة الوجدانية؛ لأننا كما يقول «وليم جيمس» نعتمد على التفات غيرنا، والتفاتهم المتقبّل، فإذا لم يتحول نحونا أحد عندما ندخل، أو يجب حين نتكلم، أو يلق بالاً لما نصنع؛ بل يقاطعنا كل من نلقاه، ويتصرف كما لو كنا أشياء لا وجود لها، فإنا لا نلبث أن نعاني نوعًا من الغضب اليائس العاجز، الذي يعدّ أشد ألوان التعذيب الجسدي ترفيهًا بالنسبة إليه.

ولكن الصداقة تختلف عن المحبة: ذلك بأن عنصر المحبة الشخصية والمشاركة الوجدانية، يجيء عن طريق انصراف الاهتمام إلى نفس الأشياء؛ لا عن طريق توجيه كل

من الطرفين اهتمامه إلى شخص صاحبه، أو عن طريق متابعة أوجه نشاط بعينها، وإن لم تكن في حد ذاتها نافعة وممتعة، كما هو الحال في كثير من الشعائر، وفي الرقص وما إليه.

المطلب الرابع: محبة الصداقة ومحبة الغرام

عرفنا أن الجمال عند «أفلاطون» هو الموضوع الذي يوقظ الرغبة في كل صورها، وأن ثمة ثلاثة أنواع من الرغبة: رغبة الهوى، ورغبة القلب، ورغبة العقل. وموضوع الرغبة الأولى الجمال الجسدي، والثانية الجمال الخلقي، والثالثة الجمال المطلق.

وأن الحب عنده ثلاثة أنواع: شهوي، وقلبي، وعقلي؛ تبعًا لنوع الجمال الذي ينصب عليه، وأن المحبة القلبية هي محبة الصداقة، أما المحبة الجسدية فهي المحبة الشهوية.

الحب الشهوي

حب الهوى، أو الحب الشهوي، يتجه إلى السرور، وله كل صفات الشهوة العارمة. ويسمى أيضًا الحب الأرضي أو الدارج. وهو حب الجسد بكل بهيميته ووحشيته. إنه مرض ورعونة. ويستمد الهوى اسمه من عنفه، وتمثله أسطورة يونانية شهيرة في صورة جواد أسود، محقوقف الأعضاء غليظها متقبّضها، جسيم الرأس، قصير الرقبة، مسطح المنخرين، أخضر العينين معروقهما بالدم، لا يتنفس إلا جنونًا وزهوًا، أذناه الوبرتان لا تسمعان صوت السائق، ولا يجدي السوط والمهماز إلا قليلاً في ترويض شِماسه وإسلاس قياده.

وليس لحب الهوى من المحبة غير اسمها، فهو أعمى، متقلب، قابل لأن يستحيل كراهة؛ وهو نفور غيور يحط من قدر موضوعه، وهو خطر يجب مجانبته باعتباره محنة، عوضًا عن

تمنيه على أنه نعمة. وهذا الحب لا يمكن أن يكون من الصداقة بسبيل، بسبب طبيعته الغريزية وصفته الغرامية.

المقارنة بين محبة الصداقة ومحبة الغرام

وقد حرص كثير من الكتاب على المقارنة بين محبّة الصداقة ومحبة الغرام، لزيادة التعريف بكل منهما؛ وتألق البعض في اتخاذ هذه المقارنة وسيلة لإظهار براعتهم الأدبية ولا سيما الكتّاب الفرنسيون؛ وتنحصر المقارنة في أن الصداقة مجردة تمامًا من الجنس، وأنها عاطفة مسالمة غير عنيفة، وأنها لا تستغرق موضوعها.

عنصر الجنس: فالصداقة محبة خالصة خالية من أي أثر للانعطاف الجنسي؛ والغرام محبة تقوم أصلاً على الانعطاف الجنسي، وتكون بين اثنين من نوعين مختلفين.

عاطفة مسالمة توائم سائر الوجدانات: ومع أن الصداقة قد تثير عواطف قوية، فهي بالنسبة إلى الغرام عاطفة مسالمة غير عنيفة. كما تتواءم الصداقة دائمًا مع سائر الوجدانات، ومختلف واجبات الحياة؛ بخلاف الغرام فإنه يتعارض والوجدانات والواجبات الأُخرى.

استغراق الموضوع: والصداقة أقل استغراقًا لموضوعها، فالنفس تتسع لصداقات كثيرة؛ أما الغرام فإنه يستغرق موضوعه، فلا يتعدد في الوقت الواحد.

موضوع الاهتمام: والصداقة نتيجة المشاركة في توجيه الانتباه نحو موضوع، أو مشروع، أو قضية، أو فنّ؛ أما الغرام فهو توجيه الاهتمام نحو الشخص موضوع الغرام.

الصداقة والعلاقة عند «أبي حيان»

يقول «أبو حيان»: إن الصداقة أذهب في مسالك العقل، وأدخل في باب المروءة، وأبعد عن نوازي الشهوة، وأنزه عن آثار الطبيعة، وأشبه بذوي الشيب والكهولة، وأرمى إلى حدود الرشاد، وآخذ بأهداب السداد، وأبعد من عوارض الغرارة والحداثة.

فأما العلاقة فهي من قبيل العشق والمحبة، والكلف والشغف، والتتيم والتهيم، والهوى، والصبابة، والتدانف والتشاجي.

الصداقة عندنا، والغرام عند «تاالليران»

يقول «تاالليران»: إن الغرام حقيقة في محيط الخيال؛ ونقول نحن: إن الصداقة حقيقة في محيط الحقيقة.

الصداقة والغرام عند «لابريير»

الصداقة وقف على الممتازين؛ أما الغرام فهو لكل الناس. الصداقة تولد تدريجًا؛ أما الغرام، فيحدث فجأة. الصداقة يقوّيها الوقت؛ أما الغرام فإنه يضعف بمرور الزمن. الصداقة تحتاج إلى مدد متجدد؛ أما الغرام فإنه يعيش على نفسه. الصداقة حدث نادر؛ أما الغرام فأمر مألوف. الصداقة تصرف عن التفكير في الغرام، كما أن الغرام يؤدي لإهمال الصداقة. في الصداقة نرى الخطأ الذي يمسّ الصديق؛ أما في الغرام فنرى الخطأ الذي يمسّنا. الصداقة تخاطب السامي وحده؛ أما الغرام فيخاطب السامي والوضيع في طبيعتنا. الصداقة مترفعة؛ أما الغرام فتشوبه البهيمية، الصداقة للصفوة؛ أما الغرام فلكل الناس. الصداقة تنفّذ وعودًا لم تقطعها؛ أما الغرام فليس فيه أمان. الصداقة تتحاشى الإفصاح؛

أما الغرام فيحب الإطناب. الصداقة تودع ذهبها في خزانة من فضة؛ أما الغرام فيعرض رصاصه أو ماسه في خزانته المذهبة. الصداقة سرعان ما تصفح؛ أما الغرام فيلتمس سوء التفاهم؛ الصديقان يظهران على حقيقتهما؛ أما العاشقان فإن كلاً منهما يحب ما يتخيله في صاحبه. خيبة الصداقة تزعزع إيماننا بالإنسانية؛ أما خيبة الغرام فإنها تشفى فجأة. وأننا في الصداقة قلما ننخدع؛ أما في الغرام فمن الطبيعي أن ننخدع. الصداقات التي لا يقبلها العقل قليلة؛ أما الغراميات التي ينكرها العقل فهي كثيرة. الصداقة يتعذر تصور انقضائها؛ أما الغرام فسهل اشتعاله صعب استمراره. الصداقة من متطلبات نبل النفس؛ أما الغرام فمن مطالب أبهة النفس. الصديق يغار لأجل صديقه؛ أما العاشق فيغار لأجل نفسه. الصداقة قد تقتلها أكذوبة؛ أما الغرام فقد تقضي عليه حقيقة. الصداقة تشبه موسيقى الحجرة؛ أما الغرام فيشبه الأوبرا. الصداقة تجعلنا نسيطر على الدنيا؛ أما الغرام فيصرفنا عن الدنيا. الصداقة قوة؛ أما الغرام فقوة وضعف. الصداقة تحتاج إلى التكهن؛ أما الغرام فيحتاج إلى التصديق. الصداقة لا تفارقها الكياسة أبدًا؛ أما في الغرام فقد يختفي الحفز. الصداقة تبدأ بحياء أكثر؛ أما الغرام فيبدأ بحياء أقل.

الصديق يحتاج إلى الفهم؛ أما العاشق فيفتقر إلى التصديق.

الصداقة والغرام عند «فاجيه»

ومن رأي «فاجيه» أن الصداقة انجذاب القلب والشعور والإدراك؛ أما الغرام فانجذاب القلب. الصداقة تنمو وحدها؛ أما الغرام فيحتاج للتجديد.

الصداقة تصير عادة؛ أما الغرام فلا يبرح بحاجة للتغذية المستمرة. الصداقة تزيدها المتعة؛ أما الغرام فتضعفه المتعة. الصداقة تزيد الاحترام؛ أما الغرام فإنه ينحّي الاحترام.

الصداقة والغرام عند «أندريه مورِوا»

الصداقة تستلزم إخلاصًا هادئًا؛ أما الغرام فيختفي أمام الإخلاص. الصداقة ثقة ومشاركة؛ أما الغرام فرغبة في إدخال السرور. الصداقة صفاء هادئ؛ أما الغرام فخوف مستمر.

الصداقة والغرام عند بعض الأدباء

الصداقة تغمض العينين؛ أما الغرام فمكفوف البصر. الصداقة لا تطلب مقابلاً؛ أما الغرام فيقتضي المقابل. الصداقة الحقيقية شديدة الندرة، أما الغرام الحقيقي فنادر. الصداقة سخية سمحاء؛ أما الغرام فشحيح مقتر. الصداقة روح واحد؛ أما الغرام فجسد واحد.

الكتاب الثالث

انْعِقَادُ الصَّدَاقــة

البـــاب الأَوَّل

اختيار الأصدقاء؛ وعددهم

الفصل الأوّل
اختيار الأصدقـــاء

المبحث الأول
الاختيار في الطفولة الباكرة

التشابه المادي

يتوقف انعقاد الصلة بين الأطفال الصغار على الظروف غالبًا، وكلما تقدمت سنّ الطفل اختار أصحابه في نطاق تكوينه وحاجاته.

وقد دلت الدراسات العلمية بوضوح على أن الأطفال يترابطون بتشابههم لا باختلافهم؛ فإذا التقى أطفال لأول مرة، فسرعان ما ينقسمون شعبًا تبعًا لأسنانهم، فيلعب الأطفال الصغار معًا؛ الأطفال من سن السادسة مع الأطفال من سن السادسة، والأطفال من سن التاسعة مع الأطفال من سن التاسعة، وهكذا؛ وكلما نما الأطفال زاد ميلهم إلى اختيار أصدقائهم في حدود عام من سنهم الزمنية.

ويختار الطفل عادة من شعبة عمره الزمني، أصدقاء في سنه العقلية تقريبًا؛ كما أن أطفال الشعبة المتميزين بقوة أجسادهم، وفرط نشاطهم يميلون إلى الترابط معًا؛ ويلعب أقوياء البنية معًا، وضعافها معًا. ومع ذلك، فإن الأطفال المثاليين في نضجهم يستطيعون اختراق هذا النطاق؛ فالطفل المرتفع مقياس الذكاء، المتفوق صحيًّا، يصاحب أولادًا يكبرونه بسنة أو اثنتين؛ على حين إن الولد الضئيل المتخلف الذكاء، يصادق أولادًا دونه بسنين.

الصقب والجوار

تتم كل الارتباطات في دائرة من يعرفهم الطفل، فالصقب أو الجوار يكون دائمًا عاملاً أساسيًّا؛ إذ يختار الطفل الصغير صاحبه الحميم من سكان نفس المبنى الذي يقطنه، لا من المبنى المجاور؛ لأن أطفاله أدنى إليه، وهو يراهم بغير مشقة. ويتخذ الأطفال أصحابهم عادة من أبناء فرقهم المقاربين لهم في النمو.

الصداقة الشخصية

فإذا انتهت فترة الطفولة الأولى، اتخذ الطفل أصدقاء شخصيين تكسبه صداقتهم خبرة نفيسة، وتعلمه الارتباط بالآخرين، كما يميل الطفل في هذه الفترة أن يكون فسيح الأفق، لا يكاد يتحامل على الأطفال المنتمين إلى غير جنسه أو جنسيته أو عقيدته.

ما يعجب الطفل في صاحبه

ويكون الطفل قبل المراهقة مرنًا شيئًا في صداقاته، وهو عادة يصادق المرِح، الرقيق، الكريم، الشريف، المؤدب، المُجَامِل، المعتدل المزاج.

ويغلب أن تكون للشجاعة والإخلاص قيمة كبرى عند الأطفال بين الخامسة والثانية عشرة، وإن الطفل ليقطع صداقته بالأطفال الكاذبين، الماكرين، الغادرين؛ وبالمشاغبين، المشاحنين، الصخّابين، وبالغرورين الراغبين في السيطرة؛ وبالسخفاء، وغير المتعاونين.

والمشاهد أنه كلما كبر الأطفال تزايد تفضيلهم للمتصفين بالاستقامة، القادرين على تحمل المسؤولية. وقد تبين أن الأطفال يؤثرون بمودتهم لذاتهم المتعددة نواحي امتيازهم، من حيث صحتهم، وحيويتهم، واتزانهم، وابتكارهم، وشجاعتهم، ومقدرتهم على التكيف؛ وكثيرًا ما يكون الطفل المجامل المهذب الجذاب، محطًّا لأنظار سائر الأطفال.

مدى دوام صداقة الأطفال

وقد نوه «طومسون» في كتابه: «سيكولوجية الطفل» بأنه درس و«أوستين» القاعدة المميزة التي اختار على أساسها أربعمائة طفل من السنة السادسة أحسن أصدقائهم، ثم استبقوهم أو تخلّوا عنهم بعد فترة أسبوعين؛ فظهر أن ٤٠٪ من الأطفال لم يحدثوا أي تغيير في اختيار أحبّ أصدقائهم الثلاثة، وغيّر ٥٪ منهم أصدقاءهم الثلاثة جميعًا، ونحو ٣٨٪ لم يغيروا إلا واحدًا، ونحو ١٦٪ غيروا اثنين من أصدقائهم الثلاثة المفضلين.

المتغيّر المسيطر على صداقة الأطفال

ويبدو أن المقدرة على تخفيف الحاجة الاجتماعية هي أهم متغير يسيطر على اختيار الأطفال، أو تخلّيهم عن أحسن أصدقائهم.

التشابه العقلي

وحين تتألف جماعة الرفاق، وما أسرع تكوينَها، فإن تأثيرها يكون حيويًّا على تشكيل النفس؛ لأن الولد (أو البنت) يبذل كل جهد للاحتفاظ بمركزه كعضو في الجماعة. واختيار الأصحاب يتم عادة في الواقع على أساس التشابه العقلي؛ وقد دلت التجارب مثلاً على أن الأصدقاء الحميمين يتشابهون في الذكاء إلى درجة ملحوظة.

سَلْ عن قرينه

دلت تجارب علم النفس العملي على سلامة ما سجلته الأمثال السائرة من خبرة بني البشر، كقولهم: إن الطيور على أشكالها تقع؛ وشبيه الشيء منجذب إليه؛ وعن المرء لا تسأل وسل عن قرينه.

والواقع أن طبيعتنا كلها تشترك في الاختيار، وإن خفي عنا التدخل المحتجب لبعض أجزائها. فالأصدقاء الحقيقيون يتقاربون وفقًا للتشابه العميق الذي قد يخفى عن النظرة السطحية.

لذلك ينصح علماء النفس الآباء بتوجيه بعض عنايتهم إلى دراسة جماعة الرفاق، لمجرد معرفة ما صار إليه حال بنيهم؛ عوضًا عن تحويل كل جهدهم إلى تحميل أصحاب السوء تبعة ما يسببه لهم ولدهم المراهق من متاعب؛ فقد أكدت البحوث النفسية إلى حدٍّ كبير أن ثمة علاقة وثيقة بين معالم الشخص، وبين معالم خلطائه وأصحابه، وأصدقائه المقربين.

ولما كان من المُسَلَّم به أن مستويات الذكاء بين الخلطاء متقاربة حتمًا، فإننا إذا عرفنا مقياس ذكاء مخالطي الشخص، أمكننا التكهّن، إلى حدٍّ ما، بدرجة ذكائه؛ وإذا عرفنا طاقة رفاقه الجسدية ونشاطهم، استطعنا أن نستنتج، إلى حدٍّ ما أيضًا، مقدار نشاطه ومدى طاقته.

مسؤولية الوالدين عن صداقات أولادهم

كما يلقي علماء النفس على الوالدين تبعة إعداد أولادهم قبل المراهقة، ليحسنوا اختيار أصدقائهم، وإلا أفلت زمامهم من يدهم؛ لأن الطفل إذا بلغ سن المراهقة، أبدى مقاومة مدمرة لكل ما يبذل لتقويم انحراف ذوقه، في اختيار أصدقائه.

المبحث الثاني

اختيار تلاميذ المدارس الثانوية؛ وطلبة الجامعات

المطلب الأول: تلاميذ المدارس الثانوية

اتساع نطاق الاختيار

لا يعود اختيار الطفل في هذه المرحلة مقصورًا على جيرانه وحدهم؛ بل يوزع صداقاته بالتساوي بين زملاء المدرسة، وبين من يتخذهم أصدقاء بسبب الجوار، وعن طريق الاتصالات المنزلية.

تأثر الاختيار بالاتجاهات الاجتماعية

كما يبدأ ظهور الاتجاهات الاجتماعية في تكوين الصداقات، فإن الولدين لا يتصادقان فقط بسبب اشتراكهما في لعب كرة السلة، أو في الرحلات الخلوية؛ ولكن لأنهما يلتقيان في مستوى الوالدين الاجتماعي والاقتصادي، وفي مظهرهما واتجاهاتهما، وما يرتضيانه، أو على الأقل ما يتقبلانه.

المطلب الثاني: طلبة الجامعة

التشدد في تحري تكافؤ السمات

لا يختلف مقياس اختيار طلبة الجامعة لأصدقائهم عنها في مرحلة الدراسة الثانوية، إلا من حيث تشددهم في تحري تكافؤ السمات الاجتماعية والأخلاقية، وحرصهم على أن يكون التماثل بين الصديقين أبرز من التباين، وأن يزيد تشابههم في الدوافع والرغبات والمصالح والاتجاهات، والميول والأخلاق والمقاييس، وتقاربهم في الآراء والأذواق، وفيما يحبان أو يكرهان من الألعاب والهوايات، وفي درجة العناية بالرياضة، والاهتمام بالمظهر وأناقة الملبس، ومبلغ الحرص على الاختلاف إلى دور العبادة، والتفوق في الدراسة.

شبيه الشيء منجذب إليه

وقد أثبتت التجارب التي أجريت على شباب الكليات الأمريكية والإنجليزية، أن المنبسطين نفسيًّا يصادقون المنبسطين، كذلك يتخذ المتحرجون، والمثابرون واللّبقون أصدقاء لهم نفسُ صفاتهم.

كما ظهر أن الطلبة الإنجليز المتصفين بالمواظبة وخلوص الطوية، يصادقون أشباههم، أو من يكونون على نقيضهم؛ ولعل الأصدقاء المتباينين يصلحون أمثلة للتكامل. ولعلنا واجدون قريبًا في بحوث علماء النفس المصريين وتجاربهم ما يزودنا بمعلومات جديدة من جامعاتنا المصرية.

المبحث الثالث

الاختيار في محيط الراشدين

المطلب الأول: حرية الاختيار

دخل إرادتنا في نشوء الصداقة

الصلات بين الناس متعددة الأنواع والدرجات والأسماء، فثمة روابط لا دخل لإرادة المرء في اختيار طرفها الآخر، كالأبوة والأمومة والبنوة والأخوة والقرابة؛ وعلاقات تكاد تكون اختيارية كالزوجية أحيانًا، والصداقة عادة.

لذلك قيل بأن القدر يصنع الأقرباء؛ أما الصداقة فوليدة الاختيار. كما قيل بأن الأصدقاء، أقرباء يصنعهم الإنسان لنفسه.

مدى حريتنا في الاختيار

ومع ذلك، فإن اختيار الصديق ليس مجرد قرار نصدره بصدد شخص بعينه، أنتخذه صديقًا أم نصرف عنه النظر إلى من هو أصلح منه للمصافاة، وأولى بالمودة والمؤاخاة. ذلك أن الصداقة وإن بدت وليدة الإرادة والاختيار الحرّ، فإنها كغيرها من أحداث الحياة خاضعة لظروف كثيرة قد لا نكون أمامها أحرارًا بالقدر الذي نتصوره؛ فتعترينا الصداقة أحيانًا كالنعاس من حيث لا نتوقعها، فإذا جاءت حمدنا حسن طالعنا.

وقد تناولنا في فصل «أسباب عقد الصداقة» ما ارتآه الفلاسفة والكتّاب القدامى والمحدثون من أن أسباب الصداقة قد تكون أحيانًا روحية إلهية، وما ذهبوا إليه في تفسير الجاذبية الخفية بين الأرواح.

الصداقة ليست وليدة اختيار محسوب

ومن رأي البعض أن الصداقة فوق المنطق، وأنها ليست وليدة الاختيار المحسوب؛ وأننا نحن لا نختار الأصدقاء، ولكنهم يختارون أنفسهم، وأن الصداقات تنشأ من تلقاء نفسها، وأن كل امرئ قد أوتي قدرة إلهية، تلهمه اصطناع الأصدقاء، وأن عليه أن يترك لهذه القدرة تحديد من عساهم أن يصيروا أصدقاءه. وإننا كثيرًا ما نهتدي إلى صديق بغير أن نعنّي نفسنا بالبحث عنه بمصباح «ديوجينيس»، وكأن المولى سبحانه هو الذي هدانا إليه، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا، ومن هذا القبيل الصداقة من أول نظرة، فهي وإن بدت مشوبة بطابع الاندفاع وعدم التبصّر، فإن من الناس من يتصورونها تجديدًا لعلاقة توطدت في وجود سابق.

المطلب الثاني: أهميـــة الاختيـار

خطوة حاسمة

اختيار الصديق خطوة حاسمة في مرحلة الصداقة، يتوقف على حسن اتخاذها وسلامة اتجاهها مصير الصداقة في مستقبل أيامها؛ كما يترتب عليه استمتاعنا بحياة سعيدة صافية.

مدى تحري الكمال

ومن الناس من لا يرضيهم في صديقهم إلا أن يكون كاملاً خاليًا من أي نقص، فهم يستبعدون كل من ألمّت به شائبة مهما تكن تافهة بالنسبة إلى امتيازاته الحقيقيّة، وإنه لحرِيّ بمثل هؤلاء أن يحرموا رؤية المزايا العظيمة، بما يضعون على عيونهم من مضيّقات لمجال الرؤية، تجسم لأبصارهم أتفه العيوب، وتحجب عنهم بهاء الشخصيات الجليلة المتألقة.

ومع أنه يجب أن لا نرضى بالكمال السطحي، بل نتحرى في أصدقائنا التفوق المثالي، فإن علينا أن ننظر أولاً في الجوهري؛ أما النقائص فإنما نزنها في ضوء ما تكشّف لنا من الجوهري في مميزات صاحبنا؛ فإن كانت نقائصه مآخذ سطحية لا يقام لها وزن بجوار محامده ومزاياه، فلعلنا واجدون في بعضها ما يسحرنا ويخلبنا ويزيدنا ارتباطًا به. بل لعلنا مستطيعون أحيانًا أن نغض الطرف عن بعض النقائص الحقيقية القليلة الأهمية.

أما النقائص التي تبدو دليل انحطاط عام، فهي خليقة أن تجعلنا نستبعد الشخص ونقصيه، ونربأ بأنفسنا عن أن نؤاخيه؛ لا سيما ونحن نعلم أن سمعتنا تتوقف على اختيار أصدقائنا.

عاقل غير كريم، وكريم غير عاقل

وقد تناول «ابن المقفع» هذا المعنى في «الأدب الكبير» فقال: ثق بذي العقل والكرم واطمئن إليه، وواصل العاقل غير ذي الكرم، واحترس من سيئ أخلاقه وانتفِع بعقله. وواصل الكريم غير ذي العقل وانتفِع بكرمه وانفعه بعقلك؛ واهرب من اللئيم الأحمق.

يجمع بين العقل والجهل

كما قال «محمد بن كعب القرظي» لـ «عمر بن عبد العزيز»: إن فيك لعقلاً، وإن فيك لجهلاً، فداوِ بعض ما فيك ببعض. ولعل هذه المقولة تصلح في معاملة الشخص لصديقه، بقدر ما تصلح في معاملته لنفسه.

سلاطة المتزمتين

إن «شيشرون» ليضيق بالجنس البشري، فينعى على غالبيته مجافاتهم للمعقول، بل تبجحهم؛ إذ يتطلبون أن ينصاغ أصدقاؤهم في قالب أكثر كمالاً من القالب الذي يستطيعون هم أنفسهم أن يطيقوه أو يحاكوه.

إعداد النفس للمصادقة

وهو يحض على أن تبدأ بنفسك فتكتسب التفوق الخلقي المميز للشخصية الفضلى، ثم تلتمس بعد ذلك الزميل الذي تعكس صفاته الطيبة الصورة الحقيقية لصفاتك.

الاختبار قبل الاختيار

وقديمًا قال «أرستيب» (القوريني؛ الفيلسوف اليوناني ومؤسس مذهب اللذة): يستحق اللوم كثيرًا، من يهتمون في البيوع العادية بقرع الآنية التي يرغبون شراءها، على حين يتساهلون في تمحيص سلوك من يتطلعون إلى أن يعقدوا معهم علاقات.

ويقول «أبيقور»: يجب أن نتحرى عمن نؤاكلهم ونشاربهم، قبل أن نتعرف الأشياء التي نأكلها أو نشربها.

ويأخذ «شيشرون» على الناس أنهم يبذلون جهدًا كبيرًا في اختيار ماشيتهم، لاستكشاف العلامات المميزة الدالة على صفاتها المرغوبة؛ في حين قلما يبذلون في اختيار الأصدقاء عناية كافية لتمييز الشارات الخلقية، الدالة على المؤهلات اللازمة لتكوين صديق.

وجاء في رسائل «إخوان الصفاء»: ينبغي إذا أردت أن تتخذ صديقًا أو أخًا، أن تنتقده كما تنتقد الدراهم والدنانير، والأرضين الطيبة التربة للزرع والغرس، وكما ينتقد أبناء الدنيا أمر التزويج، وشِرَى المماليك، والأمتعة التي يشترونها. واعلم أن الخطب في اتخاذ الإخوان أجلّ وأعظم خطرًا من هذه كلها.

الاختيار العفوي

وقد يصطنع البعض صديقًا، أو يحاول اتخاذه، لمجرد أنه يجاوره في السكن، أو يزامله في العمل، أو يرافقه في ركوب مواصلة معينة، أو لأي سبب تافه مماثل؛ وإن مثل هذا الاختيار خليق أن لا يتمخض عن صداقة أصيلة، وإن كانت له من الصداقة صورتها وشبهها.

خطر الاستحسان السابق على عقد الصداقة

يقول «شيشرون»: ولكن عملية الاختيار لا يمكن استكمالها حتى تكون رابطة الصداقة قد أبرمت؛ فإن الوجدان قمين أن يسبق الحكم، فيعطل عملية الاختيار.

لذلك يكون من الحصافة أن نكفّ غرب الاستحسان السابق على عقد الصداقة، فلا ننقاد إلى صديق جديد، حتى نكون، إلى حدٍّ ما على الأقل، قد وضعنا مؤهلاته الخلقية تحت الاختبار، وأن لا نتسامح في ترك العاطفة تتمكن من قلوبنا، قبل أن يكون لصدق الحكم وقت للتدخل؛ لأنه ما من ظرف في حياتنا يمكن أن يؤدي إلى نتائج أذرع فتكًا

من اختيار سريع بغير تدبر. وإنه لمن الحق أن نمتنع عادة عن التدبر، فلا تلبث، بعد أن تكون الصداقة قد تكونت بحكم العادة، والخدمات التي تبودلت، أن تظهر للعيان هفوة تؤدي إلى انهيار علاقة عقدناها متهورين.

المصارمة قبل الاختيار

أما من دل الاختبار على عدم صلاحيتهم، فقد وجبت تنحيتهم، ومجانبة طريقهم؛ لأن «مصارمة قبل اختيار، أفضل من مؤاخاة على اغترار».

المطلب الثالث: صعوبة الاختيار

اختيار الأصدقاء فنّ

ولكن إذا كان على الإنسان واجب اختيار أصدقائه، فليس في مقدور كل امرئ أن يحسن الاختيار؛ ويقول «سقراط»: إن اختيار الأصدقاء فن، وإنه قد أوتي هبة اختراق النفوس؛ وهو يوصي بأن لا ننفرد بالاختيار، وأن نشرك معنا مستشارًا حكيمًا ماهرًا، بل ينصح باستشارة الآلهة للتأكد من سلامة اختيارنا.

وقد جاء في «رسائل إخوان الصفاء»: إن من الناس من لا يصلح للصداقة والأخوة والمقاربة أصلاً ألبتة. فانظر من تصحب وتعاشر، ولا تغتر بظاهر الأمور من غير معرفة بواطنها، ولا بحلاوة العاجل من قبل النظر في مرارة عاقبتها، فإذا أردت اتخاذ أخ أو صديق فاعتبر أولاً أحواله، واختبر أخلاقه، وسله عن مذهبه واعتقاده، وانظر في عاداته وسجيته وشمائله وحركاته، فإنه لا يخفى على المتفرس بواطن الأمور إذا نظر إلى ظواهرها.

أولاً: الاستعانة بالفراسة

الفِراسة في خدمة الاختيار

ثمة أشخاص أوتوا من نفاذ البصيرة ما يتوسّمون به سيما أهل الفضل على وجوههم؛ فهم يخترقون نقائص الناس ويستشفون الجوهر المحجوب خلف ستار من عرض.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: اتقوا فراسة المؤمن، فإنه يرى بنور الله. وأنه قال: لو أن مؤمنًا دخل مجلسًا فيه مائة منافق، ومؤمن واحد؛ لجاء حتى يجلس إليه.

احتفال الناس بالمظاهر

ومن طريف ما صادفناه في هذا الباب رأي «هازليت» في أن دلالة ملامح المرء على أخلاقه، تفوق دلالة أقواله وفعاله، وأن البشر يستهدون غالبًا بالمظاهر، وإن أبدوا أنهم لا يعتدّون بها.

لا حيلة لامرئ في ملامحه: ذلك بأنه لا حيلة للمرء في هيأته ومعارفه، وإن استطاع التحكم في نطقه وملافظه. وربما ظلت حياة الشخص خافية عليه وعلى الناس حتى يرسم له فنان كبير لوحة تسجل على القماش حقيقة خليقته، وتكشف للخلق خافي سريرته. فثمة شخصيتان حار الناس في أمرهما، هما «شارل الخامس» الملقب بالعادل، والحكيم؛ و «لويولا» مؤسس جماعة اليسوعيين، فإن في وسع من يشاهد لوحتي «تيتيان». أن يحكم عليهما من فوره، وأن يصدق في حكمه. وحسبنا أن نعرف أن الوجه يدل على ما شعرنا به وفكرنا فيه، أما ما عداه فلا اعتداد بظاهره أو خافيه.

وهو يقول: إن في وسعه أن يكوّن فكرة عن الشاعر الإنجليزي «دون» من رسم له طامس ملحق بديوانه، تفوق الفكرة التي يستخلصها من أي قصيد دبجته براعته.

أمارات البلاهة: وإنه ليستشهد بصديقه «فوسيت» وكان سيئ الرأي في اللثغ، حتى إنه قال: لو أن السير «إسحق نيوتن» نفسه كان ألثغ، لما لقي مني أي تقدير؛ إذ كيف يسعني الاقتناع بعظمة شخص تبدو عليه أمارات البلاهة.

صدق الانطباعات الأولى: يغلب أن نتبين صدق انطباعاتنا الأولى، التي عفّى على أثرها تأثرنا بالخلابة، والأساليب الجذابة؛ بعد أن نكون قد دفعنا ثمنًا غاليًا لغفلتنا، ومغالبة فطرتنا.

إن ملامح المرء هي من صنع السنين ووسمها، ومن نقش الطبيعة ورسمها، بحيث يصعب محوها أو طمسها. وقد يحدث أن نلقى الشخص لأول مرة، فيشعرنا شيء في مظهره بوخزة غريبة، نتجاوز عنها متأثرين بظروف عديدة أخرى؛ حتى إذا ارتفع القناع تجلت لنا في النهاية الحقيقة في أبسط صورها.

وقد يصدمنا أولاً، وبالصدفة ما نجده فيه من غريب أو مميز، كما تروعنا السمات المستديمة والأثر العام؛ ولكن الصدمة لا تلبث أن يزول أثرها فيما بعد في مجموعة من تفصيلات عادية عديمة الدلالة.

إن دليل أول وهلة خليق إذن أن يظهر ماهية الإنسان، فوق ما تبديه أقواله أو أفعاله؛ لأنه يكشف لنا عادة عن عقليته التي لا تغيّر منها الظروف، ولا يجدي معها التظاهر. ذلك بأن انطباعتك الأولى بالصورة التي يبدهك بها شخص عن نفسه، تقارب شعوره هو

بشخصيته، وهذه الصورة عن نفسه، المنبثقة من أفكاره، والمخيمة على ملكاته، هي التي تجالسه في الدار وتماشيه في الطريق وتأوي معه إلى مخدعه.

لا غناء في التصنع: وثمة شخص ربما توقدت عبقريته أحيانًا، ولكنه يبدو إذ ذاك نصف ميت إن لم يثره أمر غير عادي؛ يستجلب الذكاء حين يريد، ولكن تنقصه الحياة والروح. وإنه لقادر على المكارم الكبار، ومع ذلك فكل حركاته يشوبها الصغار. أحسن أجزاء وجوده متبلد قاتم بلون الرصاص، ومضات النور المنبعثة منها قد تبهر غيره، ولكنها لا تخدعه. ينم اتضاعه عن اعتراف بالنقص، ومن يخفض قدر نفسه فقد حق للناس أن ينتقصوا من قدره.

المظهر المنفّر: من الأشخاص من لا نحبهم، وإن لم نجد عليهم مأخذًا مع طول عهدنا بهم، إلا أن مظهرهم كله ضد مصلحتهم؛ فقد يكونون على طريقتهم من أحسن الناس طرازًا، ولكن ثمة شيئًا يلمّ بهم؛ برودة، أنانية، رعونة، عدم إخلاص؛ أشياء يتعذر علينا أن نعزوها إلى كلمات معينة قالوها، أو أعمال محددة اجترحوها؛ ولكنها ترين على جماع شخصيتهم، نراها في أسلوب وقوفهم، وطريقة مسيرهم، ولا نكاد نجد سبيلاً آخر لاستبانتها لفرط انصبابهم على إخفاء هذا النقص بكل وسيلة في مكنتهم.

قد يكون ثمة ضرب من الاستبصار في الأخلاق، يتيح لنا تمييز الدلائل الخافية للمزاج والعادات قبل ظهور آثارها المحسوسة.

ثانيًا: التزام التريث والتؤدة

التريث والتؤدة

لا تحمدن امــرأً حتى تجربه ولا تذمنّه من غيرِ تجريبِ
فحمدُك المرءِ ما لم تبله خطأً وذمُّك المرءِ بعد الحمدِ تكذيبُ

وأول ما أجمع عليه أهل الرأي هو التزام التريث والتؤدة والتدبر ومجانبة الاندفاع، فهم يحذّرون من سهولة التعارف ويحضّون على التوقي من الانخداع بالمظاهر الأولى للأشياء، ولا يرضون في اختيار الصديق بأقل من الجهد الذي يبذل في انتقاء الزوجة، لكي تظل الصداقة قائمة إلى أن يفرّق الموت بين الصديقين.

وجاء في سفر «الأمثال» لـ «ابن سيراك»: إن أردت الحصول على صديق، جربه أولاً، ولا تتعجل في ثقتك به؛ لأن من الناس من هو صديق لمناسبة، ولا يدوم في يوم الضيق. ثمة صديق مؤاكل، لا يستمر إبّان بليّتك، ولكنه يكون في سرائك صنو نفسك، شديدًا على خدمك؛ فإذا تدهورت وقف ضدك، أو توارى من وجهك. وثمة صديق إذا انقلب إلى العداوة والخصام يكشف مثالبك.

اتقاء سحر الصداقة الوليدة

والصداقة عهد، المرء حرّ في عقده، ولكن من واجبنا أن لا نضطر إلى سحب ثقتنا؛ بل علينا أن نحسن وضعها؛ لأن التوفيق في اختيار الصديق يتوقف عليه الإخلاص والأمن، ودوام العلاقات.

وكلما كان الاختيار رصينًا، زادت صعوبته؛ لأننا نرحب بتقبل الصداقة السانحة، ونود لو أننا لا نضطر لمقاومة وثبة قلبنا؛ ولأن سحر الصداقة الوليدة يحدونا على تذوقها في غير تحفظ.

المغالاة في التحرز

ثم إن المغالاة في التحفظ من موانع قيام الصداقة، كما أن الانقياد لانجذاب القلب قد يؤدي إلى سوء الاختيار. لذلك يرى الكثيرون أن خوف الخطأ يجب أن لا يمنعنا من الارتباط والإذعان للجاذبية، وأنه خير لنا أن نحتمل نصيبنا من الخطأ، من أن نمتنع عن اتخاذ الأصدقاء؛ لأن الصداقة، وإن كانت من أعمال الحصافة الممتازة، فإنها مصادفة سعيدة، وهي كما يقول الرواقيون من الأشياء التي تتوقف علينا، وهي في نفس الوقت لا تتوقف علينا، إنها من صنعنا، ومن صنع الظروف في وقت معًا.

ثالثًا: التحرز من المغريات

١- فتنة المظهر الخارجي

لا تركن إلى ذي منظرٍ حَسَنٍ ... فربَّ رائعةٍ قد ساء مخبرُها

ما كل أصفر دينار لصفرته ... صفرُ العقاربِ أرداها وأنكرُها

كثيرًا ما نتأثر في اختيار أصدقائنا بالثروة والذكاء والعبقرية والجاذبية الشخصية؛ في حين يجب علينا أن نضع نُصبَ أعيننا وفي المحل الأول قيمتهم الأخلاقية؛ لأن مرجع الصداقة كما يقول «أرسطو»، إنما هو الفضيلة، التي لا يمكن أن تقوم صداقة حقة إلا في ظلها.

٢- فتنـــة الملـــق

أخطر مزالق الاختيار

الملق البارع أخطر مزالق الاختيار، حتى لقد عُني القدامى بالتحذير من المتملقين، ووضع «بلوتارك» مؤلفًا يقول فيه: إن المملّق يوحي بتوهم صداقة صورية، بأن يأخذ من الصداقة بظاهرها، وينتحل مميزاتها. وهو يخفى علينا؛ لأنه يسرّنا، ويمدحنا، ويجاملنا؛ فيأسرنا، ويتغلغل في صميم عواطفنا. وهو يحسن محاكاة الصداقة، ولا يفوته حتى التذرع بالصراحة واللجوء إلى التصدي.

الملق فنّ غير النفاق

والملق كما يتمثله «بلوتارك» فن لا علاقة له بالنفاق، وقد ضرب له مثلاً بلاط الطاغية السيراقوسي أيام «أفلاطون»، وكيف أن المملّقين اطّرحوا اللهو مجاراة للنزعة العلمية التي اعترت أميرهم، فأقبلوا على الطباشير يرسمون به الأشكال الهندسية وزوايا «أفلاطون» القائمة، حتى عجّ القصر بغبارهم. ولما كان الطاغية ضعيف البصر، فقد اصطنع المملّقون ضعف البصر، متظاهرين بالوقوع بعضهم فوق بعض، تاركين الصحاف تتهاوى من المائدة.

وكان من تلاميذ «أفلاطون» من يقوّس ظهره محاكاة لظهر المعلم الأحدب؛ كما تلاكن من قبل تلاميذ «سقراط» تشبهًا بأستاذهم.

طريقة فضح المتملّقين

وقد حرص على التبصير بالفرق بين المملّق والصديق، رحمة بالناس من الوقوع في حبائل الملق، فالصديق يترك لصديقه نقائصه لا يحاكيها؛ أما المملّق، فإنه يحاكي الجوانب الصغيرة والخسيسة فيمن يملقه، بما فيها نقائصه ورذائله وانحرافاته.

المديح لغة الملق

والمديح لغة المتملق العادية، والمملق لا يلجأ إلى الصراحة إلا لمامًا على سبيل التغيير؛ وقل من لا يصدّق المديح المستمر الذي لا يفتر، ولا سيما إذا كان موجهًا إلى شخص الممدوح لا إلى فعاله.

خدمات المملّق واهتماماته

وإن المملّق ليبدو سبّاقًا لأداء خدمات تفوق ما يسديه الصديق، فهو لا يهمل أبدًا الاهتمامات الصغيرة؛ النظرات والضحكات، وضغط اليد، والاحتجاجات، أما الصديق فأقل حمية، أو لعل حميته أكثر رصانة؛ والمملق يسرف في وعوده، فهو مستعدّ لأداء أي أمر، بخلاف الصديق فإنه لا يصنع إلا ما يليق به صُنعه في حدود الفضيلة والأخلاق. والمملّق إمّعة لا ينتحل لنفسه رأيًا خاصًا، بل يردد كلام صاحبه وأفكاره.

طبيعة خدمات المملّق وأسلوبها

ويمكن تمييز المملّق من طبيعة الخدمات التي يوليها، وأسلوب أدائها، فعلى حين يترك الصديق صاحبه جاهلاً بأياديه وما يسديه؛ فإن المتملّق يعدو ويصيح ويتجهم، مع أن

خدماته خالية من المشقة، والتضحية، لا تعرضه للمخاطر ولا تكلفة نقودًا، ولا تعدو أن تكون مجاملات رخيصة.

الملقون نمامون

لا يطيق الملّقون الأصدقاء الحقيقيين، بل يسعون سرًّا في إقصائهم، ويمشون بالنميمة بينهم وبين أصدقائهم.

ضعفنا بإزاء متملقينا

ويقول «هازليت»: إننا كثيرًا ما نختار الصديق كما نختار الخليلة، لغير امتياز خاص في أيهما، بل لمجرد وجود ظرف يملق حبنا لأنفسنا.

حذار ممن يزيدون زهونا

يجب أن لا نختار الأصدقاء متأثرين بملقهم، بل أن يكون الطراز الذي نقدره هو الاستقامة التي تواجه الحقيقة، أما الألفة التي تزيد الزهو، فإنها تقضي على الصداقة.

٣- فتنــة المــال

يخشى الأخلاقيون تضليل متاع الحياة الدنيا، فينهون عن أن يتأثر المرء بالمال فينقص أو يزيد تقديره لنفسه أو لغيره، تبعًا لما يملكه، قل حظه منه أو كثر؛ لأن الفضيلة هي السبب الحقيقي للاحترام، ولا سبيل بغيرها إلى حسن الاختيار.

وإنهم يحضون على أن نختار أصدقاءنا لأخلاقهم، ولطبيعتهم، ولصدقهم، ولجدارتهم بالثقة، ولأنهم يشاركوننا مشاركة وجدانية في أسمى أفكارنا، وأقدس أمانينا؛ فإنما تؤسس الصداقات الباقية على مثل هذا الاختيار الخالي من شائبة الماديّات. يجب أن يكون أساس الصداقة، وحدة الأفكار السامية، والرغبات النقية، والمثل العليا.

المطلب الرابــع: المستبعدون

الانتقاء قبل الاختيار

تقتضي عملية الاختيار أن نعرف في المقام الأول صفات الأشخاص الذين نرغب عن مصادقتهم، فنتجنبهم ونتحاشى الوقوع تحت تـأثير ما يحذقه أكثرهم من أساليب تجتذب النظر إليهم، حتى ليكاد يحسبهم الجاهل فضلاء من تظاهرهم بالصفات التي نرتضيها في أصدقائنا، لولا نظرات صادقة من ضمائرنا، تعيذنا من أن نحسب الشحم فيمن شحمه ورم.

خطر التغاضي

ومع ذلك، فإن ظروفًا لا قِبل لنا بها قد تحدو بعضنا أحيانًا على الانسياق تدريجًا إلى صحبة من لا تستريح إليهم النفس الطيبة، وغضّ الطرف عما يبدو من مساوئهم، ولا يلبث أن ينخرط غير عامد في زمرة من تخلل التحلل خلقهم، وعار الخلل سلوكهم، وسرعان ما يؤدي تراخيه إلى ترهل أخلاقه وهبوط مستواه الروحي.

صفات المستبعدين

ثمة صفات انعقد إجماع الناس على أن المتسم بها لا يصلح أن يصير صديقنا:

الفاسق: أوصى والد ولده قال: يا بني لا تصحب فاسقًا، فإنه بائعك بأكلة فما دونها. فلما سأله ولده: وما هو دونها. قال: يطمع فيها، ثم لا ينالها.

قاطع الرحم: قال «جعفر الصادق»: لا تصحب قاطع رحم، فإني وجدته ملعونًا في ثلاثة مواضع من كتاب الله.

الشرير: قال «ابن المقفع»: إن الشرير يكسبك الأعداء، ولا حاجة لك في صداقة تجلب لك العداوة.

اللئيم:

اجعل صديقَك من إذا أحببتَـــه ... حفظَ الإخـاء وكـان دونَـك يضربُ

واطلبهم طـلـبَ المريـض شفاءَه ... ودعِ اللئيـــمَ فليـسَ ممن يُصحبُ

يعطيك مـا فـوق المُنَـى بلســـانِه ... ويـروغُ منك كما يـــروغُ الثعلبُ

الخبيث المنحرف المراوغ: ينوه «كونفيوشيوس» بضرر مصادقة الخبيث المنحرف، الملتوي، والشاطر، والمراوغ في الكلام.

الأحمق: قال النبي ﷺ: لا تؤاخ الأحمق، فإنه يجتهد بنفسه لك ولا ينفعك، وربما أراد أن ينفعك فيضرّك. فسكوته خير من نطقه، وبعده خير من قربه، وموته خير من حياته. وقال: صحبة الأحمق شؤم.

وقيل: عداوة الجاهل أقل ضررًا من مودة الأحمق؛ لأن الأحمق ربما ضرّ، وهو يقدر أن ينفع؛ والعاقل لا يتجاوز الحدّ في مضرّته، ومضرة الجاهل ليست بذات حدّ. والحُمْق لا تثبت معه مودة، ولا تدوم لصاحبه استقامة.

الغضوب الساخط: جاء في «أمثال «سليمان»» الحكيم: لا تصحب غضوبًا، ومع رجل ساخط لا تجيء.

الكذاب: قال النبي ﷺ: لا تؤاخِ الكذاب، فإنه لا ينفعك معه عيش، ينقل حديثك، وينقل الحديث إليك، حتى إنه يتحدّث بالصدق فلا يصدّق.

وقيل: لا تصحب الكذّاب، فإنه بمنزلة السراب يقرّب منك البعيد، ويبعد منك القريب.

الجبان: قيل لا تصحب الجبان، فإنه يسلمك ويفر عند الشدة.

البخيل: كما قيل: لا تصحب البخيل، فإنه يطمع بك في مالك أحوج ما تكون إليه.

النفعي: وقيل أيضًا: لا تؤاخِ من تكون منزلتك عنده على قدر حاجته إليك، فإذا قضى حاجته منك، ذهب ما بينك وبينه.

جاحد الجميل، المتهتك، المشاغب: وقال «سقراط»: إنك لا تستطيع الارتباط بشخص متهتك، مفرط، مشاغب، جاحد للجميل.

الجاهل:

ولا تصحب أخا الجهلِ ... وإياكَ وإياهُ

فكم من جاهلٍ أردى ... حليمًا حينَ آخاهُ

وقال «ابن المقفع»: الجاهل أهل أن يهرب منه أبواه، وقيل: من الجهل صحبة ذوي الجهل.

العاطل: يحذر «نيتشيه» من مصادقة العاطلين، ولو كانوا من نظرائنا، لأن البطّال ليس إلا صديق بطالة، وهو إذ لا يعمل شيئًا، فإنه يغار من عملك وينصرف إلى مراقبة ما يعمله سواه في شيء من سوء الطوية. والعاطل نصف متشرد، وهو مزعج.

الهارب من الوحدة: يعتبر «نيتشيه» الصديق ثالث اثنين: الإنسان اثنان، إنه يحادث نفسه دائمًا، والصديق ثالث يقطع المحادثة، ونحن محتاجون إليه؛ لأنه الفلّين الذي يمنع مسبار حديثنا مع نفسنا من الغرق في أعماق الهاوية. ولكن يجب أن لا يكون الثالث مجرد هارب من الوحدة.

الرخيص: يحذر «إيمرسون» من مغبة مصادقة شخص رخيص، حيث لا يمكن أن تكون صادقة. وهو يوصي بالصبر إلى أن تظهر شخصيتك جلية فتبعدك عن متناول العلاقات المزيفة، وتجذب إليك أبكار العالم.

المطلب الخامس: معيار الاختيار

معيارنا في قياس مختارينا

لا غنى لنا عن معيار نقيس به الناس، وشروط تتطلب توافرها في مختارينا، وفكرة واضحة جلية عن الشخص الذي إذا صادقناه هفت قلوبنا وعقولنا بحق إلى مقاربته، والحرص على صحبته.

فما المعيار الخلقي، وما المقياس النفسي للصفات التي نتحراها في أصدقائنا، وما الذي يجعلهم جديرين بمحبتنا، وما مبعث دوافعنا إلى محبتهم.

معيار الأخلاق

ويتطلب «شيشرون» في الصديق الجدير بالثقة، أن يكون وثيق الخلق غير متقلب المزاج، ولا قابل للتغيير؛ صريحًا، طلْقًا، متحكمًا في شهواته، يتحرى العدالة، ويحترم شخصنا.

ويقول «شاند» في كتاب «أسس الأخلاق»: يجب أن نختار قوي الأخلاق؛ لأن الأخلاق الضعيفة لا يمكن أن تكون مخلصة.

ويقرر «واطسون» في كتابه «علم النفس من وجهة نظر سلوكي» بأن التحليل الإحصائي للعناصر التي تدخل في تكوين الصداقة قد دل على أن عنصر الصدق يجيء في المرتبة الأولى، وأن الإخلاص في المرتبة الثانية.

معيار الدين

«سوى خل له حسب ودين،

فذاك لما يقول هو الفعول»—حسان بن ثابت

ينصح الحكماء بمؤاخاة من كان ذا معلاة في الدين؛ لأن تارك الدين عدو لنفسه، فكيف ترجى منه مودة غيره.

الشخصية الساحرة

يستلزم «شيشرون» أن يسرنا صديقنا؛ لأن سحر الحديث والشخصية الجذابة هما توابل الصداقة وأفاويهها. وهو لا يتصور الصداقة بغير البشر والملاحة، أما الأمزجة المتسمة بالوقار الصارم فلا تلائم الصداقة. فنحن وإن اقتضت سلامتنا أن لا نرتبط إلا بالأخيار، فإن مسرتنا تتطلب أن يجمع أصدقاؤنا بين الصفات المكينة والصفات المحبوبة.

وقد استخلص «روبك» من الإجابات التي تلقاها عن أسئلة وجهها إلى بضع مئات من الشخصيات المختلفة؛ العمل، والجنس، والسن، والنوع، والمستوى الاجتماعي؛ أن أول ما يجذب أغلب الناس هو الشخصية السارة، التي تنطوي على صفات منوعة، ويليها صفة الإخلاص، ثم الذكاء العام. وتجيء الاستقامة بعد ذلك.

ومن المؤكد أنه لابدّ من شخصية سارة تستأثر بانتباهنا، ثم طابع الإخلاص الذي يستوقف التفاتنا؛ لأننا إن وجدنا خلف الشخصية السارة تمويهًا أشحنا عنها. فإذا استهوتنا الميزتان إلى المقاربة، كان لابد من توافر الذكاء الكافي في الشخص الذي نقاربه ليكون تفاهمنا مستطاعًا سائغًا.

أما الصدق والإخلاص، أي الاستقامة؛ فهي وإن كانت تأتي بعد هذه كلها، فإنما يتأخر ترتيبها زمنيًّا، لأننا لا نتبينها إلا بعد ابتداء الصداقة وممارستها؛ وليس ألزم للصداقة من الاستقامة فهي عمادها ولبابها.

معيار الكفاءة

ويتطلب «شيشرون» أن نكون نحن أنفسنا جديرين بمن نختاره صديقًا، بحيث يجد فينا مميزات ومواهب وخصائص تجعله يبادلنا نفس التقدير والإعجاب، ومن هنا جاء المثل بأن: «شبيه الشيء منجذب إليه»، وبأن: « الطيور على أشكالها تقع».

وإذن فالمبدأ الذي نضعه نصب أعيننا، ونتخذه هدفًا لحياتنا، ومثلاً نتطلع إلى تحقيقه في أنفسنا؛ هو الذي يحدد طراز أصدقائنا تحديدًا حقيقيًّا، وهو الذي يحمل من يقع عليه اختيارنا على أن يختارنا هو أيضًا في نفس اللحظة وبنفس الرغبة.

معيار الميل

كما يشترط في الصديقين أن يكون لكل واحد منهما ميل إلى صاحبه ورغبة في مؤاخاته، «فإن ذلك أوكد لحال المؤاخاة، وأمدّ لأسباب المصافاة؛ إذ ليس كل مطلوب له طالب، ولا كل مرغوب فيه راغب. ومن طلب مودة ممتنعٍ عليه، ورغب إلى زاهد فيه، كان معنى خائبًا».

قال «البحتري»:

وطلبتُ منك مودةً لم أعطها ... إن المعنى طالبٌ لا يظفرُ

معيار المروءة

روي عن النبي ﷺ: أنه قال من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يُخلفهم؛ فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أُخوته. كما روي أنه قال: إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره دنيّها وسفسافها. وقال «عمر»: لا تصغرن هممكم، فإني لم أر أقعد عن المكرمات من صغر الهمم.

ويقول «الماوردي»: إن المروءة حلية النفوس، وزينة الهمم؛ وهي مراعاة الأحوال التي تكون على أفضلها، فلا يظهر منها قبيح عن قصد، ولا يتوجه إليها ذم باستحقاق.

ومن شرائط المروءة أن يتعفف عن الحرام، ويتصلف عن الآثام، ويُنصف في الحكم، ويكف عن الظلم، ولا يطمع فيما لا يستحق، ولا يعين قويًّا على ضعيف، ولا يؤثر دنيًّا على شريف، ولا يُسِرُّ ما يعقبه الوزر والإثم، ولا يفعل ما يقبّح الذكر والاسم، العقل يأمرك بالأنفع، والمروءة تأمرك بالأجمل. وإن مراعاة النفس على أحسن أحوالها هي المروءة، فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها إلا من تسهلت عليه المشاق رغبة في الحمد، وهانت عليه الملاذّ حذرًا من الذم.

قال «أبو تمام»:

والحمدُ شهدٌ لا يُرى مشتاره ... يجنيه إلا من نقيعِ الحنظلِ

غُلٌّ لحامله ويحسبه الذي ... لم يوهِ عاتقه خفيف المحملِ

وقال «المتنبي»:

لولا المشقةُ ساد الناسُ كلُّهم ... الجودُ يُفقر والإقدام قتّال

كما قال:

وإذا كانت النفوسُ كبارًا ... تعبت في مرادها الأجسامُ

وقال «الحصين بن المنذر الرقاشي»:

إن المروءةَ ليس يدركها امرؤٌ ... ورِثَ المكارمَ عن أب فأضاعها

أمرته نفسٌ بالدناءةِ والخنا ... ونهته عن سبلِ العُلا فأطاعها

فــإذا أصــاب مــن المــكــارمِ خلةً يبني الـكـريم بها المـكـارم، باعها

معيار الإنسانية: ينصح «كونفيوشيوس» باختيار الأصدقاء من الأكثر اتصافًا بالإنسانية بين المثقفين.

العاقل الحي

إذا مـا كـنـت مـتـخـذًا خليـلاً فـلا تثقـنْ بكل أخـي إخـاء

فــإن خــيِّرت بـين الـنـاسِ فالصق بأهـل العقـلِ منهـم والحـيـاءِ

فــإن العقــلَ ليـس لـه إذا ما تفاضلـت الفضائـلُ مـن كفاءِ

الفصل الثاني

عدد الأصدقاء؛ وتجديدهم

«لو عـرف كل امـرئ مـا يقـولـه الآخـر عنه،
لما اتسع العالم كله لأربعة أصدقاء»—باسكال

المبحث الأول

عدد الأصدقاء

ألا إن إخوان الصفاء قليل، فهل لي إلى ذاك القليل سبيل؟—اليزيدي

توقف الكمّ على الكيف

أما وقد فرغنا من الكلام في اختيار الأصدقاء، فلا مندوحة عن مواجهة مشكلة تحديد عدد الأصدقاء الممكن اختيارهم. والواقع أن عدد أصدقائنا يتوقف على طراز ما نتحراه فيهم من صفات ومميزات.

صعوبة الحصول على الصديق

تساءل أحدهم بعد الاطلاع على رسم منزل اعتزم «سقراط» بناءه في «أثينا»: أما كان خليقًا برجل جليل مثله أن يكون له مقر أليق بمقامه. وكان جواب الفيلسوف: إنه ليحسب نفسه سعيدًا لو وجد مسكنه على ضيقه حافلاً بأصدقاء حقيقيين.

أندر ما في الدنيا

يقول «بلو تارك»: إن الصديق الثابت على المودة شيء نادر، وإن الحصول عليه لعسير. ويقول «مونتيني»: إنه أندر ما في الدنيا.

ولعل صعوبة الظفر بالصديق، هي سبب عجز الكثيرين عن التوفيق إلى أكثر من صديق واحد، لا يقرنون به سواه. لذلك قيل: إذا كان لك صديق حقيقي واحد، فقد ظفرت بما يزيد على نصيبك. ومثله: صديق واحد في حياة الإنسان كثير، واثنان أكثر، وثلاثة يكاد يستحيل الظفر بهم.

المطلب الأول: الصديق واحد لا يتعدد

واحد من ألف

جاء في حكم «ابن سيراك» سالم الكثيرين، وليكن لك مع ذلك مشير من ألف.

واحد بألف

ويقول «أنا كارسيس» الذي اعتبر في وقت ما أحد حكماء اليونان السبعة: أن نتخذ صديقًا واحدًا كبير القيمة، خير من أن يكون لنا أصدقاء كُثُر لا يساوون شيئًا.

الصداقات التاريخية واحدية

ويلاحظ «أرسطو» أن جميع الصداقات التي ذاع ذكرها، وأذهل الناس أمرها، كانت صداقات أحادية؛ لأن الصداقة الحقة ميل يتغلب على سائر الميول، ولا يتجه بطبيعته إلا إلى شخص واحد.

صداقة «أبيقور» و «مترودور»

كما خرج «أبيقور» عن فلسفته، فاتخذ «مترودور» صديقه الأوحد.

التلميذ الذي كان السيد المسيح يحبه

وكان للسيد المسيح اثنا عشر تلميذًا، اصطفى منهم واحدًا هو «يوحنا»، حتى لقد أُطلق عليه اسم: «التلميذ الذي كان يحبه»، وقد عهد إليه بأمر السيدة العذراء.

ومما هو جدير بالذكر أن «كريشنا» كان له تلميذ مقرب هو «أدجورنا» أو «أرجون».

حسبي من جميع الورى

ويقول «أبو حيان»:

لم يبقَ مما فاتني كسبُه ... إلا فتى يسلم لي قلبَه
ينأى فلا يفسدُه نأيُه ... عني ولا يسأمه قربُه
يكون حسبي مِنْ جميعِ الورى ... في كلِّ حالٍ وأنا حسبُه

الصداقة الكاملة لا تزدوج

ويفرق «مونتيني» بين الصداقة العادية، والصداقة الكاملة، وهو يسلم بإمكان تعدد الأولى، فقد يستهوي امرأ الجمال في صاحب، والثراء في سواه؛ والسخاء في واحد والحكمة في غيره؛ والأخوّة في هذا، والأبوة في ذاك. وهكذا.

أما الصداقة الكاملة التي تستولي على النفس وتكتسحها مسيطرة على كل كيانها، فلا سبيل إلى ازدواجها، إذ تذيب سائر الوجدانات، وتعفي من جل الالتزامات؛ حتى إني لأفضي إلى صديقي غير حانث، بالسر الذي أقسمت أن لا أكاشف به أحدًا، لأن صديقي ليس سوى شخصي.

ثم إنني إذا اتخذت صديقين؛ أفيسعني أن أحب أحدهما محبتي للثاني، وكيف يستطيعان أن يحب أحدهما الآخر، وأن يحباني بقدر محبتي إياهما. إنه لئن أمكن ذلك لكان أخوة وليس شيئًا فذًّا، متوحدًا.

وهبهما فزعا إلى التماس معونتك في وقت معًا، فإلى أيهما تُهرَع؟ أو أنهما ناطا بك مهمتين متعارضتين، فبأيهما تبدأ؟ وإذا استودعك أحدهما سرًّا يجني الثاني من معرفته منفعة عظمى، فأي سبيل تسلك، أو كيف يسعك التخلص؟

وقال «روبرت هورتون» الممثل الأمريكي المشهور: إنه لم يتخذ أصدقاء؛ لأنه ليس في وسع الممثلين عقد الصداقات؛ وإن لديه شخصين يمكن أن يعدهما صديقين، وهذان يزيدان واحدًا على العدد الذي يستطيع معظم الناس الاعتماد عليه، ويزيد اثنين على العدد الذي يمكن بعض الناس أن يعتدّ به!

واحد من مائة

وقد شبّه كاتب ساخر، الناس بالبطيخ؛ فقال: لا بد من شق مائة، لكي تظفر بواحدة طيبة.

المطلب الثاني: أصدقاء بجانب الصديق الواحد

عجز العلاقة المفردة

ثمة من يرى أن العلاقة المفردة مهما تبلغ درجة سموها لا يمكن أن تستخرجنا من كل جوانب نفوسنا، وهي لا شكّ مشوبة بطبع الغيرة والأنانية. ومهما يكن لبعض العلاقات من صفة فذة تفسدها المشاركة، فإن هذا ليس معناه استبعاد سائر أنواع الصداقات؛ لأن مسرحية الحياة يعتورها الفتور إذا مثلها اثنان فقط، فهي محتاجة على الأقل إلى «كورس».

عيب العلاقة المفردة

ومن علماء النفس من يُشفق في حالة العلاقة المفردة، من تزايد وجدان أحد طرفيها بحيث تمسي مبادلته مستحيلة، أو أن يتطور إلى علاقة صداقة حميمة غير مرغوبة؛ ويوصي باتخاذ صديقين أو ثلاثة أصدقاء على الأقل.

عندما يتخذ اثنان نفس الصديق

ظلت علاقات «استيل» و«تيكل» طيبة زمانًا؛ ولكن تعلقهما الشديد بـ «إديسون» منعهما من أن يتحابا؛ ثم انقلبا أخيرًا عدوين لدودين.

المطلب الثالث: صديق واحد في وقت واحد

ومع أن «إيمرسون» لا يعترف بالصديق الواحد، غير أنه يسلّم بأن قانون علاقة الواحد بالواحد لا محيص عن التزامه في المحادثة، التي هي ممارسة الصداقة واكتمالها. فإن في وسعي أن أحصل على حديث نافع بهيج في أوقات مختلفة، مع شخصين؛ ولكن إذا اجتمع ثلاثتنا فإني لن أجد كلمة جديدة قلبية أقولها. قد يتحدث اثنان وينصت الثالث، ولكن ثلاثة لا يمكن أن يشتركوا بإخلاص كامل في محادثة رفيعة الطراز.

وتقول كاتبة معاصرة إن موضوع الصداقة لا يتعلق بجماعة، ولو تألفت من ثلاثة؛ لأن الصداقة تجيء في جمالها المصفى الذي لا يقاوم بين اثنين فقط، مع واحد آخر فحسب، وحدنا يمكن رفع الكلفة حيث أستطيع اطراح أردية «الدبلوماسية» والتدبر، والتسربل بالبساطة والصراحة التي تتطلبها الصداقة؛ لأن الصداقة خاصة مقصورة، لا تعرف الشمول، وكأن في نفسي شيئًا يحذرها، بل يمنعها من الوثوق بأكثر من نفس واحدة أخرى. وقد يثق الإنسان بمعظم الناس، ولكنه لا يثق بهم بالجملة؛ فالثقة مسألة خاصة غير جماعية، إني أثق بالرجل الذي أنا معه وجهًا إلى وجه؛ وقد أثق بأخيه بعد لحظة، ولكني لا أثق بالاثنين في وقت معًا.

المطلب الرابع: أصدقاء متعددون

الأصدقاء الكثر

بقدر ما تلقى فكرة الصديق الواحد من استحسان، فإن كثرة الأصدقاء لا تكاد تجد من يحبذها، إلا إذا كان المقصودُ بها الأصدقاءَ العاديين.

وقد جاء في أمثال «سليمان»: «المكثر من الأصحاب يخرب نفسه».

ولعل «سليمان» لم يأخذ بما رواه «ابن قتيبة» من أن «داود»، قال لولده: لا تستقلن أن يكون لك عدو واحد، ولا تستكثرن أن يكون لك ألف صديق.

«فيثاغورس» والألف صديق

يقول «فيثاغورس»: «لا تهز يد أشخاص أكثر من اللازم. ولكن إذا أحسنا اختيار الأصدقاء فإن الذي له ألف صديق، ليس في وسعه التخلي عن واحد.

صديق الجميع بلا صديق

وعند «أرسطو»: صديق الجميع ليس له صديق؛ لأن من أعطى قلبه إلى كثير من الناس، لا يكون قد أعطاه لأحد. ولما كانت الصداقة وجدانًا خاصًّا، غيورًا، مؤسسًا على الاختيار، فإنه لا يمكن أن يقوم إلا بين عدد محدود. وقد تناولنا «صديق الجميع» في فصل «أنواع الصداقة».

المساواة بين الناس في محبتنا

أما الرواقيون فيرون من الخير أن يكون لنا كثير من الأصدقاء، أو بعبارة أحسن، يجب أن نحب جميع الناس محبة متساوية؛ لأنه حيث يوجد إنسان فثمة محل للإخلاص وحسن الصنيع.

يختص واحدًا بصداقته مخالفًا مذهبه

كذلك حبذ الأبيقوريون تعدد الأصدقاء؛ لأن مذهبهم قائم على المسايرة والمجاملة والتلطف الهادئ في العلاقات اليومية. وهي صداقة فاترة مفككة نوعًا غير مكترثة. أما كبيرهم فلم يمنعه مذهبه من مصادقة «مترودور» على أساس صداقة الواحد.

ثلاثة على الأكثر

ومن رأي «شيشرون» أن ما يميز الصداقة ويبرز تفوق قوتها وفاعليتها على سائر ميول القلب الاجتماعية التي لا تعدّ، أنها عوضًا عن تضييع قوتها بتوزيعها على موضوعات عديدة، فإن نشاطها كله مبذول لمصلحة شخصين اثنين، أو ثلاثة أشخاص على الأكثر.

دائرة من الأصدقاء

أما «إيمرسون» فيعترف بأنه ما عرف قط الرفقة السامية التي تذوقها القائلون بأن الصداقة الحقة لا يمكن أن تدوم بين أكثر من اثنين؛ وأنه لذلك يرضي خياله بصحبة جماعة لماحة الذكاء من الرجال الطيبين والنساء الطيبات، تتنوع علاقة بعضهم ببعض.

يعوضنا التعدد عن افتقاد الواحد

ويقول «بونار»: إننا نعزّي أنفسنا باتخاذ عدد من الأصدقاء، عن عدم توفيقنا إلى صديق واحد حقيقي.

الصداقات في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية

وقد سئل طلبة إحدى جامعات وسط غرب أمريكا عن عدد أصدقائهم، فكان متوسط أصدقاء الفرد ٥٣ صديقًا و٤٢١ من المعارف.

ولا شك أن هؤلاء الطلبة جديرون بالتهنئة على قوة ذاكرتهم، ولعلهم قد أفادوا بملاحظة «سقراط» من أربعة وعشرين قرنًا: عجبت أن يعرف الرجل دائمًا عدد ما يملك من غنم، ولا يعرف عدد أصدقائه، لضآلة قيمتهم عنده.

ولا شك أيضًا أن الثلاثة والخمسين صديقًا الذين أسفر عنهم معدل الاستفتاء ليس بينهم غير أفراد قلائل، إن وجد ثمة أحد، يمكن أن يشارك صديقه في مأساة، أو يستجيب لمطلب جدي من واجبات الصداقة.

عدد جماعة الأصدقاء

وتتألف جماعة الأصحاب عادة من شرذمة قوامها ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة، يغلب أن تتساوى أعمارهم وقدراتهم، وكلهم متلائمون موالون بعضهم لبعض، بغير أن يكون بين الصاحبين غالبًا استغراق عاطفي، بل هما مستقلاّن مع تجانس ووداد، بحيث لا يُستطار لب أحدهما مثلاً إذا تركه صاحبه ليقضي يومًا بصحبة سواه.

مشقة الأصدقاء الكثر

ولا شك أنه لما يخالف الطبيعة البشرية أن يتحمل المرء دالة أصدقاء كثيرين، وأن يضطلع بعبء الانشغال الشديد بأشخاص متعددين. فليس في الإمكان أن نفتح قلبنا

للناس أجمعين، ولا أن نظفر بالثقة المجردة للكثيرين، حتى لقد قال «روبرت لويس إستيفنسون» مؤلف «جزيرة الكنز»: إنه عندما يكون للشخص ستة أصدقاء، فإن تقديم سابع يعدّ من المستحيلات.

الإخوان كالنار، كثيرها بوار

وقال «إبراهيم بن العباس»: مثل الإخوان كالنار: كثيرها بوار، وقليلها متاع.

لا تستكثرن من الصحاب

وقال «ابن الرومي»:

عـدوُّك مـن صديقـك مسـتفادٌ فـلا تستكثرن مـن الـصـحـابِ

وقال «جيمس هاول: تخير أصدقاءك كما تتخير كتبك: قلّة منتقاة.

المبحث الثاني

تجديد الأصدقاء

الصداقات الجديدة علامة نضج

يقول «أوفر ستريت» في كتاب «العقل الناضج»: الناضج ليس القانع بما نجح في تكوينه من علاقات مع أفراد من أسرته وأصدقائه ومعارفه وزملائه لا يلقي بالاً لأحد سواهم؛ إنما هو من يعرف كيف يتصرف في البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها على نحو يتيح له أن يضيف أناسًا جُددًا إلى من يحبهم، وأن يكتشف أسسًا طريفة لعلاقاته بالقدامى والمحدثين من أصدقائه.

تعويض الأصدقاء الراحلين

يلاحظ زائر حديقة «فرساي» التي خططها المهندس « منسار» لـ «لويس الرابع عشر» في القرن السابع عشر، أو وراء كل صف من أشجار «السابان» الكبار، صفًّا من أشجار غرست بعدها بسنين، لتحل مكان ما عساه أن يموت؛ فتظل الحديقة مشجرة لا تعارها الثغرات.

ولكن من الناس من يحسب أن مهمته قد انتهت باتخاذ من وقع عليهم اختياره من أصدقاء، كما ينصرف الشاب المخلص عن متابعة الفتيات بعد اقترانه بمن تعلق بها قلبه، وفضّلها على نساء العالمين، فهو يكفي نفسه التأنق والتجمل، ويغمض عينيه.

ولكن الأمر يختلف في الصداقة، فلابد أن نستبقي ما حيينا الصفات التي تجذب إلينا الأصدقاء، وتمكننا كلما تقدمت بنا السن من أن نملأ الفراغ الذي تركه الراحلون من أصحابنا؛ ولا يتيسر لنا اتخاذ الأصدقاء الجدد إلا إذا كان لدينا ما نعطيه مما يسرهم وينفعهم، ولو كان بتعليم لعبة جديدة، أو التبصير بأساليب مبتكرة لإتقان لعبة قديمة، أو زيادة مقدرتهم على زراعة زهرة نادرة، أو تربية طائر غَرِد، أو دجاجة بيوض؛ أو ممارسة هواية شيقة مما يزيد المتعة بالحياة ولا يكاد يكلفنا جهدًا أو مالاً.

أما الذين ليس عندهم ما يعطون، أو عندهم كل شيء، ولكنهم قد أوصدوا أبوابهم دون الوافدين من الأصدقاء الجدد، فإنهم عرضة للوحدة في شيخوختهم بعد أن يموت أصدقاؤهم أو تنقطع صداقتهم لسبب من أسباب انقضاء الصداقة، فيقضوا ما بقي من أيامهم محرومين من المحبين المحبوبين.

مقارنة بين القديم والجديد

الملل من شيم بعض الناس، تراهم يشبعون من أشيائهم إذا طال عهدهم باستخدامها؛ فيسارعون إلى تغييرها إن استطاعوا، ويستطيبون نبذها، بل إنهم ليغيّرون الزوجة القديمة ويؤثرون عليها الجديدة، التي يرونها أوفر شبابًا وأروع جمالاً.

ومن الناس من تزيدهم العادة اعتزازًا بالأماكن التي ألفوها في شبابهم، وبالأشياء التي صارت جزءًا من حياتهم: من ساعات وأقلام وحُلِيّ، أو مقاعد ومناضد وعصيّ؛ بل من ملابس طال عليها الزمان تذكرهم كلما ارتدوها بالماضي. وإنهم ليحتفظون بأدوات التدخين ولو كانوا قد أقلعوا عن هذه العادة الوبيلة، لطول ما لامستها أناملهم وشفاههم.

والصداقة كالحديث، كلما علا في الإسناد؛ ساد، وكالخمر كلما طالت عليه الآماد؛ جاد. ونحن إذ نتخذ صديقًا جديدًا، فإنما ندل على حيوية روحية متجددة وشباب نفسي مستمر، وما دمنا في هذه الحالة السوية الناضجة فإننا لا نتعرض لما يقع فيه التافهون من هجر القديم، بل تظل الصدارة للحبيب الأول.

البـاب الثاني

أنــواع الصداقــة

الفصل الأول
صداقة النفس

«إن خير صديق، وشر عدو لنا، ليس شخصًا سوانا؛ بل هو نفسنا. فلنبدأ بصداقة حكيمة للنفس، ونتعلم أن نحسن معاملتها بدلاً من إساءتها، لنكتسب عادة الصداقة عن طريق ممارستها أولاً مع نفسنا»—«أرنديل»رئيس الجمعية الثيوصوفية

الصداقة تبدأ بالنفس

يقول «أرسطو» إن أحاسيس الصداقة تنبثق أولاً من النفس فتمتد إلى الغير، بدليل قولهم إن الصديقين روح واحد، وإن كل شيء مشاع بينهما، وإن الصديق نفس ثانية، وإن الصداقة هي المساواة ين الصديقين؛ وكلها تعابير توضح على الخصوص علاقات المرء بنفسه. وإذن يكون الشخص صديق نفسه، وهو أشد صداقة لنفسه منه لأي شخص آخر. وأن تعريف الصداقة مستمد من العلاقة التي تكون بين الإنسان الطيب ونفسه. ومزايا الصداقة لا تتوافر للشرير الذي يكون في حرب مع نفسه.

يقول «فرنسيس بيكون»: حين يقع المرء في محبة نفسه، فإنها تكون قصة غرام تدوم مدى الحياة. ويقول «مونتيني»: صديق نفسه، يعرف أنه صديق للجميع.

عش مع نفسك

يقول «بونار»: إن الإنسان إذا لم يضيّع أيامه سدى، فإنه كلما جاوز مرحلة الشباب تعلم أن يعيش مع نفسه، أو حتى أن يعيش بنفسه، وليس هذا قط أن يعيش بمفرده، أو أن يكون في عزلة مصقولة لا تشوبها خشونة التقشف البدائي وعبوسته.

تحاشي الدخول في النفس

وإن أغلب الناس لا يتذوق مسرة الدخول في نفسه، إما لشدة سذاجتها، أو لفرط قبحها، أو لأنها غرفة عارية، أو عامرة بالفئران.

توقي الواغلين

يتحقق التقدم الحقيقي بمضاعفة الخطط المانعة من أن يتسرب إلى حياتنا ما يفسدها. فتصير بعض حالات طبيعتنا، المألوفة لدينا والقارة فينا، بمثابة «الأكشاك» في الحدائق الخاصة التي يلوذ بها أصحابها ليجدوا فيها أنفسهم، أو يخصصوها للموسيقى والمطالعة، أو لتأمل السحاب، في إعجاب.

عزلة عامرة مؤنسة

وهكذا نعتزل في فسطاط انقباضنا الرصين، أو ابتهاجنا التلقائي، أو هدوء تفكيرنا الحالم، وأخيرًا نكون قد أحسنّا تنسيق عزلتنا، وترتيبها وتقييمها، بحيث لا نكاد نشعر بأننا وحدنا، بعد أن أقمنا جمهورية زهراء، مما كان من قبل صحراء جرداء. إننا نحن نتحدث مع نفسنا، ونتنزه في بيتنا.

لا غنى لنا عن غيرنا

ولا تغني صداقة النفس عن صداقة الغير؛ لأنه وإن كانت لنا المقدرة الكافية أن نكمّل وحدنا أسمى ما بأنفسنا؛ فإننا عاجزون، بغير مساعدة سوانا، عن سبر أعماقنا؛ لأن كشف بعض ثرواتنا متعذر بغير تدخل غيرنا. يجب أن نترقب دائمًا الصديق الذي يفجّر أرضنا عيونًا لم يكن في وسعنا تفجيرها وحدنا.

إنما يتحقق توازننا الحقيقي بالدأب على الاستزادة من الترقي، على أن لا نكتفي أبدًا بذواتنا؛ ونحن إذ ندخل نفسنا لا يتوقف نماؤها أبدًا؛ لأننا لا ننسحب من الوجود، بل لا نبرح وقوفًا على حافة نفسنا، مستعدين للترحيب بالنفوس السامية الساحرة.

المستغني بنفسه، وكاره الناس

ولئن حملتنا النفس المتسامية إلى حالة لا نجد عندها أي مجتمع حقيقي إلا مع نفسنا، فإنه يجب تمييز هذه الحالة عن كراهة الناس؛ لأن كاره الناس ينكمش ويتيبس؛ أما المتوحد فيزدهر ويتطهر. كاره الناس يتحصن ضد الناس، مع بقائه بينهم؛ في حين يتسامى المتوحد ولا ينحجز عنهم؛ لأن نفسه ليست دارًا تحرسها الأشواك، بل قصرًا على ربوة، إلا أنه مفتوح الباب للقاصدين، دائم الترحاب بالقادمين، وإن لم يطرقه طارق. إن يعدّ وليمة كل ليلة للسادة الأجلاء الذين لابد أن يقدموا للتمتع معه. حتى إذا لم يغش الوليمة غير من أدبها، فإن هذا لا يمنع من اعتبارها تقدمة للصداقة.

إن فن الحياة هو أن نتعلم الاستغناء بأنفسنا عن أي شيء، مع بقائنا قادرين على تقبّل كل شيء.

كن سويًّا في علاقتك بنفسك

يقول «أوفرستريت» في «العقل الحي»: لكي يكون الفرد سويًّا في علاقاته بالمجتمع، لا بد أن يكون سويًّا في علاقاته مع نفسه؛ أي لا بد أن يعكس ما يبذله من سعي إيجابي، قدرًا معقولاً من احترامه لذاته أو محبتها، أو تقديرها أو تقبّلها.

فالشخص السوي لا يظل على خلاف دائم مع نفسه ومع غيره بشأن الطابع الذي تتسم به شخصيته. وهو لا يستنفد وقته وجهده في رثاء ذاته، أو نحلها المعاذير، أو انتقاصها، أو الدفاع عنها، أو إقحامها، أو تفخيمها.

ومعنى هذا أنه نجح في تقبل ذاته، فتجده من غير أن يبتسم لنفسه أو يحنو عليها، على وفاق معها بدرجة تتيح له إدراك نواحي قوته ومواطن ضعفه سواء، والعمل على بناء حياة سوية مستقرة بما توافر له من إمكانيات.

الفصل الثاني
صداقة الأستاذ بالتلميذ

مدارس «أتينا» جماعة أصدقاء

ازدهرت الصداقة بالمدارس الفلسفية القديمة في «أتينا»، وكانت تنشأ من المخالطة المعتادة بين الأستاذ وتلاميذه؛ فهي جماعة أصدقاء أكثر منها مدارس. وقد عرفنا صداقة «يارميندس» وتلميذه «زينون». وغيرها كثير.

«سقراط» صديق تلاميذه

ولم يكن «سقراط» يتخذ تلميذًا إلا إذا شعر بأنه محمول على محبته، وكانت تهديه إلى اختيار تلاميذه الأصدقاء، غريزة طاب له أن يسميها عبقرية. فهو يختارهم كما يختار الصديق صديقه، ولا ينتقي الأغبياء بل الموهوبين، وكثيرًا ما يكونون من المملقين أمثال «أريستوديم» و«أنتستين».

وكان لا يكاد يسمي نفسه أستاذًا، بل والدًا أو أخًا كبيرًا، أو صديقًا، يصرّ على أن تربطه بكل فرد من تلاميذه آصرة من يدٍ يسديها.

تلاميذ «سقراط» أصدقاؤه

وعامل تلاميذ «سقراط» أستاذهم كصديق، فكان يتلقى خدماتهم؛ وهذا تلميذه «كريتون» يأخذ على عاتقه أن يمده بحاجاته، بل لقد بلغ من شدة حرصه على سلامة أستاذه وصديقه أن أبدى كامل استعداده لتعريض نفسه وكل ممتلكاته لأي خطر مهما يكن محدقًا، في سبيل استنقاذه من سجنه.

وكان أصدقاؤه منذ حكم عليه، يتجمعون في الرحبة المواجهة للسجن، فإذا انفتح بابه اتجهوا إلى أستاذهم يقضون سحابة النهار حافّين به. فلما حُمّ اليوم الذي يتجرع فيه كأس الشوكران، لم يتخلف غير ثلاثة، منهم «أفلاطون»، وقد كان مريضًا.

وعندما مات تولى «كريتون» كَفَنَه، واطّلع «اكسيتوفون» و«أفلاطون» بمهمة الدفاع عن ذكراه.

جاذبية الأستاذ

ولا شك أن الصداقة «السقراطية» كانت مستمدة إلى حد كبير من جاذبية الأستاذ، فقد كان أستاذًا جليلاً في المحبة، أفضى إلى تلاميذه بسرّ فنّه الإنساني، وأن ثمرة الصداقة يجنيها زارع الطيبات.

تلاميذه بعضهم لبعض صديق

ألّف «سقراط» من مدرسته أسرة، وأوجد روابط وجدانية بين تلاميذه؛ لأنه لم يكن يبشّر بالفضيلة وحدها، ولكنه نظم المحبة أيضًا، وقد عرف استحالة تكوين مدرسة من

رجال مختلفين اختلافًا كبيرًا من حيث السن، مثل «كريتون» وأولاده؛ ومن جهة الروح والأخلاق، مثل «أريستيب».

و«أنتيستين»؛ ما لم تتوطد بينهم فوق وحدة العقيدة، رابطة الصداقة. ولم يكن يباري في مقدرته على أن يقرن الأرواح ويعقد الصداقات.

التعليم المجاني مذهبه

كره «سقراط» السنّة التي ابتدعها السوفسطائيون واتبعها «أريستيب» من تقاضي جُعْل على التعليم، واعتبرها ضارة بالأساتذة والتلاميذ وبالتعليم ذاته؛ لأن المنفعة المادية التي يلتمسها السوفسطائيون، والأجور التي يستصفونها من دروسهم، من شأنها أن تفقدهم الفائدة الأدبية التي تترتب على ربط تلاميذهم إليهم بأواصر التقدير والوجدان.

فالمعرفة كالمحبة يجب أن تكون هبة، ولا يصح بيعها بحال. وأنه ليفرق بين المعرفة الفلسفية، والمعرفة الفنية الخاصة، وهو يجيز تقاضي الأجر عن تعليم الثانية باعتبارها خدمة مادية قابلة للتقدير؛ أما الاتجار بالحكمة فهو إهدار لكرامتها. إن السعيد بتملك الفضيلة ليحرص على نشرها، وإنه يبحث عن نفوس يمكن أن تتلقى الحكمة فينقلها إليها، حبًّا فيها، ولكي يحملها على محبته. وعنده أن تحصيل صديق هو أجمل كسب يظفر به معلم الفضيلة، وإن التعليم لا يؤتي ثمرته إلا بمصادقة المعلم والتلميذ، والتلميذ لا ينتفع وحده بمساعدة الأستاذ، ولكنه أيضًا يساعد أستاذه وينفعه.

التعليم يفترض الصداقة

وقد تبارى كل خلفاء «سقراط» في التنويه بأن التعليم يفترض الصداقة، وأن علاقة الأستاذ بالتلميذ مساكها ميل متبادل.

صداقة التلاميذ والأستاذ شرط التعليم

ويرى الرواقيون أن الحكيم لا يعلّم في الواقع إلا من يشعر نحوهم بالتعاطف.

ويتصور الأبيقوريون إمكان التعليم خارج دائرة المحبة، ولكنهم لا يتخيلونه خارج الصداقة، فالفيلسوف لا يتفانى إلا في تعليم من يعتبرهم أصدقاءه.

وعاش تلاميذ «أبيقور» مع أستاذهم في حديقته التي أوصى بها للمدرسة من بعده، وكان يعتبر كل تلاميذه أصدقاء ويعاملهم على هذا الأساس.

وجهان لرجل واحد

ولم يكن «أبيقور» يفترق قط عن تلميذه «مترودور» اللامباسي؛ وفي متحف «اللوفر» تمثال نصفي، يحمل وجهي «مترودور» و«بيقور». ولما مات «مترودور» ضمّ «أبيقور» أولاده، ثم أمّن مصيرهم بوصيته، وحين حضرته المنية كتب إلى «إيرو مينييه» يقول: باسم الصداقة التي شاهدتها مني منذ الطفولة، وباسم محبتك للفلسفة، اعتنِ بأولاد «مترودور».

قدوة المعلم ومثاله

كانت الحماسة التي ينقلها «أبيقور» إلى النفوس جزءًا من قلبه، كان محبًّا بطبعه كما يشهد بذلك بره بوالديه، وحنانه على إخوته، وترفقه بعبيده، وإنسانيته بالنسبة لسائر البشر.

الباب الثالث

أهمية الصداقة؛ ومزاياها

«ولا خير في الدنيا إذا لم تجد بها صديقًا صدوقًا صادق الود مخلصًا»

الإمام الشافعي

الفصل الأول
أهميــة الصداقـــة

المبحث الأول
تكييف أهمية الصداقـة

المطلب الأول: التكييف السيكولوجي لأهمية الصداقة

تأثير الصداقة في تصرفات الطفل

يتوقف بناء عواطف الطفل وتنسيقها على طبيعة الأشياء والأشخاص التي تبنى حولها، وعلى نوع عاطفته السائدة أو المسيطرة.

ويمكن أن تكون عاطفة الصداقة قوة عظيمة في حياة الطفل، وهي تنبثق من الدافع الاجتماعي (القطيعي) بمجرد التقاء طفلين؛ والمشاركة تزيد متعة الألعاب والاهتمامات المنوعة، كما تنقص متاعب الطفل وهمومه، بقدر ما تثير فيه تصرفات الصديق الشفيقة

ويبدو أن التفات الإناث كثيرًا ما يتجه نحو أنثى أكبر سنًّا، يغلب أن تكون على قدر من التفوق، وقد تستجيب؛ أو يقتصر الأمر على شعورها بالتمليق، ولربما ضاقت به فلا تشجع عليه. كما قد يتجه الالتفات إلى أنثى من نفس السن، أو دونها.

وأحيانًا يشابه وجدان الولد أو البنت نحو شخص يكبره، ما يشعر به، أو ما كان يمكن أن يشعر به نحو أحد أبويه.

وسلوك البنت أو الولد المصاب بالصداقة الحميمة، قد لا يختلف إلا قليلاً عن سلوك من يشعر بوجدان نحو فرد من النوع المقابل: فتكون ثمة رغبة في ملازمته، وحرص على دوام التفاته، وغيرة من اهتمام غيره به، مع رغبة في تدليله وابتئاس لغيابه.

ويرى «ماكني» أن لا نخشى الصداقات العاطفية بل نوجهها، ولعل تعدد الأصدقاء مانع من نشوئها، كما أن تركيز الاهتمام على النشاط الذي يستمتع به الصديقان، مما يحول دون حصره في الصديق نفسه.

فترة فجر المراهقة والصداقات القوية

تتسم هذه الفترة باتجاه إلى توثيق الصداقة بأفراد من نفس نوع المراهق، وكأن الطفل يرتد إلى مبتدأ دورة المحبة، حين كان جل اهتمامه منصبًّا على نفسه. ولما كان قد تخطى مرحلة محبة ذاته بحيث يستطيع محبة غيره، فإنه يختار شخصًا شديد الشبه بنفسه، أي فردًا من نوعه.

ويقول فريق من علماء النفس إن معنى صداقات المحبة، والصداقات القوية، لا يكون بعد واضحًا تمامًا عند المراهقين، فإنها قد تعكس كلاًّ من إسقاط حاجة الطفل

إلى الوجدان، والتسامي بالانفعالات النامية، التي كان يمكن أن تجد لها في ثقافة أخرى تعبيرًا نوعيًّا أكثر مباشرة.

أهمية اتصال الجنسين

الفصل الثاني

وثمة أدلة علمية، وقدرٍ كافٍ من نتائج التجارب المعملية، على أن الصداقات القوية بين البنات المراهقات، [illegible] التي يقل فيها اتصال الجنسين.

عدد الأصدقاء وتجديدهم

«لو عرف كل امرئ ما يقوله الآخر عنه، لما كان في العالم كله أربعة أصدقاء» – باسكال

ومع ذلك فإن معظم الفاقهين يعتبرونها [illegible] أو يقصر، وقد يكون مركزًا أم مخففًا، تبعًا للشخص الناشئ.

المبحث الأول

معجزة ما قبل المراهقة

عدد الأصدقاء

وإن أكثرهم ليفسر هذا، بأن [illegible]ية، يواجه فيما بين منتصف سنته التاسعة، وسنته الثانية عشرة، ما يمكن أن نسميه معجزة ما قبل المراهقة، والمعجزة هي حركة تبدأ في هذه الفترة لأول مرة منذ الولادة، بل منذ الحمل، من مركزية الذات، متجهة نحو حالة اجتماعية كاملة.

ألا إن إخوان الصفاء قليل، فهل لي إلى ذاك القليل سبيل؟ – اليزيدي

توقف الكمّ على الكيف

أما وقد فرغنا من الكلام في اختيار الأصدقاء، فلا مندوحة عن مواجهة مشكلة تحديد عدد الأصدقاء الممكن اختيارهم. والواقع أن عدد أصدقائنا يتوقف على طراز ما نتحراه فيهم من صفات وتميزات.

نشوء حالة المحبة

وحين يهتم شخص برضا آخر وسلامته، اهتمامه بمرضاة نفسه وسلامتها، فعندئذ توجد حالة المحبة؛ ولا يمكن أن توجد المحبة تحت أي ظروف أخرى، بغض النظر عن الاستعمال الدارج للكلمة.

الفصل الرابع
صداقة المثقفين

الصداقة موهبة عقلية وذكاء

المثقفون خير من يقدر الصداقة ويحسن الاستمتاع بمزاياها، وقد أرجع «أرسطو» المقدرة على المصادقة إلى ممارسة الإنسان لذكائه وتفكيره؛ كما يسلم علماء النفس بأن الألفة أو الصداقة هي، إلى حدٍّ ما، موهبة عقلية، ولا يمكن ازدهارها إلا بتوافر القدر المطلوب من الذكاء في الفرد أو الجماعة.

وحدة الطراز العقلي

ولابد من التنويه بأن مقصودنا بالثقافة ليس مجرد العلم والمعرفة، فقد يتساوى اثنان في درجة العلم، مع أن طراز أحدهما العقلي سامٍ، وطراز الآخر منحط، فلا تستقيم الصداقة بينهما؛ على حين إن الصداقة، قد تقوم بين اثنين من طراز عقلي واحد، أحدهما جاهل والثاني في قمة المعرفة.

أغلب صداقات المثقفين بين الأستاذ ومريديه

وقد سجل تاريخ الفكر والأدب والفلسفة طائفة طريفة من صداقات المثقفين، وإن كان معظمها أدخل في باب صداقة التلميذ أو المريد بالأستاذ أو المعلم، وقد تكلمنا عنه في فصل «صداقة الأستاذ بالتلميذ».

«رابليه» وأبناء «لانجي»

التحق «رابليه» بمدرسة ممتازة، حيث عاشر أبناء أسرة «لانجي» الشهيرة. وقد ورث هؤلاء الأولاد عن أبيهم لمحة من عبقرية، فهم يجيدون الكتابة، بقدر ما يحسنون القتال عند الضرورة.

وقد صاروا أساقفة وكرادلة وسفراء؛ وترجموا وألّفوا الأسفار النفيسة.

ودلت الصداقة التي أولاها فيما بعد آل «لانجي» لـ «رابليه» على أنه لم يكن مجرد نديم مائدة مسلٍّ؛ بل كان في وسعه الاعتماد دائمًا على معونة زملاء الدراسة السابقين وتأييدهم لمواجهة تقلبات حياته المتلاحقة. وكلما ساءت علاقته برؤسائه الدينيين ألفى باب قصرهم مفتوحًا على مصراعيه، وإذا اتفق أن جاوزت حرارة تربة فرنسا الحدّ الذي يطيقه الأخلاقي الشاب الساخر، فثمة دائمًا واحد من آل «لانجي» موفد في مهمّة إلى الخارج، في أشد الحاجة إلى كاتم سر يشترط فيه أن يكون في صورة ما طبيبًا، فوق أنه عالم مصقول في اللغة اللاتينية. وقد حدث هذا غير مرة، كلما أشرفت وظيفة الدكتور العالم على نهاية مفاجئة، مؤلمة؛ أن أنقذه نفوذ أصدقائه القدامى من غضب «السوربون»، أو من نقمة «الكلفنيين».

وظل أصدقاؤه آل «لانجي» أوفياء له حتى النهاية، ولكن «رابليه» مارس معظم حياته فضيلة التحفظ، وظل على مسافة مؤدية من مقر هذه «الجلالة» التي طَبَع في حمى «امتيازها» كتبه المتطرفة.

«كانط» و«جرين»

بدأت صداقة «كانط» الكبرى، في اللحظة التي دعاه فيها التاجر الإنجليزي «جرين» إلى مبارزته. وكان «كانط» يتربص ذات أصيل في حدائق «دانهوف» إبان حرب الاستقلال الأمريكية، فاجتاز بصاحب يجالس رهطًا من رفاقه تحت تكعيبة. وتبنّى «كانط» قضية الأمريكان وتحمس في الدفاع عن عدالتها، ونفّس عن مرارته بصدد سلوك الإنجليز.

ولم يلبث أن انبرى له واحد من الجماعة يتميز غيظًا، فأعلمه بأنه إنجليزي، وبأن مقالته قد ألحقت به وبأمته إهانة لا يغسلها غير الدم المراق، وأصر على مبارزته ملحفًا حردًا.

ولم يأذن «كانط» لغضب الإنجليزي أن ينال من اتزانه، بل مضى يعرض وجهة نظره مبديًا أن على المرء، بغير مساس بوطنيته، أن يدلي بحكمه على مثل هذه الأحداث العالمية كمواطن عالمي. وبدا «كانط» في خلال حديثه، كأن قوة إلهية تلهمه.

ولم يتمالك «جرين» أن هز يد «كانط» متأثرًا بفصاحته المقنعة، مبديًا موافقته على آرائه، طالبًا صفحه عن اندفاعه، ولم يلبث أن رافقه في المساء إلى مسكنه، وشدد في دعوته لزيارته.

وقد تمخض هذا التعارف عن صداقة مخلصة، كان «كانط» يعلي قدرها، أساسها احترام متبادل، وازدادت على مر الأيام توثقًا ولصوقًا، واستمرت حتى وفاة «جرين» التي ما أفاق «كانط» قط من صدقها.

وجد « كانط» في «جرين» رجلاً واسع العلم، وقّاد الذكاء، فبسط له كل مبادئه الفلسفية الهامة، ليظفر بحكم ذكي محايد غير منحاز إلى أي مذهب.

«تالليران» و«شوازيل» و«تاريون»

اتخذ «تالليران» بيتًا صغيرًا في ركن هادئ مشجر من «باريس»، جمع فيه مكتبة تضم نفائس الأسفار، حيث يستقبل نخبة من الأصدقاء المتوقدين. وكان من عادة بعضهم أن يقصدوا الدار صباح كل يوم للمحادثة وتناول الغداء. ومنهم «أوجيست دي شوازيل» و«لويس دي تاريون»؛ الذي تألف منهم ثلاثي عرفه العالم الباريسي المعاصر بألمعيته، وخبثه، ومغامراته.

صداقة «جوته» و«شيللر»

حين عاد «جوته» من إيطاليا، كان في حالة عزلة إنسانية وروحية، لم يلبث أن تخفف منها فجأة بعد توثيق صداقته مع «شيللر».

وقد بدأت صداقتهما بقبول «شيللر» دعوة رسمية ليشترك في تحرير جريدة جديدة، نشر فيها خطابه الشهير في ٢٣ من أغسطس ١٧٩٤، الذي ضمنه، في استبصار عجيب، خلاصة وجود «جوته».

وتعتبر المجلدات الأربعة التي حوت مراسلاتهما اليومية، تعليقًا منقطع النظير على ما حققته أعظم حقبة في تاريخ الأدب الألماني، كما انطوت على استيطان مذهب لعملية الخلق الفني.

وقد تأثر إنتاج «جوته» في هذه الفترة بيقين «شيللر» الذي لا يتزعزع، بأن مستقبل الأدب، في عالم متحمس للمذهب الطبيعي، مطالب بإحكام غلق دنيا الشعر؛ إنما ينحصر في الأخذ الصريح بالأساليب الرمزية.

وكان كلاهما يعتقد أن الفن، وإن لم يكن من صنع الحقيقة أو الأخلاق، فإن له مع ذلك دوره الخاص في رفع مستوى الناس.

ويرجع الفضل إلى «شيللر» في توجيه فكر «جوته» إلى الاستمرار في تأليف «فاوست»، وهو الذي اكتشف الصعوبات التي ينطوي عليها التوفيق بين هذا التصنيف البربري، وبين مثلهما، في خلط الصرامة الواضحة «للفكرة» بالعنصر اللعوب الذي يستلزمه فن المستقبل.

وقد أوحى «شيللر» بالإطار الروائي لـ «مقدمة فاوست» على المسرح، وبالإطار الفلسفي لـ «استهلال في السماء».

فلما مات «شيللر» سنة ١٨٠٥، شعر «جوته» بأنه قد «فقد نصف وجوده». وكتب يرثي صديقه العظيم رثاءً جليلاً.

«كولريدج» و«وردز وارث»

كان الشاعران لا يفترقان، يمشيان معًا في مناكب الريف، يتدارسان وجهات نظرهما ويستعرضان خيالاتهما، ويخترقان بصائب بصيرتهما صميم الأشياء. وسرعان ما صارت صلة الأدب بين الشاعرين صداقة حميمة.

ومع أن المسافة بين داريهما لم تكن تزيد على ثلاثة أميال، إلا أن «وردزوارث» لم يلبث أن هجر كوخه في «دورسترشير» وانتقل إلى «الفولكسدن» ليزيد قربًا من غازل سحر القوافي، وكأنه يقول له مع «شيللي»: «لقّني نصف الغبطة التي لابدّ أن يكون عقلك قد وعاها».

صداقة «بيرون» و«شيللي»

أعجب «بيرون» بـ «شيللي» ورقّ قلبه لبساطته. واستطير «شيللي» بـ «بيرون» ورثى لما صار إليه حاله بسبب عناده. ولم يعد «شيللي» بعد ذلك فريدًا شريدًا مبعدًا، بل وجد أصدقاء على غراره في لورد «بيرون»، وفي «تريلوني» وغيرهما.

صداقة الصحفي بالشاعر

أعجب «هنري دانا» المحرر المساعد لمجلة «أمريكا الشمالية»، بالشاعر المحامي «برايانت»، وكانا يشتركان في أمر واحد، عاطفة تكاد تكون عبادة لشعر «وردز وارث». شعر «دانا» و«برايانت» إنهما مع «وردز وارث» يريان للعالم حقيقة داخلية، تخفى على الحواس العادية، وأن أويقات تمر بمن أوتي نعمة الاستيطان، يبدو له العالم فيها، وكل منظر

عادي، مسربلاً بضياء سمائي. كانت عقيدتهما هذه في ضياءٍ وراء الحجاب، هي الرباط الذي وحّد الشابين في صداقة دامت مدى الحياة.

ولما كان «دانا» أكبر شيئًا من «برايانت»، وأكثر منه معرفة بالدنيا، فقد أغراه بنشر مجلد من شعره، لم يلبث أن لقي رواجًا، حمل مؤلفه الشاعر – المشترع، على التخلي عن القانون والانصراف إلى قرض الشعر.

صداقة «فرانز لست» و«فاجنر»

يفرق «بونار» بين نوعين من الكرم؛ كرم ظاهري، يخالطه نذر يسير من الكرم الحقيقي، أن تشد أزر التاعس؛ وما أيسره من كرم! وكرم حقيقي، هو أن تزيد، من سعادة السعيد.

إنه لأمر خليق بالمديح أن يؤيد «لست» وهو في أوج شهرته، «فاجنر» وهو يجاهد ضد كيد زمانه؛ ولكن الجدير بالإعجاب الحقيقي أن «لست» لما لحق به صاحب ثم تقدمه، لم يتقاعس عن شد أزره، وهو الذي من حقه أن يشكو عدم الاعتراف به كمؤلف، رغم براعته كعازف.

ذهب «لست» إلى «باي رويت» في «بافريا» ليزيد بتكريمه من انتصار منافسه، ويسدي شرفًا رفيعًا إلى الرجل الذي كان هو أولى بأن يظفر بمجده ألا إن هذه لهي عظمة النفس بحق!

«نيتشيه» و«جرسدورف»

تكاد صداقة «نيتشيه» و«إروين رود» و«فون جرسدورف»؛ تعادل صداقة «شيللي» و«كيث»، أو «تنيسون» و«هلام».

وإن رسائل «نيتشيه» لتشهد بتكريمه للصداقة، وقد كانت صداقاته من أرفع طراز، وهي غالبًا ذات طابع فلسفي بحت، كان يتطلب في أصدقائه أن يكونوا مثله طلاب حقيقيين.

«نيتشيه» و«فاجنر»

الظاهر أن تقريظ «شوبنهاور» البارع للوحدة، لم يستطع إقامة جسر بين حياة «نيتشيه» السابقة وحياته الحالية في «بال». كان جميع أصدقائه بعيدين؛ فاشتاق إلى رفيق قريب منه على غراره. كتب يومًا إلى «إروين رود» يقول: ويل لنا نحن الذين يعوزنا نور شمس حضرة الصديق، لأنه ما من مراسلة يمكن أن تسدّ محل شخصية الصديق، فنحن سنحتاج دائمًا إلى قابلات، لكي تتمخض عن أفكارنا.

ومع ذلك فقد عوضه القدر عن هذا الحرمان المؤقت لما لبّى دعوة المؤلف الموسيقي «فاجنر» فقصد إلى منزله الريفي في «تريبش» وسرعان ما تطور التعارف فصار صداقة حميمة رغم تباين سنهما، وغدت «تريبش» لدى «نيتشيه» مقر السعادة، ومحط الآمال، إذ تحقق فيه مثله الأعلى في الصداقة.

وقد تلت الزيارة الأولى عدة زيارات، وحفلت الفترات التي تخللتها بالتواصل، والتبادل العاجل للرسائل. وكان «نيتشيه» يسمى «فاجنر»: «جوبيتره»؛ أذهل الشاب المتحمس، ما انطوى عليه إنتاج «فاجنر» من عمق ألماني وجدّ لا يصدق، أفعماه توقيرًا وإعجابًا.

وكان إذا زاره أصحابه أشار إلى مجلدات «فاجنر» باعتبارها فخرًا وتشريفًا لمكتبته. وكان لا يبرح يحث أصدقاءه في رسائله على دراسة مؤلفات «فاجنر» البعيدة الغور، ويطلب

إليهم الدفاع عن قضيته واستمالة الناس إلى سنّته. ونجح أخيرًا حتى في تحويل «رود» و«جرسدروف» إلى الفاجنرية.

وكان الأستاذ في عزلته شديد الترحيب بمثل هذا الرفيق، ولا شك أن تأثر «فاجنر» الوجداني كان في أول الأمر غير أناني، لا دافع له إلا العواطف الودية؛ غير أنه لم يلبث أن تبين مدى المساعدة النفيسة التي يمكن أن يستمدها من مثل هذا الرائد الغيور الأمين، والمبشر بإنجيله الجديد.

وهنا تكونت دائرة نادرة من الصداقات؛ اتحاد ثلاثي ضدّ مضايقات الدنيا، «نيتشيه» الشاب الناهض المفكر، و «فاجنر» و«كوزيما» زوجه، التي لا مثيل لها، كما كان «فاجنر» ينعتها، وهي كريمة «لست» وإذ كان كل منهم شديد الاهتمام بصاحبه، فقد تحدثوا في أسمى المثل، وفي أعقد المشاكل، في الوقت الذي يبدون فيه أرق الصداقة، بتبادل النصيحة والمساعدة في مسائلهم الخاصة.

وتعلق صغار «فاجنر» بـ«نيتشيه» فهو الذي يتولى شراء هداياهم لعيد الميلاد، ينتظرون زياراته بقلوب تفيض بالسرور. وقد قضى «نيتشيه» عيد الميلاد في «تريبش» سنتين متواليتين. وكانت تلك الأيام قمة ما وصلت إليه الصداقة بين «فاجنر» و«نيتشيه».

وقد كتب «نيتشيه» في آخر سني صحته أنه يرتضي التخلي عن كل اتصال بشري، ولكنه لم يقبل بأي ثمن أن يطّرح الذكريات السارة لتلك الأيام في «تريبش».

«نيتشيه» والدكتور «رييه»

صار الدكتور «بول رييه» مؤلف «الملاحظات السيكولوجية» صديقًا لـ «نيتشيه» في «بال». وغالبًا ما أقام مع «نيتشيه»، وكثيرًا ما بولغ في تقدير نفوذه عليه، حتى لقد ذهب البعض إلى التحدث عن فترة من الواقعية في كتابات «نيتشيه»، ابتداء من «إنساني- إنساني فوق اللازم»..

وقد غالت السيدة «سالومة» في تقدير نفوذ «رييه» على «نيتشيه»؛ ولكنه لا يمكن إنكار أن «رييه» مسؤول إلى حدٍّ ما عن التغيير في اتجاه «نيتشيه» الفلسفي.

كان الاثنان معجبين بكتّاب الحِكَم الفرنسيين من أمثال «لا روشفوكو» و«لا بريير»؛ ولا شك أن «نيتشيه» كان له تـأثير عظيم منشط على «رييه» الذي وقف كتبه عليه، ولم يكتب كثيرًا بعد انقطاع علاقتهما.

«نيتشيه» و«بركهارت»

كان «يعقوب بركهارت»، على علاقة طيبة مستمرة بزميله «نيتشيه» في «بال»، وكان يصغره بكثير، وقد مكنه هدوؤه ومرحه الأوليمبيّ، وثقافته المصفاة، أن يظل وفيًّا لصداقته في خلال مختلف مراحل تطور «نيتشيه»، وهو أمر لم يكن سهلاً، إذ كان «نيتشيه» يغالي أحيانًا في إصراره على أن يعامل باحترام. بكى «بركهارت» مع «نيتشيه» لما حرق « التويليري» في «باريس»، وكان تأثيره على «نيتشيه» دائمًا ملطفًا ومهدئًا.

«سوليفان» و«جلبرت»

اكتسب سِير «أرثر سيمور سوليفان» عديد الأصدقاء بشخصيته الجذابة وعبقريته التي لا شك فيها، وبما توقعه له عارفوه من مستقبل لماح.

وفى سنة ١٨٧١ عرف «جلبرت» واشتركا في مسرحية موسيقية سميت «تيسبت» أو «شيخوخة الآلهة» كان نجاحها عظيمًا. ثم اقترح «جلبرت» أوبرا قصيرة يقع منظرها في محكمة، ظهرت فورًا وجاء نجاحها فوق كل ما كانا يتوقعان.

«كوبدين» و«برايط»

قال «ريتشارد كوبدين»: «تعال معي، وسوف لا نستريح حتى يلغى قانون القمح». وقد قبل «جون برايط» الدعوة، ومنذ ذلك الحين لم ينقطعا لحظة عن الجهاد الشاق في سبيل تحقيق القرار الذي اتخذاه؛ فصار «برايط» خطيب الجماعة الأول، وتولى «كوبدين» الإشراف على تنظيمها.

ولما مات «كوبدين» سنة ١٨٦٥، قال «برايط» لمجلس العموم: إنه لا يجسر حتى على مجرد محاولة التعبير عن الأحاسيس التي تغمه، وجلس وقد سحقه الأسى. وقال فيما بعد وهو يستعرض صداقة استمرت زهاء عشرين عامًا: ما كنت أعرف مدى محبتي إياه حتى فقدته.

«تشرشل» و«روزفلت» في «بلاسنتيا»

وصل «روزفلت» و«تشرشل» في خلال لقائهما في أغسطس ١٩٤١ في خليج «بلاسنتيا» بجزيرة «نيوفوندلاند» إلى درجة من الألفة السهلة، وتبادل الضحك القلبي الخالص.

وقد دلت الحوادث التالية على أن ما نشأ من رفع الكلفة والتفاهم بين زعيمي الناطقين بالإنجليزية في العالم، ربما كان أهم نتيجة لكل ما حدث في خليج «بلاسنيتا».

صداقة المجمعيين

يقول الأستاذ «محمد محيي الدين عبد الحميد» في رثاء صديقه «محمد علي النجار»: نقلت من القاهرة إلى الزقازيق، فالتقينا هناك وتجددت صلاتنا. واتفقنا على أن نقرأ معًا بعض أمهات كتب الأدب، وبدأنا نقرأ يومًا في كتاب «الأغاني»، ويومًا في «شرح «ابن الأنباري» على المفضليات»، وقطعنا في هذا المضمار شوطًا بعيد المدى. ويعلم الله أني عثرت من الشيخ «محمد» على الضالة المنشودة، فقد وجدت فيه دقة الملاحظة، وبعد النظر، وعمق الغور، حتى استقام عند قول «ابن هاني»:

كانت مساءلةُ الركبانِ تخبرنا ... عن «جعفر بن فلاح» أحسنَ الخبر

ثم التقينا فلا واللهِ ما سمعتْ ... أذني بأحسن مما قد رأى البصر

وقول «المتنبي»:

واستكثر الأخبار قبل لقائه ... فلما التقينا صغّر الخبرَ الخُبْرُ

الفصل الخامس
صداقة ذوي القربى

المبحث الأول
رابطة الصداقة ورابطة الدم

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾

«قرآن كريم»

الصداقات الطبيعية

تزودنا الطبيعة بأول أصدقائنا، وقلّ أن يمكننا الظفر بأصدقاء هم أحسن منهم أو أكثر وفاء؛ فإذا خذلنا الجميع، لجأنا إلى أفراد أسرتنا واثقين من نجدتهم. وإنه ليقال بأن أحدًا لا يمكن أن يحل أبدًا مكان الأب أو الأم؛ وإن هذا لهو الحق المبين. وما الأصدقاء إلا أقرباء يصطنعهم الإنسان لنفسه.

الصداقة أقوى من القرابة

يقول «شيشرون» إن الإنسان ميال لاعتبار نفسه على درجة من العلاقة بكل النوع عمومًا؛ وتزيد قوة هذه العلاقة بالنسبة إلى المواطنين عنها تلقاء الأجانب، وبين أعضاء الأسرة الواحدة عنها بالذين لا تجمعهم رابطة الدم.

وفي حالة الأقرباء تزيد قوة هذه العلاقة في الواقع إلى حدٍّ ما، فيتولد ضرب من المحبة الغريزية، ولكنها مع ذلك محبة لا تتميز بالثبات أو الصلابة، وأنها لا تستند مطلقًا إلى عواطف القلب، بل تستمر على ما كانت عليه في الأصل، وإن انعدم كل أثر للمودة بين الطرفين؛ على حين تدخل وجدانات الحنان بصفة جوهرية في علاقات الاختيار الحر، حتى ليمكن أن يقال: حيث لا توجد محبة فلا يكون للصداقة وجود.

عندما تتحول القرابة إلى صداقة

يقول الرواقيون: «يجب أن تصير الوجدانات الطبيعية اختيارية». ويقول العرب في أمثالهم، وشعرهم: رب أخ لك لم تلده أمك؛ ورب بعيد أقرب من قريب.

مـا القـربُ إلا لمـن صـحت مودتُـهُ ... ولم يخنـك وليـس القربُ للنسـبِ

كـم من قريبٍ دوّي الصـدرِ مضـطغن ... ومـن بعيــدٍ سـليم غـير مقـتربِ

المبحث الثاني

صداقة الوالدين والأولاد

«على العاقل أن يتخذ أبويه أصدقاء، وبنيه ذكراء»—«أبو حيان»

صلة الوالدين بالأولاد أوثق العلاقات الطبيعية التي لا محل فيها للاختيار؛ وهي بسبب التفاوت الكبير في السن، تنطوي على التبجيل من جانب الولد لأبيه، ولا تقوم على تبادل الفكر والرأي، إذ يتفادى الوالدون عادة الإفضاء بمكنون صدورهم إلى أبنائهم، تحاشيًا لما قد يترتب على ذلك من رفع غير لائق للكلفة؛ كما أن الأولاد لا يجرؤون على تحذير آبائهم، أو تنبيههم على أخطائهم، وهما المزيتان الكبريان للصداقة.

نشوء صداقة اختيارية بين الوالدين والأولاد

ومع ذلك، فإن الولد (أو البنت) إذا اكتمل نضجه، فإن علاقته بأبيه تحتمل أن تنشأ بينهما عاطفة صداقة، ليس أساسها صلة الدم؛ بل هي علاقة اختيارية حرة من الصداقة المثالية الوثيقة المستكملة لكل عناصر الصداقة ومقوماتها.

الولد سر أبيه

يقول «مكدوجال» إن مما يساعد على نشوء هذه الصداقة واستمرارها، شعور الوالد الأكيد بأن ولده هو نفسه؛ إذ يعلم أن العالم عامة يعتبر مزايا ولده ونقائصه كأنها، بمعنى، مزايا الوالد ونقائصه؛ فيمتد إلى ولده مباشرة الاعتزاز والكبرياء المقترن بعاطفة التقدير الذاتي، مما يرضي شعوره الإيجابي بالنفس.

كما أن كل ما يعار الولد من نقص، إنما يثير شعور أبيه السلبي بالنفس، فخزي الولد وشينه، خزي لأبيه وشين؛ كما أن تفوقه ومجده، تفوق لأبيه ومجدُ.

اندماج عاطفة الإيثار والأثرة في الوالدين

وهكذا نرى أن الصداقة بين الوالد والولد (أو البنت) إنما يذكيها اندماج عاطفتي الإيثار والأثرة في العاطفة الأبوية، ذلك الاندماج الذي يسوّدها على طبائعنا، ويجعلها العاطفة التي تنبثق منها أشد أفراحنا وأحزاننا تركيزًا.

كما أن الولد من جانبه (أو البنت) يزيد شعورًا بالحنان وعرفان الجميل، كلما نضج إدراكه لفضل والديه عليه ومحبتهما إياه، فتضطرم رغبته في التعبير عن شعوره، مما يزيد العاطفة الأبوية توقدًا، ويوجد فوق ذلك علاقة تعاطف وجداني إيجابي بين الوالد والولد (أو البنت).

السلوك الأبوي، وانفعال الحنان

الوالدون غالبًا يحبون في الواقع أولادهم، ولكن سلوكهم من نحوهم كثيرًا ما يكون أيضًا مجرد سلوك أبوي، فيشعرون من نحوهم بانفعال الحنان.

ويمكن أن يقال: إن حب الوالد للطفل مشتق من الميل الأبوي، بمعنى أن هذا الميل قد وجّه التفات الوالد أول الأمر إلى الطفل، ويسّر الاكتشاف اللاحق للطفل على أنه بذاته مركز حيّ للميول. وقد يكون في حب الوالد شيء من السلوك الغريزي الأبوي.

ولكن المحبة الحقيقية لأي نوع من المحبوبات، تختلف اختلافا بيّنًا عن انفعال الحنان، وعن كل سلوك أبوي غريزي بمعنى الكلمة: المحبة الحقيقية تستلزم احتضان حاجات الشخص الآخر، بنفس الطريقة المباشرة التي يحتضن بها المرء حاجاته الخاصة.

صادقي طفلك

إذا لم تكن الصداقة لُباب كل علاقة، تجردت من الحياة وشحب لونها؛ فهي مجرد تراب الجمر إذا لم يتأجج لهب الصداقة في صميمها. ولا غرو أن تتردى الأم وطفلها بغير صداقة في النقد الحقير والمطالبة المتعسفة، والخوف السخيف؛ فإذا تصادقا صارت حياتهما جنة تتفتح فيها أزاهير الإلهام، والحكمة، والخدمة.

آخوا أولادكم

تتضاءل متاعب الوالدين التي يسببها النزاع المفروض ارتباطه بالمراهقة، إن تعلّموا تقبّل أبنائهم كأصدقاء. عليهم أن يدركوا أن صغارهم في طريقهم إلى الرشد، وأن لا يعتبروهم أطفالاً بلا حول؛ بل يجب أن يطيقوا رؤيتهم قائمين على أقدامهم؛ والرفقة الحقيقية بين الوالد وولده الناشئ، خبرة جزيلة النفع لكليهما.

والصغار محتاجون إلى النضج والإرشاد، وهم يؤثرون الاستعانة بالراشدين الذين يعرفون كيف يعاملونهم على أنهم أشخاص أذكياء؛ وأنه لأمر مألوف أن يلتمسوا المعونة خارج بيوتهم حتى حين تكون علاقتهم بوالديهم طيبة، ذلك بأن المراهقة تحتاج إلى رؤية الأشياء بعيون الآخرين. ومن مظاهر فهم النشء لمدلول الحياة، اضطرارهم أحيانًا إلى اعتبار أنفسهم خارج نطاق جماعة الأسرة، ولجوؤهم إلى طلب النصيحة بعيدًا عن المنزل.

تلازم أباها الملك المخلوع

استهدف «أوديب» ملك طيبة، لأهوال ثقال من جراء ما ارتكب في شبابه من ذنوب؛ فطُرد من مملكته، وقُضي عليه في شيخوخته بالعمى والتشريد، وبأن يكون محل سخرية الناس وتهكمهم.

وكان في وسع ابنته «أنتيجون» الإقامة في «طيبة» مع شقيقها الذي نصب ملكًا مكان أبيه؛ ولكنها آثرت التشرد مع العجوز المنبوذ الذي فقد عرشه واضطر أن يستجدي ما يسد رمقه.

وقد خلد الشاعر الأثيني «سوفوكليس» مأساة «أوديب»، بعرض الملك العجوز الأعمى، معتمدًا على ذراع ابنته «أنتيجون».

يخترق جيش المنتصرين حاملاً أباه الجريح

وسجل التاريخ شجاعة «شبيو أفريكانوس» الكبير في معركة «تيكينوس» سنة ٢١٩ قبل الميلاد، حين أتمّ القرطاجنيون بقيادة «هانيبال» زحفهم العجيب عبر «الألب» وفاجأوا الرومان في عقر دارهم.

ولم يكن «شبيو» قد جاوز إذ ذاك السابعة عشرة من عمره، وهو يخوض معركته الأولى تحت علم أبيه القنصل، الذي بعجه رمح، فأسقطه عن جواده فاقد الحس. وقد انبرى الولد البار فانتزع أباه من براثن الموت، وحمله فوق جواده مخترقًا به صفوف الظافرين حتى بلغ معسكر الرومان حيث عولج أبوه وتمكن فيما بعد من تحقيق نصر محجّل للجيش الروماني.

السيد المسيح يوصي بأمه تلميذه

وكانت واقفات عند صليب «يسوع» أمه، فلما رأى «يسوع» أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقفًا، قال لأمه: هو ذا ابنك. ثم قال للتلميذ: هو ذا أمُّك. ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته. بعد هذا رأى «يسوع» أن كل شيء قد كمل.

وهكذا كان آخر أعمال السيد المسيح برًّا بأمه؛ كما كانت أولى معجزاته مجاملة لها واستجابة لرغبتها في عرس «قانا الجليل».

«توماس مور» وكريمته «مرجريت»

رأى «توماس مور» أن واجبه يقتضيه مصادقة بنيه، ومسامرتهم واكتساب ثقتهم؛ وقد كوفئ على ذلك بمحبتهم واحترامهم، أيام كان الآباء يلتزمون الصراحة مع أولادهم، ويتعالون عليهم علوًّا كبيرًا، فيضربونهم لأدنى سبب، ويلزمونهم الوقوف في مجلسهم.

ولما اعتزم «هنري الثامن» تطليق زوجته «كاترين» بغير إذن البابا، ثقل الأمر على ضمير رئيس وزرائه «توماس مور» واستقال من منصبه؛ ثم امتنع عن تلبية دعوة الملك والملكة لحضور حفلة تتويج الملكة الجديدة «آن بولين» فاعتزما القضاء عليه، وبعد أن أخفقت محاولة اتهامه بالرشوة وغيرها، قبض عليه وأودع السجن، فكانت زيارات ابنته وصديقته «مرجريت» وخطاباتها مصدر عزائه الأول في محنته، ولا سيما أنها آمنت معه بأن الموت خير من مخالفة الضمير.

حتى إذا نفذ فيه حكم الإعدام، علقت رأسه على سارية فوق كوبري «لندن»، ولكن الرأس لم تلبث أن اختفت. واختلفت الروايات بشأنها، فمن قائل بأن البنت المحبة لما

عبرت بقاربها تحت الكوبري، تجاسرت على التطلع إلى الرأس وابتهلت إلى الله قائلة: طالما استند هذا الرأس إلى صدري، وإني لأتمنى الآن أن تطويه ذراعاي؛ وكان أن وقع الرأس في القارب. وأيًّا كانت وسيلتها إلى الظفر بالرأس المرموق، فإنها إذ اعترفت أمام مجلس البلاط بأنه في حوذتها، لم يتمالك الملك أن صرفها آمنة، وأباح لها استبقاء كنزها الثمين، الذي لازمها حيثما تذهب؛ فلما توفيت في سنة ١٥٤٤ أودع نعشها.

لورد «لندسي» وولده «ويلوبي»

وحين أصاب الثوار لورد «لندسي» قائد جيش الملك «شارل الأول»، وسقط عن جواده معطوب الفخذ، أحاط به فورًا فرسان الثوار. ولكن ولده اللورد «ويلوبي» تسلل وحيدًا بين جند العدو، مخترقًا صفوفهم، ورفع أباه بين ذراعيه غير ملقٍ بالاً إلى الخطر الذي يتهدده. ولما صاح المحدقون به يطالبونه بالتسليم، طوّح إليهم بسيفه وحمل الإيرل إلى أقرب سقيفة وسجّاه على كومة من قش وظل يأسو جرحه. فلما مات الوالد، أرسل الملك «شارل الأول» يعزي ولده وينوه بشجاعته.

تنقذ أباها من براثن الموت

مرقت «ماري دي سومبرييل» من الصفوف حتى لحقت بأبيها، فلما استدعى إلى محكمة الشعب، دخلت معه، وتعلقت به متوسلة إلى الثوار أن يشفقوا على شيخوخته، معلنة أنهم لن يصيبوه حتى يخترموا جسدها.

وقد أثرت عزيمتها في أحد المراقبين، فاقترح أن يؤذن لها بالخروج على أن تشرب الفتاة نخب الأمة، وكانت المحكمة تسبح في بحر من الدماء، وقد مدّ إليها كوبًا به شيء أحمر. فلم

ترتعد «ماري»، بل تجرعته، وعبرت بأبيها عتبة بوابة الموت، خارجة عن الحرية والأمن، وتصفيق المتحمسين يقرع سمعها.

«كوزيت» وابنته «إليزابث»

وقد شجعت أنباء الآنسة «دي سومبرييل» سائر السيدات، فلما نودي «كوزيت» طارت «إليزابث» فانضمت إلى أبيها، وحالت بينه وبين الجلادين، حتى حمل ولاؤها الجماهير أن تصيح طالبة العفو، وفتح لها أحد عمال السجن ممرًّا، فاقتادت هي أيضًا أباها ناجية به من ساحة الردى.

برّ طفل في التاسعة بأمه الأرملة

وهذا ولد في التاسعة، استحق وهو في التاسعة عشرة جائزة الفضيلة، لبرّه بأمه الأرملة التي هجرها سائر أولادها ورفضوا مساعدتها على القيام بواجبها.

وكان البارون «دي مونثيون» المحامي الفرنسي، قد ترك في سنة ١٨٢٠ وصية تنطوي على عدة هبات قيمة كل منها عشرة آلاف فرنك، تخصص لتمويل جوائز سنوية، إحداها للفرنسي الفقير الذي قام في خلال السنة بأحسن عمل من أعمال الفضيلة، وتعطي أخرى للفرنسي الذي يؤلف في فرنسا خلال السنة الكتاب الأكثر نفعًا للأخلاق. على أن تتولى الأكاديمية الفرنسية توزيع الجائزتين، ويتحدث أحد أعضائها في موضوع متصل بالفضيلة، ثم يفيض في التنويه بأعمال مستحق الجائزة.

جائزة الفضيلة

ولئن كان أفاضلنا، ولا سيما فقراؤهم، إنما تدفعهم إلى الفعال النابهة طبائعهم النبيلة وسجاياهم الكريمة، وإيثارهم على أنفسهم، لا يبتغون من وراء هذا جزاءً ولا شكورًا؛ فإن من حق بلدهم ومواطنيهم أن يعرفوا صنيعهم ليكون مثالاً يحتذى، ومنارًا يأتم بهديه من ألقى السمع وهو شهيد.

لذلك ندعو إلى أن تتسع جوائز الدولة لجائزتين جديدتين من هذا القبيل، تكريمًا للسلوك الممتاز، وتشجيعًا للمؤلفين على التصدي لمعالجة الموضوعات الخلقية.

أعظم من مجرد أب وأم

أهدت «وينيفرد هوبتي» كتابها الأول إلى أمها وأبيها تقول: لقد كنتما شخصين أكنّ لهما أعظم الإعزاز، ولاسميهما الجميلين فائق الإعجاب. وقد أحببتكما جدًّا، وأحسب أنني يجب أن أحبكما كصديقين، لو أنكما لم تكونا والديّ. وإذن فإني أهدي كتابي إلى «دافيد» و«أليس هوبتي» اللذين هما عندي أكثر كثيرًا من أن يكونا مجرد أب لي وأم.

فناء فناء الفناء

أهدانا صديق كلمة طيبة في الصداقة جاء فيها: وهناك صداقة تنشأ بين الأصل والفرع، بين الوالد أو الوالدة، وبين الابن أو الابنة. صداقة تقوم على الثقة وحسن التفاهم المتبادلين. وهي أصفى وأسمى ما يصل بين نفسين، تظل تنمو وتنمو، وتسمو تسمو، حتى تصل إلى تلك المرتبة من الصفاء التي ينشدها المتألهون ويسمونها فناء فناء الفناء.

المبحث الثالث

صداقة الإخوة؛ والأقارب

المطلب الأول: صداقة الإخوة

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾—قرآن كريم

أسبقية الشقيق

جاء في «سفر التثنية»: أخوك ابن أمك وأبيك، أو ابنك، أو ابنتك، أو امرأة حضنك؛ أو صاحبك الذي مثل نفسك.

أسبقية الصديق

ومع ذلك، فقد كان «سليمان» يقدم الصداقة على المحبة القائمة على روابط الجنس وعلاقات الدم؛ ويعتبر أن الصداقة قد تكون أوثق من الروابط الطبيعية، وأكثر منها تحملاً، الصديق يحبّ في كل الأوقات، أما الأخ فللشدة يولد، ولكن يوجد محبّ ألزق من الأخ. الجار القريب خير من الأخ البعيد.

وقد قيل لـ «بزر جمهر»: أخوك أحب إليك أم صديقك؟ قال: إنما أحب أخي إذا كان صديقًا.

توافر أسباب الصداقة للإخوة

يتشابه الإخوة غالبًا لتحدرهم من أبوين بعينهما، ويتحابون عادة بحكم طول المعاشرة والمشاركة في الحياة مما يساعد على تماثل ميولهم، وتقارب وجهات نظرهم، واتحاد مصالحهم.

لذلك يكون اختيار الأصدقاء من الأشقاء سهلاً موفقًا قائمًا على مقدمات طويلة تؤكد الثقة وتبعث على الطمأنينة. فضلاً عن أن التصاقهم بوالديهم يضاعف من فرص اجتماعهم ومناسبات التقائهم حتى بعد استقلالهم ببيوت منفردة.

عوامل الشقاق بين الإخوة

ومع ذلك، فقد يتمخض الاحتكاك، وطول المعاشرة عن تباغض الإخوة وتحاسدهم، كأن يشعر الأخ الأكبر بمحاباة الوالدين لأخيه الأصغر، أو يحس الأصغر بظلم الأكبر وعدوانه وبخاصة عند الاختلاف على الميراث أو تدخل الزوجات بالوقيعة.

وقد أراد «بلوتارك» إقناع رجل بالاتفاق مع شقيقه، فأجاب: « لست أُعني به مثقال قشة وإن كان قد تمخض عنه نفس الرحم الذي خرجت منه. حقًّا إن اسم الأخ مجيد، مملوء حنانًا ودودًا، ولذلك؛ فقد أطلق كل منا على الثاني اسم أخ وصاحب عهد. ولكن هذا الامتزاج والاقتسام والمشاركة في الخيرات، هذا الضم للثروتين، وإن أغنى الواحد يكون مفقرة الآخر، من شأنه الإخلال بكل تحالف أخوي أو اتحاد حي، وتهويشه. ولو أن الأخوين أن يوجها سير تقدمها واقتصادهما في نفس الطريق، وذات الاتجاه؛ فإنه لا بد لهما غالبًا من أن يتفوق أحدهما على الآخر، ويضاده.

أشقاء الزوجين

دلت بعض الاستفتاءات على أن عددًا كبيرًا من الزيارات يحدث بين الأقارب، وعادة بين أشقاء الزوجين وأنسبائهما، والأصدقاء الحميمين. وفي معظم الأسر تكون رابطة الدم القريبة لباب هذه المجموعة من الأصدقاء، وحتى بين هؤلاء يفضل الأقربون من الأقارب.

الشقيق المنسي

ومن الحالات المألوفة أن يتبادل الرجل الزيارة مع ثلاثة من أشقائه وأنسبائه، على حين تمضي أعوام لا يزور في خلالها أخًا آخر، مع عدم وجود خلاف بين الأخوين، وبالرغم من أنه لا يفصل بين مسكنيهما غير مسافة قصيرة؛ وكل ما في الأمر أنه لم تكن بينهما مصلحة مشتركة.

تموت لتدفن جثة أخيها

لما خلف «إيتيوكليس» أباه الملك «أوديب» على عرش «طيبة»، طرد أخاه، الذي حشد جيشًا يسترد به حقوقه، ومرّ بأبيه «أوديب» في منفاه، يستأذنه؛ وكان قد لاذ بملك «أثينا»، ولحقت به ابنتاه «أنتيجون» و«إسمين».

ولما كان الإغريق يعتقدون أن الروح تظل هائمة لا يقر لها قرار، صاعدة هابطة على شطي جدول مظلم، غير قادرة على دخول منزل الموتى حتى تجرى المراسم الجنائزية، فقد أخذ الميثاق على شقيقته أن تحول دون ترك جثته بغير دفن إن قتل في المعركة. فقطعت أخته «أنتيجون» العهد على نفسها ألا تتركه محرومًا من الشعائر الأخيرة. وقد انقضّت على الملك «أوديب» صاعقة قتلته وشيكًا، فعادت الشقيقتان إلى «طيبة».

وبعد التحام الجيشين في معركة دموية، تبارز الشقيقان فقتلا، وارتقى عمهما «كريون» عرش «طيبة»، وكان ينحاز دائمًا إلى جانب: «إيتيوكليس» فأمر بأن يدفن جسد هذا الأخ الأصغر بكل المراسم، وأن تترك جثة أخيه الأكبر في العراء لتأكلها الكلاب والعقبان، وأن من يجترئ على دفنها يعتبر ثائرًا خائنًا للدولة.

وحُمّ الوقت الذي تتذكر فيه الأخت عهدها لشقيقها القتيل، وودت أختها «إسمين» أن تثنيها عن عزمها، فأجابتها قائلة بأنه: لا عذاب يمكن أن يتخذ بالنسبة لي الصورة الرهيبة التي تثنيني عن ميتة مجيدة.

وزحفت ليلاً بين أهوال ميدان القتال المهجور، فوارت بالتراب جثة أخيها. ولكن العم الفظ أمر بنبشها وإعادة تعريضها، مع حراستها.

غير أن «أنتيجون» شوهدت تندب نائحة بأنين مرتفع، كالطائر المسكين الذي يرى عشه السحيق قد سلبت فراخه. وعادت مرة أخرى تحثو التراب الجاف بيديها فوق الجثمان، فقبض عليها الجند واقتادوها إلى «كريون» حيث اعترفت بفعلتها، فأعدمت وراحت ضحية شجاعتها ووفائها بعهدها وبرها بشقيقها.

«الخنساء» و«صخر»

سجل الأدب العربي صداقة «الخنساء» لشقيقها «صخر»، وقد تناولناها في باب «رثاء الصديق».

تموت لتنقذ شقيقها

وهذه «فرانسواز ماري» فتاة فرنسية يتمت في الحادية عشرة مع شقيق يصغرها، فصارت له أمًّا صغيرة وصديقة، تعوله من حصيلة تطريزها وغزلها، حتى فاجأتها في شتاء قارس ذئبة مع أجرائها الخمسة استدرجتهم رائحة الرغفان الساخنة التي كانت «فرانسواز» تخبزها.

وكادت تطرد الذئبة بعصى غليظة، ولكنها بصرت بأحد الأجراء يهم بالهجوم على أخيها، فأمسكت بالولد ودفعته إلى دولاب أو صدته دونه؛ غير أن الذئبة انتهزت هذه اللحظة فطارت إلى نحرها، ولم تلبث أن التهمتها الحيوانات المفترسة. وظل أخوها آمنًا حتى أنقذه الجيران وعاش معتزًّا بذكرى الأخت - الأم والصديقة التي ماتت ليعيش.

المطلب الثاني: أبناء العمومة والأقارب

يقول «أرسطو»: إن الروابط المتبادلة بين أبناء العمومة والأقارب إلى درجات أخرى، ترجع إلى الأرومة المشتركة التي يخرجون منها، والتي تربطهم بالأصل الواحد. ويصير بعضهم لبعض قرباء أشد رابطة، أو غرباء تبعًا لدرجة قرابة كل منهم من رئيس الأسرة.

صداقة أبناء العم في أساطير اليونان

ينتقم لابن عمه: تروي الأسطورة اليونانية كيف انتقم «أخيلس» من «هكتور» قاتل صديقه وابن عمه « باتروكلس»، وربط جثته إلى مركبته يمثّل بها، ولم يأذن بتسليمها إلى «بريام» إلا بعد طول توسله.

صداقة «أوريست» و«بيلاد»: كما تروي الأسطورة أن «أوريست» كان قد أرسل صبيًّا إلى عمته زوجة ملك «فوسيس» التي ربته مع ولدها «بيلاد»، فانعقدت بينهما صداقة صارت مضرب المثل.

ينسى ذنوب ابن عمه

قال «محمد الأسدي»:

ولا أدفـع ابن العم يمشـي على شـفى ... وإن بلغتنـي عـن أذاه الخنـادعُ
ولكـن أواسـيه وأنسـى ذنوبَـه ... لترجعـه يومًـا إليّ الرواجـعُ

وقال «علي بن أبي طالب»:

أخـوك الـذي إن أحوجتـك ملمـةٌ ... من الدهـر لم يبرحْ لها الدهـرُ واجمًا
وليسـ أخـوك الحـقُّ من إن تشـعبت ... عليـك أمـورٌ ظـل يلحـاك دائمًـا

وروى «أبو حيان»:

إني وإن كان ابـن عمـي غائبًـا ... لمقـاذف مـن دونـه وورائـه
ومفيـده نظـري وإن كان امـرأً ... مترجرجًـا في أرضـه وسـمائه
ومتـى أجـده في الشـدائد مرمـلاً ... أُلقـي الـذي في مـزودي بوعائـه
وإذا تتبعـت الجلائـف مالـه ... خلطـت صـحيحتنا إلى جربائـه
وإذا أتـى مـن وجهـه بطريقـه ... لم أطلـع ممـا وراء خبائـه
وإذا اكتسـى ثوبًـا جميـلاً لم أقـل ... يـا ليـت أن علـيّ حسـن روائـه
وإذا غـدا يومًـا ليركـب مركبًـا ... صـعبًا قعـدت لـه علـى سيسـائه
وإذا اسـتراش وفرتـه وحمدتـه ... وإذا تصـعلك كنـت مـن قرنائـه

المبحث الرابع

صداقة الزوجين

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ - «الآية»

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ - «قرآن كريم»

صداقة الزوجين الفاضلين

يقول «أرسطو»: إن محبة الزوجين هي نتيجة الطبع مباشرة، فإن الإنسان أميل إلى الاجتماع مثنى مثنى، والأسرة سابقة على المملكة وأشد لزومًا منها. ومع أن وظيفتي الرجل والمرأة مختلفتان، غير أن الزوجين يتكاملان على التناوب بأن يضعا ملكاتهما الخاصة شائعة بينهما. وهذا هو السبب في أن هذه المحبة تجمع بين الملائم والنافع. ويمكن أن تكون هذه الصداقة أيضًا صداقة فضيلة إذا كان كل من الزوجين صالحًا؛ لأن كليهما له فضيلته الخاصة، وبهذا يمكن أن يتبادلا المحبة والرحمة.

تشبه الزوجية علاقة العصبات

يقول «صدجويك» في كتابه: «منهاج الأخلاق»: إن العلاقة الزوجية في أصلها اختيارية، إلا أنها إذا تكونت فإن التأثر الوجداني الناجم عنها، يعتبر عادة شبيهًا بالتأثرات الوجدانية بين العصبات. وهي لذلك تشغل مركزًا متوسطًا بين العصبات، والصداقات العادية والمشاركات، والزمالات، التي يستطيع الناس إبرامها ونقضها.

صداقة من طراز ممتاز

يقول «ديوي» في كتابه «علم الأخلاق»: إن ثمة اعتبارات معينة تجعل صداقة الرجل والمرأة، التي يتمخض عنها الزواج في أحسن حالاته؛ أوثق أنواع الصداقة وأجملها وأحفلها بالمعونة المتبادلة.

فإن مشاطرة المطامح والآمال، والخبرات والمسرات والأحزان، ولا سيما التخطيط الموحّد، والاهتمام بمصلحة ذريتهما ومستقبلهم؛ من شأنه إقامة حياة موحدة لا تتوافر مقوماتها في أي طراز آخر من الخبرة.

علاقة أبدية

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴾—«قرآن كريم»

يقول «تمبول»: من يرتبطون بالزواج، يجب أيضًا أن يرتبطوا بالصداقة. (حب نقي خال من الأنانية)؛ ولكن ما لم ينطو الزواج على هذه الوحدة للأرواح، فالزواج يجب أن ينتهي بانقضاء الحياة على هذه الدنيا.

الزواج بلا صداقة

الزوج والزوجة اللذان تربطهما الشهوة أو الاعتبارات الاقتصادية، تخلو حياتهما من الرابطة المقدسة التي يجب أن يكوّنها الزواج؛ فإذا تضاءلت المصلحة أدركتهما السآمة، وكلما ألحت عليهما الضرورة اهتاجا، وفقدا إربهما، أما الزوجان الصديقان، فإن حياتهما تزيد بالمحبة مع الأيام حيوية وبهجة وغنى.

الزوجان الصديقان

يهتبل الرجل والمرأة في صباهما الفرص، على حدّ تعبير «أندريه موروا» لإشباع شهوات الجسد. أما في خريف حبهما، فإنهما يلتمسانها لتبادل الإفضاء بدخيلة نفسيهما؛ فتصير لتمشّيهما معًا الأهمية التي كانت من قبل لمواقيت الغرام، ويشعران بالتفاهم التام، ويفكران في نفس الشيء في وقت معًا، كلاهما مستعد للتخلي عن الحياة نفسها من أجل زوجه، وإن زوجه بهذا عليم.

حوائل دون صداقة الزوجين

يذهب كثيرون إلى أن علة ازدهار الصداقة بين الرجال ترجع إلى ما كان بين الرجل والمرأة من فرق بعيد، في مستوى المعرفة ودرجة التفكير، وإلى تخلّف مكانة المرأة الاجتماعية ومنزلتها الدينية. فلما جاءت المسيحية ورفعت من شأن المرأة تضاءلت الصداقة، إذ وجد الرجل في زوجه صديقة تغنيه عن التماس الأصدقاء خارج بيته.

والواقع أن كثيرًا من الزيجات العصرية تقوم أصلاً على أساس من الصداقة والتشابه في الثقافة، ودرجة الذكاء، بل في الاستقلال الاقتصادي والمقدرة على كسب الرزق؛ فلم يعد الزواج مجرد وسيلة لاستدامة النوع، ولم تمس مهمة الزوجة محصورة في تزويد الأسرة بالبنين ورعاية طفولتهم، بل صارت الزوجة شريكة الزوج وصنوه، وكفوًا له في كل شيء.

الزوجة الصديقة الأمينة

ظلت «بنيلوب» طاهرة أمينة لزوجها الذي غاب عن بيته عشرين عامًا، وكان كلما تقدم إليها خاطب من سادة «أتيكا» وما حولها من جزر البحر، استمهلته ريثما تفرغ من نسج

كفن لحماها العجوز، فإذا كان المساء نقضت غزلها، وعاودت جهدها من جديد، وظلت على هذا الحال إلى أن رجع زوجها «أوديسيوس».

عروس بطل «طروادة»

كان «بروتيسيلاوس» بطل الأساطير أحد قواد حرب «طروادة»، وأول من نزل بها، فحقت عليه النبوءة القاضية بموت أول من تطأ قدمه أرض «طروادة» من الغزاة اليونان، والتاعت عروسه الشابة «لاداميا»، وكان أن استجابت الآلهة لابتهالها فأذنت بعودة زوجها الميت لمدة ثلاث ساعات، فلما انقضت الساعات المحددة رافقته إلى العالم السفلي.

تموت فداء زوجها «أدميتوس»

صارت «أليستيس» نارًا على علم تستهدي بقدوتها نساء اليونان؛ إذ ارتضت بذل روحها ليطول أجل زوجها، فبزت بحنانها أمه وأباه؛ إذ ضنَّا على ولدهما بما سَخَتْ به زوجه.

وقد راق الناس نبل صنيعها، كما عجبت منه الآلهة؛ فمنحوها امتياز العودة إلى الدنيا، وهو تقدير أغدقوه على قلة نادرة من أهل الفضل.

زوجة «علاء الدين الطنبغا»

سيق المتهمون في مقتل السلطان «خليل بن قلاوون» وسمروا على الجمال وأيديهم المقطوعة معلقة في أعناقهم، تتقدمهم رأس الأمير «بيدرا» محمولة على رمح. ولما مروا بدار «علاء الدين الطنبغا» أحد المتهمين، همت زوجه بإلقاء نفسها من أعلى الدار، لتقع عليه، لولا أن أمسك بها جواريها، وهي تصيح: ليتني فداك، وقطعت شعرها وألقت به عليه؛ فتهالك الناس من كثرة البكاء.

ليدي «أليس» زوجة «توماس مور»

أما ليدي «أليس» زوجة سر «توماس مور» رئيس وزراء الملك «هنري الثامن»، فقد ظلت وفية، لمّا صودرت ممتلكاته، باعت كل شيء ولم تضنّ بملابسها، لتزويده بما تمس إليه حاجته في السجن.

زوجة «شارل الأول»

بعد أن أبحرت زوجة «شارل الأول» إلى مدينة «كاليه» استأنفت في نفس اليوم سفرها إلى «بولوني»، غير أنها أبت أن تستمر في رحلتها حتى تتلقى أنباء سلامة زوجها، معتزمة أن تعود أدراجها إلى إنجلترا لمشاركته الاستشهاد في حالة ظفر خصومه به على إثر محاولته النجاة. ولم يكن لها همّ إلا تزويد زوجها بالمال اللازم لمتابعة الحرب، ومكاتبته، وتشديد عزيمته.

جوهرة لا تقدر قيمتها

وصف «ريتشارد ستيل» زوجه، قال: قدّمت إليّ في كل لحظة من حياتها أمثلة جديدة على تمشيها مع ميولي، وحصافتها في الحفاظ على مالي. محياها عندي أجمل كثيرًا مما رأيته لأول مرة، فليس في ملامحها أي تحول لا يسعني ترسمه منذ لحظة حدوثه بسبب توجسها وقلقها على سعادتي ومصالحي. ولذلك فإني أعتقد أن الحب الذي استشعرته من نحوها لما كانت عليه، قد زاده عرفاني بجميلها لما صارت إليه، آه إنها لجوهرة لا تقدر قيمتها.

«دذرائيللي» وزوجه «ماري آن»

يقول «كرنيجي»: لم يكن للأرملة العجوز التي اختارها «دذرائيللي» رئيس وزراء إنجلترا في القرن الماضي نصيب من صبا أو صباحة أو ذكاء وقّاد، بل كان جهلها الفاضح بالأدب والتاريخ مثيرًا للضحك، فهي لا تدري أيهما أسبق؛ اليونان أم الرومان. كان ذوقها في الملابس شاذًّا، وأسلوبها في تخير الأثاث غريبًا. ولكنها كانت عبقرية حقيقية في فن تناول الرجال، وهو أهم فنون الزواج.

لم تحاول أن تضع ذكاءها مقابل ذكاء «دذرائيللي»؛ فإذا عاد إلى البيت ضجرًا منهوكًا، بعد أمسية من تبادل الإجابات البارعة مع دوقات ذكيات، هيأ له هذر «ماري آن» الماجن أن يستجم. كان يجد في داره، لفرط غبطته المتزايدة، مكانًا يتخفف فيه من أي قيد عقلي، ويتشمس في دفء إعجاب «ماري آن». وهذه الساعات التي يقضيها مع زوجه في البيت أسعد ساعات حياته. وهي رفيقه المساعد، ومستودع سرّه، ومستشاره. يُهرَع كل يوم راجعًا من مجلس النواب ليفضي إليها بأنباء اليوم؛ والمهم هو إيمان «ماري آن» بأنه ما انبرى لأمر إلا حالفه النصر.

وعاشت «ماري آن» ثلاثين عامًا لأجل «دذرائيللي»، وله وحده، وما كان حتى اعتدادها بثروتها، إلا لأنها تزيد حياته يسرًا؛ وفي مقابل ذلك صارت بطلته. وقد أقنع الملكة «فكتوريا» بأن ترفعها إلى مرتبة الأشراف، فصارت «الفيكونتسة بيكونزفيلد».

ومهما يكن مظهرها سخيفًا أو مهوشًا في نظر الناس، فإنه ما انتقدها قط، ولا نبست شفتاه بكلمة توبيخ؛ فإذا تجاسر أحد أن يسخر منها، انبرى لحمايتها بولاء وضراوة.

لم تسأم «ماري آن» خلال ثلاثة عقود من التحدث عن زوجها، مثنية عليه، معجبة به. قال «دذرائيلي»: دام زواجنا ثلاثين عامًا لم أضق بها يومًا. وذلك رغم أن بعض الناس حسبوا أن «ماري آن» لا بد أن تكون غبية لأنها تجهل التاريخ.

ولم يخف «دذرائيلي» أن «ماري آن» أهم شيء في حياته؛ كما أنها صدعت لأصدقائها بأن حنانه قد أصار حياتها مشهدًا طويلاً من السعادة.

كانت بينهما نكتة مشتركة، يقول لها: أنت تعرفين أني تزوجتك لأجل مالك. فتجيبه باسمة: أجل، ولكنك إن عدت من جديد إلى خطبتي، فإنك تتزوجني عن غرام؛ أليس كذلك؟ فيعترف بها بصحة قولها.

الموت أحب من فراق الزواج

هزت العالم كارثة غرق الباخرة العظيمة «تيتانيك»، وروعته، وإن كانت قد أتاحت له الاطلاع على نماذج فريدة من الصداقات القوية التي لا تنال منها رهبة الموت الماثل للعيان.

فهذا «إيزا دور ستراوس» المليونير وزوجه؛ وكانا يتبادلان علنًا مظاهر الإعزاز حتى أسماهما المسافرون «دربي وجوان»، وهما زوجان معمّران عاشا في أوائل القرن الثامن عشر واعتبرا مثالاً للسعادة الزوجية.

وكان المليونير وزوجه يقولان إنهما لم يفترقا يومًا ولا ليلة طوال سني زواجهما المديدة. وقد وجدت جثتاهما بعد ساعات من غرق السفينة متعانقتين. وكانت مسز «ستراوس» قد توارت عن ضباط السفينة الذين حاولوا حملها قسرًا على النزول في أحد قوارب النجاة، المخصصة للنساء.

وهذه ليدي «دف جوردون» تروي في كتابها عن حادث التيتانيك أنها رفضت التدلي إلى قارب النجاة لما أراد ضباط السفينة إكراهها على النزول. وقد ظل زوجها سر «كوزمو» يتوسل إليها أن تنجو بنفسها وهي ترفض المرة تلو المرة حتى تم شحن ثلاثة قوارب أو أربعة، وكان كل ردها أن تطلب وعدًا من زوجها أنه مهما يحدث، فإنه لن يتركهم يفرقون بينهما. وأخيرًا وبعد أن تأكد أنه لا فائدة من مقاومة رغبتها استسلم؛ فوقف كلاهما فوق السفينة حتى اتسع أخيرًا أحد القوارب لنجاتهما معًا.

صداقة الزوجين من الحمام والدلفين

وليست الصداقة مقصورة على بني البشر وحدهم دون سائر خلق الله، كما يتضح من القصتين التاليتين:

تؤثر الأسر مع أليفها: نجح «لاتيد» سجين «الباستيل» في اصطياد إحدى حمامتين اعتادتا أن تحطا على نافذته، وكان ذكرًا جميلاً، وسرعان ما اصطاد أنثاه أيضًا، التي بدا تطوعها لمشاركة أليفها في أسره.

الدلفين المخلص: وقد جاء في عدد أغسطس ١٩٦١ من مجلة «ورلد دايجست» أن «هـ براون» في «ماري لاند» على الباسفيك يذكر موت دلفين أنثى اسمها «بولين» بمرض ذات الجنب، بعد أن توثقت علاقتها بدلفين ذكر، وقد ظل الذكر يحوم حول الجثة وهو يصفر محزونًا؛ ولم ينفك عن الدوران في البركة مدى ستة أيام، كالطائرة الضالة تبحث عن موضع للنزول. وقد صدف عن الطعام، وامتنع عن صحبة سائر الحيوان، وأخيرًا في اليوم السادس وجد ميتًا في قاع البركة.

الفصل السادس
صداقة النساء

المبحث الأول
قابلية النساء للصداقة

لفظ الصديق للمذكر والمؤنث

قال الله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾؛ فأخرج الصديق مخرج الواحد؛ وهو يريد الواحد والجمع، المذكر والمؤنث.

قال «جميل»:

كأن لم نقاتل يا بثينُ لو أنها تُكَشَّف غُمّاها وأنتِ صديق

وقال «كُثير»:

لياليَ من عيش لهونا بوجهه زمان و «سُعدى» لي صديق مواصل

تخلف المرأة في مضمار الصداقة

ثمة من ينكر على المرأة قدرتها على الصداقة، ويرجع هذا إلى أنها بطبيعتها تهتم أولاً بعقد علاقتها برجل؛ ولأنها تغار من المرأة الأخرى، وتخشى منافستها.

الصداقة للرجال وحدهم

كانت أسمى مظاهر الصداقة عند اليونان في العصر الكلاسيكي، تنحصر في الرجال، لأن انحطاط مكانة المرأة عندهم حال دون مشاركتها في مستويات الحياة العالية للمواطن.

النساء قاصرات عن الصداقة

وينكر «مونتيني» صراحة إمكان قيام صداقة بين رجل وامرأة؛ لأن النساء قاصرات عن الصداقة، وإنه ليأسف لهذه الاستحالة. وهو يعزوها إلى أن روح المرأة العادية ليست من القوة بحيث تطيق وثاق ربقة مشدودة مستديمة بهذا القدر.

المبحث الثاني

صداقة المرأة بالمرأة

نبالة صداقة النساء

ظفرت صداقة الرجال منذ عهد «هومر» بالتمجيد والتحبيذ، أما صداقة النساء، فإن أحدًا لم يكد يحتفل بها، بل كانت محل سخرية وانتقاص وتفسير زائف. وقد قالت «فيرا

بريتان» في كتابها «ميثاق صداقة»: إني آمل أن تقضي قصة «ونفريد» على هذه التفسيرات المزيفة، وأن تظهر لقرائها أن الولاء والوجدان بين النساء، علاقة نبيلة تزيد في الواقع من محبة الفتاة لحبيبها، والزوجة لزوجها، والأم لولدها؛ ولا تنقصها.

صداقة «راعوث» وحماتها «نُعمى»

وقد سجلت التوراة قصة «نعمى» وزوجها وولديهما، وكانوا من «بيت لحم يهوذا»، فاغتربوا في بلاد «مؤاب» هربًا من القحط. ولما مات الزوج اتخذ الولدان زوجين مؤابيتين، وبعد عشر سنين توفي الولدان أيضًا. ونمى إلى «نعمى» أن الحال في بلدتها قد تحسن، فاعتزمت العودة، وطلبت أن ترجع كنّتاها كل إلى أمها؛ ولكن «راعوث» لصقت بحماتها، فقالت لها «نعمى»: هو ذا قد رجعت سلفتك إلى شعبها وآلهتها، ارجعي أنت وراء سلفتك. فقالت «راعوث»: لا تلحّي عليّ أن أتركك وأرجع عنك، لأنه حيث ذهبتِ أذهب، وحيثما بتّ أبيت؛ شعبك شعبي، وإلهك إلهي، حيثما مت أموت، وهناك أدفن. هكذا يفعل الله بي، وهكذا يزيد، إنما الموت يفصل بيني وبينك.

وذهبتا كلتاهما حتى دخلتا «بيت لحم»، وكان لزوج «نعمى» قريب ذو مال، اسمه «بوعز» علم بكل ما فعلت «راعوث» بحماتها بعد موت رجلها، حتى تركت أباها وأمها، وأرض مولدها، وسارت إلى شعب لم تعرفه من قبل؛ فدعا الله أن يكافأ عملها ويجزل أجرها، وانتهى الأمر بأن تزوجها.

الفرق بين صداقة النساء وصداقة الرجال

«الأناقة المدلّلة للصداقة النسوية»—«صموئيل جونسون»

رأي «بونار»: يقول «بونار»: أرقب صديقتين تثرثران، إنهما لا تفتران تتهامسان بأقاصيص معارفهما، بغير أن تستخلصا شيئًا مما تؤدي إليه قصصهن من حقائق. إنهما شديدتا الفضول، ولكن فضولهما لا يوصلهما إلى المعرفة؛ تتوقان إلى استعراض مناظر الدنيا، بغير أن تفكرا في التثقيف بها؛ تتجسسان على كل شيء ولا تلاحظان شيئًا.

إن التعاطف الذي يربط امرأتين، لا يرفعهما فوق حياتهما الخاصة، النساء اللاتي يعتقدن أنهن صديقات، هن شريكات أو ضحايا؛ يتشاركن في كيدهن ومسراتهن، ويتبادلن المعاونة. إذا أساء القدر معاملتهن، أو جرحتهن غلظة الرجال، استندت الواحدة إلى الأخرى، وأطلقت عليها نعوت التدليل؛ في عواطفهن شيء من الغلوّ يكشف عن غرورهن. ولكن هذا التعاطف المرتجف، هو أقرب إلى الغرام منه إلى الصداقة الحقيقية.

وكما تنجم صداقة النساء عن أحوالهن، فإنها تعتمد على الظروف في دوامها، إذا ظهر رجل تعجب به الصديقتان، كان هذا كافيًا للمباعدة بينهما، فتنقلبان متنافستين، وتكون هذه المباراة الجديدة أقرب إلى طبيعتهما من تعاطفهما القديم.

رأي «أندريه موروا»: ويقول «أندريه موروا»: إن الصداقات بين الفتيان يغلب أن تصل إلى حدّ أشد عنفًا من صداقات الأولاد، وأنها تتضمن عنصرًا من التواطؤ والتحالف السري ضد كل الخصوم، من والدين وأشقاء وشقيقات، ولا سيما الرجال بصفة عامة، باعتبارهم جنسًا معاديًا، يشعر النوع الأضعف بضرورة توحيد الصفوف بإزائه؛ وقد يكون الخصم أحيانًا جماعات أخرى من البنات.

وترجع هذه الحالة إلى التواطؤ، وتبادل المعونة؛ إلى ضعف الأنثى المراهقة الزائد، وإلى تقييد حريتها الذي طالت عليه الآماد.

والزواج الموفق يضع حدًّا للصداقة النسائية؛ أما إذا أخفق الزواج، فلابد للمرأة الشابة من أخريات تستودعهن سرّها. ينبثق التواطؤ من جديد، ليس ضد الأسرة، بل ضد الزوج. وكثيرات من النساء تظل أمينات طوال حياتهن لفكرة التكاتف للدفاع عن أنفسهن ضد قبيلة الرجال الخطرة، وهذا التكاتف يصير غير منتج بالضرورة. بمجرد التنازع على رجل بالذات.

ولا بد للمرأة من نفس موفورة الحظ من النبل، وثقة وثيقة بحظها الموفق، لتتقبل بغير تحفظ سعادة صديقة لها مع رجل قد كان من الممكن أن تقع هي في حبه.

وإن بعض النساء لضعف ثقتهن بأنفسهن لا يسعهن مشاهدة مثل هذه الصلات، بغير أن يتمنين فصمها لمصلحتهن الخاصة، إنهن يردن الرجل لا لذاته، بل لكي لا يكون للمرأة الأخرى.

ومن الأمثلة المعاصرة أن ممثلة معروفة اقترنت بزوج أصدق صديقاتها.

رأي «سيمون دي بوفوار»: تقول «سيمون دي بوفوار»: إن الصداقات النسوية التي تنجح في تكوينها، أو الاحتفاظ بها، هي ثمينة عند المرأة، ولكن نوعها يختلف اختلافًا كبيرًا عن العلاقات بين الرجال.

فإن الرجال يتعاملون كأفراد، عن طريق آراء ومشروعات ذات أهمية شخصية؛ في حين تنحصر النساء في حدود نصيبهن النسوي العام، يربطهن معًا ضرب من التآمر الفطري.

إنهن لا يناقشن الآراء، والأفكار العامة، بل يتبادلن الأسرار ووصفات الطعام، إنهن عصبة لخلق وجود مضاد، ترجح القيمُ فيه القيمَ عند الذكور؛ يخلقن مجتمعات قوية للتخلص من أغلالهن. إنهن يسلبن السيطرة الجنسية للذكور، بالإفضاء فيما بينهم بعنّتهن، وفي حين يكرهن رغبات الرجال أو جلافتهم، فإنهن يدحضن ساخرات التفوق الذهني لأزواجهن وللرجال عمومًا.

إنهن يقارنّ خبراتهن وحملهن وولادتهن وأمراضهن وأمراض أولادهن، وتعتبر مشاغل بيوتهن أحداثًا رئيسية في تاريخ البشر. وشغلهن ليس عملاً فنيًّا، فهن إذ يفضين بوصفات الطهي، وأشباهها، يخلعن عليها وقار العلم السري المستند إلى التداول الشفوي.

وقد تبحث الصديقات أحيانًا المسائل الخلقية؛ وفي أعمدة المجلات النسوية أمثلة طيبة لموضوعات أحاديثهن، وقلّ أن يستطيع الإنسان أن يتصور عمودًا للقلوب الوحيدة للرجال فقط. يلتقي الرجال في العالم الذي هو عالمهم؛ في حين لابد للنساء من تعريف ودليل لاستكشاف منطقتهن الخاصة.

وتتناول مراسلاتهن نصائح التجميل بصفة خاصة ووصفات الطهي وتوجيهات للحبك، وطلب المشورة. ويظهر القلق الحقيقي من خلال نزوعهن إلى الثرثرة واستعراض النفس.

تعرف المرأة أن شريعة الرجال ليست شريعتها، وأن الرجل يعتبر أن من المسلم به أنها لا تتقيد بها؛ لأنه يحضُّها على الإجهاض والزنا وارتكاب الخطايا والخيانات والكذب، وغيرها من المعاصي التي يؤثمها رسميًّا.

وهي لذلك تلجأ إلى النسوة الأخريات ليتعاونّ على تخطيط أحكام محلية، أو قانون أخلاقي خاص بالإناث. ليس من دأب النساء التعليق المستفيض على سلوك صديقاتهن

أو نقده بأسلوب العنف الرجالي وحدته؛ تحتاج النساء إلى أكثر مما يلزم الرجال من براعة خلقية ليستطعن الحكم على الأخريات، أو لينظمن تصرفاتهن الخاصة.

وإن مما يجعل لمثل هذه العلاقات بين النساء قيمة، هو ما تنطوي عليه من صدق، ذلك بأن المرأة في مواجهة الرجل دائمة التمثيل، فهي تكذب حين تتظاهر بقبول وضعها باعتبارها الطرف الثانوي، تكذب حين تصطنع شخصية خيالية عن طريق المحاكاة، واستخدام جمل معتادة مدروسة. تحتاج هذه المسرحيات إلى جهد مستمر، تشعر كل امرأة إلى حدّ ما وهي برفقة زوجها أو حبيبها أنها ليست على سجيتها، فإن عالم الرجال خشن، شحيذ، أصواته مجلجلة، وأنواره مكشوفة، واتصالاته غليظة فوق ما ينبغي.

أما مع النساء الأخريات، فإن المرأة تكون خلف الستار. تصقل أسلحتها، ولكن في غير معركة، وتنسّق ملابسها، وتعدّ زينتها، وتطرح أساليبها؛ إنها تسترخي في مئزرها وخفّها في جناح محجوب عن النظارة قبل الظهور على المسرح. وهي تحب هذا الجو الدافئ السهل الوادع.

وأنت تجد في Le Képi من تأليف «كوليت» صديقتين تخيطان في اطمئنان، وتبحثان بعض مسائل تافهة خاصة بالعمل، وتتخافتان بحديث عن طرق مستحدثة للزينة وفي مقابل هذا المنظر الهادئ، مشهد آخر يستعرض تأهب إحدى الصديقتين للقاء شاب، الجو أكثر جدية، يجب أن لا تكون ثمة دموع؛ الزينة! تتأسف لأنها لم تشتر فستانًا، يجب استعارة جوارب حريرية رقيقة، أتتزين بزهرة، هناك أسئلة كثيرة! في مثل هذه الظروف تساعد امرأةٌ امرأةً أخرى، تبحث مشاكلها الاجتماعية، تجعل كل من نفسها شبه عش دافئ، وتكون أقوالهما وأعمالهما غير مفتعلة.

هذه الرابطة الحارة غير المتحفظة عند بعض النساء أغلى من الأبهة الجادة لعلاقتهن بالرجال. تجد عاشقةُ ذاتِها، كما كانت تجد أيام مراهقتها، صورة أثيرة منها في امرأة أخرى؛ إنها مستطيعة الإعجاب بملابسها الجيدة التفصيل وبما تضمنانه، من خلال عيني صديقتها اليقظتين المتعجبتين.

وتظل صديقتها بعد الزواج شاهدة مفضلة، وتستمر في نظرها رغيبة راغبة. ثمة ميول جنسية مثلية في كل فتاة تقريبًا لا يمحوها تكرار عناق الزوج غير اللبق، وهذا هو مصدر تلك الحلاوة الحسية التي تشعر بها المرأة بين صويحباتها الحميمات، شعور لا مثيل به بين الرجال العاديين. وهذه الرابطة الحسية بين النساء يمكن أن تتسامى في عاطفية رقيقة، أو قد تتخذ تعبيرًا من المداعبات منوعة الطبيعة أو مخصصتها. وقد تكون مداعباتهن أيضًا مجرد تسلية في لحظات الفراغ، كما كان يصنع الحريم إذ ينصرف همهن الأول إلى قتل الوقت، أو قد يكون لها أهمية مباشرة.

وقل مع ذلك أن يرتفع شعور الزمالة في المرأة إلى صداقة حقيقية، زيد شعور النساء التلقائي بتضامنهن، على شعور الرجال، ولكن في حدود هذا التضامن لا يتجه تفوق كل منهن خارجًا نحو الأخريات؛ لأنهن جميعًا يواجهن معًا عالم الرجال الذي تريد كل منهن احتكار قيمته لنفسها. علاقاتهن مؤسسة على فردياتهن، بل تمارس مباشرة في تعميم؛ ويتمخض هذا من فوره عن عنصر من عداء.

وهذه «ناتاشيا» في «حرب وسلم»، رغم تعلقها بنساء أسرتها، ورغبتها في دعوتهن لشهود الاحتفال بأعياد ميلاد أطفالها؛ فإنها كانت مع ذلك تغار منهن؛ لأن أي واحدة قد تنطوي على امرأة بالنسبة إلى «بيير».

ويجيء تفاهم النساء المتبادل من أن الواحدة تقرن نفسها بالأخرى، فالزوجة تربطها بخادمتها علاقة أوثق من علاقة أي رجل بخادمه الخاص أو سائقه، ما لم يكن ذا جنسية مثلية، فهما تتبادلان الأسرار، وقد تتآمران أحيانًا؛ ولكن ثمة أيضًا منافسة بينهما، لأن السيدة وهي تتحاشى الشغل الفعلي، ترغب أن تكون مسؤولة عنه وأن يرجع إليها فضل أدائه؛ فهي تريد أن لا يكون في الإمكان أن يحل أحد مكانها، وأن يستحيل الاستغناء عنها، «لو أنني لم أكن هناك، لاختل كل شيء».

إنها لتكشف بفظاظة، أو هي تحاول أن تكشف عن خطأ خادمتها؛ لأن الخادمة إن أجادت أداء واجباتها، فقد فقدت السيدة متعة الرضا برؤية نفسها منقطعة القرين. وعلى هذا النحو تكون دائمًا في نزاع مع المرضعات والحاضنات والمربيات والمدرسات. والحقيقة أنه ليس لديها رغبات ولا آراء خاصة بها، إنما يضايقها أن تؤدي الأخريات مهامهن على الوجه الذي تريده هي تمامًا.

ولكن فوق كل شيء، في دائرة الدلال والحب، ترى كل امرأة عدوًّا في أي امرأة أخرى. وهذه المنافسة بين الفتيات تستمر طول الحياة.

صداقة النساء أمر واقع

ومع كل ما يمكن أن يقال، فإن صداقة النساء أمر واقع لا محل لإنكاره، وفيما يلي بعض أمثلة لما يمكن أن تصل إليه صداقاتهن من سمو وسعة وعمق.

مدام «دي لافاييت» ومدام «دي سافيني»

تنشأ أقوى الصداقات وأكملها بين النساء المثقفات إلى الدرجة القصوى. وقد حدثت مثل هذه الصداقة بين مدام «دي لافييت» ومدام «دي سافيني» من المراهقة حتى الموت، بغير توقف أو تناقص. ولم تختلفا إلا بصدد أيهما أكثر محبة لصاحبتها.

أميرة «لامبال» و«ماري أنطوانيت»

«ماري لويز أوف سافوي» الحسناء، أميرة «لامبال» وإحدى صديقات الملكة «ماري أنطوانيت» الحميمات. أرملة شابة بغير أطفال، كانت زينة القصر، صحبها حموها العجوز إلى خارج فرنسا حين تبدّى الخطر لأول مرة؛ ولكنها بمجرد أن عرفت أن الملكة ذاتها قد صارت هدفًا للثوار، عادت فورًا إلى فرنسا لترفّه عنها وتشاطرها المصير.

ومنذ العاشر من أغسطس الرهيب، يوم سيق الملك والملكة إلى السجن، فرّق الثوار بين الصديقتين، وأودعت مدام «لامبال» سجن «لافورس»؛ فلما كان من مساء الثاني من سبتمبر، اقتيدت إلى المحكمة، حيث طلب إليها أن تقسم بالحرية والمساواة، وبكراهية الملك والملكة.

قالت: إني على استعداد لأن أحلف اليمينين الأولين، ولكني عاجزة عن القسم الأخير. إنه ليس في قلبي.

- «اقسمي وإلا فإنك قاضية».

شخصت بعينيها، ورفعت رأسها، وخطت خطوة نحو الباب، فأوصده الحراس دونها وأوسعوها وخزًا بالحراب، وفاضت في لحظات روح المرأة الرقيقة التي أحبت صديقتها الملكة حتى الموت.

«ليدي جوردون» وسكرتيرتها

وقد سجل التاريخ الحديث بمناسبة غرق الباخرة «تيتانيك» في سنة ١٩١٠ أن الآنسة «فرانكانيللي» سكرتيرة الليدي «دف جوردون»، أبت النزول مع النساء إلى قوارب النجاة، وكانت الليدي قد تمسكت بزوجها، فلازمتها حتى أتيح لهم بطريق الصدفة أن ينجوا جميعًا.

«فرابريتان» و«ونيفريد»: الصداقة ليست وقفًا على الذكور

تقول «فرابريتان»: علمتني الأعوام التي قضيتها مع «ونيفريد» أن طراز الصداقة التي تصل إلى قمة مجدها في قصة «داود» و«يوناثان»، ليست وقفًا على الذكور وحدهم.

عجز النساء عن الصداقة هراء: إن بعض النسوة ليعتقدن بأنهن يملقن الرجال باعتناق رأي القائلين بعجز المرأة الغيّار عن حب أختها واحترامها. كما يثير أي تسجيل للوجدان بين النساء الشبهات التقليدية لدى المتشككين من المضللين.

التخاطر بين الصديقتين: وبعد سنة أو اثنتين من الرفقة المستمرة، صارت استجابة كل منا لحاجات الثانية وانفعالاتها غريزة إلى حدّ أننا في مكاتباتنا كثيرًا ما أجاب أحدنا عن بيان أو طلب للآخر، قبل وصول الكتاب الذي يتضمنه.

لما كتبتُ إلى «ونيفريد» من أمريكا أقول إني أتوقع أن أكون حاملاً، أجابت بأنها رأت في خلال الأسبوع الأسبق حلمًا واضحًا إلى درجة غير عادية عن طفل لي أسمته «الطفل الجميل المحبوب»، وهي عاطفة ظلت تشعر بها، دائمًا نحو ولدي «جون إدوارد» من وقت ولادته في آخر تلك السنة.

وقد ارتبط بـ «ونيفريد» حادث التخاطر الوحيد الذي استشعرته، إذ كنت ذات يوم في «لندن» في رحلة تدريس دورية، وقد ألغي أحد الدروس، فوصلت إلى منزلنا بشارع «دوطي» عالمة بأن «ونيفريد» لم تكن قد رجعت بعد. وصعدت الدرج مسرعة أقول: «هالو يا عزيزتي!» وأنا أفتح الباب.

وقد عادت «ونيفريد» بعد ذلك بقليل، ولم تكد تراني حتى استفسرت بطريقة غريبة: ألا خبريني أرجعت اليوم في الموعد المعتاد؟ فلما أنبأتها بعودتي المبكرة، سألت إن كنتُ قد قصدت إلى البيت من فوري.. فأجبتها بالإيجاب: إنني ركبت الأوتوبيس من «كوبري لندن»؛ وفيم سؤالك؟

قالت: عنّ لي أغرب اختبار هذا الأصيل. كنت في شارع «بركلي» في طريقي إلى «بيكاديللي»، فسمعت صوتك مباشرة دبر أذني منادية: «هالو يا عزيزتي!»، ولما التفتُّ خلفي فزعة لم أجدك.

سألتها متى حدث هذا بالتدقيق، قالت في تمام الساعة الرابعة؛ وعندئذ أخبرتها بأني في تلك الساعة على التحديد كنت أرتقي السلم وألقي تحيتي على الشقة الخالية.

ومع أنني التمست صداقة «ونيفريد» متحمسة، ورغم شدة رغبتي فيها بحكم الحاجة الجائعة لمن تحطمت محباته السابقة بعنف قبل أوانها، فإن بناءها كان من صنعها هي لا من صنعي. ذلك أن معايشتي في السنوات التي تلت الحرب، لم تكن سهلة، وكثيرًا ما عجبت حتى إذ ذاك، لماذا لم تظهر «ونيفريد» أي علامة تدل على رغبتها في هجري.

«جرترود ستين» و«أليس توكلاس»

ملتقى شباب الكتاب: كانت شقتهما مجالاً حيويًّا للجيل الضائع، مرّ به كل كوكب في فلك الفن بين الحربين العالميتين: «همنجواي» و «فتزجيرالد» و«بيكاسو» و«ماتيس» و«ت. س. إليوت»، و«وود أندرسون»، و«فورد مادوكس فورد».

يمم ثلاثة أجيال من شباب الكتاب صالون «جرترود ستين» وصديقة عمرها «أليس ب. توكلاس»، في «باريس»، يتذوق الرحيق الأرج الذي لا لون له، للمضيفتين المولودتين في الولايات المتحدة الأمريكية، روائيون ومؤلفون وموسيقيون، وشعراء، ورسامون ومؤلفو مسرحيات. وكانتا تصنعان رحيقهما بأيديهما من البرقوق والتوت، كما كانتا تقدمان لضيوفهما الألوان التي تخصصت فيها «توكلاس»، فيأكلون ويتجادلون الساعات الطوال حوال التكعيبة والرمزية وغيرهما من مستحدثات العصر.

تسعة وثلاثون عامًا لا تفترقان: قدِم أهل الفن وانصرفوا، وظلت المرأتان لا تفترقان. فإذا لاح محيا الآنسة «ستين» الرجالي الرصين في مقهى، فلا بد أن تجد إلى جوارها وجه الآنسة «توكلاس» الشبيه بالعصفور، بعينيها النجلاوين النفاذتين، وفمها المتسم بالعزم.

وقد استطالت العلاقة بين المرأتين أكثر من تسعة وثلاثين عامًا، إلى أن قضت الآنسة «ستين» بالسرطان في سنة ١٩٤٦.

وبعد مضيّ عشرين عامًا على فقد صديقتها المخلصة يمم الموت شطر «باريس» قاصدًا إلى «أليس بويد توكلاس» وهي في التاسعة والثمانين.

القدر يجمع بين الصديقين: كانت «أليس توكلاس» تتحرك في محيط ثري في «سان فرنسيسكو»؛ وقد اتخذت العزف على البيان حرفتها. وفي «باريس» وقعت عيناها لأول مرة وهي في الثلاثين على «جرترود ستين». وقد اتخذنا لهما بعد ذلك بيتًا في شارع «دي فليروس»، وفي حين كانت «جرترود» مستغرقة في تجاربها على كلمات التنويم المغناطيسي وأشهرها، «الوردة، هي الوردة، هي الوردة»، عملت «أليس» طاهية وبستانية ومرافقة. وكثيرًا ما كانت تملأ بإبرتها في المساء رسومًا تسلمتها من «بيكاسو»، أو تنصرف إلى القيل والقال مع زوجات وحظيات العظماء أو من في حكمهم؛ في حين كانت «جرترود» تتحدث في موضوعات جدية مع أزواجهن.

تعزو كتابها إلى صديقتها: ومن أكثر مؤلفات «جرترود» انتشارًا، «سيرة «أليس توكلاس» بقلمها»، وهو في الحقيقة عن «جرترود» ودائرتهما الشهيرة كما تراها عينا «أليس». وقد سجلت في الصفحة الأخيرة مداعِبة قولَها إنها كتبت السيرة؛ لأن «أليس» كانت مشغولة عن تأليفها بنفسها. أكانت «أليس» إذن ذاتًا أخرى لـ «جرترود»؟

توازن أسلوب صديقتها: والواقع كما قال «ثورنتون وايلدر» إن «أليس» كانت «الوحش الذي يحمي الكنز». لم تكن مجرد خادم تقوم بكل شغل «جرترود». بل كثيرًا ما أدخلت

تغييرات في كتابات «جرترود»، وكانت محادثتها القصيرة الموجزة عاملاً مهمًّا في موازنة أسلوب «جرترود» الدوّار غير المطرد.

تؤلف كتابًا عن صديقتها: ولم تصر «أليس» مؤلفة إلا بعد وفاة «جرترود» وقد كتبت تقريرها عن صالون «ستين» في «مذكرات»؛ وهي تستعيد فيه مشهد وفاتها، فتقول: «جلست إلى جوارها فقالت لي في الأصيل الباكر: «ما الإجابة»؟ فصمتُّ. قالت: «وفي هذه الحالة، ما السؤال»؟» أقفرت الأعوام بعد وفاة صديقتها. واضطرت «أليس» بسبب ضيق ذات اليد إلى بيع رسوم «بيكاسو» التي كانت «جرترود» قد تركتها لها في وصيتها.

هل ترى صديقتها حين تموت: اعتنقت «أليس» الكاثوليكية، وإنها لتسأل قسيسها قلقة: أيأذن الدين الجديد برؤية «جرترود» حين تموت.

معًا في مقبرة «موليير»: وقد دفنت إلى جوار «جرترود» في مقبرة باريس المشهورة «بيرلاشيز»، حيث دفن «موليير»، و«بروست»، و«شوبان» و«دي لاكروا».

المبحث الثالث

صداقة الذكور بالإناث

«تستند مسراته إلى أساس أقوى، مَن تكون له صديقة مصقولة»—«كرنيليوس هور»

المطلب الأول: نوع مريب نادر من الصداقة

علاقة غير عادية

الرأي السائد هو أن الصداقة بين رجل وامرأة لن تتسامى إلى مستوى الصداقة بين رجلين، إذ كيف يمكن أن تخلص من الحساسية مثل هذه العلاقات؟ فإذا سلمت، أفلا تشعر عندئذ بالمهانة حتى أقل النساء دلالاً؟

الرغبة الجسدية الساكنة

إنه لما يناقض كل اندفاعات الرجل الطبيعية أن يتعامل مع امرأة، بغير أن تعتريه أحيانًا رغبة جسدية؛ فإذا استشعرها تحرك فيه كل جهاز الشهوات.

المرأة لم تخلق للصداقة

يقول «بونار»: إنه ليبدو أن النساء لم يخلقن لمثل عاطفة الصداقة. أو لأنهن لا يحسسن حاجة ما إلى اللحاق بالمستوى الذهني حيث تنمو صداقة الرجال؛ ليس لتخلّف ذكائهن عن الرجال، بل لأنهن لا يتذوقن كالرجال ممارسة ذكائهن على انفراد، إنهن حريصات على البقاء

في صميم الحياة لا يغادرن حظيرتها أبدًا، عظمتهن وشقاؤهن في عجزهن عن التخلص من عالم العواطف.

تضيق المرأة بالثقة والثبات والمساواة

إن الصداقة تتعارض في الواقع مع المرأة، ففي الصداقة ثبات وثقة وائتمان ومساواة؛ وأن هذا الثبات ليبدو لهن كئيبًا، والائتمان يضايقهن، فقد خلقن لتقلبات الغرام، فإذا انتقلن إلى الصداقة، أشبهن بعض الشرقيات الخاضعات لسيد مطلق السلطان، يستطبن إذا أقمن في الغرب متعة المعيشة في ظل قوانين مرعية الجانب، ولكن سرعان ما يجدن هذا الوضع الفاتر فاصلاً، ومهما يبلغ تأثرهن بمزايا دستور على الطريقة الإنجليزية، فإنهن يتحسرن على المستبدين بهن، الذين تضفي نزواتهم شتى الألوان على حياة جواريهن.

حاجة المرأة إلى المفاجآت والمشاحنات

تحتاج النساء إلى الفجاءة، إلى الوخزات، إلى المشاحنات، إلى المصالحة؛ لأن هذه الظروف المنوعة تضفي قيمة على ألوان أخلاقهن، أو لعلها تحبوها بأكثر مما فيها: كالماسة الصغيرة الكابية، تبدو دائمًا أشد توهجًا إن حركناها ولم ندعها ساكنة.

الغواني لا يستهويهن الولاء

وبعض النساء لا تسرهن الصداقة لما فيها من الولاء؛ لأن الغانية لا تستهويها الركانة الفخمة لصداقة الرجال، وهي لا تكف عن أن تحدث فيها ثغرة بإثارة المنافسة بين الصديقين.

التقدير ليس من شيم النساء

كما أن التقدير، وهو قوام الصداقة ومساكها، ليس من شيم النساء الطبيعية، فهن يمارسن عاطفة التقدير في تراخ شديد؛ والتقدير بالنسبة إليهن كلمة يتعلمنها دون أن يكون لها في نفوسهن معنى مكين، فهن يستخدمنها حين يجدن فيها مصلحتهن.

رقة النساء شكلية

ورب قائل: إن رقة النساء تؤهلهن للصداقة، وإن «بونار» ليعترف للنساء برقة تقاطيعهن الجميلة، وأيديهن الصغيرة، وأقدامهن المليحة، أو فيما عدا ذلك، فإنه يحسب أن ما أعدّتهن الطبيعة للاضطلاع به من وظائف مثل إنتاج الأطفال، والعناية بالمرضى، وتقبّل الأزواج؛ لا يأذن لهن أبدًا بممارسة هذا الترف.

الصداقة الأفلاطونية

تقول «إلينورجلين» في كتاب «الحب»: إن الفكرة العامة عن الصداقة الأفلاطونية، أنها علاقة حميمة بين رجل وامرأة، مجردة من عنصر الجنس، ولكنها تشبه الغرام في حرارتها. والمفروض أن يتلازم الصديقان، ويتمتع كلٌّ بمحادثة الآخر، وأن يتذوق مزاياه العقلية؛ ولكن ليس مفروضًا أن يتعاطيا المثيرات! وكلاهما حرّ في أن يغرم بمن يشاء.

ولا شك أن المسألة كلها سفسطة فيما عدا بعض الحالات: ذلك بأنه إذا اهتم الشاب والشابة، كل منهما بصاحبه، بدرجة كافية، بحيث يتمنى أن يقضي معه كل الوقت الممكن؛ فلابد أن يكون عنصر الغرام أو الجاذبية الجثمانية مستوليًا على أحدهما، إن لم يكن عليهما معًا، ولو كان ذلك عن غير وعي.

فإذا كان للشاب أو الشابة عدة رفقاء يراقصونهم، ويقضون معهم أوقات التسلية، ولا يتخيرون أبدًا واحدًا أو واحدة بالذات، فإن هذا يكون أقرب الأوضاع إلى الصداقة الأفلاطونية، التي يحتمل إلى أبعد حد أن يلزما حدودها ولا يتخطياها.

ويقول «جيمس ونفريد بريدج» في كتابه «علم النفس العادي وغير العادي»: إن الحب الأفلاطوني نوع من الصداقة، بين رجل وامرأة يزيد مقدار ما ينطوي عليه من الانفعال، على الصداقة العادية، ولكن الباعث الجنسي فيه أضعف من الغرام.

الإنجليز يتمنونها ولا يعرفونها

ويقول «سيدني سميث» القسيس الإنجليزي: إنها السعادة كبرى أن نعقد صداقة مخلصة مع امرأة؛ ولكن الصداقة بين أشخاص مختلفي النوع قلّ أن تحدُث أو هي لا تحدث أبدًا في هذا البلد. فإن صرامة آداب السلوك عندنا، لا تكاد تسلّم بمثل هذه العلاقة؛ التي تتمشى مع البراءة الكاملة، وتعد مصدرًا لأسمى غبطة ممكنة، لمن يسعدهم الحظ بعقدها.

النفوس لا جنس لها

أما «وليم بن» مؤسس ولاية «بنسلفانيا»، فإنه يتجاهل اختلاف النوع؛ لأن النفوس هي موضوع الصداقة، والنفوس ليس لها نوع.

المطلب الثاني: الصداقة بين الأولاد والبنات

أهمية الموضوع في الشرق العربي

صار هذا النوع من الصداقات مهمًّا بالنسبة إلينا في الشرق العربي، بعد أن تحررت المرأة في معظم بلدانه، وزالت جل الفوارق بين الجنسين، وصار اتصالهما مستمرًّا خارج نطاق الحياة الزوجية.

دعم الصفات الاجتماعية والعقلية والعاطفية

ويرى علماء النفس أنه ليس من الحكمة أن يستهين الآباء والأمهات وغيرهم من الكبار بالصداقة التي تنشأ بين الأولاد والبنات، أو يسخروا منها؛ ذلك بأن من شأن صداقة الأحداث أن تساعد على دعم صفات الفرد الاجتماعية والعقلية والعاطفية، وتساهم في إنضاجها.

وإن من المهم أن يتيح البيت والمدرسة والمجتمع الفرص المواتية لاشتراك الأولاد والبنات في العمل واللعب، ليتعلموا أن لا يشعروا بالخجل إذا اجتمعوا، وأن يتقبلوا أفراد الجنس الآخر على أنهم أعداء مرغوب فيهم؛ فإن هذا من شأنه أن يزيد من إمكانيات السعادة في مستقبل الحياة، ومن قابلية التأقلم في الزواج وغيره من العلاقات بين الرجال والنساء.

المطلب الثالث: الصداقة بين الرجال والنساء

أولاً: رأي الكتّاب الفرنسيين

عني الكتاب الفرنسيون على وجه الخصوص بمعالجة هذا النوع النادر من الصداقة، وأفاضوا فيه، ومنهم «فاجيه» عضو «الأكاديمي فرانسيز» الذي استعرض حالات أربعة:

١- رجل متزوج أو محتظ؛ وامرأة بلا زوج أو حبيب

لا يكاد الرجل هنا يظفر من المرأة بأكثر من حسن الاتجاه؛ أما الصداقة، وهي الثقة وتبادل الأفكار والعواطف فلا محل لها بينهما؛ لأن المرأة تشعر بأن الرجل ليس في حوزتها، وأنه لا يوليها إلا جانبًا من نفسه، هو الجزء الذي يكاد يحبوه الناس كافة. وإن هذا الشعور ليشعل غيرتها فيمنعها من أن تتخذه صديقًا، والغيرة تثير التحدي والتحاشي، وتبعث على الكظم، فتخمد حُمَيّا الصداقة ولا تذكيها؛ لأن الصداقة ليست إلا رغبة في المناجات والثقة، فإذا أحبت المرأة مع ذلك فإنما تحب محبة الغرام.

٢- رجل بلا زوجة أو حظية؛ وامرأة متزوجة، أو ذات حبيب

ومثل هذا قد يمكن أن يقال إلى حدّ ما عن رجل لا زوج له ولا حظية، مع امرأة متزوجة أو ذات حبيب؛ فإنه وإن استطاع استبعاد الغيرة، فإن كبرياءه يضيق بالمرتبة الدنيا، مما تنعدم معه المساواة التي هي في الصداقة شرط ضروري؛ إنه لا يرضى أن يسيل في روح تلك التي يفترض على الأقل أنها تسري في روح رجل سواه.

٣- رجل متزوج أو ذو حظية؛ وامرأة في مثل حالته

وهنا تتحقق مساواة لا تمنع مع ذلك من قيام صعوبات تعوّق مسيل كل من الشخصين بسبب وجود شخص ثالث قد يكون هو ذاته الصديق، بل الصديق المفضل.

لذلك لا يوجد في الحالات الثلاث غير حسن الالتفات والتعاطف الوجداني، والوفاق السطحي الطيب.

٤- رجل وامرأة طليقان

وأخيرًا، فلنفترض حالة رابعة يتحرر فيها الرجل والمرأة كلاهما من كل قيد، ويكون في وسع المرأة والرجل أن يتحابا محبة صداقة، ولكنها صداقة يختلف أسلوبها عن الصداقة بين الرجال، من حيث عنصر الرقة الذي يخامرها.

والقول بأن صداقة المرأة للرجل تنطوي دائمًا على شيء أكثر قليلاً من الصداقة، هو تسليم بانطوائها على عنصر من غرام.

ويعتقد «فاجيه» أن الصداقة البحتة، أي الصداقة المجردة من الرغبة المرتدة، والخالية من أي فكرة خلفية؛ نادرة الوجود جدًا في الحالات الثلاث الأولى، وأنها ممكنة أحيانًا في الحالة الرابعة.

رجل وامرأة مسنّان

وقد توجد الصداقة بين رجل وامرأة متقدمين في الأيام، وأنها لصداقة ساحرة، وهي بعد صداقة حقيقية من الصعب إثبات انطوائها على عنصر مزيف، وإن كان «فاجيه» يتساءل:

ألا يمكن أن تكون هذه الصداقة غرامًا متوقفًا على شرط بأثر رجعي، وأن الصداقة بين العجوزين أساسها التفكير في أنهما لو تعارفا منذ ثلاثين سنة لاستبدّ بهما الغرام. ومع ذلك فليس ثمة بينهما غير صداقة، لا يمكن تسميتها غرامًا إلا إذا أسأنا قليلاً استخدام اللفظ والسياق.

عجوز وشاب؛ أو عجوز وشابة

والصداقة ممكنة بين امرأة عجوز وشاب، أو بين رجل عجوز وفتاة صغيرة؛ وهي وإن كانت صداقة حلوة تتسم بالعمق والحنان، لا يمكن أن تكون صداقة كاملة؛ لأن الصداقة ثقة، والعجوز عاجز عن الثقة بشابة، كما أن الشابة لا تستطيع الثقة بعجوز؛ ذلك بأن جانبًا من نفس الصديقين لا بدّ أن يبقى موصدًا دون الآخر.

والمرأة المسنّة التي تهتم بشاب، إنما تخفي المكانة التي يحتلها من قلبها، حتى لتريد أن تختار له الفتاة التي يحبها؛ إن ما تحسبه صداقة ليس إلا «غرام شتاء».

والعجوز الذي يصادق شابة، يزودها بالكتب ويبدو غير معنيّ إلا بصفاتها الروحية؛ إنه في الحقيقة «غرام بلا أمل».

شاب وشابة غير مرتبطين

المنفر الجسدي: ويعتقد «فاجيه» أن شابًّا وشابة غير مرتبطين، يمكن أن يحب كل منهما الآخر محبة صداقة بغير غرام؛ فإن من النساء كما يقول «نيتشيه» من يستطعن عقد صداقة مع رجل، ولكن الاحتفاظ بها يقتضي معاونة منفّر جسدي بسيط. وفي هذه الحالة

يكون الرجل والمرأة، ولا سيما المرأة، في مركز الفتاة لقاء الرجل العجوز، أو الشاب بإزاء المرأة العجوز.

الاعتياد: ومع ذلك، فإن في الإمكان قيام صداقة مجردة من الغرام بين شاب وشابة، بغير حاجة إلى منفر جسدي، وذلك بشيء من الاعتياد الذي يستبعد من نفس كليهما كل فكرة غرام جسدي أو ألفة جثمانية. فالأطفال الذين ربّوا معًا، يظلون عادة إذا كبروا في الموقف الخلقي للأخ والأخت، حتى لتبدو لهم فكرة الغرام غير لائقة، ينحّونها مستنكرين.

الأنس بالثقافة والخلق: الشاب والشابة، وإن لم يكونا صديقي طفولة، إذا التقيا وأنس كل بثقافة صاحبه وخلقه، وأكثرا الترداد أحدهما على الآخر، فإنهما لا يلبثان أن يجدا نفسيهما أبعد ما يكونان عن أن يصيرا عاشقين؛ لأن هناك دائمًا حب استطلاع في الغرام، ولأن المعرفة الطويلة لم تدع بعد محلاًّ للاستطلاع.

صداقة بعض الموهوبين بالموهوبات: انطوت سيرة بعض الموهوبين، من ذوي النفوس الغنية الرقيقة، على صداقة طويلة المدى للغاية؛ ومع أنها كانت صداقة تتوقع الغرام، غير أن الصداقة الخالصة قد وجدت، واستمر وجودها وقتًا، وكان ممكنًا أن لا يوجد قط غيرها، بل يحدث أحيانًا أنه لم يوجد في الواقع غيرها.

صداقة مبهمة غامضة

والصداقة بغير غرام بين رجل وامرأة، هي دائمًا شيء يوجد في خفاء، وبغير شعور واعٍ يؤذن بما تنطوي عليه الصداقة من نقص، ومن ثم فهو شيء مبهم؛ ولكنه يجد جاذبية فريدة في ذلك الغموض ذاته، أو هو بالحريّ يستسلم لسحر هذا الغموض بغير أن يعرف مأتاه.

صداقة نادرة جدًّا

الصداقة بين الرجل والمرأة هي في رأي «فاجيه» نادرة جدًّا، ولكن هذا لا يمنع من أن أسباب وجودها واستمرارها ممكن توافرها، ولاسيما في بعض تجليات النفوس الشديدة الصفاء، التي يسيطر عليها ويستغرقها مثل أعلى مشترك يجاوز مداها، فإنها تستطيع الارتباط بمحبة صداقة تستبعد محبة الغرام، وإنها مع ذلك لصداقة حامية، هي الاتحاد الوثيق المتوقد لقلبين. إنها تتحاب في الخير الذي تصنعه، في الخدمة الإنسانية، في الدفاع عن فكرة تؤمن بعدالتها، في دعم عقيدة تريدها أن تسود.

وإن هذه المحبة لتفصل بين الصديقين؛ لأن أحدهما لا يفكر في أن يصنع شيئًا للآخر؛ وهي في الوقت نفسه تربطهما إلى هدف بعيد ينشدانه معًا. إنها انفصال في المصاحبة المشتركة، واتحاد في القصد؛ إنها انفصال في الواقعي، واتحاد في المثالي؛ إنها انفصال في الزمان الحاضر، واتصال في الأبدية.

إن هذا الاتحاد هو الذي يعرّفه ببراعة قسّ مجهول أبى مصافحة أحد الذين آمنوا على يديه، فلما عاتبه قال: إن أصفياء الله كالزنابق، ولا يتماسون إلا بعبيرهم.

«بولس» و«تيكلا»

وقد كان هذا الاتحاد هو طابع علاقة القديس «بولس» بالقديسة «تيكلا» أولى الشهيدات، ويعتبر كتاب «سجل أعمال «بولس» و«تيكلا» الذي ظهر في القرن الثاني الميلادي من أهم معالم الأدب المسيحي؛ وكانت القديسة قد تأثرت بالنفوذ الروحي لـ «بولس» الرسول لدى لقائهما.

صديق الشابة المريضة

ينوه «بونار» بصاحب الشابة المريضة، إنه يهدي إليها الزهور، ويزورها، ويوليها ألف اهتمام، لعله يتطهر في حضرتها من غراميات أشد غلظة. ومع ذلك فهي جميلة بعينيها النجلاوين وعروقها الزرقاء التي تحدث في لحمها رسومًا عجيبة، ذلك اللحم الشفاف الذي قد يغري بصورة أشد غرابة الرغبة التي لا تثيرها رؤية فتاة فاتنة. كذلك تسعد المريضة بشهود دأبت على مقاربتها؛ فإن حضرة الرجل تثبت لها أن دورها كامرأة لمّا يتوقف، ويؤذن بأنها لابد يومًا أن تستأنف ممارسته.

«جورج براوننج» و«اليصابات باريت»

ولعل «بونار» قد أحاط بعلمه قصة «جورج براوننج» و«اليصابات باريت»، إذ كان معاصرًا لها:

فقد أصيب فقار «إليزابيث» وهي في الخامسة عشرة على إثر سقوطها عن صهوة جواد كانت تمتطيه، فقضى عليها أن تقضي أيامها مسجاة على أريكة، لا يزورها غير إخوتها الكثر وأخواتها العديدات، ووالديها وصديق أو اثنين.

وكان «براوننج» قد قرأ لها شعرًا أعجبه، فكتب إليها في يناير سنة ١٨٤٥ يقول: إني أحب أشعارك يا عزيزتي يا «مس باريت». وسرعان ما نشأت بينهما صداقة عظيمة أساسها إعجاب كل منهما بشعر صاحبه، فقد كان عقلاهما متوافقين.

ولكن «إليزابيث» ترددت طويلاً في لقاء الشاعر المعجب، خشية أن يقضي لقاؤهما وجهًا إلى وجه على صداقة صارت غالية لديهما معًا؛ وكانت لا تني عن رده إلى الطريق القويم

كلّما عنّ له أن يريم عن التزام المسلك الأفلاطوني في رسائله، آسفةً على أنها لا تصلح زوجًا لرجل مثله.

وقد سجل التاريخ كل رسائلهما فيما عدا واحدة كتبها بُعيْد يوم أو اثنين من لقائهما الأول. قالت تؤاخذه: أنت لا تعرف أي ألم سبّبته لي إذ خاطبتني بهذا النزق.. لقد جاوزت جادة الاعتدال فيما قلت وتخيلت. إن عليك أن لا تعيدها من بعد، أو أن تسحبها، بل أن تنسى على الفور وإلى الأبد أنك قلتها قط، لنموته بذلك فيما بيني وبينك وحدنا؛ كخطأ مطبعي بينك وبين الطابع.

ومع ذلك، فقد انتهت العلاقة بالزواج بعد أن هرب الحبيبين إلى إيطاليا ولما يمضِ عام ونصف عام على خطاب «براوننج» الأول.

غرام حصور

يحدث أن نجد في الجنس الآخر كائنات تأبى أخذنا أو رفضنا، فلا نلبث أن نحيلها إلى مستودع الصداقة. بمعنى أننا مع احتفاظنا بحرية عقد علاقاتنا، وتسليمنا بنفس الحقوق للشخص الآخر؛ فإننا نستعين به واثقين من أننا واجدوه دائمًا. ولكن هذه العاطفة الغامضة ليس لها إخلاص الصداقة ولا ضمانها. وهي مهما تبد مخففة، فإنها لا تبرح أن تولّد في صورة مصغرة منوعات الغرام وأحداثه، كاللهب المستأنس الذي يقرض حطبةً في المدفأة، إنه يحكي حريقًا مصغرًا. وليست مثل هذه الصداقة في الحقيقة غير «غرام بلا فعال».

غرام حالم

وثمة المرأة الشابة، الشديدة التصميم على عدم التنحي عن واجبها، والتي تعطي نفسها حرية الاعتراف بالتعاطف العميق الذي يوحي به إليها رجل ما؛ فإن صداقتها، لا تعدو أن تكون «غرامًا حالمًا». ومن أمثلته الفترة الأولى من علاقة «فاجنر» و«ماتيلد»، وقد أوردناها في «صداقات سجلها التاريخ».

غرام ملطف المذاق

يستعرض «بونار» الحساسيات الباردة التي تربط الرجال المخدوعين أو الخجولين بنساء تتحاشين أي ارتباط، وتؤثرن البقاء بالحريّ على حدود من يرفضنهم؛ ويقول: إن ما يبحث عنه هؤلاء وأولئك في هذه العواطف، إنما هو «غرام ملطف المذاق».

ضحكة بلا معقب

ويقول بأن من النساء من يروقهن أن يجدن تحت إمرتهن، باسم الصداقة، رجالاً مريحين، غير مكترثين؛ يسدون إليهن الخدمات، ويذللون لهن كل الصعوبات؛ ثم هم بعد يقنعون بضحكات لا يعقب حلاوتها أبدًا شيء إيجابي.

لهن في الرجال مآرب أخرى

وكما أن من الرجال من يملقهم أن يراهم الناس بصحبة النساء، وأن يتعلقوا بحضرتهن كالتحفة في سلسلة الساعة؛ فإن بين النساء من يزدهين بالرجال الكثر يحفّون بهن؛ لأن تعدد الأصدقاء الحاشدين حولهن، يؤكد، في نفس الوقت، فاعلية فتنتهن؛ وتفوق فضيلتهن.

إنها تستعرضهم كما لو كانوا عشاقًا صاغرين، منزوعي السلاح، سطحيين، ضربت عليهم الخدمة بلا مقابل.

وهكذا يساهم أصدقاء المرأة في مجدها، وإن كانت لهم أيضًا فائدة أهم، هي اتخاذهم سببًا للاستزادة من الثقة بأنوثتها، وأداة تجرّب عليها ببراءة الوسائل التي تمارسها في الغرام.

ويضرب «بونار» مثلاً شابة تتوجس فجأة من أن تذوي محاسنها، إذ تجد امرأة أخرى تفوقها فتنة، أو لمجرد شعورها بالإرهاق ذات أمسية، وإلى جوارها أحد أصدقائها يثرثر في دعة، وإن هدوءه ليؤذيها فتقاطعه، وترنو إليه تحدثه بصوت متغيّر، أو هي تمس راحته، أو تصطنع حركة لا يمكن تسويغها، من حركات الجسد التي تذكّر بوجوده، وبأننا لا نتحدث فقط إلى عقل وروح. يدهش الرجل المسكين، ويرتجف، معتقدًا أنه محل مقاربة؛ ولكنها تقف عند هذا الحد، لقد نجح الاختبار، عاودتها طمأنينتها، فرجعت بغير حياء وولجت حظيرة ولاء الصداقة.

وهو يشبّهها بالساحر الذي يخشى على تعاويذه أن يكون قد اعتراها الوهن، فييمم شطر الشاطئ والهواء رخاء، حتى ليشك في إمكان إهاجته، ويتلو كلماته هامسًا، فلا يرح السحاب أن يتراكم، والموج أن يتضخم، والبحر أن يظلم؛ فيكتفي بذلك مرددًا تعاويذ الهدوء.

ويذهب «بونار» إلى حدّ القول بأن النساء تعتبر الأصدقاء كالمنقولات، إنهم إطار يرسمنه استرعاء لالتفات الرجل الذي سوف يعشقهن. إنهن تستبقينهم لتستحوذن عليهم، ولتمنعن النساء الأخريات من الظفر بهم.

والنساء تنمِّين مجموعتهن من الرجال ولا تبرحن ترينها غير كافية. وإنهن ليتقبلن الكل وفي مقدمتهم بطبيعة الحال من تسرّهن أهميتهم. ولكنهن أيضًا لا تقصين عن رحبتهن الثقلاء والعجائز؛ بل تحتفظن بهم جميعًا في حجرة الصداقة الباردة؛ لأن المرأة محرومة من ذوق اختيار الأصدقاء، أو بالحريّ إنها تريد اختيار الدنيا بأسرها؛ كالطفل في محل الحلوى، لا يسعه الإعراض عن قطعة واحدة من محتوياته.

مستشفى مرضى القلوب

ويرى «بونار» أن الصداقة بين الرجال والنساء تكون أحيانًا ضربًا من التزام «رجيم» أو هي بمثابة مستشفى لمرضى القلوب.

صداقة لا تقبل التقدم

الصداقة بين الرجال تتعالى فوق الغرام، متسامية إلى حيث لا يعوقها شيء؛ أما صداقات الرجال بالنساء، فإنها تظل تحت الغرام، عاطفة محدودة لا يمكنها أن تنمو إلا إذا دخلت منطقة أخرى وغيّرت اسمها. فالصداقات الهادئة بين الرجل والمرأة قوامها عدم الاكتراث؛ فأما الصداقات العنيفة، فإن الغرام أساسها.

أنواع صداقات الرجال بالنساء

قسم «موروا» الحالات التي سجل فيها التاريخ صداقة نقية بين رجال ونساء إلى ثلاث مجموعات:

القانعون بالفتات: وتشمل المجموعة الأولى «الرومانتيكيين»، الذين أعرض عنهم المحبوب، فبقي حبهم بلا أمل حبيس الانفعال. وقد كتب «بروست» عن هؤلاء الواهنين

من الرجال الذين تحتفظ النساء بصحبتهم باتخاذ تدابير تكفل بقاءهم في حالة تعلق إعجابي، بوساطة بعض كلمات مؤثرة، وحركات لا تضيرهن. ويحدث أحيانًا أن تكون المرأة هي «الرومانتيكية»، مثل مدام «ريكامييه» مع «شاتوبريان».

العجائز اللائذون بحمى الصداقة: وتشمل المجموعة الثانية العجائز، يلتمسون الاحتماء في الصداقة؛ لأنهم جاوزوا سن الغرام. إن الشيخوخة هي أحفل مراحل الحياة بالشك في احتمال قيام الصداقة بين رجل وامرأة؛ لأنهما لم يعودا في اعتبارنا رجلاً وامرأة؛ لم يبق لهما غير ذكريات المغازلة وأفكار مجردة عن الغيرة. ولكن هذا كافٍ لإضفاء شيء من السحر الحزين لصداقة ذهنية.

الغانية المتقاعدة والفتى الماجن: وأحيانًا يكون أحد الاثنين شيخًا، فيزيد صعوبة الوضع، وإن كان في الإمكان تصور صداقة بين فتى مستهتر كاللورد «بيرون»؛ وغانية متقاعدة مثل ليدي «ملبورن».

العجوز المتصابي، والمرأة الشابة: كما يمكن قيام صداقة بين امرأة شابة، وعجوز مغرور، مثل الملكة «فيكتوريا» ولورد «ملبورن». وليس من الدقة في الواقع إطلاق اسم الصداقة على هذه العلاقات؛ لأن ثمة حبًّا ناعسًا من جانب، وعدم اكتراث وجداني من الجانب الآخر.

صداقة العاشقين السابقين: وتشمل المجموعة الثالثة الذين نجحوا في التحول، من عشيقين إلى صديقين بغير مشاجرة، وهذا النوع من الصداقة بين رجل وامرأة هو أقربها إلى الطبيعة: هدأت العاطفية، ولكن ذكرى اتحاد كامل يعفيهما من أن يكونا غريبين، بعد أن حصّنتهما الانفعالات الماضية ضد الآثار المخوفة للمغازلة والغيرة، ووضعت صداقتهما على مستوى أكثر ذكورة، يمكنهما من تحقيق صداقة حميمة فوق المعتاد.

«دي فير» وصداقة العاشقين السابقين

يقول «دي فير»: ما أشد ضيق المرأة بأن تكشف أن حبيبها صار صديقها.

ثانيًا: رأي إنجليزي

الصداقة الغرامية

تقول «إلينورجلين» في كتابها «الحب»: إنه إذا قضى شخصان وقتهما معًا باستمرار، فإن لك أن تتوقع أن علاقتهما لا تخلو من المثيرات. وهناك حالات كثيرة يكون فيها أحدهما مغرمًا بالآخر، ويغلب أن يكون هو الرجل، يلوذ بفتاة حنون التماسًا للعطف، ولا يدور شيء من حديثهما حول أحاسيس متبادلة: تنصت له الفتاة وتساعده بدافع من طيبتها الوجدانية. وتشبه هذه العلاقة الصداقة الأفلاطونية، ولكنها إذا استمرت، نسي الفتى حبيبته السابقة؛ أو ألفت الفتاة أن حبه قد غزا قلبها.

وفي اللحظة التي يظهر فيها الرجل أو الفتاة اهتمامًا كافيًا بشخص معين من الجنس المقابل، بحيث يؤثره بصحبته؛ فإن الطبيعة تكون عندئذ قد بدأت تحرك أحدهما، أو تحركهما معًا، ومن المحقق أن تتمخض صلتهما عن بوادر الغرام، فتبدأ بينهما علاقة غرامية، يسميها الفرنسيون: «صداقة غرامية»، وهي المقدمة التدريجية للاشتهاء ولا يمكن أن تظل علاقتهما على ما كانت عليه.

لا عبرة بفارق السن

ويمكن انعقاد الصداقة الأفلاطونية بين فتاة ورجل كبير السن أو شيخ؛ لأن الفتاة لا تشعر في هذه الحالة بأي انفعال حسي نحو الرجل؛ ولأن الرجل لم يعد بعد تحت سيطرة دوافع الجسد.

ومع ذلك، فإن العلاقة إذا صارت وثيقة للغاية، فإن من المحتمل أن تكتسح الرجل، إذ تكون الجاذبية الجسدية قد تسللت إليها عن غير وعي منه.

الصداقة الأفلاطونية المزيفة

وقد تصادفنا علاقات تبدو في ظاهرها أفلاطونية، هي في حقيقتها أبعد ما تكون عن الأفلاطونية، وتكاد علاقة من هذا الطراز توجد في حياة كل امرأة، وربما تخللتها من أولها إلى آخرها، ولكنها تعلم في قرارة نفسها أن الرجل يود لو أصاب منها مزيدًا، لولا أنها لا تشعر من نحوه بشيء، ولذلك تقنع غريزة الصيد فيه، إذ تُثار باستمرار، بأي قدر من القربى ترتضيه المرأة.

نساء مسليات

وبعد، فثمة نساء لا يبدو قط أنهن يثرن في أي رجل أدنى رغبة جسدية أو اهتمام جنسي، ومع ذلك فهن رفيقات لهم جميعًا. والرجال يرتضون قضاء وقتهم مع أمثالهن؛ لأنهن رفيقات مسليات للغاية؛ ذلك بأن رغبة الرجل في التسلية، تجيء من حيث قوتها بعد الغريزة الجنسية بكل تشعباتها.

المرأة العجوز الشاطرة

وأقرب شيء إلى الصداقة الأفلاطونية الحقيقية بين الجنسين، هي العلاقة التي تنعقد بين امرأة كبيرة، أو حتى امرأة عجوز شاطرة، وبين شاب (أو رجل طاعن في السن)، حين لا يمكن أن يشوب علاقتهما أي عنصر جنسي، بل هي صداقة عقلية خالصة. إذ يستهوي الفتى تفوق المرأة عليه بمعلوماتها عن الحياة وقدراتها المصقولة في الحديث. فهي تناشد

خياله المجرد، على نحو لا تستطيعه امرأة شابة منصرفة إلى أن تجعل كل اهتماماته مادية، مركزة على شخصها.

يمكن أن تنعقد بين هذين صداقة أفلاطونية، وأن تستمر سنين؛ لأن المرأة إذا شعرت بأي اهتمام يجاوز حدود الاهتمام العقلي، فإنه يكون مشبعًا أصلاً بعناصر الأمومة.

العاشقان السابقان

وإنك لتجد في «باريس» باستمرار، حيث يضرب المثل ببراعة المرأة وبصارتها بالتحكم في عقول الرجال، حالات تبدو كالصداقة الأفلاطونية؛ فإذا أنعمت فيها النظر، تكشف لك أن الطرفين كانا عاشقين، ثم تحول غرامهما إلى هذه العلاقة السارة.

ولكن ما من شابة فرنسية يبلغ بها الحمق أن تزعم أن في إمكانها الارتباط مع شاب بصداقة أفلاطونية تنطوي على كل لهفة الهيام.

أفلاطونيات الأمريكان

ويبدو للأجانب أن في وسع الأمريكان أن يعقدوا باستمرار علاقات يمكن أن تتسع حتى للقبلات، ولكنها تقف عند هذا الحد، ثم يستطيعون عندئذ أن يتحولوا إلى علاقة أخرى. وهذا لا يمكن أن يحدث كثيرًا في أي بلد آخر.

فالمغازلات في «أوربة»، إما أن تنقطع فجأة، أو تتطلب أن تبلغ مداها. ولعل مرجع هذا إلى أن النساء قد درّبن الرجال الأمريكيين على أن يقنعوا طائعين بالإثارات الرقيقة الصغيرة، حتى لقد صاروا إلى هذه الحالة من الأخوة والأبوة.

وثيقة الزواج أولاً

تقصد الطبيعة شيئًا واحدًا بين الآدميين في حالة الصحة والحيوية، وقد موّهته بعض المدنيات فتحول مظهره إلى شيء آخر. وإن بين الرجال لكثيرًا من الذئاب في ثياب الحملان، يطيب لهم استدراج الفتيات لما يبدو في ظاهره كأنه صداقة أفلاطونية؛ وقد ينخدع الفريقان، ولكنهما مع ذلك لا يلبثان أن ينجذبا نحو المصيدة بنفس السرعة.

ثمة بعض نساء يعرفن أن مآسي حياتهن الحقيقية بدأت بما حسبنه إذ ذاك صداقة أفلاطونية بريئة؛ وإنه لعين الصواب أن تحصل الفتاة على وثيقة الزواج وخاتمه، قبل أن تنساق إلى أي علاقة لصيقة برجل، أيًا كان الاسم الذي يطلقه على العلاقة عند ابتدائه.

ثالثًا: صداقات سجلها التاريخ

«مريم» شقيقة «لعازر»

عرفت المسيحية صداقة عقلية بين السيد المسيح، وسيدة اسمها «مريم»؛ نوه «لوقا» البشير بقصتها في إنجيله، قال: وفيما هم سائرون دخل قرية فقبلته امرأة اسمها «مرتا» في بيتها، وكان لهذه أخت تدعى «مريم»، جلست عند قدمي «يسوع» تسمع كلامه. ولما احتجت أختها قائلة للسيد المسيح: أما تبالي بأن أختي قد تركتني أخدم وحدي، فقل لها أن تعينني؛ أجابها السيد المسيح: اختارت «مريم» النصيب الصالح الذي لن ينزع منها.

ولعل صداقة قوية قامت بين السيد المسيح و«مريم» التي طيّبت شعره وقدميه قبل لحاقه بالملأ الأعلى بأيام معدودات.

وكان «يسوع» يحب «مرتا» وأختها و«لعازر» شقيقهما. ويترك السيدة العذراء معهم إذا ذهب إلى «أورشليم» ثم يعود فيقضي ليلته في بيتهم.

«مريم المجدلية»

أخرج السيد المسيح سبعة شياطين من «مريم المجدلية»، فلازمته وهو يبشر بملكوت الله، وتبعته من «الجليل» لا تريم عن خدمته؛ فلما سلّمه «يهوذا» إلى اليهود تلبّثت تنظر من بعيد، ثم وقفت عند الصليب مع السيدة العذراء وأختها؛ حتى إذا كان من فجر يوم الأحد جاءت إلى القبر باكرًا والظلام باق حاملة حنوطًا، فنظرت الحجر مرفوعًا. فوقفت عند القبر تبكي، ولما التفتت إلى الوراء نظرت «يسوع» واقفًا، فقال لها يا «مريم»: اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم.

«دوق دي مين» و«مدام دي مانتينون»

وإنه ليروى أن صداقة نجمت بين «مدام دي مانتينون» و«دوق دي مين»؛ وذلك على إثر ما أبداه الغلام من استعداد لإقناع أمه «مدام دي مونت إسبان» بعدم التلكؤ في إنجاز وعدها بمغادرة القصر، بعد أن أبدى «لويس الرابع عشر» رغبته الشديدة في هجرها.

«فينيلون» و«جان جيون»

«جان» متصوفة فرنسية عرفت بتحبيذها للتصوف. استمر زواجها ثلاث عشرة سنة، قصدت إلى «سافوي» بعد وفاة زوجها بخمس سنين، وكانت في الثالثة والثلاثين حيث تأثرت بمواعظ «فرير» فأقرها على عقيدتها الخاصة في طبيعة الصلاة.

وقد راسلت «فينيلون» وكان قد وجد في تعاليمها حلولاً لبعض مشاكله الخاصة باعتباره موجِّهًا روحيًا. ولكن حماسة «فينيلون» في تحبيذ عقائد مشوبة بالتصوف روّعت «بوسويه».

ولما انعقد في سنة ١٦٩٥ مؤتمر في «إيزاي» على إثر مطالبة «جان» بتبرئتها من التهم الموجهة إليها، تولى «فينيلون» الدفاع عنها.

سجين «الباستيل» وصديقاته

تمكن «هنري مازير دي لاتيد» من مقابلة «المركيزة دي لابومبا دور»، وكان «لويس الخامس عشر» واقعًا إذ ذاك في حبائلها وهي في أوج قوتها، زاعمًا بأنه اكتشف مؤامرة لقتلها بالسم؛ فلما تبين كذبه كان مصيره أن يقضي في السجون خمسة وثلاثين عامًا، أتيح له في خلالها أن يصادق ثلاث نساء: إذ كان في وسعه أن يرى من حجرته البيوت المحيطة بالباستيل، فلاحظ شابتين تشتغلان وحدهما في حجرة، فلما حانت من إحداهما التفاتة نحوه بادر يقرؤها التحية بيده، فوجهت إليه نظر أختها وعاد إلى تحيتهما معًا بنفس التوقير، فلم يكن منهما إلا أن ردتا تحيته من فورهما في اهتمام وطيبة نفس.

ودأب «لاتيد» على مبادلتهما الإشارات يومًا بعد يوم في موعد معلوم، ولم تلبث إشاراتهما المبينة أن أفصحت عن لهفتهما على إسدائه أي خدمة في وسعهما؛ وأعدّ ربطة أفهمهما أنه يقذف بها، فنزلت إحداهما فلقفتها، ومضت وأختها تسلمانها، ثم رجعتا تظهران له الابتهاج. وبعد شهور كتبتا على ورقة كبيرة بحروف واضحة نبأ وفاة «مدام بومبادور». ولما نقل إلى سجن «فنسين»، حيث سنحت له فرصة للهرب، تسلل إلى «باريس» ومضى يستجير بصديقتيه، وأفضى إلى أبيهما بسره، وحصل على حاجته من ملابس ونقود، وأعدت له صديقتاه حجرة بالمنزل من ٢٣ من نوفمبر إلى ١٨ من ديسمبر ١٧٦٥، ولعلهما

ما كانتا لتفارقاه لولا أنه كان قد طلب مقابلة رئيس الوزراء، الدوق «دي شوازيل»، وقصد إليه في «فرسايل»، فقبض عليه وأعيد إلى السجن.

ولما يمم شخصان إلى المقبرة التي أعدها له مأمور السجن، مؤكدين أن في وسعه أن يظفر بحريته فورًا إذا أفضى باسم الشخص الذي عهد إليه بأوراقه التي ضمّنها فضائح «مدام دي بومبادور»، أجابهما بغير تردد: لقد دخلت السجن رجلاً شريفًا، وإني لأوثر الموت فيه على أن أخرج منه نذلاً جبانًا.

«مدام لي جروس» وسجين «الباستيل»

كما انعقدت عرى الصداقة بين «لاتيد» و«مدام لي جروس» وهي سيدة فضلى عثرت بالصدفة على مذكرته التي كان قد أضاعها الحارس الذي تسلمها، فتأثر شعورها الرقيق بفحواها، وكانت تملك محلاً صغيرًا «للخردوات»، كما كان زوجها رجلاً فاضلاً يصيب رزقًا قليلاً في مقابل دروس خاصة يعطيها؛ وقد شارك زوجها في انفعالها، وعول كلاهما على توحيد جهودهما لإنقاذ «لاتيد». وأبى الزوج إلا أن يتقدم بنفسه في اليوم التالي بظلامة «لاتيد» إلى مفتش السجون.

غير أن الموظف الكبير صارحه بأنه كان قد أحزنه ما سمعه من صاحب الظلامة، وأنه لم ينتظر وصولها إليه، بل بادر باتخاذ التدابير لتسريحه، ولكنه عرف ما آلمه من أن المتظلم مجنون لا شك في جنونه، الذي تتخلله فترات من الهدوء، إلا أنه يصير من الخطورة إبان هياجه، بحيث لا يمكن أن نسبغ عليه آمنين غير إشفاقنا الذي لا غناء فيه.

ولكن مدام «لي جروس» لم تقتنع، بل دلتها الغريزة المركوزة في العقول الفضلى على أن مضطهدي «لاتيد» يسيئون استعمال سلطتهم بتكبيله بالأغلال، وخنق صرخاته، خشية أن يفضح أمرهم إذا أطلق سراحه.

ومضت مدام «لي جروس» تستزيد من اقتناعها، فتزودت من قسيس السجن بشهادة تؤكد حسن سلوك «لاتيد» وتعقله. كما رجعت إلى سجل السجن فلم تجد فيه إلا اسم «لاتيد» وتاريخ القبض عليه.

ومضت السيدة الجسور تضحي بصحتها وتجارتها الصغيرة ومواردها الضئيلة، فيما أخذته على عاتقها من عمل بطولي. فيممت شطر السجن بحجة شراء بعض منتجات المسجونين، ونجحت في أن تقنع حارسًا نفحته بثلاثة جنيهات، أن يحمل إلى «لاتيد» خطابًا طوته على رجاء بأن يتقبل جنيهًا رابعًا قرضًا منها، وأرفقته بهدية أخرى أكثر نفعًا: مسحوق أنقذه في خلال ثلاثة أيام من الحشرات التي كانت تفترسه.

وإن «لاتيد» ليقرر في مذكراته بأنه إذ تلقى خطابها بلّله بدموعه؛ ثم خر راكعًا على ركبتيه، يكاد يربط في تعبده إلى الله القادر على كل شيء، المخلوقة التي بدا له بوضوح أن صورته تعالى قد ارتسمت على محياها.

وبعث «لاتيد» برسالة يثني فيها الصديقة المجهولة عن ركوب الطريق الذي يعرف جيدًا مخاطره الشديدة، وناشدها أن تذره يهلك، قائلاً بإخلاص من أعماق قلبه: لا تلقِ بنفسك، وتذكري بأنه ليس في وسعي أن أرد جميلك إلا بالدموع وعرفان الجميل.

وقد شقت الصديقة الفضلى طريقها قوية العزيمة، لا يثنيها خذلانها المتكرر، إلى رئيس الشرطة الجديد الذي لم يلبث أن صارحها بيأسه، بعد أن كان قد وعدها بأن يصنع كل ما في وسعه.

وأخيرًا نجحت الصديقة البطلة في إثارة اهتمام مدام «نيكر»، وزير المالية، وكانت امرأة خيّرة. فتلقى مدير الشرطة بطريقة لم يفهمها قط، أمرًا بالإفراج عن «لاتيد»، ولكنه تلكأ مدى ستة أسابيع؛ وكان أمر الإفراج مقرونًا بشرط كريه هو الإقامة في «مونتانياك» مما كبد مدام «لي جروس» مشقة لا تقل عن جهدها السابق، فقبلت التعهد بتحمل المسؤولية الثقيلة عن سلوك «لاتيد» الهادئ، وصمته التام، وامتناعه عن الظهور في أي مكان عام، وأعلنت عن تصميمها على إيوائه في بيتها.

وخرج «لاتيد» إلى الحرية، برفقة صديقيه السيد والسيدة «لي جروس» وذهبوا معًا إلى الدار؛ شقة نظيفة بسيطة، ينم كل ما فيها عن أنها قد أعدت منذ وقت طويل لاستقبال «لاتيد».

صداقة «ولبول» والمركيزة «دي ديفون»

كان «هوراشيو ولبول» سياسيًّا وأديبًا، عرف بأنه أقدر كتّاب الرسائل باللغة الإنجليزية. وإذ ظل طوال حياته فريسة النقرس فإنه لم يتزوج. وقد ظهرت في سنة ١٨١٠، أربعة مجلدات حوت الخطابات التي كتبتها له صديقته القديمة «مدام دي ديفون»، وهي تكبره بثمان وثلاثين سنة، وقد ماتت بعد أن جاوزت المائة، تاركة كلبها «تونتون» في رعاية صديقها «ولبول» الذي عهدت إليه أيضًا بأوراقها.

صداقة «تالليران» بمدام «دي ستال»

لجأ «تالليران» من منفاه بالولايات المتحدة إلى مدام «دي ستال» كريمة «نكر» التي اشتغلت من أجله بالحمية والولاء، اللذين تعمل بهما لكل صديق يحتاج إلى معونتها. وقد سأله «نابليون» مرة: أحقًّا أن مدام «دي ستال» معتادة على المؤامرات. فأجابه «تالليران»: لولا مؤامرتها ما كنت أنا الآن هنا. قال «نابليون»: يبدو أنها على أي حال صديقة طيبة. أجاب «تالليران»: إنها طيبة إلى حد أن تلقي بأصحابها في الماء لتستمتع بانتشالهم.

وقد تقدم «تالليران» بالتماس رسمي للجمعية، في حين أقنعت مدام «دي ستال» بأسلوبها الذي تتميز به، خليلة أحد أعضاء الجمعية البارزين. كما سعت لدى «باراس» فقدمت به «تالليران» وألحت عليه في زيارات متكررة أن يقلده وظيفة، مؤكدة له أنه لا توجد تضحية تضنّ بتقديمها في سبيل صديقها، وما زالت به حتى فرض «تالليران» على زملائه.

ويقول «تالليران»: إن مدام «دي ستال» أرغمته على تناول الغداء مع «باراس» في فيلا على شاطئ السين، وعاق «باراس» عن الحضور غرق سكرتيره الخاص. فذهب إليه «تالليران» يعزيه ولم يلبثا أن عادا إلى «باريس» كأحسن صديقين، وتمخضت الصداقة عن تعيينه وزيرًا للخارجية.

الصداقة نصف الغرامية

انعقدت صداقة بين «تالليران» ومدام «ريميزا» في أوائل أيام القنصلية، لما رافقا ركاب «نابليون» و«جوزفين» في أثناء تجوالهما في شمال فرنسا وبلجيكا.

«جوته» و«شارلوت اشتين»

كما خلد التاريخ اسم «شارلوت اشتين» صديقة «جوته» وكان أبوها رئيسًا للتشريفات. فلما بلغت الخامسة عشرة صارت وصيفة لوالدة دوق «ساكس - ويمر»، ثم تزوجت وهي في الثانية والعشرين من الشخص الثالث في البلاط، المشرف على خيول الدوق، وأنجبت منه سبعة أطفال.

فلما هاجر «جوته» إلى «ويمر» في سنة ١٧٧٥، وكانت في الثالثة والثلاثين، وكان هو يكبرها بسبع سنين؛ استحوذت عليه، وظلت زهاء عشر سنين صاحبته الملازمة؛ إذ وجد فيها المرأة التي تستطيع أن تلتقي به على المستوى الثقافي. ومع أن عروة هذه الصداقة قد انفصمت على إثر عودته من إيطاليا في سنة ١٧٨٨، فإن صداقتهما لم تلبث أن تجددت فيما بعد.

وتعتبر خطابات «جوته» إليها، التي بلغ عددها ألف رسالة وخمسمائة رسالة، من أهم أجزاء رسائله؛ كما تدل على أن «شارلوت» قد صارت المبدأ الرائد لحياته: تعلمه آداب المجتمع، وتسيطر على تفصيلات وجوده اليومي، وتستولي على خياله وتملك زمام رغبته مع إصرارها على أن تظل علاقتهما في حدود اللياقة والفضيلة التقليدية. فهي له أخت، ولا أكثر.

وقد أوحى إليها تعاليها المتزايد، على ما فيه من مضايقة، بكثير من روائع شعره.

وكانت «شارلوت» صديقة أيضًا لـ «شيللر» وزوجته.

«فاجنر» و«ماتيلد»

على إثر إخفاق سيمفونية «تانهوزر» في أوبرا باريس، توسطت البرنسيس «دي موترنيخ» لدى الإمبراطور فقرر إعادة عرضها فورًا؛ فلما رفع الستار تلقاها جمهور غير مرحب وبدأ الحضور يضحكون ويصيحون ويصفرون؛ وكان السقوط.

وغادر «فاجنر» باريس ليعتزل في سويسرا، فرحب به أصدقاء أعزاء للغاية، ولا سيما زوجة صديقه مدام «ماتيلد وسندون».

إذ تاقت «ماتيلد» إلى مصادقة فنان صادق الحس مرهف الشعور، وقد قاومت المرأة المسكينة الغرام بكل ولائها وكل إرادتها، فلم تكن في خلال مدة طويلة غير مجرد صديقة، ملهمة لـ «فاجنر» بمعنى الكلمة الأدق والأكثر روحانية، وتحت تأثير إلهامها تصور وألّف موسيقى «تريستان وايزولد».

صديقة «نيتشيه»

انعقدت صداقة نبيلة سمحة اتسمت بطابع الأمومة بين «مالفيدافون باخ» المؤلفة المعروفة للفردية، والمؤلف المندفع «نيتشيه»؛ وكان دستور «مالفيدا»: الذكاء، والمحبة، والاعتدال.

«سيمون دي بوفوار» و«بول سارتر»

تحدثت «سيمون دي بوفوار» في آخر كتبها عن صداقتها بـ «بول سارتر»، فقالت بأنها صداقة ارتباط أوثق من أي غرام في العالم؛ وأشارت إلى إحدى عشيقات صديقها قائلة بأنها صاحبة ابتسامة لا مثيل لها في الدنيا بأسرها، وقالت عن نفسها: إنها صارت عجوزًا صفر اليدين.

الفصل السابع

صداقة الملوك والعظماء

«لا الجيوش ولا الكنوز تحمي العرش،
إنما يحميه الأصدقاء»—«صولوست»

الملوك ليس لهم صديق

قطع «أرسطو» بأن الملوك لا يمكن أن يكون لهم أصدقاء على هذه الأرض؛ لأنهم أرفع منزلة من جميع الناس.

حاجة الملوك إلى الصداقة

يبدي «بيكون» دهشته من الأهمية العظمى التي يعلقها الملوك والحكام على اقتناء الأصدقاء؛ مع علمهم بأنهم يخاطرون بعظمتهم وسلامتهم في سبيل استحقاق نعمة الصداقة.

وهو يلاحظ أن كثيرين من أحكم الأمراء وأبصرهم بالسياسة، قد ارتبطوا بمصادقة بعض رعاياهم؛ فرفعوهم إلى منزلتهم وجعلوهم في مرتبة الأكفاء، واتخذوهم رفقاء.

ولو أن هؤلاء الأمراء كانوا مثل «تراجان» أو «ماركس أوريليوس»، لظن المرء أن تصرفاتهم هذه ناجمة عن طبيعة بالغة الطيبة. أما وقد كانوا جميعًا رجالاً على حظ موفور من

الحكمة، وقوة العقل وصرامته، وشدة المحبة لأنفسهم، فإن سلوكهم هذا إنما يدل بوضوح تام على أنهم وجدوا أن غبطتهم الخاصة، مع أنها بلغت أقصى ما وصل إليه الآدميون الفانون؛ منقوصة ما لم يهتدوا إلى صديق يكملها. ويضاف إلى هذا، أنهم أمراء لهم زوجات وبنون، وأبناء عمومة، ولكن كل هؤلاء ما كانوا ليزودوهم بما تمدهم به الصداقة.

الفراعنة والصديق الأوحد

كان الفراعنة إذا أرادوا الارتقاء بأحد النبلاء إلى مرتبة الشرف العليا، لقبوه بـ «صديق الملك»؛ أو «السمير الوحيد».

«الإسكندر» و«بارمنيون»

والملوك والعظماء آدميون يضيقون بالعزلة في عليائهم، فيحتفظون بواحد على الأقل ممن يريدونهم. وقد احتفظ «الإسكندر» بالجنرال المكدوني «بارمنيون». ومع ذلك فإن الصداقة لم تمنع «الإسكندر» من قتل صاحبه جزاء نصيحته إياه بمصالحة «داريوس».

«يوليوس قيصر» و«بروتس»

وقد ظفر «بروتس» بمثل هذا الاهتمام من «يوليوس قيصر»، إذ اتخذه في وصيته وارثًا بعد ابن أخيه. وكان نفوذه عليه هو الذي استدرجه إلى منيته. ذلك أنه عندما أراد «قيصر» تسريح مجلس الشيوخ، متأثرًا بحلم «كالبورنيا»، رفعه «بروتس» مترفقًا من ذراعه عن كرسيه قائلاً له إنه يأمل أن لا يحلّ مجلس الشيوخ حتى تكون زوجه قد حلمت حلمًا أحسن. وإنه ليبدو أن مكانته كانت عظيمة عند «قيصر» إلى حد أن «أنطونيوس» كتب يقول: كأنما كان قد سحر «قيصر». وانتهى الأمر بأن قتل «بروتس» «قيصر».

«أغسطس» و«أجريبا»

ورفع «أغسطس» «أجريبا»، على وضاعة مولده، إلى المنزلة السامية، حتى إنه حين استشار «ميسيناس» في زواج ابنته «جوليا»، أذن لنفسه بأن يشير عليه بأن يزوجها من «أجريبا»، أو أن يقضي عليه؛ وأنه لم يعد أمامه من خيار، بعد أن جعله عظيمًا بهذا المقدار.

«تيبيريوس» و«سيجانوس»

كذلك ارتقى «تيبيريوس قيصر» بوزيره «سيجانوس» إلى هذه المكانة الرفيعة، فكانا يتخاطبان باعتبارهما صديقين. وقد خصص مجلس الشيوخ بأسره مذبحًا للصداقة، كما لو كانت إلهة، تكريمًا لصداقتهما. ومع ذلك فإن هذا لم يصرف «سيجانوس» من أن يدسّ السم لصديقه ليقتله ويحل مكانه؛ ولا منع الإمبراطور من قتل صديقه «سيجانوس».

«سيفيريوس» و«بلونيانوس»

وكان مثل هذا وزيادة بين «سبيتيموس سيفيريوس» و«بلوتيانوس» فقد أرغم ابنه الأكبر على الزواج من ابنته. وكثيرًا ما أيّد «بلوتيانوس» في عدوانه على ولده، وقد سجل أيضًا في خطاب له إلى مجلس الشيوخ هذه الكلمات: أحب الرجل إلى حد أنني أود لو أنه عاش بعدي.

«سيللا» و«بومبي»

لما سيطر الدكتاتور «سيللا» على «روما» رفع «بومبي»، الذي سمي فيما بعد بالعظيم، إلى المنزلة التي جعلته يفاخر بأنه أقوى من «سيللا».

الملك «سويين» والأسقف «وليم»

كان «سونيد» ملك الدنمرك رجلاً صارمًا عنيفًا، ولم يكن العهد بعيدًا بكبار نوابه الذين قتلهم بغير محاكمة بسبب بعض نكاتهم الفظة، ومع أن الملك قد عمد، فلم يكن ثمة ما يمنع ردته عن المسيحية إذا لم توائم مزاجه، وعودته إلى عبادة «طور» و«تير» مع نصف رعاياه من الوثنيين.

ولما قصد الملك إلى كاتدرائية «روسكيلد» في «زيلندا» ألفى صولجانًا رسوليًا يعترض مدخلها، ويوصد الطريق في وجهه، وكان صاحب الصولجان هو «وليم» أسقف «روسكيلد»، المرسل الإنجليزي الذي حول إلى المسيحية معظم سكان «زيلندا»، والذي يرفض استقبال المسيحيين الذين لم يتطهروا من آثامهم.

وإنه ليتحدى الملك الذي لم يسبق له قط أن عورض، قال: عُدْ من حيث أتيت وإياك والتجاسر على الاقتراب من معبد الله، فإنك لست ملكًا، بل سفاحًا.

ولقف بعض نواب الملك سيوفهم وبلطهم، وهمّوا بضرب الأسقف وتنحيته عن عتبة الكنيسة، ولكنه بغير أن يحوّل صولجانه أحنى عنقه وأمرهم، أن اضربوا، قائلاً إنه مستعد للموت في سبيل الله.

ولكن الملك ثاب إلى رشده، وسحب نوابه وانقلب ذليلاً راجعًا إلى قصره، فخلع الحلل الملكية، ثم عاد حافي القدمين يرتدي الخيش فوقف بباب الكنيسة حيث لاقاه الأسقف «وليم» وأخذ بيده وحباه قبلة السلام، واقتاده إلى محلة التائبين.

وبعد ثلاثة أيام منح الغفران. وانعقدت بين الملك والأسقف صداقة حميمة لازمتهما مدى الحياة، إلى حدّ أن «وليم» كان يدعو الله ألا يفرقهما حتى الموت. وقد استجاب الله فتوفي الاثنان في نفس الوقت تقريبًا، ودفنا معًا في كاتدرائية «روسكيلد» حيث ألقى أحدهما درس الرحمة العظيم، وتلقاه عنه الآخر.

«هنري الثاني» وصديقه «توماس بيكيت»

توثقت عرى الصداقة بين «هنري الثاني» ومستشاره «توماس بيكيت» الذي كان يكبره بخمسة عشر عامًا، إذ وجد فيه صاحبًا ومشيرًا، فكانا لا يفترقان ولا يبرحان يجاهدان معًا في سبيل استعادة سلطان القصر ودعم حقوقه.

فلما عين الملك صاحبه رئيسًا لأساقفة «كنتر بوري» وحسب أنه قد كسب بذلك نفوذًا جديدًا يشد أزره، أدهشه ما رآه من غيرته على حقوق منصبه الجديد وتمسكه بواجباته. وانتهى الأمر بأن ضاق به الملك ذرعًا فأبدى امتعاضه من مسلكه، مما حدا أربعة من الفرسان على اقتحام الكاتدرائية وقتله في ليلة عيد الميلاد.

«هنري الثامن» و«توماس مور»

وقد أوردنا في «صداقة البنت بأبيها» ما كان من أمر «هنري الثامن» مع صديقه ورئيس وزرائه «توماس مور»؛ وكيف قطع رأسه.

«ابن العميد» و«الصاحب ابن عباد»

لقب «ابن عباد» بالصاحب؛ لأنه كان يصحب «ابن العميد» منذ صباه؛ وكان «ابن عباد» شاعرًا وكاتبًا ومؤلفًا، وهو في هذا كله نسيج وحده، كما تفرد بالكياسة وحسن السبك، فهو القائل:

إذا أدنـــاك ســـلطان فـــزدْه   مـن التعظيـمِ واحـــذره وراقـب
فما السلطانُ إلا البحر عُظْمًا   وقـربُ الـبحـرِ محـذورُ العواقب

ومع ذلك فلم يلبث «ابن العميد» أن حقد عليه وأقصاه، فأعاده إلى مكانه من «أصفهان»، وأصم أذنيه عن توسل صاحبه مقسمًا بأن لا يجاوره في بلد السرير، وبحضرة التدبير، وخلوة الأمير، ولا يكون له أذن عليه ولا عين عنده.

«المعز» و«ابن رشيق»

عاش «ابن رشيق» في بلاط «المعزّ» مقربًا، وحدث أن دخل عليه في فجر ليلة هجوم أسطول الروم، وكان «المعزّ» قد التجأ إلى المهدية عند ابنة نميم، فقام ينشده قصيدته التي يقول فيها:

تـثـبـتْ لا يـخـامـرك اضـطـرابٌ   فقد خضعتْ لعزتك الـرقـابُ

فلم يعجب «المعز» مطلع القصيدة، فابتدر «ابن رشيق» بقوله: مه، متى عهدتني ألا أتثبت؟ وإذا لم تجئنا إلا بمثل هذا فمالك لا تسكت عنا؟ ثم أمر بالرقعة التي كتبت عليها القصيدة فمزقت، ثم أحرقت.

وخرج «ابن رشيق»، فولى وجهه شطر صقلية حيث قضى نحبه.

السلطان «كتبغا» والأمير «لاجين»

كان الأمير «لاجين» بين المشتركين في قتل السلطان «خليل بن قلاوون»، ولكن صديقه «كتبغا» تستر عليه فتمكن من الهرب، ولم يلق مصير سائر زملائه.

ولما خلف الملك «الناصر» أخاه القتيل، واتخذ «كتبغا» نائبه وولي عهده، يدعي له مع السلطان في الخطبة، سعى من مخبئه إلى لقاء صديقه القديم، والتمس منه أن يحصل له على عفو السلطان. ولم يتردد «كتبغا» في تحقيق أمنية صديقه مستعينًا بأمراء المماليك، فعفا عنه السلطان.

وبدأ «لاجين» يغري صديقه «كتبغا» بالاستئثار بالحكم حتى انتهى الأمر بخلع «الناصر» وتولية «كتبغا» مكانه، فاتخذ «لاجين» نائبًا للسلطنة.

ولكن نائب السلطنة كان دائب التطلع إلى السلطنة نفسها، فانتهز فرصة نزول السلطان «كتبغا» للاستراحة بإحدى القرى في طريقه إلى القاهرة عائدًا من زيارة الشام، فانقض عليه في خيمته يبغي قتله، ولكن «كتبغا» شعر به، فهرب إلى قلعة دمشق.

السلطان «ابن قلاوون» والأمير «تنكز»

توطدت الصداقة بين السلطان «الناصر بن قلاوون» والأمير «تنكز»؛ فهو الذي اشترى له أكرم زوجاته عليه.

كما تزوج السلطان من ابنة الأمير «تنكز» وكانت من المقربات إليه بحكم صلته الوثيقة بأبيها، التي ظلت تقوى على الأيام، حتى إن الأمير لما زار السلطان آخر مرة محملاً بنفائس الهدايا من أواني البلّور والأقمشة والجياد والسروج والجمال، قدم السلطان إليه

جميع بناته وكان يقول لكل واحدة منهن: بوسي يد عمك. كما اختار السلطان اثنتين منهن زوجتين لولدي «تنكز» وخرج السلطان مع الأمير، حتى أوصله الباب الخارجي للدور السلطانية.

واصطحب «الناصر» «تنكز» في رحلة صيد إلى الصعيد، ولما انتهت زيارته سأله السلطان: أبقيت لك حاجة أقضيها قبل سفرك. فأجابه: والله ما بقيت لي حاجة إلا أن أموت في أيامك: فقال السلطان: لا، إن شاء الله تعيش أنت، وأكون أنا فداءك.

كان الأمير «تنكز» من مماليك «لاجين» ثم أصبح بعد موت أستاذه مملوكًا لـ «الناصر». وقد قاتل مع «الناصر» ضد المغول، وتزعم حركة إعادته إلى عرشه بعد أن اضطر إلى اعتزاله والإقامة بقلعة «الكرك». واستهدف في سبيل نصرته إلى خطر الموت. فأنعم عليه بلقب الإمارة، ولما استرد ملكه ولاّه نيابة الشام مدى ثمانية وعشرين عامًا، وبلغ من ثقته به أن طلب إلى نواب «حلب»، و«حماة»، و«حمص»، و«صفد» و«طرابلس» أن يكاتبوا الأمير «تنكز» نائب الشام، وهو الذي يكاتب السلطان في شأنهم؛ فلما احتج نائب «صفد»؛ عزله السلطان واستدعاه وسجنه في قلعة الجبل.

وفي سنة ١٣٣٩، ترامى إلى السلطان أن «تنكز» قال يومًا لبعض خاصته: والله لقد تغير عقل أستاذنا، وصار يسمع من الصبيان الذين حوله، والله لو سمع مني لأشرت عليه بأن يقيم أحد أولاده سلطانًا؛ وأقوم أنا بتدبير ملكه، ويبقى هو مستريحًا.

وقد أخذ عليه السلطان قسوته على بعض المتهمين من النصارى، وأمره برد أموالهم، والتعجيل بتجهيز بناته اللاتي عقد عليهن لأولاد السلطان، ثم أعلن أن «تنكز» خرج عن طاعته وأمر بعزله عن نيابة الشام، وبعث إليه بمن قبض عليه، فوصل مصر مصفدًا بالقيود.

ولما لم يجد المحققون مأخذًا على «تنكز»، تقدموا إلى السلطان راجين أن يأذن له بقضاء بقية عمره في هدوء بعيدًا عن الحكم، ولكن السلطان بادر بنفيه إلى الإسكندرية حيث سيم ألوان العذاب ليفضي بأسماء شركائه في المؤامرة المزعومة، وانتهى الأمر بإعدامه.

«ماري أنطوانيت» و«مدام كامبان»

تقول «مدام كامبان» في كتابها «حياة «ماري أنطوانيت» الخاصة»: استدعتني الملكة صبيحة يوم ٦ من أكتوبر لتستودعني وحماي أنفس مقتنياتها، ولم تصحب معها غير ماساتها. وقد رأيت جلالتها منفردة في جناحها الخاص قبيل رحيلها إلى باريس، ولم تكد تطبق الكلام، ندّت الدموع وجهها الذي بدا كأن ما يجري من دم في جسمها قد اندفع إليه. وقد تنازلت فعانقتني، وأعطت يدها إلى مسيو «كامبان» ليلثمها، وقالت لنا: تعاليا فورًا لتقيما في باريس، فلسوف أسكنكما في «التويليري»، تعاليا ولا تتركاني بعد الآن، فإن الأتباع الأمناء في مثل هذه الأوقات يصيرون أصدقاء نافعين. لقد ضعنا، إنهم يبعدوننا، ولعلهم سائقونا إلى حتفنا؛ حين يمسي الملوك سجناء، فإن حياتهم لا تطول.

ملوك منافقون يتظاهرون بالصداقة

كان «تالليران» في استقبال «لويس الثامن عشر» لدى وصوله إلى «كومبيين» قادمًا من إنجلترا، فتلقاه الملك العائد إلى عرشه قائلاً: يرجع تاريخ بيتنا إلى نفس الحقبة؛ وقد كان أسلافي أكثر شطارة، ولو أن أجدادك كانوا هم الشطار، لقلت لي اليوم: اجلس، اقترب بكرسيك، ولنتحدث في شؤوننا.

وكانت كلمات الملق هذه محل تقدير عظيم من مستمعها، الذي سجلها فخورًا؛ في حين أخفى «لويس» تحتها، عدم ثقته وعزمه على أن يحدّ من تدخل «تالليران» في شؤون المملكة الداخلية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

«القيصر إسكندر» و «آدم تزار توريسكي»

«آدم» أكبر أبناء بيت يسميه البولنديون «الأسرة»، وقد عاش آلهة كالملوك على ضيعتهم «بولاوي» حيث يضرب المثل بثروتهم ووطنيتهم. وقد طلبت القيصرة «كاترين» أن يكون هو وأخوه رهينة، وصادرت في نفس الوقت ممتلكات «تزار توريسكي» بحجة أنهم ارتكبوا الخيانة العظمى.

ويمم «آدم» وأخوه إلى «بطرس برج» لينقذا ثروة طائلة تعتبر ذات أهمية قومية. وقد عين ضابطًا مساعدًا للغراندوق «إسكندر». وكان إذ ذاك في الثامنة عشرة. وقد هز البولندي قيصر المستقبل بانقباضه الوحشي المتعالي، وانعقدت صداقة بطولية بين حفيد «كاترين» ورهينتها الممتاز. وقطع «إسكندر» ذات يوم العهد لصاحبه أن يعيد لبولاندا استقلالها.

وبعد وفاة «كاترين» سنة ١٧٩٦، قرر «بولس الأول» بمجرد ارتقاء العرش أن يقطع علاقة ابنه بالبولندي الساحر، فبعث به سفيرًا في «تورين» غير أن المنفيّ الجليل لم يلبث أن لقي نهاية غير متوقعة ذات صبغة مسرحية رائعة، فقد اغتيل «بولس الأول» وخلفه «إسكندر» على العرش، فاستهل حكمه باستدعاء «تزار توريسكي» من إيطاليا. وبعد أسابيع قليلة تحقق تناقض ظاهري عظيم، إذ صار المستشار الأول لقيصر جميع الروس أميرًا بولنديًا وطنيًا.

عاد «تزار توريسكي» إلى «بطرس برج» مفترضًا أن «إسكندر» منجز فورًا ما وعد بصدد بولندا؛ ولكن «إسكندر» تردد. أراد أن يبدأ بإصلاحات داخلية تكسبه شعبية، ثم يكلل جهوده بأن يعيد إلى بولندا استقلالها.

ومع ذلك، فقد بذل «تزار توريسكي» قصاراه في خدمة «إسكندر»؛ لأنه يشعر من ناحية بأنه مدين للقيصر الشاب بثقته فيه التي لا حدّ لها، ولأنه يدرك على الخصوص أن مساعدة «إسكندر» في تحقيق حكم ناجح موفق، هو الفرصة الوحيدة للتعجيل بتحرير وطنه.

وقد عين «إسكندر» الأمير البولندي وزيرًا للخارجية، ووافق على أن يكون هو الناطق باسم بولندا في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥.

وقد حقق الأمير البولندي ما وسعه تحقيقه بمساعدة صديقه، فصارت بولندا مملكة ملكها «إسكندر».

«نابليون» و«ديروك» و«ديزيه»

كما اتخذ «نابليون» صديقًا «ديروك» ماريشال القصر في عهد الإمبراطورية.

ولم ينقطع «نابليون» عن الأسف على موت «ديزيه»، الذي أطلق عليه المصريون اسم: «السلطان العادل».

الخيانة في صداقة الملوك

دلت خبرة الجنس البشري على أن صلات الملوك بخواصهم من أخطر العلاقات وأكثرها تعرضًا للمفاجآت، وهي تنتهي عادة بأن يبطش الملك بصاحبه، أو يخونه صاحبه ليستخلص منه الملك فيستأثر به دونه.

ومن أحسن ما قيل في هذا الصدد ما ورد في كتاب «كليلة ودمنة» بأسلوب «ابن المقفع» قال: ويل لمن ابتلي بصحبة الملوك الذين لا حَمِيّة لهم ولا حرمة، ولا يحبون أحدًا، ولا يكرم عليهم إلا إذا طمعوا فيما عنده من علم: فيكرمونه لذلك، فإذا ظفروا بحاجتهم منه، فلا وُدّ ولا إخاء، ولا إحسان، ولا غفران ذنب، ولا معرفة حق! هم الذين أمرهم مبنيّ على الرياء والفجور. وهم يستصغرون ما يرتكبونه من عظيم الذنوب، ويستعظمون اليسير إذا خولفت فيه أهواؤهم. ومنهم هذا الكفور الذي لا رحمة له، الغادر بأليفه وأخيه.

السلطان من لا يعرف السلطان

ومن أمثلة العرب قولهم: السلطان من لا يعرف السلطان.

الفصل الثامن
الأخوّة في الله؛ ومصادقة الله

المبحث الأول
الأخوة في الله

«مـن آخى أخًا في الله، رفعه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله»—«حديث شريف»

رابطة روح الله والعقل العام

«مَـــنْ لَمْ تـكـنْ في اللهِ خلتُه فـخـلـيـلُـه مـنـه عـلـى خَـطَـر»

الواقع أن الصداقة الحقيقية هي أخوة في الله، وترابط أساسه شيء أسمى من الإنسانية، هو روح الله الذي لكل واحد من خلقه فيه نصيب، وهو العقل العام الذي يستقي منه الخلق ملكاتهم وسجاياهم وغرائزهم، فإذا اتحد قبس الله الذي يتخلل اثنين من عباده صارا صديقين.

ثم أليست الفضيلة، التي لا قيام لصداقة إلا على أساسها، ولا ثبات لها إلا في ظلها؛ هي العلاقة التي تربط المخلوق بخالقه قبل أن تربط بين مخلوقين.

المذهب المثالي الذاتي

يعتقد أصحاب المذهب المثالي الذاتي أن النفس لا تعرف، وليس في مكنتها أن تعرف شيئًا، خلا تغيراتها وحالاتها، وأن النفس هي الشيء الوحيد الموجود؛ وأنها انبعاث من الله لا تنفصل عنه أبدًا، وأن العزلة والوحدة مستحيلتان تمام الاستحالة. وأن البشرية أخوة لا انفصام لعروتها، بسبب هذه الوحدة الحقيقية مع الله.

المتحابون في الله

قال «أبو إدريس الخولاني» لـ «معاذ»: إني أحبك في الله. فقال له: أبشر، ثم أبشر؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ينصب لطائفة من الناس كراسيّ حول العرش يوم القيامة، وجوههم كالقمر ليلة البدر؛ يفزع الناس وهم لا يفزعون، ويخاف الناس وهم لا يخافون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فقيل: من هؤلاء يا رسول الله؛ فقال: هم المتحابون في الله تعالى.

ورواه «أبو هريرة»، قال فيه: إن حول العرش منابر من نور، عليها قوم لباسهم نور، ووجوههم نور، ليسوا بأنبياء، ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء. فقالوا: يا رسول الله، صفهم لنا؛ فقال: هم المتحابون في الله، والمتجالسون في الله، والمتزاورون في الله. وقال ﷺ: ما تحاب اثنان في الله، إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبًّا لصاحبه.

الأخوة في الله تحقق المساواة

والإخوان في الله، إذا كان أحدهما أعلى مقامًا من الآخر، رفع الآخر معه مقامه، وأنه يلتحق به كما تلتحق الذرية بالأبوين، والأهل بعضهم ببعض؛ لأن الأخوّة إذا اكتسبت في الله لم تكن دون أخوة الولادة.

منزلة المتحابين في الله

قال ﷺ: إن الله يقول: صحت محبتي للذين يتزاورون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتحابون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتباذلون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم من ظلي يوم لا ظل إلا ظلي. وقال: سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛.. ورجلان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه. وقال: ما زار رجل رجلاً في الله شوقًا إليه ورغبة في لقائه، إلا ناداه ملك من خلفه: طبت وطاب ممشاك وطابت لك الجنة.

وأنه قال: إن رجلاً زار أخاه في الله، فأرصد الله له ملكًا، فقال: أين تريد؟ فقال: أريد أن أزور أخي فلانًا. فقال: لحاجة لك عنده؟ قال: لا؛ قال: فيم؟ قال: أحبه في الله. قال: فإن الله أرسلني إليك يخبرك بأنه يحبك لحبك إياه، وقد أوجب الله لك الجنة. وقال ﷺ: أوثق عرى الإيمان الحب في الله.

كما روي أنه قال: المتحابون في الله على عمود من ياقوتة حمراء، في رأس العمود سبعون ألف غرفة، فيقول أهل الجنة: انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين في الله. فيضيء حسنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس؛ عليهم ثياب من سندس خضر؛ مكتوب على جباههم: المتحابون في الله.

الحب لله وفي الله

قسَّم «الغزالي» الحب أربعة أقسام: حبك الإنسان لذاته؛ وحبك إياه للتوصل إلى مقصود متصل بالدنيا، وحظوظها؛ وحبك إياه للتوصل إلى مقصود متعلق بالآخرة، وحبك إياه للتوصل إلى مقصود متعلق بالله، وهو أن تحب لله وفي الله، لا لتنال منه علمًا أو عملاً، أو تتوسل به إلى أمر وراء ذاته، وهو أعلى درجات الحب، وأدقها وأشدها غموضًا.

وهذا القسم الرابع ممكن: فإن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل ما يتعلق بالمحبوب، ويناسبه ولو من بُعد، فمن أحب إنسانًا حبًّا شديدًا أحب محب ذلك الإنسان، وأحب محبوبه، وأحب من يخدمه، وأحب من يثني على محبوبه، وأحب من يسارع إلى رضا محبوبه.

«ميشيل أنجلو» ومركيزة «بسكارا»

وقد عرف الناس عديدًا من هذه الأخوّات، بعضها جماعي والبعض فردي، وحسبنا أن نشير إلى إحدى الأخوّات الفردية بين «ميشيل أنجلو» والأرملة «فيتوريا كولونا» مركيزة «بسكارا»؛ وكان قد دخل مرحلة التدين التي لازمته باقي حياته، وانضم إلى جماعة دينية تنتمي إليها المركيزة فالتقى بها سنة ١٥٣٨ وهو في الثالثة والستين؛ وصار صديقها وخصص لها كثيرًا من أشعاره الدينية ورسومه.

أما الأخوّات الجماعية، فمن أمثلتها حركة «أصدقاء الله»؛ وجمعية «الكويكرز الأصدقاء» اللتان أشرنا إليهما في مطلب «الصداقة بين الله والإنسان». كما ألمعنا فيما يلي إلى الجمعية الصوفية السويسرية لتعليم القداسة عن طريق العلاقة الشخصية المباشرة بالله.

المبحث الثاني

الصداقة بين الله والإنسان

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ —«الآيـة»

صداقة الآلهة مستحيلة

يقول «أرسطو»: إن من التجديف المجوني أن يقال إن للآلهة أصدقاء.

صداقة المولى «إبراهيم» و«موسى»

«إبراهيم» و«موسى» أبرز شخصيات «التوراة» لم يفوقا سائر مواطنيهما بسبب زعامتهما، بل على أساس العلاقة الوثيقة العجيبة، التي أتاحت لهما التفرد بالمكانة العليا باعتبارهما صديقين للمولى -عز وجل.

فقد جاء في سفر «إشعياء»: اخترته نسل «إبراهيم» خليلي (صديقي).

وجاء في سفر «يعقوب»: ودعي «إبراهيم» خليل الله (صديقه). كما جاء في «سفر خروج»: ويكلم الرب «موسى» وجهًا لوجه ما يكلم الرجل صاحبه (صديقه).

(واتخذ الله «إبراهيم» خليلاً)

شاء الله القادر على كل شيء، أن يتخذ «إبراهيم» خليلاً؛ والخليل الصديق المخلص الذي تخللت صداقته القلب، وهو الذي أصفى المحبة وأصحها، أو هو الحبيب.

وقرب «موسى» نجيًّا

كما ذكر الله في الكتاب «موسى» وقرّبه نجيًّا ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾.

المحبة العقلية أسمى مراتب المحبة

يقول «أفلاطون»: إن المحبة العقلية موضوعها الجمال المطلق. فإن الذي تعمق خفايا المحبة، وبلغ آخر درجات المعرفة، يرى فجاءة جمالاً رائعًا متراثيًا لناظريه؛ جمالاً أبديًّا غير مخلوق ولا قابل للفناء، معصومًا من التدهور والتراكم. ليس جميلاً في جزء وقبيحًا في جزء آخر، أو جميلاً في وقت، أو في موضع، أو في مناسبة، وقبيحًا في سواها؛ أو جميلاً عند قوم وقبيحًا لدى غيرهم. جمال ليس له شكل محسوس، من وجه أو يدين، أو شيء جسدي، وهو بعد ليس فكرة معينة، ولا علمًا بذاته؛ تشترك فيه كل الجمالات الأخرى.

حين ترى النفس الجمال في ذاته

تسيطر المحبة العقلية على النفس لدى رؤية الجمال في ذاته، وهي مطلقة كما أن موضوعها مطلق؛ إنها امتلاء القلب، والافتتان أو الجذب. مثل هذه المحبة لا دخل لها بالصداقة.

المحبة الإلهية

والاتحاد بالجمال العقلي، يفترض الانفصال عن الكائنات المحسوسة، يوصد المحب قلبه دون كل الوجدانات البشرية البحتة، متساميًا حتى يصل المحبة الإلهية.

منظر الجمال الأبدي

يقول «ديوتيم»: «أوه يا عزيزي «سقراط»، إن ما يجعل لهذه الحياة قيمة، إنما هو منظر الجمال الأبدي. أين من منظر كهذا نفاسة الذهب والجواهر والبنين؟

محبة الصداقة تمهد للمحبة المطلقة

والصداقة تمهد الطريق للمحبة المطلقة، فهي توحّد النفوس في البحث عن الجمال، وتبني عرس الجمال المطلق؛ والجمال المطلق يستبعدها. وهي إن لم تتسق تمامًا مع المحبة القلبية، المطبوعة بالأنانية، فإنها لا تتفق أيضًا مع المحبة العقلية غير الشخصية.

الجمال في ذاته، هو غاية المحبة

والصداقة عند «أفلاطون» ليست درجة ولا شكلاً من المحبة، فإن في وسعنا تصور المحبة خارج الصداقة؛ والواقع أن للمحبة غاية شخصية هي الجمال في ذاته. فإذا قدر لنا أن نبلغ هذه الغاية، بأن نقر في تأمل الجواهر الأبدية؛ كملت سعادتنا، واكتفينا بذواتنا، ولا نكون بعد بحاجة إلى أصدقاء.

المحبة لا تتضمن الصداقة، وهي لا تستبعدها

فالمحبة إذن لا تتضمن الصداقة، ومع ذلك فإنها لا تستبعدها؛ وإذا كانت الصداقة لا تجد لها محلاً في المحبة المطلقة، فإن الصداقة هي إحدى السبل المؤدية إلى المحبة المطلقة، بل هي فوق ذلك شرط لتقوية المحبة.

فكل محبة امتداد، وهي تبدأ أولاً امتدادًا فرديًّا، أن تحب هو أن تقوي قدرات روحك وتحقق ملء ذاتيتك. ولكن ليس ثمة امتداد فردي بحت؛ حتى تكاملنا الداخلي ليس من صنعنا، بل يغرس فينا أساتذتنا بذور الفضائل لنتقوى: فصحبة أشباهنا إذن ضرورة بالنسبة إلينا، وكذلك إذ نحبهم فإنا نتشكل بالجمال المطلق الذي موضوعه الخير.

الصداقة وسط بين محبة النفس والمحبة العقلية

الصداقة وسط بين محبة النفس، والمحبة العقلية؛ إنها تفصلنا عن ذواتنا، وتعلمنا التجرد من المصلحة، وتعدّ فينا بوادر المحبة التي تلتصق بحقيقة مثالية، غير فردية. وهي بالنسبة للمحبة العقلية، كالرياضة بالنسبة إلى الفلسفة: إنها مشاركة في اكتناه الأسرار، فنحن لا نستطيع من تلقاء أنفسنا أن نتسامى إلى معرفة الخير، بل يجب أن نتتلمذ لهذه المحبة عن طريق الصداقة، بتعضيد أشباهنا وقدوتهم. وهكذا تقدم الصداقة إذن المحبة المطلقة، فهي تستدعيها، وتعلنها، ثم تتوارى بعد ذلك من أمامها.

المحبة المطلقة، هي المحبة بمعنى الكلمة

فالصداقة تلعب في نظريات «أفلاطون» دورًا إضافيًّا مؤقتًا؛ لأن جلّ همه متجه إلى تعرُّف المحبة الحقيقية. وإنه ليتساءل: أنحب الأشخاص أو الأشياء التي لا نسعى إليها لذواتها؟ وهو يضرب مثلاً محبة الأب للابن، فهذه هي المحبة الحقيقية؛ لأن الوالد لا يعتبر ولده خيرًا، يمده بخير آخر أعظم منه، بل يراه الخير الذي يضحي في سبيله بسائر الخيرات، أن يجدها دونه بما لا يقاس. وإذن تكون باطلة كل محبة نسبية، أو ملحقة بمحبة أخرى. فليس ثمة سوى محبة واحدة، هي المحبة المطلقة. ومع أن «أفلاطون» يضرب للمحبة

المطلقة مثلاً من الصداقة الأبوية، فإن من الواضح أن الصداقة، أي محبة الأشخاص، هي عنده دائمًا نسبية.

فالواقع أننا لا نحب شخصًا لذاته، ولكن للخير الذي فيه، وإذ نحبه، نقترح لأنفسنا أيضًا هدفًا غريبًا عن المحبة نفسها، هو المساهمة في تكامله الخلقي، أو الاعتماد عليه في تحقيق تكاملنا. وإذن فالخير وحده هو الذي يحبّ لذاته، ولا يحب الأشخاص إلا ابتغاء الخير.

الصداقة محبة ناقصة؛ لأنها رغبة، والرغبة لا تكون إلا مع الحرمان والحاجة، وهي التوق إلى الشيء لا حيازته؛ والصداقة نسبية من حيث موضوعها؛ لأن موضوعها ليس الخير في ذاته، بل هو خير نسبي.

وقد أعلن «أفلاطون» في «ليسيس» أن الصداقة غير ممكن تصورها. وأنها لكذلك إذا تدبرناها في ذاتها، غير مقرونة بهدفها، عن طريق ربط هدفها المباشر بهدف مطلق.

إن موضوع المحبة هو الخير، وفي الحقيقة توجد أنواع مختلفة، أو درجات عدة من الخير؛ ومن هنا تتعدد أنواع المحبة ودرجاتها.

تتجه درجات المحبة نحو الوحدة

ولكن درجات المحبة الدنيا لا تحقق أبدًا رضا النفس؛ لأن السعادة ليست إلا في تأمل الخير في ذاته. لذلك ترتبط كل محبة بشكل نسبي من الخير، فإذا حققت غايتها، تطلعت إلى خير أكثر سموًّا، وتحولت نحو محبة أخرى. فالنفس ترقى درجة فدرجة حتى تبلغ المطلق. وتتجه أنواع المحبات المختلفة نحو الوحدة، بحيث لا يمكن فصل محبة عن أخرى.

ولذلك لا يمكن دراسة الصداقة منفصلة، بل يجب وضعها مع جدل العواطف، ولهذا بالذات فإن قدرها عند «أفلاطون» نسبي، ودورها غير رئيسي.

العودة إلى الخير والاتحاد به في وحدة المحبة

ويرى «أفلوطين» «الأفلاطونية الحديثة» أن الغرض الوحيد للرجل الطيب الحكيم، والهدف الأسمى للتصرف الإنساني السليم، هو العودة إلى «الخير» والاتحاد به برابطة المحبة التي تجاوز حدود الإدراك وتسمو عليه؛ بوساطة القوة المنبعثة من «الخير»، ودافع العودة المركوز في صميم كينونته.

لكي يجيء بنا الواحد إلى الوحدة

يجب أولاً التجرد من رغبات العالم ومشاغل الذات الدنيا، المركبة من جسد ونفس، بوساطة الرياضة الخلقية والعقلية الشاقة، التي توحي بها المحبة دائمًا؛ ويساعدها في طريقها أولاً تأمّل جمال دنيا الحواس التي إذا أحسن تأملها عادت به إلى الجمال العقلي الذي هو صورته.

والفيلسوف إذا اكتمل ذكاؤه وفضيلته، وهما عند «أفلوطين» متلازمان لا يفترقان، استكشف من جديد نفسه الحقيقية الخالدة التي هي ذهن، واستيقظ على حياتها. وهنا يكون مستعدًّا للذهاب إلى الواحد، حين يتجلّى الواحد ويجيء به إلى الوحدة.

مبادلة الله محبة الناس

يرى «دنزسكوتس» أنه من غير المؤكد تمامًا، أن الله وفقًا للقانون الطبيعي، يبدي المحبة نحو كل مخلوق ذكي يحبه، وإن كان واجبهم في أن يحبوا الله ناجمًا مباشرة عن طبيعة الله.

حب الإنسان لله

ويقول «نجرين» في كتابه «المحبة في اللاهوت المسيحي»: إن حب الإنسان لله لا يمكن أن يكون حب رغبة ملحة، ولا حب صداقة؛ لأن نقطة الابتداء في كلٍّ من هذين الحبين هي في الإنسان نفسه. ولو أنه كان حبًّا من النوع الأول، حب الرغبة، فإن الله – مع أنه الخير الأعلى للإنسان، يكون في المرجع الأخير، وسيلة إشباع رغبات الإنسان وحاجاته الخاصة.

ولكن لا يوجد أيضًا محل لمحبة الصداقة في خطة إلهية المركز؛ لأنها تتضمن أن الحب الآدمي والإلهي يلتقيان على عدم المساواة، وهذا مستبعد أمام التسليم بسيارة الحب الإلهي.

يرفع الله الإنسان إلى صديق

ولما كان عقل الإنسان بالغ الضعف، وإرادته شديدة التناقض، فإن صداقته الوثيقة بالله مستحيلة، إن كان لا بد له من أن يعتمد على قوته الذاتية؛ ولكن من الممكن أن يساعد الله الإنسان، كما يستخرج المعلم الملهم أحسن ما في التلميذ، أو كما يثير محب عظيم استجابة جديدة في المحبوب – بحيث يمكن للإنسان أن يحب الله إلى أقصى حدود طاقته الطبيعية. وقد شجع الله الإنسان وما زال يشجعه بحبه الخاص أو بنعمته، بحيث إن الإنسان في حب الله أو نعمته أو بوساطته، يمكن أن تكون له مساواة في الصداقة، تمكنه من محبة الله، ومن معرفته كما يعرف هو نفسه. ومن شأن هذا أن يهب الإنسان بعدًا جديدًا بأن يرفع نفسه فوق طاقتها الطبيعية.

الصداقة البشرية محاكاة للصداقة الإلهية

يقول «دارسي» في كتابه «عقل المحبة وقلبها»: إن الصداقة البشرية هي الأساس الذي نمارس عليه محبتنا لله؛ لأنها محاكاة ناقصة لما نتوق إلى تحقيقه من صداقة كاملة هي صداقتنا لله.

العلاقة المثلثة

يصرّ «بيوبر» على أن العلاقة الرئيسية مثلثة: النفس، والله، والشخص الآخر. وأنه لا يمكن تحقيق علاقة حقيقية بالله في هذه الدنيا، إذا أعوزتنا علاقة حقيقية بالدنيا وبالناس. كذلك فإن علاقتنا الحقيقية بسائر الناس غير مستطاعة إلا في صورة علاقة حقيقية مع الله.

وهو ينوه بأن السيد المسيح، إذ ربط الوصيتين الكبريين: وصية محبة الله بكل النفس، ووصية محبة القريب كالنفس؛ فإنه يوضح أن العلاقة المطلقة بالله شاملة بقدر ما هي مانعة: فهي إذ تحجب كل علاقة مطلقة أخرى، فإنها لا تفسح فقط مجالاً لعلاقة أصيلة مع سائر الناس، بل تتطلبها. والذي يدخل في العلاقة المطلقة، يتجمع بالنسبة إليه كل شيء في هذه العلاقة.

الله مركز دائرة الوجود ورأس مثلث الحياة

إن حوار الإنسان يدخله في دائرة ما بين «الإنسان والإنسان»، ولكنه يدخله أيضًا في منطقة ما بين «الإنسان والله» لأن الله هو الـ: «أنت» الأبدي، الذي يلتقي فيه امتداد خطوط العلاقة. كل أنت معينة هي لمحة تخترق إلى الـ «أنت» الأبدي؛ عن طريق كل أنت

خاصة، فإن كلمة الوجود الأولى تخاطب الـ «أنت» الأبدية، الله مركز دائرة الوجود، ورأس مثلث الحياة.

في اللقاء الحواري يصير الإنسانُ نفسَه ويتعالى فوقها، إن الدخول في علاقة هو الذي يجعل من الإنسان إنسانًا حقًّا، ومع ذلك فإن الحياة الإنسانية بسبب طبيعتها الحوارية، تتماس بالحقيقة المطلقة وتكتسب معنى مطلقًا تجاوز طبيعتها المكيفة. إن العلاقة الحوارية هي منبت أبدية الإنسان المحدودة.

الوجود الحقيقي للإنسان، الحياة الحوارية هي الوجود في «أنا - أنت». ولكن ليس من شأن الدنيا أن تأذن باستمرار الإنسان دائمًا في علاقة «أنا - أنت». لأن بقاءنا يقتضي أن نعرف «الأشياء»، ونتحكم فيها ونستخدمها، وما هو أهم من هذا بكثير «الآدميين»؛ وبعبارة أخرى فإنه لابد لبقائنا أن نشتغل بتجريد البشر من شخصيتهم ومن آدميتهم. وهذا تعبير لاذع عن خطأ الطبيعة الحطيمة للوجود الحالي في هذه الدنيا. ولكن مهما يكن لا مفر من علاقة الـ أنا - «إت» (It) التي يجب أن تظل تابعة؛ لأن مصدر الشر في سيطرتها وليس في مجرد وجودها. إلا أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بغيرها، ولكن الذي يحيا بها وحدها ليس إنسانًا. وكل حياة حقة هي لقاء، عوضًا عن تحويل الناس إلى أشياء، والعالم الذي تحتويه الـ أنا - «إت» (It) ؛ فإن هناك المحبة الباذلة للنفس للعلاقة الحقيقية، التي لا تعنى بحال بقمع النفس. إنها ليست الذات التي تطرحها، بل الغريزة المزيفة لتوكيد الذات.. لا توجد أنانية ليست خداعًا للنفس.. ولكن لا يوجد حب بغير أن نكون أنفسَنا، وأن نظلها.

التقِ بالعالم، تلتق بالله

عليك أنت أن تبدأ؛ سوف يظل الوجود فاقد المعنى بالنسبة إليك، إذا لم تخترقه أنت بمحبة إيجابية، وإذا لم تكتشف بهذه الطريقة معناه لنفسك.. التقِ بالعالم بكل كيانك، وأنت تلتقي بالله.. إن أردت أن تؤمن؛ أحب.

إعطاء النفس لله

يقول «كنج»: إن الله لا يعطينا نفسه إلا بنسبة ما نعطيه أنفسنا، وكما أن الله وحده يمكن أن يستدعي الثقة المطلقة، فله وحده كذلك نستطيع أن نعطي أنفسنا بغير قيد، وفيه وحده ننقع غلتنا تمامًا.

علاقة «أديسون» بربّه

يقول «ماكولي» عن «أديسون»: إن الله كان بالنسبة إليه الصديق الحكيم القوي، الذي حنا على مهده بعطف يفوق حدب الأم، واستمع إلى صراخه قبل أن يتشكل في صورة صلاة، وحفظ شبابه من شباك الرذيلة، وأترع كأسه ببركات الدنيا، وزاد من قيمة تلك البركات، بأن حباه قلبًا شاكرًا لينعم ببهجتها، وأصدقاء أعزاء يشاركونه متعتها؛ الله الذي انتهر أمواج الخليج «الليجيوري»، وطهّر هواء الخريف في الـ«كامبانيا» من حمى الملاريا، وأسلس قياد تيهور جبل «سينيس».

الصداقة الأبدية

نشرت مجلة «علم العقل» مقالاً في عدد مايو ١٩٦٢ عن الصداقة الأبدية. اقتبس مؤلفه قول «داود» في مزاميره: إن أخذتُ جناحي الصبح وسكنت في أقاصي البحر، فهناك أيضًا تهديني يدك وتمسكني يمينك.

وقال: لا بد أن يكون كل فرد قد شعر أحيانًا بوحدة لا تكاد تطاق، ولكنا لا نلبث أن نكتشف اكتشافًا عظيمًا حين نتبين أن لنا من حضرة الله صديقًا ورفيقًا دائمًا؛ فيحل شعور بالانتماء والاحتماء، محل الإحساس بالضياع والانقطاع.

يلازمنا هذا الصديق، وإن لم يكن أحد قريبًا منا، وكأنما يحدثنا عن وحدة الوجود؛ النجوم والقمر، والزهر والشجر، والجبل يجلل الثلج قمته، والنسيم يضرب المثل برقته.

نتوحد بحياة الله التي فينا

نحتاج لوقت نعتزل فيه الناس لنعيد تنظيم أنفسنا حتى تتناغم مع ما هو أساسي في طبيعتنا. ولكن لا يكفي أن نعرف الله صديقًا لنا، بل يجب أيضًا أن نعرفه صديقًا يحيّينا عن طريق زميلنا في الإنسانية، نتوحد بحياة الله التي فينا. إن هذه الزمالة ضرورية لتحقيق اتحادنا الكامل بالله، ولسعادتنا.

حضرة الله تلازمني في كل خبرة لي في الحياة، تهديني وتعلمني أن لي صديقًا، إني محميّ، أمضي الآن قدمًا مطمئنًا غير هياب، شاكرًا عنايته التي لا تنقطع، إنه صديقي الأبدي، يجذب إلى دائرة حياتي من احتاج إليهم ويحتاجون إليّ، وإني لشاكر على نعمة المشاركة في هذه الصداقة.

لي صديق داخلي يماشيني ويحادثني كل يوم. آه يا ملكي وصديقي، ألا ما أغلى حضرتك لدي!

نحب في الله ما نحب في أنفسنا

يقول «فاجيه»: تحب البشرية في الله الصفات التي تعرفها في نفسها والتي تحولها إلى كائن ممتاز، وتجسمها وتجعلها مثلاً أعلى في الله، وتعبدها فيه.

والذي تصنعه البشرية من أجل صديقها الكبير في عليين، يصنعه الفرد لأجل صديقه هنا في الأرض. إنه يبحث عن أحسن المميزات الخلقية التي يعرفها في نفسه، وهو يحب هذه المميزات الخلقية ويميزها ويملقها ويعجب بها، ويختارها في شخص آخر، فيشبع بذلك في نفس الوقت غريزة مجاملة نفسه.

محبة الله ومحبة الصداقة

يتساءل البعض كيف يعرف المرء محبة الصداقة من غير أن يكون قد عرف محبة الله؟ إذا أردنا تحقيق العلاقة الإنسانية في أحسن حالاتها، فلا بد من تأسيسها على مشاركة في المحبة التي تسمو في عمومها على الشخصية والظروف.

محبة الله أسمى محبة

وثمة من يقول: إن المحبة ميل إلى الأشخاص أو الأشياء العزيزة أو الجذابة أو النافعة، كالمحبة الأبوية، ومحبة المال، ومحبة الوطن. تغلو فتغدو جارفة؛ وتتمركز حول النفس فتصبح أثرة وحبًّا للذات؛ أو تجاوزها فتضحى محبة عذرية أو أفلاطونية، بل محبة صوفية لله وفي الله.

صداقة الناس تعدنا لصداقة الله

الصداقة مدرسة الفضيلة، تدربنا على التدرج في مراقي السمو بأنفسنا إلى أرفع الدرجات، فتتطلع إلى عقد علاقة أعلى وأعمق من علاقات الناس، لا يعتريها تغيير، ولا يهدمها موت، ولا يخامرها خوف، ولا يشوبها شك.

إن شعورنا المتجدد بقصور الصداقات البشرية مهما يبلغ كمالها، إنما هو إحساس غريزي بأننا معدّون لرفقة أعلى، وجوع متضور لا يشبعه إلا عقد علاقة فردية شخصية بالله.

رابطة محبة متبادلة

والصداقة مع الله رابطة من المحبة المتبادلة تنبثق من الله والنفس الفضلى؛ أساسها اعتماد العقل البشري على الكائن المطلق باعتباره خالقه، ووجود القانون الإلهي في العقل البشري في صورة ذهن يستجيب استجابة مباركة لمحبة الله. وصداقاتنا البشرية نستمد مجدها الحقيقي من مشابهتها للصداقة الإلهية؛ لأن شروط علاقتنا بالله، مشابهة تمامًا لشروط أحسن علاقاتنا بالناس.

صداقة الله أول مقومات السعادة

يقول «ماك رانكن»: إن أعلى وظيفة للسعادة أنها جزاء الفضيلة والسعادة بهذه المثابة يجب أن نعتبر دائمًا النتيجة الطبيعية الفعلية للنشاط الفاضل؛ وليست الدافع إلى ممارسته. وإن أول مركبات السعادة الرئيسية باعتبارها جزاء الفضيلة، هي الصداقة مع الله.

سبب محبة الله

وحب الله تارة يكون لصدق الرجاء في مواعيده، وما يتوقع في الآخرة من نعيمه؛ وتارة لما سلف من أياديه وصنوف نعمته؛ وتارة لذاته لا لأمر آخر، وهو أدق ضروب المحبة وأعلاها.

أصدقاء الله

شكلت في القرن الرابع عشر جماعة صوفية ألمانية سويسرية من رجال الدين والعلمانيين تعلم القداسة؛ ليس بالتزام المراسيم والطقوس، ولا بالعظات والعقائد، ولكن عن طريق العلاقة الشخصية المباشرة بالله جل شأنه. وقد اتخذت اسمها من قول السيد المسيح: لكني أسميكم أحباء (أصدقاء).

الحب الإلهي عند متصوفة المسلمين

لا يبقى للمحب من نفسه شيء: يقول «أبو عبد الله القرشي»: إن حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء.

ينسى حظه وحوائجه: ويقول «أبو يعقوب السوسي»: حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله -عز وجل، وينسى حوائجه إليه.

إيثار محبوبك على نفسك: ويقول «الحارث المحاسبي»: المحبة ميلك إلى شيء بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرًّا وجهرًا، ثم علمك بتقصيرك في حبه.

الحب الإلهي ثمرة المجهود: ويرى «أبو طالب المسكي» صاحب «قوت القلوب»، أن الحب الإلهي مقام من المقامات التي يعمل العبد فيها عمله، ويعمل فيها بإرادته وجهده، فهو ثمرة بذل المجهود؛ والمقامات عنده هي: التوبة، والصبر، والشكر، والرجاء، والخوف، والزهد، والتوكل، والرضا، والمحبة.

المحبة حال موهوبة قديمة: على حين ينظر «ابن الفارض» إلى المحبة على أنها حال موهوبة للعبد، لا دخل فيها لإرادته وكسبه، ويتصورها حالاً قديمة قامت بنفسها ومنحتها روحه قبل أن تتصل ببدنه، فيقول مخاطبًا الذات العلية الإلهية: «وكانت نشوتي قبل نشأتي».

المحبة حالة شهد بها الله للعبد: كما قال «علي الدقاق» عن المحبة إنها حالة شريفة شهد الحق بها للعبد، وإن الحق أخبر عن محبته للعبد، وإن الحق يوصف بأنه يحب العبد، وإن العبد يوصف بأنه يحب الحق.

أنت مني ممكّن في السواد: وتقول «رابعة العدوية»:

يا سروري ومنيتي وعمادي	وأنيسي وعدّتي ومرادي
أنت روحُ الفؤادِ أنت رجائي	أنت لي مؤنسٌ وشوقُك زادي
أنت لولاك يا حياتي وأُنسي	ما تشتتُّ في فسيح البلاد
كم بدت منّة وكم لك عندي	من عطاءٍ ونعمةٍ وأيادي
حبُّك الآن بُغيتي ونعيمي	وجلاءٌ لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك ما حييت براحٌ	أنت مني ممكّن في السواد
إن تكن راضيًا عليّ فإني	يا مُنَى القلبِ قد بدا إسعادي

اللَّهُمَّ كن لي صاحبًا: ويروى أن «زهراء الوالهة» كانت تقول في بعض أودية المقدس: يا ذا الأيادي التي لا تحصى، ويا ذا الجود والبقاء.. كن لي يا منور قلبي ويا غاية طلبتي، صاحبًا.

تبادل الحب بين الله والإنسان: ويقول «ذو النون» بتبادل الحب بين الله والإنسان:

وأنــت مـدى سُـؤلي وغـايـةُ رغبتي ومـوضعُ شكواي ومكنونُ إضماري

ويقول «الحسين بن منصور الحلاج» بلسان الاتحاد، والحلول والامتزاج:

أنــا مـن أهــوى، ومـن أهــوى أنـا نـحـنُ روحـــان حـلـلـنـا بـدنـا
فــإذا أبـصـرتـنـي أبـصـرتُـه وإذا أبـصـرتُـه أبـصـرتـنـا

كما قال:

فــإذا مــسّــك شـــيءٌ مسّني فــإذا أنـــتَ أنـــا لا نـفـترق

وقال أيضًا:

مـزجـت روحـــك في روحـــي كما تمـزج الخـمـرةُ بـالمـاءِ الـزلالِ
فــإذا مــسّــك شـــيء مسني فــإذا أنــت أنــا في كـل حـال

وقال:

أنــا ســرُّ الحــقّ مـا الحــقُّ أنـا بـل أنـــا حـــقٌ فـفـرِّق بيننا
أنـا عـينُ اللهِ في الأشـيـا فهل ظـاهـرٌ في الـكـونِ إلا عيننا

وقد قتل « الحلاج» متهمًا بالتشبيه، ولم يغن عنه قوله:

«وكما أن ناسوتيتي مستهلكة في لاهوتيتك، غير ممازجة لها؛ فلاهوتيتك مستولية على ناسوتيتي، غير ممازجة لها».

من ظن أن الإلهية تمتزج بالبشرية، والبشرية بالإلهية، فقد كفر؛ فإن الله تعالى تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم، ولا يشبههم بوجه من الوجوه ولا يشبهونه.

إن ملتُ عن حبه فارقت ملتي: ويقول «ابن الفارض»:

وعن مذهبي في الحب مالي مذهبٌ وإن ملتُ يومًا عنه فارقتُ ملتي

ولـو خـطـرتْ لي في سـواك إرادةٌ على خاطري سهوًا قضيتُ بردتي

أروم منك نظرة: ويروى أنه قال وهو يحتضر:

أرومُ وقـد طـال المـدى منك نظرة وكـم من دمـاء دون مرماي طُلَّتِ

كما قال من قبل، بعد أن أتيحت له رؤية السماوات السبع:

إن كـان منزلتي في الحـب عندكم ما قد رأيـت، فقدْ ضيعتُ أحلامي

الفصل التاسع
أنواع مختلفة من الصداقة

المبحث الأول

صداقة الجار

«إن جبريل ما زال يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثــه»—«حديث متفق عليه»

أول أصدقائنا جيران

أول أصدقائنا ناس نشاطرهم نفس المكان، كالأم والمرضع وأفراد الأسرة؛ وحين نخرج عن دائرة العائلة فإن أول من نصادقهم هم جيراننا الأقربون.

والجار بحكم القربى المكانية أوْلى من نفكر في مصادقته، فإذا توافرت فيه الشروط التي نتحراها كان أحق بصداقتنا ممن يكلفنا لقاؤه مشقة الانتقال. فضلاً عن أن الجار أقرب من نهرع لالتماس معونته عند المفاجآت، وأقدر الناس على نجدتنا في الملمات، وأسرعهم إلى مشاركتنا المسرات.

وقد كان العرب وغيرهم من سكان البادية يقدسون الجار، فهو ملاذهم يفزعون إليه، ويستجيرون به ضد الواغلين فيهم والعادين عليهم من شذّاذ الآفاق وصعاليك الصحراء. وهم يفاخرون بحماية جارهم قبل المباهاة بكثرة عددهم، ويعتزون بأن جارهم مرعي الجانب بمؤازرتهم.

قال «السموأل»:

لـنـا جـبـلٌ يـحـتـلـه مـن نجـيرُه ... منـيـعٌ يـردُّ الـطـرف وهـو كليلُ

ومـا ضـرَّنـا أنـا قـلـيـلٌ وجـارُنـا ... عـزيـزٌ وجـارُ الأكـثـريـن ذلـيـلُ

«الشافعي» وجيران «ذي طوى»

وقد أوصى «الشافعي» وهو في مصر، لجيران داره التي كان يسكنها بذي طوى من مكة المكرمة.

يتغنون برعاية حرمة الجوار

ومن شعرهم الذي كان يترنم به المغنون:

أنـتِ أخـتـي وحـرمـة جـاري ... وحـقـيـقٌ عـلـيّ حـفـظ الجـوارِ

أنـا لـلـجـار مـا تـغـيّـب عني ... حـافـظٌ للمغيبِ في الأسـرارِ

مـا أبـالي أكـان لـلـبـاب ستر ... مـسـبـل أم بـقـي بـغـير سـتـارِ

ازدحام السكان ورابطة الجوار

ومع أن ازدحام المدن، وانتشار ناطحات السحاب كاد يحول دون تعارف السكان، أو تآخي الجيران؛ فرابطة الجوار ما تزال لها حرمتها المرعية وحقوقها المقضية التي يعتبر الإخلال بها قصورًا تأباه المروءة والعادات، ولا سيما في الشرق العربي.

جوار القلوب

والقلوب تتجاور، تجاور المساكن، وفي هذا يقول الشاعر المبدع «أنور العطار»:

جــارُك مــن جــاورت دهــرًا قلبه ... ومــن ســلكتَ في الحـيـاة دربَه
ومــن أمِـنـت عَـذْلَـه وعـتْـبَـهُ ... ومــن كُـفـيـت شـره وحـربَـه
قـاسـمْـتَـهُ ســروره وكـربَـه ... وأمــنَـه وخـوفَـه ورُعـبَـه
وعـاش يحميك وعشتَ حربَه ... ومــن هـبَـبْـتَ في الـوغـى مهبّه
فـكـنـتَ مـنـه رمحـه وعـضـبَـه ... ومـن شَـرِبْـتَ مستريحًا شُـرْبَه
حـتـى غـدوْتَ بُـرْءَهُ وطِـبَّـه ... وشـغْـلَـه وفِـكْـرَه ولُـبَّـه
تـغـنـيـه حُـبًّـا وتَـلَـذّ حُـبَـه ... وتـسـتـديم صـفـوَه وعَـذْبَـه
وتـسـتـطـيـب مــاءَه وعُـشْـبَـه ... وجــوَه وأفْـقَـه وتُـرْبَـه

ولا تــرى النعيــم إلا قــربـه

المبحث الثاني

صداقة الغائب

المطلب الأول: مؤلف الكتاب

صداقة الكتب وصداقة الأشياء

ليست صداقة الكتب من قبيل صداقة الأشياء، فإنما نصادق مؤلف الكتاب وبجدته، لا صفحات الكتاب وجلدته، وإن غاب عنا الكاتب بشخصه، فهو حاضر معنا بفكره، وإذا خالفناه في الرأي فنحن نتذوق مع ذلك متعة ما تثيره فينا أفكاره المضادة من رد الفعل المنشط.

صداقتنا بمؤلف الكتاب

يقول «أندريه موروا»: إن مؤلف الرواية قد يصير صديقًا مجهولاً لبعض قرائه، الذين حسبوا أنفسهم من الشواذ، وتصوروا أن انفعالاتهم آثمة غير إنسانية، ثم اكتشفوا فجأة بين شخصيات الكتاب أناسًا مثلهم، فلا يلبثون أن يستردوا ثقتهم بأنفسهم، وينجحوا في النجاة من تعذيبها. وكم ساعدت أبطال «تولستوي» و«ستاندال» المراهقين في مصارعة مصاعبهم، وتذليلها.

الكتاب ليس خير صديق

غالى البعض في وصف الكتاب، فاعتبروه خير صديق؛ ولكنه في الواقع مجرد صديق ينقذنا من الشعور بالوحدة. فالمؤلف صديق غائب، يتصل بنا عن طريق التراسل، وإن كانت ردودنا لا تصل إليه عادة، لذلك يعدّ الكتاب ترياقًا للوحدة؛ أما أحسن صديق فلا يكون إلا إنسانًا حاضرًا بذاته، نجترّ في حضرته ما حصّلناه من علم، ونبادله تذوق ما راقنا من قراءات، ووزن ما عنّ لنا من ملاحظات، وما تأثرنا به من مشاهدات.

وليس صحيحًا إذن ما زعمه بعضهم من أن من أحب كتابًا، فلن يحتاج إلى صديق أمين، أو ناصح صادق، أو رفيق طلق المحيا، أو مشير أثير. وقد فطن إلى هذا «أوفرستريت» في «العقل الحي» فقال: إن المتعة التي نستمدها من شراء الكتب عن طريق أحد أندية الكتب، ترجع إلى أننا نجد بين أعضائها من نناقشه الكتب التي طالعناها.

المطلب الثاني: الصداقة بالمراسلة

قال تاجر طنطاوي عمره ٢٩ سنة إنه بدأ وهو في العشرين بمراسلة عدد من المواطنين في الجمهورية العربية المتحدة وفي الدول العربية، ثم أخذ يتعلم الفرنسية فصار يراسل خمسمائة صديق في مختلف أنحاء العالم.

ولا شك في جدوى هذا الأسلوب في عقد العلاقات من حيث تزويد طرفيها بالمعلومات وإسعافهما بالمساعدات، مما قد يكون له أبلغ الأثر في دعم حياتهما ورفع مستواها.

المبحث الثالث

الصداقة من جانب واحد

يقول «إيمرسون»: بدا لي أخيرًا، أكثر مما كنت أعلم، احتمال قيام صداقة عظيمة من جانب واحد، بغير مبادلة. لماذا أعنّي نفسي بالأسف؛ لأن المتقبّل ليس ذا سعة: إن الشمس لن يزعجها أبدًا أن تنتشر بعض أشعتها بعيدًا، وأن تذهب بددًا في فضاء جاحد، وأن لا يقع إلا جزء صغير منها على كوكب فيعكسها.

ألا فليتعلم من عظمتك الرفيق الغشيم البارد. إن لم يكن كفوًا لك فسرعان ما سوف يعبر عنك، ولكنك تتسع بلمعانك الخاص، ولا تعود بعد رفيقًا للضفادع والديدان، بل تحلّق متألقًا مع آلهة السماء.

نظن أنه من غير المشرف أن نحب بلا مبادلة. ولكن العظيم يعلم أن الحب الحقيقي لابد أن يلقى ردًّا؛ لأن المحبة الحقيقية تتعالى فوق الموضوع غير المستحق.

المبحث الرابـع

الصداقة الجماعية

أشرنا في مطلب «التكييف الاجتماعي لأهمية الصداقة» إلى بدء الروابط الجماعية عند الطفل، وتكوين الروح الجماعية، وقلنا: إن علاقات الطفل الجماعية تتمخض عن الصداقة.

ولما كان الإنسان مطبوعًا على أن يحصر مودته في دائرة ضيقة، فإنه ميال إلى تكوين شيع وجمعيات وأحزاب. وهو في ظاهره غرض ممدوح، غير أنه قد يقسّي القلب ضد الواقفين خارج الحظيرة، ويدعو إلى مجانبتهم ونبذهم؛ وهذا الإعراض عن الجميع ما خلا فئة قليلة مختارة، من شأنه أن يؤدي إلى القضاء على الطيبة الروحية الحقيقية التي تتطلع إلى اتجاه ودي يشمل الناس جميعًا.

وتعتبر النعرة الدينية أو الحزبية، سواء استندت إلى أسباب اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو عنصرية، من أقوى دوافع تكوين مثل هذه الصداقات، وقد صادفنا أمثلة لها في «أصدقاء الله» و«جماعة الكويكرز»؛ وثمة أخوّات الجزويت والماسون، والشبان المسلمين وطوائف المنتمين إلى الطرق الصوفية؛ ومن هذا القبيل أيضًا الأخوّة في الله.

منظمة من الأصدقاء

فكر «نيتشيه» في إنشاء مركز أو حلقة علمية للثقافة المستقبلة في صورة تنظيم من الصداقة، وقد شرع هو وشقيقتاه في تحقيق الفكرة بشراء قصر صغير يكون مقرًّا لأخوة من العقول المختارة، حيث يعيشون حياة أسمى: يتبادلون النصائح، ويقومون برحلات لزيارة مجموعات الفن في إيطاليا المجاورة.

وإنه لأمر طريف أن نشهد «نيتشيه» الفيلسوف الفردي النزعة، رائدًا في مضمار الصداقة الجماعية.

المبحث الخامس

صديـق الجميع

ثمة أشخاص نادرون جدًّا، في ميولهم حنان وهم مستعدون دائمًا للنظر إلى الأمور من أحسن نواحيها؛ وإن لهم لمقدرة عجيبة على عقد الصداقات مع الجميع.

ومن مميزات أصدقاء الجميع، اجتماع طيبة القلب مع سمو الذوق وسعة الفهم، وهي صفات دالة بذاتها على درجة عالية من الكمال.

ومع أن ثمة من يقول إن صديق الجميع ليس له صديق، إلا أن الصداقة التي نتناولها هنا ليست من قبيل مجرد المجاملة السطحية العابرة التي يحذقها البعض لاجتذاب قلوب الناس تحقيقًا لمآربهم الشخصية، ولكنها صداقة بمعنى الكلمة، يتعدد فيها الأصدقاء إلى حد غير عادي، وهي من خصائص ذوي القلوب الكبيرة التي تتسع لما تضيق عنه عادة قلوب معظم الناس.

وقد تناولنا موضوع تعدد الأصدقاء في الفصل الذي خصصناه لـ «عدد الأصدقاء وتجديدهم».

الفصل العاشر
الصداقة غير الحقيقية

المبحث الأول

صداقة غير حقيقية في الظاهر

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ — «الآية»

إنكار الصديق فرارًا من الخطر

كثيرًا ما يقسو الناس على الصديق، ويوسعونه لومًا وتجريحًا؛ لأنه لم يستطع الجهر بالتمسك بصديقه في ظروف عصيبة جاوزت سعته، فأراد أن يتحايل على تحاشيها، على أساس أن الضرورات تبيح المحظورات، وأن يختار أهون الشرين مستهدفًا لسوء الظن ريثما تمر العاصفة فيعود إلى صديقه.

ولا يعدّ هذا من قبيل الصداقة غير الحقيقية؛ لأن عنصر التزييف فيها مصطنع مؤقت، ونيّة الإضرار بالصديق غير متوفرة؛ وإنه لحريّ بالصديق أن لا يسارع إلى تأثيم مسلك صاحبه في مثل هذه المآزق الحرجة، بل يلتمس له العذر.

السيد المسيح و«القديس بطرس»

قال السيد المسيح لتلاميذه ذات ليلة: كلكم تشكّون فيّ في هذه الليلة؛ لأنه مكتوب أني أضرب الراعي فتتبدد خراف الرعية. فأجاب «بطرس» وقال له: وإن شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبدًا. قال له السيد المسيح: إنك في هذه الليلة قبل أن يصيح ديك تنكرني ثلاث مرات. قال له «بطرس»: ولو اضطررت أن أموت معك لا أنكرك.

وفي تلك الليلة قبض اليهود على السيد المسيح، ومضوا به إلى بيت رئيس الكهنة، أما «بطرس» فكان جالسًا خارجًا في الدار، فجاءت إليه جارية قائلة: وأنت كنت مع «يسوع» الجليلي. فأنكر قدام الجميع قائلاً: لست أدري ما تقولين. ثم إذ خرج إلى الدهليز رأته أخرى، فقالت للذين هناك: وهذا كان مع «يسوع» الناصري. فأنكر أيضًا بقسم: إني لست أعرف الرجل.. وبعد قليل جاء القيام وقالوا لـ «بطرس»: حقًّا أنت أيضًا منهم، فإن لغتك تظهرك. فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف: إني لا أعرف هذا الرجل.

وللوقت صاح الديك. فتذكر «بطرس» كلام «يسوع» الذي قال له: إنك قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات. فخرج إلى الخارج وبكى بكاءً مرًّا.

ولكن الظرف الطارئ المفاجئ المذهل، لم يلبث أن تضاءل تأثيره، فثاب «بطرس» إلى صوابه، وعاد إلى سابق عهده، ثم استشهد في سبيل الدعوة إلى المبادئ التي بشّر بها صديقه.

صديق يأبى التظاهر بالتنكر

ومع ذلك فإن من الأصدقاء من يأبى حتى التظاهر بالتنكر لصديقه، ولو كان هذا بناء على طلب صديقه وإلحاقه، وقد أشرنا إلى ما كان من أمر «عبد الحميد الكاتب» وصديقه «مروان» آخر ملوك بني أمية، حين طلب إليه أن يتظاهر بعدائه، ويذهب إلى خصومه، فأبى قائلاً:

أُسِـــــرّ وفـــاء ثـم أُظْـهـر غـدرة　　فمن لي بعذر يوسعُ الناسُ ظاهرَه

ثم قال: يا أمير المؤمنين إن الذي تأمرني به أنفع الأمرين إليك وأقبحهما بي؛ ولكني أصبر حتى يفتح الله عليك، أو أقتل معك. وقد قتل.

المبحث الثاني

شــبه الأصدقاء

«وليس أخوك الحق من إن تشعبت

عليك أمور ظل يلحاك لائمًا»

«علي بن أبي طالب»

الصداقة الفارغة

الصداقة الفارغة ليس لها من الصداقة إلا اسمها؛ وهي غير الصداقة الكاذبة، التي يتخفّى فيها الحقد والحسد تحت ستار من شبه الصداقة؛ إنها صداقة الذين وصفتهم مدام

«ديفان»، بأنهم: من لا نخشى أن يقتلونا، ولكنهم يتركون القتلة وشأنهم؛ والذين ينطبق عليهم القول: أصدقاء لا أكترث لهم، وأصدقاء لا أطيقهم؛ وأصدقاء لا أكره في الدنيا شيئًا كما أكره بعضهم؛ أو كما صوّرها القائل بأن: الصداقة العصرية تتألف من اثنين يشد كل منهما على يد صاحبه، صداقة من وضعتهم المقادير على طريقنا اليومي.

هذه الصداقات السطحية من شأنها أن تسيء إلى الصداقة فتنزلها مكانًا تافهًا؛ إنها صداقة مبتذلة، قوامها توهم الصداقة ولا صداقة.

الصديق المصاب بالحساسية

يقول «أندريه موروا»: ولتحمنا السماء من الصديق السريع الشعور بالإهانة، الذي يأبى أن يدرك أننا نحبه. ولا يبرح يراقبنا بحيث يفسر كل مظهر للضجر، أو تعكر المزاج على أنه نذير بنحس. إن الشخص الذي يسهل شعوره بالإهانة لا يمكن أبدًا أن يظفر بصداقة حقيقية؛ لأن الصداقة الحقة ثقة كاملة، أما إذا كان لا بدّ على الدوام من تحليل الصداقة ورعايتها وعلاجها، فإنها تورثنا كربًا يزيد على ما يسببه الغرام نفسه، بغير أن تكون لها قوة الغرام ووسائل علاجه. وسوف نشير إلى «الصديق الحساس» في مطلب «المياسرة».

الصديق المتحين لمناسبات الألم

يقول «بونار»: إن من الأصدقاء من يتحين مناسبات الألم: الشكّة تهيجهم وتلهبهم، وإنهم ليتعهدونها ليحولوا دون شفائها، ثم يصطنعون مظهر الشهداء، أو المؤمنين الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، ولا يبرحون يرددون شكواهم من الذين أساؤوهم.

الصديق الذي لا يعرف غثه من سمينه

قال «المثقّب العبدي»:

فـإمـا أن تـكـونَ أخــي بصدقٍ ... فـأعـرف منك غثّي مـن سميني
وإلا فـاجـتـنـبـنـي واتـخـذني ... عـــدوًّا أتـقـيـك وتـتّـقـيـنـي

وقد أوردنا باقي القصيدة في «حدود المياسرة».

يتغير وجهه تبعًا لمصلحته

أرى قــومًـا وجـوهـهـم حسان ... إذا كـانـت حـوائـجـهـم إلـيـنـا
فـــإن كـانـت حـوائـجـنـا إلـيـهـم ... تـغـيّر حُـسْـن أوجـهـهـم علينا
ومـنـهـم مـن سـيـمـنـعُ مـا لـديـه ... ويـغـضـبُ حـين نمنـعُ مـا لدينا
فـإن يـك فعلهم سمجًا وفعلي ... قـبـيـحًـا مـثـلـه، فـقـد استوينا

لا ينفع الود عنده

لي الله مـن لا ينفع الـودُّ عنده ... ومَـن حبـلُـه إن مُـدّ غـير متين
ومـن هو إن يُحدث له الغير نظرة ... يـقـطّع بـهـا أسـبـابَ كـلّ قرين

تزلزل الأحداث مودته

ولا خـير في وُدٍّ إذا لم يكن له ... عـلى طـول مـرّ الحـادثـات بقاء

صديق العين

وإن من الخُـلان من تشحط النوى ... بـه وهـو داعٍ لـلـوصـال أمـين
ومنهم صديق العين أمـا لقـاؤه ... فـحُـلْـوٌ، وأمـا غيبه فظنـون

وقال «عبد الرحمن بن حسان»:

لا خـيرَ في الـود ممـن لا تـزالُ له ... مستشعرًا أبـدًا مـن خيفة وجلا

إذا تغيب لم تـبرح تسـيءُ به ... ظـنًّـا وتسـأل عما قـال أو فعلا

يقول «أوس بن حجر»:

وليس أخـوك الدائم العهدُ بالذي ... يسوؤك إن ولى ويرضيك مقبلا

ولكن أخـوك النائي ما دمـتَ آمنًا ... وصاحبُك الأدنى إذا الأمر أعضلا

مودة اللسان

وأخ يُلهوق لك بلسانه، ويتشاغل عنك بشانه، ويوسعك من كذبه وأيْمانه.

لـعـمـرك مـا ود الـلـسـانِ بـنـافعٍ ... إذا لم يكن أصلُ المودة في القلب

وقال «عبد الله بن معاوية»:

وعـهـد ذي لـونـين خـلا لـه ... يـوشـكُ إن ودّك أن يبغضا

إن لم تـزره قـال قـد ملّـني ... وبـالحـريّ إن زرت أن يعرضا

شيمته مـثـل الخـضـابِ الـذي ... بـيـنـا تـراه قـانـيًّـا إذ نضا

يمنّ ولا يعطي

من الناس من يدعي صديقًا ولو ترى ... خبيثة جنبيه لسـاءك جانبه

يمـنّ ولا يـعـطي، ويـزعـم أنـه ... كـريم ويـأبـى لـؤمـه وضـرائـبـه

المبحث الثالث

صداقة المنفعة

صداقة عرضية ومحبة غير مباشرة

أكثر الناس تربطهم المصلحة، فهم مستعدون لمساعدة من يساعدونهم، وهم لا يبرحون يمسكون حسابًا سريًّا لما يتلقون من خدمات، ولا يترددون في إنهاء محالفاتهم إذ يلاحظون أنهم الخاسرون.

وقد قال «أرسطو»: إن الصديق الذي يتوخى بالصداقة التماس المتعة أو المنفعة، لا يحب صديقه من أجل ذاته، بل يحبه لأنه نافع وملائم.

لذلك تكون صداقته عرضية غير مباشرة، وسرعان ما تنقطع هذه الصداقة المزعومة؛ لأن طرفيها لا تطول مشابهتهما لنفسيهما، إذ لا ثبات للنافع أو الملائم، بل يتغير بين لحظة وأخرى. فإذا انعدم السبب الذي صيّرهما أصدقاء، انصرمت صداقتهما بزوال علتها.

المتباذلون ذات اليد

جاء في كتاب «كليلة ودمنة»: إن أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين، ويتواصلون عليهما، وهما ذات النفس وذات اليد. فالمتباذلون ذات النفس هم الأصفياء؛ وأما المتباذلون ذات اليد، فهم المتعاونون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض. ومن كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا، فإنما مثله فيما يبذل ويعطي كمثل الصياد وإلقائه الحب للطير، لا يريد بذلك نفع الطير وإنما يريد نفع نفسه.

تقسيم الإخوان من حيث المنفعة

وقد قسم «الماوردي» الإخوان أربعة أقسام:

معين مستعين: وهو معاون منصف يؤدي ما عليه ويستوفي ماله، فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء؛ وهو مشكور في معونته ومعذور في استعانته، فهذا أعدل الإخوان.

لا يعين ولا يستعين: وهو متروك قد منع خيره وقمع شره، فهو لا صديق يرجى ولا عدو يخشى.

مستعين لا يعين: وهو لئيم كَلّ، مهين مستذل، ليس لمثله في الإخاء حظ ولا في الوداد نصيب، وهو من داء الإخوان لا من دوائهم، ومن سمهم لا من غذائهم.

معين لا يستعين: وهو كريم الطبع مشكور الصنع، وقد حاز فضيلتي الابتداء والاكتفاء، فهو أشرف الإخوان نفسًا وأكرمهم طبعًا.

«السرايتلي» و«الصالونجي»

ساهم بعض المؤلفين في الحط من قدر الصداقة، فجعل أساسها تحصيل الفائدة المادية وتحقيق المصلحة الشخصية، نذكر منهم على سبيل المثال اثنين:

أحدهما «جريشان»، الذي وضع كتابًا في اللباقة والدهاء والشطارة الاجتماعية التي لا غنى عن ممارستها في ظل الملكية المطلقة، حشوه أمثال سائرة تعلّم القارئ كيف يخدع ويتحايل ويكذب ويغش، في سبيل إحراز النفوذ والظفر بإقبال العظماء.

والثاني «ديل كرنيجي» الذي يدرب قراءه لا على اقتناء الأصدقاء الحقيقيين، بل يعلمهم كيف يكسبون العملاء والناخبين، ويحظون بالأنصار والمعاونين.

ومع أن «ديل» يعتنق مبدأ السيد المسيح: كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم؛ فهو يطبّقه على نحوٍ لا يتفق وروح المسيحية، إذ يستغلّ رأي «ديوي» القائل بأن أقوى حاجة للإنسان أن يشعر بأنه مهم، فيحض على انتهاز كل فرصة لإشباع حاجة الآخرين للشعور بالأهمية، واثقًا من أنهم لا بدّ أن يردّوا له جميله عينًا.

وهدف «كرنيجي» أن يتحول قارئه إلى ببغاء ناطق، يملق الآخرين ليملقوه بدورهم، ويحذق أساليب التواضع الكاذب، واصطناع التعاطف الوجداني الدائب، تلقاء أي جار أو زميل يحتمل أن يصير مرجو الفائدة يومًا ما.

مصادقة الخدم

ولا يعرف النفعيون حدودًا يلتزمونها في اختيار أصدقائهم، فإن الغاية عندهم تسوغ الوسيلة، ومن الشطار من استوزر عن طريق عقد صداقة وثيقة بخادم صاحب السلطان.

وبين هؤلاء «هملر» فقد تمكن من عقد علاقته بـ«هتلر» عن طريق «فجيلين» الجوكي الأمّي.

يتنكرون لأصحابهم ليستوزروا

وثمة أصدقاء لا شك في وفائهم وحسن قصدهم، يستهويهم المجد كما يتصورونه، وهو عندهم الوظيفة وعلى الخصوص الوزارة، ولا سيما رياستها، فإذا رأوا أن علاقتهم بصديقهم أو جماعتهم تعوقهم عن تحقيق مآربهم، هجروهم إلى حين، فتنكروا مؤقتًا لما كانوا يعتنقون

من مثل، واتخذوا مبدأهم مجرد الوصول بأي ثمن. والأمثال على ذلك كثيرة لا سيما فيما يحدث من انشعاب الأحزاب، وانشقاق الأشقاء.

وقد يرجع هؤلاء من الغنيمة بالإياب وهو أمر يُعتبر به، ويرثى لصاحبه، وتبقى خطبهم ومؤلفاتهم ومقالاتهم ومحاضراتهم شاهدًا عليهم لدى أهلهم وأبناء جيلهم؛ وكثيرًا ما يجيء ضيمهم وضيقهم على أيدي مَنْ صانعوهم، وكأنهم المقصودون بالحديث الشريف: من اعتز بقوم أذله الله على أيديهم.

ونحن نحذر الشامتين بهؤلاء، فإنهم يستحقون الرثاء، ويستجاب من أجلهم صادق الدعاء.

المبحث الرابـع

الأصدقاء المزيفون

«نفاسة الصداقة تغري بتزييفها كما تزيف الجواهر»

سبيل التضليل تحت ستار الصداقة مأمون مطروق، والأصدقاء المزيفون يتخذون سيما الصداقة ابتغاءً للمغانم، أو التماسًا لتحصيل الحاجات وقضاء المآرب؛ يحسبهم الجاهل أصدقاء من الرياء، والصداقة منهم براء.

خطر الصديق المزيف

وقد قال «شيشرون»: إذا استحق الاحتقار سلوك الطفيلي المنافق، فما بالك بسلوك من يجرؤ على انتحال اسم الصديق؟ إن اليد التي تحمل السم الذي يستخدمه مثل هذا المنافق، حريّة أن تزيد من فاعليته وفتكه.

المنافقون في الدرك الأسفل من النار

حدد الله إقامة المنافقين في الدرك الأسفل من النار، ولا بدّ أن يكون الدرك الأسفل أشد مواضع النار اتقادًا، فقد قدر العلماء حرارة الشمس على سطحها بستة آلاف درجة، وفي قلبها بعشرين مليون درجة مئوية؛ ولا شك أن المنافقين أهل لهذا التخصيص بالعذاب الذي لا يعذبه الله أحدًا سواهم من العالمين، ذلك بأن فعالهم تضيع العرف بين الناس وتعصف بالثقة، وتكاد تزلزل الإيمان بالله، وتحيل الدنيا ظلامًا دامسًا، وليلاً طامسًا ليس له نهار.

أسفل المنافقين

وأي نفاق هو أكبر مقتًا عند الله من أن يتخير المنافق ضحيته صديقه؛ ولو أن امرأً نافق عدوه لاحتقره أهله، فما بالك بمن ينافق صديقه الذي ائتمنه على سره وعرضه وماله ونفسه.

الصديق المزيف كعيش الغراب الكاذب

يقول «بونار»: إن الرفيق المزيف ليس أقل خطرًا من عيش الغراب الكاذب.

الصديق المزيف لا يخفى

ومع ذلك فأخلق بالحصيف الأريب، إذا التزم جانب اليقظة، أن يميز دائمًا بين الصديق المشايع والصديق المخلص؛ بنفس اليقين الذي يفرق فيه بين الحقيقي والمزيف في سائر الشؤون.

المغرور يغري به المنافقون

وإن أول ضحايا النفاق هم المغالون في تقدير أنفسهم؛ إذ لا سبيل إلى قيام صداقة حقيقية بين اثنين لا يطيق أحدهما سماع الحقيقة، ولا يحب الثاني ذكرها.

حتى الحصيف لا يأمن المنافقين

ولكن ضحايا النفاق ليسوا المغرورين وحدهم، فثمة طراز رقيق مصقول من المداهنة، قد لا يتحاماه حتى أصحاب الحصافة بغير أن يعدّ هذا منهم مجافاة لمقتضيات الكياسة: ذلك بأنه وإن كانت الزلفى الفجة المكشوفة لا تخدع غير ذوي الغفلة؛ فإن الرجل الذكي خليق على الخصوص أن يتوقى التردي في حبالة أسلوب الإيعاز الخفي.

إن المنافق من هذا الطراز الماكر المغطى، كثيرًا ما يقضي وطره حتى بانتحال المعارضة، متظاهرًا باعتناق آراء لا يؤمن بها، ويجادلك لكي يتيح لك فرصة الانتصار عليه. وليس ثمة ما هو أشد إذلالاً من انخداع المرء على هذا النحو البشع؛ لذلك يجب بذل أقصى الجهد لتفادي الوقوع في مثل هذه الفخاخ الخفية.

السم مخبوء في قلبه

جاء في «الهيتوباديسا» من الكتب المتضمنة لحكمة الهند: ثمة رجل تمتد يده لتحيتنا، عيناه مخضلّتان بالوجدان، يقدم لنا مقعدًا إلى جواره، ويعانقنا بحنان، حشوه استفسارات فياضة بالعطف؛ ظاهره شهد، ولكن السم مخبوء داخل قلبه – إنه إنسان منافق.

صداقة باطنها عداوة

جاء في كتاب «كليلة ودمنة»: رب صداقة ظاهرة، باطنها عداوة كامنة، وهي أشد من العداوة الظاهرة. ومن لم يحترس منها، وقع موقع الرجل الذي يركب ناب الفيل المغتلم، ثم يغلبه النعاس فيستيقظ تحت فراسن الفيل، فيدوسه ويقتله. والعاقل إذا رجا نفع العدو أظهر له الصداقة [كذا!].

ثناؤهم في حضرتنا بقدر هجماتهم في غيبتنا

وثمة من يشعرون نحونا بحب استطلاع خالٍ من التعاطف لا يقروننا على رأينا، ليسوا من فريقنا، ومع ذلك فإنهم لا يستطيعون تخطئتنا على طول الخط. يمكن أن نقول إنهم بغير أن يخفّوا أبدًا لمساعدتنا، يريدون أن يتابعوا كفاحنا في محاولة التخلص من مآسينا.

إنهم مغتابون طيبون، غادرون ودودون، قد يحدث أن يدافعوا عنا، ولكن بحيث يقتنع مستمعوهم بعد لحظة بكرم عواطفهم، اقتناعهم بصحة ما رمانا به خصومنا. فإذا صادفونا بعد أن يكونوا قد أساؤوا إلينا، بدا اضطرابهم، ولما كانوا عاجزين عن مواجهتنا، شددوا الضغط على أيدينا، وأسرفوا في الكلام العذب، وقالوا لنا فجأة كل الخير الذي لا يقولونه عنا لغيرنا. وإنا لا نتمالك الابتسام إذ ننصت إليهم، نحن الذين تعمقناهم بدرجة كافية لمعرفة أن ثناءهم في حضرتنا ليس إلا وجهًا آخر لهجائهم في غيبتنا.

إن غبت كان أذنًا وعينًا

لا يني جاهدًا يحوطك في الحضر ... فإن غبتَ كان أذنًا وعَيْنا
أنت في معشرٍ إذا غبتَ عنهم ... بدّلوا كلَّ ما يزينك شَيْنا

وإذا ما رأوك قالوا جميعًا أنت من أكرم البَرايا عَلَينا

إن غبت أوسعوني سبًّا

ويلقونني بالبشر ما دمتُ فيهم فإن غبتُ عنهم قطعوا الجلد بالسبِّ
وأغفى على أشياء منهم تريبني ولولا اصطباري ذاب من عظمها قَلْبي

يلتمس مودتي بموافقة شهوتي

قال «أبو هريرة»: اللَّهُمَّ إني أعوذك بك ممن لا يلتمس خالص مودتي إلا بموافقة شهوتي، ومن ساعدني على سرور ساعتي ولا يفكر في حوادث غدي.

نبشّ لهم، وقلوبنا تلعنهم

يقول «ابن الورداني»: إنا لنبش في وجوههم، وقلوبنا تلعنهم. [كذا]

لحمي في ثناياك

أيها الفارغُ المريدُ لغيب النا س مَهْلاً عن المغيبة مَهْلاً
إن في نفسِك التي بين جنبيك عن الناسِ لو تفكرت شغلاً
عجبًا منك، في ثناياك لحمي، فإذا رأيتني قلت: أهلاً
إن ذا الفضل والمروءة لا يقبل قولاً يخالف القولَ فعلاً

نفاق يضمر الغل

وجـوهٌ بها من مُضْمَر الغلّ شاهدٌ ذوات أديم في الـنـفـاقِ صفيق
وإن أظــهــروا بــرد الــوداد وظلّه أســرّوا مـن الشحناء حـرّ حريق

المبحث الخامس

الأصدقاء الغادرون

«خائن صديقه لن يظله معي سقف واحد،
ولن تقلني وإياه سفينة واحدة»—«هوراس»

وثقت به فخان

بــأي جــريــرةٍ أشــكــو الــزمــانــا لأول مَــــنْ وَثِــقْــتُ بــه فخانا

حين يتفشى الغدر بين الناس

كان «أرسطو» على حق إذ احتفل بالصلة بين الأخلاق والسياسة؛ فلا غنى للناس في علاقاتهم أيًّا كان نوعها، عن الصدق، وحسن النية، وشرف المعاملة. ولا بد من حد أدنى من الثقة، لإمكان القيام بأي عمل. وقد مرت بالعالم أزمنة تفشّى فيها ما يكاد يكون وباء من عدم الثقة، حين تراخت الروابط الاجتماعية، وارتفعت أيدي المواطنين بعضهم ضد بعض، واتخذوا شعارهم قول «ميخا» في «التوراة»: «لا تأتمنوا صاحبًا، لا تثقوا بصديق؛ لأن أعداء الإنسان أهل بيته». حتى عمت الفوضى وصار المجتمع كحزمة من عصيّ انفرط

عقدها. ولن ينسى البشر ما تمخضت عنه الثورة الفرنسية من أحداث تكاد تكون أبشع ما في تاريخ المدنية المعاصرة، من جراء انهيار الثقة الاجتماعية.

خيانة الصديق مأساة كالحة

خيانة الصديق مصيبة رهيبة، يهتز لها كيان الإنسان، فيطيش صوابه، وتتحطم من هولها أعصابه، وتترنح ثقته بنفسه ومثله العليا.

الصديق الغادر شرّ بلية

ليس أشق على النفس من غدر الصديق، حين تنكسر العصا في اليد التي كانت تتوكأ عليها، تاركة جرحًا داميًا في الكف، وجرحًا أعمق منه في القلب.

الغدر طاعون الإنسانية

يورث الغدر مرارة في النفس، وعدم ثقة في الناس، تؤيد وجهة نظر الباحثين عمن يدافع عنهم ضد أصدقائه، أما أعداؤهم فهم قادرون عليهم وحدهم. إنه كالخيانة داخل المعسكر، لا قبل لأحد بالتحرز منها. إنه طعنة في الظهر، ووخزة تعمي القلب. وربما سبب التخلف الخلقي لفرد، عدم الثقة بالجميع، وهذه هي مسؤولية الصداقة الرهيبة. إن غدر الغادر لا ينكب صديقة في سعادته وحدها، بل يرزؤه أيضًا في إيمانه. فمعظم أصحاب الرأي السيئ في المرأة قد حطم إيمانهم تقلّب امرأة واحدة، كما أن أكثر التهكم بالصداقة، تعبير عن ألم شخصي؛ لأن الساخر قد ذاق غضاضة العقب المرفوع.

«داود» النبي يستنكر غدر الصديق

جاء في «مزامير «داود»»: رجل سلامتي (صديقي) الذي وثقت به، آكل خبزي، رفع عليّ عقبه؛ لأنه ليس عدو يعيّرني فأحتمل، ليس مبغضي تعظم عليّ فأختبئ منه، بل أنت إنسان عديلي، إلفي وصديقي، الذي معه كانت تحلو لنا العشرة إلى بيت الله كنا نذهب (معًا). نقض عهده، أنعم من الزبد فمه، وقلبه قتّال. ألين من الزيت كلماته، وهي سيوف مسلولة.

قبلة الحواريّ الخائن

وفيما هو يتكلم إذا «يهوذا» واحد من الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصيّ من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب. والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلاً: الذي أقبله هو هو أمسكوه. فللوقت تقدم إلى يسوع، وقال السلام يا سيدي، وقبله. فقال له يسوع: يا صاحب (يا صديقي) لماذا جئت؟ حينئذ، تقدموا، وألقوا الأيادي على «يسوع» وأمسكوه.

يقلب الملح رمز العهد

في صورة «العشاء الأخير» أجلس «ليوناردو دافنشي» «يهوذا» إلى يمين السيد المسيح، وجعله يقلب الملح، وهو يغمس لقمته في الصحفة.

(عليهم اللعنة ولهم سوء الدار)

الخيانة والغدر أبغض الصفات عند الله، فقد قال عز وجل: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

لا دين لمن لا عهد له

وقال ﷺ: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له. ومن أمّن رجلاً، ثم قتله، وجبت له النار وإن كان المقتول كافرًا. وإذا جمع الله الأولين والآخرين رفع لكل غادر لواء وقيل هذه غدرة فلان.

أَخلِق بمن رضي الخيانة شيمةً ألاّ يُرى إلا صريع حوادثِ

ما زالت الأرزاءُ تُلحق بؤسها أبدًا بغادر ذمةٍ أو ناكثِ

الأصدقاء الغادرون في سقر

أبغض الناس إلى الخلق الصديق الخائن، فهم يصبّون عليه جام نقمتهم واحتقارهم، ويلعنونه بكل لسان.

وقد تمثل «دانتي» الشيطان هائلاً ضخمًا خارجًا من الثلج تكسو هامته ثلاثة وجوه: واحد قرمزي على رأسه من أمام، والآخران كل منهما فوق منتصف أحد كتفيه، والوجوه الثلاثة تتلاقى عند القمة. ويتراوح لون الوجه الأيمن فيما يبدو، بين الصفرة والبياض، ويشبه الوجه الأيسر وجوه الأحباش القادمين من منابع النيل. وتحت كل وجه جناحان

كبيران يصلحان لطائر عظيم، لم ير «دانتي» بين قلاع سفن البحر قلوعًا في جسامتها، وهي خلو من الريش كأجنحة الوطاويط؛ وكان الشيطان يحركها فتنفث رياحًا ثلاثًا، جمّدت «كوسيتس» «بحر النحيب»، أحد بحار جهنم الخمسة. وتحدرت من الأعين الست على الأذقان الثلاث قطرات الدموع واللعاب الدموي.

وجعل الشيطان يقضم خاطئًا بكل فم، كصنع الكابحة، ولم يكن نهشه شيئًا بالنسبة لهبر مخالبه، التي تعري أحيانًا سلسلة فريسته الفقرية فتجردها من جلدها، وكانت نفس «يهوذا الأسخريوطي» تقاسي أشد الآلام، وقد دخلت رأسه في الشيطان وتكومت ساقاه خارجًا؛ على حين تدلى أحد الاثنين الآخرين المنكسي الرأسين، وهو «بروتس» معلقًا من الغيب الأسود، يتلوى وهو كظيم؛ وبدت على الثاني وهو «كاسيوس»، أحد قتلة «قيصر»، علامات القنوط الذي ليس وراءه من مزيد.

«فيلوتس» يوبّخ «يوفيوس» الخائن

يقول «جون ليلي» الكاتب المسرحي الإنجليزي في مسرحية «يوفيوس»: أكان لك يا «يوفيوس» في سبيل سرور عقيم أن تنتهك حلف الصداقة الأمينة؟ أفتغلي في قيمة النظرات المغوية لمومس قبيحة، فوق المحبة الفياضة لصديق مُوَالٍ.

إذا كنت قد وطدت نفسك أن تكون زائفًا منذ البداية، فلماذا أقسمت أن تكون وفيًّا؟ وإذا كنت قد قطعت عهدًا بالوفاء ففيم زيفك؟ إذا كنت مزمعًا أن تخدعني بالتضليل والتدليس كليهما، فلماذا داجيتني وصانعتني أول الأمر؟ إذا كنت تحبني، فلماذا نكصت عني أخيرًا؟ إذا كانت روابط الصداقة المقدسة قد أبهجتك، فلماذا قدّدتها؟ فإذا كنت قاطعها، فلماذا أطريتها؟ ألا تعرف بعد أن الصديق الكامل يجب أن يكون كالحباحب،

يبلغ لمعانه أشده في الظلام؟ أو كاللبان الخالص، يزيد عبيره تضوعًا في النار؟ أو على الأقل يشبه وردة دمشق، طيبها في الأمبيق، يفوق أرجها مستوية على ساقها الرشيق؟

ولكنك يا «يوفيوس» أشبه بسنّونة تزحف صيفًا تحت كل بيت، فإذا جاء الشتاء لم تترك خلفها غير رزقها؛ أو النحلة الوضيعة التي تهجر الزهرة الجميلة وتنكرها بعد أن تكون قد رشفت رحيقها؛ أو العنكبوت الذي تعلق أجمل ذبابة بنسيجه الرقراق.

يرصد أصدقاءه في القائمة السوداء

كُلِّف «فوشيه» إعداد قائمة بأسماء الذين سلكوا في المائة يوم التي غابها «نابليون» في جزيرة «إلبا» مسلكًا لا سبيل إلى مسامحته؛ فلم يترك أحدًا من أصدقائه، مع أن اسمه كان جديرًا أن يكون على رأس القائمة.

سارق العرض

وشر ما يرتكبه الغادر أن يتخذ من ثقة الصديق ثغرة ينفذ منها إلى عرضه، ومن ذلك ما أصاب «دان سيكلز» بطل «جتسبرج» من صديقه الخائن «فيليب بارتون كي»، بعد أن محضه صداقته المخلصة الثابتة، وكان «سيكلز» من رجالات الولايات المتحدة العموميين، تضطره أعماله إلى السفر والإقامة فترات طويلة بعيدًا عن منزل الزوجية، تاركًا زوجه الجميلة «تريزا» في حراسة عفافها، وحماية صديقه «كي». فلم يرع ذمار الصداقة، وظل زهاء عام يعيث في شرف صاحبه، دون أن يخامر مستر «سيكلز» أي شك في أمانته.

فلما افتضح أمر الشريكين، وتأكد الزوج من أن صديقه قد نكث بذمته، وانتهك حرمة ضيافته ودنس مقدسات بيته، وتسلل إلى مخدعه، وجرّ العار على رأسه، ورأس ولده؛ تربص له وصاح به وهو يرديه بمسدسه: أيها الوغد «كي» لقد فضحت بيتي، يجب أن تموت!

عقوق الولد بأبيه

والعقوق ضرب من الغدر، وهو مقيت عند الله والناس؛ وقد كتب «يحيى بن سعد» لابنه:

جعلتَ جزائي منك جَبْهًا وغلظةً كـأنـك أنـتَ المنعمُ المتفضـلُ
فليتك إذ لم تـرعَ حـقَّ أبـوّتـي كما يفعل الجـارُ المـجـاورُ تفعلُ

الصديق الغادر يخون الوطن

إن الذين يخونون وطنهم، ويتجسسون عليه، ويخلّون بأمنه الداخلي والخارجي؛ هم نفس الأشخاص الذين لا يتورعون عن خيانة أصدقائهم والغدر بثقاتهم؛ ومن مصلحة الدولة أن تستأصل شأفتهم قبل أن يتجه غدرهم إلى الصديق الكبير الذي يدينون له بعد الله بكل شيء.

عقوبة الصديق الغادر

وإذا كان القانون المصري يعاقب على خيانة الأمانة بالحبس، فلا أقل من أن يفرض عقوبة مماثلة على من خان أمانة صديقه، فغدر به، وتنكر له، وانقلب عليه، ونكبه في مثله، وشوه رأيه في الناس والإنسانية، وزلزل إيمانه بالله.

وهذا مشروع قانون العقوبات الجديد يعاقب الأنذال الذين يتقاعسون عن معونة المهددين بالخطر، بغض النظر عن وجود أي علاقة تربطهم خلا رابطة الإنسانية وحدها؛ فما بالك بمن تصل نذالتهم إلى التخلي عن أقرب الناس إليهم، وهو صديقهم الشخصي الذي طالما نعموا برفده، وأكلوا من شهده، وارتووا بورده.

يخدع نفسه ولا خادع

ولكن لا بد من أن ننوه بما لاحظه «أرسطو» من أن العلة الأكثر شيوعًا للفراق بين الأصدقاء هي أنهم لا يرتبطون بنيات واحدة، وأنهم لم يكونوا أصدقاء بعضهم لبعض بعنوان واحد بعينه. وحينئذ متى انخدع أحد الاثنين، وافترض أنه محبوب، في حين إن الآخر لم يبدِ ما يؤدي إلى هذا الفهم، فلا يلومن إلا نفسه.

المبحث السادس

الصداقة بين الأشرار

الأصل أن الصداقة الحقيقية لا يمكن أن تتوطد إلا بين فاضلين، ولكن نفاسة الصداقة تغري حتى الأشرار بمحاولة الحصول على الأصدقاء الذين تأذن لهم ظروفهم بمصادقتهم.

وإنهم ليتفانون في محبة أصدقائهم والوفاء لهم إلى حد التضحية أحيانًا بكل أموالهم، أو المخاطرة بالتعرض لسخط السلطان، بل بذل حياتهم في سبيل تأمين حريتهم أو تحقيق سلامتهم.

الشاعران الماجنان

لم يتنكر «أبو علي الحسن بن هانئ» [«أبو نواس»] لـ« محمد بن مناذر» شاعر البرامكة، زميله ورفيقه في العبث والمجون، والفسق والفجور، بعد أن أقصاه «هارون الرشيد» وحبس

عنه عطاءه؛ بل نسي ما كان من نقده إياه وتطاوله على شعره، وسخا في معونته على مواجهة تقلب الزمان، مستهدفًا لسخط صاحب السلطان.

القتلة يفتدون الصديق

روي عن «هرفي لوجان» الذي تحدى وعصابته كل هيئة الشرطة في الولايات المتحدة الأمريكية، حتى تصوره العامة نصف وحش ونصف شيطان؛ أنه لم يكد يهرب بأعجوبة من السجن حيث كان ينتظر تنفيذ عقوبة الإعدام، حتى سطت عصابة من ثلاثة أشخاص على قطار وحاولت فتح خزانة كانت فيه؛ فهاجمها المسلحون من الركاب ونفر من رجال الشرطة وعمال المناجم ورعاة البقر، وظلوا يتعقبونها يومين حتى أحدقوا بها وبادلوها إطلاق النار، فلما أصيب أحد الثلاثة، تعلق به رفيقاه عوضًا عن أن يلوذا بالفرار، وحاولا حمايته، وعالجا رفعه فوق جواده. وقد رآه المطاردون يشير إلى صديقيه بأنه قد قضي. وأخيرًا رفع نفسه وأمرهما بأن يغنما النجاة؛ فانصاعا كارهين، وابتعدا عن مرمى الرصاص.

الوزير المرتشي وعامله

كاد وزير خارجية فرنسا لا يبرم أمرًا من شؤون وزارته بغير أن يتقاضى عليه من الدول مقادير كبيرة من المال، وكان في مقدمة عملاء «تالليران» في هذا الصدد «كاسيمير دي مون رون» الذي صار من أوثق أصدقائه، وظل هكذا حتى مات، باستثناء فترة قصيرة اختلفا في خلالها.

وقد عُرف «مون رون» بالجميل، لأناقته وروائه؛ وكان سيّافًا مقامرًا ذكيًّا، ذاع صيت نجاحه في دنيا النساء وعالم القمار.

أحب « تالليران» «مون رون»؛ لأنه على حد قوله غير مثقل بالتحرج؛ وقد أجاب عن ذلك «مون رون» بقوله: إنه أحب «تالليران»؛ لأنه لا يعرف التحرج بتاتًا.

صديقان فاسقان

كان «ميرابو» رجلاً عنيف الشهوات، وأعظم خطباء عصره، يتخير لأي حالة تعتريه ألفاظًا لا تنسى. قال: إن قسيس «بيريجورد» («تالليران») يبيع نفسه بالمال؛ وإنه لعلى حق؛ لأنه إنما يبادل روثًا بذهب. ولعل ما اتصل به من أن «تالليران» كان يعاشر عشيقته في أثناء غيبته في برلين، قد أثار حفيظته؛ ولكنهما مع ذلك لم يلبثا أن صارا ألصق الأصدقاء.

أصدقاء الطغاة

كان «بورمان» الصبور الدؤوب، بمثابة العبقرية الشريرة لـ «الفوهرر»، وكان ذلك الثاوي في الظلال، قد أحرز تفوقًا مسلمًا به لم يسبق أن عرف له مثيل في حاشية سيده؛ فقد كانت سياسة «هتلر» حتى ذلك الحين، أن لا يأذن قط لأحد من وزرائه بإحراز منزلة متميزة في مشاوراته، إذ جرت سنّته على أن يدفع وزيرًا بوزير ليستبقي قَبّ الميزان في قبضته.

لقد أدرك «مارتن بورمان» من أول الأمر ما فطن إليه «هولستين» في وزارات القيصر، من أهمية التظاهر بعدم الأهمية، فجنى الآن ثمرة صبره الطويل. لازم «بورمان» مولاه مقيمًا لا يبرح ولا ينشط؛ والتزم حتى ساعاته الشاذة في العمل، يستيقظ ظهرًا ويأوي إلى فراشه في الخامسة صباحًا، وتفرّد بالسيطرة على الجهاز الحزبي الضخم. ولما كان حاضرًا في كل مكان، لا يعرف التعب، ولا سبيل إلى الاستغناء عنه، فقد صار الآن مستودع أسرار «هتلر»، وحامل أوامره، والطريق الوحيد للوصول إلى ذلك الذي ما برحت مقاربته تزيد استحالتها على مر الأيام.

الفصل الحادي عشر
علاقات الإنسان بسائر الأحياء؛ وبالأشياء

المبحث الأول
الخلاف حول صداقة الإنسان لغير بني جنسه

توسع في مدلول الصداقة

يتوسع البعض في مدلول كلمة الصداقة فيطلقها على وجدان بعض الحيوانات، وتعلقها بالإنسان، حتى ليتحدث عن صداقة الكلب وصاحبه.

والقائلون بأن الدافع الجوهري للصداقة هو محبتنا لأشباهنا، يؤيدون رأيهم بأننا لا نحب إلا الحيوان الذي يشبهنا: فالفلاح يحب من الحيوان الكادح الصبور، كالحمار والحصان، والبقرة، والجاموسة على وجه الخصوص.

وهو لا يحب الحيوانات الصيادة، كما أنه لا يحب الخراف والماعز إلا باعتباره مالكًا، وعلى أنها مورد دخل، وهي ليست عنده أحياء ولكنها في حكم الأشياء.

استبعاد صداقة الأحياء

يقول «أفلاطون» في «ليسيس»: والناس إذن ليس لهم أصدقاء في الخيل، ما لم تحبهم خيلهم، ولا في السمان، ولا في الكلاب، ما لم يلقَ حبهم مبادلة؛ ولكن في كل من هذه الحالات، يحب الفرد الموضوع، بغير أن يكون له صديق منها؛ والشاعر مخطئ الذي يقول: «سعيد الرجل الذي له أصدقاء من الأطفال والخيل ذات الحوافر الصلبة؛ وأصدقاء أيضًا في كلاب الصيد».

الانعطاف بين الأحياء عامة

الصداقة عند «أفلاطون» تتسع للانعطاف الذي أودعته الطبيعة كل الكائنات الحية، والذي يلاحظ مثلاً في الطيور، وعلى العموم في الحيوانات من نفس الجنس.

الانعطاف نحو الأحياء بحكم العادة

يشبه «شيشرون» الصداقة بالخمر، كلما طالت عليها الآماد جادت، ويتساءل: أيّنا لا يؤثر جوادًا ألف خطواته زمانًا طويلاً، على جواد جديد لم تعتد قبضته بعد أن تملك زمامه.

المبحث الثاني

علاقة الإنسان بسائر الأحياء

المطلب الأول: الكلب

تعاطفنا الوجداني مع الكلاب

أكثرنا يحب الكلاب لأنها تحبنا؛ ولأن تعاطفها الوجداني معنا، يحدوها على بذل أقصى ما في وسعها من جهد للتشبه بنا، فنحب فيها المرشحين للبشرية، على رأي القائلين بتناسخ الأرواح الذين يتصورون أن روح الكلب إذا ترقت انتقلت إلى الحلول في جسد إنسان ما زال في أول مراتب الآدمية.

وقد عرف الكلب كيف يصادق الإنسان من قديم الزمان، مع أنه على رأي أحد الهواة لا يعمل ولا يُؤكل ولا يغرّد ولا يبيض ولا يُحلب ولا شيء عنده يعطيه ليكسب قوته خلا إخلاصه ووقوفه دون صاحبه في وجه الدنيا بأسرها، وتفانيه في الذود عن ماله وولده وحرية بيته. حتى لقد أنس الناس بكلابهم ووجدها بعضهم أوفى من أصحابهم، وإن إحدى عواصم الدنيا لتفاخر بمقبرة كلابها، كما تفاخر «نابلي» بمقبرة أبنائها المنقطعة النظير.

«أنوبيس» الإله الحارس

اتخذ قدماء المصريين «أنوبيس» في «كيتا بوليس» بالولاية السابعة عشرة، رمزًا إلهيًا، وقرنوه بشؤون الموتى، وناطوا به رياسة الصحراء الغربية.

ترفض دخول الجنة بدون كلبها

وجاء في «المهاب حاراتا»، الملحمة الهندية العظيمة، أن آل «الباندافا» الأبطال، لما بلغوا أخيرًا بوابات السماء استقبلوا بالترحيب، ولكنهم أُعلموا بأن كلبهم ممنوع من الدخول.

فلما رفض رجاؤهم هموا بالرحيل، قائلين إنهم لا يستطيعون التخلي عن رفيقهم الأمين. ورقّ لهم في اللحظة الأخيرة قلب الملك الواقف بالباب، فأذن لهم بأن يدخل كلبهم.

«دلتا» الكلب الشجاع

استخرج من ركان «هيركيو لانيوم» الهيكل العظمي للكلب «دلتا» جاثمًا على هيكل ولد في الثانية عشرة من عمره؛ يحميه بجسده من الحمم البركانية؛ وقد نقشت على طوقه العبارة التالية: أنقذ حياة صاحبه ثلاث مرات: من البحر؛ ومن اللصوص؛ ومن الذئاب.

يقفز وراء صاحبه من النافذة

وثمة «فيليروس» كلب أثينا، الذي كسر ساقه، وهو يقفز خلف صاحبه الصغير حين سقط من النافذة، ثم مات كمدًا على قبره.

ينقذ صاحبه من القتل

والكلب الذي سجل «فان ديك» رسمه في صورة دوق «رتشموند»، تقديرًا لفضله، إذ أنقذ بذكائه وبشجاعته سيده من القتلة.

ينجي صاحبه من الحريق

وكلب اللورد «فوريس» الذي أيقظ سيده، وسحبه من حجرة نومه المحترقة وهو نصف مختنق وفي حالة عجز تام.

يدافع عن صاحبه ويدل على قاتله

في عهد «شارل الخامس» ملك فرنسا دافع كلب «مونتارجيس» عبثًا عن سيده «أوبري دي مون ديدييه» حين هاجمه «ماكير» عدوه اللدود. ثم لزم ليل نهار القبر الذي حسب «ماكير» أن جريمته قد غابت في جوفه، لا يريم عنه إلا ريثما يذهب إلى دار صديق سيده بباريس ليتوجّب فيه، وأخيرًا اقْتُفي أثره، وفتشت الأرض، واكتشفت جريمة القتل، وأعيد دفن الجثة. وكان هجوم الكلب الرهيب على «ماكير» فيما بعد، بمثابة اتهام؛ ووكل أمر إقامة الدليل إلى المحاكمة بالتعذيب القتّال في جزيرة «نوتردام». وكان للكلب إيزن يمكن أن يستريح فيه، وزود الرجل بعصي ومجنّ. وقد استطال أمد المعركة، إلى حد أن «ماكير» أغمي عليه من جراء وخز ضميره الذي هدّ قواه؛ فلما أفاق اعترف بفعلته.

كلب «ماري» ملكة الإسكتلنديين

رافق كلب «ماري» الملكة إلى النطع، ولازمها بعد موتها، إذ زحف حتى لصق بملابسها وهو يعوي عواءً حزينًا.

«هام» كلب «لويس نابليون»

ساعد «هام» كلب «لويس نابليون» على هرب صاحبه من حصن «هام» في فرنسا حيث قضى خمس سنين وتسعة أشهر، وكان قد حكم عليه بالسجن مدى الحياة.

توصي لصديقها بكلبها وكتبها

ماتت المركيزة «دي ديفون» سنة ١٧٨٠ في باريس تاركة كلبها «تونتون» في رعاية «وولبول» الذي عهدت إليه أيضًا بأوراقها. وقد أشرنا إليها في «صداقة المرأة بالرجل».

نموذج لعلاقة الإنسان بكلبه

كتب أحد أعضاء «الروتاري» يقول: لم أكن أعتبر «سيدر» كلبًا، وإني لأشك في أنه عدّني سيده يومًا، كانت علاقاتنا مشاركة متبادلة، كالزواج. المقود في يدي يربطني به، بقدر ما يقرنه بي. لم يكن في وسعنا تبادل الحديث، ولكن هذا غير مهم، فقد كان يقرأ أفكاري، وأنا بدوري كنت أعرف دائمًا تقريبًا فيم كان يفكر. نشأ بيننا منذ البداءة نوع من التخاطر؛ لم يحدث قط أن نبح ليوقظني، بل كان يجلس إلى جوار سريري شاخصًا إليّ في صبر إلى أن أفتح عيني. فإذا تريضنا في الغابات استطاع كل منا أن يهتدي إلى مكان صاحبه بغير أن يناديه.

كان له هدف واحد في الحياة أن أصحبه حيثما أذهب. فإذا فاجأني أعدّ حقيبتي أرخى أذنيه، ورمقني بنظرة حزينة يزيد من وقعها ارتفاع أحد حاجبيه مما يضفي عليه مظهرًا كفيلاً بإذابة أقسى القلوب. فإذا لم يسعفه صنيعه هذا، تكوّر في كرسيه وأولاني ظهره، معرضًا عن نزول السلم لوداعي؛ وقد كان هذا يعذبني فأستعجل العودة.

وكثيرًا ما ألغيت المواعيد لعلمي بأن مجرد غيابي القصير، قمين أن يكربه. ولكن لئن كان «سيدر» مستحوذًا، فإن الذنب ليس له وحده؛ لأني أعزب، وكلب الأعزب بديل الزوج والولد.

توافقنا كالزوجين طال عليهما الأمد، صرنا نحب نفس الأشياء أو نكرهها، بل آضت أمراضنا واحدة، استهدف كلانا لآلام التهاب جيوب الأنف، نتعاطى أقراص الأنتيهيستامين. وقد لاحظ الكثيرون ازدياد المشابهة بيننا، من حيث ارتفاع أحد الحاجبين، وارتخاء الغبب (اللغد)، واحمرار العينين وارتشاح أغشيتهما المخاطية.

اهتمام الصحف بأنباء الكلاب

وليس أدل على عناية البشر الفائقة بالكلاب، من أن الصحف تذيع أخبارها في أماكن بارزة من أعمدتها؛ فقد نشرت جريدة «الأهرام» في سنة ١٩٦٦ ثلاثة أنباء في الموضع المخصص لـ «أخبار من العالم»:

١- يوصي لكلبه بمليوني دولار

الأول في ٢٠ من إبريل أن ثريًّا أمريكيًّا من مدينة «فرجينيا» بولاية «نيفادا» أوصى لكلبه بمليوني دولار ليكفل له مستوى المعيشة الذي كان يتمتع به في أثناء حياة صاحبه.

٢- يحزنون على صديقهم ونديمهم

والثاني في ١٣ من أكتوبر من «كورنينج» (نيويورك) أن الحزن قد خيم على رواد مجموعة من الحانات في أحد أحياء نيويورك، عندما سمعوا بمصرع صديقهم الكلب «هنري» في حادث سيارة. وقد اعتاد بعض عملاء هذه الحانات أن يقدموا له أكواب البيرة، وكان سائقو سيارات الأجرة، بل سيارات الشرطة يحملونه معهم كل ليلة إلى منزل صاحبه.

٣- يموت لينقذ كلبه

والثالث في ١٨ من نوفمبر من «ويلمار» في «مينيسوتا»، مفاده أن رجال الأمن عثروا على جثتي شاب وكلب طافيتين فوق سطح بحيرة «سولومون»، وكان الشاب قد خرج للصيد يرافقه كلبه، فأصاب بطة انطلق الكلب لالتقاطها، ولكن طبقة الثلج الرقيقة التي تغطي البحيرة انخسفت به؛ فلما أبصره صاحبه يتخبط في الماء الشديد البرودة هرع لنجدته أصابه ما أصاب كلبه، ومات الاثنان معًا.

يرى الخير في أشد الناس شرًّا

ويقول «جاك هاينز» في كتابه «ذئاب الشمال وكلابها»: إن «المالميوت» كثيرًا ما يكون أصدق حكمًا على أخلاق الناس من الناس أنفسهم. ففي وسعه أن يرى الخير الكامن في أشد البشر شرًّا، فإذا ارتبط بإنسان، لم يلق بالاً إلى سلوك صاحبه بإزاء زملائه، بل يبقى صديقه الأمين ما عاش. وكثيرًا ما يكون في وسع المجرم الذي يكرهه كل الشرفاء أن يظفر بعبادة كلب عظيم.

نور طفولته ومأساتها

يقول «كارنيجي» حين كنت طفلاً ابتاع لي أبي جروًا صغيرًا أصفر الفروة. كان نور طفولتي وبهجتها.. يقعي كل أصيل حوالي منتصف الساعة الخامسة في ردهة الدار الأمامية، يرمي ببصره الممر محدّقًا، وبمجرد سماع صوتي أو رؤيتي أطوح جعبة غدائي، ينطلق كالسهم المارق بتسلق التل منبهرًا الأنفاس لتحيتي بقفزات السرور، ونباح المنتشي بهجة.

وكان «تيبي» رفيقي الملازم مدى خمس سنين. ثم في ذات ليلة لن أنساها أبدًا، قتل على مسافة ثلاثة أمتار من رأسي، انقضت عليه صاعقة. وكان موت «تيبي» مأساة طفولتي.

ينقذ صاحبيه من الموت

وما كنا لننسى الأخت الإسكوتلاندية الصغيرة، التي فقدت مع أخيها على سفح الجبل، فأنقذها الكلب الأسكوتلاندي «كالي» حارس الغنم، الذي طار إلى الدار في طلب النجدة، واقتاد الوالد إلى المكان الذي دفنت فيه عاصفة الثلج الأخوين، وكانت الأخت قد لفت أخاها الصغير بملابسها.

«تليك» كلب «أيزنهاور»

يقول «هاتش» في كتابه «الجنرال «أيزنهاور»: كأن «أيزنهاور» يشتغل في لندن سبع عشرة ساعة في اليوم سبعة أيام في الأسبوع، في منزل يعوزه جو البيت. ولما اشتدت حاجته إلى الانتفاع بلحظات استجمامه، واستبدت به الوحدة، أبدى رغبته في الظفر بشخص يستطيع محادثته بغير أن يقول شيئًا عن الحرب. ولم يلبث أن حصل على كلب هدية من أركان حربه. وكان كلبًا إسكوتلانديًّا صغيرًا أسود، من أب إنجليزي وأم أمريكية، أطلق عليه اسم «تليك».

«تليك» يشهد الهجوم الكبير: وفي سنه ١٩٤٢ لما ذهب «أيزنهاور» إلى «سوق الخميس» بمدينة الجزائر، ليراقب بنفسه من هناك الهجوم الكبير على تونس، صحب معه «تليك».

«تليك» يزور خط النار: ولما رقِّي صحِب «تليك» في زيارة لخط النار احتفالاً برتبته الجديدة.

«تليك» في عشرين موضعًا: وقد جاء ذكر «تليك» في أكثر من عشرين موضعًا في يوميات «بوتشر» «ثلاث سنين مع «أيزنهاور»».

الاحتفال بزواج «تليك»: وإنه ليرثي لوحدة «تليك» فيشتري زوجة له من واشنطون اسمها «كاكي»، ويقدم كلبه إلى زوجته؛ فيقع بينهما الحب لأول نظرة.

اهتمام وزير الحربية: ولما قدم اللواء «مارشال» إلى الجزائر استفسر من صاحب اليوميات عن «تليك»، فأنبأه بأنه أوشك أن يصير والدًا وأنه في أحسن حال.

«تليك» وأسرته في واشنطون: ويصحب «أيزنهاور» كلبه معه من مراكش إلى واشنطون، ولا ينسى زوجته «كاكي» ولا أسرته: «جوينور» و«روبيف»، بعد أن طوقوا جميعًا بأطواق إسكتلندية أنيقة، وزودوا بمقاود مزركشة.

«أيزنهاور» لا يطيق فراق كلبه: وكيف أنه لم يطق فراق كلبه مدة الحجر الصحي عليه بعد عودته إلى إنجلترا، وقد قال بأن هذا الحجر بمثابة حجز جزء من قلبه.

يزور كلبه في المحجر: وقد زار «أيزنهاور» «تليك» في «هاك بردج»، ولم يلبث أن واجه فور وصوله من يريد تصويره ممسكًا «تليك». فلما رفض، زيّف المصورون صورة بدا فيها «تليك» كأنما يلحس وجه صاحبه، وقد ضاق «أيزنهاور» ذرعًا باهتمام الصحفيين بكلبه، إذ كان يريد أن تظل محبته لـ «تليك» شيئًا خاصًّا؛ ولم يحل هذا كله دون تكرار زيارة كلبه بعد ثلاثة أيام.

يغار على كلبه: تناول «أيزنهاور» الغداء وبصحبته صاحب اليوميات بدعوة من لورد «كاننجام» وزير البحرية البريطانية، وكانت ليدي «كاننجام» هي المضيفة. وقد طاب للأميرال

أن يقول إن «تليك» مفسود؛ وإن أي كلب يطعم على المائدة مفسود. وأجاب «أيزنهاور» أنه يحتفظ بحق إفساد كلبه، فضلاً عن أنه يحب أن يطعمه وهو يتناول طعامه.

كاد يتسلمه بنفسه من الحجر: ولما حان موعد خروج «تليك» من الحجر تسلمه «كي سومرلي»؛ لأن «أيزنهاور» مشغول.

الكلب المدلل: كان محل «تليك» المفضل حضن صاحبه، حيث يهرّ إذا كف عن حك ظهره.

مفتاح قلب «أيزنهاور»: كان «تشرشل» إذا أراد الحصول على موافقة «أيزنهاور» في مسألة يصر على التمسك برأيه بصددها، تودد إلى «تليك»، وداعبه فوق ركبتيه.

«فريكيلز» كلب «كيندي»

اعتاد أصدقاء «جون كيندي» أن يبدأوا حديثهم معه وهو رئيس لجمهورية الولايات المتحدة بالاستفسار عن صحة كلبه «فريكيلز».

«زيتون» كلب «مكرم عبيد»

كتب نقيب سابق للصحفيين مقالاً بعنوان: «مكرم عبيد» حياته في أربع كلمات، قال: كان يوجد على الدوام إلى جانب «مكرم» كلب صغير مدلل، من طراز «اللولو، وربما يصر على أن يطعم الكلب بيده على المائدة، ويحمله بنفسه إذا اقتضى الأمر، وربما أنزله معه إلى البحر ليستحم مع الأولاد!

وكان من هذه الكلاب كلب لطيف أسماه «زيتون» يجمع إلى الميزة المشتركة بين أبناء جنسه، وهي الوفاء، ميزة أخرى هي أنه قضى مع «مكرم» مدة اعتقاله في تفتيش «السرو»، ثم في المستشفى الإيطالي، أثناء إحدى فترات الحكم الحربي، وبعد بضعة أشهر من الإفراج عن سيده اختفى، ولعله اختطف؛ فحزن «مكرم» لذلك حزنًا شديدًا، ورثاه.

«العقاد» يرثي كلبه «بيجو»

حزنًا على «بيجو» تفيضُ الدموعُ   حزنًا على «بيجو» تثورُ الضلوعُ

حـزنًـا عليــه جهـد مـا أستطيعُ   وإنَّ حـزنًـا بعد ذاك الولـــوع

والله يا «بيجـــو» لحزن وجيـــع

المطلب الثاني: القــط

قدماء المصريين والقطة الإلهية

كانت «باستيت» من أحب آلهة قدماء المصريين إليهم وأكثرهن حرمة عليهم، حتى إن المؤرخ «هيرودوت» روى أن أعيادها الدينية أهم أعياد مصر القديمة قاطبة، وأن الأهالي يقدرون عدد الرجال الذين ييممون شطر «تل باست» من مختلف أنحاء البلاد للمشاركة في احتفالاتها بنحو سبعمائة ألف نسمة، عدا النساء والأطفال.

ولا عجب فقد كان قدماء المصريين يعتبرونها ربة الحب، والشؤون النسوية، والأزياء. ولم يجدوا كائنًا يرمزون به لآلهتهم المحبوبة، هو أكثر أناقة ورشاقة من القطة الإلهية التي استسلموا لسلطان سحرها، واستهوتهم قوة شخصيتها.

سحر القطط ومغناطيسيتها وأفعوانيتها

كثيرًا ما يقع الإنسان تحت سحر القطة أو مغناطيسيتها، يجتذبه منها ليونة أجزائها ومرونة حركاتها الأفعوانية وما فيها من وحشية مهذبة وغموض مهيب، وتعالٍ عجيب، وما يحدثه هرير أنفاسها الهادئ من ضبط لأوتار أعصابنا يشعرنا بالدعة والسكون والاستسلام، وما يقترن بهذا الشعور من سلام وانسجام وميل إلى النعاس، فإذا كان الوقت شتاء ساعد قربها على زيادة الدفء. وهي بعد خفيفة الظل والوزن واثقة من نفسها لا تهاب مقاربتنا تتحكك بسيقاننا مقوسة الظهر، أو تقبع تحت أقدامنا. وهي شديدة الاحترام لنفسها حريصة على نظافة فروتها وباطن أقدامها وأظافيرها ووجهها وعينيها؛ أنيقة في عاداتها، تواري عن الأعين والأنوف منظر إفرازها ورائحته، فتحفر مكان تبرزها، وتحسو عليه التراب، ولا تبرح تشمه حتى تتأكد من خفائه.

وفي الناس من لا يزال متأثرًا ببعض عقائد الأقدمين في احترام القطط، ومنهم من تخامره فكرة غامضة بأن أرواح النائمين تنتقل إليها ليلاً، ويعتقد أفراد قبيلة الـ «باكونج» في «بورنيو» أن أرواح موتاهم تتقمصها.

ومما هو جدير بالذكر أن سيدة أمريكية أوصت لقططها الخمس بضيعة قيمتها أربعة وعشرون ألف دولار. ولا تقل رعاية الناس على ما يملكونه من القطط، بل ثمة من يسعى إليها كل يوم بالطعام في موضع يختارونه وموعد يلتزمونه، فيمدونها باللحوم والأسماك والخبز؛ حتى إذا لم يبقَ في الجراب مضغة، عادوا أدراجهم مغتبطين.

المطلب الثالث: الجـــواد

أحب الناس الخيل وصادقوها وفاخروا باقتنائها، وتغزلوا بجمالها وذكائها وسرعة خطوها، ولا سيما الخيول العربية الأصيلة التي ترنم العرب بوصفها ومديحها في شعرهم ونثرهم.

«بوسيفالوس» جواد «الإسكندر»

يقول «بلوتارك» إنه عندما مات «بوسيفالوس» أمر الإسكندر ببناء مدينة «بوسيفالا» في المكان الذي دُفن فيه جواده المفضل تخليدًا لذكراه. ويذهب «جاكوب بركهارت» إلى أن «الإسكندر» أعلن حزنه على موت صديقه «هيفستيون»، بأن أصدر أمرًا ببتر ذيول جميع الخيول.

«يوريثيتينس» جواد «هارديان»

يقول «دانيل مانيكس» في كتابه «رجال على عتبة الموت»: أقام «هارديان» مقبرة لحصانه «يوريثيتينس» ما زالت قائمة.

«إنسيتاتس» جواد «كاليجيولا»

كان «إنسيتاتس» جواد «كاليجيولا» ينام في حجرة من مرمر، ويأكل في مذود من عاج، ويشرب في دلو من ذهب. وقد زين مشاهير الفنانين جدران مربطه، وكان يحضر مآدب الدولة، حيث يقدم له عبيده الخصوصيون القمح والشوفان.

ويقول «روبرت جريفز» في كتابه «كلوديوس» الإله وزوجه «ميسالينا» بلسان «كلوديوس»: وثمة عضو آخر بارز بمجلس الشيوخ جردته من مكانته، هو «إنسيتاتس»

حصان «كاليجيولا» الذي كان مفروضًا أن يصير قنصلاً بعد ثلاث سنين. وقد كتبتُ إلى مجلس الشيوخ أنبئه بأني لا أشكو أخلاق هذا الشيخ الشخصية، ولا أعترض على كفايته في أداء المهمة التي نيطت به؛ بل لأنه عدِم النصاب المالي. ذلك أنني قطعت المعاش الذي ربطه له «كاليجيولا» وقصرت زاده على المخصصات اليومية لخيل الجيش، وعزلت القائمين على نظافته ونقلته إلى إسطبل عادي، جدرانه مرشوشة بالجير، وليست مغطاة بالتصاوير، حيث يأكل في مذود خشبي؛ ومع ذلك فإني لم أفرق بينه وبين زوجه الفرس «بينلوب»، لما في تفريق الزوجين من تفويت للعدالة.

حب النبي ﷺ للخيل

روي عن «أنس» وعن «معقل بن يسار» أنه، لم يكن شيء أحب إلى رسول الله ﷺ من الخيل. ولا عجب فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة. وأنه قال: فامسحوا نواصيها وادعوا لها بالبركة. وأنه قال: إن الشيطان لا يخبل أحدًا في داره فرس عتيق.

«جبريل» يعاتب النبي ﷺ في الخيل

وروي أن النبي ﷺ أُتي بفرس، فقام إليه يمسح وجهه وعينيه ومنخريه بكم قميصه، فقيل له يا رسول الله، تمسح بكم قميصك، فقال: إن "جبريل" عاتبني في الخيل.

ينقّي شعير فرسه

كما روي أن «روح بن زنباع الجذامي» زار «تميمًا الداري» فوجده ينقّي شعيرًا ثم يَعْلِفه عليه وحوله أهله؛ فقال «روح»: أما كان لك من هؤلاء من يكفيك؟ قال «تميم»: بلى،

ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من امرئ مسلم ينقي لفرسه شعيرًا ثم يعلفه عليه إلا كتب الله له بكل حبّة حسنة.

أحب إليه من أهله وماله

قال «أبو ذرّ»: ما من ليلة إلا والفرس يدعو فيها ربه: اللَّهُمَّ إنك سخّرتني لابن آدم، وجعلت رزقي بيده، فاجعلني أحب إليه من أهله وماله، اللَّهُمَّ ارزقه مني وارزقني على يده.

«زهرة» فرس «الحسين بن علي»

وهذا «الحسين بن علي»؛ ملك العرب ووالد ملك العراق، وأمير شرق الأردن؛ غادر مملكته في الحجاز، فأنقذته سفينة من ساحل العقبة، ولاذ بجزيرة قبرص حيث لا يعرف أحدًا من أهلها، ولا يعرفه منهم أحد.

وانحصر كل ما تبقى له من بهجة الحياة في فرسيه أو أفراسه الثلاثة العراب الجميلة، وكانت «زهرة» أرقهن وأبهاهن: ترتقي درجات السلم المرمري من الحديقة، وتخطر في «السلاملك» لا يخامرها استحياء؛ فيتلقاها الملك مرحبًا قائلاً: « أهلاً! ما شاء الله! الله أكبر! قرِّبي يا بنت عمي! يا قرة العين! وهو يطعمها التمر فتأكله متمهّلة، ولا يفوتها قط أن تلفظ النوى على صحفة.

ويقول «إستورس» مؤلف «المشرقيات»؛ وكان إذ ذاك حاكم «قبرص»: إن الملك قصد مقر الحكومة ذات صباح طالبًا مقابلته فورًا، فلما بصر به ارتمى بين ذارعيه مجهشًا بالبكاء، مفضيًا إليه بأن «زهرة»، قد اغتالها كلاّف مطرود، انتقامًا من السائس الذي خلفه.

«الصاحب» جواد «المهدي»

لما لبّى أعضاء «البعثة الاقتصادية الأولى إلى السودان» دعوة السيد «عبد الرحمن المهدي» في جزيرة «أبا» عرض عليهم خيوله الأصائل، وفي مقدمتها «الصاحب» وهو أحب جياده إليه، وقد أبصرناه، وهو يسير بخطى قصيرة مترنحة، ولم يتمالك صاحبه إذ رآه أن وقف يدله على مشهد منا وهو يقول لنا: هذا هو «الصاحب».

الإنجليز يكرمون الجواد المتقاعد

يقول «أديسون» في إحدى مقالاته بمجلة «الإسبكتيتر» في الإشادة بمزايا مضيفه سر «روجر دي كفرلي»: وإنه ليسهل عليك أن تتبين ما طبع عليه رب البيت من حسن الشيم من كلبه العجوز وجواده الطاعن في السن، حيث تراه في الحظيرة يعتني به بكل رعاية وحنان، اعترافًا بما أسلفه من جليل الخدمات في ماضي حياته، ولو أنه بات لا يصلح للعمل منذ سنين.

المطلب الرابع: الحمار

«أبو عيسى» يرثي «أصدأ»

كان لـ «أبو عيسى بن المنحم» برزون أشقر إلى سواد، سماه «أصدأ» طالت صحبته له، فلما نفق رثاه بقصيدة طويلة مطلعها:

لقد عظمت مني المصيبةُ في الأصدأ وأبـدت لي اللذاتُ من بعده صدًا

وأهـدي إلى قلبي المصاب بفقده من الحزنِ ما لو نال «يذبل» لا نهدا

وأوعز «الصاحب بن عبّاد» إلى ندمائه أن يعزوا «أبا عيسى» ويرثوا أصدأه؛ فتنافس تسعة منهم في نظم قصائد فريدة في الجودة والعذوبة، خلدها الأدب العربي في الجزء الثالث من «اليتيمة».

المطلب الخامــس: الدلفين، وفرس النهر

أولاً: الدلفيــن

قال «بلو تارك» إن الدلفين هو المخلوق الوحيد الذي يحب الإنسان لذاته. فإن بعض حيوانات البر تتحاشى الإنسان بتاتًا، وأما الحيوانات الأليفة كالكلب والحصان فإنما تألفه؛ لأنه يطعمها. وقد حبت الطبيعة الدلفين وحده بالصفة التي ينشدها أحسن الفلاسفة، وهي الصداقة لغير مصلحة.

وكتب «بليني» قبل الميلاد بستة قرون عن دلفين غير مستأنس، حمل طفلاً في نزهة عند «هيبو»، وهي محلة رومانية في إفريقيا؛ وقد سك المنظر على النقود الرومانية للقرن السابع قبل الميلاد.

وليس الدلفين سمكة، بل حيوانًا من ذوات الثدي يتنفس الهواء، سريع السباحة إلى حد غير معقول، يقتل سمك القرش، وهو مزود بأحسن جهاز في العالم، لاكتشاف مواقع الأشياء تحت الماء. ويعتقد أحد العلماء المعاصرين بأن مخه شبيه بمخ الإنسان إلى حد أن في الإمكان أن نعلمه الكلام.

«نينا» وصديقها الدلفين

بدأت «نينا وارنر هوكس» مقالها في مجلة «ريدرز دايجست» بوصف خليج صغير يسمونه بركة «تشابمان» لا يزيد عرضه عن ربع ميل في أوسع مواضعه، تحفّ به نصف دائرة من منحدرات الصلصال الصخرية الشاهقة، لا تسمع فيه غير صوت سمكة قافزة من الماء أو غاطسة، أو صراخ الصيادين أحيانًا، أو صيحة عقاب جاثم فوق التل؛ أما ماؤه فأزرق ضارب، كالجوهرة في إطارٍ من لُجين.

وهي تقول إن هذا الجون قد شهد صداقة تعدل في غناها وقوتها أي صداقة عرفت؛ ولو أن أحد الصديقين كان دلفينًا غير مستأنس. رأته «نينا» لأول مرة على مسافة أربعة أمتار أو خمسة، وكانت واقفة تترقبه بعد أن أعلمها حارس الساحل بخبره، وقد تلبّث دقائق بعد ظهوره، فلما جلست وصاحبتها على الرمل، ارتمى الدلفين على بعد مترين منهما.

تقول «نينا»: كان أمرًا ممتعًا للغاية أن يتلقانا هذا المخلوق غير المستأنس بهذه التحية كأننا ضيوف توقع قدومهم. قلت له مرحبا! ما ألطف أن نراك! أأنت على ما يرام؟ بصبص الذنب الصغير الضئيل المضحك استجابة، وعبر كل خط من خطوط جسمه الأملس عن توقع السرور. خاطبته من أول الأمر إذ بدا لي أكثر من نصف آدمي. فلما قدمت طفلة صاحبتي وبصُرت به وكان قد غادر موضعه الأول والتمس صخرة أكثر ملاسة على نحو عشرة أمتار منا، هرعت إليه تعدو غير آبهة لصراخنا، وألقت بنفسها إلى جواره تضمّه وتقبله، فلما أدركناه راح يحتضنها بزعنفتيه وصوَّت بنغمة شبيهة بالنواح، ولما حاولنا سحبها بادر بإظهار اشمئزازه، فرأينا السلامة في تركهما وقد لعبا معًا معظم الأصيل، متلاصقين لا ينفصلان.

وكان يحلو له تدلي معدته ودغدغة ما تحت زعنفتيه الأماميتين. وقد سبحت معه بعيدًا وحدنا فكان يلعب حولي وتحتي فإذا استلقيت على ظهري التماسًا للراحة فوق عمق ستة أمتار طفا إلى جواري فوق الماء الفضي الرائق وكان المد يدنيه مني، فأمد يدي أمسك زعنفتيه الأماميتين فيدير رأسه متفرسًا في وجهي. وشعرت بمغناطيسية قوية تصدر من أعماق غير منظورة تمس وترًا مستجيبًا في نفسي؛ وكنت قد أحسست بنفس هذه المغناطيسية لما رأيته لأول مرة. ولكني الآن فهمتها. انحسر في تلك اللحظة الستار ونظرت عبر الزمن إلى صباح الدنيا، قبل أن يتحاشى الإنسان سواه من الأحياء. وكانت ومضة من جنة عدن.

فإذا حل موعد العودة تسللت خفية تحاشيًا لما يحدثه الفراق من لوعة يعبّر عنها بأصوات من الولولة والبكاء بدموع تنحدر مباشرة على خديه. وقد قرر الذين راقبوه أنه يستمر في البكاء مدة، ويطلق آهة عظيمة، ثم ينحدر إلى اليم في طلب الصيد.

وقد كنت أول من سابحه في الماء العميق، ولعل هذا هو سبب إيثاره إياي، وتقديمي على الباقين. وصار لمقابلاته دلالة جديدة، إذ يهتز فرحًا، ويظهر نفاد صبره للنزول إلى الماء بالنباح والأنين.

ثانيًا: فرس النهر

«سيد قشطة» وحارسه

لعل حارس «سيد قشطة» هو أشهر شخصية في حديقة الحيوان بالقاهرة! فهو الرجل الوحيد في العالم الذي يستطيع أن يضع رأسه في فم «ثريا» فرس النهر المعروف باسم «سيد

قشطة»، ومن أجل هذا عرض عليه مدير حدائق الحيوان بألمانيا مرتبا شهريًّا خمسمائة جنيه ليقوم بمهمة الكلاّف والحارس لفرس النهر هناك. ولكنه رفض لأنه لا يستطيع ترك «السيد» و«ثريا» و«نصرة» قائلاً: دول زي أولادي.

ويقول مدير الحديقة: إنه لا يوجد إنسان في العالم كله يفكر في مجرد الاقتراب من «سيد قشطة» إلا هذا الحارس؛ لأن لهذا الرجل تأثيرًا غريبًا على الوحش الذي يزن خمسة أطنان من الشراسة والضراوة؛ إن قوة اندفاع «سيد قشطة» تصل إلى عشرة أطنان، ويضم فمه أربعة أنياب طول كل منها ثلاثون سنتيمترًا، وهي أكثر قوة وصلابة من سن الفيل بمقدار الضعف.

وحدث أن تغيب الحارس على إثر إصابته بحمى، وأخفق أطباء الحديقة في إطعام «سيد قشطة» وأسرته، إذ رفضوا الطعام في غياب حارسهم برغم ما هو معروف من شراهة «سيد قشطة» إذ يأكل في اليوم الواحد ما يكفي لإشباع مائة وخمسين رجلاً.

فاضطر مدير الحديقة إلى الاستنجاد بالحارس. الذي طار ليطعم أسرته. وفور وصوله خرج الوحش من مياه الحوض مع زوجته وابنه وأخذوا جميعًا يهتزون في نشوة وهم يصرخون. واحتضن عم «مخلوف» صديقه وبدأ يلقي إليه وإلى أسرته بالطعام، فالتهموه.

ومع ذلك فإن مصادقة الوحوش لا يمكن أن تكون مأمونة العاقبة.

فرس النهر رمز إلهي

ومما هو جدير بالذكر أن فرس النهر كان من الحيوانات التي اتخذها قدماء المصريين رموزًا إلهية.

المبحث الثالث

الانعطاف نحو الأشياء

التعاطف بين العناصر

كانت كلمة «صداقة» الإغريقية تطلق على التعاطف بين العناصر، كما كانت تدل على الصداقة بين الأشخاص. ولم يمنع التصور القديم للجماد بعض فلاسفة اليونان من أن يرى أن الصداقة التي يصادفونها بين الناس يمكن أن تتحقق في عالم الطبيعة.

علاقتنا بالأشياء ميل وذوق

ولكن الصداقة بمعناها الدقيق عند «سقراط» هي المحبة المتبادلة. مما يستبعد مصادقة الأشياء غير الحية، فإن علاقتنا بها هي ميل أو ذوق؛ والميل أو الذوق يشبه أن يكون بالأولى إحساسًا وقتيًّا؛ بخلاف الصداقة فهي اتجاه ثابت. وتبادُل الصداقة وليد تفضيل اختياري، وهو ما يقتضي دائمًا وضعًا أخلاقيًّا.

التنديد بصداقة الأشياء

وقد ندّد «أرسطو» بالفلاسفة الذين رأوا في الصداقة ظاهرة طبيعية، فعزوا إلى الأشياء إحدى عواطف النفس البشرية، ولما كانت الأشياء يمكن أن تحب، فقد اعتقدوا أن في وسعها أن تحِب؛ وفاتهم أن الصداقة تتكون من أن تحب وتحب في وقت معًا، وأنها وجدان يُتبادل. والأشياء لا تستطيع أن تحِب، وهي بعد لا يمكن أن تحَب بمعنى الكلمة؛ فالأشياء الجامدة لا تبادل وجدانًا بوجدان، والعواطف التي تشعر بها من نحوها ليست هي الصداقة،

وإنما هي وليدة المصلحة. واهتمامنا بالأشياء، غير محبتها؛ لأن حبها يتطلب أن نريد لها الخير، ونحن لا نكنّ صداقة للشهد، بل نستثاره ونستبقيه لنأكله. ولا نبطن صداقة للنبيذ، إنما نعتني به، ونختزنه لنشربه. وكل وجدان نستشعره من نحو الأشياء، يهدف دائمًا إلى استعمالها، فلسنا نهتم بها مباشرة ومن أجلها بالذات. وإذا لم يكن من جانبنا صداقة للأشياء، فثمة أيضًا صداقة أقل في الأشياء. إنه لمن العبث تشريف الأشياء غير الحية بما نعزوه إليها من عواطف إنسانية؛ فالعناصر تتجاذب وتتحد، ولكنها لا تتحاب بتاتًا، وليس صحيحًا حتى قولنا إن بعضها يبحث عن بعض.

نحب الأشياء ونصادق الأشخاص

ويقول «أرسطو»، إننا في أدنى مراتب الحب نخاطب بغير تمييز الأشخاص والأشياء؛ ثم يتميز الحب ويتحدد، فيصبح من ناحيةٍ المحبة للأشياء، ومن ناحية أخرى الصداقة للأشخاص. وهاتان العاطفتان لا تختلفان فقط من ناحية موضوعهما، ولكنهما متباينتان أيضًا في طبيعتهما ودرجتهما. فلا تمكن محبة الأشياء بصورة مطلقة، أي لذاتها وباعتبارها غاية. والمصلحة التي توحي بها هي دائمًا غير مباشرة؛ والعناية التي نبذلها في سبيلها ترمي فقط إلى استخدامها.

شرطا المحبة

العاطفة التي نشعر بها نحو الكائنات «غير الحية» لا تكاد تكون محبة، إنها تحت المحبة. ففي الواقع لا توجد المحبة إلا بشرطين: هما أن نريد الخير لمن نحب، وأن يبادلنا هو محبتنا. وفي محبة الأشياء لا يتحقق شيء من هذين الشرطين. وهكذا تنطوي المحبة على شكلين ودرجتين: محبة الأشياء؛ ومحبة الأشخاص، أو الصداقة.

محبة الأشياء تشخيص لها

ومحبة الأشياء على هذا الوجه تكون من قبيل تزويدها بالحياة، وتشخيصها، ويدخل في مثل هذه العاطفة الوهم الشعري، أو وهم السذاجة.

«هو جبل يحبنا ونحبه»

وفي حديث أُحُد: «هو جبل يحبنا ونحبه». قال «ابن الأثير» هذا محمول على المجاز، أراد أنه جبل يحبنا أهله وهم الأنصار. ويجوز أن يكون من باب المجاز الصريح، أي أننا نحب الجبل بعينه في أرض من نحب.

انعكافنا للأشياء بحكم العادة

يقول «شيشرون» إن للجمادات تأثيرًا قويًا على عقولنا بحكم سلطان العادة، كما يلاحظ من وجداناتنا المركوزة نحو الأماكن التي قضينا فيها مدة طويلة في أوائل عهدنا بالحياة، ولو كانت موحشة غير ذات زرع.

عصاك التي تتوكأ عليها

وهذا كاتب معاصر أريب، يقول: إذا كنت من المولعين بالسفر على الأقدام، أما شعرت أبدًا بأنْ قد تولد فيك وتزايد مع الأيام، وجدان للجراب الذي يحتوي حوائجك، وللعصا، مهما تكن ساذجة، التي تتوكأ عليها، فتيسّر مسيرتك، وتدعم خطوتك؟ أليست هذه العصا صديقتك إلى حدّ ما وأنت تطوي الفلوات، وتوغل في الغابات؟

وحدة الوجود

قد لا يتعذر على الناس في عصر النوويات والنُّوَيّات أن يتصوروا إمكان قيام تجاوب بين الإنسان وساعته، وقلمه وسبحته، وعصاه وحُلّته، وتحفة من تحفه، أو كتاب من كتبه.

أليست الدقائق الأولية، والجزئيات والذرات والنويدات والنويات التي تتركب منها جميع الموجودات واحدة، أليس ما كان يسمى فيما مضى جمادًا، مجردًا من الحياة أو الحركة، هو بالحريّ مجموعة من نجاترونات (إلكترونات) وبوزترونات، وأيونات، ونيوترونات، وبروتونات لا تكف عن الدوران والحركة والانبعاث.

ولعل الناس سوف يعرفون في أيامنا أو بعدها أن هذه الذرات الصغيرة يمكن أن تزيد سرعتها، أو يتغير اتجاهها، إن تعارفت بطول المقاربة والصقب، ويحدث فيها إذا تلامست ما يشبه الافتتان والطرب. فتنطلق منها من النيوترونات الضوئية والبروتونات الضوئية والدقائق البائية ما يجعل بينها وصالاً واتصالاً متبادلاً.

وبعد أليست الطبيعة كلها واحدة من حيث نشوؤها، وتركيبها، ومصدرها، ومصيرها.

الكتـــاب الرابـــع

عوامـــل استتبـاب الصداقـــة

«كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا
هكذا أنتم أيضًا بهم»—«السيد المسيح»

البـــاب الأول

معاملـــة الصديـــق

«أن تجد صديقك، فهذا هو الحظ، وأن تعرفه إذ تجده، فهذا هو الإلهام؛ وأن تكسبه حين تعرفه، فهذا هو الفن؛ وأن تحتفظ به عندما تكسبه، فهذه هي المعجزة».

ممارسة الصداقة

معاملة الصديق ممارسة عملية للصداقة؛ فبعد الظفر بالصديق تكون المقاربة والاتصال والارتباط والمشاركة والتعاون، وسائر المعاملات المستمرة الحميمة التي تحتاج إلى كياسة ولباقة.

وقد نكون أقدر على المجاملة مع معارفنا الذين نلقاهم عرضًا وفي فترات متباعدة، منا على التزامها مع الصديق اللصيق. ثم إن في وسعنا إذا انحرفنا مرة عن الجادة مع أحد معارفنا، أن نتحاشى لقاءه ريثما يعفي الزمن على أثر الجفوة؛ بخلاف الصديق الملازم الذي لا سبيل إلى تفاديه إلا بقطع العلاقة، وانقضاء الصداقة.

لذلك يجب الحرص بعد اتخاذ الصديق على الاحتفاظ به، ومراعاة أمره، حتى لا يؤدي طول الصحبة إلى الملالة والسآمة والضجر؛ وقد قيل: إن أعجز الناس من فرّط في طلب الإخوان؛ وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم.

القاعدة الذهبية

لخص السيد المسيح آداب المعاملة في قاعدة هي: كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم.

الفصل الأَوَّل

المعالنة بالمحبة والإعجاب

«إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه أنه يحبه»—«حديث شريف»

التعبير وسيلة التملك

التعبير عن رغباتنا وأحاسيسنا وتمنياتنا وأفكارنا هو شرط تملكنا إياها؛ وكلما زاد تعبيرنا دقة، زادت ملكيتنا تمكنًا.

والصداقة غير مستثناة، فلا غنى لنا عن أن نعبّر لصديقنا عن رغبتنا في مودته، وشعورنا بمنزلته، وحرصنا على سعادته، وما يخامر خاطرنا من إعزازه ومحبته.

التعبير القولي

وللتعبير القولي مكانته وأهميته، عن طريق استخدام الكلمة في إدخال السرور على صديقنا، والإفصاح عن عرفاننا بجميله، واستعدادنا لكل تضحية في سبيله.

والإخبار بالمحبة يوجب زيادتها، فإن عرف صاحبك أنك تحبه أحبك.

سله عن اسمه ومنزله وعشيرته

ورُوِيَ أن «ابن عمر» كان يلتفت يمينًا وشمالاً بين يدى رسول الله ﷺ، فسأله عن ذلك فقال: أحببت رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه. فقال ﷺ: إذا أحببت أحدًا فسله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله؛ فإن كان مريضًا عدته، وإن كان مشغولاً أعنته. وفي رواية: «عن اسم جده وعشيرته».

أسمعهم كلمات الاستحسان والتشجيع

يقول «بوتشر»: لا تترك قلبك موصدًا دون محبتك وحنانك إلى أن يموت أصدقاؤك؛ بل املأ حياتهم حلاوة، أسمعهم كلمات الاستحسان والتشجيع ما وسع آذانهم الإنصات لوقعها، وقلوبهم الخفقان لجرسها.

مكاشفة الصديق بتقديرنا

لا غناء في مجرد المحبة والتقدير القلبي الصامت، بل يجب إظهار ما في القلب بالكلمات والأفعال، فإن التخزين السلبي لوجداناتنا يفقدها قوتها ويسلبها حيويتها.

إن الناس مثلك يتوقون للتقدير والمديح؛ وأشد ما تكون حاجتهم إلى تقدير الصريح، وليس التقدير الذي يفترض أنه أمر مسلم به.

إظهار الاعتزاز بالصديق

يقول «إيمرسون»: يجب أن أعتز بأعمال صديقي، كأنها أعمالي أحسّ بالحرارة حين يمدح، كما يشعر المحب حين يسمع إطراء عروسه المخطوبة. نحن نغالي في تصور طوية

صديقنا: تبدو طيبته خيرًا من طيبتنا، وطبيعته أشد صفاءً، وأنه أقل منا تأثرًا بالمغريات؛ يضفي خيالنا مزيدًا من الرواء على كل ما يتعلق به: اسمه وصورته وملابسه وكتبه وأدواته. يبدو لنا تفكيرنا ذاته جديدًا وأوسع أفقًا؛ إذ نسمعه من فمه.

نتهيب الإفصاح عن شعورنا

إنا نعرف جميعًا ذلك الإحساس الغامض، الذي يخامرنا حين نفارق حتى أحسن صديق، بغير أن نكون قد أفصحنا بدرجة كافية عن وجداننا من نحوه، أو تحققنا تمامًا من الوجدان الذي نأمل أن يستشعره هو نفسه من نحونا.

السماحة أندر الفضائل

يقول «هزلت»: إن السماحة أندر الفضائل، فبين مائة من الممتازين لا يوجد سوى واحد يسمح بالاعتراف بامتياز سواه.

صعوبة إطراء الصديق

غالبًا ما يكون الثناء على صديق أصعب من إطراء عدو؛ لأننا إذا ذكرنا عدونا بخير عُرفنا بعدم التحيز؛ فإن مدحنا الصديق بدونا نردّ ما سبق أن استدناه، واستُهدفنا لشبهة المحاباة، ولابد لنا أن ننسى أنه صديق قبل أن نستطيع إطراءه للآخرين.

يضاف إلى هذا، أن الدالة وإن لم تولّد عدم التوقير، فإنها تضعف حميّا الإعجاب.

الإفراط في الثناء مكروه

ويقول «هزلت»: إن الإفراط في الثناء على شخص وثيق الصلة بنا، هو ضرب من الأنانية؛ وإنّ تواضُعنا، وغيرتنا، كلاهما يوزعاننا أن نتحفظ بهذا الصدد.

الافتقار إلى الشجاعة الفعلية

ثمة أشخاص لا يمكنهم بحال مدح صديق، فهم يحجمون عن الاضطلاع بهذه المهمة مع كل ما يبذلون من جهد، ورغم حسن نيتهم التي ليس لها حدّ، لافتقارهم إلى الشجاعة الفعلية؛ كما يرتجف بعض الناس لدى انغماسهم في الماء البارد بسبب ضعف أعصابهم.

حين يستهدف الصديق للافتراء

صمت الصديق يعدل عادة الغدر، فإن نكوله عن قول أي شيء نيابة عنا ينطوي على استهجان ضمني؛ وإن كان من الصعب مدح من يذمهم الناس، حتى ليكاد يكون بطلاً من يصرُّ على إحسان الظن بصديق صار هدفًا للافتراء ومحلاً للسخرية. ذلك بأن رأي أصدقائنا فينا، كما يقول «هزلت»، ليس بأعلى من رأي الناس كافة؛ فإنهم يروننا بعيون الآخرين المتحاملة المستريبة. قد يعرفون عنا ما لا يعرفه غيرهم، ولكن شعورهم يحكمه رأي الناس السبقى. نعم، إن خجلهم منا إذا استهدفنا للريب، يزيد على خجل الأجانب، لأننا نورطهم في خزي، أو لأن دفاعهم عنا يرغمهم على خوض معارك ومشاحنات مستمرة.

الفعال أقوى دلالة من الأقوال

ولكن ثمة تعبيرًا بالفعل هو أعلى صوتًا وأقوى دلالة من القول، عن طريق القيام بالخدمات والأعمال الناطقة بأن الصديق يعطي صديقه أحسن ما عنده وأنه يحاول دائمًا السمو بنفسه إلى المرتبة التي تزيد قدرته على العطاء، وتضاعف قيمة ما يعطيه.

الفصل الثاني
التوقيـــر والإعظـــام

«حيث لا يقترن التبجيل بالوجدان، فإن الصداقة تتجرد من أنبل محاسنها وأروعها»—«شيشرون»

رفع الكلفة غير الاستهانة

يحسب البعض أن الصداقة علاقة تنطوي على رفع الكلفة وإطلاق النفس على سجيتها، وإنهم لعلى حق. فإنما الصديق بضعة من نفسنا، أو هو نفسنا، نسكن إليه ولا نصطنع معه ما ليس من صميم طبعنا، أو نوصد دونه مكنون صدرنا.

ولكن الثقة بحسن نية الصديق ورحابة صدره، والاطمئنان إلى محبته وتقديره؛ غير الاستهانة بأمره، أو الحط من قدره، أو الامتناع عن توقيره، أو إيغار صدره.

توقير الصديق أمر طبيعي

وتوقير الصديق أمر طبيعي، لأننا اخترناه إعجابًا بفضائله، وتقديرًا لمزاياه، واعترافًا بتفوقه وأملاً في أن نرتقي عن طريق تشبهنا به إلى المكانة التي نراه قد سبقنا إلى بلوغها.

ونحن نحترم في صديقنا الإنسانية كما نتمثلها في أسمى صورها، وقمة كمالها.

أصدقاؤنا يحببون إلينا التواضع

إذا كان لفضيلة التواضع حلفاء؛ فحلفاؤها هم أصدقاؤنا الذين يطيب لنا معهم أن ننسى ما عسى أن نكون قد أصبناه من تفوق عليهم؛ بل إنا لنضيق بهم إذا زادونا احترامًا أو التزموا في معاملتنا أسلوبًا جديدًا، إذ نحمل هذا على فتور في المودة لا نستحقه منهم، ولا نرتضيه لهم.

وإذا كان تواضعنا للأغراب قد يساء فهمه فيتخذون منا موقفًا يثقل علينا احتماله، فإن اتضاعنا للصديق لا يكلفنا مشقة لأنه يعرفنا وهو أهل لإنصافنا من نفسه ومن أنفسنا، فلا خوف علينا منه.

كما يحلو لنا أن نتضع لصديقنا، لأننا لا ننافسه أو نحسده، ولأنا نهجر غرورنا في حضرته؛ فالصديق مع صديقه على سواء، وليس قاضيًا يطل عليه في استعلاء؛ لأن الغرور يتضمن انشغالاً مستمرًّا بالنفس، بحيث تعجز عن تمييز قيمة الغير ومطالبهم.

التواضع توقير وتقدير

التواضع للصديق نوع من توقيره وتقديره، فنحن نرى أن ما طرأ علينا من حظ لا يغير من قدره شيئًا، ولا يعلي من قدرنا بالنسبة إليه؛ فضلاً عن شعورنا بأن نجاحنا نجاح له؛ فهو به قرير العين، عليّ الشأن.

التواضع حلية الحكماء وحيلتهم

قال الحكيم الصيني «لاوتسي» منذ خمسة وعشرين قرنًا: إن السبب في أن الأنهار والبحار تتلقى تكريم مئات من جداول الجبال، أنها تظل تحتها، فتستطيع حكمها. كذلك

الحكيم، إذ يرغب في أن يسوس الناس، يضع نفسه دونهم؛ وإذ يريد أن يتقدمهم، يجعل خطوه وراء خطوهم؛ وهكذا، فمع أن موضع الحكيم فوق الناس، فهم لا يشعرون بوطأته، ومع أن محله قبلهم فإنهم لا يضيقون بمكانته.

حين تتفاوت منزلة الصديقين

وقد نوه «شيشرون» بأنه إذا تفاوتت منزلة الصديقين ومواهبهما، فإن على المتفوق أن لا يبدو شاعرًا بتفوقه، وهو يضرب مثلاً «شيبيو» الذي كان له السبق بين فريق أصدقائه الممتازين، فإن تصرفاته ما نمّت قط عن تفوقه على من كانوا دونه مكانة وكفاية، بل انصبّ جهده الدائب على رفع أصدقائه إلى مرتبته.

أما أخوه «مكسيموس» فكان لا يبرح يعامله باحترام شديد كأنه فاقه في كل موهبة، كما سبقه في عدد السنين.

على المتفوق أن ينفع صديقه

ومن رأيه أن على المتفوق واجب حماية صديقه، وأن ينفعه بمكانته ونفوذه. وهو يضرب لهذا مثلاً أبناء الرعاة، الذين بعد أن عرفوا والديهم الحقيقيين من ملوك وسلاطين، ظلوا مع ذلك متمسكين بعلاقتهم بآبائهم المزعومين. كما أن من واجب الصديق الآخر أن لا يتذمر ولا يغتمّ لتفوق صديقه.

اكسب بتواضعك صداقتهم

وقال بعض الحكماء من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا، ومن جعل نفسه في قدره تعب وأتعبهم، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا. وتمام التخفيف بطيّ بساط التكليف حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي من نفسه.

وقال «الجنيد» ما تواخى اثنان في الله فاستوحش أحدهما من صاحبه.

ويقول «لا رو شفوكو»: إذا أردت أعداء فبرّز على أصدقائك؛ ولكن إذا طلبت الأصدقاء فتواضع لهم.

«فلوبير» وحكماء الـ «يوررويال»

كان «فلوبير» لا يستطيع فهم حكماء الـ «يوررويال» الذين لا ينفكون يقول بعضهم لبعض: «سيدي»، حتى نهاية حياتهم؛ وقد عرف هؤلاء الحكماء بأخلاقهم الممتازة وكانوا مركز مقاومة سلطان الكنيسة.

«رينان» و«برتلو»

أما «رينان» فإنه من المغالين في توقير الصديق، وهو يضرب مثلاً صداقته الثقافية البحت مع «برتلو»، التي لم تتجرد يومًا من الكلفة.

التكلف يثقل الصديق

ومع ذلك فإن الصداقة من وسائل التخفف من أعباء الحياة وأثقالها؛ وإن المرء ليحب من صاحبه أن يطّرح في معاملته التكلف، حتى لقد قيل إن شر الأصدقاء من تكلف

لك، وربما زار أحدهم أخاه فتكلف له، فقطعه ذلك عنه. أما خير الإخوان فهو من تكون معه كما تكون مع نفسك.

والتكلف غير رفع الكلفة، فالأول من متاعب الحياة وهو نتيجة التحفظ والتحرز؛ أما الثاني فمن قبيل قلة الذوق والإخلال بآداب السلوك التي هي قوام التهذيب ومساكه.

احترام النفس واحترام الصديق

إذا أنت لم تعرف لنفسك قدرها   هوانًا بها كانت على الناس أهون

كلما زاد شعور المرء بقدره، زاد شعوره بقدر غيره، لأن معيارنا الوحيد لأهمية الآخرين، هو فكرتنا عن أهميتنا.

لذلك كان الشرط الجوهري الأول لأى صداقة جديرة باسمها، هو شعور الصديق العميق بأهمية الفرد وقدسيته: بقيمة صديقه وقيمته.

إن خلق الإنسان ونفوذه وسعادته تستلزم كلها أن يعرف ما لنفسه من حق على الحياة، ويتوقف على مدى اقتناعه بأنه مندوب لعمل نابه يؤديه صامدًا، ورسالة جليلة يقف دونها مجاهدًا، مما يجعله مخلصًا لشخصيته، معتزًّا بمهمته.

واحترام النفس شيء يختلف تمامًّا عن الزهو والخيلاء والغرور، فهذه تشبه الإغراق في الاتضاع؛ من حيث إنها جميعًا رذائل يجانبها الرجل المتزن الشخصية القوى الخلق.

زيادة احترام الصديق على احترام النفس

وكان «نيتشيه» شديد الحرص على أن يكون الاحترام طابع علاقته بأصحابه، لأن الصداقة، في رأيه، تنشأ حين يعظم تقديرنا لشخص آخر، فيفوق كثيرًا تقديرنا لأنفسنا.

ولعل هذا الرأي لا يسلم من المآخذ، فإنه قد يحدث أحيانًا، أن تتأثر الصداقة إذا زاد احترامنا للصديق الناجح على احترامنا لنفسنا، لاسيما حين يكون مع نجاحه على خلق عظيم يزيد تقديرنا إياه وإيماننا بجدارته ومزاياه.

ولما كنا نلتمس في الصديق شبيهًا لنا، ولما كان الاختلاف يورث الكراهة، والتفوق قد يولد التمرد؛ فإن من الصعب أن نضع صديقنا في منزلة تفوق المنزلة التي نضع فيها نفسنا؛ وربما أدى هذا الوضع إلى القضاء على الصداقة.

الفصل الثالث
التهذيب واللياقة

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ — «قرآن كريم»

أشياؤنا حريّة برعايتنا

ينصح صانعو «البيبة» الغالية بحسن معاملتها، وينهون عن تنظيفها بسلاح شحيذ ينخر حشاها، أو ضرب رأسها بسطح جامد لاستخراج الفضلات العالقة بقاعها؛ وثمة نصائح مماثلة للمحافظة على السيارة، والقلم، والمبراة؛ تحض على الترفق في معاملتها، والتحرز من إساءة استخدامها، وتعهدها بالرعاية اللازمة لإطالة عمرها، وضمان طول بقائها في أحسن حالاتها.

الكياسة تلطف احتكاك الصقب

تحدث المعاملات احتكاكًا كالذي يتولد بين أجزاء المحرك في الطائرات والسيارات ومختلف الآلات، مما يستلزم تزويدها بالزيوت والشحوم لمنع تآكلها أو تلاحمها، ومدّها بوسائل التبريد من ماء وهواء لحفظ حرارتها في درجة مأمونة فلا تحترق أو تنفجر.

والكياسة والظرف والتزام الآداب الاجتماعية المرغوبة، ضرورة لا غناء عنها لتيسير العلاقات وتلطيف ما عساه أن يسببه التعامل من احتكاك، ولاسيما في الصلات الوثيقة المستمرة.

الدين المعاملة

أدرك البشر هذه الضرورة قبل أن يعرفوا الأديان فكان دينهم المعاملة، وقد اعتنقوا تعاليم «كونفيوشيوس» و«بوذا» في آداب السلوك، قبل نزول المسيحية والإسلام، بل أن معظم تعاليم الأديان السماوية منصب على آداب التعامل بين الناس.

ستر عورات الجسد والعقل

ولا عجب أن يقوم المجتمع البشري على أساس ضبط النفس وستر عورات الجسد والعقل. فإنه لا عقل مهما يكن محبًّا يطيق أن يرى بجلاء ما تنطوي عليه أعماق عقل آخر؛ وآداب السلوك هي الخمار الذي تنتقب به بعض مواضع العقل التي لا يجمل تعريضها للعيان، كما أنها التقاليد التي تدعم المجتمع وتمنع تهاوي أركانه، وتقوض بنيانه.

حجب ضعفاتنا الطبيعية

ويقول «كانط» في «محاضرات الأخلاق»: ثمة أشياء تدعو إلى التحفظ حتى بين الأصدقاء الحميمين اللّصيقين، رعاية لجانب الصديق أكثر منها مراعاة للذات. فلا سبيل إلى رفع الكلفة التامة إلا في مسائل الميول والعاطفة؛ ولكن لنا بعض ضعفات طبيعية يجب حجبها التزامًا للكياسة؛ فلا نطلع على أنفسنا في حالتنا الطبيعية كما نعرفها، حتى أحسن صديق.

السلوك عنوان الشعور

والسلوك الاجتماعي السليم، رمز الشعور الطيب، ومظهره وصورته، ولا يكون الشعور الطيب فعالاً إلا مصورًا ماثلاً للعيان، وتصويره يزيده قوة ودوامًا.

لا يواجه صاحبه بما يكره

قال «أنس»: كان الرسول ﷺ، لا يواجه أحدًا بشيء يكرهه.

يبتسم له ويعجب من حديثه

ويقول «الغزالي» إن النبي ﷺ كان يعطي كل من جلس إليه نصيبًا من وجهه، وما اصطفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه؛ وكان مجلسه مجلس حياء وتواضع وأمانة. وكان أكثر الناس تبسمًا وضحكًا في وجوه أصحابه وتعجبًا مما يحدثونه به. وكان ضحك أصحابه عنده البسم اقتداءً منهم بفعله وتوقيرًا له.

التزام السماحة ومكارم الأخلاق

ولا غرو فقد كان ﷺ يطبق مبدأ: يسّر ولا تعسّر، بشر ولا تنفر؛ وهو الذي نزلت فيه الآية: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾، وهو القائل: ادرأوا الحدود بالشبهات.

و«الغزالي» يستنكر مساءلة الصديق عن طِيَّته إذا لقيه في الطريق، خشية أن يثقل عليه الإفضاء فيسكت أو يكذبه القول؛ كما يحذر من إبلاغه ما يُرمَى به من قدح، بخلاف المدح فإن السكوت عنه يكون من قبيل الحسد؛ ويوصي «الغزالي» بالسكوت عن كلام يكرهه صاحبه، إلا إذا كان أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر، ولم يجد رخصة في السكوت.

كما يوصي بأن يمشي الصديق وراء صديقه مشي التابع لا المتبوع! وأن لا يتقدمه إلا بقدر ما يقدِّمه، ولا يقرب منه إلا بقدر ما يقرّبه؛ ويقوم له إذا أقبل، ولا يقعد إلا بقعوده.

الصديق يغفر وكأنه المذنب

وقال «حلف الأحمر»: كنت لا تراه الدهر إلا كأنه لا غنى به عنك، وإن كنت إليه أحوج؛ وإن أذنبت غفر لك، وكأنه المذنب؛ وإن أسأت إليه أحسن، وكأنه المسيء.

أدب المصافحة

قال «لي هنت» يصف أسلوب أحد الناس في المصافحة: أصابعه نصف ممتدة، ونصف مرتدة، كأنه يحسبك مزمعًا أذيتها؛ فإذا ظفرت بيده، خلّى عملية المصافحة تقع على عاتقك دونه، فلا تستجيب يده لضغط يدك وحركتها، وهذا الأسلوب يرجع عادة إما إلى الكبرياء، أو عدم الثقة بالنفس.

ولكن هذين السببين ليسا وحدهما المسؤولين عن الطراز السطيح من السلام؛ فقد يكون مرجعه إلى عجز بسبب اعتلال الصحة، أو نتيجة جراحة في الكف.

مجانبة الملق والخشونة

يرى «أرسطو»: أن الصداقة وسط بين الملق والخشونة. ويقول «بونار»: من الناس من يتملقوننا ليظهروا أنهم أصدقاؤنا؛ ومنهم من يتخذون مسلكًا مضادًّا فيجبّهوننا بأشياء كريهة قد لا تكون دائمًا حقيقية.

فلنصرف عنا المتطرفين في حلاوتهم، أو في خشونتهم؛ فإنهم لا يفهمون الصداقة.

تحاشي الإغراق في المجاملة والتضحية

الإفراط في المجاملة والتضحية يؤدي إلى عكس النتيجة المقصود تحقيقها؛ وأنت ترى هذا واضحًا في سلوك بعض الأمهات اللاتي حرمن العطف والحنان، المتعطشات إلى الاعتراف بفرط طيبتهن؛ فإن معاملتهن لا تؤدي إلى تهدئة قلق الانفصال في أبنائهن، بل لعلها تزيده.

لذلك يجمل بالمرء أن يترك لصاحبه فرصة يستجم فيها من مجاملاته المتواترة، وخدماته المتلاحقة، وتضحياته المطردة؛ ويتيح له مناسبات التجاوب معه، والتخفف من وطأة أياديه، حتى لا يبهظه الشعور بالعجز عن رد جميل صديقه، فتنهار علاقتهما.

«أبو فروخ» وصاحبه

والصداقة الحقيقية لا تقيد الصديق بمحاكاة صديقه في كل شيء، وإلا كان مثله مثل صاحب «أبي فروخ» الذي يقول مازحًا متخابثًا:

فإن من يشرب «أبو فروخ» أشرب وإن كانت معتقة عُقارا
وإن يأكل «أبو فروخ» آكل وإن كانت خنانيصا صغارا

التزام حدود اللياقة في المزاح

«إياك وعبارات السخرية والانتقاص»—«برتون»

توقير الصديق والتزام أرق آداب السلوك في معاملته وعدم رفع الكلفة المبتذل معه، لا يتعارض ومداعبته وتسليته وإدخال السرور عليه.

والمفروض أن يحسن الصديق تقبل ملحة صاحبه ودعابته، وأن يبادله تقدير مذاقها الحريف ويستطيبه؛ ولكن للمداعبة والمزاح حدودًا من اللياقة، لا محيص عن التزامها مهما تبلغ قوة الصداقة.

لا محل للمغالطة بين الأصدقاء

يقول «بونار»: يعتاد المبتذلون في صداقتهم توسعًا في الغلاظة؛ أما الأصدقاء الحقيقيون فإنهم على الضد، يزيدون أدبًا فيما بينهم فوق أدبهم مع سائر الناس.

تخابث الأصدقاء ودعاباتهم

يتباريان في التبذير: قال «جاك يار» في كتابه «لست أمازحك»: كنت وصديقي «إرني كوفالس» الممثل الهزلي متشابهين في أذواقنا المسرفة؛ وقد شجر بيننا مع الزمن شيء من المنافسة غير الواعية حول اختيار ملابسنا وسياراتنا وما أشبهها.

يدخن ١٥ ألف دولار: ولما قابلته لأول مرة منذ سنتين تحدثنا عن السيجار، وكان كلانا يتذوقه. قلت إني أستورد كل سيجاري من «هافانا» وأتحرى أحسن أنواعه، فأشتري الواحد بدولار.

قال «إرني» وكأنه يعارضني: أحقًّا؟ أما ثمن الواحد من سيجاري فدولاران، وأنا أدخن في اليوم عشرين سيجارًا تكلفني خمسة عشر ألف دولار في السنة.

وقد اكتسحني الإعجاب، فحاولت شراء السيجار ذي الدولارين من أفخر حوانيت السجاير في نيويورك، ولكني لم أجد السيجار الذي يزيد ثمنه عن دولار.

يظفر أخيرًا بالمغنية الحسناء: وقد استكشف كلانا الشقراء «إيدي أدامز» المغنية الحسناء. وكان «إرني» السابق إلى معرفتها، وقد غنّت في برنامجه المحلي بتليفزيون نيويورك. ولما توقف البرنامج، تعاقدت ظافرًا مع «إيدي»؛ وقد طاب لي الاستيلاء عليها من «إرني».

وكان أن جاءتني ذات يوم تقول: أرجو أن لا تجن، إذ لابدّ لي من التوقف عن العرض، فلسوف أتزوج من «إرني كوفالس».

«الرولزرويس» والسائق: لما صادقت «إرني» بعد ذلك، ألفيته جالسًا في سيارة «رولزرويس» يقودها سائق خاص؛ فلما أبديت إعجابي بسيارته سألني عن السيارة التي أركبها الآن. قلت سيارة «فورد ثندر بيرد» إنها مركبة صغيرة جميلة.

رمقني «إرني» بنظرة رثاء وهز رأسه قائلاً: لا شيء يعدل واحدة من هذه الـ «رولز رويس»، إنها تصرفك عن سواها.

البيت المزود بحجرة البخار: ومر بعض الوقت ثم التقينا مصادفة في مطعم، قال يحييني في غير تحفظ: أين تسكن هذه الأيام. قلت: أوه في «بروتكس فيل»، بنيت و«مريام» فيلا صغيرة لطيفة من ثلاثة أدوار، مزودة ببركة للسباحة، ولعلك رأيتها على غلاف مجلة «لايف»؛ ليس في وسعك أن تقع على مسكن يفضله في الضواحي.

هاج «إرني» متأوها قائلاً: الضواحي! إني آسف من أجلك؛ لقد حصلنا «إيدي» وأنا على شقة ذات طابقين مؤلفة من سبع عشرة حجرة تطل على «سنترال بارك»؛ لابد أن تحضر لزيارتنا.

وفي آخر مرة رأيت فيها «إرني» قال وهو يهز يدي مشوقًا، ولكن في شيء من التعالي: كيف حال البيت الصغير في الضواحي؛ قلت: عظيم، فقد زودته بحجرة بخار. وكانت القاضية! غيّر «إرني» موضع سيجاره، وزادت تجاعيد حاجبيه الهنغاريتين، قال مستغرقًا في التفكير: حجرة بخار! لاحظت أن «إرني» لم تخطر له قط حجرة للبخار في أية لحظة من نزوات نزوعه المنصرف إلى المغالاة في الترف.

قلت له ونحن نفترق: لا شيء كحمام البخار يحقق الاسترخاء بعد عناء العرض. وما أحسست برضا يفوق رضاي إذ ذاك، فقد أمرض الحسد «إرني»، وترنح سيجاره الشامخ.

وبعد أيام قلائل اتصل بي «إرني» تليفونيًّا وطلب إليَّ أن أخمن أي شيء أقام: حجرة بخار كحجرتي؛ قلت هذا عظيم قال مبتهجًا: فقط أن حجرتي مزودة بجهاز للتكييف. وعاودني مرة أخرى الشعور بالإملاق.

التهذيب شيمة الأصدقاء

قال «عمر» ثلاثة يصفين لك ودّ أخيك: أن تبدأه بالسلام إذا لقيته؛ وتوسع له في المجلس؛ وتدعوه بأحب أسمائه إليه.

وكان التهذيب ديدن من عرفوا قيمة الصداقة الحقة، ومن هؤلاء «إيمرسون» الذي يقول: إن التهذيب هو الأسلوب السعيد لصنع الأشياء.

تحامي الإفراط في المقاربة والوغول

وهو يقول إن من مظاهر التوقير أن لا يفرط الصديق في مقاربة صديقه، فإن العين لا تبصر ظلال الأوبال، وومضات الماس، إذا زاد قربها على الحدّ، وإنما تستهوي الصديق من

صاحبه أفكاره لا أزراره. والاستحواذ ليس من شيمة الصديق الراشد، لأن الحرية شعار الصداقة الحقيقية. فليتحاش الصديق اقتحام المواضع المقدسة من نفس صديقه، فإن الوغول عليها تطفُّل لا يستساغ حتى في ظل الصداقة.

إن ميثاق الصداقة لا يستلزم أن يعرف الصديق أمّ صديقه وأخاه وأخته وزوجه، وأن يبادله الزيارة، فهذه ليست من جوهر الصداقة في شيء؛ إنما الصداقة صحبة شعرية نقية شاملة عظيمة كالطبيعة نفسها.

حضور حفلات الأسرة

ولكن «فاجيه» يرى من الضروري أن يشرك الصديق صديقه في الحفلات التي تقيمها الأسرة ابتهاجًا بنجاحه أو نجاح أبنائه، ولا يعتبر هذا رفعًا للكلفة بل هو أسمى من رفع الكلفة، لأن المناسبة هنا ليست من شؤون المنزل اليومية، ولكنها متعلقة بالهدف الذي يسعى إليه الصديق ويحققه. وإن «فاجيه» ليعجب من رب الأسرة الذي يهمل دعوة صديقه إلى حفلة يقيمها في عيد زواجه، أو لتكريم ولده الذي عين طبيبًا في مستشفى.

الفصل الرابـع
المياســـرة

«توثر الصداقة أن تغمض عينيها على أن ترى القمر خاسفًا؛ أما الحقد فينكر على البدر أنه اكتمل يومًا»

لا مفر من التقصير

الصديق تحدوه محبته على أن يتسامى معنا إلى قمة كماله، وأن يكشف لنا عن أحلى خصاله، وأنبل خلاله.

ولكن الصديق إنسان، وإن ساعدته محبتنا إياه على التخلي عن نقصه وضعفه، ليسعد بتحقيق رأينا الرفيع في أخلاقه وصفاته؛ فهو عرضة مثلنا للخطأ والتقصير، والتصرفات العسيرة التفسير.

المحبة ترياق التقصير

ولما كان أساس الصداقة هو المحبة، وكانت المحبة سمحاء تتعامى عن الغلط، وتبلع للمحبوب الزلط، فإن الصديق الصَّدْق لا يكاد يشعر بتقصير صاحبه إذا توانى أو فتر، ولا يعرف في معاملته التزمت ولا الضجر.

ولئن شق التسامح على الناس عامة، فهو سهل سائغ بين الأصدقاء؛ والصديق سرعان ما ينسى الإساءة، وذاكرته لا تعي أخطاء صديقه في حقه، لأن المحبة تتفانى في موضوعها، تلتمس خيره وسعادته ناسية نفسها، وتجد سعادتها الكبرى في تضحياتها من أجله.

ومادام الصديق ليست مستغرقًا في نفسه، فإن عقله لا ينصبّ على ذاته، وهو لا يشعر بالمساس بكرامته ولا بالحاجة الدائمة إلى الدفاع عنها، بحيث يصير شائكًا متأهبًا للمشاجرة؛ بل يكون قادرًا على التجاوز عن الصغائر. وإن هذا الاستعصاء على الإثارة يعتبر معيارًا لاعتدال المزاج، يسعد به المرء ويساهم في إسعاد سواه؛ بقدر ما يُشقي الإنسان الحساس نفسه، كما أن وجود فرد واحد حساس، كافٍ لإفساد شأن الجماعة وتعكير صفها. وقد سبق أن أشرنا إلى الصديق الحساس في مطلب «شبه الأصدقاء».

يرى المحاسن ويغض عن المساوئ

«استعينوا بالله من جار السوء، الذي إن رأى خيرًا ستره، وإن رأى شرًّا أظهره»—

«حديث شريف»

قال «الفضيل»: الفتوة العفو عن زلات الإخوان. وقال «ابن المبارك» المؤمن من يطلب المعاذر؛ والمنافق يطلب العثرات.

ويقول «الغزالي»: المؤمن الكريم أبدًا يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود؛ وأما المنافق اللئيم فإنه أبدًا يلاحظ المساوئ والعيوب.

التعالي عن سوء الظن

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا﴾، ونهى عن ظن السوء وأمر باجتناب كثير من الظن، وقال: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

والصديق أولى بالامتناع عن إساءة الظن، فلا يحمل فعل صديقه على وجه فاسد ما أمكن أن يحمله على وجه حسن. فأما ما ينكشف بيقين ومشاهدة، فعليه أن يحمل ما يشاهد على سهو ونسيان إن أمكن. . وقد قال ﷺ: «إن الله حرم على المؤمن من المؤمن. . أن يظن به ظن السوء. وقال: إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث».

ويقول «الماوردي»: لا ينبغي أن توحشك فترة تجدها من صديقك، ولا أن تسيء الظن في كبوة تكون منه، ما لم تتحقق تغيره، وتتيقن تنكره، وليصرف ذلك إلى فترات النفوس، واستراحات الخواطر؛ فإن الإنسان قد يتغيّر عن مراعاة نفسه التي هي أخص النفوس به، ولا يكون ذلك من عداوة لها، ولا ملل منها.

التغافل والإغضاء والمداراة

«إن الله تعالى أمرني بمداراة الناس، كما أمرني بأداء الفرائض»—«حديث شريف»

والمحب لا يغالي في تحليل أسرته أو أصدقائه، بل يغمض عينيه عن بعض هناتهم، وينصبّ على مزاياهم؛ وهذه هي الطريقة المثلى في معاملة الأقرب إلينا والأعز علينا. فليست مهمتنا الانصراف إلى حماية أنفسنا ممن يحبوننا، بل واجبنا الاهتمام بحمايتهم.

قال «أكثم بن صيفي»: من تراخى تألّف، ومن شدّد نفّر؛ والشرف التغافل.

وقال «حاتم»:

وكـنـتُ إذا الصديق أراد غيظي ... وأشــرقـنـي عـلـى ضـيـقٍ بريقي

غـفـرتُ ذنـوبَـه وصـفـحـتُ عنه ... مخـافة أن أعـيـش بـلا صديق

وقال «كُثَيِّر»:

ومـن لا يُغَمِّض عينَه عن صديقِه ... وعن بعضِ ما فيه يمتْ وهو عاتب

ومـن يتتبـع جاهـدًا كـــلَّ عثـرةٍ ... يجدها ولا يسـلم له الدهرَ صاحب

وقال «ربيع الشافعي»:

أحـــب مـن الإخــوان كـل مؤاتـي ... وكل غضيض الطرف عـن عثراتي

يـوافـقـنـي في كـل أمـــرٍ أريـــده ... ويـحـفـظـنـي حـيًّـا وبـعـد وفـاتـي

وأنشد «الرضي»:

اعـــــذر أخـــــاك عــلـى ذنـوبـه ... واســـتر وغــض عـــن عـيـوبـه

وقال «عبد الله بن الطاهر»:

ومَنْ لم يطب نفسًا ويستبق صاحبًا ... ويغض لأهـل الـود يصرم ويُصْرم

خيرُ القرينين من أغضى لصاحبه ... ولـو أراد انتصارًا منه لانتصرا

التماس العذر

وقال «ابن الرومي»:

فـعـذُرك مـبـسـوطٌ لـذنـبٍ مقدم ... وودُّك مـقـبـولٌ بـأهـل ومـرحـب

ولـو بلَّغتني عنك أذني أقمتها ... لـديَّ مـقـام الكاشح المتكذب

فلستُ بتقليبِ اللسان مصارمًا ... خليلاً إذا ما القلبُ لم يتقلب

كن محتالاً لزلته عذرًا

إذا ما بدتْ من صاحبٍ لك زلةٌ ... فكن أنت محتالاً لزلته عذرًا
أحب الفتى ينفي الفواحش سمعُه ... كأن به عن كل فاحشة وقرًا

مسامحة الصديق ومجافاة تعنيفه

وقال «الحريري» في «المقامة الشعرية»:

سامح أخاك إذا خلط ... منه الإصابة بالغلط
وتجافَ عن تعنيفه ... إن زاغ يومًا أو قسط
واحفظ صنيعك عنده ... شكر الصنيعة أم غمط
وأطعه إن عاصى، وهُن ... إن عزّ، وادن إن شحط
واقْنَ الوفاء ولو أخلّ ... بما اشترطت وما شرط
واعلم بأنك إن طلبتَ ... مهذبًا، رمت الشطط
من ذا الذي ما ساء قط ... ومن له الحسنى فقط
أو ما ترى المحبوب والـ ... مكروه لُزّا في نمط
كالشوكِ يبدو في الغصو ... ن مع الجنيّ الملتقط
ولذاذة العمرِ الطويل ... يشوبها نغص الشمط
ولو انتقدت بني الزما ... ن وجدت أكثرهم سقط

تهوين الأمر على الصديق المقر بذنبه

والصديق الحقيقي لا يسلّم لنفسه بأن له على صاحبه حق اللوم؛ وإذا شعر صاحبه في حضرته بأخطائه، فبدا له أن يخبره بغلطة اجترحها في حقه، نفاها أو انضم إليه في انتحال العذر، والتهوين من وقع الأمر؛ وإذا اعتذر له، أصر على كمال صاحبه وعصمته من التقصير، مما يحفز صديقه على الارتفاع بنفسه إلى المكانة العلية التي بوّأه إياها صاحبه.

قبول عذر الصديق

قال ﷺ: من اعتذر إليه أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل إثم صاحب المكس. وقال: المؤمن سريع الغضب سريع الرضا. وقال «الشافعي»: من استرضى فلم يرضَ فهو شيطان.

تقبل العذر الخفي تكرمًا

ويقول «المتنبي» معتذرًا:

بأدنى ابتسامٍ منك تحيا القرائح ... وتقوى من الجسم الضعيف الجوارح

ومن ذا الذي يقضي حقوقك كلها؟ ... ومن ذا الذي يرضى سوى من تسامح؟

وقد تقبل العذر الخفيَّ تكرمًا ... فما بال عذري واقفًا وهو واضح!

وما كان تركي الشعرَ إلا لأنه ... تقصر عن وصف الأمير المدائح

محا الذنب من جاء تائبًا

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتبًا؟ ... فداه الورى أمضى السيوف مضاربا

وقد كان يدني مجلسي من سمائه ... أحادث فيها بدرها والكواكبا

حنانيك مسؤولاً، ولبيك داعيًا، | وحسبي موهوبًا وحسبك واهبا!
وإن كان ذنبي كل ذنب فإنه | محا الذنب كل المحو من جاء تائبا

العفو عن الصديق

أمر الله بالعفو والصفح، والمغفرة، تشبهًا بالتواب الرحيم، الذي يحب المحسنين الغافرين، ويغفر لهم؛ قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؛ ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾؛ ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾؛ ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ﴾؛ ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

تقبل العذر أو عش وحيدًا

قال: «أبو العتاهية»:

إن في صحة الإخاء من النا | س وفي خلة الوفاء لقلَّة
فألبس الناس ما استطعت على النقـ | ـص وإلا لم تستقم لك خلَّة
عش وحيدًا إن كنت لا تقبل العذ | ر وإن كنت لا تجاوز زلَّة
من أب واحد وأم خلقنا | غير أنا في المال أولاد علَّة

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها

أخ لي كأيام الحياة إخاؤه | تَلَوَّنُ ألوانًا عليّ خطوبها

إذا عبت منه خَلّة فهجرته دعتني إليه خَلة لا أعيبها
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

اليسير مغفور والكمال معوز

وقال بعض البلغاء: لا يزهدنك في رجل حمدت سيرته، وعرفت فضله، وبطنت عقله؛ عيب خفي تحيط به كثرة فضائله، أو ذنب صغير تستغفر له قوة وسائله، فإنك لن تجد، ما بقيت، مهذبًا، لا يكون فيه عيب ولا يقع منه ذنب.

ثم لا ينبغي أن يزهد فيه لخلق أو خلقين ينكرهما منه إذا رضي سائر أخلاقه، وحمد أكثر شيمه؛ لأن اليسير مغفور، والكمال معوز.

حسبك من أخيك أكثره

وقد قال «الكندي»: كيف تريد من صديقك خلقًا واحدًا وهو ذو طبائع أربع، مع أن نفس الإنسان التي هي أخص النفوس به ومدبرة اختياره وإرادته، لا تعطيه قيادها في كل ما يريد، ولا تجيبه إلى طاعته في كل ما يحب؛ فكيف بنفس غيره؛ وحسبك أن يكون له من أخيك أكثره.

احتمال ظلم الصديق وزلته وهفوته

قال «الأحنف»: من حق الصديق أن يحتمل ظلم الغضب، وظلم الدالة، وظلم الهفوة.

وقال الشيخ «محمد محيي الدين عبد الحميد» في حفل تأبين زميله الشيخ «محمد علي النجار» عضو مجمع اللغة العربية: ما وجدته غضب من ازورار صديق، ذلك أنه كان مؤمنًا

وثيق الإيمان، وكان - مع هذا الإيمان - رضي النفس، واسع الصدر، كريم المعشر، سمح الخلق، يتطلب المعاذير لإخوانه، أكثر مما يعد عليهم زلاتهم.

إقالة العثرة والتجاوز عن الزلة

قال «النابغة»:

ولستُ بمستبق أخا لا تلمه ... على شعثٍ، أي الرجال المهذب

وقيل:

وكنتُ إذا الصديق نبا بأمري ... وأشرقني على حنق بريقي

غفرتُ ذنوبه وكظمتُ غيظي ... مخافة أن أعيش بلا صديق

وقال رجل من «إياد» لـ «يزيد بن المهلّب»:

إذا لم تجاوز عن أخ عند زلة ... فلست غدًا عن عثرتي متجاوزًا

وكيف يرجيك البعيد لنفعه ... إذا كان عن مولاك خيرك عاجزًا

ظلمت أخـًا كلفته فوق وسعه ... وهل كانت الأخلاق إلا غرائزًا

قال «عبد الله بن معاوية»:

لا يزهدنَّك في أخٍ ... لك أن تراه زل زلة

ما من أخ لك لا يعيب ... وإن حرصتَ الحرصَ كله

كما قيل:

إذا ما صديقي رابني سوء فعله ... ولم يك عما ساءني بمفيق

صبَرت على أشياء منه تريبني ... مخافة أن أبقى بغير صديق

وقال «بشار»:

وإن أنت لم تشرب مرارًا على القذى ... ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه

فعــش واحــدًا أو صل أخــاك فإنه ... مـقــارف ذنــب مــرة ومجـانـبـه

وقيل لـ «خالد بن صفوان»: أي إخوانك أحب إليك؟ قال: الذي يغفر زللي، ويقبل عللي، ويسد خللي.

وأنشد «ثعلب»:

إذا أنـــتَ لم تترك أخـــاك وزلـــة ... إذا زلـهـا أوشـكـتـمـا أن تفرّقا

وقال «ابن الرومي»:

هـم النــاس والدنيا ولابد من قذى ... يـلـم بعيـن أو يـكـدر مشربًا

وأنشد «الأزدي»:

لا يُـوئـســنَّـك مــن صــديـق نبوة ... ينبو الفتى وهـو الجـواد الخضرم

فـــإذا نبـــا فاستبقـــــه وتأنّـــه ... حـتـى تـفـيء بـه وطـبـعـك أكــرم

لين الجانب شيمة الصاحب

وأما من ألان للخَلْق جانبه، واحتمل صاحبه، ولطفت معاشرته، وحسنت محادثته، مال إليه الخلق، واتسع له الرزق، وهو من نفسه في راحة، والناس منه في سلامة، وأدرك المطلوب، ونال كل أمر محبوب.

إذا لم تـتـسـع أخـــلاق قـــومٍ ... تضيق بـهـم فسيحات الـبـلاد

***

إذا ما خليلي أسا مرّة وقد كان، من قبل ذا، مجملا
تحملت ما كان من ذنبه فلم يفسد الآخر الأولا

***

الناس إن وافقتهم عذبوا أو لا فإن جناهم مر
كم من رياض لا أنيس بها تُركت لأن طريقها وعر

***

قال «محمد الأسدي»:

وأحلَم عن خِلّي وأعلم أنه متى أجزِه حلمًا على الجهل يندم

***

ومن ذا الذي يقضي حقوقك كلها ومن ذا الذي يُرضي سوى من تسامح

***

ضع نفسك موضع صديقك

يقول «إرنولد بنيت» في كتابه «كيف تحصل على أحسن ما في الحياة»: ضع نفسك في موضع صديقك، فإن الرياضة على وضع النفس في محل الشخص الآخر هي بدء الحكمة في العلاقات بين الناس، وأساس الخلق الرضا، والمزاج الدائم الاعتدال. ونتائج هذه الرياضة تغير طعم الحياة، وأثرها في الغير سحري، إذ يشعر في هذه الحالة بأنه مفهوم؛ ولكن فعلها في نفس الإنسان لا يقل سحرًا. فإنك تقدر الشخص وتحبه إذا فهمته وأدركت ظروفه ورغباته ومتاعبه، لأنك تصبح كشخصه: تنتحل له الأعذار، وتتحامى مهاجمته، وتسالمه.

أما طريقة الرياضة فهي أن تسأل نفسك ماذا يحتاج إليه صاحبي فوق كل شيء؛ ما موضع ضعفه. وما موطن قوته؟ فيم تجهمه اليوم؛ فيم تجلّيه، ما مبعث همومه. ماذا رأى فيّ، كيف أدخل عليه السرور؛ أمتوعِّك هو؛ ما الأشياء التي تضايقه. فيم يفكر؛ كيف أُطريه؛ ما يكون شعوري لو أنني في مكانه؟

إن هذه الرياضة تقلّل الاحتكاك، وتزيد التفاهم، وتوسع العقل، وتنير وجه الدنيا، وتحقق رغباتك أكثر من أية طريقة أخرى.

حدود المياسرة

ولا تــهــن لــلـصـــديـق تـكـرمـه   نفسك حـتـى تُـعَـدّ مـن خَـوَلـه
يـحـمـل أثــقــالـه عـلـيـك كما   يـحـمـل أثـقـالـه عـلـى جَـمَـلِـه

«عبد الله بن معاوية»

حدود كرم الأخلاق والتسامح

الحلم، وسعة الصدر، وقوة الاحتمال، وتحاشي سوء الظن، وانتحال العذر وقبوله، والإغضاء عن الهنات والهفوات، من شيم ذوي النفوس الكبيرة والأخلاق العظيمة، الواثقين بالله وبأنفسهم؛ وهؤلاء هم المؤمنون بحق.

إلا الهوان!

ولكن للتسامح حدودًا يقف عندها، فإذا جاوزها انقلب تخاذلاً واستخذاءً، تأباه الفضيلة وينكره الشرف واحترام النفس.

سأصبر عن رفيقي إن جفاني ... على كل الأذى، إلا الهوانا

وقال شاعر آخر:

وإذا تكون كريهة أدعى لها ... وإذا يحاس الحيس يدعى «جندب»

هذا لعمركم الصغار بعينه ... لا أم لي إن كان ذاك ولا أب

ويركب حدّ السيف من أن تضيمه

وقال «جرير»:

وإني أخوك الدائم العهد لم أحُل ... إن أبزاك خصم أو نبا بك منزلُ

أحارب من حاربت من ذي عداوة ... وأحبس مالي إن غرمت فأعقلُ

وإن سؤتني يومًا صفحت إلى غد ... ليعقب يوما منك آخرُ مقبلُ

كأنك تشفي منك داء مساءتي ... وسُخطي وما في ريبتي ما تعجَّلُ

وإني على أشياء منك تريبني ... قديمًا لذو صفح على ذاك مُجملُ

ستقطع في الدنيا، وإذا ما قطعتني ... يمينك؛ فانظر أي كفٍّ تبدلُ

وفي الناس إن رثّت حبالك واصلٌ ... وفي الأرض عن دار القلى متحوَّلُ

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته ... على طرفِ الهجران إن كان يعقلُ

ويركب حدّ السيف من أن تضيمه ... إذا لم يكن عن شفرة السيف معدلُ

وكنت إذا ما صاحبٌ رام قطيعتي ... وبدّل سوءًا بالذي كنت أفعلُ

قلبت له ظهر المجِنّ فلم يدم ... على ذاك إلا ريث ما يتحولُ

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد ... إليه بوجه آخِر الدهر تُقبلُ

وقال «المتنبي»:

إذا ترحلتَ عـن قـوم وقـد قـدروا ألاّ تـفـارقـهـم، فـالـراحـلـون هُـمُ

شـر الـبـلاد بـلاد لا صـديـق بها وشر ما يكسب الإنسان ما يصمُ

وشـر مـا قنصته راحـتـي قَنص شهب الـبـزاة سـواء فيه والرخم

لو تخالفني شمالي لقطعتها

قال «المنقب العبيدي»:

فـإمـا أن تـكـون أخـي بحق فـأعـرف منك غثي مـن سميني

وإلا فـاطـرحـنـي واتـخـذني عـدوًّا أتـقـيـك وتـتـقـيـنـي

فـإني لـو تـخـالـفـني شـمـالي خـلافـك مـا وصـلـت بـهـا يميني

إذن لقطعتها ولـقـلـت بِيني كـذلـك أجـتـوي مـن يجتويني

الفصل الخامس
الثناء على الصديق والدفاع عنه

الثناء على الصديق

لا يستطيع الشخص المهذب أن يسرد للناس فضائله، أو يذكي لديهم نفسه؛ لذلك يقول «الغزالي» إن من حق الصديق أن تثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعته وفعله، وعلى عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح به، وذلك من غير كذب وإفراط؛ ولكن تحسين ما يقبل التحسين لابد منه. وأكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح.

ومن ذلك أن تشكره على صنيعه في حقك على نيته، وإن لم يتم ذلك: قال «علي»: من لم يحمد أخاه على حسن النية، لم يحمده على حسن الصنيعة.

الدفاع عن الصديق

والدفاع عنه في غيبته مهما يُقصد بسوء أو يُتعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض، فحق الأخوة التشهير في الحماية والنصرة، وتبكيت المتعنت وتغليظ القول عليه؛ والسكوت عن ذلك تقصير في حق الأخوة. قال بعضهم ما ذكر أخ لي بعيب إلا تصورته جالسًا، فقلت فيه ما يجب أن يسمعه لو حضر.

الفصل السادِس
الزيارة؛ والوداع

المبحث الأول

الزيـــــارة

الإجماع على ضرورة الزيارة

ثمة إجماع على أن للصديق على صديقه واجب الزيارة، لأن الصداقة أصلاً كانت تقتضي المعيشة المشتركة.

والصديق مدفوع بطبيعته إلى زيارة صديقه أي إلى الالتقاء به، لأن في هذا سروره وبهجته، كما أن فيه سعادة صديقه وتحقيق رغبته.

القول بالإكثار من الزيارة

والقائلون بالإكثار من زيارة الصديق يقصدون الصداقة بمعناها الأسمى، وهي تتطلب بطبيعتها أن يقضي الصديقان معظم الوقت معًا، أو على الأقل جلّ وقت الفراغ؛ يتحادثان

ويتبادلان الرأي والنصيحة، ويتذوقان متع الحياة الروحية والعقلية، بل الجسدية من مؤاكلة ورياضة وغيرها من وجوه ممارسة الصداقة والاستمتاع بمحاسنها ومزاياها.

وثمة مثل «إسكندينافي» يقول: أكثِر من زيارة صديقك، فإن الطريق غير المطروق، لا يلبث أن تسده الأشواك والعواسج.

القائلون بالإقلال من الزيارة

ويبدو أن القائلين بالإقلال من تزاور الأصدقاء، إنما تنصبّ نصيحتهم على العلاقات العادية التي لا ترقى إلى مرتبة الصداقة الحقيقية، خشية أن يضيق بها الصديق.

أقلِل زيارتك الصديـ ... ق يراك كالثوب استجده
إن الصديق يمله ... ألا يزال يراك عنده

وقال «الطائي»:
وحظُّك لَقْية في كل عام ... موافقة على ظهر الطريق

الامتناع عن الزيارة

إذا استثنينا «إيمرسون» فإن أحدًا لم يحبذ الامتناع عن زيارة الصديق في بيته، إنما كان الخلاف حول الإكثار أو الإقلال من الزيارة؛ لأن الانقطاع عن زيارة الصديق يورث النفور، ويجرح الشعور، فتبرد القلوب بالإهمال، ولاسيما إذا أعسر الصديق أو ساءت به الحال.

صـديقُك حـين تستغني كثير ... ومـالـك عند فـقـرك مـن صديقِ
فـلا تغضب عـلـى أحـدٍ إذا ما ... طـوى عنك الـزيـارة عند ضيقِ

خير الأمور الوسط

وثمة من يرى التوسط في زيارة الصديق وغشيانه غير مقلل ولا مكثر؛ فإن تقليل الزيارة داعية للهجران، وكثرتها سبب للملال.

وقال النبي ﷺ: زر غبًّا تزدد حبًّا.

وقال «لبيد»:

تـوقَّـف عـن زيـارة كـل يـومٍ ... إذا أكـثـرت مـلَّـك مـن تـزور

وقال آخر:

أقـلِـل زيـارتـك الصديق ولا تطل ... هـجـرانـه فـيـلـجَّ في هـجـرانـه
إن الـصـديـق يـلـجّ في غشيانه ... لـصـديـقـه فـيـمـل مـن غشيانه
حـتـى يـراه بـعـد طـول سـروره ... بمـكـانـه مـتـثـاقـلاً بمـكـانـه
وإذا تـوانـى عـن صيانة نفسه ... رجـل تُنُقِّص واستُخف بشانه

وقال «علي بن الجهم»:

أبـلـغ أخـا مـا تـولّى الله صحبتنا ... إني وإن كنت لا ألـقـاه ألـقـاه
وإن طـرفي مـوصـول بـرؤيـتـه ... وإن تـبـاعـد عـن مـثـواي مـثـواه
الله يـعـلـم أني لـسـت أذكـره ... وكـيـف أذكـره إذ لستُ أنساه

زيارة الصديق في ضرّائه

الصديق أولى بالزيارة في ضرائه، منه في سرائه، وأحوج إلى المؤاساة في أتراحه، منه إلى المشاركة في أفراحه.

عيادة المريض: قال النبي ﷺ: للمسلم على المسلم خصال ست. . ويعوده إذا مرض. لاشك أن زيارة الصديق في حال صحته، أحب إلينا من زيارته في مرضه، إذ يثقل علينا أن نراه عليلاً ضعيف البنية متألمًا عاجزًا عن التبسط معنا في الحديث، كما نشفق من أن ينسيه سروره بقدومنا ما يحتاج إليه من راحة ضرورية لاسترداد عافيته واكتمال نقهه.

ولكن زيارة المريض فرض حتم، والإخلال به إثم يستوجب اللوم.

عيادة الحبيب شافية: آخى «الشافعي» «محمد بن عبد الحكم» وكان يقرِّبه ويقبل عليه ويقول ما يقيمني بمصر غيره؛ فاعتل «محمد» فعاده «الشافعي» فقال:

مرض الحبيبُ فعدتُه ... فمرضتُ من حذري عليه
وأتى الحبيبُ يعودني ... فبرئتُ من نظري إليه

وجهة نظر في زيارة المريض ومؤاساته

نشرت مجلة «بيجنت» مقالاً بعنوان: «كلمات حنان قليلة من أجل السرطان» جاء فيه: إن أخلاق أصدقائنا هي التي تتحسن؛ إن أصدقاءنا لشاكرون على أننا أُصبنا دونهم، وإنهم ليشعرون بأنهم مذنبون إذ يكون هذا شعورهم، بحيث إنهم يتسامون إلى مرتفعات جديدة من الكرم، والتضحية بالنفس، فيغمروننا بهداياهم والتفاتهم: يصلُّون من أجلنا، ويرسلون

إلينا بطاقات بتمنياتهم بالشفاء، ويزودوننا بالكتب والحلوى، والويسكي الإسكتلندي. وقد حباني صديق رقيق الشعور إلى حد غير عادي، باشتراك ثلاث سنين لمجلة «يوم السبت».

المؤاساة شكرًا للمولى على نعمته

فقدت «فيرا بريتان» خطيبها وأخاها ومعظم من تحب في الحرب العالمية الأولى. كما لقيت مشقة كبيرة في كسب المال اللازم لنفقات تعليمها الجامعي. وقد صادفت صديقة من الطراز الأول في شخص «وينفريد» التي غمرتها بفيض من محبتها وعطفها، في وقت كانت تستغرب فيه أن يطيق إنسان ما تعانيه من توتر وتوجس وضيق بالدنيا.

وتقول «وينفريد» في تفسير هذا: إن الصديق المجدود يمارس مع صديقه المكدود متعة التعبير عن شكره للمولى على ما اختصه به من خيرات حرمها صديقه. وإن هذه لاشك عبادة.

وقد يكون هذا أيضًا هو الشعور في حالة زيارة الصحيح للمريض؛ وهو إحساس لا يخلو من شائبة الشعور بالذنب بسبب ما يخالفه من شبهة السرور بالنجاة من المرض أو السلامة من المحنة.

المبحث الثاني

التوديع والتشييع

أقـــول لـــه عنـــد توديـعـه ... وكـــــل بـعَـبرتـه مُبلـــس
لـئـن قـعـدت عـنـك أجـســامـنـا ... لـقـد سـافـرت مـعـك الأنـفـس

«البحتـري»

وهل تطيق وداعًا؟

قد يثقل التوديع على الصديق، لما ينطوي عليه عادة من ألم الانفصال ولو كان مؤقتًا، غير أن ثمة ظروفًا قاسية يكاد المودع فيها يعتقد أنه قد لا يرى من بعد صديقه أو حبيبه؛ ولكن حرصه على التزود بآخر نظرة يزيد على ألم الوداع، فيحتمله المودع راضيًا.

خرجت أهرب من فراقك

قال «البحتري»:

الله جـــارُك في انـطـلاقِـك ... تـلـقـاءَ شـامِـك أو عـراقِـك
لا تـعـذُلـنّـي في مـسـيري ... يـــومَ ســـرتُ ولم ألاقــك
إنـــــي خـشـيـت مـواقـفـا ... لـلـبـين تـسـفـح غـرب مـاقـك
وعـلـمـت مـا يـلـقـى المــود ... ع عـنـد ضـمـك واعـتـنـاقـك
فـتركـت ذاك تـعـمُّـدًا ... وخـرجـت أهـرُب مـن فـراقـك

ويقول «المتنبي»:

يـا راحِـــــلاً، كـل مــن يـودعـه مـــــودع ديــــنــه ودنــيــاه

تشييع الصديق الراحل

«للمسلم على المسلم خصال ست.. ويحضر جنازته إذا مات»—«حديث شريف»

ومن قبيل الوداع، تشييع الصديق الراحل، وقال بعضهم: من شيع أخاه في الله بعث الله ملائكة من تحت فرشه يوم القيامة يشيعونه إلى الجنة.

يموت بسبب تشييع شريكه

يقول «ترافرس همفريز» في كتابه «جنائيات»: بأن أباه توفي في سنة ١٨٦٥ في سن الخمسين، على إثر إصابته بقشعريرة وهو يشيع جنازة شريكه «تاف ريد».

ولكن لعل له عذرًا

لم يحضر رئيس الولايات المتحدة الأسبق «جونسون» الاحتفال بالصلاة على جثمان صديقه القديم «كريستيان هبرتر» وزير الدولة السابق، مع أن الصلاة أقيمت بالكنيسة الأسقفية التي لا يفصلها عن البيت الأبيض غير ميدان «لا فيت»؛ وكانت ثمة اعتبارات تقتضي بقاء الرئيس بعيدًا عن الأنظار.

الفصل السابع
الإهداء؛ والمؤاكلة

المبحث الأَوَّل

الإهـــداء

تعريف الهدية الحقيقية

الهدية الحقيقية هي التي لا يتوقع مُهديها عوضًا.

قيمة الهدية

كان «كونفيوشيوس» لا ينحني لهدية صديق، ما لم تكن لحمًا قدم ذبيحة؛ ولو كانت الهدية مركبة بجيادها.

هدية أصحاب «أيوب»

عندما انتهت محنة «أيوب» قدِم أصحابه لتهنئته وأعطاه كلٌّ منهم «قسيطة» [قطعة نقود] واحدة، وكل واحد قرطًا من ذهب.

هدية «أم المؤمنين» لزوجها وصديقها

لما تزوج رسول الله ﷺ السيدة «خديجة» وهبته «زيد بن حارثة»؛ لما رأت من إعجابه بأدبه وفطرته الذكية.

وقد تضاعف حب النبي ﷺ لـ «زيد» بعد أن آثره على أبيه وعمه، فأعتقه وتبناه، وقد كان يلقب بحبّ رسول الله، أي حبيبه.

دينار وزنه ألف مثقال

أهدى «الصاحب بن عباد» «فخر الدولة» دينارًا وزنه ألف مثقال، على أحد جانبيه من شعر «الصاحب».

هدية «تنكز» لـ«قلاوون»

وصف «المقريزي» هدية الأمير «تنكز» لصديقه السلطان «الناصر قلاوون» لما قدم إلى مصر من الشام، من أواني البللور والأقمشة والخيل والسروج والجمال، وغير ذلك مما يضيق عن ذكره المجال. وقد ألمحنا إليها في فصل «صداقة الملوك والعظماء».

المبحث الثاني

شعيرة المؤاكلة

«رؤية صديق قديم شيء فكه، إنه يشبه أكلة شهية»—«مثل غجري»

الطعام من متع الحياة

يعتبر الطعام من مسرات الحياة، حتى بلغ من تهافت بعض الناس على تذوقه، أنهم يعيشون ليأكلوا؛ بل لقد وصل الأمر بـ «كارليل» أن يقول كما ذكرنا في فصل «أقوال الساخطين على الصداقة»: إذا كانت نفس المرء، كما في اللغة الفنلندية، وفي مذهب المنفعة، نوعًا من «المعدة» فماذا عساه إذن يعني الاتحاد الروحي إلا أنه مؤاكلة؛ وبذلك فإننا عوضًا عن أن نكون أصدقاء، فنحن ضيوف عشاء.

الإطعام علّة علاقة الطفل بأمه

والطعام علة علاقة الطفل بأمه، وهي العلاقة التي اعتبرناها علامة بزوغ فجر الشعور الاجتماعي، ومطلع شمس الصداقة.

الإطعام أول تعبير عن المحبة

ولما كان أول تعبير عن المحبة يفهمه الطفل هو إطعامه، فإن الطعام يصير عنده مدخل المحبة وصورتها.

منزلة الطعام في حياة الناس

لذلك صارت للطعام مرتبة عالية في حياة الآدمي، فالحياة مستحيلة بدونه، وإن مدلول الإطعام ليظل غالي القيمة عنده طوال العمر، لأن الطعام يساوي في عقلنا الباطن الحياة نفسها.

قدسية الطعام

بل صارت للطعام لديه قدسية: إن مرّ بلقمة ملقاة في عرض الطريق توقف عندها والتقطها فقبّلها ورفعها في خشوع إلى جبهته، ثم وضعها حيث لا تدوسها القدم، أو يلحقها العدم، لتظل بمرأى من عابر السبيل الجائع، يبتلع بها ريثما يتاح له الحصول على ما يقيم أوده.

ميثاق المائدة

والمشاركة في تناول الطعام متعة محببة فيها معزة وأُلفة تشعر المتحلقين حول مائدته برابطة القربى، فإذا تخامس طاعمان في صحفة والتقت يميناهما في ثريدها وحنيذها، فكأنما يتحول الطعام الذي تناولاه دمًا من نفس الفصيلة يسري في شرايينهما، وكأنهما يتصافحان ويتعاهدان على المودة والإخاء ما عاشا.

حرمة العيش والملح

وهكذا صارت المشاركة في الطعام ميثاقًا يُعدّ نقضه من الكبائر، وعهدًا لا مفر من رعاية حرمته؛ كما أن خائن العيش والملح تحق عليه اللعنة عقابًا على خيانته وغدره. وقد

ذكرنا في مطلب «الصديق الغادر»: إن «ليوناردو دافنشي» صور «يهوذا الأسخريوطي» يقلب وعاء الملح في «العشاء الأخير».

الشكوى من خيانات العيش

أشرنا في فصل «ذم الصداقة والأصدقاء» إلى مقولة مصرية قديمة: آكل طعامي تآمر ضدي. وقول «داود» النبي: آكل خبزي رفع عليّ عقبه. ويقول «عوبيديا»: أهل خبزك وضعوا شركًا تحتك [جرحًا].

أول خيانة للعيش عرفناها

وقد سجل الشاعر اليوناني «أركيلوكس» خيانة «ليساميس»، قبل الميلاد بنحو سبعة قرون، إذ كان قد وعد أن يزوجه كريمته «نيوكيل»، وأكل معه عيشًا وملحًا؛ ثم نكث بعهده وزوّجها من غيره.

احتفال الأبيقوريين بالمؤاكلة

وكان على الأبيقوريين أن يولموا مرة في كل عام احتفالاً بمولد أستاذهم، ومرة في اليوم العشرين من كل شهر احتفالاً بذكرى «أبيقور» وصديقه «مترودور».

حق الصديق في طعام صديقه

وقد رفع الله الحرج عن الصديق، فأذن له بالأكل في بيت صديقه كما يأكل في بيته، أو في بيت والديه أو إخوته، أو عمومته وخؤولته؛ وهذا من شأنه أن يزيد من اغتباط الصديق

إذ يدعوه صديقه إلى غشيان مائدته، أو إذا هو رأى البقاء في بيته ليشاركه في طعامه. إذ يشعر بأنه في حكم محارمه وأقرب الناس إليه.

يأكل طعام صاحبه في غيبته

وقد رُوِيَ أن «مالك بن دينار» و«محمد بن واسع» دخلا منزل «الحسن»، وكان غائبًا، فأخرج ثانيهما سلة طعام من تحت سريره وجعل يأكل، ضاربًا صفحًا عن مطالبة «مالك» إياه بكف يده حتى يجيء صاحب البيت.

مدلول الدعوة إلى الطعام

إن أول ما يتبادر إلى ذهننا، إذا استرعى امرؤ نظرنا، أن ندعوه إلى الطعام. ومع أن هذه المناسبات تعتبر عادة فرصة للحديث، فإن المعنى الرمزي للمؤاكلة، أعمق كثيرًا من المدلول المحسوس للكلمات التي يتبادلها المتحدثان حول مائدة الطعام؛ وهذا ما يجعل حفلات الغداء والشاي والعشاء مجالاً للصداقة وتبادل المودة.

أصدقاء «أيوب» يأكلون في بيته

وقد جاء في «التوراة» أن أصدقاء «أيوب» زاروه بعد زوال محنته، وأكلوا معه خبزًا في بيته.

ونوّه النبي «سليمان» بحلاوة مشاركة الصديقين في الطعام، فقال في أمثاله: أكلة من البقول حيث تكون المحبة، خير من ثور معلوف ومعه بغضة.

مظنة تحيّز المؤاكل

وقد أجاز قانون المرافعات المصري ردّ القاضي إذا كان قد اعتاد مؤاكلة أحد الخصوم؛ لما يُفترض في المؤاكل من انعطاف نحو مؤاكلة قد يمنعه من التزام جادة العدل، ويحدوه على الانحياز والميل.

البـــــاب الثاني

التزامات الصداقة في حياة الصديق

عقد الأخوة كعقد الزواج

يقول «الغزالي» إن عقد الأخوة رابطة بين شخصين، كعقد الزواج بين الزوجين، وكما يقتضي عقد الزواج حقوقًا يجب الوفاء بها، فكذا عقد الأخوة: فلأخيك عليك حق في المال، وفي النفس، وفي اللسان، والقلب؛ بالعفو والدعاء، والإخلاص والوفاء، وبالتخفيف، وترك التكلف والتكليف.

عهد الصداقة

ويقول «بونار» و«أندريه موروا»: إن الصداقة كالزواج تنطوي على عهد.

القوة الملزمة للعقد الودي

يقول «جون ديري» في كتابه «الأخلاق» في الفصل المخصص لدراسة أصل الحقوق الخلقية والأدبية: إن الأصدقاء مدينون بشيء بعضهم لبعض بسبب طبيعة علاقة الصداقة نفسها؛ ومطالب الصداقة ليست دائمًا سائغة، فقد تكون أحيانًا مرهقة. ولكن يجب أن لا نتردد في القول بأن من يرفض مواجهتها لمجرد مشقتها، ليس صديقًا حقيقيًّا.

ويمكن أن يقال بأن الحق والقانون والواجب تنشأ من العلاقات التي يتمسك بها البشر وديًّا أحدهم قبل الآخر، وأن قوتها الملزمة تتولد من طبيعة العلاقة نفسها التي تربط الناس بعضهم ببعض.

واجبات الصداقة من صنعنا

يقول «أبيقور»: إذا لزم الأمر فإن الحكيم يموت لأجل صاحبه؛ ولكنا نحن الذين نفرض واجبات الصداقة على أنفسنا، فإنه يسرنا أن نلتزمها ونتّبعها. وتعادل النظرية الأبيقورية في حرية الإرادة، أو استقلال الإرادة، نظرية الأنانية أو استقلال القلب: أن يكون المرء أناني الوجدان هو في الواقع إصدار منه على استرداد حريته والدفاع عن نفسه ضد كل شهوة غازية، كالحب؛ فهو يرفض حمل قيد الزواج، احتفاظًا بقلبه للوجدانات الحرة، يمنحه ويسترده وفق مشيئته. حتى في الصداقة نفسها، يظل سيد نفسه، فلا يغفل عن العناية بمصالحه ولا تغيب عن نظره مسراته، إنه اختار الرضا بأن يحب بغير أن يقيد نفسه بتاتًا. والصديق الأبيقوري واعٍ بأنه كان حرًّا في أن يحب، وأنه حرّ في منح محبته؛ وهو حرّ أيضًا في منعها. إن هذه المقدرة على الاستدراك، أو هذه الحيازة المستمرة للذات، هي الصفة الأساسية للصداقة الأنانية.

لا تجرب صديقك

جاء في «التوراة» على لسان «موسى» «لماذا تجربون الرب، لا تجرب الرب إلهك»، كما اقتبس هذا القول السيد المسح في رده على الشيطان. فقال: «مكتوب لا تجرب الرب إلهك». وأنه يمكن أن يقال أيضًا، ومن باب أولى: «لا تجرِّب صديقك».

ويبدو أن للناس ولعًا بإجراء التجارب على أحبائهم، ليتأكدوا من ركانة مودتهم، ويبلوا مدى محبتهم؛ وهو من مظاهر ضعف الثقة بالنفس وبالناس، وأبعد ما يكون عن السواء، وأدخل في باب الفسولة والخواء.

الضنّ براحة الصديق وصفائه

الصديق الشجاع ذو الرجولة ضنين بأن يفجع صاحبه، أما النساء الضعيفات على رأي «أرسطو»، ومن يشابهوهن من الرجال، فتسرّهم رؤية دموع أصدقائهم تخالط دموعهم.

والرجل المهذب يتردد ويتقاعس عن دعوة أصدقائه لمشاطرة أحزانه، مؤثرًا أن يشقى وحده، ما لم يكن في وسعهم إذا دعاهم أن يسدوا إليه خدمة كبرى بغير أن يتجشموا إلا القليل من المشقة.

ومع ذلك فإن الصديق المخلص يعدّها قسوة بالغة أن يحرمه صاحبه من حق المشاركة فيما ينتابه من بأساء.

ويقول «أوسكار وايلد»: لست أهتم بتاتًا إن أغفل صاحبي دعوتي إلى وليمته. فإذا ألمّ به حزن وأبى أن يأذن لي بمشاركته، اشتد شعوري بالمرارة الممضة؛ إن أوصد دوني باب بيت الحداد أدمنت قرعه المرة تلو المرة ملتمسًا أن يؤذن لي في الدخول لأساهم فيما هو من حقي أن أشارك فيه. إن رآني غير أهل، غير صالح للبكاء معه، حسبتها أشد الإهانات قطعًا، وأفظع الأساليب طرًّا في فضيحتي.

لا حقّ لك على صاحبك

يوصي «الغزالي» بأن لا يكلف الصديق صديقه ما يشق عليه، بل يروّح سره من مهماته وحاجاته، ويرفهه عن أن يحمله شيئًا من أعبائه، فلا يستمد من جاهه أو ماله، ولا يكلفه التواضع له والقيام بحقوقه والتفقد لأحواله؛ بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى:

تبركًا بدعائه واستئناسًا بلقائه، واستعانة به على دينه، وتقربًا إلى الله بالقيام بحقوقه وتحمل مؤنته.

دع لصديقك كامل حريته

تقول «وينفريد هوليني»: إني ممزقة القلب بين مطالب الحب المرهقة، وبين عقيدتي التي لا تتحول بأنه ليس من حق امرئ أن يثقل بمطالبه كاهل سواه. بل عليه أن يترك لمحبوبه كامل حريته، حتى من تحبه فوق الجميع؛ فلا يتطفل بإشفاقه أو حنانه على مصيره - وإن هذا ليحتاج إلى بعض التدريب.

الأصدقاء متعددو الدرجات

لما كان فاقد الشيء لا يعطيه، وكان لكل صديق مزاياه التي يتفرد بها؛ فليس من الحكمة التماس الرقة فيمن نعهد فيه القوة، ولا الثقة عند من يتميز بالحرص، ولا التبدع من محدود الذكاء.

اكفف صاحبك مؤنة نفسك

من أمثال العرب إن من خفَّت مؤنته دامت مودته:

من عفّ خفّ على الصديق لقاؤه   وأخ الحـوائـج وجـهـه مـمـلـولُ

وأخـوك مـن وفـرتَ مـا في كيسه   فـإذا غـدرتَ بـه فـأنـت ثقيلُ

التكليف بما يجاوز السعة

يقولون بأن الأصدقاء كأوتار الكمان، يجب أن لا نبالغ في شهدها؛ وإن «شيشرون» لينعي على الناس أنهم يتطلبون أن يكون أصدقاؤهم أكثر منهم كمالاً. وقد كتب صحفي ألمعي يقول: من عيوبنا أننا نطالب أصدقاءنا بأكثر مما يحتملون. فالناس كالمعادن تسيح في درجة حرارة معينة. بعضنا يحتمل النار وبعضنا يذوب منها. وبعضنا يستطيع أن يصمد، وبعضنا ينهار. وليس ذنب المعدن أن لا يحتمل، فطبيعة المعادن تختلف: فيها معادن تصمد لطرق الحديد، ومعادن تلتوي بين يديك. وأنا أعترف بأن أملي خاب في بعض أصدقائي، ولكني أعترف أيضًا بأن أغلبية الذين اخترتهم أصدقاء لي أثبتوا أنهم أحسن كثيرًا مما تمنيت أن يكونوا، ولعل السبب في هذا أنني أومن بأننا نأخذ ما نعطي، وأنه ليس من المعقول أن أطلب الكثير دون أن أعطي الكثير.

ويقول «ابن الرومي»:

ومن قلة الإنصافِ أن تبتغي الـ مهذَّب في الدنيا ولستَ المهذَّبا

مدى واجبنا نحو الصديق

نعامل صديقنا معاملة نفسنا: حار الناس في تعرّف واجبات الصداقة، وتقصّي المصدر الذي تنبثق منه الواجبات.

والقائلون بأن الصديق ذات أخرى، وإن الصديقين نفس واحدة، لا يستأثر أحدهما بشيء: لا شخصه ولا ماله؛ يرون أن يعامل الصديق صديقه معاملته لنفسه، فيحبه كما

يحب نفسه؛ ولا يعني هذا أن يتنكر لنفسه، لأن تفانيه في حب صديقه ليس جحودًا لذاته، ما دام الصديق ذاتًا أخرى.

مصلحة الصديقين واحدة: فإذا تعارضت مصلحتنا ومصلحة صديقنا، فإن التعارض لا يكون إلا ظاهريًا، لأن مصلحتنا الحقيقية واحدة، باعتبارنا واحدًا، وإيثارنا إياه، لا يكون في الواقع نكرانًا لنفسنا، لأن نفس صديقنا ونفسنا هما في حُسباننا نفس واحدة لا نفسين اثنتين.

معيار محبة الصديق: وقد ثار الخلاف حول تقدير درجة محبة الصديق لصديقه، أيكون معيارها مقدار محبته إيانا، أم أن الصداقة أشد سخاءً وأكثر سماحة من أن تمسك حسابًا بالمستحق لها والمطلوب منها؛ فهي تعطي بغير حساب.

فوق أن في وسعنا أن نصنع لصديقنا ما لا نطيق صنعه لنفسنا، فنحن نرتضي أن نقف من أجله موقف الرجاء والالتماس، وأن ننحله من المزايا ما نتحرج من انتحاله لأنفسنا.

ولم يقنع البعض بأن نحب صديقنا بالقدر الذي يرى هو أنه جدير به، واستلزموا أن نحبه بقدر ما يمكن أن يكون عليه؛ أي أن تكون محبتنا إياه متناسبة مع درجة الفضيلة ومقدار المناقب التي يحتمل أن يحوزها.

ولا يكفي أن نحب صديقنا محبة الذات عمومًا، بل محبة الذات النبيلة المشروعة؛ ليس كما نحب نفسنا، بل كما يجب أن نحبها.

الفصل الأَوَّل

الالتزام الخلقي؛ وحدوده

المبحث الأَوَّل

الالتزام الخلقي

مشكلة الالتزام الخلقي

يقول «كانط» إن الشعور بأن تصرفًا ما واجب، ليس شعورًا تجريبيًّا، ينجم عن التأمل في نتيجة تصرفنا: فنحن مندوبون مثلاً لأن نحب قريبنا كما نحب نفسنا، والالتزام المترتب على هذه الوصية لا يمكن تفسيره في ضوء شيء مما نتعلمه بالاختبار، لأن الوصية لا تدلنا كيف يجب أن نتصرف لكي نحب قريبنا، ولا بدّ لنا حتى نستكشف السبيل من أن ندخل الظروف في اعتبارنا: فالتصرف الذي يصلح في ظرف معين، قد لا يصلح في غيره؛ ولكن الظروف لا علاقة لها مطلقًا بشعورنا بأن علينا أن نلتزم تصرفًا بذاته.

فكرة الواجب

يعترف الناس كلهم بالالتزامات الأدبية، وإن لم يتفقوا على ما يجب عمله بصددها؛ فإن كل البشر لهم ضمير، وهم يسلّمون بسيادته من الناحية الخلقية، ووجوب طاعته من الناحية الأدبية. ولكن صوت الضمائر ليس واحدًا، لذلك اختلف الناس حول تمييز صوت الضمير الجليّ من صوت الضمير الخفيّ؛ ولا يكفي لإقناعهم الاحتكام إلى الملاءمة الشخصية، أو الملاءمة الجماعية، وليس يقرّبهم أي قدر من المجادلة قيد أنملة من تقدير الواجب تقديرًا سليمًا.

الصداقة علاقة هدفها الصداقة

يقول «سيدجويك»: المفروض أن علاقة الصداقة، تأثر وجداني متبادل بين اثنين؛ لا هدف لهما غير الصداقة لذاتها، وما يستشعرانه من سرور المشاركة في هذه العلاقة.

هل للصديق حقوق؟

وهي بهذه المثابة تختلف عن معظم العلاقات التي يرتبط بها الناس تحقيقًا لأهداف معينة تحدّد مداها عقود صريحة، أو تفاهم ضمني؛ ويكون الالتزام الناشئ عنها، مجرد واجب ولاء لهذه العقود، أو ذلك التفاهم.

ومع ذلك فإن الرأي على أن نشوء علاقة الصداقة، من شأنه أن يولّد واجبات متبادلة لم تكن موجودة من قبل. ولكن إذا قلنا إن الصداقة، تقوم في جوهرها على أساس شعور تلقائي بالتعاطف المتبادل، وما يتولد عنه من مكارم اختيارية؛ فكيف يمكن أن نتحول بهذا الشعور عن تلقائيته بحيث ينطوي على الإجبار، ويستحيل واجبًا والتزامًا؟ إن الرأي

أن نترك للغريزة الطبيعية أن تلعب دورها بحرية في هذه المنطقة من العلاقات، وأن لا نخضعها للسنن الأخلاقية؛ فلا نرسم لها مثلاً أعلى يتطلع إليه الناس كافة، وإن كان هذا لا يمنع أننا بطبيعتنا نعجب بأي تعبير أنيق للتأثر الوجداني القوي غير المصطنع.

الفرض الحتم

ولا يغيرّ هذا من أن ثمة منطقة هامة للواجب الحتم، مهما يكن تحديدها شاقًّا؛ فإنه مما يخالف الذوق الفطري العام أن لا نعترف بوجودها؛ وكثيرًا ما نحكم بأن صديقًا قد أخطأ التصرف إزاء صديقه، كما لو كان ثمة قواعد مسلم بها تحكم علاقات الأصدقاء.

ولعل الحالات الواضحة من السلوك الخاطئ بإزاء الأصدقاء، تنطوي تحت القاعدة العامة لخرق التفاهم بينهم؛ فإن كل محبة يفترض انطواؤها على رغبة في سعادة موضوعها، لذلك يبدو أن الصداقة تقيّد الصديق بالتماس هذه السعادة إلى حدّ يتناسب مع درجة العلاقة بين الصديقين.

ولما كانت الأريحية العادية تتطلب على الأقل أن نسدي إلى سوانا الخدمات التي يسعنا إسداؤها بغير تحمل أدنى تضحية، أو بتضحية تافهة لا تتناسب مع الخدمة المسداة. ولما كانت وظيفة الصداقة على عدد درجات تأثراتها الوجدانية، يجب أن تنطوي على اهتمام سعادة الصديق، يزيد على اهتمامنا بالناس بصفة عامة، لأن الأصدقاء مدينون بعضهم لبعض بسبب طبيعة علاقة الصداقة نفسها؛ لذلك كان لزامًا أن تتمخض الصداقة عن استعداد لبذل تضحيات جسيمة، إلى حدّ ما، في سبيل الصديق حين تسنح الفرصة. فإذا امتنعنا عن بذل مثل هذه التضحيات، ارتكبنا خطأً بإخفاقنا في الاستجابة لتوقع طبيعي مشروع، ولم نعد جديرين باسم الأصدقاء الحقيقيين.

عقوبة النذالة والجبن

وقد انعكس التحول الاشتراكي العالمي على التشريع، فاتجهت بعض القوانين إلى تأثيم الامتناع عن نجدة الإنسان لأخيه الإنسان، في ظروف يتسم فيها امتناعه عن معونته بطابع النذالة والجبن.

ومن ذلك أن عدّل الشارع الفرنسي في سنتي ١٩٤٥ و١٩٥٤ بعض نصوص قانون العقوبات؛ فصار يعاقب بالحبس لغاية خمس سنين، وبغرامة إلى ١٥ ألف فرنك، الممتنع عن مساعدة شخص في خطر، متى كان في وسعه نجدته دون خطر عليه أو على سواه؛ سواء بتدخله الشخصي، أو مستعينًا بغيره.

وقد دانت إحدى محاكم الاستئناف رجلاً امتنع عن مدّ إسقالة كانت في متناول يده، إلى زوج ابنته المشرف على الغرق.

كما قضت محكمة النقض الجنائي بأن من واجب المقيمين مع المريض أن يدفعوا عنه عادية المرض باستدعاء الطبيب في الوقت المناسب؛ فإن تراخوا في طلبه حتى لم يعد تدخله مجديًا، حقت عليهم مسؤولية الامتناع عن مساعدة المريض.

كذلك عوقبت امرأة امتنعت عن إنقاذ طفل حديث العهد بالولادة، أخفته أمه في الحديقة معرضًا لبرد الشتاء القارس، قاصدة التخلص منه، لأنها حملت به سفاحًا. وكانت المرأة الممتنعة، جدة الطفل لأمه.

كما دان القضاء رجلاً تناهت إلى سمعه صرخات وليد ألقي به في وعاء القمامة؛ فامتنع عن إنقاذه مكتفيًا بتكليف خليلته باستدعاء أم الطفل للعناية بأمره.

وعوقب سائق سيارة، امتنع عن نقل جريحين إلى مستشفى قريب، مكتفيًا بإبلاغ أحد رجال الشرطة.

وقد أوضح الحكمان أن القانون وإن كان قد فرض أن يقدم الشخص المساعدة بنفسه، أو عن طريق الاستعانة بغيره؛ فإن هذا لا يعني حريته في الاختيار، بل عليه استخدام الوسيلة التي تقتضيها الضرورة، ولو استلزم الأمر الجمع بين الوسيلتين. وإن الأصل أن يقدم المساعدة بعمل شخصي، ولا يستعين بغيره إلا استثناء، إذا استهدف لخطر جسيم، أو حيث لا تجدي المساعدة إلا بمعونة أهل الذكر.

كما يعاقب الشارع الفرنسي بالحبس إلى خمس سنوات، وبغرامة تصل إلى مليون ونصف مليون فرنك، كل من كان في مقدوره، بغير تعريض نفسه أو غيره للخطر، أن يمنع بفعله الفوري جناية أو جنحة تتعلق بسلامة الأشخاص؛ أو أحجم عن ذلك باختياره.

وقد عوقب والد امتنع عن التدخل لكف ولده عن الإقدام على إحراق مخزن جاره؛ مع علمه بنيات ابنه الإجرامية.

كما حكم على امرأة رأت زوجها مسافرًا في نفس السيارة التي يقودها خليلها، وكانت تعلم باتجاه نيته إلى قتل زوجها، وبأن جريمة القتل وشيكة الوقوع؛ ثم امتنعت عن التدخل لوقفها.

كذلك دينت خليلة كان عشيقها قد أنبأها باعتزامه قتل زوجته في الليلة التالية، فلم تنبه الزوجة على الخطر الذي يتهددها؛ وقررت المحكمة أن مجرد صدور أقوال أو فعال تحمل شخصًا على الاعتقاد لأسباب جدية بأن ثمة جريمة ما سوف ترتكب، من شأنه أن يفرض عليه واجب التدخل لمنع وقوع الجريمة.

المبحث الثاني

حدود الالتزام الخلقي

«أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا: إن كان مظلومًا فخذ له بحقه، وإن كان ظالمًا فخذ له من نفسه»—«حديث شريف»

المحاباة اليسيرة

تحدث «ثيوفراستس» الذي خلف «أرسطو» على رأس «الليسيه» عن مدى التزام الشخص أحيانًا بأن يساعد صديقًا ضدّ العدالة التامة. وهو يرى أنه وإن كانت الاستقامة أثمن من حيث النوع من المنفعة، ولكن منفعة كبرى لصديق، قد تعوض في بعض المناسبات انحرافًا يسيرًا عن جادة الاستقامة. كما أن الذهب وإن فاقت قيمته كثيرًا قيمة البرونز؛ إلا أن وزنًا كبيرًا من برونز، قد يكون أعلى قيمة من شريحة رقيقة من ذهب.

التزمت مع الفقراء والتسامح مع الوجهاء

يقول «كونفيوشيوس»: إن المرء حين يقطع لأسباب واهية صداقته بالفقراء والمساكين، مع أنه لا يجانب الأغنياء والوجهاء إلا لأسباب قوية، فإن محبته للجدارة لا يمكن أن تكون عظيمة، كما أن كراهته للشر ليست محسوسة. ومع أن الآخرين قد يقولون إنه غير نفعي، فإني أنا لا أصدقهم.

الصديق لا يشهد ضدّ صديقه

وقد رُوي عن دوق «شيح» قوله في محادثة له مع «كونفيوشيوس»: إن بين جيرانه أشخاصًا بلغ من استقامتهم أن الوالد إذا سرق خروفًا شهد عليه ولده.

فردّ عليه بأن الأشخاص المستقيمين من جيراني يختلفون، فإن الوالد يحتفظ بسرية الأمر دون ولده، ويصنع الولد مثل هذا تلقاء أبيه؛ إنهم في طريقهم إلى الاستقامة.

ولعل المقصود هو إعطاء فكرة أسمى عن قداسة العلاقات الوثيقة، وأنه ليس من اللائق أن يشي الولد بأبيه، مهما يكن السبب. والقانون المصري يعفي الولد من الشهادة ضد أبيه.

لا مشاركة للصديق في نزواته

يستنكر «شيشرون» مساعدة الصديق والتمشي معه في نزواته المخالفة للقانون، أو في أي عمل غير مشرف أو غير منصف. وهو يتساءل عن الحد المعقول لامتداد حقوق الصداقة: أتفرض الصداقة على الأصدقاء الانضمام إلى صديقهم في محاربة وطنه، أو في اغتصاب سلطة السيادة من أصحابها الشرعيين.

وضرب مثلاً «تيبريوس جراشوس» وكيف أن أحدًا من أصدقائه لم ينضم إليه في الفتنة التي أثارها ما عدا واحدًا هو «بلوسيوس» الذي تقدم بعد إخماد الثورة يلتمس العفو عنه بمقولة إنه أحلّ «جراشوس» مكانة من التقدير العالي، وأولاه من وجدانه ما جعله يعتقد أن من واجبه أن يتمشى معه في أي إجراء يقترحه. ولما سئل: هبه كان قد طلب إليك أن تحرق «الكابيتول» أفكنت تحرقه؟ قال: إني على يقين من أنه ما كان ليطلب شيئًا كهذا.

ولكن فلنفرض أنه طلبه فما عساك كنت فاعلاً؟ قال: في هذه الحالة ما كان لي مناص من تلبية طلبته.

لا صداقة تسوغ الإجرام

ومن رأيه أنه لا درجة من الصداقة يمكن أن تسوّغ ارتكاب أي عمل إجرامي أو تحبيذه، لأن الصداقة تقوم على أساس الفضيلة، ولا يمكن أن تبقى بعد هدم أساسها، وأن الصديق الفاضل لن يقترح أبدًا على صديقه أمرًا يتعارض مع قوانين الشرف. وأنه إن فعل وجب أن يقابل عرضه بالرفض؛ لأن الزعم بأن استجابتنا لأي انحراف عن الصراط المستقيم إنما كان بدافع من حرارة تحمسنا لصديقنا، هو ذريعة فاضحة غير مقبولة لتسويغ أي تصرف إجرامي، ولا سيما فيما يمس سلامة الدولة ومصلحتها.

كذلك يجب أن لا يتقيد حسنو القصد الراغبون في تمكين دستور بلدهم، بالمبادئ المضادة التي يعتنقها أصدقاؤهم، بحيث يؤيدونهم في محاولاتهم الضارة بالمجتمع.

الخروج اليسير عن الجادة

ولم يسعه مع ذلك إلا تسويغ التحول اليسير عن الجادة الذي لا يؤثر في أخلاقنا تأثيرًا جوهريًّا، وذلك إذا أحدق الخطر بحياة الصديق أو حتى بسمعته، وهو يحسب هذا الخروج أعظم امتيازات الصداقة قاطبة.

قاض ناقص الدين!

ومن الطرائف أن «خالد بن عبد الله أبي بكرة» وُلِّيَ قضاء «البصرة» فجعل يحابي، فقيل له في ذلك؛ فقال: وما خير رجل لا يقطع لأخيه قطعة من دينه!

اضنن بدينك وعرضك

أما «ابن المقفع» فيقول بحق: ابذل لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك رفدك ومحضرك، وللعامة بشرك وتحننك، ولعدوك عدلك، واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد.

العدالة صارمة تتقلّد سيفًا

يقول «ألكساندر شاند» في «أسس الأخلاق» يحدونا دائمًا حب الأفراد إلى مجانبة العدالة؛ لأنه لما كان حبنا يتعلق بهم وحدهم، فإن مطالبهم ومصالحهم إذا تنازعت مع مطالب الآخرين ومصالحهم ممن لا نحبهم، حتى وإن كان التزامنا نحو كليهما واحدًا، فإنا نجنح إلى التحيز، فنحب واحدًا أكثر من الآخرين، أو نحب نفسنا فوق الجميع.

ويغلب أن يكون الرجال الجفاة أدنى إلى العدالة من النساء ذوي القلوب المحبة؛ لأن وجه العدالة صارم غير حنون، وهي تمتشق سيفًا في يدها.

«دانتي» يعزل صديقه

اختير «دانتي» لفترة قصيرة لشغل أحد المناصب القضائية، وقد بلغ من فرط حرصه على إقرار السلام في «فلورنسا» أن نحَّى فيمن طردهم من قادة الشُّعب المشاغبة، صديقه الحميم «جويدو كافلكانتي».

يهدد بالاستقالة إن عزل صديقه

قص علينا صديقنا الوزير السابق، أن جدول أعمال الجلسة الأولى تضمن اقتراحًا بإحالة وكيل إحدى الوزارات إلى المعاش. فبادر الوزير بالاتصال برئيس الوزارة في داره، وكان الرئيس معروفًا بالعنجهية، فاستنكر من وزيره الوغول في شؤون زميل له (وكان زوج كريمة رئيس الوزراء) رأى أن المصلحة العامة تقتضي عزل وكيله. ولكن الوزير الجديد هدد بالاستقالة قائلاً إنه لا يمكن أن يواجه الناس لو أنه استمر في عمله يومًا واحدًا بعد صدور قرار من مجلس هو أحد أعضائه، بعزل موظف من أعز أصدقائه. وتراجع الرئيس فنقل الوكيل إلى وزارة أخرى.

الصداقة لا تسوِّغ إصدار قرار مغرض

قال «واشنجتون» لـ «توماس جيفرسون»: إنه لا دافع من مصلحة أو رابطة دم، أو صداقة، أو كراهة؛ يمكن أن تغريه بإصدار قرار مشوب بالغرض.

تنازع واجبات الصداقة والمصلحة العامة

يقول «فاجيه» في كتابه «مطالعات في الكتب الجميلة القديمة» إن سيرة الصديقين «نيسوس» و«يورويول»: التي سجلها «فرجيل» في قصة «أنييد»، لم يقصد بها تعليم قرائه كيف ينفذون مهمة عسكرية، وما يجب عليهم تحاشيه من أخطاء. إنما كتبها ليبرز مثلاً ساحرًا للصداقة الأخوية بين زملاء السلاح حين تتنازعهم الواجبات: فواجب «نيسوس» كصديق، يقضي بأن يرتد على عقبيه باحثًا عن «يوريول»؛ وواجبه كجندي، يملي عليه أن يستطرد في طريقه، لأنه لما كان قد أفلت من العدو بمصادفة غير متوقعة، فإن عليه

أن يحتفظ لمواطنيه بذاته كمنقذ وسند نفيس، وأن يمضي قدمًا في أداء مهمته؛ إذ تتطلب المصلحة العامة أن يصل شخص ما إلى «إينيه»؛ ألا يجب أن تتغلب هذه المصلحة العامة على كل شيء؟

لم يفكر «نيسوس» لحظة. بل انقاد لشعوره البدائي الغرزي، وأطاع العاطفة الأولى التي لا يتسع وقتها للتساؤل هل كان ثمة غيرها، أو أن هناك واجبًا يناقضها. إن رومانيًّا من عصر الجنرال «رجيولاس» الذي مات سنة ٢٥٠ قبل الميلاد، كان بغير شك يترك «يوريول» في الغابة، ويعدو فورًا متجهًا إلى «إينيه». وإن رومانيًّا من عصر «فرجيل»، إذ يقرأ الحادث الذي نرويه، لا يفوته أن يقول: إننا نحن نتصرف على نحو آخر؛ ولكنه شيء طبيعي أن يسلك أسلافنا الأقدمون كما صور «فرجيل» سلوكهم! ولعل بعضنا يأتم حتى اليوم في حمو حنانه بـ «نيسوس» وما كان أحد لينتقص من قدره لهذا السبب.

ويعود إذن «نيسوس» أدراجه موغلاً في شعاب الغاب مارًّا في سكون بالعسس الذين كان قد اجتازهم. إنه يسمع خفق سنابك الخيل وقعقعة السلاح وإشارات المطاردين؛ ولا يلبث أن تقرع أذنيه صيحة عالية، فيرى «يوريول» أسيرًا سجنه العدو رغم مقاومته الشديدة. ويصوب «نيسوس» رمحًا يخترم ظهر «سالمون» ويسدد سهمًا ثانيًا يصيب «فاجوس».

حرية الرأي مكفولة

تكفل الصداقة حرية الرأي، فالصديق لا يحجر على عقل صديقه بل يترك له سلوك الطريق الذي يرضي ضميره؛ فإذا تعرض لغضب أصحاب الحكم أو وقع تحت طائلة القانون، لم يقطع صلته به أو يتنكر له، بل يسارع إلى نجدته ولو استهدف للخطر المحدق.

«كلفن» يلوذ ببيت صديقه

حين بدا للسلطات أن رئيس جامعة باريس قد لوثه اعتناق التعاليم الألمانية الجديدة، اتخذت الإجراءات لتطهير الجامعة من كل «حاملي الأفكار».

ولما كان قد قيل عن «كلفن» إنه زود الرئيس بالمادة اللازمة لبعض خطبه التي كانت مثار الاعتراض الأكبر؛ فقد وضع اسمه في مقدمة المشبوهين، وفتشت داره وصودرت أوراقه، واستصدر أمرًا بالقبض عليه، ولكن «كلفن» كان قد سبق فاختفى في رحاب صديق.

سجين «الباستيل» الهارب وصديقتاه

كان هذا في القرن السادس عشر؛ وقد رأينا في «صداقة الذكور بالإناث» كيف أن صديقتي «لاتيد» سجين «الباستيل» الهارب، قد خبأتاه في شقتهما في القرن الثامن عشر.

طريد الإنجليز في بيت صديقه

وفي القرن العشرين إبان ثورة ١٩١٩، تزعم «زفتى» فتى مخش أعلن استقلالها، فلما استتب الأمر للإنجليز طاردوه ليقضوا بإعدامه، فلاذ ببيت صديقه «فريد أبو حديد» فآواه مستهدفًا لخطر الموت، في فترة من أحلك ساعات التاريخ المصري.

التزامات الصداقة عند القتلة واللصوص

وقد رأينا في «صداقة الأشرار» أن «هارفي لوجان» قطع قضبان نافذته بمنشار زوده به أصحابه، وانحشر في فتحة صغيرة خرج منها، فركب حصانًا تركوه على مقربة من السجن، وانضم لرفاقه قافلاً إلى مخبأه.

وفي معركة مع الشرطة سقط أحد الرفاق جريحًا، ولكن الرفيقين الآخرين عوضًا عن أن يلوذا بالفرار تمسكا به وحاولا رفعه إلى جواده. فأمرهما بأن يغنما النجاة، وأطاع الاثنان أمره كارهين.

حين ينأى الصديق عن الفضيلة

الأصل أن الفضيلة أساس الصداقة، فإذا تنكب أحد الصديقين سبيلها، وجانب طريقها، فقد تقوّض أساس الصداقة، وفقدت ركن انعقادها.

ومن هذا الرأي «أبو ذرّ»، فهو يقول: إذا انقلب أخوك عما كان عليه، فأبغضه من حيث أحببته، فإن ذلك من مقتضى الحب في الله، والبغض في الله.

أما «أبو الدرداء» فقال: إذا تغير أخوك ومال عما كان عليه، فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى.

وقال «إبراهيم النخعي»: لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب، بذنبه؛ فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غدًا.

يحمي غيبة أخيه الضال

ويقول «الغزالي»: وفي حديث «عمر» وقد سأل زائره عن أخ كان آخاه فخرج إلى الشام: قال: ما فعل أخي. قال: ذلك أخو الشيطان. قال مه! قال: إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر؛ قال: إذا أردت الخروج فآذنّي؛ فلما خرج كتب إلى أخيه يقول: (بسم الله الرحمن

الرحيم، ﴿حمٓ . تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ . غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ «قرآن كريم». وعاتبه تحت ذلك وعزله. فلما قرأ الكتاب بكى.

يصوم أربعين يومًا ليرجع صاحبه عن هواه

وحكى أن أخوين ابتلي أحدهما بهوى، فأظهر عليه أخاه وقال: إني قد اعتللت، فإن شئت أن لا تقعد على صحبتي لك، فافعل؛ فقال ما كنت لأحلّ عقد أخوّتك لأجل خطيئتك أبدًا؛ ثم عقد أخوة بينه وبين الله أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافي الله أخاه من هواه. فطوى أربعين يومًا حتى زال الهوى عن قلب أخيه بعد الأربعين فأخبره بذلك؛ فأكل وشرب بعد أن كاد يتلف هزالاً وضرًّا.

يقيل عثرة أخيه

وقيل إن أخوين عابدين كانا في جبل نزل أحدهما ليشتري من المصر لحمًا بدرهم، فرأى بغيًّا عند اللحّام ثم أقام عندها ثلاثًا واستحيا أن يرجع إلى أخيه خجلاً من جنايته. فافتقده أخوه واهتم بشأنه ونزل إلى المدينة ولم يزل يسأل عنه حتى دل عليه، فدخل إليه وهو جالس معها، فاعتنقه وجعل يقبله ويلتزمه، وأنكر الآخر أنه يعرفه قط لفرط استحيائه منه. فقال: قم يا أخي فقد علمت شأنك وقصتك وما كنت قط أحب إليّ ولا أعزّ من ساعتك هذه. فلما رأى أن ذلك لم يسقطه من عينه قام فانصرف معه.

فقر الدين أشد من فقر المال

ويقول «الغزالي»: عليك بالتلطف في نصحه بما يقوم أوده ويجمع شمله، ويعيد إلى الصلاح والورع حاله؛ فهذه طريقة قوم، وهي ألطف وأفقه من طريقة «أبي ذر»: أما كونه

ألطف فلما فيه من الرفق والاستمالة والتعطف المفضي إلى الرجوع والتوبة ولاستمرار الحياء عند دوام الصحبة. أما كونه أفقه: فمن حيث إن الأخوّة عقد ينزل منزلة القرابة، فإذا انعقدت تأكد الحق ووجب الوفاء بموجب العقد، ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره؛ وفقر الدين أشد من فقر المال، وقد أصابته جائحة وألمت به آفة افتقر بسببها في دينه، فينبغي أن يراقب ويراعي ولا يهمل، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الواقعة التي ألمت به. فالأخوة عدة للنائبات وحوادث الزمان، وهذا من أشد النوائب. فالفاجر إذا صحب تقيًا وهو ينظر إلى خوفه ومداومته فسيرجع على قرب ويستحي من الإصرار؛ بل الكسلان يصحب الحريص في العمل فيحرص حياءً منه. والقريب لا يجوز أن يهجر بالمعصية، ولذلك قال الله لنبيه في عشيرته: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ولم يقل إني بريء منكم، مراعاة لحرمة القرابة ولحمة النسب.

محاباة الأصدقاء

«آدمز» **يعين صديقه رئيسًا للمحكمة العليا:** لم يشأ «جون آدمز» أن يترك رياسة الجمهورية قبل أن يبرّ بصديقه «جون مارشال» فعينه رئيسًا للمحكمة العليا، قبل انتهاء رياسته للجمهورية بأسابيع قليلة.

«**جونسون» يحابي صديقيه:** أحدث تعيين «جونسون» لأهم نصائحه «فورتاس»، رد فعل أثار المعارضة أكثر مما هاجها تعيين أي قاضٍ قبله؛ لأن تعيينه لم يكن لما صنعه، بل بسبب أنه صديق حميم لرئيس الجمهورية.

وقد زاد من حماسة المعارضة أن «جونسون» عيّن صديقه وابن ولايته، «بري» في المكان الذي خلا بترقية «فورتاس» إلى منصب رئيس المحكمة.

ومن النقاد من اعتبر هذا التعيين وفاءً بدين صديق قديم، ليست مؤهلاته القضائية في مستوى محكمة الأمة العليا: ذلك أن «جونسون» لما دخل مجلس الشيوخ في سنة ١٩٤٨ خلفه «بري» في مجلس النواب، ولما أصيب بنوبة قلبية شديدة في سنة ١٩٥٥، أكثر «بري» التردداد عليه ليلاعبه «الدومينو»، وإن الرئيس ليذكر له بعد عشرة أعوام أنه حرص دائمًا على تمكينه من أن يغلبه.

ولما عرض عليه «كيندي» نيابة رئيس الجمهورية، كان «بري» أول من التمس «جونسون» نصيحته من أصدقائه. وبعد ذلك بثلاث سنين وقف بجانب «جونسون» في المستشفى حين أعلنت وفاة «كيندي».

ولاء القضاة لمن عينوهم

خامر وهم كاذب معظم رؤساء الولايات المتحدة، بأن القاضي الذي انتقاه الرئيس بيده، يقضي بالطريقة «الصحيحة» حين يصل إلى المحكمة. ولكن القضاة الذين اختاروهم لم يلبثوا أن خيبوا أملهم: ففي سنة ١٩٠٢ حكم القاضي الجديد «هولمز» ضد الحكومة، مما أثار حفيظة «تيودور روزفلت» وحمله على أن يهدر محنقًا فيقول: إن «هولمز» ضعيف الشخصية، فقاره كفقار موزة.

وبعد أن عين «ولسون» في سنة ١٩١٤ «ماك رينولدز» الذي حسبه حرًّا، فإن محسوبه لم يبرح أن صار أشد محافظة من أي عضو بالمحكمة في كل تاريخها.

أفيتغير كل امرئ إذ اتشح برداء القضاء؟ إذا كانت فيه أقل صلاحية، فإنه يتغير. كما تحول «فيلكس فرانكفورتر» من اليسار إلى الوسط إبان الثلاثة والعشرين عامًا التي قضاها فوق المنصة.

وقد نعى «هارى ترومان» بلسان كل الرؤساء، أنه كلما أجلست امرءًا على كرسي المحكمة العليا، انقطع عن أن يكون لك صديقًا؛ ما في ذلك عندي من ريب.

الفصل الثاني
العدالة والمساواة

الصراع بين الصداقة والعدالة

مارس الناس الصداقة قبل أن يعرفوا العدالة، لأن الصداقة تأصلت في المجتمع قبل أن توجد العدالة، أو يعرف القانون. والصداقة في صراع دائم مع العدالة، وهي تعوق نشوءها؛ ومع ذلك فإن تعاملنا مع أصدقائنا، يدربنا على السلوك المثالي مع سائر الناس، وما العدالة في الحقيقة إلا صداقة عامة.

الصداقة تتمخض عن العدالة

والصداقة كما يقول «أرسطو» وإن كانت تنمو خارج العدالة وضد قوانينها؛ فإنها تتمخض عن العدالة وتتمشى معها، متجهة نحو إيجاد علاقة مساواة بين طرفيها، فهي والعدالة من طبيعة واحدة، تنموان معًا وهما مترابطتان، ونسبيّتان: لأن عدم التزام العدالة مع شخص يزيد من خطورته أن يكون من الأحباب. والصداقة هي في الحقيقة أسمى صور العدالة؛ فهي ليست متحررة من العدالة ولكنها متفوقة عليها، وهي تجاوزها وتستأنفها وتكملها.

وهو يرى أن الصداقة والعدالة يتجه كلاهما نحو إقامة المساواة، ولكن المساواة التي تقيمها العدالة أكثر شمولاً؛ ومما هو جدير بالذكر أن المساواة التي تأخذ العدالة في اعتبارها، ليست هي التي تتطلبها الصداقة الحقيقية.

المساواة في الطبيعة

ومساواة الأصدقاء عند «أرسطو» هي أولاً مساواة في الطبيعة: فلا يمكن قيام صداقة بين كائنين مختلفين في طبيعتهما.

المساواة في الحالة

وهي ثانيًا مساواة في الحالة؛ وإن كان عدم المساواة في الحالة لا يمنع الصداقة إلا إذا جاوز الحدّ، وصارت المسافة بعيدة بين الصديقين، كأن يصير أحدهما إلهًا!

معنى المساواة

وحين نقول إن الصديقين يجب أن يكونا متساويين، فنحن لا نعني المساواة من حيث الثروة والمركز والسن، لأن هذه الظروف الخارجية العرضية لا تؤثر في عواطف الأصدقاء إلا تأثيرًا غير مباشر؛ بل نعني السرور الذي يتذوقانه معًا، والتآلف الذي يقرنهما.

المساواة في المحبة

ومن رأي «أرسطو» أن المساواة في المحبة، وليس في الحالة، هي مرجع الصداقة؛ بأن يكون الوجدان المتبادل بين الجانبين واحدًا أو متعادلاً. وهو يكون واحدًا في الصداقة بين النظراء؛ ومتعادلاً في الصداقة بين المتفوق والأدنى: ذلك بأن المتفوق يجب أن يحَب

فوق ما يحب، وبقدر ما يتناسب مع استحقاقه، وبذلك تتحقق المساواة الحقيقية، وتصير الصداقة ممكنة بين غير المتساوين، لأن التفاوت في درجة المحبة يعيد المساواة إلى نصابها.

المساواة قانون الصداقة

وهو يرى أن كل صداقة هي مساواة، والمساواة قانون الصداقة وأساسها، والمساواة التي يعتدّ بها بين الأصدقاء هي التي تتطلبها العدالة، أي مساواة الأعباء والالتزامات، ومساواة الحقوق؛ وما تتطلبه الصداقة قبل كل شيء، هو أن يتعامل الأصدقاء وفقًا للعدالة حين يتكافأ الصديقان.

لكلٍّ بقدر ما يستحق

والمساواة في المعاملة والاحترام ثانوية في الواقع، والجوهري أن نلتزم دائمًا هذه القاعدة: لكلٍّ من الصديقين بقدر ما يستحق. إن غير المتساوين في الظاهر يتفقان ضمنًا على أن يقبل كلٌّ صاحبه على علاته، متجاوزًا عما عساه أن يكون بينهما من تفاوت في درجة الاستحقاق.

الأخذ بلا عطاء

قال «حماد عجرد»:

ليتَ شعري أي حكمٍ ... قد أراكم تحكمونا

أن تكونوا غيرَ معطـ ... ـين وأنتم تأخذونا

التناسب في الأخذ والعطاء

من الملائم أن يتناسب نصيب الصديقين من الأخذ والعطاء، فإن الفعل وردّ الفعل ضروريان لحفظ التوازن، وللسموّ بالصداقة إلى مستواها الأعلى. فإذا أعطى صاحبي أخذت، ولكن يجب أن لا أتركه يضطلع بكل العطاء؛ إنه ينصت عندما أتكلم، ولكن يجب أن لا أنفرد بالكلام؛ ونحن نصل بهذا التبادل المتعادل السلس إلى الحالة التي لا يكون معها شيء مضنونًا به بيننا.

الإيثار قيام بحق الله في الصحبة

وإن لنا في إيثار الصديق أسوة حسنة بالنبي ﷺ فإنه دخل غيضة فاجتنى سواكين أحدهما معوّج والآخر مستقيم، فدفع المستقيم إلى صاحبه، فقال: يا رسول الله كنت والله أحق بالمستقيم مني. فقال ﷺ: ما من صاحب يصحب صاحبًا ولو ساعة من النهار إلا سئل عن صحبته هل أقام فيها حق الله أم أضاعه؛ فأشار بهذا إلى أن الإيثار هو القيام بحق الله في الصحبة.

أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه

خرج الرسول ﷺ إلى بئر يغتسل عندها فأمسك «حذيفة» الثوب، وقام يستره حتى اغتسل. ثم جلس «حذيفة» ليغتسل، فتناول النبي ﷺ الثوب وقام يستره عن الناس، فأبى «حذيفة» وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا تفعل، فأبى إلا أن يستره بالثوب حتى اغتسل. وقال: ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحبّهما إلى الله أرفقهما بصاحبه.

يقدم العدالة على الصداقة

حسب البعض أن «الشافعي» لا بد من أن يفوض أمر حلقته إلى «محمد بن عبد الحكم»، وكان أقرب الناس إليه. وقد سأله تلاميذه، إبان علّته التي مات فيها: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟ فاستشرف له «محمد بن عبد الحكم» وهو عند رأسه ليومئ إليه؛ فقال «الشافعي»: سبحان الله! أيشك في هذا أحد؟ «أبو يعقوب البويطي».

وكان «البويطي» أفضل وأقرب إلى الزهد والورع، فنصح «الشافعي» لله وللمسلمين، وترك المداهنة، ولم يؤثر رضا صديقه على رضا الله.

الإنصاف والمساواة في الحقوق

وقال «جرير»:

وإني لأستحيي أخي أَنْ أَرَى له ... عليَّ مِنَ الحقِّ الذي لا يرى لِيا

وإذا تكون كريهة أُدعى لها

وقال آخر:

هل في القضية أن إذا استغنيتمو ... وأمنتمو، فأنا البعيد الأجنبُ

وإذا الشدائدُ بالشدائد مرّةً ... أشجينكم فأنا المحَبّ الأقرب

عجبًا لِتلك قضيةً، وإقامتي ... فيكم على تلك القضية أعجب

ولجُندب سهل البلاد وعذبها ... ولي الملاح وحزنهن المجدب

وإذا تكون كريهة أدعى لها ... وإذا يحاس الحيس يدعى جُندب

ضيقو الذرع بالإنصاف

قال «أبو العتاهية»:

ولـسـت الـدهـر متّسمًا بفضل إذا مـا ضقت بـالإنـصـاف ذرعًـا

تعرف له حقه ويجهل حقك

إذا كنت تـأتـي المـرء تعرف حقه ويجهل منك الحق فالترك أجمل

وفي العيس منجاة وفي الهجر راحة وفي الأرض عمق لا يؤاتيك مرحل

الفصل الثالث
الثقة والصراحة

المبحث الأَوَّل

واجب الثقة بالصديق

«حين تولد الصداقة يجب أن نكون واثقين؛

وقبل أن تولد يجب أن نكون متحرزين»—«ثيوافراست»

ثقة بغير تحفظ

الثقة وليدة المحبة، وما دامت الصداقة قد انعقدت فلابد أن تتمخض عن ثقة بالصديق الذي أعطيناه نفسنا.

ونحن عادة لا نولي ثقتنا فجاءة، أو نبذلها مرة واحدة، بل نعطيها بعد اقتناعنا بصلاحية من فكّرنا في مصادقته، واطمئناننا إلى حسن صحبته، وصفاء مودته، وتمام مروءته.

ثقة متحفظة

ومع ذلك فإن ثمة من ينهى عن إيلاء الثقة التامة، ويوصي بالتزام الحذر، خشية أن ينقلب الصديق عدوًّا؛ فقد قال «بياس» أحد حكماء اليونان السبعة: يجب أن نحب أصدقاءنا كما لو كنا سنضطر يومًا إلى كراهتهم.

الثقة تستدعي الثقة

ولم تصادف مقولة «بياس» قبولاً لدى القدامى، فقد رآها «شيشرون» غير جديرة بحكيم؛ وهو يدافع عن وجهة نظر مبناها الجسارة والجود، ويقول إن الثقة تستدعي الثقة، وإنه ليس يكفي أن نثق بمن جربنا صداقتهم، بل في وسعنا أن نمنح ثقتنا لمن لم نتأكد بعد من سلامة طويتهم، وإننا إنما نكسب صداقة من نظهر لهم الصداقة، فالاحتكام يصنع الصداقة.

عنصر المجازفة في الصداقة

ولكن القدامى لم يحبذوا الثقة العمياء وإن كانوا قد كرّموا الثقة وحبذوها: مع تسليمهم بما تنطوي عليه الصداقة من عنصر المجازفة مهما نتمسك بأسباب الحصافة؛ ونحن نتقبل مخاطر الصداقة ونرتضيها مقدمًا، وإن جاهدنا في سبيل تخفيفها. والصداقة تزيد قيمتها كلما ضؤل ضمانها وخلت من العوض؛ لأن ضؤولة ضمان الصداقة وإن كان من مآخذها، فهو أيضًا من مميزاتها، إذ يتيح للأصدقاء فرصة لممارسة الشجاعة والصراحة وحسن النية.

الثقة ثمرة الصداقة

والسؤال الذي ما برح الناس يتوارثونه: أنتبع في الصداقة وَهْيَ الحصافة، أم وثبة القلب؟ والحقيقة أن الحصافة تسبق الصداقة، حتى إذا استوت الصداقة على قاعدة راسخة، توارت خلفها؛ وما الثقة إلا حصافة مرتوية، تستمتع في سلام بنجاح مسعاها، فهي وسيلة غايتها تحقيق الصداقة، حتى إذا تحققت غايتها لم تعد من بعد تلتمس ضمانًا؛ وتكون الصداقة، بعد قيام الدليل على استحقاق من اصطفيناه، بمثابة الضوء الباهر يعشي بصرنا، فنستسلم لصديقنا واثقين من أنه لا خوف علينا من فتوره أو خيانته.

الثقة تبدأ في العقل

تبدأ الثقة في العقل، وليس في الإرادة، ولكن إذا حكم العقل، فلا معقب لحكمه؛ وبعد أن قام الدليل مرة، فإنه يظل قائمًا: تسلّم الإرادة بحكم العقل، فتحل العادة محل التحرز.

افتح قلبك لصديقك

ويقول «سنيكا» إذا اتخذت صديقًا ولم تثق به ثقتك بنفسك، فقد خدعته كثيرًا، وفاتك تذوق الصداقة الحقيقية بكامل قوتها. تدبر طويلاً قبل أن تتخذ صديقًا؛ فإذا اتخذته فافتح له باب قلبك، ولتحدثه بكل الصداقة التي تحدث بها نفسك.

والمثل عند «سنيكا» أن لا يكون لدى المرء ما يحجبه حتى عن عدوه؛ فما بالك بالصديق الذي يجب أن نكون بحضرته كما لو كنا وحدنا، نصبّ في نفسه واثقين أسرارنا كافة، ويكون إشفاقنا من معرفته بها، دون خشيتنا عليها من أنفسنا.

الثقة بالصديق تكريم للفضيلة

يضاف إلى هذا أن الصداقة مؤسسة على الفضيلة، والصداقة بين الاخيار تنطوي على الوئام التام، فالثقة بأصدقائنا تكريم للفضيلة، وهي بعد شرط الصداقة، وصفتها المميزة، وسحرها الخاص.

ولابد أن تكون طيبًا لتوحي بالثقة، ولتعتقد في طيبة أصدقائك. كما لابد أن تكون واثقًا بالله وبنفسك، ليمكنك أن تثق بغيرك.

إذا ساء فعلُ المرءِ ساءت ظنونُه وصدّق ما يعتاده من توهمِ
وعادى محبيه بقول عداتِه فأصبح في ليلٍ من الشك مظلمِ

المحبة تولد الثقة

الحب الكامل يطرد الخوف، ولا يستطيع الناس أن يصنعوا شيئًا معًا بغير حد أدنى من الثقة، ولا يمكن أن توجد صداقة جديرة حقًّا، بغير ثقة عميقة قوية.

نبل الناس محجوب عن الظنانين

قد يكتشف سيء الظن كل تفاهات الناس، ولكن نبل الناس محجوب عنه تمامًا. إن سوء الظن يحقق مخاوفه، كما تستدعي الثقة ذات الصفات التي تؤمن بها، وهي وحدها التي تحقق أقصى ما تتوقعه. والثقة بالناس جوهرية للثقة بالله.

ثقة بأخلاق الصديق وبمحبته

ويجب أن تكون الثقة مزدوجة: ثقة في أخلاق صديقنا، وثقة في محبته، والصديق الحق ليس بعد تحت الاختبار، فلا حاجة به لتفسير كل تصرفاته، ونحن نثق به في أخلاقه، وفي محبته، مطمئنين، مستريحين؛ وحيث لا توجد هذه الثقة، فالعلاقة غير مريحة، لأن المخاوف تورث العذاب.

المكاشفة والثقة صنوان

والمكاشفة والثقة تعمّق كلٌّ منها الأخرى، فهما دائمًا معًا، ولابد من إعلان النفس، ليحدث تعارف حقيقي؛ وتتوقف الثقة في الصداقة على مدى تبادل إعلان النفس.

أن تخدع مرة خير من أن تشك دائمًا

بلغ من تطرف البعض في الحض على التحرز من الأصدقاء خشية انقلابهم أعداء، أن قال أحدهم:

احذر عدوك مرة واحذر صديقَك ألف مرة فلربما انقلب الصديق فصار أعلم بالمضرة

والمخاطر موجودة في جميع الأشياء، ورابضة في كل الأماكن؛ فإذا جاوز امرؤ الحد المعقول في الاحتياط كان خليقًا أن يقعد عن الحركة ويتعطل عن الحياة فينطبق عليه قول «المعري»:

حبُّ السلامة يثني عزمَ صاحبه عن المعالي ويغري المرءَ بالكسل
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقًا في الأرضِ أو سلمًا في الجو فاعتزل

ومع ذلك فإن الحذر خليق بأن يؤتى من مأمنه. وإذا لم يكن في وسعنا تحاشي الخطأ، في مكنتنا توقعه، فنراه ممكنًا وإن اعتبرناه غير محتمل؛ والمرء لا يخدع، إذا هو لم يخدع إلا بقدر ما توقع. فإذا ثبت أن ثقتنا في غير موضعها، فليس هذا حتمًا دليلاً على أننا قد خدعنا، فقد سأل «سقراط» «شر بكرات» لما خاصم أخاه «شيفون»: بم تخاطر إذا وثقت من أخيك، فيم تشكك في حسن اتجاهه؟ ألا أظهرت له أنك الأخ الطيب الحنون. إن أخاك إذا رآك تدعوه إلى مباراة في الجود، أبى إلا أن يفوقك في مضمار حسن الأقوال والأفعال.

والثقة هي الوسيلة الحسنى، حتى في حالة الشك، وهي الأسلوب الأولى بالأخيار، والأجدر بالأذكياء والشطار؛ فإن الثقة تُعدي، والذين تثق فيهم يتحرجون عادة من خداعنا؛ أما الشبهات التي في غير موضعها فكثيرًا ما دفعت إلى الخديعة والخيانة.

وإنه لخير لنا أن يخيب رأينا في واحد أو أكثر، من أن نحرم متعة الثقة بأصفيائنا جميعًا، ونقضي حياتنا حذرين متحفظين محرومين من المتعة الكبرى التي لا يستحقها إلا المؤمن المطمئن الواثق.

الإيمان بالصديق قبل تجربته

حين يكون أساس الصداقة ثقة غير مستندة إلى تجربة، كما هو الحال في الصداقات المفاجئة القوية، فإن علاقتنا بالصديق تقوم على قاعدة إيماننا به لا استنادًا إلى تجربة فعلية للصديق في مواقف منوعة، وإلى ملاحظاتنا لأسلوب استجابته.

ومن هذا القبيل ما يقوله «مونتيني» بمناسبة لقائه الأول مع «لابويسي»: لعمرك لا أدري أي عقار قد استولى على كل إرادتي، فأغراها بأن تطرح نفسها وتنساها في نفسه؛

واستحوذ أيضًا على كل إرادته، فصرفها عن نفسها وغمرها في إرادتي، بشره متبادل ورضا متشابه.

كما يقول «إيمرسون»: فلنقارب صديقنا واثقين بجراءة في صدق قلبه، وفي سعة أساسه غير القابل للانقلاب.

المبحث الثاني

الصراحة حق الصديق وواجبه

الصراحة بنت الثقة

كما أن الثقة وليدة المحبة، فإن الصراحة بنت الثقة، فنحن إذا وثقنا في صديقنا فتحنا له باب قلبنا، ولم نحجب عنه خلجات نفسنا، وخوافي خواطرنا، بل نأتمنه على سرنا وجهرنا، وعرضنا، ومالنا، وهو يعاملنا بالمثل: فلا يضيق برأينا وإن آلمه جرحنا، لأن جراح الحبيب تشفي السقام، وناره برد وسلام؛ فهو إنما يتحرى خيرنا ويكرم مزايانا ومواهبنا، قبل أن يرى عيوبنا أو يواجه نقائصنا.

ولما كانت الصراحة التي يظهرها لنا الصديق مستمدة من ثقته بنا، فإننا نسلم له دون سواه بحق ممارستها بغير تحفظ ولا مواربة.

الصراحة أس الفضائل

ومن الفلاسفة من سوّد الصراحة على سائر الفضائل، فقد سئل «ديوجين» عن أجمل ما في الرجال، فأجاب: إنها هي الصراحة. وقد بلغ من استنكار الرواقيين للكذب والملق وكل ما من شأنه مجافاة حرية المرء وكرامته، أن ذهبوا إلى حد القول بأن الصداقة تستبعد المجاملات عوضًا عن أن تجيزها، لأن الصديق لا يشفق من جرح عواطف صديقه، ومصادمة معتقداته؛ وهو لذلك يكون معه أقل تحرجًا في مواجهته بالحقائق المرة، منه مع سواه.

الصراحة كياسة ولباقة

ولكن هذا الرأي المتطرف لم يلقَ قبولاً لدى الأخلاقيين المهذبين، من غير الكلبيين والرواقيين؛ فقال «شيشرون» بأن الصداقة تقوم على الصراحة والولاء وحسن النية، وإن الفرصة كثيرًا ما تتاح لنا لنلوم صديقنا ونحذوه، فإن تمليق الأصدقاء خيانة لهم وإخلال بحقهم؛ أما الصراحة فهي حق للصديق وواجب عليه أن يمارسه بتمييز وبمقدار في شكل ودي طابعه الفطرة السليمة، فلا نفرط في تحذيرهم، ونقف عند حد التلطف في لومهم دون أن نعيب في حقهم؛ فإن الصراحة غير الخشونة.

فن ممارسة الصراحة

وقد تأنق «بلوتارك» في وضع أصول فنّ ممارسة الصراحة، وما يجب أن يكون عليه مزاج كلٍّ من موجّه الكلمات الصريحة، ومستمعها؛ والصريح عنده ليس الجريء على تكدير صفو صاحبه، بل العارف بأسلوب توجيه اللوم الخالي من خَبَث الخشونة والمصادمة، فهو

لا يتمتع بحرية القول، بل يضطلع بواجب يؤديه بأمانة وفن رصين، ورقة جازمة لا تشوبها حوشية أو تحقير ولا سخرية أو سباب أو غضب؛ لأن من له حق لومنا هو وحده الذي لا يكنّ لنا حفائظ شخصية.

هلاّ لنفسك كان ذات التعليم

يــا أيــهــا الــرجــلُ المـعــلـمُ غــيرَه ... هــلاَّ لنفسكَ كــان ذا التعليم

ابـــدأ بنفسك فانهها عــن غيها ... فــإذا انتـهـتْ عنه فـأنـت حكيم

ومع أن من حق الصديق وواجبه، أن يكون صريحًا مع صاحبه؛ فليست الصراحة حقًّا لكل صديق، بل هي مقصورة على الصديق الخليق: الذي يخرج الخشبة من عينه، قبل أن ينزع القذى من عين أخيه؛ وإنه لأمر كريه للغاية أن ينطوي اللوم على شعور الصديق بفضيلته، واعتزازه بتفوقه الخلقي على صديقه.

اختيار الظرف الملائم

والذوق السليم يوحي بإنقاذ صاحبنا المشرف على الغرق، لا لومه على نزول البحر في يوم عاصف، فالصراحة لا تجدي إلا مع الصديق الناجح، لأن نجاحه يخفف من وقعها، بل يحدوه على الإلحاف في طلبها؛ أما الذين يكفّرون عن أخطائهم، فحسبهم ما يحيق بهم من ضيق.

أسلوب المصارحة ومناسبتها

يجب اختيار مناسبة المصارحة، وشكلها الملائم. ويقول «بلوتارك» إن الصراحة على المائدة في سرور الوليمة، تبدو متجهمة أليمة. كذلك مصارحة الشمل جديرة بأن تحرجه، وثمة أيضًا جبن فيمن لا تظهر صراحته إلا تحت تأثير السكر.

تحاشي المصارحة العلنية

ومن سلامة الذوق أن نتحامى مصارحة أصدقائنا أمام الناس، ولو كان الشهود زوجًا أو ولدًا أو تلميذًا؛ فإن علانية المصارحة جارحة للنفس، والنفس الجريحة، حَرية أن تستطرد في الخطأ ولا تنقاد للنصيحة.

أمهله حتى يسترد ثقته بنفسه

فإذا تكاثر اللوم على صديقنا انبرينا للدفاع عنه، وهوّنا الأمر عليه؛ حتى إذا استرد ثقته بنفسه، نبهناه على مجانبة الأخطاء، التي تمكن منه الأعداء؛ وعوضًا عن مقارنته بمن يفوقونه، ذكرنا بسابق أعماله الجميلة، ونوهنا بأن ما يصنعه غير جدير بمثله.

كما يجمل بالمصارح أن يلتمس العذر لصاحبه وأن لا يسرف في تجسيم خطيئته، بل ينصبّ على التخفيف من وطأتها، كأن يعزوها إلى السهو أو عدم التدبر.

الصراحة علاج لا عقاب

والصراحة كالدواء تفقد فاعليتها إذا جرعناها الصديق في كل مناسبة، كما أن خير مسوغ لاستخدامها يكون في محاولة إنقاذ الصديق من الوقوع في المحذور، لا مجرد محاسبته على هنة فرطت منه في حقنا.

الصراحة تؤلم دائمًا

والصراحة تؤلم دائمًا، حتى إن من الكتاب العصريين من يحذِّر قراءه من اللجوء إليها، خشية أن يفقدوا أصحابهم وينفروهم؛ ولكن الصديق الحق يستطيع أن يحسن فن القول لأنه محب، والمحبة تتأنى وتترفق؛ وهو بصراحته إنما يوثق صداقته، ولا خوف عليه من فقدانها.

ناقدون جفاة أفظاظ

وربما انتهز البعض فرصة ما يسمونه الاهتمام الحقيقي بسعادتنا، ليحكوا المرارة في جروحنا؛ والمباهي بصراحته وكراهته للملق لا يكون عادة صريحًا بل فظًّا، لأن الصديق الحقيقي لا يجرح أبدًا بغير ضرورة، ولكنه لا يترك الفرصة تفلت منه بسبب جبنه؛ وقول الحق بمحبة يكاد يجرِّده من الحدّة والغضاضة التي كثيرًا ما ينطوي عليها.

وإن «جورج كاننج» ليستعيذ بالله من هؤلاء فيقول: هبني خصمًا معالنًا ذا رجولة، يناصبني العداء، فإني مستطيع مواجهته بشجاعة وقد أرد ضرباته. رباه أنقذني، أنقذني، أوه أنقذني من الصديق الصريح.

«أكره من يخبرني برذائلي» «تشوسر»

الكشف عن خطئنا أو جهلنا لابد أن يثير امتعاضنا وحفيظتنا إلى حدّ ما، ولذلك فإن الصراحة لا تخلو من خطورة، وسوف نتناول خطورتها في المطلب التالي.

المبحث الثالث

النصيحـــــة

«خير الإخوان والأعوان أقلهم مداهنة في النصيحة»—«كتاب كليلة ودمنة»

صداقات بمنجاة من النقد

ثمة صداقات خالية تمامًا من النقد، فمن الناس من يعتبر صديقه فوق النقد؛ فلا يبصر غير مزاياه، وكأنه قد عمي عن مآخذه. ومثل هذه الصداقة سارة بغير شك، ويغلب أن يكون تأثيرها مجددًا ومنشطًا؛ لأن معظم الناس يحاولون أن يكونوا عند حسن ظن أصدقائهم. وإنه لما ينفعنا أن نعرف أن شخصًا واحدًا على الأقل يرانا في حكم الأبطال، ونشعر بأننا إن خيّبنا ظنه أسأنا إلى أنفسنا، وأورثنا صديقنا ألمًا ممضًّا، وإن هذا ليحدونا دائمًا على مغالبة ضعفنا وأنانيتنا، لتكون أدنى إلى البطولة، وإن عجزنا عن إحراز قصبها.

النصيحة ممارسة للثقة والصراحة

النصيحة ممارسة عملية للثقة، والصراحة: فلولا الثقة المتبادلة لما واجهنا الصديق برأينا؛ ولولا واجب الصراحة ما محضناه نصحنا.

النصيحة أنفس ثمرات الصداقة

النصيحة ثمرة الصداقة الناضجة، وجناها المعلل؛ وهي إما أن تكون مشورة يلتمسها الصديق حلاً لمشاكله، أو رأيًا يتطوع الصديق بإبدائه ليهدي صديقه الصراط المستقيم، ويجنبه مزالق الهوى ومواطن الارتياب ومواقف الصغار، ويسمو بأخلاقه وسلوكه إلى المرتبة التي يحبها له، ويراه لها أهلاً. والصداقة في الواقع جهد مشترك متبادل يبذله الصديقان في سبيل التطهر والسمو بالنفس، والارتفاع فوقها صوب المثل الذي إليه يتطلع كلاهما، وفيه يلتقيان.

سلامة حكم الصديق

يقول «سليمان» الحكيم: أمينة هي جروح المحب، وغاشة قبلات العدو. ويقول «بيكون»: نور نصيحة صديقنا، أنقى من نور ذهننا، لأنه أكثر استقلالاً وتجردًا من العوامل التي تؤثر في سلامة حكمنا.

ترياق ملق المرء لنفسه

ليس هناك ملق أشد فاعلية من ملق المرء لنفسه، ولا ترياق ضد مراءاة الإنسان لنفسه أنجع من حرية الصديق في إبداء نصحه. والصديق الأمين، إذا كان اهتمامه بنا بالغًا، يستطيع تكوين رأي غير منحاز هو خير من رأينا.

النصيحة تعصمنا من الكبرياء والاستهتار

يقول «مكدوجال» إنه لولا نفوذ الوالدين والمعلمين، وما كان يقترن به من لوم وتوبيخ، لتحولت عاطفة التقدير الذاتي فينا إلى كبرياء لا يسلّم بسلطة أعلى، ولا يعرف الخجل، ولا يأبه بالنقد، أو يكترث للتقدير الأدبي: فالنصيحة تضفي على عاطفة التقدير الذاتي صورة احترام الذات، الذي يتسع للتواضع ولا يضيق بالوضع السلبي للنفس، بما فيه من تقبل واستعداد للمحاكاة، يتيح للفرد النامي فرصة الإفادة بالقدوة والانتفاع بالنصيحة واللوم، وبالاستحسان أو الاستهجان الأدبي.

ذكرى الصديق توحي بالنصيحة

كان لـ «فاجيه» صديق اغتاله الموت، فحسب أن جزءًا كبيرًا من ذاته قد انتزع منه، لأنه كان إلى حدٍّ ما بمثابة ملهمه وضميره، وشيطان شعره. وإنه ليتساءل: أيسرّ صاحبي ما أنا بصدد كتابته؟ فإن كان مما يثور له صاحبه، أعاد النظر فيه يلطّفه إلى أن يتجرد من الرغبة الشريرة في إغضابه. وظلت ذاكراه بعد موته تكفل له مجانبة بعض المبالغات، وتعصمه من التورط في كثير من الحماقات.

النصيحة أهم واجبات الصداقة

يقول «شيشرون»: لابد من أن يكون الصديق على استعداد دائم لتقديم نصيحته بحرية تامة، بل بصراحة كاملة إن كانت المناسبة تقتضيها، فإن لنصائح المرشد الأمين سلطانًا وتأثيرًا.

وقد أجمع أهل الذكر بحق، على أن النصيحة المخلصة أهم واجبات الصداقة، كما أنها أنفس مزاياها؛ إذ تقترن عادة بتبعات جسام على مسديها، فهي كالدواء المرّ، تضيق به لهاة متلقيها.

خبرة الصديق ملك لصديقه

إن خبرة الصديق تعتبر ملكًا لصديقه، وهي رصيد مشترك من حقه أن يسحب منه كما يشاء؛ ومهما يكن صاحبه أوسع منه علمًا، فإن له أسلوبًا كريمًا في افتراض أنه ليس دونه، وهو لا يفرض عليه رأيه بل يترك له حرية الاحتفاظ برأيه الخاص. لأن طالب النصيحة كثيرًا ما يعرف مقدمًا ما يريد صنعه، ويظل متمسكًا بما عقد عليه نيته؛ وهو في كل حال صاحب الرأي الأخير، وعليه وحده تبعة القرار الذي يتخذه.

الصديق من صديقه كالمجلس النيابي من الحكومة

والصديقُ الصَّدْقُ كالمجلس النيابي الحقيقي، من حيث حسن اطلاعه بنصح الحكومة ونقدها، ليوقيها الاستطراد في الخطأ، ويردها إلى جادة الصواب؛ مع مزية أخرى هي أن الصديق الذي كان يومًا بمكانة الحكومة من المجلس: يتلقى النصيحة، ويستهدف للنقد؛ لا يلبث أن يتولى في يوم آخر مهمة المجلس من الحكومة: فيوجه بدوره المشورة ويبدي اللوم.

حب النفس وتقبل النصح

عرف «سقراط» أن حب النفس يحمل حتى أحكم الناس على التمسك برأيهم الخاص، فهو لذلك يتحاشى التقنين، وإملاء رأيه على الآخرين؛ وهو يناشد أصحابه أن يجيدوا العمل

وأن يحسنوا التفكير؛ ومع أنه دبلوماسي داهٍ، فإنه قبل كل شيء قلب كبير، يجذب الأرواح ويلهمها بحرارة حديثه الساحر.

ضرورة الاضطلاع بأعباب النصيحة

ومع أن الصراحة تسبب امتعاضًا، يكون في الغالب شديدًا، بحيث إن قليلين أوتوا من الشهامة ما يحدوهم على أداء واجب يعرّض النصير المتحمس لمصاعب ومتاعب فوق ما يستهدف له في ممارسة معظم الواجبات؛ فإن الصداقة بغير صراحة ضئيلة القيمة، لأن نفاسة هذه العلاقة الحميمة، في حماية فضيلتنا ودعمها، وقمع رذائلنا باكتشافها بمجرد ظهورها، والترحيب بالتصدي لها في الوقت المناسب. ولا مفر إذن من المجازفة أحيانًا بالجهر بالحقائق التي لا تسر، قيامًا بواجب الصداقة.

خطر إسداء النصيحة

كتب «صموئيل جونسون» رسالة في «خطر إسداء النصيحة»، أبدى فيها أن الكشف عن خطئنا أو جهلنا، لابد أن يولد امتعاضًا يتناسب إلى حدّ ما مع اعتدادنا بأنفسنا. وأنه لما كانت الرغبات التافهة تستحوذ على خيال الناس، وكانوا يستمدون معظم مسراتهم من أمور نافلة، فإن الملاحظات النابية كثيرًا ما أثارت ضغائن شديدة دائمة، وكان من الممكن أن لا تترك أثرًا لولا أنها مست موضعًا بالغ الحساسية.

وإن صديقتين متلازمتين منذ الطفولة، صارحت إحداهن صاحبتها بأن رقصها في عيد الميلاد الماضي لم يحقق ما توقعه المشاهدون قياسًا على ما سبق أن أثارته من إعجابهم بنجاحها. وقد أثنت صديقتها على إخلاصها، شاكرة لها ملاحظتها، معتذرة بأنها إنما

رقصت لتسرّ نفسها، وأنها لا تأبه لما يتطاول الناس على التخرص به؛ ولكنها مستعدة أن تقلع عن الرقص إن كان ظهورها يسبب لعزيزتها أدنى مضايقة.

وكانت لا تبرح تعلي من قدر إخلاص صاحبتها، وتنوع بتقديرها لتلك الطيبة الجديرة بالاحترام التي تجسر على مؤاخذة الصديق بما وقع فيه من خطأ، وتؤكد أن على الصديق أن يتقبل النصيحة بعرفان الجميل، وإن لم يكن أساسها سليمًا.

ولم يلبث أن جاء دورها بعد شهور، فصارحت صاحبتها جادة كل الجد، بأن جمالها الرائع يخلع الفتنة على فعالها كافة، وأن التفوق حليف كل محاولاتها؛ إلا أنها لا تجد محيصًا بحكم واجبات الصداقة عن نصحها بمقاومة إغراء من يلحون عليها بأن تغني، لأن أسلوبها تعوزه الرشاقة، وصوتها تنقصه الرخامة.

قالت صاحبتها إن صوتي كان قد أبحه البرد، لما غنيت منذ ثلاث ليالٍ، لكني إنما غنيت ابتغاء متعتي الخاصة، وليس يعنيني قط أن يعجب صوتي السامعين ولكن هذا لن ينقص من حنان عزيزتي، وسوف أجدني سعيدة دائمًا بصديقة حقيقية مثلها.

وكان أن قضت الصراحة على صداقة من أحب الصداقات وأقواها، لأننا نمتعض من التصدي لاستحساننا الذاتي، أو التنويه بنقائصنا التي تفوق رغبتنا في ممارستها حرصنا على إطراحها أو تصويبها.

ولكن لا تحبون الناصحين

وقد وصف الله الكافرين ببغضهم للناصحين: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

لا يرغب في النصيحة

قال بعضهم: أصدقاؤنا مستعدون عادةً لعمل كل شيء من أجلنا، سوى الشيء الذي نود لو أنهم صنعوه، وثمة شيء بالذات يميلون دائمًا لإسدائه، ولا نريد تقبله، وهو النصيحة!

الضيق بالناصح وبالنصيحة

والنصيحة ضرب من السلطة والسيطرة، تجعل الناصح صاحب اليد العليا، وتضعه بمنزلة الوالد أو المعلم؛ وهي لذلك تشعرنا عادة بالتضاؤل والخجل في موقفنا من الناصح، وهما عاطفتان يشوبهما الضيق وعدم الرضا.

تشعرنا النصيحة بتفوق الناصح

تنطوي النصيحة عادة على المطالبة باتباع رأي مخالف لرأينا، واتخاذ طريق غير الذي اخترناه لبلوغ قصدنا؛ فهي تتضمن نقدًا لخططنا، وتنويهًا بخطئنا، يشعرنا بتفوق الناصح علينا؛ وهو إحساس شبيه بشعورنا نحو عدونا، الذي ينتقص قيمتنا، ويهون من شأننا، ويغض من قدرنا.

الصديق عدو طيب وخصم صالح

لذلك أطلق «نيتشيه» على الصديق أنه خير عدو لنا، أو أنه عدونا الطيب، وخصمنا الصالح الذي لا غنى لنا عنه في الحياة؛ لأننا لا يمكن أن نعتمد إلا على من يقاوم، كما نعتمد أيضًا على الحواجز، وأول واجبات الصديق أن يقوّمنا، ويشد أزرنا، ويسوس أمرنا.

مرارة الشعور باستحقاق اللوم

وليس ضروريًّا بحال أن نتصور أن النصيحة تجرح من خفي عليه خطؤه، فيشمئز من اللوم باعتباره اتهامًا باطلاً؛ ذلك بأنه قد يكون أقرب إلى المعقول أن يثور غضبنا إذا اقتنعنا بذنبنا: لأن الاتهام لا يقلقنا حين يسهل علينا الدفاع عن أخلاقنا، كما أن العدو لا يروعنا ما دمنا متأكدين من مقدرتنا على قهره، واثقين من أن هجماته لا تضيرنا بل تظهر تفوقنا.

ولكن حين يشعر المرء باستحقاق اللوم، فسرعان ما يتقد امتعاضه وتشتد رغبته في الانتقام: إما لأنه خالَ خليقته خافية على الناس؛ أو لأن صاحبه قد نظر إلى نقصه بعطف وعدم مبالاة، وتجاوز عنه مقابل فضائله ومزاياه؛ أو لأنه حسبه أحكم من أن يحتاج للنصيحة، أو أرق من أن يطيق وطأة المؤاخذة؛ أو لأنه هو لا يحتمل إيقاظ آلام كان يحاول تنويمها. وحين يثير الألم الغضب، فمن ذا الذي لا يعتقد راضيًا، أن غضبه يجب أن ينصب على غيره لا على نفسه.

سلطة الصديق سائغة

ومع أنه ليس أشق على المرء من التنازل عن اعتداده بنفسه، وقبول سيطرة سواه؛ إلا أن الطفل إذا شب عن الطوق أدرك أن السلطة ضرورة لا غنى عنها، سواء أكانت سلطة الوالدين والمعلمين في الطفولة، أم سلطة المجتمع والرأي العام ممثلاً في نصيحة الصديق. وأنه ليتقبل نصيحته، وما قد تنطوي عليه من لوم أو مؤاخذة، وهو لا يكاد يستشعر لها ألمًا يذكر.

نستطيب الخضوع للصديق

إن ملامة الصديق وتقريعه، خليقة أن تحدث أثرًا سارًّا: ذلك أننا نستشعر تفوقه دون أن نضيق بهذا الشعور؛ ونتخذ منه موقف الخضوع مختارين. ولما كان اللوم يصدّ دافع السيطرة، ويثير حافز الخضوع، فإن الحالة التي تنتج منه تتفاوت، تبعًا لتفوق أحد الدافعين: من غل غاضب يعوزه الوجدان السلبي بالنفس بسبب الخجل والحياء المتعدد الظلال؛ إلى حالة من الندم مساكها وجدان سلبي بالنفس، قد يستطيب إرضاء رغبة الخضوع التام للقوة التي تلومنا.

نتقبل نصيحة الصديق لنجنبه الألم

وإننا نتقبل لوم صديقنا، عالمين أنه مؤلم لنفسه، ونحن حريصون على أن نسره، وأن نتجنب إيلامه، لما بيننا من وجدان متبادل. وإذ نستجيب لنصيحته، ونأخذ بها، فإن دافعنا الأول إلى هذا ليس مجرد الإفادة من نصيحته؛ بل هو دافع غيري حقيقي، من انفعال حنون شبيه بغريزة الأمومة، لا يعرف حدًّا يقف عنده.

الإعجاب يهون وقع النقد والنصيحة

تبادل الإعجاب الأصيل بين الصديقين يساعدهما على تحمل النقد الشديد، والنصيحة الصريحة، والمكاشفة بالحقائق المريرة؛ لأن صدورها من معجب لا ينقص من الثقة بالنفس، التي لا تطاق الحياة بغيرها. وقد سبقت الإشارة إلى هذا في مطلب «التكييف السيكولوجي لعاطفة الإعجاب».

«فلوبير» لا يضيق بنقد صديقه

بهذا وحده أمكن نشوء صداقات كثيرة بين الكتاب: أخلص «بوييوه» في نقد «فلوبير»، ولكن «فلوبير» لم يسؤه نقده، لأنه يعرف أن «بوييوه» يعتبره أستاذًا.

يهدي إلى أخيه عيبه

كان «عمر» يستهدي النصيحة من إخوانه، ويقول: رحم الله امرءًا أهدى إلى أخيه عيبه.

إنه ينبهه على حية أو عقرب

ويقول «الغزالي» إن من ينبهك على فعل مذموم تعاطيته، أو صفة مستكرهة اتصفت بها لتذكِّي نفسك عنها؛ كمن ينبهك على حية أو عقرب تحت ذيلك وقد همت بإهلاكك، فإن كنت تكره ذلك فما أشد حمقك.

النصيحة المشوبة بالمصلحة أو الكبرياء

والقاعدة الأساسية التي لابد من التزامها في الاضطلاع بهذه المهمة الخطرة، هي الاحتفاظ بالنصيحة خالصة من شائبة المصلحة أو شبهة الكبرياء؛ وأن نتحامى اللوم أو التوبيخ، حين تدلنا ضمائرنا على أن دافعنا ليس الأمل في إصلاح الأخطاء، بل إظهار تفوقنا، أو إرضاء كبريائنا بتعذيب غيرنا. ومع ذلك فربما منعنا الحذر البالغ التهذيب عن إطلاع صديقنا على نقائصه؛ لأن أشد اتجاهاتنا نبلاً قد لا تضمن رضاه بتقبل نصحنا.

المعالنة بالنصيحة

يقول «الغزالي»: والله يعاتب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه في ظل ستره، فيوقفه على ذنوبه سرًّا، وقد يدفع كتاب عمله مختومًا إلى الملائكة الذين يحفّون به إلى الجنة، فإذا قاربوا باب الجنة أعطوه الكتاب ليقرأه.

وقال «الشافعي»: من وعظ أخاه سرًّا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه. والنصيحة على الملأ توبيخ وفضيحة. فإذا علمت أن صاحبك عالم بعيبه فلا ينبغي أن تكشف ستره إذا كان يخفيه. وإن كان يظهره فلابد من التلطف في النصح، فإن النصح بالتعريض مرة وبالتصريح أخرى لا يؤدي إلى الإيحاش.

متى يجب الكف عن النصيحة

يقول «كونفيوشيوس»: حذّر صديقك بأمانة، وحاول مترفقًا توجيهه، فإن ألفيته مزورّ الجانب كفّ، لا تفضح نفسك.

أسلوب توجيه النصيحة

يقول «شيشرون»: ولما كانت ممارسة واجبات الصداقة كثيرًا ما تضايق من يضطلع بها حرصًا على تحقيق مصلحة صديقه؛ فإن الرجل الحسن التصرف ربما تحاماها أو تحايل على تخفيف وطأتها أو اضطر إلى مواجهتها، وفقًا لما تقتضيه طبيعة كل حالة وظروفها.

وإن الصدق والأمانة لتقتضي تحذير الصديق بل تجيز تبكيته، وعلى الصديق أن يتقبل زجر صديقه بحنان ما دام يسديه بوجدان. ومع ذلك فيجب أن نكون شديدي الحرص

على أن يخلو نصحنا وزجرنا من كل أثر للحدة أو الإهانة، ملتزمين التهذيب والتلطف، ولكن بغير أن نذهب إلى حد التغاضي عن الرذيلة أو سوء التصرف أو الوضاعة، فإننا لا يمكن أن نتخذ مع صديق نفس التحوطات التي يجب التزامها مع طاغية، ولأنه لا شيء أليق بعبقرية الصداقة من إسداء النصيحة بحرية في غير غلظة، وبأن نتلقاها صابرين غير متكرهين، لأن الصداقة بغير صراحة تصير اسمًا بلا معنى ولا فاعلية.

آداب المشورة

يقول «ابن المقفع» في «الأدب الكبير»: اعلم أن المستشار ليس بكفيل، والرأي ليس بمضمون، بل الرأي كله غَرَر؛ لأن أمور الدنيا ليس شيء منها بثقة، وأنه ليس شيء منها يدركه الحازم إلا وقد يدركه العاجز، بل ربما أعيا الحزمة ما أمكن العَجَزة.

فإذا أشار عليك صاحبك برأي، ثم لم تجد عاقبته على ما كنت تأمل، فلا تجعل ذلك عليه دينًا، ولا تلزمه لومًا وعذلاً، بأن تقول: أنت فعلت هذا بي، وأنت أمرتني. ولولا أنت لم أفعل. ولا جَرَم لا أطيعك في شيء بعدها؛ فإن هذا كله ضجر ولوم وخفة.

فإن كنت أنت المشير، فعمِل برأيك، فبدا صوابك، فلا تمتَنّ به ولا تكثر من ذكره إن كان فيه نجاح؛ فإن ترك رأيك فلا تلمه إن كان قد استبان في تركه ضرر، بأن تقول: ألم أقل لك افعل هذا! فإن هذا مجانب لأدب الحكماء.

المغالاة في النصح

من الأصدقاء من يمارسون واجب النصيحة في حماسة تزيد شيئًا على ما ينبغي، ويسيئون استخدام امتياز الصديق في تقويم صديقه وإدارته، فهم لا يبرحون في غير

هوادة يملون عليه واجبه في جميع ظروف حياته، وكأن ضمائرهم تمعن في توبيخهم على ما يرتكبه أصدقاؤهم من أخطاء؛ وإن صدامة بعض الأصدقاء لتؤدي أحيانًا إلى رفض الأخذ بنصيحتهم، بل العمل بعكسها.

مساك النصيحة التقدير لا الانتقاص

جوهر النصيحة الحقيقي ليس الانتقاص، بل التقدير، وأن يضع الناصح نفسه متعاطفًا مكان صديقه، ويحاول جاهدًا تقدير القيمة الصحيحة لعمله. إن عدد الذين تفسدهم الخشونة أكبر ممن يضرّ بهم اللين؛ والنصيحة إن لم نملك زمامها، استحالت رقابة، بل غلاًّ، وكثيرًا ما سببت خسارة الصديق.

توحيد مصدر النصيحة

وتوحيد مصدر النصيحة خير من تعدده؛ لأن النصيحة المخلصة لا يسديها غير صديق كملت أخوته، إذ تؤهله إحاطته بحالة صديقه لأن يصف له العلاج الذي يشفي علّته بغير أن يقضي على حياته.

الفصل الرابع
المعونة الأدبية؛ والمعونة المادية

«وكنت إذا الشدائد أرهقتني يقوم لها، وأقعد لا أقوم»

المبحث الأَوَّل
المعونة الأدبية

تعاون الصديقين أمر طبيعي، هو نتيجة محبتهما، ورغبة كلٍّ منهما في تحقيق أكبر قسط من الخير والسعادة لصاحبه، وأن لا يختص نفسه دونه بمزية لا يشركه فيها؛ وحرصه على المبادرة بمده بما يعوزه، وتحمسه لإسعافه بحاجته، وشد أزره ونجدته.

الدعاء للصديق

والصديق الصَّدْق لا يبرح يتمنى لصديقه ما يرجوه لنفسه من أن يمن الله عليه بالخير والسعادة، وأن يوفّقه ويرعاه ويمدّ في أجله، ويصلح من شأنه وشأن من يحب.

والدعاء معونة أدبية يستعين فيها الصديق بقوة القادر على كل شيء، ولا شك أن له تأثيرًا كبيرًا في شفاء الأمراض وحل المعضلات، وتحقيق ما تعجز وسائل البشر المادية

عن إنجازه؛ ولا بد أن يكون القارئ قد لمس في حياته الخاصة قوة دعوات محبيه ولاسيما والداه، حين يهزان العرش بالدعوات، فيستجيب لهما المولى جل شأنه، ومثلهما الصديق. وقد سجل سفر «أيوب» أن الله ردّ سبي «أيوب» لما صلّى لأجل أصدقائه. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك: ولك مثل ذلك. وفي الحديث: يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه؛ وفي حديث آخر: دعوة الرجل لأخيه في ظهر الغيب لا ترد. وكان «أبو الدرداء» يقول: إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي؛ أسميهم بأسمائهم.

إلهام الصديق

صديقنا مصدر إلهام، يوقظ ملكاتنا النائمة، ويسنّ سجايانا الكليلة، ويلمس مزايانا المعطلة فيبعث فيها النشاط والحيوية؛ والصديق يرفعنا بإلهامه فنحلق في سماء القوة، وقد يساعدنا على أن نتصل بمصدر القوة.

وقد خبر المؤلفون والأدباء والموسيقيون والفلاسفة والمخترعون مدى تأثير إلهام أصدقائهم، حتى إننا لنكاد نجد وراء كل الكشوف والمخترعات والنفائس الفنية، صديقًا ملهمًا ساعد بخلجات روحه، وومضات عبقريته، ونور محبته، على أن تتمخض عقول الأفذاذ عما أبدعوه من تراث تفخر به الإنسانية عبر العصور والحقب.

تشجيع الصديق يشحذ مواهبنا

صديقنا يقوي بتشجيعه عزيمتنا على تحقيق ما تصبو إليه قلوبنا وعقولنا من مثل عليا، وهو يذلل لنا العقبات ويهون علينا الصعاب، بما يحركه من قوانا الكامنة ويثيره من مواهبنا الهاجعة؛ وكلماته الواثقة المخلصة تشد أزرنا، وتحفزنا على صنع المعجزات.

قوة الصديق تضاعف قوتنا

ونحن عاجزون بمفردنا عن تحقيق غايتنا، فإذا ضم الصديق قوته إلى قوتنا، نهضنا بالعبء الثقيل، وحققنا بمعونته الأمر المستحيل.

ويقول «كارليل» إن عشرة أشخاص وحّدهم الحب، قادرون على أن يحققوا ويعملوا ما يخفق فيه عشرة آلاف فُرادى. أنه لا حدّ للمساعدة التي يستطيع أن يسديها الإنسان للإنسان.

الصديق ضمان الأمان

كتب: «يونج» في «السيكولوجيا والكيمياء» يقول: قد يحلم المرء بكنز في قاع البحر لا يمكن الوصول إليه إلا بالغوص من فتحة ضيقة، وهو أمر محفوف بالخطر، ولكنه سيجد في الأعماق زميلاً. ويغطس الحالم في الظلام فيكتشف في الأغوار حديقة جميلة تتوسطها نافورة. والكنز المرغوب في إحرازه قابع في قاع العقل الباطن، ولا يستطيع الوصول إليه إلا الشجاع.

وهو يقول: إني لأتوهم أن الكنز هو أيضًا الزميل: شخص يلازمنا مدى الحياة، وغالبًا ما يكون مقابلاً للذات المتوحدة التي تجد رفيقًا في النفس، لأن النفس في أول الأمر، هي اللا- ذات الأجنبية. وهذه هي فكرة رفيق السفر السحري: التلميذان على الطريق إلى «عمواس» والسيد المسيح؛ و«كريشنا» و«أرجونا» في «باجافاة جيفا»؛ و«موسى» و«الخضر» في القرآن الكريم. إذ وجد «الخضر» إلى جواره ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ «الآية». وكانت الأرض حول «الخضر» تعج بزهور الربيع، مع أنها صحراء.

حاجتنا إلى الإعطاء

المعونة عطاء، والحاجة إلى الإعطاء يبدأ الشعور بها منذ الطفولة، وتستمر دافعًا مسيطرًا على الحياة؛ وهي ككل حاجة أخرى تورث القلق إذا كُفّت. ويقول بعض علماء النفس إن علاقة الطفل بأمه هي في عقل الطفل مشاركة متوازنة توازنًا حقيقيًّا، لذلك كانت الرغبة في الإعطاء بالنسبة إليه كالحاجة إلى الأخذ: فإن الشعور بأن هدايانا «محبتنا» ليست مقبولة، أمر غير محتمل، مثل الشعور بأن حصولنا على هدايا الغير «محبته» لم يعد ممكنًا. والشعور بالاستغناء عنا، يلعب دورًا مسيطرًا في أعراض القلق والحرمان.

وقد رأينا الناس حاشدين على جانبي الطريق الذي يمر به موكب الكهنة البوذيين، ليملأوا وطابهم بالهدايا، وليشكروهم على تفضلهم بقبول عطاياهم.

توقع المعونة عند الحاجة

ولا تنحصر قوة المعونة في تلقّيها؛ ولكن مجرد شعور الصديقين بأن أحدهما إذا زلت به القدم أقال صاحبه عثرته، يضاعف مقدرتهما على شق طريقهما، ويورثهما طمأنينة وعزاءً.

معونة نعجز عن إسدائها لأنفسنا

ثمة أشياء تمس الحاجة إلى ذكرها أو صنعها، لا يستطيع المرء أن يضطلع بها ظروف معينة، بغير خروج عن مقتضيات الكياسة، فلا تلبث حاسة الصداقة المرهفة أن توحي إلى الصديق أن ينوب عن صاحبه في قولها أو عملها، فينصف صاحبه أو ينتصف له.

معونة ضمنية

الصداقة قوة كبرى تجنبنا الشر وتدفعنا إلى الخير، وتحمي أخلاقنا من التجارب، وتحدونا على الصمود في وجه المغريات؛ فكثيرًا ما يتساءل الصديق: ما عسى أن يظن بي صاحبي لو قارفت هذا الصغار، أفأطيق مقابلته ثانية، ومواجهة نظرته الهادئة البريئة؟ ألا يرين هذا الأمر بصداقتنا، ويغشّي على علاقتنا؟

يتأدى لتزيد قدرته على المعونة

الصديق الحقيقي دائم التطلع للحصول على نفس جديرة بأن يعطيها في صداقته؛ نفس لا تتوقف عن النماء والارتقاء، والاستزادة من النقاء والصفاء. وهذا يتطلب روحًا قابلة للتعلم، مفتوحة العقل واسعة الأفق؛ لأن عدم قابلية التعلم، توصد الباب دون الإفادة من

خير ما في الصديق، بل إنه قد يستدعي الاتجاه غير المستقبل في صديقه، بحيث يتعذر عليه أن ينفعه بما عنده.

والصداقة العالية تحدو الصديقين على أن يوافي كلٌّ منهما صاحبه بنفس أحسن وأقوى، وأعلى وأغنى.

آداب الاستعانة بالصديق

يقول «الماوردي»: وإن كان الناس لحمة لا يستغنون عن التعاون، ولا يستغلون عن المساعد والمظافر، فإنما ذلك تعاون ائتلاف يتكافؤون فيه ولا يتفاضلون، وربما كان المستعين فيه مفضلاً والمعين مستفضلاً، فليس من هذا بدٌّ ولا لأحد عنه غنى؛ وإنما الذي يتصوَّن عنه الكرام تعاون التفضيل، فينقبضون عن أن يستعينوا لئلا يكون عليهم يد، ويسارعون أن يعينوا لأن يكون لهم يد. ومن أقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه أو بمال؛ فقد أوهى مروءته، واستبذل صيانته.

موقفنا من أصدقاء الصديق

الإعجاب بالصديق، والتسليم بحسن اختياره، يقرب أصدقاءه إلى قلوبنا، ويغرينا بمصادقتهم. والمفروض مبدئيًا أن المعونة الأدبية تقتضي أن ينحاز الصديق لأصحاب صاحبه ويقف في صفهم.

وقد عثرنا في كتاب: «البناء الاجتماعي والشخصية»، الذي حرره «أونديس» و«هايونك»، باستفتاء حديث دلت نتيجته على أن نحو نصف أصدقاء الشخص يميلون إلى أن يكونوا أصدقاء بعضهم لبعض، ويكوّنون بذلك ما يشبه الفريق أو العصبة.

ولكن النفوس جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف، وقد لا يجد الصديق في صديق صديقه ما يحببه إليه ويدنيه منه. لذلك يجب أن لا يتوقع الصديق أن يصير صديقاه صديقين حتمًا، فإن الباب الذي يفتحه لي صديقي لا يسهل عليه فتحه لغيري، وإذا تيسر ذلك له فإن العلاقة لا تكون بعد صداقة بل وئامًا، كما أن صداقته لي التي كانت من طراز نادر للغاية، تتعرض للتحول إلى علاقة عادية؛ بل إن ثمة احتمالاً لأن يُخسرني صديقي الآخر.

الصداقة ليست كالحساب

حاول عبثًا المحامي الإسكتلندي «جيمس بوزويل» مؤلف: «سيرة جونسون»، أن يعقد صداقة بين سِر «جون يرنجل»، صديقه وصديق أبيه، والدكتور «صمويل جونسون». وكان يعيش معهما ويحترمهما؛ وقد صرح له مرة السِّر «جون يرنجل» بمنتهى البراعة بأن الصداقة ليست كالحساب: يتساوى الشيئان إن ساوى كلٌّ منهما شيئًا ثالثًا. أنت تتفق مع «جونسون» كحد أوسط، وتتفق معي كحد أوسط، ولكن «جونسون» وأنا لا نتفق.

موقفنا من عدو الصديق

لئن كانت المعونة الأدبية تقتضي مبدئيًا أن ينحاز الصديق لصاحبه ويقف في صفه في مواجهة أعدائه وخصومه؛ فإنه لا محل مع ذلك لتفسير مقاربة الصديق لعدو صديقه على أنها تآمر عليه يثير حفيظته، ويحدوه على قطع علاقته.

وقد قال «ابن المقفع» في «الأدب الكبير»: إذا رأيت صاحبك مع عدوك، فلا يغضبنك ذلك، فإنما هو أحد رجلين؛ إن كان رجلاً من إخوان الثقة فأنفع مواطنه لك، أقربها من عدوك: لشر يكفُّه عنك، أو لعورة يسترها منك، أو غائبه يطلع عليها لك.

وقال «أبو حامد المرودوزي»: لعل صديقك إذا رأيته مع عدوك يثنيه إليك، ويعطفه عليك، ويبعثه على تدارك فائتة منك؛ ولو لم يكن هذا كله، لكان التأنِّي مقدمًا على العجل، وحسن الظن أولى به من سوء الظن.

القول بمعاداة عدو الصديق

«إذا حاربت حارت من تعادي ... وزاد سلاحه منك اقترابا»

ويرى البعض أن من علامات الوفاء أن يكون المرء لصديق صديقه صديقًا، ولعدو صديقه عدوًا؛ وقد قال «الشافعي»: إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عداوتك.

وقال الشاعر:

أخـوك الـذي إن تـدعـه لـلـمـة ... بحبك وإن تغضبت إلى السيف يغضب

وقال «العتابي»:

تـودّ عـدوي ثـم تـزعـم أنـنـي ... صديقَك إن الرأي عنك لعازب

وقال «هزليت»: الذي يخاف من أن يكون له أعداء، لن يكون له أصدقاء حقيقيون.

وقال «نيتشيه»: إذا رغب المرء في أن يظفر بصديق، يجب أن يكون أيضًا مستعدًا ليخوض الحرب من أجله، يجب أن يقدر على أن يكون عدوًا.

أبغض وأعادي فيك

كتب رجل إلى صديق: إني أحب وأبغض لك، وأوالي وأعادي فيك.

كما قال الشاعر:

إن أخاك الصدق مَنْ لم يخدعكَ ... وإن رآك ظالمًا سعى معك

المبحث الثاني

المعونة المادية

«وتركي مؤاساة الأخلّاء بالذي ... تنال يدي، ظلم لهم وعقوق»

وإني لأستحيي من الله أن أُرى ... بحال اتساع، والصديق مضيق»

الصداقة مساواة في الممتلكات والعواطف

ثمة مثل فيثاغوري قديم: كل شيء مشاع بين الأصدقاء؛ ولا عجب فقد كان «فيثاغور» يعتبر الصداقة مساواة في الممتلكات وفي العواطف.

أصدقاؤه مصدر دخله الوحيد

أما «سقراط» فقد اعتبر الصديق ثروة ومورد رزق، وهو يعترف بأن أصدقاءه هم مصدر دخله الوحيد، وأنهم أبوا إلا أن يغمروه بسابغ فضلهم. وهو ينوه بأنه خير للإنسان أن يكون له أصدقاء كُثر من أن يملك قطعانًا من الغنم والبقر والماعز، وحسبه في الواقع صديق غني

واحد ليظل بمنجاة من الحاجة، لأن الصديق يأخذ على عاتقه تزويد صديقه بما يعوزه، فهو يرجو صاحبه أن يعتبر ثروته كما لو كانت ملكه، وهو يعتبر ثروة صديقه بمثابة ثروته.

وقد برّ تلاميذ «سقراط» بأستاذهم، فهذا «كريتون» يقول له: إن مالي، الذي هو ملكك، يكفي لإخراجك من السجن. فإن آثرت الصعوبات دون قبول عرضي، فقد أحضر «فسيمياس» الطيبي المبلغ الكافي، و«سيبيس» بصدد التقدم بنفس العرض، وغيرهما كثيرون.

مال الصديقين مشاع بينهما

«وكـلُّـهُـمُ قـد نـال شبعا لبطنه   وشبْع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه»

قال «سقراط» موجهًا الحديث إلى «ليسيس» و«منسلين»: لست أسألكما أيكما الأغنى، فأنتما صديقان، ومال الصديقين مشاع بينهما بحيث لا يكون بينكما فرق.

ورأى بعض الحكماء رجلين يصطحبان لا يفترقان، فسأل عنهما فقيل هما صديقان. فقال: ما بال أحدهما فقيرًا والآخر غنيًّا؟

الملكية الخاصة لا تمنع الانتفاع العام

أما «أرسطو» فيقول في كتاب «السياسة»: إنه وإن كان لكل امرئ ماله الخاص، فهو يضع بعض الأشياء تحت تصرف أصدقائه، في حين يشاركهم في الانتفاع بأشياء أخرى. فـ «اللاسيدومنيون» مثلاً يستخدم الواحد منهم عبيد صاحبه وخيوله وكلابه، كأنها ملكه؛ فإذا اتفق وجودهم في الريف، تزودوا من الحقول بما يحتاجونه من مؤن. واضح أنه من الخير

أن تكون الملكية خاصة، على أن يكون الانتفاع بها عامًّا؛ ومهمة المشترع أن يخلق في الناس هذا الميل الخيّر.

الصداقة مشاركة في العواطف والأموال

وهكذا بدأت الصداقة في العصور الخوالي مشاركة في الأموال، وتبادلاً للخدمات المادية، ولكن المعونة المادية ليست هي الصداقة الحقيقية، وإن كانت من علاماتها الخارجية؛ إنما تقَرّ الصداقة في القلوب، لأنها مشاركة في العواطف والأفكار، ومن باب أولى مشاركة فيما هو أدنى كالأموال.

يوصي لصديقيه بأمه وابنته

بلغ من فرط محبة «لودايداس» الكورنثي المملِق، لصديقيه الثريّين أن جعلهما وارثيه، فاختصهما بعد وفاته بإسداء المعروف إليه، وسجل في وصيته رغبته الأخيرة بقوله: إني أورّث «كاركسينس» أمي، يعولها ويرعاها حين تشيخ؛ وأعهد إلى «أريثيوس» في تزويج ابنتي وتزويدها بالبائنة التي يرتضيها. فإذا اتفق أن سبق القضاء إلى أحد صديقيّ، خلفه الباقي في الاضطلاع بعبئه، وشغل مكانه.

وقد أضحكت وصيته من رأوها أول الأمر، ولكن سرور الوارثين كان بالغًا، حين عرفاها، فتقبلاها برضا منقطع المثيل.

وإذ مات أول الصديقين بعد صديقه بأيام خمسة، فقد أعلن الصديق الثاني حلوله محله، فأولى أم صديقه اهتمامه، وحباها بفائق بره وحنانه، وجعل الخمسين ألف وزنة التي يملكها مناصفة بين وحيدته وابنة صديقه، ثم زفهما إلى زوجيهما في يوم واحد.

الصديق يسترد ولا يطلب

وكان الفيلسوف «ديوجينس» إذا احتاج إلى نقود قال لأصدقائه إنه يستردها ولم يقل إنه يطلبها؛ لأن مالهم هو ماله.

العطاء معيار المحبة

يقول «الغزالي»: وقد يكون الحب بحيث يُترك به بعض الحظوظ دون بعض، كمن تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه في نصف ماله، أو في ثلثه، أو في عشره. فمقادير الأموال موازين المحبة، إذ لا تعرف درجة المحبوب إلا بمحبوب يُترك في مقابلته. فمن استغرق الحب جميع قلبه، لم يبق له محبوب سواه، فلا يمسك لنفسه شيئًا، مثل «أبوبكر الصديق» فإنه لم يترك لنفسه أهلاً ولا مالاً، فسلم ابنته التي هي قرة عينه وأنفق جميع ماله على صديقه رسول الله قبل الفتح، حتى صار يلبس عباءة خلّلها على صدره بخلال.

الصديق يبذل ماله عند الحاجة

وقال بعض حكماء الفرس: صفة الصديق أن يبذل لك ماله عند الحاجة، ونفسه عند النكبة، ويحفظك عند المغيب.

عجبتُ لبعضِ الناسِ يبذلُ ودَّه ويمنعُ ما ضُمت عليه الأصابعُ
إذا أنا أعطيتُ الخليلَ مودتي فلستُ لمالي بعد ذلك مانع

الإسعاف بالجاه

جاء في «أدب الدنيا والدين» أن: الإسعاف بالجاه أرخص المكارم ثمنًا، وألطف الصنائع موقعًا، وربما كان أعظم من المال نفعًا؛ وهو الظل الذي يلجأ إليه المضطرون، والحمى الذي يأوي إليه الخائفون.

ومن بك ذا فضلٍ فيبخل بفضلـــــه على أهلِه، يستغن عنه ويذمـــــم

«هليفاكس» يرشح صديقه «أديسون»

ضاق وزير المالية بتفاهة القصائد التي نشرت بمناسبة انتصار إنجلترا على فرنسا في موقعة «بلنهيم»، مما غير وجه «أوربة» بين يوم وليلة؛ فرشح له «هليفاكس» صديقه «أديسون»؛ ولكن لفرط حرصه على كرامة صاحبه وعلى تحقيق مصالحه المالية، أصرّ أن يقارب الوزير «أديسون» شخصيًّا بمنتهى المجاملة.

وكان «أديسون» يسكن إذ ذاك علية فوق متجر صغير، فأدهشه أن فوجئ في صبيحة اليوم التالي بزيارة «هنري بويل» وزير الخزانة، موفدًا من قبل وزير المالية كسفير إلى الشاعر المعوز. وانصبّ «أديسون» من فوره على أداء المهمة المقترحة، التي تطيب بإنجاز مثلها نفس هذا الحر الحصيف. فلما فرغ من إعداد القصيد وحازت إعجاب «جودولفين» عين من فوره في وظيفة تغلّ نحو مائتي جنيه سنويًّا، على أنها عربون لمجاملات أكبر.

«أديسون» ينفع أصدقاءه بجاهه

لعل كل ما أفاده «أديسون» من مكانته عند المحافظين أن ينقذ من الدمار، بعض أصدقائه المنتمين إلى حزب الأحرار.

فقد اضطر أن يتنازل إلى حد التوسل من أجل «فيليب»؛ وكان «ستيل» قد حرم مكانه في «الجازيت»، ولكن أُذن في استبقاء عمله في إدارة الدمغة، على أساس تفاهم ضمني أن لا ينشط ضد الحكومة الجديدة، وظل «أديسون» أكثر من سنتين يغريه بالتزام هذه الهدنة.

ولما صل «أديسون» إلى دبلن، وكان قد عين حاكما لإيرلندا، لم يكن «سويفت» يجسر على الركوب في الاستراند للرياضة، بغير حراسة مرافقين مسلحين. وقد ردّ «أديسون» على الذين أوصوه بأن لا يبدي أدنى مجاملة لعميد «سان باتريك» قائلاً: قد يقتضي الأمر بالنسبة إلى من يكون ولاؤهم لأحزابهم محل شك، أن يمتنعوا عن الاتصال بالخصوم السياسيين؛ أما من كان مثلي محافظًا لم يتحول في أسوأ الأزمنة، فإن له أن يتجرأ، وقد انتصر حزبه، فيهزّ يد صديق قديم من الأحرار المتهورين.

أسى عطفه قلب «سويفت» الجريح المترفع، واستأنف الصديقان الكبيران علاقاتهما الودية المعتادة.

وقد أشرك «أديسون» في صعوده من كان من أصدقائه متفقًا معه في الرأي السياسي: فصحب «تكلا» إلى «إيرلندا»، وأسند إليه وظيفة مجزية. وعني بشأن «إمبرواز فيليب» في إنجلترا. ومع أن «ستيل» أضرّ نفسه كثيرًا بغرابة أطواره، وانحرافه بحيث لم يظفر إلا بنزر يسير جدًا مما يحسبه حقًا له، فإنه رفع إلى رتبة فارس.

قبول منحة من هو دوننا

المنحة الكبيرة يجب أن لا يقبلها غير صديق؛ لأن القبول فن كالعطاء؛ فإن حاول أحد من درجة أدنى أن يمد غيره بقوته، استنفدها، وأثقل كاهل صاحبه.

«الشافعي» و«هرثمة» بعد «الرشيد»

ويقول الأستاذ «عبد الحليم الجندي» في كتابه «الإمام الشافعي»: بعد أن برئت ساحة الإمام «الشافعي» من التهمة التي سبق للمحاكمة فيها أمام «الرشيد»، أمر له بعطاء خمسين ألفًا. فأخذها فانثالت من راحتيه عطايا على باب «الرشيد».

قالوا لحق به «هرثمة بن أعين»، وكان من كبار القواد، عند خروجه من باب أمير المؤمنين، فقدم إليه هدية عظيمة، فردها «الشافعي» قائلاً: إني لا آخذ الهدايا ممن هو دوني.

معونة الصديق السابق

أما الخدمات، فإن الشخص المهذب لا يقبلها من صديق سابق لم يعد يحبه، إلا عند الضرورة القصوى؛ كما أنه ليس ثمة التزام بتقديم مثل هذه الخدمات في أي حالة لا تكون الحاجة فيها ماسة؛ فإننا غالبًا ما نشكر لأحد الطرفين سخاءه بما نلوم الطرف الآخر على قبوله. ولكن يبدو أن مثل هذه المسائل الحساسة ترجع بالطبيعة إلى قواعد الذوق السليم والشعور المصفى، منها إلى الأخلاق بمعناها العادي؛ أو هي على الأقل لا تدخل في نطاق الأخلاق إلا من حيث إن علينا واجبًا عامًّا أن نثقّف الذوق السليم والشعور المرهف، كغيرهما من مقومات التفوق.

يضيف صديقه ثلاثين عامًا

تولى أمر الشاعر «سوينبرن» أحد أصدقائه الأقربين المحامي «تيودورروانس- دانتون» فنقله من ضجة لندن إلى سكينة «بيوتبني»، حيث احتفظ به وعني بأمره عناية البستاني الحاني بزهرة نادرة مجلوبة. وبقي «سوينبرن» مع «دانتون» ثلاثين عامًا، كانت أهدأ أيام

حياته. وقال في وصفها خبأت قلبي في عش من ورود؛ بعيدًا عن الشمس متواريًا على ناحية، في فراش أنعم من الثلج الأبيض؛ تحت الورود خبأت قلبي.

الفقر محك الصداقة

يقول «هزليت»: إن قلة المال تجعل الناس مضحكين، وليست هذه النقيصة بالنسبة إلينا وحدنا، ولكنها كثيرًا ما ترينا الآخر من وجهة نظر محتقرة للغاية.

إننا إذا هبطنا في نظر العالم بسبب الظروف المعاكسة، فإن العالم خليق أن يتدهور أيضًا في نظرنا بنفس القدر.

صعوبة الخروج عن المال

قال «ثعلب»:

من عفَّ خفَّ على الصديق لقاؤهُ ... وأخـــو الحـــوائـــج وجــهُــهُ مملـولُ

وأخـــوك مـــن وفـــرتَ مـــا في كيسه ... فـــإذا عـبـثـتَ بــه فــأنــت ثقيلُ

الإعجاب بالسخي وذم الشحيح والمنان

قال «الأعمشي»: أدركت أقوامًا كان الرجل منهم لا يلقى أخاه شهرًا أو شهرين، فإذا لقيه لم يزده على: كيف أنت، وكيف الحال. ولو سأله شطر ماله لأعطاه. ثم أدركت أقوامًا لو كان أحدهم لا يلقى أخاه يومًا سأله عن الدجاجة في البيت، ولو سأله حبة من ماله لمنعه.

أخ لك ما تـــــــــراه الدهـــــر إلا ... عـلـى الـعـلات بـسـامًـا جـــوادا

قال «المتنبي»:

يُعطي فلا مَطَلــةٌ يُكَـــدِّرُها   بــهـا ولا مَــنَّــة يُـنَـكِّـدُهـا

وقال أيضًا:

يعطيك مبتدرًا فإن أعجلته   أعطاك معتذرًا كمن قد أجرما

وقال «إسحق بن إبراهيم الموصلي»:

أرى الناس خلان الكريم ولا أرى   بخيلاً له حتى الممات خليلُ

وإني رأيت البخل يزري بأهله   فأكرمت نفسي عن أن يقال بخيلُ

فعالي فعال المكثرين تجملاً   ومالي كما قد تعلمين قليلُ

قال «بكر بن عبد الله المري»: إذا انقطع شسع نعل صاحبك فلم تقف عليه، فلست بصاحب.

إذا كنت ربًّا للقلوص فلا تدعْ   رفيقك يمشي خلفها غير راكب

أنخها فأردفه، فإن حملتكما   فذاك، وإن كان العقاب فعاقب

مرارة الحاجة إلى مال الصديق

يقولون إن صديقًا في السوق، خير من مال في الصندوق، وإن الصديق إذا طلب، فليس ثمة غد؛ وإن مال الصديق مالنا، ومالنا ماله، وإن أول واجبات الصديق أن يسعف صاحبه عند الحاجة، وإن الصديق يعرف عند الضيق.

ويقولون أيضًا: طيّب أن يكون لنا أصدقاء، ورديء أن نحتاج إليهم. . وقد روي عن «علي بن أبي طالب» أنه قال: من أراد البقاء ولا بقاء، فليباكر الغداء وليخفف الرداء. قيل وما في خفة الرداء من البقاء، قال: قلة الدَّيْن؛ فإن أعوزه ذلك إلا استمناحًا فهو الرق المذل. ولذلك قيل: لا مروءة لمقل. وقال بعض الحكماء: من قبل صلتك فقد باعك مروءته، وأذل لقدرك عزه وجلالته.

الضرورات تبيح المحظورات

جاء في «أدب الدنيا والدين»: ومن دعاه الاضطرار لنائب ألمّ، أو حادث هجم، إلى الاستعانة بمن يتنفس به من خناق كربه، ويتخلص به من وثاق نوائبه، فلا لوم على مضطر. فإن أغنته الاستعانة بالجاه عن الاستعانة بالمال، فلا عذر له في التعرض للمال؛ ويعدل إلى ولاة الأمور، فإن الحوائج عندهم أنجح وهي عليهم أسهل، وهم لذلك مندوبون.

القرض المردود أهون من الصلة والجود

فإن تعذر عليه صلاح حاله إلا بمال يستعين به على نوائبه كان له مع الضرورة فسحة؛ لكن إن وجده قرضًا مردودًا، لم يأخذه صلة وجودًا: فإن القرض مستسمح به في المروءات. هذا رسول الله ﷺ، مع ما أعلى الله من قدره وفضله على خلقه، قد اقترض ثم قضى فأحسن. وقال ﷺ: من أعياه رزق الله تعالى حلالاً، فليستدن على الله وعلى رسوله. وقال: المستدين تاجر الله في أرضه.

وقال «البحتري»:

إن لم يكن كثْر فَقُلٌ عطيةٍ يبلغ بها باغي الرضا بعض الرضا

أو لم يكن هبة فقرض يسرت أسبابه، وكواهب من أقرضا

ولئن كان الدين رقًّا فهو أسهل من رق الإفضال، والصديق المعوز معذور في اللجوء إليه، والصديق الكريم من واجبه إسعاف صديقه بحاجته ما وسعه إسعافه، على أن ينسى قرضه، ولا يتوقع أبدًا رده.

الصديق المترقب رد دينه

الأصل أن يعطي الصديق غير متوقع ردًّا؛ فأما إذا توقع الرد، فإنه ينقلب دائنًا ولا يعود صديقًا. والدين قائم في الواقع بالنسبة للصديق المقترض، أما الصديق المقرض فإنما أسمى عطيته قرضًا، تهوينًا على صاحبه وضنًّا بماء وجهه؛ فإن أبى إلا أن يعتبرها دينًا، فهو ليس بصديق.

القرض يقضي على الصداقة

يتحدث «ثكرى» عن ورقة من ذات خمسة الجنيهات تقوّض علاقة بين أخوين عمرها خمسون عامًا. وإنه ليبدو أن طريق خسران الصديق أن تقرضه نقودًا، لأن قليلاً من الصداقات تتحمل اختبار النقود.

ذلك أن المفروض أن المقترض يعجز غالبًا عن الوفاء، بعد أن أوصله العسر إلى الاستدانة، مما يجعل الرد مستبعدًا عند المقرض الحصيف.

ثم إن المقترض، ولاسيما الذي يسهل عليه هوان القرض، يكون قد صار إلى حال من التحلل الخلقي، يضعف من مروءته ويقلل من احترامه لذاته.

الإقراض يضيّع الصديق والنقود

قال أحد الشعراء الأجانب: كان لي مرة نقود، وصديق؛ أردت أن أدخر الاثنين. أقرضت نقودي لصديقي، واعتمدت على كلمته. ثم التمست نقودي من صديقي بعد أن طالت حاجتي إليها: فقدت نقودي وصديقي. والآن، ألم يكن هذا خطأً؟

يسترد دينه على يد محضر

مع أن «أديسون» كان رقيق الحال، فقد أقرض صديقه «ستيل» مقادير كبيرة من المال، وصلت إلى ألف جنيه في بعض الأحوال.

وإن «أديسون» ليتلقى من «ستيل» خطابًا يلتمس المعونة في كلمات مثيرة للشجون، آخذًا على نفسه العودة إلى سواء السبيل، والتعجيل برد الجميل. وإن «أديسون» ليتحسر على صاحبه المسكين الذي لا يجد زبالة من شمع، أو مكيالاً من فحم، أو رصيدًا لدى القصاب يشتري كتفًا من ضأن، فينال الأمر منه، ويعتزم حرمان نفسه من بعض أجزاء لازمة لسلسلة كتاب: «القياصرة الاثنا عشر»، وأن يرجئ شراء الطبعة الجديدة من (قاموس «بابل») في التاريخ والنقد، وأن يتقلد سيفه القديم ومحمله سنة أخرى، ليتمكن بهذه الطريقة من إرسال مائة جنيه إلى صديقه. فلما زاره في اليوم التالي، ألفى عشرات من الرجال والنساء مجتمعين حول مائدة تنوء بثقل «الشمبانيا» و«البورجاندي»، وبأهرامات الحلوى. أفيستغرب ممن أُسيئ إلى حنانه بهذا القدر، أن يبعث بالمحضرين يستردون له حقه؟

الفصل الخامس
الإيثار على النفس

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ —«قرآن كريم»

الصداقة مدرسة مكارم الأخلاق

الصداقة مدرسة مكارم الأخلاق، تتفتح في جنتها المشرقة أكمام أكمل الفضائل، وأسمى الشيم والشمائل، فليس مثلها وازع للصديقين على الاستزادة من صفات النجدة والفداء، والتمكن من ملكة صدق الحكم على الأشياء، والترقي في مراتب الصدق والأمانة والوفاء، والتجمل بالعدل والشجاعة والسخاء، والتحلّي بالنخوة والمروءة والإباء.

الصداقة صنو الفضيلة

وقد اعتبر «أرسطو» الصداقة فضيلة، أو مرتبطة بالفضيلة، وهو ما حداه على التصدي لها في كتاب «الأخلاق».

يضمن صديقه برقبته

كان الطاغية «دايونيسيوس» قد قضى بقتل «بيثياس» سنة ٣٨٠ قبل الميلاد، لمجرد اشتباهه في عدم ولائه.

وكان لـ «بيثياس» أراضٍ وأقرباء في اليونان، فالتمس إذنًا بالسفر لترتيب شؤونه، على أن يعود، في موعد محدد، لتنفيذ العقوبة. وقد أغرب الطاغية في الضحك ساخرًا من طلبه؛ فأجاب «بيتياس»، وكان فيثاغوريًا من «سيراكيوز»، وهي مدينة يونانية عظيمة في «صقلية»، إن له صديقًا ارتضى أن يكون رهينة يضمن أوبته. وبينما كان «دايونيسيوس» وهو الرجل التاعس الذي لا يثق في آدمي على وشك التهكم عليه لسذاجته، انبرى فيثاغوري آخر اسمه «دامون» متطوعًا بأن يكون رهينة ينفذ فيه حكم الإعدام إن تخلف صديقه عن الرجوع في الموعد المضروب. فأجابه «دايونيسيوس» إلى طلبه مذهولاً، متعجبًا مما عسى أن تسفر عنه هذه المغامرة.

ولما مر الوقت ولم يظهر «بيتياس» راقب السيراكيوزيون «دامون» فلم يلحظوا عليه قلقًا. قال إنه واثق من صدق صاحبه وشرفه، ولئن عاقه طارئ عن العودة، فإنه ليسعده أن يموت لينقذ حياة شخص عزيز عليه بهذا القدر.

وظل «دامون» هادئًا مطمئنًا حتى اليوم الأخير، لا تتحلحل ثقته رغم دنوّ الساعة دون ظهور «بيثياس». كان إيمانه كاملاً، على حدّ أنه لم يجزع حتى من الموت فداء صديق عديم الوفاء، تركه للمصير الذي أسلم إليه نفسه غير متحرز. فلما جيء بمرسوم الإعدام وأدوات التنفيذ، صدع بأنها لم تكن إرادة «بيثياس»، بل هي الرياح والأمواج. وأزفت الساعة، وإذ

لم تبق غير دقائق تزهق بعدها روح «دامون»، أقبل «بيثياس» وقدم نفسه معانقًا صديقه، ودلف يستقبل الحكم هادئًا، ثابتًا منشرحًا لوصوله في الميعاد.

ومع أن دين هذين الرجلين الباسلين لم يكن ينبئ صراحة بحياة بعد الموت، فإن مجرد الأمل الغامض في حالة مستقبله كان كافيًا لأن يحدوهما على الوفاء بالوعد، وأن يواجه كلٌّ منهما الموت غير هياب، في سبيل صاحبه.

وأطلّ الطاغية على الرجلين الشجاعين مشدوهًا مقتنعًا بأن مثلهما حريّ بأن لا يموت. وألغى الحكم عن «بيثياس» واستدعى الصديقين إلى منصته راجيًا أن يقبلاه صديقًا ثالثًا، وإن لازمه الشعور بأن من العبث أن يتوقع التسامي إلى مستواهما الرفيع بعد أن فقد مجرد المقدرة على الثقة، ودأب على التضحية بالناس حماية لحياته؛ على حين إنهما لم يحسبا حياتهما غالية لديهما لقاء الوفاء بالعهد، وفي سبيل محبة كلٍّ منهما لصاحبه.

«فيلون» صديق «الإسكندر»

جاء في «المقابسات» لـ «أبي حيان»: أن «الإسكندر» كتب إلى معلمه «أرسطو» يقول: رأينا في اللجّة من ذلك الخليج شيئًا بارزًا كهيئة الجزيرة، فأردت عبوره فمنعني عنه صديقي «فيلون» وقال: بل أعبر أنا أولاً، فإن كان هناك مكروه وقع فيَّ دونك. فعبر «فيلون» وعدّة من إخواني وخلصائي، فإذا ذلك الذي رأينا دابة عظيمة، فلما دنوا منها غاصت في البحر فاضطرب الماء وغشي الموج سفائن أصحابي فأغرقها، فلما شاهدت ذلك اشتد جزعي على صديقي «فيلون» ومن غرق معه من خلاّني، وانصرفت عن ذلك بقلب مصدوع، وطرف مولع بالدموع.

الصديق يفتدي صاحبه

ما من مكانة يمكن أن يرتقي إليها الإنسان هي أسمى من أن يجود بنفسه فداءً لصاحبه. وقد قال السيد المسيح: ليس لأحد حب أعظم من هذا، أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه [أصدقائه].

«هذا التصافي لا تصافي المحلب»

وقد عرف العرب هذا التفاني في ظل الصداقة مما حدا «هُذيلاً» على تخليده بمثلهم القائل: هذا التصافي لا تصافي المحلب.

وأصله أن «هذيلا» أصابت دمًا في بعض العرب، فأسر أصحاب الدم رجلين من «هذيل» متصادقين، فقالوا لهما: أيكما أشرف فنقتله بصاحبنا. فقال كل واحد منهما: أنا ابن فلان الحسيب النسيب، فاقتلوني دون صاحبي.

فكل بذل نفسه للقتل فداء صديقه، فعيوا في أمرهما لما رأوا من تأبّيهما، وصفحوا عنهما، وقالوا فيهما مثلهم الذي معناه أن هذا هو التصافي، وليس تصافي المنادمة على الشراب.

«ابن المقفع» و«عبد الحميد الكاتب»

اختبأ «عبد الحميد الكاتب» عند «ابن المقفع» ففاجأهما الطلب: أيكما «عبد الحميد»؟ فقال كل منهما: أنا. خوفًا على صاحبه. وأشفق «عبد الحميد» أن يسرعوا إلى «ابن المقفع» فقال: ترفقوا بنا فإن كلاً منّا به علامات، فوكلوا بنا بعضكم ويمضي بعض آخر يذكر العلامات لمن وجهكم؛ ففعلوا وأُخذ «عبد الحميد» إلى السفاح فقتله.

يسبق أصحابه إلى السياف

رُوي أنه سُعي بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم، وفيهم «أبو الحسين الثوري» فبادر إلى السياف ليكون هو أول مقتول. فقيل له في ذلك؛ فقال: أحببت أن أوثر إخواني بالحياة في هذه اللحظة، فكان ذلك سبب نجاة جميعهم!

وقال «أبو حيان»: وأنا أسأل الله إذا منّ بالنعمة أن يجعلك المقدّم فيها، وإذا امتحن بمحنة أن يجعلني وقاية لك.

يسخو بكليته لصديقه

والصداقة في زماننا لا تعوزها الشجاعة، والأصدقاء في أيامنا لا يقلون تفانيًا في افتداء أصدقائهم، فقد نشرت الصحف في ٧ من سبتمبر ١٩٦٢ صورة الدكتور «دافيد سينسر» خارجًا من المستشفى على كرسي تدفعه ممرضة، وقد كست وجهه ابتسامة الرضا بعد استئصال كليته التي تبرع بها لصديقه الدكتور «إبان كلارك»، وكان مهددًا بالموت بسبب اعتلال كليتيه.

ولم يمنع الصديق من تعرض نفسه لخطر الموت فداء صديقه، ما يعرفه وهو طبيب، من أن ٩٥ عملية نقل كلى قد أجريت، ثلاثون بين توائم، لم ينجح منها غير ٢٦ عملية؛ أما العمليات الخمس والستون الأخرى، فلا أمل في أن نصادف نجاحًا مستمرًّا، وإن كان واحد من الذين نقلت إليهم كلية في لندن قد عاش أكثر من ١٨ شهرًا، كما عاش آخر في باريس أكثر من سنة (ما زال حيًّا). كان هذا منذ سنين، أما الآن فقد صار زرع الكلى عملية يمكن إجراؤها بنجاح تام لمن هم دون الرابعة والأربعين.

ولي كبد مقروحة من يبيعني بها؟

ومن طريف ما قرأناه خبر نشرته «وكالات الأنباء» في ٤ من ديسمبر ١٩٦٨ من «جوهانسبرج»، مؤداه أن «هانز ميتار» وعمره ٣١ سنة، عرض كليته الثالثة، مقابل ٥٨٣٣ جنيهًا إسترلينيًا.

وإذا كان هذا ثمن الكلية الزائدة على حاجة صاحبها، فكم تساوي إذن كلية الدكتور «دافيد سينسر»؟

الفصل السادس
المروءة؛ والوفاء

المبحث الأَوَّل

المـــــروءة

«من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدّثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم؛ فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته»—«حديث شريف»

الصداقة تصنع المعجزات

قلنا في فاتحة الكتاب إن الصديق يكاد يصنع المعجزات لأجل صاحبه، مما قد يعجز عن صنع بعضه في سبيل نفسه: إنه يقدم من أجل صديقه عالمًا أن الإقدام قتال، وإنه ليسخو في سبيله بالنفس والمال.

المروءة طابع الصداقة

العقل يأمر بالأنفع، والمروءة تأمر بالأجمل، فهي دليل الفضل وعنوان الكرم؛ لذلك قال النبي ﷺ: إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره دنيّها وسفسافها. وقال «عمر بن

الخطاب»: لا تصغرن هممكم، فإني لم أر أقعد للمكرمات من صغر الهمم. وقال بعض الحكماء: إذا طلب رجلان أمرًا ظفر به أعظمهما مروءة.

قال «أبو تمام»:

والحـمـدُ شهدٌ لا يُـرى مشتاره   يجنيه إلا مـن نـقـيـع الحنظل
غُـــلٌ لحـامـلـه ويحـسـبُـه الـذي   لم يـوه عـاتـقـه، خفيفَ المحمل

وقال «المتبني»:

لولا المشـــقةُ ســاد الناسُ كلُّهـــم   الجـــودُ يُـفـقـر والإقــــدامُ قـتّـالُ

المخاطرة في سبيل الصديق

وكثيرًا ما رأينا الأصدقاء يخاطرون للقيام بما يفرضونه على أنفسهم من واجبات لشد أزرنا والوقوف بجانبنا في مواجهة السلطان، ومغالبة تقلبات الزمان. ومن ذلك ما كان من صديقينا اللذين نفرا إلى زيارتنا في جنح الليل، بالحجرة التي استودعناها في أحد أقسام القاهرة، بمجرد علمهما بالقبض علينا إثر مقال كتبناه اعتبر عيبًا في ذات الملك وسبًّا لرئيس الديوان، وقذفًا في حق رئيس الوزراء. وقد كانت مقاربتنا قرينة على عدم الولاء، بل معالنة بالعداء، لأصحاب السلطان، في ذلك الزمان.

ومنه ما كان من صديقنا الشيخ الوقور، رئيس الشيوخ ونقيب المحامين، الذي يمّم شطر المستشفى فاقتعد حجرًا أمام بابه الخارجي، مصممًا ألا يبرح موقعه أو يؤذن له بالزيارة، وهي ممنوعة بحكم القانون. حتى لقد اضطر مدير المستشفى والأطباء أن يستكتبونا رسالة

مطمئنة منطوية على رجاء حار بالانصراف. فلما عرف بعودتنا إلى دارنا، كان أوّل العائدين، وهو أكبرهم سنًّا، ومن أجلّهم شأنًا.

وثمة صديقنا الذي تحايل على زيارتنا في زيّ ممرض، وكنا قد نقلنا من سجن مصر إلى مستشفى الحميات؛ مع أنه موظف كثير العيال، ثقيل الأحمال، مهدد بالعزل لانتمائه إلى عهد ولّى وزال: جاء ليطمئن على صحتنا، ويتأكد من سلامتنا، ويمدنا بفيض من روحه القوية، وإيمانه المكين. وقد استحق صديقنا الراحل جائزة الدولة التقديرية، باعتباره أحد أئمة أدباء العرب الخالدين.

ولاشك أن الصداقة تساوي كل المكاره التي نستهدف لمواجهتها في سبيل صديقنا. ومخاطرة الصديق محل تكريم الناس وتقديرهم وإعجابهم؛ أما اتزانه والتزامه التحفظ والتحرز، فإنه لا يلقى إلا إعراضهم إن لم يثر اشمئزازهم، بل استنكارهم.

«يوسف» وجسد السيد المسيح

وقد سجلت الأناجيل الأربعة مخاطرة «يوسف الرامي» الذي كان تلميذًا للسيد المسيح في خفاء من خشية اليهود، والذي امتنع عن الانضمام إلى القائلين بقتله، بصفه كونه عضوًا في المجمع الذي حاكمه.

تجاسر هذا المستشار الشريف الغني الصالح البار، فبادر باقتحام عرين الحاكم الروماني مطالبًا بجسد عدو اليهود، المتهم بالتحريض على الثورة ضد إمبراطور الرومان؛ حتى لم يسع الحاكم إلا التعجب من أن المسيح مات كذا سريعًا.

وتعاون «يوسف» مع زميله «نيقوديموس» على إنزال السيد المسيح، وحنّطاه بمزيج مرّ وعود ثم لفّاه في أكفان من كتان نقي، ووضعاه في قبر جديد كان «يوسف» قد نحته في الصخر داخل بستانه.

المبحث الثاني

الوفـــــاء

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾—«الآيـــــة»

التمسك بالصداقة القديمة

الوفاء قرين المروءة وصنوها، وليس من الفضائل ما يفوقه قدرًا، أو يدانيه في نبالته.

اقتل ولدي! إني مانع جاري

تضرب العرب «السموأل» مثلاً في الوفاء، وكان «امرؤ القيس بن حُجر» أودعه أدرعًا مائة، فأتاه «الحارث» ليأخذها، فتحصّن منه «السموأل»، فأخذ ابنًا له غلامًا، وناداه: إما أن أسلمت الأدرع، وإما أن قتلت ابنك؛ فأبى أن يسلمها، فقتل ابنه بالسيف- قال:

وفـيـتُ بـأدرع «الـكـنـدي» إن ... إذا مـا الـقـوم قـد غَـدَروا وفيتُ

وفيه يقول «الأعشى»:

كن كـ «السموأل» إذ طاف الهمامُ به ... في جحفلٍ كسوادِ الليلِ جـرارِ

الأبـلـق الـفـرد مـن «تـيـمـاء» منزله ... حصن حصين وجـار غـير غـدارِ

قد سامه خطتي خسف فقال له ... قل ما بدا لك إني مانع جاري
فقال ثكل وغدر أنت بينهما ... فاختر وما فيهما حظٌ لمختار
فشكّ غير طويلٍ ثُمَّ قال له ... اقتل أسيرك، إني مانع جاري!

يحارب «كسرى» دفاعًا عن وديعة «النعمان»

خاف «نعمان بن المنذر» «كسرى»، وعلم أنه لا منجى منه ولا ملجأ، فأودع ماله وأهله عند «هانئ بن مسعود الشيباني»، ثم أتى «كسرى»، فقتله. وأرسل إلى «هانئ» يطالبه بوديعة «النعمان» وقال له: إن «النعمان كان عاملي، فابعث إليّ بوديعته، وإلا بعثت إليك بجنود تقتل المقاتلة وتسبي الذرية. فأرسل إليه «هانئ»: إذا رجل استودع أمانة، فهو حقيق بردها على من استودعه إياها، ولن يسلّم الحر أمانته؛ فسيّر «كسرى» إليه الجنود، ولكن «هانئ» انتصر وانهزمت الفرس.

ما كنت لألقى الله غادرًا

كان «مرداس» في سجن «عبد الله محمد زياد بن أبيه»، فقال له السجّان: أنا أحب أن أوليك حسنة، فإن أذنت لك في الانصراف إلى دارك أفتُدلج عليّ؟ قال: نعم. فكان يفعل ذلك به، وفيما كان ذات يوم، قتل بعض الخوارج صاحب شرطة «ابن زياد» فأصر أن يقتل من في السجن من الخوارج، وكان «مرداس» إذ ذاك خارجيًا، فقال له أهله: اتق الله في نفسك، إنك مقتول إن رجعت. فقال: ما كنت لألقى الله غادرًا وهذا جبّار، ولا آمن أن يقتل السجان؛ فرجع وقال للسجان: قد بلغني ما عزم صاحبك عليه من قتل أصحابنا، فبادرت لئلا يلحقك منه مكروه، فقال السجان: خذ أي طريق شئت فانج بنفسك.

أستحي منه والتُّرب بيننا

خرج «سليمان بن عبد الملك» و«يزيد بن المهلب» إلى بعض جبابين الشام، وإذا بامرأة جالسة عند قبر تبكي، فجاء «سليمان» ينظر إليها، فقال لها «يزيد» وقد عجب «سليمان» من حسنها: يا أمة الله، هل لك في أمير المؤمنين؟ فنظرت إليهما، ثم نظرت إلى القبر، وقالت:

فــإنْ تــســألاني عــن هــوايَ فـإنَّـه ... بـجـوفـاء هــذا الـقـبر يـا فتيان

وإني لأســــتحييه والتُّرب بيننــــا ... كما كنـتُ أستحييه وهـو يراني

يأبى مجرد التظاهر بعدم الوفاء

قال «مروان بن محمد» آخر خلفاء بني أمية لـ «عبد الحميد الكاتب» حين أيقن بزوال ملكه: قد احتجتُ إلى أن تصير مع عدوي، وتظهر الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك، وحاجتهم إلى كتابتك تدعوهم إلى حسن الظن بك، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي، وإلا لم تعجز عن نفع حرمي بعد موتي. فقال «عبد الحميد»: ما عندي غير الصبر معك، حتى يفتح الله عليك، أو أُقتل وإياك. وقد سبقت الإشارة إلى قتله في مبحث «الإيثار على النفس».

الوفاء سجية الأحرار

«ثبتت على حفظ العهود قلوبنا ... إن الــوفــاء سجية الأحــــرار»

وينوّه «داود» بالولاء، باعتباره أول فضائل الصداقة: «لا تترك صديقك وصديق أبيك».

التمسُّك بالصداقات القديمة

كما يحض «ابن سيراك» على الثبات وعدم التقلّب: «إياك أن تنقلب عدوًّا بعد أن كنت صديقًا، فإن هذا يورثك اسمًا رديئًا، خزيًّا وملامة».

ويقول «كونفيوشيوس»: إذا حرص أصحاب المكانة على صداقاتهم القديمة، ولم يتركوها تنهدم، توقف الناس عن ممارسة المكر.

مع صديقه إلى المشنقة وبعدها

يقول «كبلنج»: تسعمائة وتسعة وتسعون لا يطيقون إخفاء الخزي أو الضحكة الساخرة؛ ولكن الرجل الألف يقف بجانبك إلى المشنقة وبعدها.

مع صديقه بعد فقد عقله

كان «أوفريك» أكثر الأصدقاء إخلاصًا لـ«نيتشيه»، فأدار أمواله بعد إحالته إلى المعاش، وأسدى إليه كثيرًا من الخدمات النفيسة.

البـــاب الثالث

التزامات الصداقة بعد موت الصديق

لا تقف التزامات الصداقة عند البر بالصديق في حياته. بل تمتد إلى ما بعد وفاته، بتشييع جنازته وإحياء ذكراه، والترنم بمحاسنه ومزاياه؛ وقد تكلمنا عن تشييع جنازة الصديق في مطلب «الوداع» باعتباره الوداع الأخير.

يدفن صديقه المعوز

كان «كونفيوشيوس» إذا مات من أصدقائه من ليس له قريب يُحمل إليه، يقول: فليكن دفنه من داري.

حسن العهد من الإيمان

وقد وقف النبي ﷺ على عجوز، فقال: إنها كانت تأتينا أيام «خديجة»، وإن حسن العهد من الإيمان.

الدعاء للصديق بعد موته

قال «محمد بن يوسف الأصفهاني» الأخ الصالح، يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى. ويقال من بلغه موت أخيه فترحم عليه، واستغفر له، كتب له كأنه شهد جنازته، وصلى عليه. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء؛ ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ أو قريب، وإنه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال. وقال بعض السلف: الدعاء للأموات

بمنزلة الهدايا للأحياء، فيدخل الملك على الميت ومعه طبق من نوع عليه منديل من نور فيقول: هذه هدية لك من عند أخيك فلان، أو من عند قريبك فلان. قال فيفرح بذلك كما يفرح الحي بالهدية.

أمثلة من البرّ بالصديق بعد موته

وقد يكون البر بجثمان الصديق والاحتفال بدفنه، كما صنع «داود» بجسد «يوناثان»؛ وكما حنّط «يوسف الرامي» جسد السيد المسيح، وتولى كفنه ودفنه في قبر جديد منحوت في الصخر كان قد أعدّه في حديقته. أو بإحياء ذكرى الصديق كما صنع «مونتيني» إذ نشر مؤلفات صديقه «لابويسي» فخلد اسمه؛ و«ولبول» الذي نشر رسائل الكونتسة «داموند» صديقته. أو البر بولده وأهله ومن يحب، كما صنع «داود» بولد «يوناثان» حيث أمر بأن يتناول طعامه على مائدته، ورد إليه أموال أبيه وجده، وأعفى أبناءه من أن يسلموا للقتل أخذًا بالثأر من جدهم الملك «شاؤل». وكما بَرّ «أبيقور» بأبناء صديقه «مترودور» فلما حضرته الوفاه أوصى لهم، وكتب يستحلف تلميذه وصديقه «إيدومينييه» أن يرعاهم ويتولى شؤونهم من بعده.

الكتـــاب الخامس

انقضاء الصداقة

«فإن من اتخذ صديقًا وقطع إخاءه، وأضاع صداقته؛ حُرِم ثمرة إخائه، وأيس من نفعه الإخوان والأصدقاء»—«كتاب كليلة ودمنة»

البـــاب الأَوَّل

انقضاء الصداقة في حياة الصديقين

الفصل الأول
عموميات

الصداقة عرضة للانقضاء

لا بدَّ يومًا من انقضاء الصداقة كما ينقضي كل شيء في دنيانا، وقد يكون انقضاؤها مع بقاء الصديقين على قيد الحياة الدنيا؛ وكل الصداقات قابلة للانقضاء، ولو كان أساسها الفضيلة؛ ولكن صداقات المصلحة والتسلية هي أكثر الصداقات تعرضًا للانقطاع إذا تغيرت ظروف انعقادها، وهي لا تبرح في تغيير دائم صداقة الأطفال والناشئين.

كما تنقضي الصداقة بسبب موت الصديق، وإن كان من الأصدقاء من يأبى التسليم بأن الموت ذاته يعفّي على صداقته، بل يؤمن بأن العلاقة بين الأخيار حية لا تموت.

دوام الصداقة طوال العمر

سجل التاريخ صداقات ظل أطرافها أمناء لاختيارهم الأول، وتغلب وجدانهم على تقلب الزمان واختلاف الرأي، وتغير الحال. وقد أوردنا فيما تقدم أمثلة كثيرة على صداقات دامت مدى الحياة، ونحن نضيف إليها الأمثلة الثلاثة التالية:

«دي شوازيل» و«تالليران»: هو «أوجيست دي شوازيل» ابن أخت وزير «لويس الخامس عشر»، وكان أول لقائهما تلميذين في كلية «أركور»، حيث ربطتهما صداقة وثيقة لم يرنّق صفوها ظل خلاف، لازمتهما طوال حياتهما الحافلة. وقد كان «تالليران» يقول فيه: «إنه الرجل الذي أحببته أكثر من أي إنسان».

«رينود» و«تالليران»: كما أن «رينود»، الذي كان قسيسًا عامًّا حين عرفه «تالليران»، وهو أسقف «أوتون»، قد ظل على الدوام صديقًا له، وكاتمًا لسره، حتى إن «تالليران» صحبه إلى «سان كلو» على إثر الانقلاب الديركتواري حيث انعقد المجلسان.

«تالليران» و«أمابل دي بارنات»: لقي «تالليران» لأول مرة إبان الحملة البروسية سنة ١٨٠٦، وقد استمرت صداقتهما مدى الحياة، وكان «بارنات» مؤرخ دوقات بورجاندي هو الذي ألقى خطبة رثاء «تالليران» في مجلس الشيوخ.

صعوبة دوام الصداقة

كان من دأب «شيبيو» أن يقول: إنه لا شيء أصعب من الاحتفاظ بصداقة غير منقطعة تدوم إلى نهاية الحياة؛ لأن مصالح الطرفين قابلة للتصادم، وآراءهم السياسية عرضة للتعارض؛ فضلاً عن أن الشيخوخة والعجز والمصايب خليقة بأن تحدث تغييرات غير عادية في أمزجة الناس واتجاهاتهم وميولهم.

وكثيرًا ما اطرحت مع ملابس الطفولة الروابط القوية التي انعقدت في ظلها؛ ولئن اتفق أن استمرت إلى سن النضج، فإنه لا يستبعد أن تنفصم عروتها بسبب المنافسة على الزواج أو الشهرة، أو غيرهما من مباريات الشباب.

فإذا سلمت من هذه المخاطر، فثمة أسباب أخرى ليست دونها خطرًا، يمكن أن تصدع أواصرها: كأن يتنافس الطرفان في الظفر بمنصب، أو تشريف معين من الدولة؛ لما طبعت عليه النفوس السامية الحرة من تعطش إلى المجد؛ والمال والمجد هما عادة أفتك آفات الصداقة، فكم من مرة حوّلا فيها أحب الأصدقاء، إلى خصوم الداء.

حذار من إذاعة حدوث خلاف

ولكن على الطرفين أن يتحرزا من إتاحة فرصة للتعليق على أن الصديقين الدائمي المودة، لم ينقطع ودادهما فقط، بل انقلبا عدوين لدودين؛ لأنه ما من شيء هو أقل كياسة من شهر الحرب على من قرنا به من قبل وداد الألفة وحسن الصحبة. وأول ما يجب أن يتحراه الصديقان هو تحاشي مناسبات الخلاف، فإذا استحال تجنبها، فليلتزم الطرفان جانب الاعتدال وعدم التطرف، بحيث يبدو أن لهب الصداقة قد خفت مؤقتًا، ولم يخب بغتة.

فلنحترس من انقلاب الصداقة عداوة

وليحذر الصديقان بصفة خاصة من انقلاب صداقتهما النبيلة عداوة وبيلة؛ لأن الحصافة تقضي عليهما بالحفاظ على ذكرى صداقتهما السابقة، والتزام الصبر والأناة في تحمل ما قد يبدر من أحدهما من إشاحة أو تعريض أو تقصير.

لا تتعجل ثمار الصداقة

يقول «إيمرسون»: إن صداقاتنا تهرع إلى نهاية عاجلة قاحلة؛ لأننا جعلنا قوامها مدامًا وأحلامًا، عوضًا عن نسيج القلب الإنساني العضِل القوي.

إن قواعد الصداقة أبدية صارمة، وهي من نفس نسيج قوانين الطبيعة والأخلاق؛ ولكن لهفتنا على تحصيل منفعة سريعة تافهة، وشغفنا بارتشاف حلاوة مباغتة، يجعلنا نبتسر اجتناء أبطأ ثمرات جنة الله، التي يحتاج نضجها إلى مرّ كثير من الأصياف والأشتية.

النفس كالشجرة تنضو أوراقها

كما يقول «إيمرسون»: أنت لست وجودًا، كالحقيقة أو كالعدالة. أنت لست نفسي، ولكنك صورتها وتمثالها. قدمت إليّ أخيرًا ومع ذلك فها أنت تتناول قبعتك ومعطفك. أليس أن النفس تنضو أصدقاءها كما تنضو الشجرة أوراقها بمجرد أن تنبت براعم جديدة تطرد الورق القديم؟ سُنّة الطبيعة التناوب الدائم: كل حالة كهربائية تولد ضدها، والنفس تتحوّط بالأصدقاء، لتزيد معرفتها بذاتها أو لتزيد عزلتها؛ وهي تنفرد زمنًا، لكي تسمو بحديثها أو مجتمعها. وهذا الأسلوب ينمّ عن نفسه في كل تاريخ علاقتنا الشخصية يحيي غريزة الوجدان دائمًا الأمل في الاتحاد مع أقراننا، وحماسة الانعزال العائدة (المرتدة) تستدعينا من المطاردة؛ وهكذا يقضي كل امرئ حياته باحثًا عن الصداقة.

مخاشنة الصديق ومهاترته جارحتان

يقول «راندولف بورن»: مع نفاسة الصداقة، فليس فيها ما يمنع تقوّضها؛ لأن روابط الصداقة لم تقدّ من حديد، بحيث لا يؤثر فيها الشدّ الشديد، والعدوان العنيف. إن من صار صديقك لم يلتزم بتلبية كل ما قد يعنّ لك من طلبات. يطيب لبعض السخفاء أن يختبروا روابط صداقتهم، فيشدونها ليشهدوا درجة تحملها؛ فإذا تصدعت حسبوا أن الصداقة ذاتها قد ثبت عدم جدارتها. ولكن الحقيقة أن الصداقات الطيبة أشياء رقيقة

يحتاج تناولها إلى العناية اللازمة لتنال سائر النفائس؛ لأن الصداقة مغامرة وقصة خيالية، وفي المغامرات يحدث ما لا يتوقع. إنها هي نكهة الخطر التي تصنع إثارة الصداقة. كل ما هو غير سارّ ولا ملائم، غريب عن جوها. ليس للنقد الجارح ولا لتحدي الأخطاء محل في قدس الصداقة. إننا نتقبل من صديقنا أقل مما نتقبله من شخص لا يعني أمرنا.

انقطاع الصداقة كالطلاق

ولما كانت الصداقة في العصور القديمة تحتل المحل الذي تشغله عاطفة الأسرة في مجتمعنا العصري، فإن مشكلة انقطاع الصداقة كانت تثير من الاهتمام الشديد والمناقشات الحامية ما تثيره مشكلة الطلاق في زماننا.

لذلك نظم القدامى أسلوب قطع الصداقات كما وضعوا قواعد المبارزة، وكما سنّوا في القرون الوسطى قوانين الفروسية والتظرف.

وقد غالوا في تحديد الحالات التي يؤذن فيها بالقطيعة، والشكل الذي يجب أن تتخذه، والنتائج التي لابد من أن تتمخض عنها.

الفصل الثاني
تغيُّـــر الحـــال

المبحث الأَوَّل

أثر التغيير في صداقة الأطفال

فترة حافلة بالتغيير

أشخاصنا لا تبقى على حال، بل يعتريها التعديل المتواصل، تبعًا لتقدم السن، واختلاف العمل، وما تجيء به الظروف من تفاوت لم يكن موجودًا أو محسوسًا.

وأكثر ما يحدث التغيير في فترة النمو؛ فكلما تفتحت الحياة تطورت المطالب، والميول، والاتجاهات والخبرات، وتبدلت مقاييس اختيار الأصدقاء.

مرحلة النمو والتغير الاجتماعي

ولما كان الأطفال يمرون بمرحلة نمو جسدي، واتساع نفسي وتغيير اجتماعي، فإنه ليس بمستغرب أن يشبّوا عن طوق صداقة؛ ليدخلوا في صداقة غيرها. ويرجع ذلك إلى

التغير المستمر في حاجاتهم الاجتماعية، وقدراتهم على الاستجابة الشعورية، بسبب ترامي الحياة أمامهم.

الناضج أقدر على الاحتفاظ بأصدقائه

وقد بحث «هاروكس» و«طومسون» تقلبات الصداقة في ٩٦٩ طفلاً من أبناء المدن، و٩٠٥ أطفال قرويين، تتراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والثامنة عشرة؛ فوجدا اتجاهًا ملحوظًا نحو مزيد من الاستقرار في علاقاتهم كلما تقدمت بهم السن. وقد استخلصا من دراستهما أن من مميزات الشخص الناضج، مقدرته على الاحتفاظ نسبيًّا بصداقات مستديمة مع خلطائه.

صداقات أكثر استقرارًا

وهكذا تخلي صداقات الطفولة المتقلبة محلها، مع علو السن، لصداقات أكثر استقرارًا، قد تستمر في بعض الحالات مدى الحياة.

تغيُّر القِيَم والمُثُل يغير السلوك

وقد ثبت أن قلق الشباب الاجتماعي، مصدره الأصلي رغبتهم في أن يقبلهم أقرانهم، وأن مهمة التوافق تكون أحيانًا معقدة بسبب عوامل النمو التي تتمخض عن تغييرات في القِيَم والمُثُل، يترتب عليها تغييرات في السلوك.

ضيق الصبي بتغير سلوك أقرانه

والملاحظ أن التلميذ في سن المدرسة الثانوية، يفطن عادة إلى التغييرات في سلوك سواه، أكثر مما يتبينها في سلوكه. وهو يلاحظها بصفة خاصة فيمن كان معهم على علاقة وثيقة؛ لذلك قد يشتد كربه حين تؤدي التغييرات بالأولاد أو البنات الآخرين إلى تقليل اهتمامهم به.

اعتقاد الفتى بأن أقرانه متغيرون دونه

وحتى إذا أدت التغييرات في تقدير التلميذ الشخصي للقِيَم، وفي سلوكه، إلى فقدان اهتمامه بالآخرين؛ فإنه يظل مع ذلك ميالاً للاعتقاد بأن الآخرين هم الذين تغيروا دونه، وأن، الشخص الآخر هو الذي يتغير دائمًا تقريبًا، أكبر التغيير.

وجوب تسليم الصبي بحق صاحبه في التغيير

لذلك يجب على الطفل أن يفهم أن التغيير في طرق التفكير، وفي أساليب السلوك، هي امتيازات عليه أن يرتضيها لسواه، كما يسلم بها لنفسه؛ فيتعلم تقبل التغيير في سلوك أقرانه، باستقامة عاطفية تجنبه الشعور بأن من حسبهم أصدقاءه الحميمين، لم يتورعوا عن نبذه فجأة.

عاملا انقطاع صداقة الأطفال

يبدو أن ثمة عامِلَيْن لانقطاع صداقة الأطفال بعد انعقادها: البعاد؛ وحبوط المقدرة على سدّ الحاجات الاجتماعية من جانب أحد الصديقين، أو من جانبيهما معًا، فكثيرًا ما

تنقطع صداقات الأطفال بسبب عدم إمكان التقاء الطرفين، كأن ينتقل أحدهما إلى جهة بعيدة، أو مدرسة أخرى، أو ينهمك في مشغلة ما.

ومن ناحية الحاجة الاجتماعية، فإن انعقاد الصداقة يتطلب طفليْن لهما مقدرة متبادلة على تخفيف حاجاتهما الاجتماعية، فإذا حدث تغيير في أحد الطفلين فقط، فإنه يكفي لتقويض علاقة الصداقة.

المبحث الثاني

أثر التغيير في صداقة التلميذ بالأستاذ

صداقة غير متكافئة

هذه صداقة غير متكافئة، فيها شيء من عبادة البطل، فإذا ارتفع الغموض عن البطل بمقاربته، ومعرفة نواحي النقص في شخصيته، زالت الغشاوة عن عين العابد بعد أن عرف نفسه، وأدرك أن في وسعه أن يصير كالبطل، بل أن يفوقه.

«نيتشيه» و«فاجز»

ونحن نصادف أمثلة كثيرة لانفصام هذه العلاقة بين الأستاذ والتلميذ، وانقلابها إلى ضدها، ومن أبرز هذه الأمثلة «نيتشيه» الذي توثقت صلته بـ «فاجز» واستمرت زهاء ثلاث سنين، ثم بدأت تفتُر حتى انقطعت نهائيًّا في سنتها السابعة، فسبّب انقطاعها أقسى

آلامه؛ ومع أنه اصطنع كثيرين من الأصدقاء إلا أنه، باستثناء واحد أو اثنين، لم يسمُ بعاطفة الصداقة إلى المرتفعات التي توقلتها صداقته بـ «فاجز».

أفاد «نيتشيه» من أستاذه روحيًّا وعقليًّا، فلما تمكن عن طريقه من معرفة نفسه، والشعور بها، بدأ يتبين أوجه النقص في فن «فاجز» ويراه مشعوذًا تعوزه القدارة العقلية. ولكنه ظل طوال عمره، يعترف بأن علاقته بـ«فاجز» عاطفة كانت أهم حادث صادفه، وأنه تذوق في سياقها أسمى مسرات حياته.

ونحن نعرف أن كثيرين من المريدين الذين تتوثق علاقاتهم بالزعماء وأصحاب الرسالات، لا يلبثون أن يتنكروا لهم وينفضّوا من حولهم، وينبروا لنقد آرائهم، ومقاومة طرائقهم؛ وإن هذا ليكثر حدوثه في الأحزاب السياسية.

المبحث الثالث

التغير العاطفي

«أقتل أمراض الصداقة التحلل التدريجي، أو عدم المحبة التي تتزايد ساعة بعد ساعة لأسباب أتفه من أن تكون محلاً لشكوى، وأقوى من أن يُقدر على إزالتها».

—«صموئيل جونسون»

طرد وأسباب مستمرة للخلاف

من الصعوبة بمكان، أن يطّرد التعاطف مع قيام أسباب الخلاف حول المسائل الخلقية أو الدينية أو السياسية أو الاجتماعية؛ لأن تكرار مناسبات الشحناء يقتضي اتخاذ موقف

معين منها، فإذا التزم المستمع الصمت بإزائها كان خليقًا أن يخسر استقلاله وكرامته، وأن يحيق به الضيق والضنك؛ وإذا وافق صاحبه مجاملاً غير مقتنع برأيه، خالف ضميره وخذل مبادئه؛ أما إن خاض معمعة المعارضة والجدل، فإن الخصومة لا تلبث أن تتمخض عن انتصار يورث الزهو، أو هزيمة توغر الصدر، ولا ينفك الوهن أن يعتَوِرَ العلاقة ويقوّضها.

وقد يستمر تبادل الإعزاز والمجاملة، كما تظل فروع الشجرة مورقة بعد إصابة جذرها؛ ولكن سم الخلاف يكون قد دب إلى شغاف القلب، وإن لم يسلب بعد ابتسامة الثغر.

الاحتفاظ بسيولة العلاقات

وإن البعض ليذهب إلى حد القول بأن المرء يكون أكثر حرية إن استطاع أن يعقد العلاقات، ويفصمها تبعًا لتغير ذوقه وأحواله؛ وإن عواطفنا ما دامت عرضة للمد والجذر، فإنه لا مناص من الاحتفاظ بسيولة علاقات الصداقة، بحيث لا تعوقنا التزاماتها إذا ضقنا بها ذرعًا.

حين يفتُر تبادل السرور

ومن رأي هؤلاء أن الصداقة التي يمارسها البشر العاديون أو يتوقعونها، يجب أن تنشأ من السرور المتبادل، ويجمل أن تنتهي حين تتوقف قدرة كل من الصديقين عن إمتاع صاحبه. فإذا تناقص الميل إلى إدخال السرور، وقل الإقبال على تقبله؛ فلا رجاء في تجديد الصداقة، إذ تكون حينئذٍ قد أصيبت بأذرع أمراضها فتكًا، وهو الانحلال التدريجي الذي لا يبرح في ازدياد ساعة بعد ساعة؛ لأسباب أهون من أن تكون محلاً للشكوى، ولكنها غير قابلة للإزالة: المتغاضبان قد يتصالحان، والمضرور أصاب تعويضًا، ولكن حين

تتناقص في صمت رغبة إدخال السرور، والاستعداد لتقبله، فلا أمل في تجديد الصداقة؛ كالقوى الحيوية إذا اعتراها الضعف، فإنه لا جدوى من بعد في علاج الطبيب.

تشابه الميول الانفعالية للمحبة والكراهة

المحبة والكراهة نظامات تؤلفهما نفس الميول الانفعالية، وإن كان كلٌّ منهما يعمل في ظروف متضادة، فنحن نشعر بالسرور في حضور صديقنا، وبالأسف لغيابه، وبالغضب على من يؤذونه، والمودة لمن يؤازرونه.

وإن الأمر لكذلك بالنسبة للعداء والكره، فالكراهة أقرب إلى أن تكون عاطفة من أن تكون انفعالاً بسيطًا، ونحن نشعر بالكدر في حضرة عدونًا، وبالسرور لغيابه، والامتنان لمن يسيئون إليه.

ولعل هذا التشابه في الميول الانفعالية، والاهتمام القوي بالموضوع في حالتي المحبة والكراهة، يكون من أسباب سهولة تحول المحبة أحيانًا إلى كراهية، وتحول الكراهة إلى محبة، بطريقة غريبة غير قابلة للتعليل، تأمل ما كان من أمر «جرين» مع «كانط»؛ فإنه بعد أن دعاه للمبارزة، لم يلبث أن صار له صديقًا حميمًا مدى الحياة؛ و«تالليران» مع «ميرابو»؛ ومدام «دي رميسا» مع «تالليران».

علة تحول الشعور

فما علة تحول شعور المرء عن صديقه تحولاً تدريجيًا أو مفاجئًا؟ إلا أن الأمر ليقتضي تفهم النفس البشرية.

فمن الناس من يتناقص حبهم للحياة، فيقل تمسكهم بها بحيث يدمنون الخمر، أو يتركون أجسادهم تتضخم، أو يسرفون في الرياضة، أو يعالجون أنفسهم بدلاً من استشارة طبيب، أو يستشيرون الطبيب ولا يلتزمون مشورته، أو يفرطون في العمل، أو يستسلمون للكسل، أو يقودون سياراتهم بسرعة جنونية، أو يغالون في القلق، أو يتركون عُصابًا قابلاً للشفاء، يأخذ بخطامهم.

وكما يصل بالإنسان سوء تصرفه إلى خسران نفسه، فإنه قد يؤدي به إلى فقدان صديقه، إذ يحسب أنه لم يعد بحاجة إليه.

عمليات الانتقاض والابتناء

يرى «شاند» أن عواطفنا، حتى ما كان منها كالصداقة بطيء النمو لا ينبثق فجأة؛ تخضع لعمليات الابتناء والانتقاض التي لا تبرح الأولى تبني القوام العضوي لأجسادنا، في حين تعمد الأخرى إلى تقويضه وهدمه.

كذلك في الأخلاق، فإن ثمة اتجاهات مماثلة قبلتها تحقيق شكل أسمى للتنظيم الخلقي، وأخرى غايتها النزول به إلى شكل أدنى. وهذا هو منشأ الاعتقاد باستحالة الاستقرار على حال، فنحن لا نبرح نترقى أو نتدهور.

غريزتا الموت والتشبث بالحياة

بل لقد ذهب «فرويد» وغيره إلى حد القول بأن غريزة الموت دفينة في أعماقنا، توازنها غريزة التمسك بالحياة، وأن هدف الحياة هو الموت؛ وإن كل مظهر من مظاهر الحياة

العضوية ينم عن نتيجة النزاع الدائم بين غريزة حب الحياة بانتصاراتها الخارقة، وغريزة الموت بقوتها الجارفة، التي على سكونها وخفائها، لا يمكن مقاومتها.

فإذا صحت هذه النظرية، فإن الإنسان قد يعجز أحيانًا عن مقاومة الدافع على تدمير صداقته، عجزه عن مقاومة الحافز إلى قتل نفسه قتلاً كليًّا أو جزئيًّا.

حين نكره المحبوب

ومن المشاهد أن المرء إذا كره موضوع محبته، فإن كراهته إياه، إن تساوت الأسباب، تفوق كراهته لمن لم يسبق له قط أن أحبه، وتتناسب مع قوة المحبة المفقودة.

ندرة دوام الصداقة

يقول «صموئيل جونسون»: ليس في الحياة سرور أسمى ولا أنبل من سرور الصداقة؛ وإنه لمن المؤلم أن نعتبر أن هذه المتعة الجليلة يمكن أن تعوقها أو تقضي عليها أسباب لا عدّ لها، إذ لا يوجد بين ما يملكه البشر شيء دوامه دونها ضمانًا.

تحدث كثيرون بلغة بالغة السمو عن دوام الصداقة، واستمرارها الحريز، وعدم قابلية تعاطفها للتحول؛ وثمة أمثلة شوهدت لرجال ظلوا أمناء لاختيارهم الأول، وتغلبت وجداناتهم على تقلب الحظ واختلاف الرأي؛ ولكن هذه المناسبات إنما تروى لندرتها.

وما أكثر ما يطرأ من العوارض التي تخمد حرارة الحنان بغير أن تنطوي على وضاعة إجرامية من أحد الصديقين، أو تقلّب باعث على احتقاره.

إن إعطاء السرور ليس دائمًا في مقدورنا؛ كما أن الذي يعتقد أنه قادر على تقبله باستمرار، لا يعرف نفسه إلا قليلاً.

أنقاوم تغيير شعورنا؟

نتساءل بمناسبة ما يستهدف له شعورنا من تغيير: أمن واجبنا مغالبة هذه التغييرات ما وسعتنا مقاومتها؟

فإذا أخفقت جهودنا في إعادة المحبة إلى سابق عهدها، أفنظل مع ذلك على استعداد لإسداء خدمات تتناسب مع تأثرنا الوجداني القديم؟

يميل الناس عادة إلى الإعجاب بالإخلاص في الصداقة، والثبات على تأثراتنا الوجدانية، ويعتبرون هذا الاستقرار في العلاقات والاستمرار على المودات من أهم مقومات الخلق العظيم، وتتحرك طبائعهم عادة إلى محاكاة المخلصين الثابتين الذين يوفون بما عاهدوا عليه، ولا ينقضون الميثاق ولا يذرون الودّ، ما لم يسئ الصديق التصرف؛ وحتى في هذه الحالة فإنه لا ينبغي لنا أن نقطع صداقته ما لم تكن جريمته جسيمة جدًّا.

على حين يرى البعض أن التأثر الوجداني المحدث بالمجهود الإرادي المقصود، إنما هو بديل تافه للتأثر التلقائي المتجدد، وأن المهذبين ليرفضون تقبل هذه الوجدانات المنتحلة، لما ينطوي عليه إخفاء تغير الشعور من نفاق ومواراة.

قال «الكميت بن معروف»:

ألا إنَّ خَيْـــرَ الــودِّ وُدٌّ تطوّعتْ   به النفسُ، لا ودٌّ أتى، وهو متعِبُ

ضبط العواطف شيمة المتحضرين

ومن الناحية الأخرى، فثمة القائلون بأن تحكم الإنسان المتمدين في عواطفه كان بين أعظم عوامل ارتقائه من حالة الوجود الارتجالي، غير المخطط نسبيًّا، لعالم الحيوان؛ إلى حياة متميزة لها وزنها. وإن ميل الإنسان المتحضر إلى التخطيط لتحقيق أغراض بعيدة، حداه على إقامة مؤسسات تسند خططه وتدعم جهوده، وأن الفرد الراجح العقل بدلاً من أن يترك حبل عواطفه على غاربها، حريّ بأن يكفّ من غربها، ويأخذ بخطامها، ليسلس قيادها، بحيث تساهم في تنظيم حياته واكتمالها.

الملل النهائي

إنـــَّك مـا أعلـــم ذو ملـةٍ يُـذهـلـك الأدنـــى عَـن الأقـــدم

ومن الملل ما يؤدي إلى الترك والاطّراح، فتنقطع الصداقة ولا تعود. وقد أوردنا في مبحث «الإفراط في العتاب» تشبيه «ابن الرومي» عتاب الملول بالكتابة على الماء.

ضيق الناس بالملول

والصديق إذ يلاحظ أن صديقه قد ملّ صحبته، يعتريه شعور بأن كرامته قد مست، فلا يرضى لنفسه أن يتمسك بصاحبه ويكون طرفًا الصداقة قد صرمًا حبلها، ولم يعد أمل من بعد في وصلها.

وكنتُ إذا ما صاحبٌ ملّ صحبتي صددتُ وبعض الصدِّ في الحب أمثلُ
وقـلـتُ جميلاً حـين أصـــرمُ حبله إذا كان لم يـأتِ التي هي أجملُ

الملل من صفات السواد

لعل الملل من صفات سواد الناس المركوزة في أعماقهم، المسيطرة على أخلاقهم، وإن تفاوتت درجاته، واختلفت مظاهره. حتى ليسأم المرء نفسه فيسلو هواها، ويلتمس صحبة نفس سواها، بل إنه ليضيق بها أحيانًا فيقسو عليها، ويسيء معاملتها؛ وربما بطش بها فقتلها.

الأخيار لا يسأمون

ولكن الأخيار لا يسأمون، ولا يضيقون بأنفسهم أو بمن يحبون؛ لأن جمال الفضيلة الذي يستهويهم ويفرحهم لا يضوى رواؤه أو يتضاءل سناؤه، فإذا تآخوا على أساس من تبادل الإعجاب بفضائلهم، لم يسأموا أبدًا ولم يعترهم ملال ولا ضجر.

الملل المتقطع

ومن الناس من تعتريه فترات من الملل لا تلبث أن تنقضي فتعود مياه الصداقة إلى مجاريها، وليس كما قال الشاعر:

وقالوا يعودُ الماءُ في النهرِ بعدما ... عفتْ منه آبار وجفت مشارعه

فقلتُ إلى أن يرجعَ الماءُ عائدًا ... ويعشب شطاه، تموت ضفادعُه

المبحث الرابع

التغير النفسي والعقلي والجثماني

صديقنا مثلنا، وهو كسائر الناس في تبدل دائم: تتجدد كل خلايا جسمه فلا يبقى منها شيء، بل يحل غيرها مكانها، وتتكيف حالاته النفسية والروحية والعقلية وفقًا لتطور بيئته وظروفه وحاجاته ومقاييسه ومثله.

وكما يكون التغيير ترقيًا وتقدمًا، فإنه يكون توقفًا وتجمدًا على حال، أو تأخُّرًا وارتدادًا يعود بصاحبه إلى عهد الطفولة وأيام الصبا، فيتحول أسلوب سلوكه، ويطرأ عليه فجأة أو تدريجًا ما يذهله ويدهش أصحابه.

لذلك يجب أن لا نفترض أن صاحبنا هو هو، بل نتوقع احتمال تغيره، وحسبنا أن نلقي نظرة عابرة على ما يمكن أن يعتري أصحابنا من طوارئ روحية ونفسية وعقلية وجسدية، لنقابل تغيرهم بالصبر، وانتحال العذر، باذلين غاية الجهد في تحري مسرتهم، وإقالة عثرتهم، عوضًا عن أن ننعى عليهم التقلب والصد، ونبذ الود، ونقض العهد.

رد الفعل الاكتئابي

فالناس عرضة للإصابة بأعراض نفسية منوعة منها رد الفعل الاكتئابي العصابي، وقد تناولناه في «التكييف السيكولوجي لعاطفة الحزن».

الحماسة والاندفاع والمغامرة

وقد يضطرب السلوك تحت تأثير دوافع غير سائغة، يعبر عنها الشخص بمتابعة ميول لا معنى لها، أو مبالغ فيها، كهواية الجمع، التي تسبب إفلاس البعض في سبيل الحصول على قطع نادرة لمجموعاتهم، والمقامرة، وسباق الخيل، وتسلق قمم الجبال السامقة، ورحلات الكشف والصيد المتسمة بالتطرف في المغامرة.

القلق والانقباض والتوجس

وربما تغير الصديق على إثر حمى، أو هبوط في القلب، أو إصابة في الرأس أثرت على الدماغ، أو من الإسراف في تناول العقاقير المسكنة، أو من الانقطاع فجأة عن استخدام جرعات منومة، أو من الإدمان على شرب الخمر؛ فتعتريه حالة قلق وانقباض وخوف من وقوع مصائب وهمية.

تغيرات الشيخوخة

وقد يعتري الصديق، إذا علت سِنُّه، نقصان في الملكات العقلية، من جراء تغيرات ضمورية في الدماغ أو اضطراب في أوعيته الدموية، أو من فرط التوتر؛ وأمراض النقص، والأنيميا؛ ومن هذه الأعراض ما قد يكون تأثيره خفيفًا، وربما تناقصت الإصابة بدرجة ملحوظة، ولكنها قد تدحض الرصيد العقلي للمصاب.

كما تقترن الشيخوخة بعوامل إحيائية واجتماعية ونفسية تؤدي إلى تغيرات في الشخصية، فيضعف النشاط تدريجًا، وتفتر الاستجابة، وتتضاءل روح المبادرة، وقوة الخيال الخلاّق، وتضيق دائرة الاهتمام، وتزيد الأنانية. ومع تقدم السن تتناقص الموارد الجسدية

والعقلية، فتتولد أحاسيس بالعجز، تورث القلق الذي يحاول المصاب إخفاءه بوسائل استخدمها قديمًا في إعادة توافقاته؛ ولذلك، فإن الإنسان كلما تقدمت سنُّه، صار أشبه بنفسه. فإن ضغط قصوره العقلي والجسدي المتزايد، والوحدة الناجمة من فقد الأصدقاء والأقارب، وربما إعراض الأبناء؛ يولّد قلقًا قد يثير أساليب واقية منوعة، منها توكيد الذات إلى حدّ الاستبداد.

ومن المتقدمين في السن من تورثهم أحاسيس عدم الأمن ونقص الكفاية، ضيقًا في الصدر، فتشتد رغبتهم في المشاكسة، وتتسع الشقة بينهم وبين بيئتهم وأصدقائهم وأسرهم.

وقد تطرأ هذه التغييرات منذ نهاية العقد الرابع من العمر، فيبدأ تضاؤل النشاط الجسدي، وتتناقص درجة التحمل، وتضعف قوة الذاكرة، وتقل المقدرة على استيعاب المعلومات الجديدة. وتظهر بدرجات متفاوتة اللامبالاة، وسرعة الانفعال، والجمود، والعناد، وعدم الرغبة في التحول عن الأنماط المعتادة. ويعود إلى الظهور في أزياء جديدة ما بقي بغير حل من مشاكل الطفولة والصبا والمراهقة والبلوغ، الخاصة بالعلاقات بين الأشخاص.

المبحث الخامس

التغير في ظروف أحد الصديقين

المطلب الأَوَّل: تفوق أحد طرفي الصداقة

أولاً: أثر التفوق في المتفوق

«إذا ولي أخوك ولاية، فثبت على نصف مودته لك، فهو كثير»—الغزالي

التغيير الناشئ من نشوة النجاح

يحدث النجاح تحولاً عجيبًا، حتى في راجحي العقل، من المتواضعين، غير المدعين؛ فإن الارتقاء إلى المرتبة الرفيعة يورث نشوة تميد منها بعض الرؤوس الرصينة.

١- المتفوق الجدير بالتفوق

يرى صديقه أحق منه بالسبق

ولكن أهل الفضل الجديرين بالنجاح، لا يستكثرونه على أنفسهم، بل يزيدهم النجاح احتفالاً بأصدقائهم إذ يرونهم خليقين مثلهم بالتقدير، بل يجدونهم أولى منهم بالسبق وأجدر بالتمييز.

ولم أرَ كالنجاح مقويًا للقلوب الكبيرة، ودعامة للأخلاق العظيمة، يسمو بأصحابها ويصقلهم، ويزيدهم محبة لأصدقائهم واعتزازًا بصداقتهم، وحرصًا على تكريمهم والتنويه بفضلهم؛ وتذليل ما يعترض سبيلهم من عقبات.

الغيرة البنّاءة من الصديق الناجح

وكما أن المغالاة في الغيرة حماقة، فإن الغيرة المعقولة حكمة. ذلك أن الصديق تحفزه غيرته غالبًا على الجهاد في سبيل الاستزادة من المزايا والإمكانيات التي تؤهله للحاق بصديقه والاحتفاظ باحترامه وتقديره.

أنحسد الصديق بعد موته؟

يقول «شيشرون»: إنه أسف لموت صديقه «شيبيو»، ولكنه يعتبر الحزن على وفاة مثله أقرب إلى الحسد منه إلى الصداقة، إذ إن صديقه قد حقق قبل موته كل ما يمكن أن تتوق إليه نفس بشر، فإذا اشتد حزننا عليه مع ذلك، فلتطلعنا أن تكون حياتنا في مثل امتلاء حياته ومجدها، فحزننا هو في الواقع على أنفسنا؛ أما هو فقد كان كل ما فيه مما يغبط صاحبه عليه ويحسد.

وقد تناولنا هذا الرأي في مبحث «وسائل الناس لتحامي الحزن وتلطيفه».

ومن رأينا أن الأنانية في حزننا على الصديق ترجع قبل كل شيء إلى شعورنا بالخسارة، لا إلى أسفنا على التخلف عن بلوغ شأوه.

٢- المتفوق غير الجدير بالتفوق

يطلّون على أصدقائهم من عَلٍ

وثمة من يسكرهم النجاح فيطلون من علٍ على أصدقائهم؛ وقد تخلو نظرتهم من الاكتراث، وربما شابها الازدراء والاستصغار، أو خالطها الامتهان والاحتقار.

وسرعان ما تستحوذ علاقاتهم بزملائهم الطارئين على جُلِّ إعجابهم، وتستأثر بكل استحسانهم.

ويقول شاعر عربي يعاتب صديقًا أنساه مجده الجديد أصدقاءه القدامى:

إن الكرامَ إذا ما أيسروا ذَكَـــروا من كان يألفهُمُ في الأعصر الأولِ

ولكن مجرد الذكر أضعف الإيمان، وقل أن يقتنع به الصديق الأبيّ أو يرتضيه.

الغطرسة تثير التمرد

والغطرسة تنطوي على شيء من عدم المساواة، فهي صورة من الجور، بل الظلم؛ ولما كان الصديق أقرب ذوي القربى، فإن ظلمه أشد غضاضة على النفس من وقع الحسام المهند.

وقد أحسن «جرير» التعبير عن هذا المعنى بقوله:

وإني لأستحيي أخـــي أن أرى له عليّ من الحـق الـذي لا يـرى ليا

وقد سبق أن سقنا هذا البيت، والبيت الذي يليه في مطلب «العدالة والمساواة».

كما قال شاعر آخر:

ولستُ بهيابٍ لمن لا يهابني ولست أرى للمرءِ ما لا يُرَى ليا

ولعله لا يقصد الصديق؛ لأن الصديق كثيرًا ما يرى لصديقه فوق ما يراه له صديقه.

حتى إذا راح والملوك معًا

وقال «محمد بن مهدي»:

كان صديقي وكان خالصتي أيام نجري مجاري السوق

حتى إذا راح والملوك معًا عدّ اطّراحي من صالح الخلق

خليت ثوب الفراق في يده وقلت هذا الوداع فانطلق

لبسته لبس الجديد على الـ ـقُرّ، وفارقت فرقة الخلق

عندما يتفوق الصديق في أمريكا

من الناس من يلقى بعض أصدقائه على كل درجة يرتقونها في سلم المجتمع، فيحرمون قلوبهم تذوق نعيم الثقة المتبادلة، ويدمرون قدرتهم على المصادقة، وأنهم ليلقون جزاءهم في أن يعيشوا بقلب أرمل.

وقد نشرت مجلة «إجراءات المكتب العصري» مقالاً خلاصته أن تنظيم المكتب الجيد الإدارة يجب أن يكون على أساس طبقي يمتد حتى إلى خارج دائرة العمل، فيشمل الأسرة نفسها.

ودلت الاستفتاءات التي أجرتها المجلة على أنه لما كان يجب أن يعطي البعض الأوامر، كما يتعين على البعض الآخر أن يتلقاها؛ فإن صداقة الرئيس بالمرؤوس من شأنها أن تؤدي إلى الإضرار بمصلحة العمل، إذ لا بد للرئيس من أن يلجأ أحيانًا إلى الشدة مع مرؤوسيه، وإنه ليعجز عن ذلك، إذا ربطته بهم صداقة حميمة.

لذلك فرضت بعض الشركات على مديريها الحديثي العهد بمناصبهم أن يقطعوا صلتهم بأصدقائهم، واعتبرت أن الزوجة قد تشكل خطرًا محدقًا بزوجها، إذا أصرت على استدامة صداقاتها مع زوجات مرؤوسيه؛ لأن علاقاتها بهن تعرقل مهمته، وتؤثر في عدالة أحكامه على من يعملون تحت إمرته.

وقد رسمت المجلة الخطة العملية البشعة التالية لإرشاد مديريها الجدد إلى طريقة التخلص من أصدقائهم ونبذ معارفهم:

١- اقطع تدريجًا صلتك بأصدقائك ومعارفك القدامى، بحيث لا تثير حفيظتهم.

٢- التمس أعذارًا منطقية للامتناع عن اللحاق بالأصدقاء في فترة تناول القهوة بين ساعات العمل، والتخلف من آنٍ لآخر عن غشيان الحفلات التي يقيمها العمال، مع زيادة مرات التخلف تدريجًا.

٣- اقبل أول الأمر دعوات المرؤوسين إلى بيوتهم، ولكن لا تدعُهم إلى دارك إلا جماعة، ثم امتنع فيما بعد بتاتًا عن تلبية دعواتهم.

٤- أتح لزوجتك فرصة أطول للتخلص من صداقاتها؛ لأن النساء لا تفهم الأنظمة المكتبية.

الذئب الأشهب يفترس صديقه

ومن الناجحين من لا يتورع عند اللزوم عن قتل صديقه الحميم، فقد روى «أرمسترونج» في كتابه «الذئب الأشهب»؛ أنه لما قدمت إلى «مصطفى كمال» وثيقة إعدام «عريف»، وكان قد انضم إلى المعارضة بعد تعاركه مع «مصطفى كمال»: عريف صديقه الوحيد، الذي وقف أمينًا بجواره طوال أيام حرب الاستقلال السوداء، في «سمسون» و«أماسيا» و«إيزيروم»؛ ولما قضى السلطان بإعدامه؛ وفي «سقاريا». «عريف» الذي شاركه في التآمر، وسكر معه في هذه الحجرة بالذات، والرجل الوحيد الذي فتح له قلبه، وكاشفه بطويته.

وقد قرر شاهد عيان أن الغازي حين وصل إلى مرسوم إعدام «عريف» لم تتغير معالم وجهه الذي لا ينم عن شيء، ولم يتردد، أو يعلق بكلمة، كان يدخن، فوضع سيجارته على حافة المنفضة، ووقع وثيقة إعدام «عريف» كأنها ورقة عادية؛ ثم واصل توقيع ما بعدها.

ثانيًا: أثر التفوق في المسبوق

الصديق لا يعرف الحسد

إن فضلاء الأصدقاء لا يعرفون الحسد، وكيف يعرفونه وهم في حكم الشخص الواحد، نجاح أحدهم انتصار لصاحبه، بل لعل لذة النجاح عند الناجح ومتعته، في أن يصير أقدر على البر بصاحبه، وأجدر بشرف صحبته.

وعندنا أن المتشائمين يخلطون بين الحسد، وبين ما قد يخامر الصديق من إحساس بالحاجة إلى بذل مزيد من الجهد في سبيل مسايرة صاحبه، وعدم التخلف عنه، والتوجس من احتمال تأثر العلاقة بالتغيير الطارئ، ولا سيما إذا كان خارقًا.

ولعل هذا هو ما حدا لورد «هاليفاكس» على أن يقول في صراحة منفرة: الأصدقاء، الذين هم فوق المصلحة، قلما يكونون فوق الحسد.

الصديق لا يتعزى بمصاب صاحبه

والصديق إذا لحق الأذى صديقه، لم يحمد المقادير لأنه سلم دونه، بل هو يؤثر أن يكون فداءه؛ لأن شعوره بالمصيبة التي تحل بصاحبه يزيد على تأثره بمصيبته؛ كذلك إن ابتسم له الحظ دون صاحبه، فإن سروره لا يزيد؛ لأن الدنيا أقبلت عليه وحده، بل ينقص، فلا ينعم بحسن طالعه حتى ينصف الحظ صديقه، وحبذا لو تحقق إنصافه على يده، بسعيه وجهده.

لا تسوؤه محنة الصديق ولا يسره نجاحه

ومع ذلك، فإن من كبار الكتاب من يتخابثون ويغربون، ممعنين في مخالفة الإجماع والخروج على المألوف، ولعلهم يستخدمون كلمة «صديق» بمعنى زميل، أو شخص تربطنا به علاقة سطحية لا ترقى إلى مرتبة الصداقة؛ وإنهم ليرمون هؤلاء الذين يسمونهم أصدقاء بأنهم لا يضيقون بمصايب أصدقائهم، بل يجدون فيها ترفيهًا وعزاء، وإنهم لا يستطيبون نجاح أصدقائهم، بل يسرهم أن يتخلفوا عن بلوغ شأوهم.

يقول «لا روشفوكو»: نجد دائمًا في محن أصدقائنا، شيئًا لا يسوؤنا. أما «فاجيه» فقد ذهب إلى حدّ الزعم بأنه ربما كان في وسعه أن يقول أيضًا: «كثيرًا ما نجد في نجاح أصدقائنا شيئًا لا يسرنا.

ويقول «سويفت»: إننا في جميع نكبات أصدقائنا نفكر في مصالحنا الخاصة، والطبيعة حريصة على الترفيه عنا، بتوجيه نظرنا إلى ظروف الآخرين. وإن شعورنا بحسن حظنا يزيد إن قورن بسوء حظ غيرنا.

ويقول لورد «تشسترفيلد»: يستمتع معظم الناس في أعماقهم بتخلف أحسن أصدقائهم عن بلوغ شأوهم. وإن الذين يعرفون خداع القلب البشري وشره، لن يصل بهم عماهم أو «رومانتيكيتهم» إلى حد نكران ما أكده «روشفوكو» و«سويفت».

الصديق لا يتغطرس

ليس أدل على ضعف الخلق، وفساد الطبع، من أن يغري إقبال الدنيا أحد الصديقين بأن ينأى بجانبه عن صديقه.

حرج مركز الصديق المسبوق

وليس أشق على نفس الصديق من أن يتجرع هذه الغصص مجاملاً متجاهلاً، متساهلاً؛ يخفض جناحه لصاحبه منتحلاً له المعاذير، متوقعًا أن يثوب يومًا إلى سابق وده، ويعود إلى قديم عهده؛ وهو لا يزيد إلا إمعانًا في غطرسته وإدلالاً بما سخرته له المقادير من نجاح، أو ما حققته له الظروف من مجد لم يتح مثله أو بعضه لصاحبه.

الغطرسة قد تثير الغيرة والحسد

وقد تثير مثل هذه المعاملة حفيظة الصديق الجريح، أو تحرك فيه، إن كان ضعيف النفس، عوامل الغيرة، بل الحسد؛ فيرجو عودة الحال إلى ما كانت عليه؛ لأن الصديق لا

يتمنى لصديقه، على رأي «أرسطو»، أن يصير ملكًا أو إلهًا، خشية انقطاع صلته، وحرصًا على دوام صداقته؛ والأمر هنا يكاد يؤدي إلى نفس النتيجة.

وقد قال شاعر غيران:

تـــاه عـلـى إخـــوانِـــه «قـاســم» فـصــار لا يـطـرف مــن كِـبـرِه
أعــــادَهُ الله إلى حــالِــهِ فــإنــه يـحـسُـن في فَـقْـرِهِ

الغيرة تبدأ بالشك والخوف

يقول «شاند» في كتابه «أسس الاخلاق»: تبدأ الغيرة غالبًا بحالة من الشك والارتياب في فعل من نغار من منافسته إيانًا على شهرة أو جاه، فنشعر بالخوف أو القلق؛ لأننا مهددون بفقد ما نعتز به. أو بالعجز عن إحرازه.

فالخوف إذن ماثل في جذور الغيرة، وهو يظهر في سلوك الغيران، ويطفو أحيانًا إلى سطح الشعور فنحس به كالانفعال. لذلك يعرّف «ديكارت» الغيرة بأنها نوع من الخوف يتصل برغبتنا في الاحتفاظ لأنفسنا بحيازة خير ما.

لا تصاحب من يحجب شمسك

ولعل هذا الخوف هو الذي أوحى للبعض بأن يحذروا من مصاحبة من تحجب شمسه نورنا. وقد كان «إديسون» يحلو له أن يتحلق حوله أصحاب عاديون، تسطع عليهم شمسه، وما أكثر من يستطيبون هذا الوضع ولا يرتضون له بديلاً.

لو عرف الناس

ولعله هو الذي يدفع على تساهل البعض في تقدير قيمة أصدقائهم في غيابهم، فتندّ منهم عبارات يفسرها السامع بأنها استهانة بهم وانتقاص من قدرهم، وربما كان هذا ما حدا «باسكال» على أن يقول: إنه لو عرف كل الناس ما يقوله عنهم الآخرون، لما بقي في العالم أربعة أصدقاء.

الغيرة مقدمة الحسد

والغيرة نوع من الحسد، أو هي مقدمة الحسد، فعندما تضعف ثقة المرء بنفسه فسرعان ما يعتريه الخوف من أن يحسبه الناس متخلفًا عن صديقه، فيبادر إلى اتخاذ التدابير المحكمة لإظهار مزاياه، وقد يذهب إلى حد الغض من قدر صاحبه، ليعرف المستمع أنه ليس في الحقيقة دونه، إن لم يفقه بكثير.

المطلب الثاني: تخلف أحد طرفي الصداقة

أولاً: التخلف المادي والاجتماعي

يستنكر الناس تنكر الصديق

ما أشد ما يثيره تنكر الصديق لصديقه من نفور الناس واحتقارهم. وكما أن البشر يقدسون الأمانة والمروءة والوفاء والثبات على المبدأ، ويرونها فضائل يعتزون بها، فإنهم يكرهون المذبذبين المتقلبين الغادرين.

سبب استفحال الشكوى من تغير الأصدقاء

يبدو أن تغير الأصدقاء، يرجع معظم سببه إلى تخلف الصديق ماديًا أو اجتماعيًا؛ كأن تنزل به كارثة تطيح بماله، أو نكبة تجرده من جاهه.

يطيش صواب المرء في محنته

والمرء في محنته قد يعزب حلمه، وتختلّ موازين حكمه، فيتوقع من أصدقائه أن يخفّوا إلى نجدته، ويحفوا به في ملمته؛ فإذا بدا له أنهم متواكلون، أو معرِضون، أو مقصرون؛ اتهمهم في مروءتهم، وحكم بنذالتهم وخور عزيمتهم، وقطع بأن الصداقة خرافة ليس لها من الحقيقة نصيب، أو هي مثل لا شبه له بالواقع من بعيد أو قريب.

قلة حظ المفلحين من الأصدقاء

والمشاهد أن المفلحين قلما يظفرون بالأصدقاء الحقيقيين؛ لأن مصادقة المحظوظين المجردة من الاهتمام بالذات تتطلب قدرة لا تطيقها إلا النفوس النبيلة؛ فيكون معظم أصحابهم ممن تستهويهم أنوار النجاح، فإذا خبا السراج الوهّاج، انصرفوا عنه إلى حيث ينشدون ضالتهم ويلتمسون إربتهم.

يقلي المقلّ ويعشق المثري

وهؤلاء ينطبق عليهم قول «حماد عجرد»:

كم من أخٍ لك لستَ تنكره ... ما دمتَ من دنياك في يسرِ

متصنّع لك في مودته ... يلقاك بالترحيب والبشرِ

يطري الوفاء وذا الوفاء ويلـ ... حى الغدر، مجتهدًا، وذا الغدرِ

فـإذا عدا، والدهر ذو غِير، ... دهرٌ عليك؛ عدا مع الدهرِ

فارفُض بإجمال أخوّة من ... يقلي المقلّ ويعشق المثري

وعليك من حالاه واحدةً ... في العسر إما كنتَ واليسرِ

ولا تخلطنّهم بغيرهم ... من يخلط العقبان بالصقرِ

لعل لهم عذرًا

أما الأصدقاء الحقيقيون، فإن ما يلحقهم لنكبة صاحبهم من الحزن والضيق، قد يحدو بعضهم على الابتعاد، تهوينًا على أنفسهم، وانتجاعًا للراحة والاستجمام من همهم الناصب.

وإذا كان المرء يهرب من متاعبه، فلماذا لا نعذره إن تحاشى شجون صاحبه، لا عن جبن أو نذالة، بل غمًّا وكدرًا وأسفًا، ولا سيما حين لا تسعفه وسائله بالمبادرة إلى نجدته، وقضاء حاجته؛ أو حتى برد ما أسلفه إياه أيام سعوده وسعته من أيادٍ بيضاء، حان موعد البر بمسديها.

هذا من كرمهم

قالت زوج «عبد الله بن مطيع» عامل «عبد الله بن الزبير» على الكوفة، وأحد زعماء الثوار في «المدينة» على الخليفة «يزيد»: ما رأيت ألأم من أصحابك! إذا أيسرت لازموك، وإذا أعسرت تركوك. فقال: هذا من كرمهم؛ يغشوننا في حال القوة منّا عليهم، ويفارقوننا في حالة العجز منّا عنهم.

المغالاة في توقع برّ الأصدقاء

أما القادرون على المشاركة، فمنهم من يسخو بما في وسعه، وقد لا يراه الصديق المنكوب كافيًا لسد حاجته، أو متناسبًا مع سابق أريحيته؛ فيضيق صدره، ويشتد كربه، ويرمي أصحابه بالتقصير، بل يكاد يحملهم مسؤولية محنته، التي ربما جرها عليه سوء تصرفه أو قصر نظره، وقلة تبصره.

عندما يراجع المأزوم دفاتره

ولسنا نحسن الظن بالمنكوب الدائم الشكوى من الزمان والإخوان؛ فإن المؤمن يتلقى قضاء الله راضيًا مطمئن القلب، متوكلاً على الله الذي له ملك السماوات والأرض، متعاليًا عن البحث في دفاتره القديمة عن ديون وخدمات لم يسدد أصحابه حسابها؛ فإن هذا يثني عزيمته عن السعي في مغالبة زمانه، واستعادة مكانه.

نماذج من عويل المنكوبين وأنينهم

ونورد فيما يلي نماذج من عويل بعض المنكوبين، الناعين على الصداقة، العائبين على الأصدقاء.

يستأسد إذا احتجت لرفده

وصـــاحـــبٌ كـــان لي وكـــنـــتُ له ... أشـــفـــقُ مـــن والـــدٍ عـلـى ولـــدِ

كـنـا كـســاقٍ تسعى بـهـا قـدمٌ ... أو كـــذراعٍ نيطت إلى عضُد

حـتـى إذا أدنـــت الحـــوادثُ من ... خطوي، وحـلّ الزمان من عُقدي

احْـــوَلّ عـنـي وكـــان ينـظـر من ... عيني ويـرمـي بساعدي ويـدي

وكـــان لي مـؤنـسًـا وكـنـتُ له ... ليست بنا وحشةٌ إلى أحدِ
حتى إذا استرفدت يدي يده ... كنت كمسترفدٍ يد الأسدِ

كنت أخي بإخاء الزمان

كتب «إبراهيم بن العباس»:

وكنت أخي بإخاء الزمانِ ... فلما نبا صرتُ حربًا عوانًا
وقد كنتُ أشكو إليك الزمانِ ... فأصبحتُ فيك أذُمُّ الزمانا
وكنت أُعدك للنائباتِ ... فها أنا أطلبُ منكَ الأمانا

إنه بانتقال الحال ينتقل

إذا رأيتَ امرءًا في حالِ عُسرتِهِ ... مواصلاً لك ما في وُده خللُ
فلا تمنّ له أن يستفيد غنى ... فإنه بانتقال الحال ينتقلُ

فلا زاد فوق القوت

كفى حزنًا ألاّ صديق ولا أخ ... أفاد غنى إلا تداخله كبرُ
وإلاّ التوى أو ظن أنك دونه ... وتلك التي جلّت فما عندها صبرُ
فلا زاد فوقَ القوتِ مثقال ذرة ... صديق ولا أوفى على عسره يسرُ
وما ذاك إلا رغبة في إخائه ... وإلاّ حذارًا أن يميلَ به الغدرُ
ومَنْ صَحِبَ الأيامَ عاتبَ صاحبًا ... وحالفَ عُذّالاً وأدّبه الدهرُ

أنت أخي ما لم تكن لي حاجة

قال «جرير»:

فـأنـتَ أخـي مـا لـم يكن لي حاجة ... فإن عرضت، أيقنتُ أن لا أخا ليا

وإنــــى لمــغــرورٌ أعــلــل بـالمنـى ... لـيـالي أرجـــو أن مـالـك مالـيَـا

لا يعرفون من قلّ ماله

إن قـل مـالي فـلا خـلٌ يصاحبني ... أو زاد مـالي فكل الناس خِـلاَّني

فكم عـدوٌ لـبـذل المـال صاحبني ... وصاحبٌ عند فقد المـال خلاني

وقال «عبد الله بن معاوية»:

رأيـــتُ فضيلاً كـانَ شيئًا ملفقًا ... فكشّفه التمحيص حتى بـدا ليا

مالك عند فقرك من صديق

صـديـقـك حـين تستغني كثير ... ومـا لـك عند فـقـرك مـن صديقِ

فـلا تغضب عـلى أحـــدٍ إذا ما ... طـوى عنك الـزيـارة عند ضيقِ

أخوهم من شربوا عنده وأكلوا

إخــــوان هـــذا الـــزمـــان كلهم ... إخــــوان غــدر عـلـيـه قـد جبلوا

طـــووا ثـيـاب الـوفـاء بيـنـهـمُ ... وصـــار ثـوبُ الـريـاءِ يـبـتـذلُ

أخــوهــم المـسـتحق وصـلـهـم ... مَــنْ شـربـوا عـنـده ومَـــنْ أكـلـوا

ولـيـس فـيـمـا عـلـمـتُ بينهم ... وبـــين مـــن كـــان مـعـدمًـا عـمـلُ

إذا احتجت إليه مجَّكَ فوه

وقال «أبو العتاهية»:

أنت ما استغنيت عن صا حبِك الدهرَ أخوه
فإذا احتجت إليه ساعةً، مجّك فوه

لو عاد الزمان لعاد

وقال «إبراهيم بن عباس الكاتب»:

أخٌ بيني وبين الدهرِ صاحبُ أينّا غلبا
صديق ما استقام فإن نبا دهرٌ عليّ نبا
وثبتُ على الزمان به فعاد به، وقد وثبا
ولو عاد الزمان لنا لعاد لنا أخا حدِبا

تأثر الصداقة بنقص المال وتغير الحال في الأدب الغربي

وليس فلاسفة اليونان والرومان، وحكماء الأوربيين والأمريكان وكتابهم وشعراؤهم، بأقل من أدباء العرب حماسة في إبراز معنى انصراف الأصدقاء عند تغير الحال بنفاد المال أو تقلص الجاه، فكثير منهم يعتقدون بحق أن الأصدقاء الأمناء صعب وجودهم، وأن كل امرئ صاحبك ما دام لديك ما تنفقه، ولكن إذا رق رصيدك من النقد، فلن تجد من يسد خلتك. وأنك إذا افتقرت كرهك أخوك، وهرب منك كل أصدقائك. وأن صداقاتنا تزدهر ما باتت قدرنا ذات هزة. وأنها تختفي مع عكارة زق الخمر الفارغ. وأن الثروة إذا ترنحت،

ترنح معها الأصدقاء. وأن الثروة تجد الأصدقاء. وأنه ما دام مركزك ثابتًا، فإن أصدقاءك كُثر؛ وإذا غامت حياتك فلن تجد صديقًا. وأن الخُطاف في الصيف على طرف التمام، فإذا أقبل البرد طردها بعيدًا. كذلك الأصحاب المزيفون قريبون حين يصفو جو الحياة، ولكنهم لا يلبثون إذا شهدوا شتاء الشدائد أن يهربوا أجمعين. وأن الأصدقاء هم «الترمومتر» الذي يدل على درجة حرارة حظوظنا. وأنه غير خليق بالرجل أن يشكو إذا تساقط أصدقاؤه كالأوراق أمام أول نسمات الخريف؛ فإن أحواله إذا تحسنت يومًا بطريقة أو بأخرى، ويمم إلى المقهى، فإنه واجد غيرهم هناك. وأن أصدقاء الصيف، الذين أظلتنا في سرائنا أوراق ملقهم؛ ليتساقطون أمام أقل هبة ريح في خريف الضراء. وأن الناس كالفراش، لا تكشف عن أجنحتها الرهيفة إلا للصيف. وأنه لا محبة لغير من يسعفه حظه. وأنه كان صديق حظي، ولم يكن صديقي. وأن أصدقاءنا يعرفوننا في السراء، وفي الضراء نعرف أصدقاءنا. وأن السراء تظفر بالاتباع، أما الضراء فتميزهم. وأن في السراء يكثر الأصدقاء، وفي الضراء لا تجد أحدًا في العشرين.

ثانيًا: التخلف الخلقي

تناولنا في «حدود الالتزام الخلقي» موقف الصديق من صديقه حين ينأى عن الفضيلة، كما تكلما في «أنواع الصداقة» عن الصديق الغادر، وكلاهما ينطوي سلوكه على تخلف خلقي طارئ، أو قديم كشفت عنه الظروف.

وحسبنا أن نقول هنا: إن انهيار خلق أحد طرفي الصداقة يحدث فراقًا أين منه فراق القبر؛ إنه كمهواة يتخللها البحر، شقتها أبعد من برزخ الموت.

المبحث السادس

الأنانية؛ والمَنّ

المطلب الأوَّل: الأنانيـــة

رغبة الاستحواذ على الصديق

من أبرز مظاهر الأنانية رغبة الصديق في اجتياز صديقه خالصًا لنفسه لا يشاركه فيه أحد سواه. والصداقة الحقيقية بريئة من هذه الرغبة المرضية البغيضة.

الإمعان في تطلب المشاركة الوجدانية

المطالبة بالمشاركة الوجدانية الإيجابية قوامها حب الذات، فهي سعي لإشباع النفس، ولربما استبدت هذه الرغبة ببعض الأنانيين حتى ليستهلكون زوجاتهم والأقربين لفرط ما يورثونهم من إرهاق بسبب عجزهم عن أن يظلوا على الدوام في حالة مزاجية تأذن لهم بهذه المبادلة. مثل هؤلاء دأبهم الإلحاف في التماس الاستجابة الوجدانية، في حين إنهم لا يعطون منها إلا القليل.

أنانية الضيق بأفضال الصديق

يحدث أن تنقضي الصداقة بسبب الضيق بأفضال الصديق، إما لأنه لا يحسن فن العطاء، فيثقل جميله على صاحبه؛ وإما لأن صاحبه لا يجيد فن الأخذ، فيتوهم أن صديقه قد فدحه بجميل لا قبل له برده.

ولو أنصف الصديق لعرف بأنه إذ يعهد لصاحبه بمهمة، فإنما ينوط به أمرًا يخصه؛ لأن الصديق شريك، وحين يلبي طلب صديقه فهو لا يرد سابق معروفه، أو يسلفه جميلاً يتطلع إلى استرداده؛ إذ ليس أفسد للصداقة من إحساس أحد طرفيها بأنه مدين أو دائن، وهو شعور تمليه الأنانية، ويوحي به نقص الثقة بالنفس وبالصديق.

أنانية النعي على الأصدقاء

يرسم «تشارلس لام» صورة صديق متجهم المزاج، يمرّ به صاحبه ذات صباح في الطريق، مصطحبًا من يشك في مودته؛ فلا يعيره التفاتًا. والواقع أن صديقه هذا على شيء من قصر النظر؛ وقد كان في مقدور المتجهم أن يقاربه ويخاطبه، لولا أن تحرّي الحقائق وسلامة الاستدلال، ليس من شيم المتجهمين.

ويقطع المتجهم بأن صاحبه لا بد أن يكون قد رآه، وأن مرافقه هو سبب تجاهله إياه؛ وأن هذا اليقين ليكربه، حتى لينقلب إلى داره فيستخلص شرّ ما في الحادث. وأنه ليرفض في عزلته أي هاجس هامس باحتمال وجود خطأ، وهو يستعرض المناسبات الأقل شأنًا، تأييدًا لما يتصوره من برَم صديقه، فإن لم يكن بينهما ما يدل بمفرده على كثير، فإن الإهانة الأخيرة تربطها معًا.

وهنا تخامر الصديق المتجهم أحاسيس عطفه على صديقه، وما كان بالنسبة إليه، وما كان يمكن أن يكونه لو أنه أطاقه، وكيف دافع عنه في هذا المقام أو ذاك، وكيف كانت سمعته، وشهرته الأدبية وما إليهما، أعز عنده من سمعته وشهرته؛ وإن قلبه ليتوق إلى صاحبه على الرغم منه، ولولا الحياء لهاجه استعبار.

ولكنه لا يلبث أن ينكر على نفسه الوقوف عند هذا الحد، خشية أن يستبد به الوجد، فيحدوه على الرجوع إلى سابق العهد؛ وهو يجد الفرصة مؤاتية لاستعراض سائر أصدقائه فلا يتميز بينهم إلا خاويًا، أو خادعًا، أو زلقًا كالماء.

وإنه ليبدأ بالتفكير في أن علاقة الصداقة نفسها متناقضة مع حقيقة أن الإنسان فانٍ ليس له دوام، وأن مجرد فكرة الصداقة بمركباتها: كالشرف، والإخلاص، والثبات، لا توجد إلا في قلبه دون سواه؛ وإنه ليتخيل نفسه الصديق الوحيد في عالم عاجز عن التقيد بهذه الرابطة.

وهنا يتألق كوكب حب النفس، في ظلمات تفكير الصديق المتجهم، فيتصور الظلم الذي لقيه، حيث كان لا يطمع من أصدقائه في رد جميله، بل في العدالة المجردة التي هي من حق الناس كافة؛ وهو يتمثل أن فكرة الحق والملاءمة قد اختفت من الدنيا، ولم يبقَ لها وجود إلا في حنايا صدره. وإلى هنا يكون قد نفخ نفسه حتى صار على الأقل أحد نصفي كرة الأرض، أما نصفها الثاني فصحراء شاسعة قاحلة من أصدقائه ومن الدنيا السابق وصفها. وإنه ليزيد كل لحظة اغترارًا بذاته، وانتقاصًا من شأن العالم، إلى أن يدين الدنيا، بعد أن يؤلّه نفسه على حساب نوعه.

وهنا يعلن «لام» أنه هو الصديق المتجهم، وأنه سمع في أصيل ذلك اليوم المطير طرقًا على بابه، أعقبه دخول الصديق الذي حسبه قد تجاهله في الصباح، مما قطع بأن ما ساقه إلى تعميماته السابقة إنما كان خطأ غير مقصود؛ وزاد من عذابه أن صديقه لم يكن وحده، بل رافقه الشخص الذي سبّب ما ساوره من أوهام ليس لها أساس.

أنانية المتهالكين على النجاح

طريق التقدم الاجتماعي مغطى بالصداقات الحطيمة؛ لأن الأنانية تدفع البعض إلى التنكر لأصدقائهم، حين يرون أن هذا يسهّل لهم تحقيق مطامحهم، أو يحسبون أن التمسك بهم يعوق اطراد نجاحهم وتقدمهم. وإنهم ليعزّون أنفسهم بأن الناس لا تلبث أن يذهلها ما حققوه من مجد وتبوّؤوه من مقام، عن محاسبتهم على خروجهم عن قواعد الوفاء، ومقتضيات الإخلاص والولاء. ولكن الله يأبى إلا أن ينكبهم في مطامحهم، ويذلهم على أيدي من قدموا أصحابهم قرابين على مذابحهم، وقد تناولنا هؤلاء في مبحث «صداقة المنفعة».

أنانية الناكصين في الشدائد

وإن كثيرًا من الناس لا يطيقون مشقة التطوع لمشاركة الصديق شدائده، فينصرفون عنه يوم الضيق إيثارًا لأنفسهم، ونفورًا من مشقة التضحية.

المطلب الثاني: المـــــنّ

«أفسدت بالمن ما أوليت من حَسَن ليس الـكـريم إذا أولى بمـنّـان»

المنّ من خلق اللئام

المن من خلق اللئام، فإن الكريم ينسى فضله على الناس، ويذكر فضلهم، ولا يتوقع الجزاء على ما يسديه من خير، بل يرى جزاء الخير في صنعه.

والمن شبيه بالربا، والمنّان كالمقرض الذي لا يبرح يذكّر مدينه بالدين، وهذا ما يجعل الدين همًّا ومذلة. لذلك يفسد المن الصداقة، ويقطع دابرها؛ حتى إن بعض الأبناء ليهجرون والديهم ويضربون في آفاق المسكونة النائية، هربًا من منّهم، وتخلصًا من ذل دَيْنهم.

قال «حافظ إبراهيم» للورد «كرومر»:

تمنُّ علينا اليومَ أن أخضب الثرى وأن أصبحَ المصريُّ حـرًّا منعمًا

أعد عهد «إسماعيل» ظلمًا وسخرةً فـإني رأيـــتُ المــنَّ أنْـكَـى وأَلَمَـا

الصديق لا يعرف المنّ

من أول شيم الصديق، وألزم صفاته أنه لا يعرف المن؛ لأنه يشعر دائمًا بأنه لم يفِ بحق صديقه، ولم يقم بواجبه من نحوه.

قال «أعشى باهلة»:

مَـنْ ليس في خـيره مـنٌّ فيفسدَه على الصديقِ ولا في صفوِه كدرُ

المبحث السابع

التغيير الأساسي في وجهة النظر السياسية

لسنا من رأي «شيشرون» في اعتبار الصداقة، وفاقًا تامًّا في الميول والأذواق والأفكار، فنحن نراها تحتمل الخلاف وعدم المطابقة، بل تجدها كالطعام تصلحه الأفاويه والتوابل؛ ولكن لا شك في أن الخلاف الشديد المستمر، ولا سيما على المسائل الأساسية، مما يعوق توثُّق الصداقة، ويقلل من متعة الصديقين ومسرّتهما، وكثيرًا ما يؤدي إلى صدع الصلة وانقطاعها.

عندما يغيّر الصديق مبدأ السياسي

وكثيرًا ما يلتقي الصديقان في ظل مبدأ سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي معين، أو ينتميان إلى حزب أو جماعة أو طائفة تدين بمبدأ واحد يجمعها ويؤلف بين قلوب أفرادها؛ ثم يعنّ لأحدهما أن ينبتّ عن الجماعة، أو أن يتحول عن مبادئها. فما يكون موقف صديقه؟ أفيقطع العلاقة، أم تستمر كما كانت، أم يعتريها التحلل والفتور؟

تغير الرأي عن اقتناع وعقيدة

عرض رئيس حزب سياسي معارض على صديق لنا رياسة تحرير جريدة الحزب، وقدم الصديق يسألنا أفتنقطع علاقتنا إن قبل؟ قلنا: إن ثقتنا بأخلاقه تجعلنا على يقين من أنه إن تحول فعن عقيدة وإيمان، وليس تحقيقًا لمنفعة، أو سعيًا وراء مصلحة؛ ومع ذلك فإنا ناصحوه بالرفض؛ لأنا نحسب أن المراد بالعرض هو حرمان جماعته من كفايته، ونخشى

أن يتخلى عنه أصحابه الجُدد بمجرد تحقق غايتهم، ونشفق عليه من أن يظل غريبًا عنهم طوال مقامه بينهم.

تغيير الرأي المقرون بالسخيمة

حدث أن سكرتير حزب سياسي كبير خاصم رئيسه، بعد أن كانت صداقتهما مضرب المثل؛ فأعدّ بيانًا يعلن فيه أنه لم يوافق على الاستثناءات التي منحها مجلس الوزراء لأنصار الحزب من موظفي الحكومة، الذين اضطهدوا في غضون السنين الست التي ظلها الحزب بعيدًا عن الحكم.

وقد انفردنا ساعة بصديقنا في مكتبه بالوزارة نقنعه بخطورة نشر بيانه في الصحف، حتى اقتنع ووعد؛ ولكنا لم نلبث أن قرأنا البيان منشورًا في صبيحة اليوم التالي!

اختلاف الرأي غير المفاخرة والانتقام

ولو أنه كان قد صدقنا وعده، لجنّب نفسه وبلده كثيرًا من العنت؛ ولو أنه كان مخلصًا حقًّا لأعفى المواطنين من كريهة رؤية صديقي العمر، عدوين يتبادلان الاتهام، ويتراميان بالسهام. إن المكارم لتقتضي أن ينسحب صاحب الرأي المخالف للأغلبية، بغير ضجة ولا مقاومة، حفظًا للوحدة ورعاية للمصلحة العامة؛ وضنًّا بإيمان الناس ومثلهم أن تزلزلها المعالنة بالشحناء، بين من كانوا بالأمس ألصق الأصدقاء.

اختلاف الرأي واستمرار الصداقة

إن تاريخ الجماعات السياسية في مختلف البلاد والعصور حافل بالأمثلة على بقاء الصداقة مع تحول أحد طرفيها عن رأيه السياسي، ورغم الثمن الغالي الذي يتكبده

الصديقان بسبب ما يثيره استمرار علاقتهما من شك في درجة إخلاص كل منهما لحزبه. ومع ذلك، فكثيرًا ما أتيحت لمثل هذين الصديقين، بعد انتمائهما إلى فريقين متعارضين، فرص تسوية مشكلات مستعصية؛ واستئصال خصومات مزمنة.

تغيير الرأي التماسًا لمنفعة

إذا كان ما طرأ على أحد طرفي الصداقة من تغيير، ناجمًا عن فتور همته عن الجهاد، وجنوحه إلى السلامة وطيب العيش؛ فإن مسلكه يكون انحرافًا خلقيًّا يجعله غير أهل لثقة صاحبه واحترامه.

ومن ذلك أن انشق عدد من أساطين حزب سياسي كبير، أغراهم الملك السابق بتشكيل الوزارة؛ وقد قال كبيرهم في تسويغ تصرفه: إن الشعب لم يعد مستعدًّا للجهاد، وإنه لا بد من مهادنة الملك وممالأته.

المبحث الثامن

التغيير نتيجة عوامل خارجية

المطلب الأول: النميمة

«إنَّ أَحَبّكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلى الله المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الإخوان»—«حديث شريف»

مآرب النمامين

ثمة من لا يطيق رؤية المتآخِيَيْن، فيعمل على الوقيعة بينهما، كما سعى «دمنة» بين الأسد والثور، ليخلو له وجه الأسد، أو ليسترد مكانته التي احتلها الثور. وقد يكون الدافع إلى الوقيعة إشفاقًا من تحالف الصديقين، فهو يفرق بينهما ليسودهما، ويأمن كيدهما.

أساليب الوقيعة بين الأصدقاء

نقل الأحاديث: يطيب للبعض أن ينقلوا إلى المعنيين ما سمعوه عنهم من قالة السوء، متخذين عادة من إقدامهم على هذه الكريهة دليلاً على إخلاصهم، ولربما كان دافعهم الحقيقي، هو الإيلام، أو الوقيعة.

الجهر بالسوء من القول: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، و﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. وقد قال «باسكال»: لا يوجد من يتحدث عنا في مواجهتنا، كما يتحدث عنا في غيبتنا؛ ولو أننا عرفنا ما يقوله عنا أصدقاؤنا من وراء ظهورنا، لما بقيت غير

صداقات قليلة. كما تساءل «بريفو»: كم تكون دهشتنا لو أننا لمحنا لمدة لحظة صورتنا في عقول الآخرين؛ بل في عقول المحبين.

ما شتمك إلا من بلغك

وكثيرًا ما افترق أحب الأصدقاء لمجرد ما يتقوله ناشرو الفضائح، من أمور قد تكون أحيانًا حقيقية، ولكنها دائمًا نابية. لذلك يجب أن يعامل معاملة بالغة الصرامة من ينقلون للناس أشياء قيلت لهم، صادقة كانت أم كاذبة، من شأنها أن تورث الألم، أو تفرّق بين الأصدقاء.

وثمة قاعدة ذهبية يمكن التزامها: لا تخاصم من نُسبت إليه القالة، فإنك لن تستطيع التأكد من أنه قالها؛ بل خاصم من نقلها. وإن علينا في جميع الظروف أن ندافع عن أصدقائنا، بأن نؤكد بشجاعة احترامنا إياهم؛ وكانت إحدى السيدات الجليلات إذا هوجمت صاحبتها في حضرتها، اكتفت بأن تقول: إنها صديقتي!

(يحرفونه من بعد ما عقلوه)

للمشائين بالنميم أساليب في نقل الحديث، فقد يكفي تغيير بسيط في نغمة الصوت، أو تنبير يسير في نطق لفظ، أو تحريف خفيف في سياق جملة؛ لأن يخلع معنى مشؤومًا على كل مضمون الكلام ودلالته.

المطلب الثاني: زواج الصديق

«الصديق إذا تزوج، صديق مفقود»—«إبسن»

صداقة الزوجين كافية

يعزو كثير من الكتّاب ازدهار الصداقة عند اليونان إلى أنها كانت العاطفة التي صبّوا فيها كل قلوبهم؛ لأن تخلّف مركز المرأة في أنظمتهم الاجتماعية والقانونية والأخلاقية، عوّق الشعور من نحوها بالانعطاف الرفيع.

لذلك لم يكن الزواج عندهم اتحاد شخصين متوافقين يريدان المشاركة في مسرات الحياة ومشقاتها؛ بل كان ضرورة طبيعية والتزامًا دينيًّا واجتماعيًّا.

فلما رفعت المسيحية من قدر المرأة، وجد الرجل في زوجه صديقة تغنيه عن التماس الأصدقاء خارج بيته؛ وصارت معظم الزيجات العصرية تقوم أصلاً على أساس من الصداقة والتشابه في الثقافة ودرجة الذكاء؛ بل في الاستقلال الاقتصادي والمشاركة في كسب الرزق.

ولعل في هذا تفسيرًا لما يعتري الصداقة من فتور بعد زواج الصديق؛ ولكنه إن صدق، لا ينطبق على الصداقات القوية، فهي خليقة أن تبقى إن لم تزد توثقًا.

دور الزوجة في استبعاد الأصدقاء

ومن الزوجات، ولا سيما في أوائل عهدهن بالحياة الزوجية، من تغار على زوجها من أصحابه السابقين، وعلى الخصوص غير المتزوجين، خشية أن يستأنف معهم أسلوب حياته السابقة، وهي تريده خالصًا لنفسها لا يشاركها فيه أحد.

كما تغار الزوجة من نفوذ صديق زوجها، ومن أنه محل ائتمانه، يثق فيه وربما سارّه ولم يخف عنه أحواله الزوجية، وقد يشكو إليه زوجه، ويستشيره في أسلوب معاملتها إذا شجر خلاف أو نجمت مشكلة.

وجود الصديق يطمئن الزوجة

ورغم أن الزوجة لا تحب عادة صديق زوجها، فإن وجوده مع ذلك يملّقها، ويشعرها بأنها لم تكن وحدها التي وقع اختيارها على الرجل الذي صار زوجها، بل إن له من المزايا ما تجعل غيرها تتخذه صديقًا، فيطمئن قلبها إلى أنها لم تنخدع؛ وبالعكس فإن عدم وجود صديق للزوج من شأنه أن يكرب الزوجة ويقلقها، ويذهب بطمأنينتها وثقتها بالرجل الذي لم يجده أحد غيرها خليقًا بالمقاربة والمصاحبة.

الزوجة العاقلة ترعى الصداقة

والزوجة العاقلة لا تلبث أن تفهم أهمية الصداقة وفائدتها، بل ضرورتها لتوفير مقومات النجاح والتقدم لزوجها، وتزويده بعوامل القوة والثقة، ومده بأسباب السرور والتسلية التي تترك أثرها في شخصيته، وتزيد من سعادة الحياة الزوجية واستقرارها.

بل إن الزوجة الصالحة كثيرًا ما تتدارك بكياستها صداقات زوجها التي تسرب إليها الملل، أو اعتراها الضعف، بما تسديه إلى قرينها من نصح، وما تبديه من دفاع عن صديقه الذي يحسبه مقصرًا أو عازفًا، وتراه معذورًا أو عاجزًا.

المبحث التاسع

الإفراط في العتاب

«خذ من خليلك ما صفا ... ودعِ الذي فيه الكدرِ
فالعمرُ أقصرُ من معا ... تبةِ الصديقِ على الغِيَر»

الدائبون على الشكوى والتذمر

يقول «أرسطو»: إن الصداقة بالمنفعة شديدة التعرض للشكاية والملامة؛ لأن طرفيها لا تربطهما إلا المنفعة، فلا يبرح كلاهما يلتمس فوق استحقاقه، ويتصور أنه يأخذ دون ما ينبغي.

العتاب وليد عدم الثقة

والعتاب وليد عدم الثقة بالنفس، والرغبة في الاستيثاق من ثبات الصديق على الود. ومدمن العتاب شبيه بمن يتمارض ليسترعي اهتمام من حوله؛ وهو إما أن يمرض فيموت، أو ينكشف أمره فلا يحتفل به أحد.

العتاب كالدواء السام

«معاتبة الأخ خير من فقده، ومن لك بأخيك كله»—«أبو الدرداء»

العتاب كالدواء السام، يعطى بالقطارة، وقد يقتل إن زدنا مقداره، أو اعتدنا تكراره؛ وهو كالجرح، وإن التأم فإنه يترك على أديم الجريح ندبه وآثاره. لذلك قال بعضهم: الصبر

على مضض الأخ خير من معاتبته، والمعاتبة خير من القطيعة؛ كما قيل: إن المعاتبة تبعث التجني، والتجني يبعث المخاصمة، والمخاصمة تبعث العداوة، والأخير في شيء ثمرته العداوة.

العتاب يهيج الشر

فـــدعِ الــعــتــابَ فـــرُبَّ شَــرٍّ ... هـــــاجَ، أولُــــــهُ الــعــتــابُ

العتاب لا يترك لك صديقًا

إذا كنتَ في كـلِّ الأمـــورِ معاتبًا ... صديقكَ لم تلقَ الـذي لا تُعَاتِبُه

فعِشْ واحــدًا أو صِلْ أخــاكَ فإنه ... مــقــارِفُ ذنـــبٍ مــرةً ومجانِبُــه

لا جدوى من عتابه

وحَقِّك ما تركي عتابَك عن قِلى ... ولـكــن لـعـلـمـي أنـــه غـــيرُ نـافـع

وإني إذا لم أصــبرْ الـيـوم طائعًا ... فــلابـدَّ مـنـه مـكـرهًـا غـير طائع

إذا أنـــت لم تعطفك إلا شفاعة ... فــلا خــير في وُدٍّ يـكـونُ بشافع

أسلم أنواع العتاب

أسلم أنواع العتاب عاقبة وأشده لزومًا، ما قصد به العاتب الحسن الظن بصديقه، أن يصل عن طريقه إلى تفسير تصرف يراه مخالفًا لما ألفه من كريم خصاله؛ فهو لا يري صديقه بالتقصير بناءً على حكم أصدره عليه، ولكنه يسائله عن سبب سلوكه، غير مستريب في سلامة دوافعه.

ويغلب أن يؤدي هذا النوع من العتاب، إن صح تسميته عتابًا، إلى إيضاح الموقف المريب الذي ما كان لولاه لينجلي؛ فيطمئن قلب الصديق ويطيب نفسًا، ويزيد ثقة بصاحبه.

آداب العتاب

السريّة: قال السيد المسيح: إن أخطأ إليك أخوك؛ فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما.

وقال «الغزالي»: العتاب في السرّ خير من القطيعة، والتعريض فيه خير من التصريح، والمكاتبة خير من المشافهة؛ والاحتمال خير من الكل.

العفو وقبول العذر: يقول «الشافعي»: إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه، فإياك أن تبادر بالعداوة، وقطع الولاية فتكون ممن أزال يقينه بشك؛ ولكن القه، وقل له: بلغني عنك كذا وكذا، وأجدر أن يسمي المبلّغ. فإن أنكر ذلك، فقل له أنت أصدق وأبرُّ، ولا تزد على ذلك شيئًا. وإن اعترف بذلك فرأيت له وجهًا بعذر، فاقبل منه، وإن لم يردّ ذلك، فقل له: ماذا أردت بما بلغني عنك. فإذا ذكر ما له وجه من العذر فاقبله، وإن لم يذكر لذلك وجهًا لعذر وضاق عليك المسلك، فحينئذ اثبتها عليه سيئة أتاها. ثم أنت في ذلك بالخيار، إن شئت كافأته بمثله من غير زيادة، وإن شئت عفوت عنه؛ والعفو أبلغ للتقوى، وأبلغ في الكرم، لقوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾. فإن نازعتك نفسك بالمكافأة، فاذكر ما سبق له لديك، ولا تبخس باقي إحسانه.

عتاب الصديق المَلُول

يقول «ابن الرومي»:

إذا أنـــتَ عـاتبـتَ المـلـولَ فـإنما ... تخطُّ على صحفٍ من الماءِ أحرفَا

وهَبْهُ ارعَـوَى بعد العتابِ ألمْ تكنْ ... مـودتُـه طـبـعًـا فـصـارتْ تكلفًا

المعاتب الزاجر المفاخر

قال «المتنبي»:

يا أعــدلَ الناس إلا في معاملتي، ... فيك الخصامُ وأنت الخصمُ والحكمُ!

أعـيـذهـا نـظـراتٍ مـن صـادقـة ... أن تحسب الشحمَ فيمن شحمهُ ورمُ؛

ومـا انـتـفـاع أخـي الـدنـيـا بـنـاظـرهِ ... إذا استوت عنده الأنـوارُ والظُّلَمُ؟

سيعلم الجـمـعُ عـن ضم مجلسنا ... بأنني خـيرُ مـن تَسْعَى بـه قـدمُ

أنـا الـذي نظر الأعـمـى إلى أدبـي، ... وأسمعتْ كلماتي من به صَمَمُ؛

الخيـلُ والليلُ والـبـيـداءُ تعرفني، ... والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ،

يـا مَـنْ يـعـزُّ علينا أنْ نفارقهم، ... وجداننُا كـلَّ شيء بعدكم عـدمُ؛

مـا كـان أخلقنا منكم بتكرمة، ... لـو أن أمـركـم مـن أمـرنـا أمَمُ!

إن كـان سـرّكـمُ مـا قـال حاسدنا ... فـمـا لجـرح إذا أرضـاكـم ألَمُ

وبيننا، لـو رعـيـتـم، ذاك، معرفة ... إن المـعـارف في أهـل النُّهَى ذِمَمُ؛

كـم تطلبون لنا عيبًا فيعجزكم! ... ويـكـره الله مـا تـأتـون والـكـرمُ

ما أبعد العيبُ والنقصان عن شرفي! ... أنـا الـثريـا، وذان الشيب والهرمُ

بــأي لــفـظٍ تـقـول الشعر زِعنفة تجـوز عـنـدك، لا عَـرب ولا عجمُ!

هــذا عـتـابُـك، إلا أنـــه مِـقـة قـد ضُـمِّـنَ الــدّرَّ، إلا أنـه كَـلِـمُ

عتاب المستحي المتضائل

وقال أيضًا:

أرى ذلـك الـقـربَ صـار ازورارًا وصـــار طويل السلام اختصارًا

تـركـتـنـي الـيـــومَ في خـجـلـة أمـــوتُ مــــرارًا وأحـيــا مِــــرارًا

أســارقــك الـلـحـظ مستحييًا وأزجـــرُ في الخـيـلِ مهري سِــرارًا

وداد يدوم على الأذى

كما قال:

وكـل ودادٍ لا يــدومُ على الأذى، دوامُ ودادي للحسين ضعيفُ

فإن يكن الفعلُ الذي ساء واحـدًا، فـأفـعـالـه الـلائـي ســررن ألــوفُ

ونفسي لـه، نفسي الـفـداءُ لنفسه، ولــكــن بعض المـالـكـين عنيفُ

فـإن كـان يبغي قتلها، يـكُ قاتلاً يكفيه، فالقتل الشريفُ شريفُ

ليس فيهم من يدوم على الود

وصلتُكم جهدي وزدتُ على جهدي فلمْ أَرَ فيكم من يـدومُ على الودّ

تأنيتكم جهد الصديق لتقصدوا وتأبون إلا أن تحيدوا عَـنِ القصدِ

فـإن أُمسي فيكم زاهـدًا بعد رغبةٍ فبعد اختبار كان في وصلكم زهدي

إذا خنتم بالغيب عهدي فما لكم ... تـدلّـون إدلال المقيم على الـوُدّ
صِلوا وافعلوا فعل المُـدِلّ بوصله ... وإلا فصُدّوا وافعلوا فعلة الصَّدّ
فكم مـن نذير كـان لي قبْل فيكم ... وهـا أنـا ذا فيكم نذيرٌ لمن بعدي
تـعـزّوا بـيـأسٍ عـن هـــوايَ فإنني ... إذا انصرفتْ نفسي فهيهات من ردّ
أرى الـغـدرَ ضــدًّا للوفاء وإنـنـي ... لأعلم أن الضدَّ ينبو عن الضدّ

لا صديق لمن زلت به القدم

أكـــلّ هــذا الجـفــاء يــا «حـكـم» ... كــذا يـكـون الإخـــاءُ والـكـرمُ
الحـــمــدُ لله لا صـــديــق لمـن ... زلـــتْ بــه في زمــانــه الـقــدمُ

إذا أكلوا لحمي وفرت لحومهم

وإنَّ الــذي بيني وبـين بني أبـي ... وبــين بـنـي عـمـي لمختلف جـدًا
إذا أكـلـوا لحمي وفــرت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدًا
وإن ضيعوا غيبي حفظتُ عيونَهم ... وإن هم هووا غني هويت لهم رشدا
وإن زجــروا طـيري بنحس تمرّ بي ... زجـرت لهم طـيرًا تمر بهم سُعْدا
ولا أحـمـلُ الحـقـدَ الـقـديمَ عليهم ... وليس رئيسُ القومِ من يحملُ الحقدا
وإن أجمعوا صَرْمي معًا وقطيعتي ... جمعت لهم مني على الصلة الوُدًّا
لهم جـل مـا لي إن تتابع لي غنى ... وإن قـلّ مـا لي لم أكلفهم رفـدا

أيسؤوني من لم أكن لأسوؤه؟

يـا صاحبٌ قـد كـنـتُ آمـلُ نفعَهُ ... سبقت صـواعُـقـه إليّ صبيبَه
يـا مَـنْ بـذلـت لـه المـودةَ مخلصًا ... في كـل أحـــوالي وكـنـت حبيبَه

أيام نسرحُ في مرادٍ واحدٍ ... للعلم تنتجعُ القلوبُ غريبَه
ونظل نشرعُ في غديرٍ واحدٍ ... نصفُ الصفاءَ لوارديه وطيبه
أيسوؤني من لم أكن لأسوءه ... ويريبني من لم أكن لأريبه
ما هكذا يرعى الصديق صديقه ... وحبيبه وقريبه ونسيبه

جفوتني فيمن جفاني

جفوتني في من جفاني ... وجعلت شأنك غير شاني
ونسيت مني موضعًا ... لك لم يكن لك فيه ثاني
وسررت يومًا واحدًا ... وأن لا أراك ولا تراني
وهجرتني وقصعتني ... وقليتني في من قلاني
أفعلتها، فالمستعان ... الله أفضلُ مستعانِ

الأعادي يرحمون الأعاديا

كتب «إبراهيم بن المهدي» أخ «هارون الرشيد» وعم «المأمون» إلى «عمرو بن باته»، وكان قد دعاه يومًا، فامتنع عن المصير إليه لسخط السلطان عليه، فلو كان الصديق إذا نزلت به نائبة، أو نالته نكبة، أو نبا به الدهر نبوة، استوى عدوه وصديقه في الجفاء به والاحتراس من خلطته وعشرته، وترك معونته على دهره؛ لكان اسم الصديق اسمًا معلقًا على غير معنى، ولكانت حرمة مودته وافتقاد إخائه في أيام الرخاء وزمانه، ضياعًا لا حظ منه. كلا والله، إن الرجل ليبذل لأخيه في النكبة ماله، وقد أعفى الله مالك؛ وإنه ليخطر نفسه في معونته، وقد صان الله نفسك لك؛ وإنه ليفارق الأوطان والأهلين في إيثار موافقته، وقد أعفاك الله من أن ترد عليك مسألة في ذلك؛ وما أردت إلا أن أعلم أن لي صديقًا أبقى لي الدهر منه

مثل الذي أخذ، وأنفس منه، وأن الأيام لم تبلغ من مساءتي كل ما أحذره، ولله روح منتظر، وفرج مأمول، وصنيع متوقع؛ ولنا ذنوب ما تتهم غيرها، ورحمة الله أكبر منها.

فهبكَ عـــدوّي لا صديقي فربما رأيـتُ الأعـادي يرحمون الأعاديا

الامتناع عن العتاب

وكما أن الإسراف في العتاب مدعاة للقطيعة، فاطّراحه بتاتًا دليل على قلة المبالاة بأمر الصديق، وقد قيل: علّة المعاداة قلة المبالاة؛ والرأي التزام الوسط.

المبحث العاشر

طول الفراق؛ وشدة الصقب

المطلب الأَوَّل: طـــول الفـــراق

«وجـدت مصيبات الزمان جميعها سوى فرقة الأحباب هينة الخطب»

الفراق الاختياري المؤقت

بنتم وبـنّـا فما ابتـلّـت جوانحنا شوقًا إليكم ولا جَـفَّـتْ مآقينا

الصديق لا يضيق بالفراق النافع؛ يقول «شيشرون»: ثمة مناسبات لا عدّ لها، يكون فيها فراق الأصدقاء أمرًا ملائمًا للغاية؛ وتنم محاولة منعه، بسبب عدم الصبر على الفراق،

عن درجة من الضعف تتنافى مع رصانة الرجولة، التي يتعذر بغيرها التصرف على المستوى الخلقي، للصديق الحقيقي. ويقول «مونتيني»: إذا كان الغياب سارًّا أو نافعًا لصاحبي، فإنه عندي أحب من حضوره.

الفراق القصير يزيد الصداقة

ويقول المؤلف الإنجليزي «صموئيل جونسون»: لا شك أن الفراق القصير يقوي الصداقة، إذ يشعرنا بشدة حاجتنا إلى صديقنا الغائب؛ فإذا عاد زاد تقديرنا له، وتمسكنا به.

الفراق يوسّع الدنيا

يرى الفيلسوف الأمريكي «تورو» أنه: لا شيء يجعل الدنيا تبدو فسيحة بقدر وجود أصدقاء بعيدين، إنهم خطوط الطول والعرض.

طول الفراق يورث الغم

يعتبر «داود» بُعْد الصاحب من كبرى البلايا بعد سخط المولى، وقد جاء في «المزامير»: أبعدت عني محبًّا وصاحبًا.

والفراق شاق مؤلم، يورث الغم والكآبة، وقد جاء في «كليلة ودمنة» أنه: لا شيء من سرور الدنيا يعدل صحبة الإخوان، ولا غمّ فيها يعدل البعد عنهم. وإنه لا عيش مع فراق الأحبة؛ وإذا فارق الأليف أليفه، فقد سُلب فؤاده، وحُرم سروره، وغشيَ بصره.

التغيير في أثناء الفراق

يقول الرحالة الإنجليزي سِر «رتشارد برتون»: يا أصدقاء شبابي، قد نلتقي يومًا، ولكنا لن نكون نفس الأشخاص، فلسوف تغيرنا السنون.

إن نزحت داري فحديثهم ذكرى

قال «ابن السراج»:

كيف العزاءُ لمن يعز له ... شربُ المدام ولذةُ الخمرِ
وحديث فتيانٍ غطارفةٍ ... وفوارس كالأنجمِ الزُّهرِ
إن جئتُهم سرّوا وإن نزحت ... داري فإن حديثَهم ذكري
يا ليتني أحيا بقربهم ... فإذا فقدتهم انقضَى عُمري
فيكون داري بين دورِهم ... ويكون بين قبورِهم قبري

وما زالت تتوقُ إليك نفسي

فإنْ بك عن لقائك غابَ وجهي ... فلم تغِبْ المودةُ والإخاءُ
ولم يغِبْ الثناءُ عليكَ مني ... بظهر الغيب يتبعه الدعاءُ
وما زالت تتوقُ إليك نفسي ... على الحالات يحدوها الوفاءُ

سخنت بالبين منك عيون

لعمري لئن قرت بقربك أعينُ ... لقد سخنت بالبين منك عيونُ
فسِرْ أو أقمْ، وقفٌ عليك مودتي ... مكانك من قلبي عليك مصونُ

طول الفراق قد يقضي على الصداقة

يقول «أرسطو»: إن بعد الأماكن لا يذهب على الإطلاق بالصداقة؛ بل يودي فقط بالمظهر. ومع ذلك فمن المحقق أنه إذا كانت الغيبة طويلة المدة جدًّا، فيظهر أن من شأنها أن تُنسي الصداقة؛ فالمثل يقول: كثيرًا ما أودى بالصداقة سكوت طويل.

المطلب الثاني: شـــدة الصقـــب

سافرت وصديق إلى «مرسى مطروح»، وكنت قد سبقته إلى ارتيادها فحرصت أن أغريه بزيارتها، وقد نزلنا في أحسن فنادقها وظللنا أيامًا في معيشة واحدة، فلما رجعنا لاحظت أن المقاربة الشديدة قد أورثتني شعورًا بالحاجة إلى فترة استجمام، وهو شعور يختلف تمامًا عن شعوري بعد عودتنا من رحلتنا الأسبوعية سيرًا على الأقدام بين الحقول، وقد تجددت روابطنا وزادت مودتنا.

والرأي عندنا أن يتحاشى الصديقان طول الملازمة والمغالاة في المقاربة، ومن هذا الرأي «إيمرسون» الذي لا يرى ضرورة للذهاب إلى بيت الصديق، أو التعرف بوالدته وأخيه وأخواته. وينصح بتحاشي هذا اللمس والهبش؛ فإنما يحدو الصديق على لقاء صديقه تشوقه إلى اجتلاء طلعته، لا سماع الأخبار التي في جعبته، أو تذوق الحساء على مائدته؛ وفي وسعه أن يجد بين الإخوان العاديين من يزوده بحاجته من الأخبار السياسية والتسهيلات الجوارية؛ وهو يرى الصديق روحًا وإخلاصًا ورسالة وفكرة، ويتصور صحبته شعرية نقية شاملة، عظيمة كالطبيعة ذاتها.

المبحث الحادي عشر

تغيير التغيير؛ أو تجديد الصداقة بعد انقطاعها

«الصداقة المكسورة قد تجبر، ولكنها لن تصير سليمة»—«فوللـــــر»

للأصدقاء السابقين حرمة

يوصي «أرسطو» الأصدقاء إذا انقطعت صداقتهم، بأن لا ينسوا بتاتًا سالف صلتهم؛ وكما أننا نقدم الأصدقاء على الغرباء، فإن للأصدقاء السابقين علينا حقًّا مستمدًّا من العلاقة القديمة، ما لم يكن الفجور غير العادي هو سبب قطيعتنا.

عودة المياه إلى مجاريها

وكثيرًا ما يفترق الصديقان، ويشقيان بالقطيعة، فإذا اكتشفا أن فراقهما كان نتيجة الوقيعة، أو أن سببه سوء التفاهم، أو المغالاة في تجسيم خطأ يسير، أو تغيّرت الظروف التي أدت إلى الخلاف؛ فسرعان ما تعود المياه بينهما إلى مجاريها، وترجع صداقتهما إلى سابق تصافيها، بل تكسبها نار المحنة نقاء، ومرارة الفرقة حلاوة وصفاء. ويكون الانشقاق قد ساقهما إلى مزيد من الوفاق، والخلاف قد فتح عيونهما على أنه لا غنى لأحدهما عن صاحبه؛ لأن الصداقة الحقيقية كالصحة السليمة، لا نعرف قيمتها حتى نفقدها.

الاتعاظ بما عاناه الصديقان

وتجديد الصداقة ينطوي دائمًا على عنصر من الندم، وعلى ذكرى مريرة من الألم، تحفزنا على تحاشي أسباب النزاع؛ لذلك يقول «لارو شفوكو»: الصداقة المجددة تحتاج إلى رعاية تفوق ما تحتاج إليه الصداقة التي لم تعطب قط من قبل.

تجديد الصداقة يتسامى بالنفس

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾
—«قرآن كريم»

جعل السيد المسيح الصفح مسبار الروحانية، فلما سأله «بطرس»: كم مرة يخطئ إليّ أخي وأنا أغفر له، هل إلى سبع مرات. قال له: لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات. كما قال: إن تاب أخوك، فاغفر له، وإن أخطأ إليك سبع مرات في اليوم ورجع إليك سبع مرات في اليوم قائلاً أنا تائب؛ فاغفر له.

ولا شك أن لتجديد الصداقة قيمة روحية كبرى؛ لأن السعادة منبعها طمأنينة القلب، وهي لا تتحقق إلا بالصفح والتسامح، وتحاشي الإيلام، والتعالي عن حب الانتقام؛ فإنه لا غفران لمن لا يغفر، ولا محبة للصارم الذي لا يلين.

جرح الصالحين سريع الالتئام

وقد جاء في كتاب «كليلة ودمنة»: إن المودة بين الصالحين سريع اتصالها بطيء انقطاعها؛ كالكوز من الذهب، بطيء الانكسار سريع الإعادة، هين الإصلاح، إن أصابه ثلم أو كسر. والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها، ككوز الفخار، سريع الانكسار، ينكسر من أدنى عيب، ولا وصل له أبدًا.

الفصل الثالث
الاغتمام لانفصام عروة الصداقة

دفن الصداقة أفدح من دفن الصديق

تموت الصداقة كما يموت الصديق، ولكن دفن الصداقة يورث «حزنًا» أشد من دفن الصديق؛ لأن دفن الصديق يدمّث القلب ويصقل الحياة؛ على حين يقسّي القلب دفن الصداقة، ويمرّر الحياة.

إخفاق الصداقة مأساة الحياة

إن إخفاق الصداقة من أقسى مآسي الحياة، وقلما أفلت أحد من تجرع كأسها؛ وإن اختلفت أسباب انقضائها، وتنوعت دواعي انفصامها.

انفصام الصداقة يولد الكمد

ينطوي الحزن على انفعال الحنان، مقرون بإحساس سلبي بالنفس. فإذا أجردناه من انفعال الحنان، لم يبقَ غير شعور سلبي أليم بالنفس أو انسحاق. فإن حررناه أيضًا من الشعور السلبي بالنفس، لم يبقَ غير وجدان محضّ منقبض لا يمكن تسميته حزنًا بمعنى الكلمة.

والحادث الذي يقضي على عاطفة المحبة، وينتزع في نفس الوقت موضوعها، كالصديق الذي كان محل عاطفة قوية، إذ يفجؤنا بالتخلي عن الصداقة، ويشعرنا في نفس الوقت بأنه غير جدير بصداقتنا، فإنه يضعنا بذلك في حالة تكاد تتجرد من الدافع أو الرغبة، قد يمكن تسميتها كمدًا لا حزنًا، ومن شأنها أن تورثنا موجدة مبرحة لا تطاق، وإن كان لا يخلو من غصب واستنكار وتقزز، وما يقابلها من دوافع.

تنكُّر الصديق قد يورث الكفر

إن انفصام عروة الصداقة بسبب ضعف الصديق وتغيره، وغدره وتنكره، لمما يساعد على تحطيم الثقة وحسن النية بين الناس؛ والشك في حقيقة المحبة، بل في حقيقة الحياة الروحية؛ لأن العجز عن رؤية الإلهي في الآدمي، يعمي العينين عن الإلهي في أي مكان.

فالانخداع في دائرة المحبة يهز أسس الدين، وقد يورث الكفر ويقضي على اليقين.

انسحاب الصديق لا يسحب ذكرى الصداقة

ومع ذلك قرب صديقين عرفا صفو الصداقة، ثم فرقت بينهما صروف الزمان، فاحتفظا بذكريات الصداقة الصرف، والمودة المحض، كما لو كانت صداقتهما قائمة في ريعان ازدهارها.

ورب صداقة انسحب أحد طرفيها، فلم يكن انسحابه ليجرد الصديق الثاني من نعمة الصداقة؛ لأن المنسحب لا يستطيع وحده أن يحرم صاحبه من ذكريات الصداقة، التي يتردد صداها في صدره كلما صادفه ما يرفع عنها سدول الزمن، فيعيد إلى سمعه وبصره وعقله وقلبه ذكرياتها الحلوة وأيامها العذبة، وأضواءها اللماحة؛ وأفكارها المتبادلة، ونصائحها

المخلصة، وإيمانها وتفانيها ومكارمها وأفضالها؛ بغض النظر عن احتجاب الصديق نفسه، سواء أكان احتجابه لضعف اعتراه، أم عجز، أو تخلف، أو مصلحة خاصة، أو تحول طارئ أو تغيير في الظروف، أو عن جبن أو خوف.

إن الذي يحرم الصديق نعمة الصداقة التي انسحب طرفها الثاني، ويجلل صورتها بالسواد، ويحول ذكرياتها إلى محنة تثير حفيظة المنكوب في صداقته، بل تذكي استنكاره ونقمته؛ إنما هو عدم التفرقة بين المنسحب، وبين صداقته قبل الانسحاب، كأنما يتصوره قد سحب صداقته معه، وهو الأمر الذي لا قبل له بأن يصنعه.

وإني أعتبر المنسحب شخصًا غير صديقي الذي عرفته، مقطوع الصلة به؛ أما صديقي الذي عرفته فهو باقٍ لي.

النقمة على الصديق المنسحب

والناقمون على أصدقائهم السابقين، يرمونهم بالنذالة أو يذمونهم، زاعمين بأنهم لو عرفوهم على حقيقتهم ما محضوهم مودتهم، وأنهم ظلوا مخدوعين طوال الأيام والسنين، فلما جاءت الشدائد عرفوهم على حقيقتهم سافرين غير مقنعين.

جـزى اللهُ الشدائدَ كـلَّ خيـرٍ عرفتُ بها عَـدُوِّي مِـنْ صَدِيقي

إن هؤلاء المنكوبين ليتهمون أنفسهم بالعجز، والغفلة وضعف التقدير، وسوء الاختيار؛ وهي صفات ما عُزي بعضها إلى امرئ إلا سقط من نظر الناس، فما بالك وهو المُقِرّ بمساوئه، الذي يصم نفسه بما يعف عن رميه بدائه، ألدّ أعدائه.

ولو أن المنكوب في صداقته، كان قد قوي على الكف من غرف عواطفه الجامحة، وطوى جوانحه على جراحه النغرة، لهان خطبه؛ ولكنه يأبى إلا أن يعرضها للعيان عارية، ثم يطلق العنان لعقيرته بالصياح، وأحيانًا بالنواح، بل بالنباح، فيسمع الناس هجاءه لصاحبه ويتعجبون من حماقته، ولا يسعهم إلا الشماتة في الصديقين السابقين، واستنكار ما صار إليه أمرهما، متندرين بتصرف أكثرهما حماسة في نقد صاحبه، وإمعانًا في هجوه وتجريحه.

ويل للمشككين في الصداقة

إن أقبح منظر تقع عليه العين، هو منظر اثنين يتبادلان أقزع عبارات القدح، وأفدح أحاسيس الغيظ والحقد، وقد كانا منذ أيام صديقين حميمين، وصاحبين متلازمين! ذلك أن مثل هذين يسيئان إلى المعاني السامية والقيم العالية، ويزلزلان الإيمان بوجود الفضيلة، ويهدمان الثقة في الأخلاق النبيلة، وينشران الدعوة المسمومة إلى الشك وسوء الظن.

البـــاب الثاني

انقضاء الصداقة بموت الصديق

«لـكـل شـيء عـدمـتـه عـوض   ومـا لفقد الصديق مـن عوض»

الفصل الأَوَّل

الحزن على موت الصديق

«إذا أيقنت النفس بأنها لاحقة بأصدقائها في مكان ما من الكون، فسوف تكون في وحدتها قانعة منشرحة، ولو طال فراقها ألف عام»—«إيمرســـــون»

هول الموت

حيّر الموت الناس منذ كتب عليهم الموت، ولا سيما موت الحبيب القريب إلى القلب، لذلك يفجؤنا موت الصديق، فتذهلنا فجيعتنا فيه، وتجرعنا غصص غم ممضّ لا قبل لنا باتقائه أو تلافيه.

موت الصديق تنصيف لصديقه

يقول «مونتيني» بعد موت صديقه «بواسييه»: اعتدت أن أكون اثنين دائمًا، فلم أعد أطيق الانفراد وحدي، صرتُ أتصور أنني نصف نفسي. وشعر «جوتيه» لما مات «شللر» بأنه قد فقد نصفه.

ريشة تنزع من جناحنا

يقول «يونج»: أعلم أن الأصدقاء لا بد أن يفترقوا. وكل صديق ينتزعه القدر منا، ريشة تنتش من جناح الكبرياء الإنسانية، تجعلنا نهوي من مرتفعاتنا الهوائية.

يظلم ضياء الحياة بعدهم

ويقول «لونج فيللو»: عودوا؛ أيها الأصدقاء الذين انقضت مدتهم، عودوا بكل ذلك الضياء الذي أظلم وتحلل حين نهضتم وانصرفتم.

يشفق من أن يكون اللاحق

ويقول «البحتري»:

لعمركَ لا أدري وإني لأوجــلُ   على أيّنا تعدو المنيـــــــةُ أول

يود لو أنه السابق

قال «هارون الكاتب»:

إذا ما أتــى يــومٌ يـفـرقُ بيننـــا   نمـوتُ، فكنْ أنـت الـذي يتأخَّـرُ

ويقول «شوقي» في رثاء «حافظ»:

قــد كنت أوثـــرُ أن تـقــولَ رثائي   يـا منصفُ المـوتى مِــنَ الأحـيـاءِ

المبحث الأَوَّل

التكييف السيكولوجي لعاطفة الحزن

يفسخ الموت نسيج حياتنا

حيكت حياتنا وحياة صديقنا في نمط، لذلك يعز علينا أن نجد لُحمة جديدة لسداة النسيج الذي فسخه الموت، ويعترينا شعور بأن حياتنا قد صارت حطامًا، وبأن وجودنا أمسى ركامًا، وقد يستفحل حزننا فيصير إحساسًا مرضيًّا، وينقلب عاطفة زائفة تعيش في الماضي، غافلة عن نعم الحاضر وبركاته، متحللة من واجباته ومسؤولياته.

الحزن أسف حنون

الحزن أحد الانفعالات المشتقة، باعتباره من انفعالات الرغبة المرتدة. وهو صورة خاصة من صور الأسف، ولا سيما الأسف المنبثق من عاطفة المحبة.

وموت شخص نحبه، من أكثر مناسبات الحزن النموذجية حدوثًا، والصديق أول من نحب، وحزننا على وفاته أسف حنون، هو الحزن بمعنى الكلمة؛ لأنه مقرون بعاطفة المحبة، وبالإحباط الكامل لدوافعها، مما لا يكاد يمكن حدوثه إلا لدى هلاك موضوع المحبة.

رد الفعل الاكتئابي

وغالبًا ما يجيء رد الفعل الاكتئابي إثر فقدان شخص، إما بالموت أو الهجران، كانت تربطه بالمصاب صلة وثيقة، وهي تشبه على هذا الاعتبار رد الفعل العادي للكمد (الحزن المكبوت).

وفقدان الشخص الغالي، يزيد ردّ الفعل الاكتئابي، وتتميز هذه الحالة الانفعالية بمالنخوليا، وإغراق في التأمل، وشعور بالعجز، واتجاه إلى نقد النفس وتحقيرها، كما تقترن بتخلف التفكير والنشاط الجثماني؛ وضعف المقدرة على المبادرة والتركيز، مع الاستسلام للشعور بالذنب.

ومن أعراضه الثانوية الضجر، والأرق، والخمول، والنهم، أو الصُّدُوف عن الطعام.

والهبوط المرضي لا يبدأ إلا بعد البلوغ، وهو أشد شيوعًا بين الرجال؛ أما في منتصف العمر فإنه يصيب النساء أكثر من الرجال.

الحزين يلتمس المعين

يقترن الحزن بميل أَوَّلي إلى التماس المعونة والمؤاساة، حين تخور قوانا، ويثبت عجز جهودنا عن تحقيق غايتنا، فتتجه قلوبنا إلى معونة السماء، وترنو عيوننا إلى مؤاساة الأصدقاء.

مظاهر التعبير عن الحزن

قد نوطِّن النفس على إخفاء علامات الحزن الخارجية، إلا أننا وإن نجحنا في إخفاء صوت عويلنا ونحيبنا، أو تحويله إلى مجرد تنهد؛ فإننا لا نستطيع بنفس السهولة منع تبلل العيون بالعبر، باعتبار الدموع جزءًا من هذا التعبير الغريزي.

المبحث الثاني

وسائل الناس لتحاشي الحزن وتلطيفه

تحاشي عقد العلاقات

تأدّى الناس بمختلف الأسباب، ليتحاموا مضض موت الأحباب، فرأى بعضهم أن من السخف أن يربطوا حياتهم بحياة غيرهم؛ بحيث يمزقها فراقهم، ومن هؤلاء «أوغسطين» الذي يذهب إلى حد القول بأنه يجب على من لا يريد مكابدة مثل هذا الحزن أن لا تكون له -إن أمكن- علاقات صداقة، وأن يمنع أو يخمد أي تأثر وجداني بالصداقة، وأن يصدع ببرود لا يرحم روابط كل علاقة بشرية، أو يحاول استخدامها بحيث لا يستطيب مذاقها.

أسلوب الرواقيين

«فقدان صديق أكبر جميع الشرور، ولكن فلتحاول بالحري أن تغتبط بسالف حيازته؛ أكثر من أن تنوح على خسارته»—«سـنيكا»

يلتزم الحكيم الرواقي في التحرر من الانفعال، ولا يتأثر بالفرح أو الترح، مستسلمًا بغير تذمر لحكم الضرورة القاهرة.

ومع أن الرواقيين يعتبرون أن فقدان الأصدقاء هو أكبر خسارة يقاسيها الإنسان، فإن «سنيكا» يرى الخير في اتخاذ سواهم، بدلاً من البكاء على فراقهم، وهو يأذن بقدر من الدموع، ويقول معزّيًا: طب نفسًا إن لم تفقد غير صديق واحد فقط، فإذا كان هو الصديق الوحيد، فلا بأس من أن يعتريك بعض الأسى.

ذكرى الصديق تسعدنا

انقضاء الصداقة لا يقترن عند الأبيقوريين بالأسف، بل يترك ذكرى سعيدة، فهم يعرفون كيف يستعيدون ذكرى أصدقائهم الغائبين أو الموتى ويجترّون بالفكر المسرات السابقة، فيستمتعون بها من جديد. وأنهم بهذا يجنّبون عواطفهم عاديات الزمان. ولا يختصون بالتفاتهم أصدقاءهم الحاضرين دون الغائبين.

ويلاحظ «بلوتارك» أنه وإن أنكر على نفسه الأمل في أن يسترد أصدقاءه بعد الموت، وأن يتحدث معهم حديثًا حقيقيًّا؛ إلا أنه يعتقد أن استعادة ذكرى الصديق الراحل، لذيذة جدًّا من كل وجه. وأنه ليحدث أحيانًا أن يصلنا تفكيرنا بظلال أصدقائنا الراحلين وصورهم.

استنكار جمود السوفسطائيين وصدامتهم

ينكر «أبيقور» على السوفسطائيين صرامتهم؛ فيقول: إنهم ينحّون عنا الحسرات وذرف العبر، على موت أصدقائنا، هذا الجمود الذي يزكّونه ينطوي من حيث المبدأ على شر أكبر كثيرًا من الحزن؛ لأنه ينبثق من قسوة مركوزة، بل من جنون وحشي، وكبرياء مختلّ لا ضابط له. خير لنا أن نتألم، وأن نتعذب. نعم وحق «جوبيتر»! خير لنا أن تجف مآقينا من الأسى، وأن يفقدنا الاستعبار بصرنا.

الاستسلام للحزن أنانية وحسد

يقول «شيشرون» بلسان «ليليوس» بمناسبة وفاة صديقه «شيبيو أفريكانوس» إنه متألم بدرجة محسوسة لخسارة صديق لم يظفر بمثله إنسان من قبل، ويعتقد أن أحدًا لن يصادف صنوه من بعد؛ ومع ذلك فهو بغير حاجة إلى أي معونة خارجية تأسو جرحه؛ لأن تأملاته تسعفه بالعزاء، ولا سيما أنه لا يوجد ظرف مقترن بموت صديقه يسوغ الحزن.

لقد كان آخر أيامه أعظمها مجدًا على كثرة الأيام المجيدة التي عمرت بها حياته. ففي الليلة السابقة مباشرة على وفاته أولاه مجلس الشيوخ شرفًا فريدًا إذ رافقه إلى داره جميع الأعضاء على إثر انفضاضه، مصحوبين بسفراء العالم اللاتيني، وسائر ممثلي حلفاء الإمبراطورية الرومانية.

وليس الاستسلام للحزن، مع قيام هذا الاقتناع دليلاً على المحبة العارمة للصديق، بل هو اهتمام بالغ بالنفس، أدنى إلى حسد الصديق الراحل، منه إلى عاطفة الصداقة الحقة.

وإن الصديق ليحصل على متعة كبرى من استعراض ذكريات صداقته، ولا يسعه إلا تهنئة نفسه على نعمة حياتـــه، إذ سعد بقضاء شطرها الأكبر في صحبة ذلك الصديق الراحل.

الموت قمة الحياة وعنوان الخلود

وثمة فريق رأى في الموت من المزايا ما يجعله قمة الحياة، والدليل الأكبر على الخلود، إذ لا نستطيع الاعتقاد بأن كل جواهر العقل والقلب التي بهرنا بصيصها في شخصية صديقنا قد بددت في الهواء هباء. وإنه وإن كانت السعادة في أن يكون لنا في الدنيا أصدقاء، فإنها لسعادة أعظم أن يكون لنا أصدقاء في السماء. وأن الصداقة لا تنتهي بالموت؛ لأن المحبة مستقلة عن الزمان والمكان؛ ولأن عروة الوحدة الروحية غير قابلة للانفصام.

وإن النفس البشرية شيء إلهي خالد، يفتح الموت أمامها طريق العودة إلى منازلها السماوية، وإن أرواح الرجال العدول الذين قطعوا أبعد الأشواط في طريق الفضيلة، تجد الوصول سهلاً ميسرًا عاجلاً.

وقد عبَّر عن هذا المعنى «تنيسون» في مرثيته لصديقه لورد «هالام»: أي صديقي السماوي العزيز، إنك لا تستطيع أن تموت، إني أقرن بك الدنيا، صوتك فوق الهواء الساري، أسمعك عند الماء الجاري؛ أراك كاملاً في الشمس وهي طالعة، وأنت مليح في الشمس وقت الغروب.

لا حزن بالأمر

«النوح على فقد الصديق ليس من علامات الصحة، بقدر الاغتباط بأصدقائنا الجدد».

—«شكسبير»

وهذه أديبة إنجليزية شابة توصي أصدقاءها من فوق فراش موتها قائلة: لا تحزنوا عليَّ بخطوة متئدة تمشونها متوشحين بملابس الحداد الكابية ذات الألوان الحزينة. ولا تبكوا؛ لأن سيرة حياتي التي تروى، تُلقي شفقًا عاليًا على رأسي غير المتوج، ولا تتباطؤوا قربي واللّحّاد يملأ بالتراب قبري، بل انصرفوا متهللين فرحًا، إلى وليمة مرحة مُعَدّة في ردهاتكم، وزيِّنوا غرفكم بالنرجس الأصفر. اترعوا كؤوسكم الطويلة بالنبيذ الأبيض والأحمر. وأَنشِدوا أغاني الشجاعة للحب الحقيقي الشهم، مرتدين غلالات رقيقة من سندس، وارقصوا كما طالما تقدمتُ رقصاتكم، واضحكوا كما طالما ضحكتُ وإياكم. وليشتد مرحكم بعد أن أكون قدْ مِتُّ!

النسيان دواء لا غناء فيه

ويلجأ البعض إلى الهرب من الحزن بمحاولة نسيان الصديق الراحل والامتناع عن التفكير فيه، واستبعاد كل ما يذكّر به من قريب أو بعيد، حتى إن سيدة فضلى من أهل

الصعيد كانت إذا زارت ولدها انتظرت حتى يصعد سائق سيارتها إلى مسكنه ليرفع صورة زوجها من مكانها في صدر الدار، حتى لا يقع بصرها على «الغالي»!

المبحث الثالث

استمرار الصداقة بعد الموت

«بعد موتنا، نهتم بأصدقائنا»—«أرسطو»

صديقنا «عبد الحميد» لم تفارقنا ذكراه

لم يقو الموت على فصم عروة صداقتنا، بل ظلت متصلة متجددة عبر السنين الثلاثين، ولم يكد يمرّ يوم منذ فارقنا «عبد الحميد» لم يسنح بخاطرنا طيفه المفترّ الثغر، الوَضّاء المُحَيّا، تذكرنا به الأماكن والمناسبات والأشخاص، ويسعدنا استعادة أحاديثه وملاحظاته ونصائحه ووجهات نظره، وآرائه في مختلف الشؤون والأحداث. حتى إنه ليُخَيَّل إلينا أننا حين نلحق بربنا فنلقاه، لا نكاد نحس بأننا قد فارقناه.

إن ذكرى الصداقة لا يمكن أن تزول فهي تخلد كالصداقة نفسها، عند الذين يؤمنون بخلود الصداقة الحقيقية، وإن انفصمت عروتها في هذه الدنيا.

الأصدقاء أحياء بعد موتهم

الأصدقاء كما يقول «شيشرون» بلسان «ليليوس»: وإن غابوا، فإنهم ما زالوا حاضرين، وإن افتقروا، فما برحوا أغنياء؛ وإن ضعفوا، فما انفكوا أقوياء؛ وما هو أكثر صعوبة في

توكيده، إن ما توافهم ما فتئوا أحياءً بالنسبة إليّ، في الواقع، ما برح «شيبيو» ماثلاً في عين عقلي، ولسوف يظل حاضرًا أبدًا؛ لأنها إنما كانت فضائله هي التي حببته إلى قلبي، وفضائله حية لا تموت.

وهو يقول: وإني لأخاطر بتوكيد أشد جسارة، هو أن الصديقين لا بدَّ أن يستمر بقاؤهما ما بقي أحدهما على قيد الحياة، فالميت يظل حيًّا في صورة ما، ما دامت ذكراه محل التقديس العظيم، والحنان البالغ في قلب صديقه «الباقي» مما يجعل الأول سعيدًا في «الموت» والثاني مكرمًا في «الحياة».

ويقول «بارت» إذا اخترنا أصدقاءنا لما هم عليه لا لما يملكون، وإذا استحقينا نعمة الصداقة الجليلة القدر، فإنهم سوف يكونون معنا دائمًا، نحتفظ بهم رغم غيابهم، حتى بعد موتهم.

الأصدقاء لا يفترقون

يقول «جوفري هدسن» في كتابه «العودة إلى الحياة»: فلا الولادة ولا الموت ولا الولادة الجديدة، بمستطيعة أن تفرق تمامًا مَن توثَّقتْ بينهم عُرًى روحية أو عقلية أو مادية. ففي نفوسهم الروحية، حيث نشأت أقوى الروابط، يظلون دائمًا متحدين سواء تسربلوا بأجسام مادية أو خلعوها عنهم، إذ إنه في حالة الإدراك التي تعيش فيها النفس الروحية، يتعذر وجود الفراق، ولا يعرف الانفصال.

وفوق ذلك، فوجود رباط قوي كهذا، سوف يدفع النفوس إلى العودة إلى الحياة في نفس الوقت تقريبًا، وفي ذات الظروف التي تسهّل اللقاء، حيث تنجذب معًا بوحدة الأهداف وقانون السببية.

وحتى لو سها المخ الجديد، وهو مركز الذاكرة، عن حوادث العلاقات الوثيقة الماضية حين اللقاء؛ فإن القلب يتكلم ويحسّ الجذب المتبادل، ويتجدد الحب من أول نظرة أحيانًا، وتتوثق مرة أخرى علاقة عمر تباينت ظروفه في تجسدات سابقة. وفي كل ائتلاف جديد يتقوى الحب ويزداد ثباتًا ونبلاً إلى أن يبلغ حد الكمال.

لا انفصام للأرواح المتحابة

ويقول «وليم بن»: الذين يتسامون بحبهم على الدنيا، لا تقدر الدنيا على تفريقهم، الموت لا يقوى على قتل ما لا يموت. ولا يمكن أن تنفصل أبدًا الأرواح التي تحب، وتعيش في نفس المبدأ الإلهي، الذي هو جذر صداقتهم وسجلها.

الموت ليس إلا عبور الدنيا كما يعبر الأصدقاء البحار، ومع ذلك فإن أحد الصديقين ما يزال حيًّا في صاحبه. هذا هو عزاء الأصدقاء، إنه وإن قيل إنهم يموتون، فإن صداقتهم وصحبتهم هي بأحسن معناها لا تبرح حاضرة دائمًا.

ويقول «إيمرسون»: موت صديق عزيز، وإن بدا مجرد حرمان، يتخذ فيما بعد على وجهٍ ما مظهر المرشد أو العبقري؛ لأنه عادة يحدث ثورة في أحد طرق الحياة، ويختم فترة طفولة أو شباب كانت تنتظر نهايتها؛ ويقطع اهتمامًا معتادًا، أو مألوفًا، أو أسلوبًا للمعيشة، ويتيح تكوينًا جديدًا أكثر ملاءمة لنمو الأخلاق، ويهيئ معارف جددًا، أو يسوغ ضرورة اتحادهم، ويمدّ لتقبل مؤثرات طريفة ذات أهمية كبرى للسنين القادمة.

روح وعقل واحد يشمل الوجود كله

تقول «اليناهويت هيد» أي صديقي: إن كانت هبتك لي صلاة لراحة نفسي، فإني أتقبل هديتك؛ إنه لسائغ أن نصلّي لراحة الروح بعد الموت. كما نصلي كثيرًا في الحياة لأجل نوم

مستغرق هانئ. ومع أن الراحة ليست إلا جزءًا من الحياة، فإنها جوهرية للحياة. ولكني أتطلب منك هبة أعظم، أنت الذي أثبت قوة عقلك.

إذا كنا نعتقد أن ثمة عقلاً واحدًا، وليس غير عقل واحد، إذن فهذا العقل لابد أن يشمل الموتى والأحياء، ويحيط بسائر العوالم مع كرة الأرض، وينطوي على المستقبل كما يحتوي الحاضر.

إذا كنا نعتقد أن الروح خالدة، إذن فروحك يا صديقي وروحي ستكونان حيث هما الآن، وحيث كانتا دائمًا، آمنتين مطمئنتين في «الروح الواحد». لا انفصام بين «الآن» وما بعد الآن، وبين هذا العالم، والعوالم الأخرى؛ بين الأحياء والذين تجردوا من أجسادهم الطبيعية.

«العقل الواحد» يوحدنا، فإذا مات أحدنا، اتصل بنا واتصلنا به عن طريق العقل الواحد. وإذا كان لا بد لي من الانطلاق، وأنت باقٍ على الأرض، فإننا نظل متحدين في رباط الحياة. أنا أيضًا سأكون حية، أنمو ككائن حيّ، وأشق طريقي في الحياة مدى الأبدية. لست أريد الراحة بهذه المثابة، بل أبغي التأدي الكامل «للحياة»، عالمة أن الراحة الملائمة اللازمة، سوف ينطوي عليها نسق حياتي المتزنة.

ارتبطنا هنا على الأرض عن طريق وجداننا، وسوف يظل يوحدنا هذا الوجدان. لقد بعثت إليّ بكثير من الأفكار المنشطة، استطعت استقبالها والإفادة منها، ما دامت أفكارك تصلني عن طريق «العقل الواحد». وحين أنطلق، فإن فكرك يبلغني بنفس اليسر، ومع تقدم الحياة سأظل أستفيد من معرفتك البناءة.

تلقيت هبات كثيرة من قلبك الكريم ويدك الندية، وكان أعظمها دأبك على أن تراني كلأً، حكيمًا محبوبًا. ولما كنت على هذا القدر من المعرفة بك، فإني موقنة أن كرمك لا بد أن يلتمس مستقبلاً لفيض ودادك. أفترسل إليّ هدية، هدية عقلية – كلما فكرت فيّ؟

فلتكن هديتك إليّ تصوّرك إياي على أني حائزة لأثمن كنز يمكن أن أرغب فيه، شعور بُسكْنَى الله في داخلي؛ ومعرفة بقانون العقل.

بهذا البنيان أكون متأدبة للتقدم السريع الهادف، حيثما أقطن في «الوجود الواحد»، الذي نكون فيه كلانا متجاورين كما نحن صديقان.

وأنت يا صديقي إذا شئت أن تسبقني، فإني باعثة إليك ببهبة الشعور العالي في كل مرة أفكر فيك، ولو كان ذلك خمسين مرة في الساعة، ولو استطال هذا خمسين سنة.

لسوف أشاركك حياة كاملة في وحدة وعيك ووعيي، بحيث يملأ جلالها زوايا قلبي الخاوية. سنتقاسم الوجدان، كما تشاركنا في خير ما يمكن أن تقدمه الحياة. وعلمنا بأننا متصلان، وأن في وسعي أن أعطيك أعظم الهبات، سوف يحوّل حزني إلى الفرح الذي طالما أشعر به دائمًا في حضورك.

الفصل الثاني

رثـــاء الصديـــق

«يتعدد موت المرء بقدر ما يفقد من أصدقاء»

يؤخر دفنه سبعة أيام

حفلت آداب العالم بلواعج الناس ولوعتهم على موت أصدقائهم، ولعل أقدم ما وصل إلى علمنا ما سجلته اللغة الأكادية، من رثاء «جلجامش» أشهر الأبطال السومريين لصديقه «أنكيدو».

ذلك الذي شاركني كل المخاطر، أدركه مصير الإنسان. بكيت فوقه طوال النهار والليل؛ سبعة أيام وسبع ليالٍ، وأبيت أن يواري التراب، فقد يصحو صديقي على صرخاتي العالية؛ إلى أن طفرت دودة من أنفه. ومنذ ذهابه لا أجد عزاء، ولا أبرح هائمًا كالصياد في السهول.

«داود» يرثي «يوناثان»

لما قتل «داود» «جالوت»، أحضره رئيس الجيش أمام «شاول» ورأس «جالوت» بيده. وكان لما فرغ «داود» من الكلام مع «شاول» أن نفس «يوناثان» تعلقت بنفس «داود» وأحبه «يوناثان» كنفسه.

وقطع «يوناثان» و«داود» عهدًا؛ لأنه أحبه كنفسه. وخلع «يوناثان» الجبة التي عليه وأعطاها لـ «داود» مع ثيابه وسيفه ومنطقته.

وقد خلّدت «مزامير داود» مرثيته لـ «يوناثان» و«شاول»: الظبي مقتول على شوامخك. كيف سقط الجبابرة.. يا جبال «جلبوع» لا يكن ظل ولا مطر عليكن، ولا حقول تقدِمات؛ لأنه هناك طُرِح مِجَنّ الجبابرة لم ترجع قوس «يوناثان» إلى الوراء.. «شاول» و«يوناثان» المحبوبان والحلوان، في حياتهما، لم يفترقا في موتهما. أخفّ من النسور، وأشد من الأسود. كيف سقط الجبابرة في وسط الحرب. «يوناثان» على شوامخك مقتول. قد تضايقتُ عليك يا أخي «يوناثان».

«أرسطو» يرثي «هرمياس»

خلد «أرسطو» ذكرى صديقه «هرمياس» بالنشيد المشهور المسمى «نشيد الفضيلة».

«شيشرون» يرثي «شيبيو» بلسان «ليليوس»

سيذكر اسمه مقرونًا بالتكريم إلى آخر الخلف، وسوف لا يتدبر من بعد امرئ أمرًا ذا بال مما يستحق الحمد، أو يتصدى لإنفاذه، بغير أن يكون قد اتخذ لنفسه أسوة حسنة من سلوك «شيبيو» باعتباره قدوته العليا ودافعه!

أما عن نفسي، فإنه لا نعمة، من كل النِّعَم التي أدين بها للطبيعة أو للحظ، هي عندي أغلى قيمة من صداقتي لـ«شبيبو». وجدته في الشؤون العامة صفيًّا ثابت الود، ومشيرًا أمينًا في حياتي الخاصة، وفي كل المناسبات الصديق الذي أفضي إليه بمكنون قلبي وتستمد منه نفسي خالص رضاها وأرْضَنَه. لست أذكر أنني مسسته بأقل مساءة، وإني لواثق أنني ما

سمعته ينبس بكلمة آلمتني، لم نعش فقط تحت سقف واحد، ونأكل على نفس المائدة خبز الكفاف، بل ترقينا معًا إلى المناصب العسكرية؛ وكنا حتى في رحلاتنا الريفية، رفيقين دائمين لا يفترقان، فوق أننا شغفنا بحب العلوم، نقضي كل ساعات فراغنا جادين في تقصّي المعارف المفيدة.

ولو أنني عدمت القدرة على تذكر هذه الظروف السارة، لاستحال عليَ احتمال خسارة رجل أحببته بكل هذه المعزة، ووحّدتني به أوثق أواصر المودة، ولكنها منقوشة على عقلي بحيث لا يمكن أن تمحى، وكلما تواردت إلى فكري، زادت آثارها وضوحًا.

«الخنساء» ترثي أخاها «صخرًا»

أعيـنـيّ جـودا ولا تجمـدا ... ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجوادَ الجميـ ... ـل، ألا تبكيانِ الفتى السيدا
طويل النجاد، رفيع العما ... د، ساد عشيرته أمردا
إذا القومُ مدُّوا بأيديهم ... إلى المجد مدّ إليه اليدا
فنال الذي فوق أيديهم ... من المجد ثم مضى مصعدا
يُحَمّله القوم ما عالهم ... وإن كان أصغرهم مولدا
وإن ذُكِرَ المجدُ ألفيته ... تأزّر بالمجدِ، ثم ارتدَى

وهي تقول:

ألا يا «صخر» إن أبكيتَ عيني ... فقد أضحكتني زمنًا طويلاً
دفعتُ بك الخطوب وأنت حيٌّ ... فمن ذا يدفعُ الخطبَ الجليلاَ

سردت ما بين الفضاء وناظري

ورثى «الشريف الرضي» صديقه «الصابي» قال:

أرأيـــتَ كـيـفَ خَـبَـا ضِـيـاءُ النار	أَعَـرَفْـتَ من حُملوا على الأعْـوَادِ
ما كنتُ أعلمُ قبلَ وضعِكَ في الثَّرَى	أنَّ الـــثَّرى يعلو على الأَطْـــوَادِ
سـوّدتَ مـا بـينَ الفضاءِ ونـاظِـرَيَّ	وغسلت مـن عينيّ كـل سـوادِ
يـا ليتَ أنّي مـا قَنَيْتُكَ صاحبًا	كـم قنية جَـلَـبَـتْ أَسَـى لـفـؤادِ

وارتجل «الشريف» أبياتًا عندما مرّ بقبر صديقه، قال:

كيف اشتياقُك مُـذْ نَأيت إلى أخٍ	قلق الضمير إلـيـك بـالأشـواقِ
هل تذكرُ الزمنَ الأنـيـقَ، وعيشنا	يحلو عـلـى مُـتَـأمِّـلٍ ومَـــذَاقِ
لا بــدَّ لـلـقُـرَنَـاءِ أن يَـتَـزايَـلُـوا	يـومًـا بـعُـذْرِ قِـلًى وعُـــذْرِ فِـرَاقِ
أَمْـضِـي وتُعْطِفُني إلـيـكَ نَـوَازِعٌ	بـتـنـفُّـسٍ كـتـنـفُّـسِ الـعُـشَّـاقِ
وأَذُودُ عن عيني الدموعَ ولو خَلَت	لَجَـــرَتْ عليكَ بِـوَابِـلٍ مِـغْـدَاقِ
إن تمْـضِ، فالمجدُ المُـرَجَّـب خالدٌ	أو تَـفْـنَ، فالكَلِمُ العظامُ بواقِي

«موتيني» يرثي «بواسييه»

إنني إن قارنت كل حياتي الماضية، التي قضيتها بفضل رحمة الله في راحة وسعة وسلام، بمنجاة من المكاره والآلام، فيما عدا خسارة صديق ممتاز هذه منزلته، أقول: إنني إن وازنت حياتي الماضية كلها بالسنين الأربع التي نعمت فيها بصحبته الحلوة، وعشرته العزيزة الغالية، فإنها لا تكون إلا دخانًا، ونورًا خافتًا مقبضًا.

حياتي منذ فقدته حزينة فاترة، حتى المسرات التي تحبوني بها الأشياء المحيطة بي، عوضًا عن أن ترفه عني، فإنها تضاعف من اغتمامي وحزني.

كان كل شيء بيننا مناصفة، حسبتني قد سرقت منه نصيبه؛ لست أستطيع الاستمتاع بأي سرور ما دام هو، إلفي وشريكي، بمبعدة مني.

ما انتابني حادث، أو خامرني خاطر، إلا سمعته يحدثني جريًا على عادته معي في حياته؛ لأنه وهو يفوقني بمراحل، في جميع القرارات والفضائل، فإنه يسبقني أيضًا إلى الاضطلاع بكل خدمات الصداقة وواجباتها.

أي أخي، استرح من عناء شخصي التاعس، لقد مضت معك مسراتنا التي تعهدتها بمحبتك الحلوة، وأفسد موتك كل سعادتي، استودعتك نفسي قلبًا وقالبًا.

أسوف لا تكلمني أو أكلمك؟ أنت يا أخي الأغلى من الحياة، أسوف لا أراك من بعد؟ ومع ذلك، فإني سأحبك دائمًا.

«ملتون» يرثي «إدوار دكنج»

رثى «ملتون» صديقه «إدوارد كنج» الشاعر الإنجليزي الذي مات غريقًا، وهو في الخامسة والعشرين، بما قد يعدّ أعظم قصيد إنجليزي قصير. وهو أول محاولاته ليسوِّغ لنفسه وللناس طرق المولى -جل شأنه، فحل لغز الحياة والموت، والإنصاف؛ في دنيا تحدث فيها مثل هذه الأمور، واستطاع في النهاية أن يدافع عن عدالة الله، والعناية الإلهية، وأحوال الحياة الدنيوية، لا بالإقناع، بل عن طريق رؤيا روح «لبسيداس» المتهللة، لدى استقبالها في الجنة.

وقد استعار «ملتون» اسم «ليسيداس» من قصيدة الشاعر «فرجيل»: «نشيد الرعاة»، واستخدمه بدلاً من اسم صديقه:

لكنني أجيء مرة أخرى أنت يا أشجار الغار، ومرة أخرى يا نبات الريحان الأسمر، والعلّيق الذي لا يذبل، لأبتسر ثمارك بغلظة وبلا تهذيب، ولأبعثر أوراقك بأصابع غاضبة عنيفة، قبل موعد إيناعها السنوي. فإن الضرورة المرة والمناسبة الأسيفة الغالية ترغماني على إقلاق موسمك المرتقب. ذلك بأن «ليسيداس» قد مات، مات قبل ريعانه، «ليسيداس» الشاب؛ ولم يترك له نظيرًا.

من ذا الذي لا يغنّي لأجل «ليسيداس»؟ لقد كان هو نفسه عارفًا بالغناء، وبصيرًا ببناء القوافي الشّمّاء.

لا ينبغي أن يطفو فوق نعشه المائي، غير مبكيٍّ عليه، يترنح تحت الرياح اللافحة، دون أن يستحق عَبْرةً شَجِيّة.

هلمّ إذن يا «شقيقات البئر المقدسة» المنبثقة تحت عرش «جوبيتر»، هلمّ فاجزين الوتر جذبًا عاليًا شيئًا.. لأننا ربينا فوق نفس التل، ورعينا معًا في الظل، قطيعًا واحدًا عند المنهل والجدول.

حدونا معًا خرافنا إلى الحقل قبل أن تستبين المروج الخضراء العالية، لجفني الصبح المتفتحين؛ وتسمّعنا معًا متى تنفخ «ريح الذبابة الشهباء» في صورها العليك فتظل تنفض فراء قطعاننا بندى الليل الطري، حتى يحوّل دفّته الكوكب الذي أشرق متلألئًا في المساء،

فيغرّب منحدرًا من كبد الجوزاء. ويخفت في نفس الوقت صوت الأغاني الريفية على زمير الزمارة المصنوعة من قصب الشوفان..

يا للتغيير الثقيل، الآن وقد قضيت، الآن وقد مضيت ولن تعود من بعد! ينوح عليك الرعاد، والغاب، وكهوف الصحراء المكسوة باللمام البري، كما تنوح عليك كل أصدائها.

أشجار الصفصاف وآجام البندق الخضراء، لن تُرى من بعد مروّحة بأوراقها الطروب على قصيدك الغض الرقيق.

إنّ وقْع فقدك يا «ليسيداس» على أذن الرعاة قاتل، كوطأة القلاع على الوردة، أو فتك الدودة العفنة بالقطعان الراعية؛ أو كالصقيع للزهور، يذهب برواء حللها المزركشة.

أين كنتن يا عرائس البحر حين أطبقت أغوار عديمة الرحمة على رأس حبيبكن «ليسيداس»؟

ألا كفّوا عن البكاء أيها الرعاد الحزانى، كفوا عن البكاء؛ لأن «ليسيداس»، مثير أشجانكم، لم يمت، ولو أنه قد غطس تحت سطح الماء؛ كذاك يغيب كوكب النهار في فراش المحيط، ولكن سرعان ما يرفع رأسه العارية ويهندم أشعته، ويتوهج بمعدن نفيس مجدد اللألاء، في جبهة سماء الصباح.

هكذا غاص «ليسيداس» في الأعماق، ولكنه حلّق إلى الأعالي، بالقوة العزيزة لذاك الذي مشى على البحر، حيث يغسل بالرحيق النقي في بساتين وجداول أخرى خصائله المخضلة، وينصت إلى أغنية العرس التي تفوق الوصف في العوالم المباركة ثملاً بالغبطة والمحبة.

وهناك في عليين، يحتفل به جميع القديسين مرنمين في حشود رصينة؛ وجماعات حلوة، فيجلو مجد غنائها حزنه، ويمسح إلى الأبد الدموع من عينيه.

لن تبكي الرعاة من بعد يا «ليسيداس». إنك من الآن فصاعدًا عبقرية الشاطئ في جزائك العظيم، وسوف تحسن إلى الهائمين في هذا الفيضان الخطر..

والآن، فإن الشمس تارة تنشر أشعتها على كل التلال، وطورًا تهبط في الخليج الغربي، ثم تطلع في الغد، وتنتشل معطفها الأزرق، لتشرق على غابات ومراعٍ جديدة.

«جون ستوارت ميل» إلى زوجته وصديقته

أهدي كتابي إلى الذكرى المحبوبة الأسيفة، لمن كانت الموحية، وإلى حدٍّ ما المؤلفة لخير كتاباتي.. الصديقة والزوجة، التي ظلت فكرتها السامية عن الحقيقة والصواب أقوى دوافعي؛ والتي كان استحسانها، مكافأتي الكبرى.

إنه ملكها ككل ما كتبتُ مدى سنين كثيرة، بقدر ما هو ملكي؛ وإن كان الكتاب كما هو، قد نال قسطًا يسيرًا من مزية مراجعتها التي تجلّ فائدتها عن التقدير، وكنت قد احتجزت أهم أجزائه لتعيد فحصها مزية من العناية، التي قدر لها الآن أن لا تظفر بها أبدًا.

لو أنني استطعت أن أفصح للعالم عن نصف الأفكار العظيمة والأحاسيس النبيلة، التي أحرقت في قبرها، لكنت وسيطًا لتحقيق منفعة أعظم مما عساني أن أسديه إياه عن طريق أي شيء تمكنني كتابته، بغير حافز من معونتها ومن حكمتها المنقطعة القرين.

«تنيسون» يرثي «هالام»

كان «تنيسون» جالسًا إلى مائدة العشاء، إذ تلقى رسالة مبتسرة من والد صديقه هذا نصها: صديقك يا سيدي، «آرثر هالام»، لم يعد له وجود. فرفع يده عن الطعام. ولكنه شعر من خلال الدموع المنهمرة من عينيه بما انطوت عليه الرسالة من سوء الظن المثير للأشجان؛ كيف يتسنى للمرء أن يقول: ليس له وجود؟ لمسه بنان الرحمن، فنام.

كان لا بد للشاعر من متابعة تحرياته منفردًا، شابت بشاشة عيشه خميرة قوية مزاجها الغمّ. انتُزع منه اثنان شغفه حبُّهما؛ أبوه، وصاحبه. وكلما اشتد شقاء الرجل في «تنيسون»، زاد تسامي الشاعر بين برديه. واجه العملاقَ المقنع الغامض الذي يسمونه المصير الإنساني، انبرى يصارعه ليرفع عنه القناع إن استطاع. سبق «تنيسون» كثيرون إلى مبارزة المحارب المجهول، ونازلوه بشجاعة وهمة بدت تبشر أحيانًا بانتصارهم عليه في النهاية؛ ولكن كان الشيطان لهم خذولاً.

أيقظ حزنُه عواطفه، وقال: عليّ أن أنشغل بالعمل، وإلا هلكت أسًى إثر الترداد على قبر «أرثر هالام»، وكان مصاقبًا لموضع تتكسر عنده أمواج البحر فوق الصخور الباردة الخضراء. وهناك سمع في موسيقى الأمواج، وتحت السماء المترامية، أصداء ناعمة حلوة لمرثاته «للذكرى».

واستطرد المؤلف تدريجًا من التعبير عن حزن شخصي، إلى سرد فلسفة عامة للحياة؛ فلما فرغ من عمله كان في وسعه أن يقول: إن هذا القصيد أقرب إلى أن يكون صيحة البشرية بأسرها، منه إلى صرخة محزون مفحَم، في قبضة مصير لا يرحم. لم يكن في وسع «تنيسون» أن يتصور أن أي شخصية أودعت قبس الذهن وشرارة الحياة، يمكن أن تختفي

بغتة، فتصير نسْيًا مَنسِيًّا ولا يعود لها من بعد وجود.. بل بالحريّ يرى من غادر الجسد، تتخذ شخصيته عظمة جديدة مجيدة، فتتوحد نفسه مع عناصر الطبيعة، ضاحكة في ضياء الشمس، متحدثة بلغتها في نُواح الريح:

لا يموت كائن بشري: لن تتركنا في الثرى؛ لقد صنعت الإنسان، وهو لا يدري لماذا. يتصور أنه ما خلق ليموت، وقد صنعته، وأنت عادل.

يتطور الإنسان دائمًا إلى الإنسان المثالي، والحياة أبدًا تنصبّ في الخلود، على إيقاع قيثارة صافية النغم، لكي يرتفع الناس فوق معبر من نفوسهم الميتة، متعالين إلى ما هو أرفع. أما من أحبّوا منّا، ثم فقدوا أحبابهم، فلهم عزاؤهم بأنه ما من حياة واحدة يمكن أن يعفّي عليها أو يلقي بها في الفراغ كالنفاية.

لا الوليد الذي ثكلته في البحر أمه المعمرة، ولا العروس المسجاة في نومتها الأبدية تحت شجرة الغرغار، ولا الجنين الذي ألقته الحامل سقطًا، ولا الوالد المقتول في حروب بعيدة.

أراك في الشمس الطالعة والغاربة: صوتك فوق الريح الدوّار، أسمعك عند مجاري المياه. أراك واقفًا في الشمس الطالعة، وألمح محيّاك الرائع في الشمس الغاربة.

نعيش في الله عن طريق حبنا: ذلك الإله الذي يعيش أبدًا ويحبّ دائمًا؛ إله واحد، وقانون واحد، وعنصر واحد، وحادث واحد إلهي بعيد تتحرك نحوه كل الخليقة.

كفاح لتصعيد القلوب والآمال

نزلت «للذكرى» على الإنجليز كظهيرة وضّاحة جمالها ساطع. إذ تضمنت أكثر ما قيل ملاءمة عن الحالة المستقبلة. كان القصيد كالعلم، لمّ شعث الشعب في كفاح تصعيد قلوبهم وآمالهم.

وقعت نسخة من «للذكرى» في يد الملكة «فيكتوريا» في حمو حزنها على فقد أميرها الملكي، فرسمت ناظمها شاعرًا مكللاً بالغار، ورفعته إلى مرتبة اللوردية.

مرثيتنا لصديقنا «واصف»

أطيب لحظات الحياة هي اللحظة التي نجد فيها الصديق الحقيقي، أما احتجاب الصديق فإن مرارته لا تعدلها مرارة.

يحار المفكر كلما رحل صديق عن الدنيا، تاركًا جسدًا فانيًا يتحلل، وانطلق إلى حيث تنقطع أخباره عمن ألفوا صحبته واعتادوا لقاءه، حتى أصبح وجوده بينهم جزءًا من دنياهم يحسبونه أمرًا واقعًا، وحادثًا مستمرًا.

فإذا انفصمت تلك العروة المادية، أحسّوا لذلك ألم البَضع، ولوعة النزع، فأحزنهم الفراق واستبدَّ بهم الوجد، وتساءلوا أين ذهب؟ هل يكون بعد هذا الفراق لقاء؟ وكيف يكون اللقاء؟

ومضوا يتساءلون: من أين أتينا إلى هنا، وأنّى نحن ذاهبون؟ أينقضي وجود الإنسان بتوقف دقات قلبه؟ أم أن هناك مراحل أخرى من الوجود الذي لا يحده الزمن، ولا يقيده الجسد، بل يمتد صاعدًا إلى عليين، مترقيًا في مراتب الصفاء والنورانية، مستزيدًا من

العلم ومن النقاء ومن القوة، فهو في كل مكان، وفي كل زمان، حتى يندمج في صميم الوجود، ويصبح واحدًا من مصدر الوجود.

ولكن العقل البشري المحصور في حدود الزمن، المقيد بأغلال الجسد، لا يبرح يتصور الراحلين على أنهم أجساد ترقد تحت الثرى، فيزور قبورهم ويبكي فراقهم ويبتئس لبعادهم؛ وما يرقد تحت الثرى غير نفاية نفضوها عنهم، كما يطرح الواحد ثوبه القديم، أو رداءه الرديم.

وها نحن أولاء لا نكاد نصدِّق أن صاحبنا، قد برم بدنيانا فجأة، فتركها إلى ما هو أرحب، وأفسح، وأملأ بالسمو والصفاء، والمجد والبهاء، وأقرب إلى خالق الكون وباريه ومبدع الوجود بكل ما فيه.

الموت حقيقة الحياة الكبرى، وإن قِصَر الحياة، وعدم استقرارها، وسرعة بوارها؛ حريّ أن يذكرنا بأن درس الحياة هو الموت، وبأن الرجل الذي ليس للموت مكان في فلسفته لم يتعلم أن يحيا ؛ لأن درس الموت هو الحياة.

إن موت الصديق هو درس نتلقاه في الإيمان بالخلود. وإنا ونحن هنا، في رحاب وادينا المقدس، الذي تلقّى البسر عن ساكنيه أول درس في الخلود، ليس في وسعنا أن نصدق بأن صديقنا الراحل قد انقطع عن الوجود، وأن كل كنوز عقله اللماح، وقلبه العامر قد ذهبت هباء.

ليست أجسادنا هذه إلا رداء الروح، كما أن الكلام هو رداء الفكر؛ ولكنا بمقاييسنا الأرضية، كثيرًا ما نحسب الفكر شيئًا خياليًا، غير حقيقي، وأن الكلام هو الشيء الحقيقي. إن الكلام يزول، والفكر وحده هو الذي يبقى ولا يحول.

ونحن قد نحسب الصوت أحيانًا هو الموسيقى، على حين إن الصوت هو مجرد التعبير الموسيقي، وهو أيضًا يزول؛ أما الموسيقى فتستقر منا في أعماق النفس، وتتغلغل في شغاف القلب.

إن كسوف الشمس لا يعني أن الشمس قد عفا أثرها، إنما يؤذن بأن ثمة عائقًا مؤقتًا قد حال دون رؤيتها. وليس موتًا هذا الذي حجب عنا حبيبنا، بل نومًا؛ وليس ذهابه فقدًا، بل احتجابًا.

كان الأخ الكريم والصديق النبيل، شديد الشغف بورود مناهل العلم. لا تراه إلا مشتريًا كتابًا أو متأبطًا كتابًا أو متحدثًا عن كتاب، فإذا آوى إلى داره عكف على التزود بما تتمخض عنه هذه الأسفار من نفائس يتخذ منها مادة لتفكيره، وغذاء لروحه ومعوانًا على فهم ما يريد التثبت منه من مقومات العقل، وأسرار النفس، ودوافع التصرف، وأسس الأخلاق، وعناصر الإرادة.

كان متفانيًا في تحصين روحه وعقله وجسمه، يتعهدها ما وسعه وقته وجهده، بكل ما يستطيع من دعم ورعاية، تهفو نفسه إلى العلماء يأنس إليهم ويغشى مجالسهم، ويوثق عرى المودة بهم، ويطارحهم الرأي ويبادلهم الفكر، كأنه يعلم أن أمامه مرحلة طويلة لا بد أن يتأهب لها بكل ما يقع تحت حسّه من وسائل.

وكان -لا نقول: طيَّبَ اللهُ ثراه (فإن الثرى لا يضم منه غير غلاف لم يعد يمتّ إليه بصلة ولا سبب)، بل نقول: فسح اللهُ له مسالك الوجود، ومكّنه من اطراد الترقي في مراتب القرب منه والوصول إليه.

كان الصديق سبّاقًا إلى الخير، فماله وسيارته وكتبه ومائدته ووقته ملك أصدقائه قبل أن تكون ملكه، وإنه ليكاد يؤثر أخاه على نفسه، فإذا وقع على علم أو خير أو تكشّف له ما ينفع ويفيد، بادر بشرك الآخرين فيما اهتدى إليه، فهو لا يسعد إلا إذا اقتسم سعادته من حوله.

وهو بعدُ شديد التطلع إلى المثل الأعلى لا يرضى بما دونه، ويأبى إلا أن يأخذ به نفسه، ولا ينفك يحاسبها على التقصير، ويراجعها في الخطأ اليسير، لا يلتمس لها عذرًا، ولا يني عن تلبيبها كلما همت بالانحراف عن أقوم طريق.

كان الصديق دائم الابتسام مشرق الوجه متهلل المحيا مقبلاً متفائلاً متوكلاً، يكره التزمت والمتزمتين، وينأى عن مجالس النفاق والمنافقين، ويعرف القيم الحقيقية للأشياء، فلا يستهويه ما يتناحر عليه غيره من أعراض تافهة ومتع زائفة، وقيم مموّهة، يحسبها الجاهل نفائس، وهي نوافل من سقط المتاع.

فهو يتعالى عن أن يسلم زمام رأيه لغيره، ويأبى إلا أن يظل بعيدًا عن الوظيفة، بعيدًا عن الحزبية، بعيدًا عن القيود الثقيلة التي يرسف في أصفادها أكثر من حوله؛ مؤثرًا حرية شخصه، وحرية رأيه على كل اعتبار.

وهو بعدُ، الرجلُ العفّ العين، الطاهر القلب، ينأى بنفسه عن مواضع الشبهات، ويظل دائمًا بمنجاة من اللوم.

هذا هو الصديق الذي سبقنا إلى الخروج من السجن تاركًا فيه أغلاله، مستردًّا كامل حريته؛ فمتى تتحطم عنا الأصفاد وينفتح الباب، ويلتقي الأصدقاء والأحباب، وأين يكون لقاؤهم، وكيف يكون، وما وراء هذا الباب الذي ما زال موصدًا في وجه من يسمون أنفسهم أحياء، ويسمون «الأحياء» موتى؟

هذا ما سوف نعلمه في إبانه، وهو ما نشتاق إلى معرفته لو استطعنا قبل أوانه. ومبدع الوجود قادر أن يتولانا أينما نكون برعايته، وأن يشملنا بفائق رحمته.

رثاؤنا للبطل «أحمد عصمت»

أذعنا في الثامنة من مساء يوم ٢٤ من يناير١٩٥٢ على موجات الأثير تحت عنوان «أهم حوادث الأسبوع»، رثاء لصديقنا البطل «أحمد عصمت»؛ قلنا:

ظاهرة من ظواهر البطولة لم يسبق لمصر بها عهد، ذلك أن فتًى مصريًّا من أكرم أرومة، وأشرف خؤولة وعمومة، هو البطل الشهيد الطيار «أحمد عصمت»، ودّع آله وأطفاله وداعًا أبويًّا عاطفيًّا حارًّا، وكأنما كان يعرف في قرارة نفسه أنه الوداع الأخير، ويمم شطر المنطقة التي يستشهد فيها الأباة من بني وطنه، غير منتمٍ إلى حزب سياسي، ولا هيئة أو جماعة، بل بوازع من قلبه الكبير النابض بالوطنية السامية، ودافع من إيمانه القوي بكرامة وطنه. فواجه المستعمر بمفرده، وفي وضح النهار؛ وعلى مرأى ومسمع من مواطنيه الذين استوقفهم الإنجليز في إحدى نقط التفتيش، فانبرى لكبير القوم وقائدهم يرفع في وجهه صوت مصر

التي لا تصبر على الهوان، ولم تثنه المدافع المسددة، والجنود الحاشدة. فلما نأى كبيرهم هذا بجانبه واستكبر، أقدم الطيار على الموت المحقق، فروى أرض الكنانة من دم «البريجادير» ودماء حراسه.

استشهد «أحمد عصمت» بطلاً للأبطال، وسيدًا للرجال، ومثلاً شرودًا للشجاعة منقطع المثال. وخرجت مصر كلها تحتفل بميلاد البطل الشهيد، ولا أقول بتشييع جثمان الفقيد؛ لأن الأبطال لا يموتون، بل يولدون ويخلدون، ذكراهم ماثلة للعيان، وأسماؤهم ملء فم الزمان.

الخاتمـــــة

شكرُ الله ضمان الاستزادة من فيضه؛ وعَدّ نعمته فرض، وإن استحال إحصاء فضله.

وبعد، فهذه «جنة الصداقة» التي أنعشنا شذاها، وأبهجنا نسيم صَباها، وروانا نَميرُها الزّلال، وأسعدنا سحرها الحلال، وطابت لنا ثمارها العزيزة المنال.

كانت الحقبة التي قضيناها في تأليف «جنة الصداقة» من أسعد فترات الحياة وأغناها، إذ ضاعفت من فهمنا لمعنى الصداقة، وحرصنا على ممارستها، كما زادتنا قربًا من الصديق الأعلى، ولهفة على توثيق صلتنا برحابه، وتمسكنا بأسبابه.

وكم من مرة كلّ الذهن من معالجة الموضوع العسير، ومتابعة الكتابة والتفكير، وضاق الصدر بما يعترضنا من عقبات، ويصادفنا من صعوبات، فكنا نضع القلم، ونطوي الأوراق، ونخف إلى حديقة الدار نتعهد زهورها، أو نهذب سورها، أو نقص نجيلها، أو نتفيأ ظل نخيلها، فنتابع تهادي سعفها المتجاوب مع خطرات النسيم، ونتشوف بلحها، وقد تخللت عراجينه أشعة الشمس ساعة الأصيل، فأصارته ياقوتًا متألقًا يكاد يشتعل، أو نسمع عصفورًا ينط نطيطًا رشيقًا فوق ورق سدرة وارفة الظلال، وقد أسكره نَبْقُها، فطابت له الشقشقة مسبحًا الخالق العظيم، أو نرفع بصرنا إلى السحاب نتأمل روائع توزيعه في سمائنا الصافية. أو نملأ الصدر من شميم زهر الليمون واليوسفي، أو عبير البسلة والبيتونيا والكاسيا والمانوليا؛ أو

نتأمل الهدهد وزوجه إذا قدما في زيارتهما السنوية يتهاديان ويستعرضان رأسيهما المتوّجين، ويطعنان الأرض بمنقاريهما الطويلين باحثين عن طعامهما المفضل. أو نبتسم لأبي فصادة وهو يختال في مشيته مزهوًّا، ثم لا يلبث أن يعتريه الذعر فيطلق لساقيه العنان، أو للفراشة البيضاء؛ تروح بأجنحتها على أشعة الشمس كأنما تلطف من حرارتها وتخفف من حدتها.

وإنا لكذلك إذ نلمح محيّا صديق كريم يشرح مقدمُه صدرَنا، وتصقل طلعتُه فكرَنا، فيشاركنا تأملاتِنا وانفعالاتِنا، ويزيدنا شعورًا بجمال المولى وبهائه.

ثم نعود إلى تابعة عملنا أسعد ما نكون حالاً، وأشدّ شعورًا بقوة الله تشد أزرنا، وتكمل نقصنا، وتلهمنا الصواب والسداد، فنخطو خطوات أخرى صوب تحقيق المأرب الذي اتخذناه هدفًا لحياتنا.

أما وقد فرغنا من مهمتنا، فإنا واثقون من أن الذي أعاننا سوف يبارك في النهاية كتابنا فيكون عونًا للراغبين في دعم شخصيتهم، وتوكيد سعادتهم عن طريق ممارسة الصداقة الحقَّة، باعتبارها مدرسة الفضيلة، وطريق السعادة، وسبيل السلام.

ملحق

تعريف بالمؤلف

السيرة الذاتية للدكتور رياض شمس

- ولد في عام ١٩٠٠ بمصر.
- حرم من أداء امتحان البكالوريا بسبب مشاركته في مظاهرات ثورة ١٩١٩.
- التحق بكلية الطب ثم فَضَّل دراسة القانون.
- حصل على ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة عام ١٩٢٥.
- حصل على دبلوم القانون العام في يناير ١٩٢٨. وفي العام نفسه حصل على دبلوم القانون الخاص.
- حصل على الدكتوراه في إبريل من عام ١٩٣٤، وهي أول دكتوراه في القانون من جامعة القاهرة حيث كان الدارسون يحصلون عليها من الخارج، وكان موضوعها «الحرية الشخصية في التشريع الجنائي المصري».
- طبع رسالة الدكتوراه في كتاب وأصدره في عام ١٩٣٤.
- في عام ١٩٤٧ أصدر كتابه الثاني «حرية الرأي وجرائم الصحافة والنشر» في جزأين، ويقعان في ٧١٩ صفحة، ويعتبر مرجعًا أساسيًّا لا يستغني عنه أي باحث في تشريعات الصحافة.
- عمل في صحف الجهاد والبلاغ والمصري والأهرام؛ وذلك بجوار عمله في المحاماة. وله أكثر من أربعة آلاف مقال افتتاحي.

- تولى تدريس قوانين الصحافة في الجامعة الأمريكية. كما عمل أستاذًا بكلية الشرطة.

- كان صديقًا ومستشارًا للنحاس باشا؛ زعيم الوفد.

- أول من طالب بإلغاء الحبس الاحتياطي في جرائم النشر؛ وهو ما أخذ به قانون الصحفيين عام ١٩٧٠.

- في عام ١٩٥٠ تم انتخابه عضوًا بمجلس النواب عن حزب الوفد في دائرة الموسكي. واختير عضوًا باللجنة الخاصة بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وعضوًا باللجنة التشريعية، ورئيسًا للجنة شئون السودان. وقدم مشروعًا للمجلس بمنح المرأة حق الانتخاب. كما اقترح على المجلس إنشاء معهد مصري للصحافة في نقابة الصحفيين ليتدرب فيه كل من يريد العمل في حقل الصحافة.

- في مارس ١٩٥٠ اشترك في المؤتمر الدولي البرلماني الذي عقد في مونت كارلو. كما أصبح عضوًا في المجمع الدولي للقانون الجنائي.

- كان عضوًا في الهيئة الوفدية.

- في مناسبة نجاحه في الانتخابات عن دائرة الموسكي أقام له خريجو معهد الصحافة بالجامعة الأمريكية حفل شاي في نقابة الصحفيين وألقى فيها الأستاذ وديع فلسطين كلمة قال فيها: «تزهو بك الصحافة مشرعًا بعد أن زهت بك موجهًا للرأي العام ومحاميًا عن الحريات وذائدًا عن حقوق مضيعة ومربيًا جليلاً. أنتم تمثلون فكرة وترمزون لمبدأ، أما الفكرة والمبدأ فقد اقترنا باسمكم منذ بدأتم تخرجون مصنفات عن حرية الرأي والفكر والعقيدة والصحافة منذ حملتم القلم.

- قبض عليه ودخل السجن مرتين: الأولى قبل الثورة عام ١٩٣٧ بتهمة العيب في الذات الملكية؛ بسبب كتابته مقالاً عنوانه «نظام تعس وعهد أسود». والمرة الثانية

بعد الثورة في عام ١٩٥٣ عندما ذهب مع مجموعة من حزب الوفد يرأسه فؤاد باشا سراج الدين لاستقبال النحاس باشا، فقبض عليه وظل في السجن مدة أربعة شهور.

- في عام ١٩٧٩ كرمت نقابة الصحفيين ٥٣ صحفيًا وكان من بين المكرمين الدكتور رياض شمس. وحضرت حفل التكريم السيدة جيهان السادات.
- وفي احتفال كلية حقوق القاهرة عام ١٩٧٩ بمناسبة مرور مائة عام على إنشائها؛ تم تكريمه كواحد من أوائل الذين حصلوا على الدكتوراه في القانون.
- في ٢٣ مارس ١٩٧٧ رحل عن دنيانا عن ٧٦ عامًا. وبذلك انطفأ شعاع من أشعة الحرية، وهوى علم من أعلام المحاماة. ولكنه ترك لنا في «جنة الصداقة» علمه ودرر فكره وخلاصة تجربته الغنية في الحياة وقبسًا من روحه الصافي الحكيم.

قالوا في رثائه

الدكتور رياض شمس: حياته مجموعة من أصائل القيم

يقاس الرجال بالقيم التي يدينون بها، والمبادئ التي ينذرون أنفسهم للدعوة إليها والمناداة بها وتحقيقها، إيمانًا منهم برسالتها وولاءً منهم لمثلياتها.

وبهذا المقياس نتأمل حياة الوطني المجاهد الدكتور رياض شمس الذي فقدته مصر أخيرًا، فنراه داعية للحرية في كتابيه الشامخين «الحرية الشخصية في التشريع الجنائي المصري» الذي صدر في طبعتين عربية وفرنسية و«حرية الرأي وجرائم الصحافة والنشر»، ونراه مبشرًا بالألفة والمحبة والإخاء الإنساني في كتابه المخطوط المتعدد الأجزاء «جنة الصداقة»، ونراه خادمًا أمينًا للمجتمع المصري، سواء في الصحافة التي عمل بها وتولى رياسات تحريرها، أو في السجون التي دخلها في معرض ذياده عن حقوق الشعب في عهود الاستبداد والطغيان، أو في النيابة عن الشعب عندما انتخب عضوًا في البرلمان، أو في انحيازه للشعب عندما اختار مكانه في حزب الوفد المصري؛ حزب الأغلبية الشعبية، أو في تربية النشء وتأصيل القيم في نفوسهم عندما اشتغل أستاذًا ألمعيًّا لقوانين الصحافة في الجامعة الأمريكية وكلية الشرطة، أو في الدفاع عن المظلومين كمحامٍ مرموق، أو في تغيير

القوانين وردها إلى أصولها عندما أسندت إليه أمور مجلة «المحاماة»، أو في عضوية المجامع الدولية كمجمع القانون الجنائي الدولي.

رجلٌ هذه معالم حياته وأخلاقياته، هو رجل من الصفوة الخيرة الجزيلة العطاء البعيدة الأثر التي تُستخلف ولا تعوض. فقد أثرى رياض شمس الحياة المصرية بتلك القيم الفضلى التي تمثلت في حياته خير تمثيل، فكان بين أصفيائه عالمًا فذًّا ذا موسوعية فكرية رحيبة، وكاتبًا ذا غيرة شديدة على لغة الضاد، يلم بها إلمام عشق وتوله، ويحيط بأسرارها وفلسفتها إحاطة تمكن واستيعاب دقيق. وعرفه الناس وطنيًّا سباقًا في مواضع البذل والعطاء، متخلفًا في مواطن الغُنم والنفع، وعرفوه رجلاً يرتجى في مواقف الشهامات، عملاقًا من عمالقة الفكر لا يتصدى لقضية من قضاياه إلا أشبعها تمحيصًا وتحليلاً قبل أن يخلص منها إلى رأي سديد، هو الرأي الفاصل المحكم. لقد عرف رياض شمس في حياته التي خالط فيها أكابر العقول، وتواصل بشوامخ رجال الفكر والتشريع والأدب، جواهر القيم، فاختار منها لباب اللباب، وزبدة الزبد، وخلاصة الخلاصة، وصفوة الصفوة، فجاءت حياته الخصبة جماعًا لهذه القيم الأصائل. فما أفدح الخسارة في رياض شمس: الرجل المبدأ.

(أ. وديع فلسطين)

مباحث رياض شمس

ظهر في مصر من عهد غير بعيد كاتب مفكر جديد وأشرق في أفقنا المصري نجم ساطع هو الاستاذ رياض شمس الذي لم أتشرف بمعرفته شخصيا والذي ما عرفته الا من كتاباته واتخذ صحيفة اليوم الغراء مشرقا لشمسه وميدانا لظهور أنواره أخذ يعالج المسائل القومية الخطيرة والمشاكل الاجتماعية الخطيرة الأهمية معالجة تستلفت أنظار الذين يهتمون بالمسائل العامة وتستوجب أشد الاهتمام من جمهور الشعب الراغب في النهوض وهو في معالجة مباحثه يبدو واسع التفكير دقيق الملاحظة بعيد النظر صائب الرأي كما يظهر أنه واسع العلم كبير الاطلاع في مختلف المسائل الاجتماعية والأمراض القومية ووسائل معالجتها عند معظم أمم العالم الناهضة وتتوافر عنده ملكة التنويع والتشكيل في الموضوعات بحيث لا يدع فترة في نظر المنصفين أمامه حيث توغل الاستاذ رياض في تفتيش دقائق مباحثه فهو بحكم هذا النظام الكتابي الأعرج في مصر مضطر الى ذكر أهم ما يمر بخاطره عن الموضوع ليستوفي بحثه في مقال واحد فهو لذلك لا يستطيع التفصيل والاسهاب في الجزئيات إلخ ولذلك تأتي مباحثه تارة سطحية وتارة من الأعماق ولكن من سوء حظ مصر أن الكتاب قد اتفقوا على الالمام بالمبحث الواحد في مقال واحد مهما كانت خطورة الموضوع ومهما تشعبت نواحيه وهذا من أكبر دواعي الأسف لأنه يضطر الكاتب الى اخراج مقالات لا يمكن أن يكون لها أثر فعلي مهما كانت عظمة أفكاره وأهمية أقواله

وقد استفز بأهمية مباحثه بعض الكتاب في بعض المباحث الخطيرة فشرعوا يعالجونها معه بأقلامهم كل على قدر طاقته ولا شك أن تعاون الكتاب والمفكرين في معالجة موضوع معين ذلك هو أول دواعي النجاح كما سنذكره فيما بعد

فاذا كان واجب التشجيع للمفكرين العاملين يقضي بأن نقدم للاستاذ رياض شمس عظيم الاطناب والثناء على مجهوداته الصالحة فواجب التشجيع نفسه يقضي بأن نزف الى جريدة اليوم الغراء آيات التهنئة والتبريك بهذا التوفيق السعيد في معالجة المشاكل الاجتماعية الخطيرة ذات الأهمية العظمى وبما يرجع بنشر مثل هذه المباحث الضرورية الحيوية [illegible] التي بانت في حياة الأمم ونهضات الشعوب والتي هي في الواقع أهم وألزم ما يشتغل به جمهور الشعب فمرحبا بقلم المفكر [illegible] الاستاذ رياض شمس ومرحبا كثيرا بجريدة اليوم الغراء التي أفسحت من صفحاتها ميدانا لبحث أهم وأخطر وأقدس جميع المسائل القومية

ولكن أن في الأمر ما يزعج الخواطر ويقلق الضمائر وفيه ما يدعو الى الأسف ويستوجب الحسرة من جهة جمهور قراء الشعب لأن مباحث الاستاذ رياض الخطيرة تذهب هباء كصرخة في الهواء دون أن تستقر في الأسماع وكان الواجب في نظري أن يتولى كل قارئ بنشر أفكار هذا الاستاذ بين اخوانه لتوجيه نظر جمهور القراء الى مشاركة الاستاذ في أفكاره وأبحاثه وليس ذلك فحسب بل كان الواجب في نظري ان تشترك الصحافة المصرية كلها وكل مفكر في الشعب بمعالجة جميع تلك المسائل الخطيرة معالجة تحقيق وتمحيص وبذل المجهودات العقلية للوصول الى علاجات عملية لحل هذه المشاكل الاجتماعية الحيوية ولكن من سوء حظ مصر ومن دواعي الأسف المميت والحزن الشديد أن شعبها الراغب في الحياة يترك المجاهد يصرخ ما يشاء حتى يتقلص ولا سميع ويترك المفكرين العاملين يصرخون حتى تبح أصواتهم ولا مجيب كأن المجاهد يعمل لنفسه أو كأن الشعب يظن أن الفداء للشعب غيره فيترك جميع العبء على كاهل المجاهد بمفرده [illegible] ولا نصير وما هكذا تحيى الأمم ولا هكذا تنهض الشعوب

ماذا تطلبون من الكاتب المفكر أتكلفونه بمعالجة عشرات المشاكل الخطيرة علاج استقصاء مع تكليفه بأصلاح المبادئ الاجتماعية اصلاحا عمليا بغير أن تتعاونوا معه على تحقيق أفكاره الاصلاحية أم تظنون أن مجرد كتابة المقالات هو جميع الاصلاح أم تريدون من الباحث أن يحيط علما بكل شيء ويحقق جميع الاصلاح عمليا في كل المرافق القومية وهذا لا يستطيعه رجل مطلقا اللهم الا اذا كان معجزة الزمان من عند الله

دعوني أشرح لكم الطريق العملي الموصل فعلا الى النهوض الصحيح فان رأيتموه سهلا فاسلكوه وجربوه فلا خطر فيه وأول ما أذكره في ذلك أن أستلفت أنظار جمهور القراء الى ضرورة تغيير هذه الطريقة الكتابية العقيمة وهي لزوم توفية المبحث الواحد في مقال واحد فهيهات أن يكون من وراء هذه الطريقة أية فائدة عملية وأما الطريقة المجدية المحققة النجاح فهي أننا متى رأينا أي كاتب قد شرع في بحث احدى المشاكل الاجتماعية الخطيرة فعلى كل ذي رأي أن يتعاون في بحث الموضوع من جميع النواحي مع الأخص من الوجهة العملية الاصلاحية [illegible] بعد أن يتتبع جمهور القراء جميع الأفكار التي تتلاقى في الموضوع حتى يتكون رأي عام فيجب [illegible] لزوم العمل بموجب هذه الأفكار ومتى شرع جمهور من الشعب في العمل برأي جديد والبعد عن عادة مستكرهة ومزاج مستحدث شاع الأمر في جمهور الشعب وعمل الشعب تقليدا لخطوات المجددين بعقل وتبصر ولا نزال هذا شأننا في علاج كل مشكلة حتى نفوز بحلها أو نعلن الافلاس في امكان اصلاحها فنعالج غيرها وبهذه الطريقة العملية يستطاع تحقيق الاصلاح في معظم المرافق القومية

أما الاكتفاء من الكاتب بمقال مختصر في موضوع اجتماعي من الموضوعات الخطيرة ثم اهمال الأمر نهائيا بعد ذلك فهذا في نظري نوع من الانتحار لأن نهضات الشعوب لا يمكن أن تكون من عمل جمهور الشعب بل هي وليدة مجهودات أفراد لهم امتيازات خصوصية ومواهب غير عادية فاهمال أفكار ذوي الامتياز هو اعدام لأسباب النهوض لأن الفكرة الصالحة انما هي مصباح من مصابيح الهدى فانطفاء المصباح بعد ضيائه معناه الاستمرار في ظلمات الجهالة وليس بمثل ذلك تنهض الشعوب

لما رأيت الضياء قد أشرق ورياض النعيم قد أثمرت أيقنت أن الاستاذ رياض شمس هو واحد من مصابيح الهدى للحياة الاجتماعية واعتقدت أن اختفاء هذا الضوء المنير باختفاء مقالاته في زوايا النسيان والاهمال هو في نظري كارثة وطنية فعز علي جدا أن يكون نصيب أفكار هذا الباحث المجاهد اهمال بغير اكتراث وشق علي نفسي أن تنطفئ هذه الأنوار بمجرد ظهورها فما هدأت نفسي ان أدافع عن مباحث الاستاذ رياض شمس العزيزة الغالية دفاع المستميت وأن أعمل بكل ما أستطيعه من القوى العقلية في سبيل لفت أنظار جمهور الشعب الى مشاركة الاستاذ في مباحثه لنستطيع تكوين الرأي العام الصالح وأن أتولى تنظيم هذا التعاون حتى يأتي بالنتائج العملية الاصلاحية المرغوب فيها وآليت على نفسي أن لا أرجع عن مواصلة الدفاع عن جهاد المفكرين حتى يتناول جمهور القراء بالاهتمام الجدير بالمصالح القومية الخطيرة وحتى يلتفت الشعب الى المجاهدين بعين الاهتمام اللائق بمجهوداتهم الغالية

نعم فقد آن الأوان لهذا الشعب الراغب في الحياة والنهوض أن يهب ويقوم ويستيقظ من هذا النوم العميق أما كون الشعب

يكتفي بأنشودة الحياة بغير عمل جدي في سبيل الحياة فهذا هو الاستهزاء
منا بأنفسنا لو كنتم بالحق تعترفون
انني أدافع عن فكرة صالحة يترتب عليها ربط الرأي العام في مرتبط واحد
مع الأفكار الصالحة وهي لزوم اهتمام جمهور القراء بكل فكرة صالحة وضرورة
التعاون مع صاحبها في تحقيقها عمليا ولا تظنوا أن الذي يتصدى للدفاع
عن الأفكار الصالحة متوهما بحماسة حماية فعلية من الضياع أن يكون
عاجزا في نفسه عن حماية أفكاره ؟ كلا . فهذا تناقض غير معقول
كذلك لا تظنوا أن تحريك جمهور القراء الى الاشتراك الفعلي مع المفكرين
من المستحيلات ولا أن محاولة توجيه الرأي العام الى الارتباط في مرتبط
واحد مع العاملين المصلحين من غير الممكنات ؟ كلا بل لابد من جمع الرأي
العام بعشرات الألوف الكثيرة من القراء ليتقابلوا جميعا مع المفكرين
وليتعاونوا جميعا مع توجيه النهضة القومية الى ناحية الأعمال
والأفعال

∴

دعاني الى كتابة ما تقدم أن الأستاذ رياض شمس كتب مقالا عن
غاندي زعيم الهند العظيم ففتح باب بحث جديد له الأهمية
العظمى وخطورته بالغة الى الحد الأقصى فقد أشار مجرد اشارة
بسيطة الى مسألة حياة الشعب الروحية وهي بغير شك أهم
وأقدس جميع المسائل فعز علي جدا أن تضيع هذه الاشارة
المقدسة هباء كأن مصر كلها ليس فيها من يسمع أو كأننا لا نكترث
بما يقال مهما كانت خطورته وشق على نفسي أن تضيع
هذه الاشارة المقدسة في زوايا النسيان والاهمال وفي
نظري أنه من الأجرام الكبير اهمال مثل هذه الاشارة
من الذين يستطيعون أن يكونوا لها سندا ونصيرا
لذلك عاهدت نفسي أن أدافع الى آخر رمق من حياتي
عن أفكار الأستاذ رياض بوجه عام وأن أتولى بنفسي
معالجة موضوع هذه الاشارة المقدسة بوجه التخصيص للتعاون
بالفعل مع المفكرين عملا بالمبدأ الذي أدعو الشعب اليه ولما كانت
مسألة حياة الشعب الروحانية واسعة المدى بغير حدود وعميقة
بغير قرار فسأتولاها بنفسي من جميع النواحي العلمية والعملية
أيضا ولكل انسان اختصاص
لولا أن نفسي لا ترضى ولا يطمئن خاطري الى اتباع الناس في
طريقتهم العقيمة [illegible] فأكتفي بكتابة المقالات بغير

ما أضمن لي تحقيق الأثر الفعلي الذي أرجو منه فعقيدتي مطوية
على لزوم تحقيق النتائج العملية والأفعال تكون خير وأولى
من الكلام الضائع عند أهله ولذلك فمن أن الكتب
في مسألة حياة الشعب الروحانية وتربية أخلاق الأمة
سواء أكانت الكتابة علمية فلسفية أو من الناحية العملية
يجب أن أبذل ما يستطاع من المجهودات لجمع عشرات الألوف
الكثيرة من القراء ليشاركني في أبحاثي العلمية الفلسفية
الأخلاقية الاجتماعية العملية حتى يستطاع تكوين رأي
عام صالح للنهوض بالأفعال
هذه عجالة لفتح باب أمر خطير لابد سيترتب عليه تحريك الرأي
العام وتوجيهه الى نواحي النهوض العملية وقبل أن أختتم
هذه العجالة أتوجه الى الأستاذ محمد توفيق دياب باقتراح له خطورته
في نظري وهو أن يكتب لحضرات قرائه قائمة منوعة بعنوانات
مباحث الأستاذ رياض شمس لينتظرها القراء فيشتركون
معي في ضرورة الاهتمام بها ولزوم التعاون على معاودة
معالجة الأمر في هذه المباحث وليعلموا أن اهمال مثل هذه
الموضوعات الخطيرة من دواعي انحطاط الشعوب
ومن بعد نشر عنوانات مباحث الأستاذ رياض وتوابع
العنوانات افتحوا لي الطريق على صفحات اليوم الأغر
لأدافع عن هذا الشعب فأنظر هل يستطاع عمليا تحريك
جمهور الشعب وتوجيه الرأي العام الى ضرورة التعاون
مع المفكرين المصلحين أم أن ذلك من المستحيل؟

محمد فهمي الباجوري

المؤلف في الصحافة



حديث وطني

للدكتور رياض شمس

أبناء النيل أعرق الشعوب وطنية ، كانت وطنيتهم وما زالت زاخرة كمجرى النيل المتدفق ابان الفيضان

عنهم تلقت شعوب العالم القديم أول دروس الوطنية ؛ وعنهم أخذت الهند والعرب ، في أوائل هذا القرن ، أساليب الكفاح في سبيل السيادة الوطنية والعزة القومية

وها نحن أولاء نشهد اليوم أشبال النيل يستشهد أحدهم بطلا في الثانية عشرة من عمره ، فيضرب للدنيا المثل الأعلى في الوطنية ، ويخلد بالدم الزكي المسفوك أزهى صفحات الشجاعة والتضحية

بل ها نحن أولاء فتيات النيل ، لا يرضين بما دون المشاركة في العمل الوطني الشاق ، والجهد القومي العنيف ، يناقسن الشباب في تعريض الصدور الطاهرة ، للطعنات الخائنة والرصاصات الغادرة

وقبل هؤلاء جميعا وفي الطليعة ، رئيس الدولة المعظم والأسرة المالكة ورئيس الحكومة والبرلمان والوزراء والعلماء والعمال والفلاحون كلنا وحدة لا تتفرق ، وجميعا كتلة لا تتجزأ وانا ، نحن أبناء النيل ، قبل أن نعقد النية على أن نعيش أحرارا في وطننا ، مستكملين عناصر سيادتنا واستقلالنا ، قد وطدنا العزم على الاضطلاع بواجباتنا ، التي نراها سائغة سهلة ، وان حسبتها الشعوب الخاملة عسيرة شاقة

لذلك أصبح شعار كل فرد فينا : السيادة التامة لدولتنا ، والأداء الكامل لمسئوليتنا

وأول مسئولياتنا العاجلة: أن نؤثر منتجاتنا على غيرها ، فان محبة الوطن تنسحب على محبة ما ينتجه الوطن ، فان لم تعجبنا بعض منتجاتنا ، عملنا على تحسينها لترضينا ، وان لم تكف منتجاتنا لسد حاجاتنا ، وضعنا نصب أعيننا أن نستكمل النقص ، ونزيد

ولكن شيئا واحدا لا معدى عنه منذ هذه اللحظة ، هو الكف بتاتا عن استهلاك منتجات خصومنا ، ولو جاعت بطوننا أو تعرت أبداننا

الذين جابوا فرنسا سنة ١٩٤٧ لم يجدوا فيها شيئا غير فرنسي : رأوا أهلها يأكلون خبزا أسود كريه الطعم ، لا يجدون منه الكفاف ، ولا يظفر الفرد في يومه بقطعة أو اثنتين من السكر الا بشق النفس ، ويشربون القهوة الوطنية المصنوعة من غير البن ، وأحذيتهم من القش المضفور ، أو من الخشب المحفور

كانوا لا يستوردون شيئا من الخارج للاستهلاك ، ويصدرون معظم ما ينتجون ، ولم يكن الفرنسيون يجاهدون اذ ذاك في سبيل استقلالهم ، بل كانوا — يعملون فقط — على دعم اقتصادهم الوطني

وثاني مسئولياتنا : الاقتصاد

شهدت شعوبا لا تقف عند الاقتصاد والتدبير ، بل تدفعها وطنيتها عند اللزوم الى الشح والتقتير ، احتراما للجهد الوطني ، وضنا به أن يستهلك في غير النافع المفيد

ان من زاروا ، عاصمة القوم ، الغاصبين لحقوقنا ، المتجنين على سيادتنا ، ليروعهم ما لا حظوه في السنتين الاخيرتين على الخصوص ، من انصرافهم عن التدخين ، واستغنائهم عن الكماليات ، واكتفائهم بالقليل من الطعام ، ولا أقول من الشراب

فهم يصنعون السجاير ويصدرونها ، ويغزلون الصوف وينسجونه ومع ذلك تجد رجالهم يتعهدون المواضع المعرضة للتآكل من ملابسهم بقطع من الجلد تقيها البلى لتعمر البدلة الواحدة سنين ، وهم يستقطرون شرابا مشهورا ، ولا تكاد تراه في حفلاتهم ، وهو يراق كالماء في غير بلادهم ، وهم يصنعون السيارات ولا يركبونها ، اذ ينتظر الواحد منهم بضع سنتين حتى يحل دوره ، ليظفر بواحدة من صغارها ، ويدفع ثمنها هناك أضعاف ما تباع به عندنا

لقد أصبح شعار كل فرد منا

السيادة التامة لدولتنا
والأداء الكامل لمسئوليتنا

وثالث مسئولياتنا: النظام

النظام وليد الطاعة البصيرة لأولي الأمر ، والاستجابة الحكيمة لما يدعون اليه الشعب في كبريات المسائل ، طاعة واستجابة أساسهما الاعتزاز بأداء الواجب الوطني

والى الآن لم ... انخفض منسوب النهر الذي يشرب ماءه أهل العاصمة التي حدثتكم عنها ، فأذاع وزير الصحة بيانا يدعو الى الاقتصاد في استخدام الماء ، وهبط الاستهلاك من فوره الى عشر مقداره العادي

وتمتد هذه الظاهرة الى الصحف نفسها ، فكثيرا ما امتنعت صحافتهم عن نشر أهم الاخبار ، أو التزمت كلها سياسة معينة بازاء مشكلة بذاتها ، نزولا على رغبة رئيس الوزراء أو وزير الخارجية

ان الوطنية الخالصة ، تفرض على الوطني الحر ، تقييد حرية نفسه مختارا ، استجابة لداع وطني هو عند الوطنيين أقدس من حرية أشخاصهم ، وأعز عليهم من حرية الجهر بآرائهم

ورابع مسئولياتنا : البذل

ليس بذل الدماء وحدها ، وما أغزر الدماء التي أراقتها الشعوب لتظفر باستقلالها ! وأوفر منها ، ما تبذله من دماء ، في سبيل المحافظة على سيادتها

بل يدخل في البذل ، الجود بالمال والجهد . لقد جادت غانيات فرنسا بحليهن ، وشعور رؤوسهن وهن الحريصات على الزينة والتبرج لتدفع فرنسا غرامة حرب السبعين ، كي يجلوا الالمان عن أرض الوطن

كما رأينا الايطاليات وأزواجهن يذهبون في البذل الى حد تقديم خواتم الخطبة والزواج الذهبية ، ليزينوا أصابعهم بأخرى صيغت من حديد

وعرفت انجلترا بونابرتا بالقاهرة هو مضرب المثل في تواضع مظهره ، يشتري لوطنه في كل سنة طائرة ، يدعم بها أسطول اليونان الجوي

ان السيادة مسئولية كبرى ينهض بها السادة راضين ، ونحن ، سلالة أزهى مدنيتين في التاريخ ، نعرف السيادة ومسئولياتها ، قبل أن يعرفها أحد من هؤلاء المتطفلين على حضارتنا العريقة .. وكما أخذوا عنا في الماضي البعيد ، فانهم لآخذون عنا أيضا في الحاضر القريب دروسا في أن : من ينشد السيادة الكاملة لدولته ، هو أول من يضطلع بكامل مسئوليته

— ٩ —

متاعبنا المالية .. وواجبنا الوطني ازاءها ..

ميزانية الدولة هي في الواقع ميزانية كل فرد في الدولة ، الميزانية العامة للبلاد تؤثر في الميزانية الخاصة للافراد ثم واجب كل فرد من المصريين ولاسيما الذين يمارسون حقوقهم السياسية كناخبين ان يعنى بمتابعة سياسة حكومته المالية والاقتصادية ليحاسب حكامه ويطالب ممثليه بما يراه محققا لأمته ناهضا بمقومات نشاطه وسعادة امته

ولعل رغبة الشعوب في الرقابة على السياسة المالية والاقتصادية التي حدتهم على المطالبة بالحكم الديموقراطي ، ليتسنى لممثليهم أن يعبروا باسمهم عن وجهات نظرهم في الضرائب التي تفرض عليهم لتكون قوام مصروفات الدولة ، وفي طريقة فرض هذه الضرائب وتوزيعها وانفاق حصيلتها .

وقد كنا الى ثلاثين سنة مضت ندفع الضرائب ثم تتولى حكومة انفاقها بغير ان تكون لنا رقابة حقيقية على توجيه السياسة المالية والاقتصادية للبلاد

فلما ظفرنا بالحكم الديموقراطي زادت مقدرة الشعب على الاشراف على توجيه في شؤونه السياسية والمالية ولكنه وحكومته مقيدين بقيود الامتيازات الاجنبية ، الى ان استرددنا سلطتنا الكاملة في التشريع المالي الذي يسري على جميع سكان البلاد من مصريين واجانب

لذلك يعتبر الشعب المصري من احدث الشعوب تمتعا بحقوقه السياسية من حيث حريته في وضع سياسته المالية والاقتصادية ، ورقابته على هذه السياسة واشرافه على تنفيذها

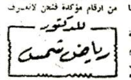
واذا اتيح للقارئ هذا القول ان يوجد في اي بلد من الشعوب بعد ... طويلة الى التمتع بهذه الحقوق في الوقت الذي ... سياسة الدولة المالية والاقتصادية او في فترة مناقشة الميزانية فانه يلمس اتجاه الرأي العام القوي نحو متابعة تفصيلات هذه السياسة وابداء ملاحظاته عليها خارج البرلمان في الصحف والراديو والمجتمعات مما يثير الطريق امام الحكومة ويحفزها الى المزيد من التفاني في ارضائه واحترام حقوقه والضن بأمواله ... ان ينفق منها قرش في غير موضعه

ولاشك ان مهمة وزير المالية المصرية من اشق المهام واكثرها ... وتعقيدا .

فوزير مالية (المملكة المتحدة) بريطانيا مثلا وهو يضع سياسته المالية والاقتصادية في بلد ميزانيته نحو اربعة آلاف مليون ... يواجه رأيا عاما خبيرا مدربا طال تمرسه في متابعة سياسة ... المالية يعرف حقوقه كما يؤدي واجباته سواء ، واستعداده للتضحية بماله وصبره على الحرمان في زمن السلم لايعدلهما الا استعداده لبذل حياته ودمه ذودا عن حياض بلاده وقت الحرب .

وهو فوق ذلك يتعامل مع شعب متوسط ايراد الفرد فيه ... مع اذا قيس بمتوسط ايراد الفرد في مصر الذي قدرته لجنة الامم المتحدة لدراسة الحالة الاقتصادية في الشرق الاوسط ... ستة وثلاثين جنيها في السنة أي ربع متوسط ايراد الفرد ... في اسرائيل مثلا

يضاف الى هذا ان وزير المالية في غير مصر من البلاد التي ... سبقتنا الى حرية التصرف في شئونها المالية يجتمع تحت يده الاحصائيات الدقيقة المحققة التي تمتد الى سنين طويلة تصل احيانا الى قرن من الزمان او تزيد على حين لايستطيع وزير ماليتنا ان يحصل على كل ما يتطلبه اعداد السياسة المالية والاقتصادية من ارقام مؤكدة فنحن لانعرف



للدكتور
رياض شمس

الى يومنا هذا مجموع ايرادنا القومي ومانزال نقدره تقديرا تقريبيا مع لزوم هذا الرقم وشدة اهميته في وضع الاسس المالية للبلاد .

ثم ان وزير المالية في مصر يتعامل مع شعب تسعون في المائة من افراده يعيشون على الكفاف فهم يستهلكون كل ما ينتجون ولا يكادون يملكون مدخرا يساهمون به في تمويل المشروعات الحيوية اللازمة لتنمية الموارد القومية

وهم لا ينتجون في الساعة الواحدة من ساعات عملهم مثلما ينتجه غيرهم من افراد ارتفع مستوى معيشتهم الى القمة مما ينزل نسبيا بانتاجنا الى مستوى يقل كثيرا في مجموعه عن انتاج غيرنا من الشعوب

وليس ادل على ذلك من ان مجموع صادراتنا فيما عدا القطن والارز ستة عشر مليونا من الجنيهات في سنة ١٩٤٩

وامام وزير المالية المصرية مشكلة أخرى هي تحرج المدخرات على ضآلتها نسبيا واستيعابها في قروض حكومية . ذلك ان الممولين يؤثرون عادة الحصول على ارباح عاجلة عالية في مشروعات صغيرة او مع ... باعوائهم الطوارئ

وفوق هذا كله فان البلاد قريبة العهد بالنظم الفرانسية وهذه انجلترا لم تنجح حكومتها الا اخيرا في الاقتطاع من الايرادات الضخمة لتمول مشروعات الدعم الاقتصادي على اساس واسع ، وامامنا فترة طويلة حتى نستطيع ان نلحق غيرنا في هذا المضمار لان الطفرة ليست من حسن السياسة في المسائل المالية على الخصوص

ونظل من ميزانيتنا رغم ارتفاعها الى نحو عشر ... خمسين مليونا الى اكثر من مائتي مليون عاجزة ... الضرورية للاصلاح العاجل

ذلك اننا نتقاضى الفرد نحو عشرة جنيها

البقية على ص ٨

من ثقب الباب

كتب الاستاذ فتحى رضوان مقالا رصينا ورقيقا مليئا بالوفاء عن جاره وصديقه الدكتور رياض شمس . وقد هزنى [illegible] . فكنت لا اعلم ان الدكتور رياض قد توفى منذ عام [illegible] حزنى لان كثيرين لا يعرفون فضل هذا الفقيه المصرى الكبير على قضية الحريات . والغريب اننى تذكرته فى نهاية العام الماضى ، وانا اذرع شارع سوفلوه بالحى اللاتينى بباريس . وهو شارع متخصص فى المكتبات القانونية والفقهية . وكنت ابحث عن مراجع قديمة او حديثة عن حرية الصحافة والاعلام . ودخلت عدة مكتبات اجمع ما اجد . فكانت دهشة اصحاب المكتبات كبيرة عن هذا الزائر الذى يسأل عن الجديد حول حرية الصحافة . وبعد دخول وخروج قال لى احد اصحاب المكتبات انه سيبحث عن المراجع القديمة فى المخازن . لان احدا لم يعد يؤلف عن حرية الصحافة ، او حرية النشر من الناحية القانونية فالمسالة استقرت منذ عام ١٨٨١ ولم تجرؤ اربعة جمهوريات على تعديلها . وبعد الحرب العالمية الثانية صدر القانون الجديد بنفس الافكار والمبادىء التى ارسيت عام ١٨٨١ لتاكيد حرية الصحافة .

وهكذا لم يعودوا يكتبون لانهم لا يحتاجون الى مناقشة قضية اصبحت من المسلمات البديهية فى حياتهم العامة . وقد تذكرت الدكتور رياض شمس ، هذا العالم اليقظ ، الذى اخرج عام ١٩٤٧ مؤلفه عن حرية الراى وجرائم الصحافة والنشر فى جزاين . ولست اظن ان احدا من الفقهاء العرب او المصريين وصل الى ما وصل اليه رياض شمس من عمق وجراة . وقد كتب كتابه اثناء احدى الازمات العاصفة بحرية الراى فى مصر عام ١٩٤٦ . وجاء علمه اصيلا واضحا . يقارن بين النصوص المصرية واصولها الفرنسية ، ويرجع الى القوانين العثمانية حتى يكشف اننا فى حرية الفكر والنشر لم نتقدم كثيرا ، بل على العكس زادت عقوبة جرائم الراى والنشر ، وزادت القيود الادارية على اصدار الصحف ، والرقابة عليها ، وتداولها .

ورياض شمس فقيه جرىء ، لانه كان يكشف العيب ، ويضع العلاج ، ويطالب بتواضع العلماء رفع القيود الباطشة التى تحيط اعناق الصحفيين . فهو من اوائل المطالبين بالغاء الحبس الاحتياطى فى جرائم النشر — ولم يحدث هذا الا فى قانون الصحفيين عام ١٩٧٠ . ومن المطالبين بالغاء الاذن السابق على اصدار الصحيفة ، وهو حق الذين فهموا حرية الصحافة بارقى معانيها .

ومثل هؤلاء المفكرين لا تموت افكارهم ، والدكتور رياض شمس كان مقلا فى مؤلفاته . ولكنه فى هذا الكتاب عن حرية الراى كتب كتابا خالدا . مثله مثل صبحى وحيده الذى مات عن مؤلف واحد هو اصول المسالة المصرية . ومثله مثل على عبد الرازق فى كتابه عن الاسلام واصول الحكم . وهذه الكتب فريدة فى تاريخنا . لان قيمتها تبلى عشرات السنين لانها خلاصة

نظام تعس وعهد اسود

رئيس الوزراء ورئيس الديوان

عدوانهما على حقوق العرش

للدكتور رياض شمس

لو أن مفاسد هذا العهد كانت محصورة فى الجرائم التى ارتكبها مدبروه ، من اقالة لوزارة الاغلبية ، وتزييف لارادة الامة وتهاون اجرامى فى سيادة الوطن ، وما اقترن به من فضائح سودت صفحة التاريخ المصرى فى الشهور الخمسة الماضية ، لهان الخطب نوعا وان كان خطبا جسيما ورزءا اليما .

ولكن الانقلاب ارتكب كبرى الجرائم فى حق العرش ، فزج جلالة الملك متعمدا فى المنازعات الحزبية والخلافات السياسية .

فهذا محمد محمود باشا يخاطب جلالة الملك فى وثيقة رسمية قائلا :

« وهاهى الانتخابات يامولاى قد جاءت تردد فى أبلغ عبارة وأفصح لسان حكم جلالتكم الموفق ، وتؤيد رأيكم المسدد ، وتعلن بكل وجوه الاعلان التفاف الامة حول عرشكم المفدى

وكأن رئيس الوزراء يقول بصريح العبارة ان مهمة الوزارة كانت اجراء انتخابات مزيفة ، وأن لجلالة الملك حكما خاصا ورأيا معينا فى وزارة الامة ، وان ذلك الحكم قد ظهر توفيقه وهذا الرأى قد ثبت سداده ، وأن الدليل على صدق حكم الملك وسداد رأيه هو نتيجة انتخابات زائفة .

وكأنه يقول ان آراء الملك واحكامه اصبحت فى هذا البلد الديموقراطى ، بحاجة الى دليل على سدادها وصدقها ، وأن الدليل على ذلك هو الانتخابات ، ونتيجتها المزيفة

وهذا كلام لم يقل مثله وزير مسئول قبل محمد محمود باشا ، وما نظن ان وزيرا مسئولا فى دولة ديموقراطية يدور بخلده ان يفكر فيه مجرد تفكير ، لا ان يذيعه فى وثيقة رسمية .

وها هو على ماهر باشا رئيس الديوان الملكى ، يستقبل هو الآخر مستهلا استقالته بعبارة نابية فيخاطب صاحب العرش قائلا :

« الآن وقد سويت الصعاب التى اكتنفت تعديل الوزارة القائمة فانى ... أرفع الى جلالتكم استقالتى »

فما معنى هذا الكلام ؟

معناه ان رئيس الديوان — وهو موظف غير مسئول ، ليست له أية علاقة بالبرلمان — يعلن على المصريين فى وثيقة رسمية انه لعب دورا فى تسوية الصعاب التى اكتنفت تعديل الوزارة

مع ان الواقع الدستورى يكذب هذا الموظف الدعى

فهو لم يسو الصعاب القائمة ، وليس من شأنه يسويها أو يشترك فى سويتها بحال من الاحوال

لان تسوية هذه الصعاب رهينة بارادة الملك ورئيس الوزراء

فالملك يطلب مشورة رئيس الوزراء باعتباره الشخص المسئول أمام البرلمان ولا يطلب مشورة رئيس الديوان ، لانه موظف غير مسئول

واذا فرض المستحيل وتفضل صاحب الجلالة فتحدث مع رئيس ديوانه فى شأن تذليل بعض المصاعب الدستورية ، فان الكياسة السياسية كانت تفرض على رئيس الديوان ، أن يبقى هذا الحديث سرا دفينا لا يعرفه أحد .

اما ان يعلن فى وثيقة رسمية انه سوى الصعاب ، وانه [illegible] يستطيع أن يستقيل ، لان حاجة الملك لم تعد ماسة اليه بعد تسويتها [illegible] ، فكلام لا يجرؤ على اذاعته موظف تقضى عليه طبيعة مركزه ان يزن ما يقول ، ويراجع ما يكتب ، ويمعن النظر فيما ينشر ، لاسيما اذا كان الموضوع مرتبطا بشخص مولاه .

ونحن نقرأ فى الصحف كلاما عجيبا فى هذه الايام ، مفاده ان رئيس الوزراء ذهب الى المصرى ليتشرف باستشارة الملك فى هذا الشأن أو ذاك

وهذا أيضا كلام غير دستورى ، بل هو قلب للاوضاع وتقصير فى واجب الولاء نحو العرش

لأن رئيس الوزراء هو المستشار السياسى للملك ، وليس جلالة الملك بمستشار رئيس الوزراء .

ولكن هذه الظاهرات كلها تؤدى الى معنى واحد ، وهو ان رجال الانقلاب يسمحون لأنفسهم فى سبيل تغطية موقفهم الضعيف أمام الامة ، أن يتمسحوا فى أعتاب الملك ، ويا لها من جريمة !

فهم ينسبون الى جلالته انه هو الذى أقال وزارة الامة ، وان كتاب الاقالة [illegible] شخصيا عن رأيه فى حكمها [illegible] الانتخابات قد جاءت مؤيدة لرأى الملك . وان رئيس الديوان يتدخل — وهو موظف غير مسئول — فى تسوية الصعاب الدستورية ، وأن رئيس الوزراء يستشير الملك فى مسائل الدولة .

وهذه كلها جرائم دستورية يرتكبها رجال هذا العهد الاسود فى حق اسمى مقام فى البلاد

وتكون جرائم الانقلاب ومفاسده ليست محصورة فى التفريط فى حقوق الوطن وسيادته وامواله ، ولكنه تجاوز هذا كله الى التفريط فى حقوق العرش والاجرام فى حق الملك

رياض شمس

من ثقب الباب

وهب الدكتور رياض شمس حياته لحرية الرأى والصحافة وتوفر بعلمه الغزير وحسه النقدى واسلوبه الناصع على كتابين من اروع ماكتب عن الحريات ولايزال الكتابان من الاثار العلمية لايستغنى عنهما باحث فى الحريات وعلى رأسها حرية الرأى والنشر والصحافة . وبقدر ماتميز الكتابان بالعلم الوفير تميز المؤلف بالنزاهة . واول كتابيه عن « الحرية الشخصية فى التشريع الجنائى المصرى » عام ١٩٣٤ . ولم يبلغ هذا الكتاب شهرة كتابه الثانى عن « حرية الرأى وجرائم الصحافة والنشر » عام ١٩٤٧ . وكانت ازمة الحريات عام ١٩٤٦ فى اعقاب الحرب قد اشتدت واشتعلت فى عهد اسماعيل صدقى باشا . لانه اراد التفاوض مع الانجليز ، وضاق بحملات النقد الوطنى ، فانتهى الى المحظور ، وارتكب اجراءات استثنائية عام ٤٦ ، يشهد من حاصرها انها كانت شديدة العنف والسخف انتهت به عدوا للحريات مع انه كان من العقليات الاقتصادية النادرة.

ورب ضارة نافعة .. فقد اخرج رياض شمس هذا الكتاب الموسوعى عن حرية الرأى وجرائم النشر والصحافة عام ٤٧ ، برؤية تاريخية نافذة ، واسلوب قانونى ناصع دقيق . ولايزال كتاب رياض شمس من جزءين فى ٧١٩ صفحة مرجعا اساسيا لايستغنى عنه اى قارىء فى تشريعات الصحافة وتاريخها وعقوباتها . والجديد فى هذا الكتاب القديم هو اسلوب المقارنة . لانه كان يقارن كل مادة من مواد قانون العقوبات فى جرائم النشر بأصلها وتطورها فى كل التعديلات التى اجريت عليها .. ولم يكتف بمقارنة التشريع المصرى نفسه بل قارنه بالمواد الموازية فى القانون الفرنسى . وتفصح هذه المقارنات ماوصل اليه رياض شمس بان التشريع الجنائى يأخذ الصحفيين واهل الرأى بالعنف والشدة . لانه يبتكر جرائم جديدة يضيفها ، ويضاعف من تشديد العقوبة ، وينتقل من الغرامة الى السجن ، ومن الحبس الى السجن ، وهو اتجاه قاومه الصحفيون جيلا بعد جيل . وميزة هذا المنهج التاريخى المقارن انه يفضح مانسميه « ترسانة » العقوبات المتراكمة فى مخازن الدولة ، لو ايقظتها او استعملتها لضاقت حرية الصحافة ، واصبحت الكتابة حروفا خرساء بكماء لاتعبر عن شىء !

ويتعقب رياض شمس مثلا

من ثقب الباب

بقية ص١٦

« جريمة الاخبار الكاذبة » ، لان العقوبة فى عام ١٨٨٣ اول قانون للعقوبات ، كانت الحبس من ١٥ يوما الى ١٨ شهرا او الغرامة ، ثم اصبحت عام ١٩٠٤ تعاقب كل من نشر بسوء قصد اخبارا كاذبة . ويتابع المؤلف تعديلات ١٩٢٥ ايام زيور باشا ، وقد نقل المشرع عبء اثبات سوء النية من النيابة ، وافترض سوء النية بمجرد النشر ، وهى نقلة تشريعية هائلة ، ومازالت باقية . والغريب ان التشريعات نصت عام ١٨٨٣ و١٩٠٤ على ضرورة ان يكون نشر الخبر الكاذب بسوء قصد ثم حذفها زيور عام ٢٥ تضييقا على الصحافة ، ثم اعيدت عام ٢٦ ، ثم حذفت ١٩٣١ ، واعيدت ٣٥ ، وبقيت حتى الان .

ولو كتب لرياض شمس الحياة المديدة ليرى تلك التعديلات الاخيرة عام ٩٥ لما صدق المؤلف نفسه ، لانها تؤكد العيوب القديمة السابقة منذ ايام زيور وصدقى ، ثم تخرج ببدعة اخرى هى تشديد عقوبة الغرامة والحبس ، والجمع بينهما معا . وينتهى اى باحث الى ان هذه التعديلات هى أسوأ تعديلات شهدها قانون العقوبات منذ عام ١٨٨٣ ايام الاحتلال !

كامل زهيرى

الجمهورية
19/6/95

حرية الصحافة بين الرأى والتاريخ

لا احب ان اضيف جديدا الى مشروع قانون الصحافة الذى تقرر عدم تقديمه الى مجلس الشعب فى هذه الدورة والذى ابلغ رئيس الوزراء النقابة بان القانون لن يقدم الى المجلس الا بعد الحصول على موافقة الصحفيين عليه. وجرائم النشر التى يفرضها اى قانون للصحافة ذات شقين : الاول يتعلق بشرف المهنة والمساءلة عنه مكانها نقابة الصحفيين والثانى الذى يقع تحت طائلة قانون العقوبات والمساءلة عنها مكانها القضاء وتطبيق القانون العام الذى وضع لجميع المواطنين.

والذى أريد ان استعرضه اليوم بهذه المناسبة هو المبدأ السائد فى جميع الدول المتحضرة منذ زمن طويل ومن بينها مصر بشأن حرية الصحافة.

وفى هذا المجال استعرض فى ايجاز تطورات حرية الرأى وخاصة فى مصر منذ الاحتلال البريطانى من خلال مؤلفات وكتاح رائد من رواد الحرية الشخصية وحرية الرأى هو الدكتور رياض شمس الذى مضى على وفاته عام يوم الخميس الماضى.

وقد واجه الدكتور رياض شمس فى كفاحه ونضاله فى سبيل حرية الرأى الحكم بالسجن ستة شهور لما سمى فى ذلك الوقت بجريمة « العيب فى الذات الملكية » وخرج من السجن اقوى نضالا واشد ايمانا بحرية الصحافة فى مجال عمله فى الصحافة كرئيس لتحرير جريدة الوفد المصرى واستاذ للصحافة فى الجامعة الامريكية وللقانون الدولى بكلية الشرطة ومدير للمطبوعات وتسب سياسى مرموق فى الوفد المصرى والمحاماة وعضو فى المجمع الدولى للقانون الجنائى.

وقد اعتقل الدكتور رياض بسبب ذلك فى ٢٦ سبتمبر ١٩٣٨ ونفذ عليه حكم السجن وأفرج عنه فى ٢٦ ابريل ١٩٣٩.

واذا كانت القيود القانونية لحرية اعلان الرأى تتركز فى اغلبها حول القذف والسب واذاعة الاخبار والاشاعات الكاذبة أو ماتسببه التنظيم الاجرائى لحرية اعلان الرأى بواسطة



د. رياض شمس

ابراهيم طنطاوى

المطبوعات فقد تحررت اغلب الدول المتحضرة من هذه القيود وما زال المصريون خاضعين لمواد تحرر من ربقتها القانون الفرنسى بل والقانون التونسى منذ خمسة وستين عاما.

وعهدت دول اخرى الى التخلص من المواد الرجعية وجلاء مايكتنف النصوص من غموض وعدم تحديد وحياطة النظر فى قضايا اعلان الرأى بسياج من الوقاية يستلزمه طبيعتها الخاصة لتمكين الصحفيين وقادة الرأى من اداء مهمتهم الجليلة.

ولقد كان اللسان اداة الناس للاعراب عن آرائهم قبل ان يعرفوا الكتابة والكلام وسيلتهم المألوفة لاعلان افكارهم قبل اختراع الطباعة وكانت القيود المفروضة على اللسان ممثلة فى تعاليم الدين والامثلة العامية كالمثل القائل « لسانك حصانك ان صنته صانك ».

وبعد ظهور الطباعة بدأ بعض المشرعين يضعون قيودا قانونية على الرأى بينما رأى البعض الاخر أن الصحافة وغيرها من طرق النشر يجب أن تحرر من كل قيد قانونى اذ ان واجب الصحفى انارة الرأى العام فهو مسوق الى نشر معلومات لايسعه دائما التثبت من دقتها لذلك يجب الاستغناء عن مزايا الصحافة اذا ثقل كاهل الصحفى بأى مسئولية من شأنها أن تعوق اضطلاعه بمهمته.

وكان « ميرابو » فى طليعة اصحاب هذه النظرية تجهر بها فجر الثورة الفرنسية بحجة أن حرية الصحافة دواء لكل الادواء وان تقييدها لايعوق الا الشرفاء وايدها فى فاتحة القرن الماضى « روبيه كولار » بعبارته المأثورة « فى شئون الصحافة » .. « خير القوانين عدم وجود قانون » وفى منتصف ذلك القرن ذهب « اميل دى جيرار دان » الى حد القول بأن « الصحافة التى لاتترك حرة بغير عقاب ليست هى الصحافة الحرة ولكنها صحافة متسامح فى وجودها انها صحافة يجتمع على محاكمتها التعسف والتحامل ».

ويذهب الامريكان مذاهب بعيدة فى هذا الصدد أو يقول توماس جفرسون فى سنة ١٨٨٦ « حريتنا تتوقف على حرية الصحافة وحرية الصحافة لايمكن تحديدها بغير تضييعها » وكان عبد العزيز فهمى باشا من انصار هذه القضية الى حد أنه قال فى « لجنة الدستور ».

هل نضع فى يد البرلمان حق تقييد الصحافة بقيود وأخذها بشروط خاصة أم نطلق الحرية اطلاقا تاما ... انى أميل الى الرأى الثانى وهو اطلاق الحرية للصحافة.

وقد عرفت مصر محاولات تنظيم حرية اعلان الرأى بواسطة المطبوعات فى عهد الحملة الفرنسية حيث بدأت المطابع المملوكة للافراد فى أواخر عام ١٧٩٨ حيث أسس « مارك إدريل » المطبعة الفرنسية بالقاهرة.

وقد إصدر نابليون وهو فى مصر على رأس الحملة الفرنسية فى ١٤ من يناير ١٧٩٩ الامر التالى :

تكون المطبعة خاضعة لتفتيش « نتور » ولا يطبع شىء الا بأمره وتوضع المطبعة الفرنسية تحت التفتيش المباشر لـ« بورين » ولايطبع شىء الا بأمره.

وفى عهد محمد على أنشأ مطبعة بولاق حوالى ١٨٢٠ واصدر اعلانا مثله فى

((البقية صفحة ٨))

حرية الصحافة [بقية

١٢ من يوليو سنة ١٨٢٣ ولو خاصا باحدى الجهات او المصالح الحكومية الا بإذن منه.

وفى الدستور العثمانى « مدحت باشا » فى عام ١٨٩٤ تمت الصحافة بكامل حريتها.

اما اغلب الدول الاوربية وفى مقدمتها بريطانيا فانها تعترض على كل قانون يقصد به تقييد حرية الصحافة.

وفى مصر تضمن دستور ١٩٢٣ النص التالى :

« حرية الصحافة مكفولة ولكل انسان الاعراب عن فكره بالقول او الكتابة او بالتصوير او بغير ذلك فى حدود القانون مادة ١٤ » ونصت المادة ١٥ « الصحافة حرة فى حدود القانون والرقابة على الصحف محظورة وانذار الصحف او وقفها او الغاؤها بالطريق الادارى محظور كذلك الا اذا كان ذلك ضروريا لوقاية النظام الاجتماعى ».

وفى مناقشات لجنة الدستور اقترح على ماهر باشا صياغة مادة جديدة تنص على ان حرية الصحافة مضمونة فلا يجوز وضعها تحت الرقابة ولا تقييدها فالحرية الصحفية هى المظهر الاول لسائر انواع الحريات الاخرى وانه لايمكن ولا يمكن ولا للبرلمان وخصوصا فى الاحوال العادية وضع الصحافة تحت اى رقابة

وقال عبد العزيز فهمى فى لجنة الدستور ايضا : لا حاجة الى تصريح سابق من اى سلطة كانت لاخراج اى نشرة من اى نوع يكون والمراقبة والانذارات الادارية للنشرات المطبوعة ممنوعة. والحرية نفسها كفيلة بتنظيم نفسها وتطورها مع الزمن الى الاصلح الانفع، فلا يجد الشباب المعتدى من يقبل قراءة جريدته فهو بين ان يستقيم وبين ان يترك المهنة تماما.

والذى اريده الا يكون للبرلمان وخصوصا فى الاحوال العادية الحق فى تقرير قوانين تبيح للحكومة مراقبة الصحف او عدم الترخيص باصدارها وبعد المناقشة فى لجنة الدستور فى شان حرية الصحافة واخذ الاراء تقرر النص التالى : « الصحافة حرة والرقابة ممنوعة ولكل مصرى حق اصدار الصحف فى الحدود التى يقررها القانون ».

واملى بعد هذا العرض عند اعادة النظر فى قانون الصحافة ان يكون حاضرنا ومستقبلنا بالنسبة لحرية الصحافة افضل من ماضينا.

الأهرام ٢١/٣/٨٧

لماذا هجرت الصحافة ؟!

كثير من الاقلام الجبارة التى صالت وجالت فوق صفحات الجرائد والمجلات.. طيلة ربع القرن الاخير .. قد اغمدها اصحابها فى جيوبهم . ترى لماذا .. ؟
هذا هو السؤال الذى وجهته « المسامرات » الى اثنين من كبار رجال القلم فى مصر .. هما :
١ ـ سعادة الاستاذ محمد حسين هيكل باشا رئيس مجلس الشيوخ .. ورئيس تحرير « السياسة » سابقا ..
٢ ـ الدكتور رياض شمس المحامى ومدير سياسة « المصرى » سابقا ..



الدكتور محمد حسين هيكل باشا

قال هيكل باشا :

من الحقائق المقررة انه لم يخلق بعد ذلك الانسان الذى يستطيع ان يزعم ان طاقته البشرية تطيق كل شىء ..

ولقد كنت منقطعا للكتابة السياسية والادبية قبل ان تتكاثر على الاعباء .. ولا شك ان هذه الفترة هى أسعد فترات حياتى [illegible] مازلت اختزن [illegible] اعماقى الكثير [illegible] ذكرياتها [illegible] الطيبة ..

والآن وسط [illegible] الظروف الحاضرة [illegible] التى نمر فيها جميعا التى لاخفاء فى خطورتها .. وسط هذه العواصف التى [illegible] بلادنا العزيزة لا استطيع [illegible] قد تشرفت برياسة مجلس [illegible] الشيوخ ورياسة [illegible] حزب [illegible] الاحرار الدستوريين فضلا [illegible] المساهمة فى اعمال كثير من [illegible] الهيئات الدولية الكبيرة ..

[illegible] لا استطيع وسط كل [illegible] هذه الشواغل العديدة أن اوفر [illegible] قليلا من الوقت انال فيه [illegible] قسطى الطبيعى من الراحة [illegible] الجسدية .

على ان قلمى وان غدا بعيدا [illegible] الاقلام المجندة فى خدمة [illegible] صاحبة الجلالة الصحافة ..

[illegible] انه لا يمكن ان يقال اننى [illegible] الكتابة او هجرتها .. [illegible] الا اذا اعتبرنا الخطب السياسية والابحاث البرلمانية والدستورية بعيدة عن الكتابة هذا فضلا عن ان تاليف الكتب مازال ضمن عملى .. وقد اخرجت فى السنين القليلة الماضية اكثر من كتاب ..

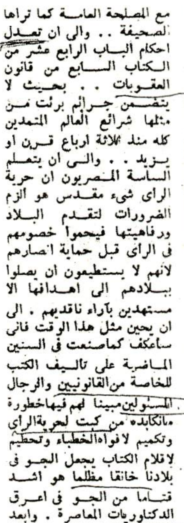
والواقع انى وان كنت قد نحيت القلم عن الكتابات الصحفية .. فقد نحيته آسفا من كل قلبى .. ولولا حكم الزمن لما فعلت .. فكم يسرنى ان اظل كاتبا صحفيا فى بلاط صاحبة الجلالة .. على انه مما يعزينى اننى اشعر من الاعماق بانى اديت واجبى كصحفى .. واملى فى توفيق رجال صحافة اليوم لخدمة وطننا العزيز عظيم باذن الله .

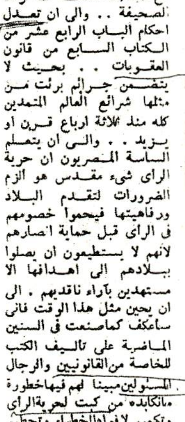
وقال الدكتور رياض شمس :

انا لا اكتب منذ خمس سنين لان الكاتب فى مصر عاجز عن التعبير عن رايه : لا خوفا من القانون ولا خشية اثارة عدوان ذوى النفوذ ... وان كان القانون عندنا لا مثيل له فى اى بلد ديمقراطى من حيث تضييقه الخناق على اصحاب الراى .. وان كان ذوو النفوذ عندنا شديدى الحساسية الى حد يجعلهم يناصبون العدوان كل من يتناول اعمالهم بغير التحبيذ والاستحسان .

ولكن لان الصحف المصرية لم تعد ترحب باقلام الكتاب الذين يتميزون بلون سياسى خاص ولو كان هذا اللون هو لون الجريدة نفسها .. ويؤثرون ـ تجنبا للمضايقات الحكومية ـ ان يفسحوا صفحاتهم لمن يسمون انفسهم كتابا مستقلين لا يتقيدون براى معين ولا يتابعون سياسة خاصة .. بل يواجهون المسائل بما يسمونه لباقة وكياسة فيعالجونها بمرونة من غير ان يثيروا سخط من يهم الجريدة ان تنعم برضاهم ..

والصحف المصرية معذورة ولاسيما ما استقر منها واتسع نطاق انتشاره ، لان للصحافة ناحيتها الاقتصادية التى تلازم رسالتها الوطنية والتوفيق بين هاتين المصلحتين وان كان ميسورا فى معظم البلاد





الدكتور رياض شمس

الديمقراطية فانه يكاد يكون مستحيلا عندنا . . اذ لا بد للصحف ان تعتمد الى حد كبير على معاونة الحكومات القائمة وعطفها . . او على الاقل الا تناصبها العداء . . لان بيد السلطات المصرية ان تصادر الجريدة وان تحرمها الاعلانات الحكومية وان تمنع عن محرريها المعاونات الخاصة وان تجردها من الامتيازات الصحفية . وبيدها قبل هذا كله وفوق هذا كله ان توصد فى وجهها باب الاخبار . . . تختص بالاخبار الهامة الصحف الموالية وتحول دون ورود ممثلى الصحف الاخرى مناهل الاخبار فينضب معين الجريدة وينصرف عنها قراؤها ريثما تسترد عطف حكومة جديدة تختلف سياستها عن سياسة الحكومة السابقة . . !

وانه ليبلغ ببعض الحكومات المغالاة فى الانتقام من الصحف غير الموالية الى حد يمنعها فى ظل الاحكام العرفية من نشر اخبار تصرح بنشرها للصحف الاخرى . .

فالى ان تجىء الحكومة التى تشعر الصحف المصرية فى ظلالها بالمساواة التامة فى المعاملة من حيث تمكينها من موارد الاخبار والامتيازات الصحفية وحمايتها من التفرقة فى المعاملة بسبب تعبيرها عن راى يخالف لراى الحكومة او امتناعها عن ممالاة الحكومة فيما يختلف مع المصلحة العامة كما تراها الصحيفة . . والى ان تعدل احكام الباب الرابع عشر من الكتاب السابع من قانون العقوبات . . بحيث لا يتضمن جرائم برئت من مثلها شرائع العالم المتمدين كله منذ ثلاثة ارباع قرن او يزيد . . والى ان يتعلم الساسة المصريون ان حرية الراى شىء مقدس هو الزم الضرورات لتقدم البلاد ورفاهيتها فيحموا خصومهم فى الراى قبل حماية انصارهم لانهم لا يستطيعون ان يصلوا ببلادهم الى اهدافها الا مستهدين بآراء ناقديهم . الى ان يحين مثل هذا الوقت فانى ساعكف كما صنعت فى السنين الماضية على تاليف الكتب الخاصة من القانونيين والرجال المسئولين مبينا لهم فيها خطورة ما نكابده من كبت لحرية الراى وتكميم لافواه الخطباء وتحطيم لاقلام الكتاب يجعل الجو فى بلادنا خانقا مظلما هو اشد قتاما من الجو فى اعرق الدكتاتوريات المعاصرة . وابعد ما يكون عن جو الديمقراطية التى ليس لنا فى واقع الامر شىء يذكر من حقيقتها . .



تجارب البشر لها رائحة وطعم ولون الزمن

فى يوم قائظ من يونيو ١٩٤٢

وديع فلسطين

فى الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم قائظ من عام ١٩٤٢ حددت لى الجامعة الامريكية التى كنت أدرس الصحافة فيها موعداً لمناقشة رسالتى الجامعية التى اخترت لها عنوان «كيف تواجه مصر مشكلة ازدحامها بالسكان». وتم إخطارى بأن المناقشة تجرى فى القاعة الملحقة بمكتب رئيس الجامعة.

وفى الموعد المحدد، وقفت بباب القاعة وقد استبد بى قلق شديد، لأن نجاحى ثم تخرجى فى الجامعة يرتهنان بهذه المناقشة، ولما فتح الباب، دخلت القاعة حيث وجدت جميع الأساتذة وقد وقفوا فى لفتة تدل على احترامهم للطالب، ولم يستقروا فى مقاعدهم إلا بعد أن أذن لى بالجلوس. ونظراً لشدة الحر، وزعت فى القاعة عدة مراوح . ولم يكن التكييف معروفاً وقتها . لتلطيف الجو ومساعدة الطالب على استرواح شىء من الراحة.

وتأملت الأساتذة الجالسين حول المائدة وهم الدكتور تشارلس وطسن. أول رئيس للجامعة، والدكتور وندل كليلاند مدير قسم الخدمة العامة ولزلى نيكولز رئيس قسم الصحافة والدكتور ويرث هوارد . أستاذ الأدب الإنجليزى وعميد الكلية والدكتور رياض شمس . أستاذ قوانين الصحافة والدكتور فؤاد صروف . أستاذ علوم الصحافة، كل هؤلاء احتشدوا لمناقشتى، فقلت لنفسى: إنك هالك وابن هالك!

وبدأ رئيس الجامعة المناقشة، فسألنى عن سبب اختيارى لمشكلة ازدحام مصر بالسكان، فقلت له إن التعدادات الرسمية التى أجريت فى مصر اعتباراً من عام ١٨٠٠ دلت على أن عدد السكان نحو ٢.٥ مليون نسمة، ولكن عددهم تسارع فى الزيادة حتى وصل فى آخر تعداد أجرى فى عام ١٩٣٧ إلى ١٦ مليون نسمة. ولو استمرت الزيادة بهذه الوتيرة فالمستقبل ينذر بمخاطر مؤكدة، ولهذا رغبت فى تناول هذه المشكلة من جميع جوانبها مع اقتراح بعض الحلول للتخفيف من حدتها. وأعطى رئيس الجامعة الكلمة للدكتور وندل كليلاند الذى كان أول من أصدر كتابا باللغة الإنجليزية فى عام ١٩٣٧ عن مشكلة السكان فى مصر. فأصبح الخبير الاول فى هذا الموضوع. وتوقعت من الدكتور كليلاند أن يعصرنى عصراً بحكم تخصصه، ولكنه أثنى على الجهد الذى بذلته. بل قال إن رسالتى هى استكمال لكتابه. كما شكرنى على اهتمامى باتخاذ كتابه مرجعاً أساسياً فى بحثى. وانتقل زمام المناقشة بعد ذلك إلى بقية الأساتذة الذين قيموا الرسالة من حيث لغتها الإنجليزية ومنهاجها العلمى ووجهوا إلى بعض النصائح بروح أبوية حانية. وبانتهاء المناقشة بعد نحو ساعة، طلب منى مغادرة القاعة حتى يخلو الأساتذة إلى مداولاتهم. وبعد نحو ربع ساعة استدعيت إلى القاعة حيث هُنئت بالنجاح. وحرص جميع الأساتذة بدءاً من رئيس الجامعة على مصافحتى بحرارة، فأيقنت أن مصيرى كان فى أيد رحيمة ، وأن الأساتذة عاملونى كمربين أصفياء لا كجلادين قساة.

وبعد ذلك بست سنين، أى فى عام ١٩٤٨ طلبت منى الجامعة أن أقوم بتدريس علوم الصحافة على طلابها. فحرصت على أن أعاملهم جميعاً بهذه الروح الحانية نفسها كمرب مشفق على مستقبلهم وليس كأستاذ صارم الوجه يكاد يشمت فى رسوب طلابه. بل لقد كنت أحرص على مساعدة أى طالب أخشى عليه من التخلف، وأقدم له النصيحة والعون إلى أن يستقيم عوده.

وبعد هذا العمر، الذى أصبحت فيه أقدم مدرسى علوم الصحافة فى الشرق الأوسط كله لأن قسم الصحافة بالجامعة الأمريكية كان أول قسم متخصص فى تدريس علوم الصحافة فى المنطقة أحس براحة كبيرة كلما تلقيت هاتفاً من أحد طلابى أو طالباتى السابقين الذين شغلوا مناصب رفيعة فى الصحافة المصرية والعربية. وهم يذكروننى بأيام جميلة مضت حولت الصلة بين الأستاذ والطالب إلى زمالة عزيزة وصداقة مقيمة ■

أسماء الصحفيين الذين ستكرمهم النقابة : غدا اهـداء قـلادة الجمهورية إلى : أمين الرافعي

★ ٦,٣٠ مساء غد وفى جو من الفة الوفاء والذكرى الطيبة والتقدير لمن افنوا حياتهم من اصحاب القلم والراى الصحفى أو من روادها الأحياء : ستقيم نقابة الصحفيين بمقرها بالقاهرة حفلا دعت إليه سيدة مصر الأولى جيهان السادات والوزير منصور حسن لتكريم ٥٣ صحفيا وأسماء قادة الفكر الاعلامى وهم :

الشيخ محمد عبده وعبدالله النديم والشيخ رفاعة الطهطاوى ومحمد توفيق دياب وتادرس شنودة المنقبادى وحامد عبد العزيز وصلاح سالم ومحمد على رفاعي وكامل الشناوى وعلى بليغ وممدوح زاهر ومحمد الحناوى وصالح البهنساوى ومنيرة ثابت وعبد الحليم الغمراوى ويوسف السباعى وكمال الدين جلال وتوفيق صليب ومحمد عبد اللطيف ورياض شمس وحسن الشمسى واسماعيل الحبروك وسند ابادير واحمد قاسم جودة ونوال مدكور واحمد بهاء الدين وكامل زهيرى وفتحى الرملى وفتحية بهيج وعلى الغاياتى واحمد حسن الزيات وسلمى جوهر وحسين ابو الفتح وعزيز فهمى ورشاد الشبرابخومى وعبد العزيز جاويش وابراهيم عامر وانور سعيد وعبدالمنعم الصاوى وعلى حمدى الجمال ومحمد صبيح وكمال نجيب فهمى ولويس عوض وحسين فريد ومصطفى القشاشى وحسين فهمى ومحمد وجدى السيد ومحمود عبد العزيز محمود وحسن هلالى ومحمد مندور وابراهيم البعثى وابوالخير نجيب وعثمان ابو زيد .

صرح صلاح جلال : نقيب الصحفيين بان سيدة مصر الاولى : ستهدى الى أسرة الكاتب الحر الكبير : أمين الرافعى : قلادة الجمهورية . والتى كان الزعيم السادات قد قرر اهداءها إليه تقديرا فى الاحتفال بيوم الصحفى فى ٣١ مارس الماضى .

وستهدى النقابة : الوزير منصور حسن ميدالية الصحفيين الذهبية كما ستهدى ميداليات تذكارية الى المهندس حسب الله الكفراوى وزير التعمير وسعد مامون محافظ القاهرة ود . محمود امين عبد الحافظ : محافظ الجيزة وعبد الرحمن الشاذلى : رئيس بنك الاسكان والتعمير .

القاهرة ٧/١٢/٢٠٠٤

آخر حكماته قبل وفاته مازالت مطبوعة فى الصحف. دفاعا عن مصر. فقد توفى د. محمود عزمى مندوب مصر فى الأمم المتحدة وهو يلقى خطابه الأخير. أثناء شكوى إسرائيل فى مجلس الأمن حيث منعت مصر السفينة الإسرائيلية «بات جاليم» من عبور قناة السويس بعد أن أطلقت نيرانها على صيادين مصريين.

وكان د. محمود عزمى أستاذا جامعيا ومحاميا وكاتبا صحفيا. وهدد فى خطابه بدعوة الدول الموقعة على اتفاقية قناة السويس والتى تعترف بأن القناة مصرية. وانضم إليه جروميكو المندوب السوفييتى الشهير واستند إلى حججه القانونية الدولية وهدد بالفيتو. ومازالت آخر كلمات محمود عزمى باقية، منذ خمسين عاما وبالتحديد ٢ نوفمبر ١٩٥٤، حين قال:

- «إن مصر على حق. ومصر كانت ومازالت تؤثر التسامح. ومصر دائما على استعداد لتحقيق العدالة..».

وكثيرا ما حدثنى أستاذنا إحسان عبدالقدوس بذكرياته الغنية عن رائدين من رواد الصحافة عملا فى «روزاليوسف»، وهما: محمد التابعى ومحمود عزمى. وقد تراس محمود عزمى تحرير «روزاليوسف» حين أصبحت يومية عام ١٩٣٥. وكان معه أيضا عباس محمود العقاد، ود. رياض شمس المحامى والصحفى وصاحب أقوى كتاب عن «حرية الرأى وجرائم الصحافة والنشر» عام ١٩٥٠.

وكان محمود عزمى أستاذا فى الجامعة يشرف على أول دراسة أكاديمية عن حرية الصحافة عام ١٩٥٠. ومن ذكريات نقيبنا الأسبق حافظ محمود أنه اشتغل مع محمود عزمى فى جريدة «السياسة» فى

نصف الحقيقة



كامل زهيرى

> ولقد وضع عزمى أول مشروع لإنشاء نقابة للصحفيين، وكان مستشارا فى حكومة على ماهر، فصدر مشروع القانون ولكنه لم ينفذ لاستقالة

أن عزمى استقال من جريدة حزب الأحرار الدستوريين لاختلافه مع سياسة الحزب. وقد تخرج د. عزمى بعد دراسة القانون فى فرنسا، وكان من أوائل البعثة المصرية. وساعدته الثقافة القانونية وإجادته الفرنسية وسعة اطلاعه على الحماس للدفاع عن الحريات وحرية الصحافة. وله مقالات ومواقف دفاعا عن حرية التعبير والصحافة ومواقف من سلطة القصر الملكى، وقوانين توفيق نسيم ومحمد محمود وإسماعيل صدقى. وقد هاجم مصادرة الصحف وإغلاق المطابع لأن جرائم النشر ليست مثل تهريب المخدرات التى تقتضى مصادرة مادة الجريمة مع معاقبة الجانى. ولقد وضع عزمى أول مشروع لإنشاء نقابة للصحفيين، وكان مستشارا فى حكومة على ماهر، فصدر مشروع القانون ولكنه لم ينفذ لاستقالة حكومة المائة يوم، وتأجلت النقابة من ١٩٣٦ إلى ١٩٤١.

وكان أيضا داعية لإنشاء أول معهد للصحافة فى كلية الآداب بالقاهرة. وسمى جمعية الصحافة جمعية «الصحفيين» لأن العنصر البشرى أهم، وكان اختياره مندوبا لمصر فى الأمم المتحدة، فانتخب رئيسا للجنة حقوق الإنسان. وكتب بنفسه ميثاق أخلاق الصحافة وكان قد انتخب أيضا بإجماع الأعضاء. ومن «السياسة» إلى «روزاليوسف» إلى «الاستقلال» إلى «الأهرام» إلى الكاتب المصرى، ظل عزمى محامى الحريات العامة وحرية الصحافة واستقلال النقابة. ومازالت سيرة مواقفه تتنقل من جيل إلى جيل. فاطلقت نقابة الصحفيين منذ أكثر من ستين عاما اسم محمود عزمى على



بقلم

وديع فلسطين

أثاب الله كامل زهيرى الذى لا يفتأ يذكّر قراء بفضل أستاذنا الدكتور رياض شمس ذى لا يكاد الجيل الحاضر يعرفه أو يذكره ع أن له أيادى سخية على الصحافة بدفاعه قانونى والأكاديمى عن قيمها وحرياتها .

عرفت الدكتور رياض شمس للمرة الأولى طالب فى قسم الصحافة بالجامعة الأمريكية عندما جاءنا كأستاذ قانون يعلمنا قوانين لصحافة بحكم تخصصه بل تبحره فى هذا لباب . والطلاب عادة يتهيبون الأستاذ الجاد لصارم الذى يلقى محاضراته عليهم جـفـاف وكأنها طلقات مدافع ، ولكن لدكتور رياض شمس كان يخفف من وطأة لنظريات القانونية بسرد أمثلة من التجارب لصحفية ، سواء فى الخارج أو فى الداخل ، حتى يقرب إلى أفهامنا أدغال قوانين لصحافة ، وكان يقول لنا إن هدفه الأسمى هو أن يجنب أيا من طلابه محنة دخول لسجن فى قضية صحفية ، لأن الصحافة معرضة دائما للاصطدام مع جهات كثيرة فى تناولها لقضايا المجتمع وشؤون الحياة اليومية . فلابد للصحفى من أن يلم بالقوانين ليتدرع بها من دخول الزنازين والمعتقلات ، وإن كان قد اعترف لنا بأن ثقافته القانونية لم تحل دون دخوله هذه المعتقلات بسبب نشاطه السياسى فى حزب الوفد الذى كان ينتمى إليه .



ومازلت أذكر مما قاله لنا من مزالق الكتابة فى الصحف أن صحفياً وصف وزيراً بأنه «دعى» فأقام الوزير قضية عليه يتهمه فيها بالقذف فى حقه لأن من المعانى القاموسية للفظة «الدعى» المنسوب لغير أبيه ، أى اللقيط ! وهكذا تحولت هذه اللفظة البريئة المظهر إلى جناية تورد صاحبها المهالك . ولكن القاضى البصير برأ الصحفى لأن قارئ الصحيفة لا يفتش فى القواميس عن معانى كل لفظ يقع عليه فى جريدته ، وإنما يقرأ الجريدة قراءة عجلى ويأخذ الألفاظ بظاهر معناها لا بمعانيها المدفونة فى القواميس.

ولم نكن وقتها نعرف الفرق بين السب والقذف ، وكنا نعتبرهما لفظتين مترادفتين ، فنبهنا الدكتور رياض شمس إلى أن هناك فرقاً لا لفظياً بينهما وإنما هناك فرق قانونى بينهما أيضاً . فالسب هو أن تشتم شخصاً بأى صفة عامة من صفات المهانة ، كأن تقول عنه إنه جاهل أو حمار ، وهى صفات تستعصى على الإثبات ، فكيف تثبت مثلا أن شخصاً حمار ؟ أما القذف فهو أن تتهم شخصاً بتهمة يمكن إثباتها أو نفيها ، كأن تقول عنه إنه سارق أو مختلس أو مرتش ، فيتعرض الصحفى للإدانة إذا ثبتت براءة الشخص من هذا الاتهام ، أو يتعرض للبراءة إذا ما أدين الشخص بهذه التهمة.

وكان الدكتور رياض شمس يلقى محاضراته بلغة عربية سليمة لا يجنح فيها إلى العامية، كما كان يتوقف فى الحين بعد الحين ليشرح لنا قاعدة لغوية حتى لا نخطئ فيها . ومن طريف ما قاله لنا عن تمييز العدد إن العدد من ٣ إلى عشرة هو عملية زواج فى التمييز ، فإذا كان العدد يتعلق بمذكر تم تأنيثه ، وإذا كان يتعلق بمؤنث تم تذكيره ، مثل خمسة رجال أو خمس نساء . وهكذا رسخت هذه القاعدة فى أذهاننا دون أن نراجع كتب النحو والصرف .

ولأن الدكتور رياض شمس كان يلقى محاضراته باللغة العربية فى حين كان يزاملنا فى القسم طلاب من أصول أجنبية لا يتقنون اللغة العربية ، فقد وقع اختياره علىّ لكى أقوم بترجمة كل محاضرة إلى

اللغة الإنجليزية لفائدة هؤلاء الطلاب ، ولما كنت أجهل مصطلحات القانون باللغة الانجليزية ، رجوته أن يدلني عليها فأملى على قائمة بهذه المصطلحات لأستعين بها فى عملية الترجمة التى كنت أتضرر منها لأنها تجور على وقت أحتاج إليه فى متابعة دروسى . وهذا العمل «البغيض» الذى أديته نزولاً على تعليمات أستاذى أفادنى فيما بعد عندما اخترت كبيراً للمترجمين القانونيين فى إحدى قضايا التحكيم الدولى المنعقدة فى جنيف .

وكان الدكتور رياض يحرص على متابعة طلابه حتى بعد تخرجهم . وعندما انتخب عضواً فى البرلمان عن دائرة عابدين ، أقمنا له حفل تكريم فى نقابة الصحفيين القديمة فى شارع قصر النيل ، محل عمارة وهبة الآن ، وسألناه عما إذا كان يحب دعوة أحد من أصدقائه ، فأشار بدعوة صديقه الزعيم السودانى إسماعيل الأزهرى ، وصديقه المحامى (الأحمر) زهير صبرى العضو فى البرلمان ، وألقيت فى هذا الحفل كلمة قلت فيها إن الدكتور رياض شمس جمع بين الصحافة والفصاحة والحصافة !

أنت ناقدى الوحيد !

وعندما أسند إليه الإشراف على تحرير إحدى صحف الوفد - ولعلها «الوفد المصرى» - رحب بأن يفسح صدر الجريدة لنشر مقالاتى التى لم يعترض على أى منها ، وبفضله نشرت مقالا عن كتاب «قنديل أم هاشم» ليحيى حقى (١٩٠٥ - ١٩٩٢) - ولم أكن أعرفه وقتها - فلما قدمنى إليه أستاذنا محمود محمد شاكر (١٩٠٩ - ١٩٩٧) بعد ذلك قال لى : «أنت ناقدى الوحيد» ، وهى عبارة ظل يذكرنى بها كلما التقيت به بعد ذلك فى سنوات طويلة.

وللدكتور رياض شمس كتابان هما عمدة فى كتب القانون ذياداً منه عن الحريات بصورة عامة والحرية الصحفية بصورة خاصة هما «الحرية الشخصية فى التشريع الجنائى المصرى» الذى نشره أصلاً باللغة الفرنسية بمقدمة للبروفسير ألبير شيرون الأستاذ بجامعة استراسبورج وصدرت طبعته العربية فى عام ١٩٣٤ بمقدمة للأستاذ على بدوى الذى صار نقيباً للمحامين فيما بعد . أما الكتاب الثانى فهو يقع فى جزءين بعنوان «حرية الرأى وجرائم الصحافة والنشر» وقد صدر فى عام ١٩٤٧ ، وهو فى اعتقادى خير ما يسترشد به فى المساعى الحالية لتعديل قوانين الصحافة والنشر التى تنزل عقوبات بدنية على الصحفيين .

وكان الدكتور رياض شمس يحتفظ بمخطوطتين كبيرتين لم يتح له نشرهما فى حياته ولا نشرتا بعد وفاته ، والمخطوطة الأولى جمع فيها حكماً وأقوالاً ومواقف إنسانية كثيرة من مراجع أجنبية وعربية

١٣٧

محرم ١٤٢٦هـ - مارس ٢٠٠٥م

حول قيم الصداقة والصديق . أما المخطوطة الثانية ، فقد دون فيها خواطر أخلاقية وفلسفية منذ شبابه الأول وحتى تاريخ وفاته فى ٢٢ مارس ١٩٧٧ عن ٧٧ عاماً ، فهو من مواليد ١٥ أغسطس ١٩٠٠ . وهو قد عمل فترة فى حياته فى المحاماة ، ولكنه تبين أن عهد المرافعات القانونية البليغة انتهى وأن المحاكم تقتصر على المذكرات يقدمها محامو الخصوم، فى حين كان هو ينطلق فى المرافعات باقتدار ، فانسحب من ميدان لم يجد نفسه فيه.

هذا وقد سجل الدكتور رياض شمس غاياته من تأليف كتابيه عن الحريات بقوله : «وغاية ما نرجوه أن يجد أصحاب الرأى فى هذا المؤلف ما يسهل لهم التمتع بكامل حقوقهم الدستورية والقانونية من غير تعرض لمجاوزة الحدود المرسومة ، وأن يشعروا بأن الشارع المصرى لم يكن متسامحاً فيما يختص بحرية إعلان الرأى ، إذ مازال المصريون خاضعين لمواد تحرر من ربقتها القانون الفرنسى والتونسى منذ خمسة وستين عاماً ، فيعملوا على إقناع الرأى العام وممثليه فى البرلمان بضرورة التخلص من المواد الرجعية ، والنزول بالعقوبات المبالغ فيها إلى الحد المعقول ، وجلاء ما يكتنف النصوص من غموض وعدم تحديد ، وحياطة النظر فى قضايا إعلان الرأى بسياج من الوقاية تستلزمه طبيعتها الخاصة. فإذا تحققت أغراضنا ، تمكن الصحفيون وقادة الرأى من أداء مهمتهم الجليلة ، واستطاعت الحكومة والهيئات النظامية والموظفون والرجال العاملون أن يطمئنوا إلى توافر هيبتهم وكرامتهم ، وتهيأ للمجتمع أن يسعد بمبادئه ومعتقداته ، وتيسر للمواطن أن يعرف ما تمس إليه حاجته من المعلومات التى لا غنى عنها له فى التزود بها ليتمتع بحقوقه الخاصة ويؤدى واجباته العامة».

وهذه رسالة تركها الدكتور رياض شمس للأجيال المتتابعة التى تحمل القلم فى ميادين الصحافة والنشر ، وما أحوجنا إليها اليوم.

١٣٨

محرم ١٤٢٦هـ - مارس ٢٠٠٥م

وانطفأ شعاع من أشعة الحرية .
وهوى علم من أعـــلام المحاماة .
فقد مـــات المغفور له :

الأستاذ الدكتور رياض شمس المحـــامى

عرفته الحرية رائدا ... فقدم لها التضحية قربانا .
ضمه السجن والعذاب ... وصادف الظلم أشكالا وألوانا .
عرفته المحاماة علما ... خير مدافع قدرة وبيانا .
عرفته الصحافـة قلمـــا ... يدك الظلم ويحطم الاغلالا .
مجلة المحاماة تعرفه ... فكرا ورأيا يغذيهـــا .
فهذه صفحاتها منكسة ... تقطر حزنا على من كان يشريها .
مـــات رياض شمس ....

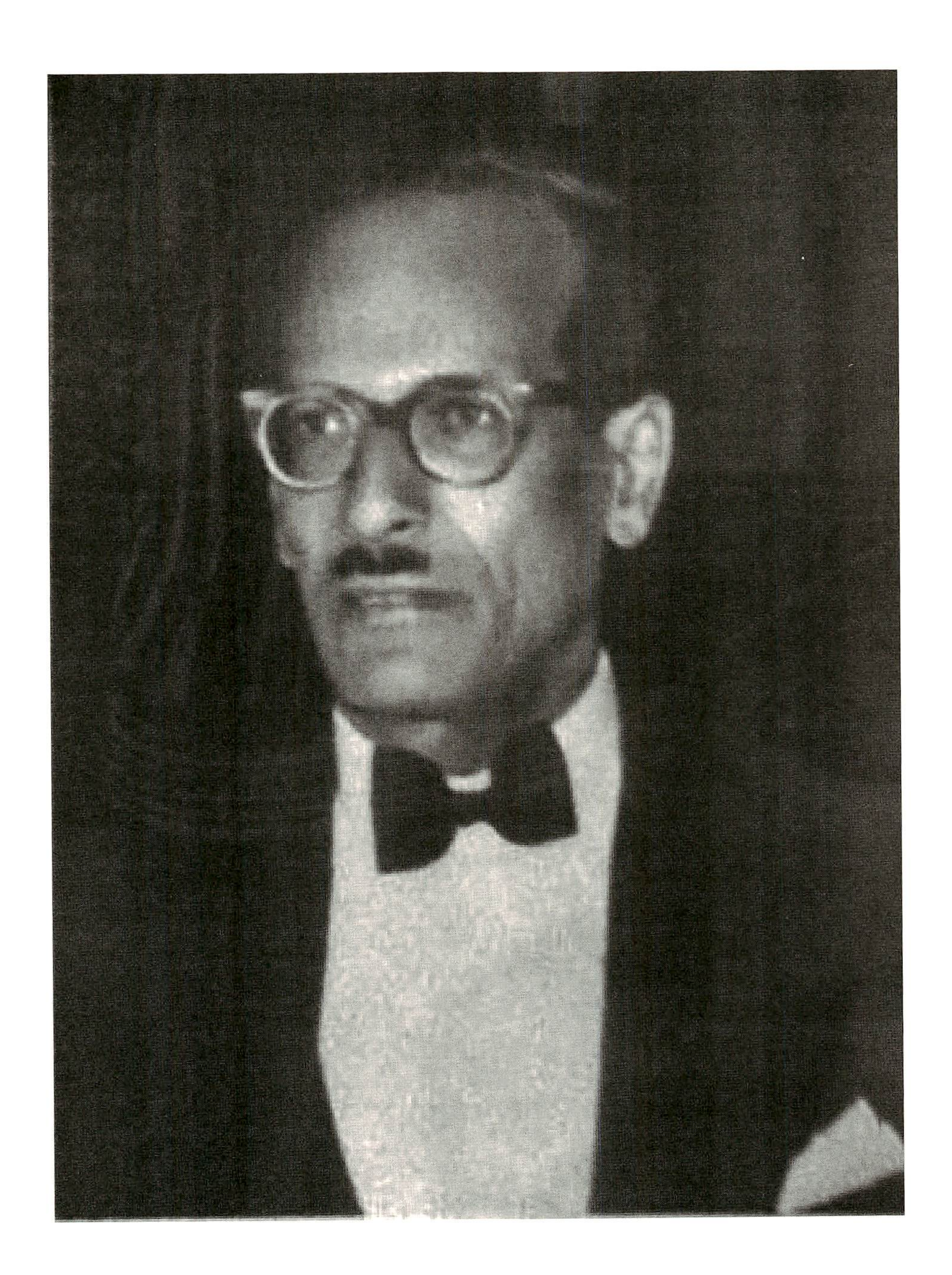
وعزاؤنا أن مصر الخالدة حية فى الموتى من أبنائها ، كما هى حية فى المجاهدين من أحيائهـــا ...

عصمت الهوارى
المحـــامى

23 Mars 1977
مجلة المحاماة

الدكتور رياض شمس

- حمل القلم مدة ربع قرن مدافعا عن الحرية فى كل الأوقات
- عمل فى صحف الجهاد والبلاغ والمصرى والأهرام
- كان أحد اثنين نالا شرف دخول السجن لارتكاب ما سمى بالعيب فى الذات الملكية عام ١٩٣٧
- تولى تدريس قوانين الصحافة فى الجامعة الامريكية وكان المصرى الوحيد فى ذلك الوقت
- الف كتابين عن حـــرية الرأى والصـــحافة همـــا : ١ ـ الحـــرية الشخصية فى التشريع الجنائى المصرى ٢ ـ حـــرية الرأى وجـــرائم الصحافة والنشر .
- أول من طالب بإلغاء الحبس الاحتياطـــى فى جـــرائم النشر وهـــو ما أخذ به بعد ٢٣ سنة فى قانون الصحفيين الصادر عام ١٩٧٠
- إستمر فى خدمة الصحافة والدفاع عن الحريات فى كل مـــا شـــارك فيه خصوصا عندما عمل مدرسا بكلية الشرطة أو ممثلا للدائرة عابدين فى برلمان ١٩٥٠
- شارك فى عضوية اللجنة التشريعية ورأس لجنة شئون الســـودان وإختير عضوا باللجنة الخاصة التى شكلت لالغاء معاهدة ١٩٣٦ .




BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية